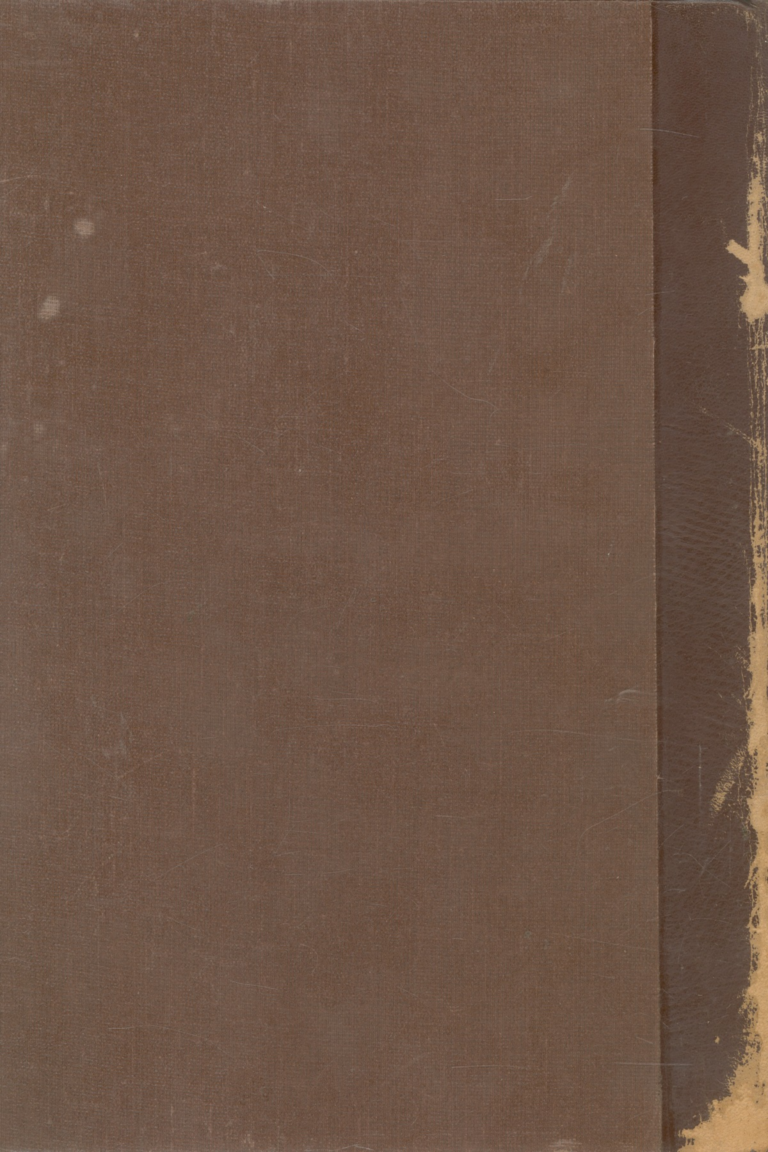
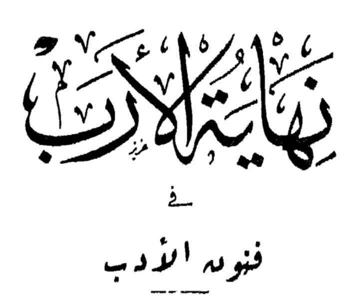


تراثنا



فى

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

---

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

السفر الأول

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والارشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة لكتب التراث العربى

بقلم السيد الدكتور محمد عبد القادر حاتم

وزير الثقافة والإرشاد القومى

إن الأمم العظيمة لا ترضى، ولا تستطيع، أن تنسلخ عن تاريخها، وتاريخها هو وعاء ثقافتها وحضارتها، فى حقب هذا التاريخ نشأت ونمت وتطورت، واجتازت محنا، وحققت مجدا. وكما أن سجل هذه الأحداث تشهد به الآثار الباقية من عمارة ومشروعات فإن الكلمة المكتوبة كانت منذ قديم سجلا لتراث الأمم، سردا لتاريخها، وتصويرا لآمالها وعواطفها شعرا ونثرا، وتسجيلا للآراء السائدة فى عصورها المختلفة، مما يرتفع أحيانا الى مرتبة الحكمة والمذهب الفلسفى، ومما لا يزيد على أن يكون خطرات لأفراد .

ونهضتنا الحاضرة، التى انبثقت فى جميع ميادين الحياة، منذ فجر ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، لم تتنكر لماضى أمتنا العربية، ولم تغفل تراثنا الاسلامى العريق . ففى الوقت الذى تعمل فيه على التطور تحت راية العلم، وفى ركبه الزاحف، ترعى تراثها العريق الذى كانت أشعته تضىء ظلام العالم فى أيام ازدهار ماضينا .

فكما أن رئيسنا وقائد ثورتنا يعلن فى " الميثاق الوطنى " أن العلم هو السلاح الحقيق للإرادة الثورية، ومن هنا الدور العظيم الذى لابد لجامعات ولمراكز العلم على مستوياتها المختلفة أن تقوم به ..... والعلم هو السلاح الذى يحقق النصر الثورى، يعلن كذلك أن العمل العظيم الذى تمكن الشعب من إنجازه بالثورة الشاملة ذات

الاتجاهات المتعددة، قد تحقق بفضل ضمانات تمكن النضال الشعبى من توفيرها ، ومنها وعيه العميق بالتاريخ وأثره على الإنسان المعاصر من ناحية، ومن ناحية أخرى لقدرة هذا الإنسان على التأثير فى التاريخ؛ ومنها إيمان لا يتزعزع بالله، وبرسله ، ورسالاته القدسية التى بعثها بالحق والهدى إلى الإنسان فى كل زمان ومكان .

وأن مشعل الحضارة انتقل من بلد إلى بلد ، لكنه فى كل بلد كان يحصل على زيت جديد يقوى به ضوءه على امتداد الزمان .

وأن شعبنا ، إلى جانب ما قام به من تحمل المسئولية المادية والعسكرية فى صد أول موجات الاستعمار الأوربى ، ورد غزوات التتار ، قد تحمل كذلك المسئولية الأدبية فى حفظ التراث الحضارى العربى وذخائره الحافلة .

وأنه يتعين علينا أن نذكر دائما أن الطاقات الروحية التى تستمدها الشعوب من مثلها العليا النابعة من أديانها السماوية ، أو من تراثها الحضارى ، قادرة على صنع المعجزات .

وفى ضوء هذه التوجيهات تقوم المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بمساهمتها فى نشر التراث العربى، كجزء من برامجها التى تساهم فيها بنشر الثقافة الحديثة بجميع فروعها .

وهى فى ذلك تقدم هذه الخدمة الثقافية للأمة العربية فى جميع أجزاء الوطن العربى الكبير، فإن هذا التراث ثمرة العقول العربية فى خمسة عشر قرنا من الزمان، وفى جميع الوطن العربى من غربيه إلى شرقيه، ومن شماليه إلى جنوبيه ، متضمنا ما كتبه أسلافنا فى إفريقيا وآسيا وأوروبا نفسها فى الأندلس العظيمة .

وحسبنا فى بيان أهمية هـذا التراث أنه باللغـة العظيمة التى تجمعنا — نحن العرب جميعا — وأنه يتصل بتاريخنا ، نحن العرب جميعا .

فلقد قال الرئيس جمال عبد الناصر فى " الميثاق الوطنى " :

" يكفى أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل ...

ويكفى أن الأمة العربيـة تملك وحدة التاريخ التى تصنع وحدة الضمير والوجدان " .

والله الموفق فيما نقصد وما نعمل .

الدكتور
محمد عبد القادر حاتم

القاهرة فى { المحرم سنة ١٣٨٣ هـ
يونيه (حزيران) ١٩٦٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب "نهاية الأرب"

تصدير

إن كتاب "نهاية الأرب، فى فنون الأدب" كتاب جامع لفنون شتى للأدب بأوسع معانيه فى عِدّة أجزاء . فهو يتحدّث عن السماء وما آنتظمت ، والأرض وما أقلّت ، وعن الإنسان والحيوان والنبات ، وعن أحداث التاريخ، كما يعرض لفنون الطب المعروفة لعهد مؤلفه .

وهو فى ثنايا ذلك يذكر نُقولا عن مؤلفين قدماء لم تصل إلينا كتب بعضهم ، و بذلك يحفظ لنا بعض الأصول الأدبية التى فقدناها .

ومؤلف هذه الموسوعة هو العالم المِصرى شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النُّوَيْرِى، نِسبةً إلى : (نُوَيْرة) قرية من قرى بنى سويف، بصعيد مِصر . وقد عمِل للملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٧٧ — ٧٣٣ هـ) وناب عنه .

وقد شرعت دار الكتب المصرية فى نشر هذا الكتاب الكبير منذ سنة ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٣ م ، ومضت فى إخراج أجزائه تباعا، حتى أنجزت منه الجزء الثامن عشر فى سنة ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .

وحين تسلمت المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، هذا الكتاب من دار الكتب المصرية ، فيما تسلمته من الكتب الأخرى التى آنتقل العمل فى تحقيقها ونشرها من دار الكتب للمؤسسة ، كانت ثمة أجزاء باقية منه لم تُحقّق وتبلغ أربعة عشر جزءا .

ولما كانت الأجزاء التى طبعت من الكتاب قد نفدت منذ زمن طويل؛ فإن المؤسسة، فى الوقت الذى تقوم فيه بتحقيق ما بقى من الكتاب ونشره، ستعيد طبع الأجزاء السابقة ، لتكون جميع الأجزاء فى متناول يد القراء .

وبما أنه لم تظهر مخطوطات جديدة للكتاب ، تقتضى تعديلا فى الأجزاء التى صدرت عن دار الكتب المصرية — فيما عدا الجزءين السابع عشر والثامن عشر — فإن المؤسسة آتبعت فى نشر الكتاب ما يأتى :

(١) تصوير ما طبع من أجزاء الكتاب، مع إضافة التصويبات التى كشفت عنها المخطوطتان الجديدتان فى الجزءين السابع عشر والثامن عشر .

(٢) تحقيق الأجزاء الباقية من الكتاب على يد الأساتذة المتخصصين .

(٣) وضع فهارس فنية للأجزاء الجديدة، على أن تضم إليها فهارس الأجزاء التى سبق طبعها، لتخرج كلها فهرسا موحدا .

وكانت دار الكتب قد رسمت لتحقيق الكتاب خطة فيما يتعلق بالأخبار الصريحة ، فخلصت طبعتها منها ، لتضمنها طبعة خاصة . وقد سارت المؤسسة على هذه الخطة ، وسوف تجمع هذه الأخبار فى مجلد مستقل يشار فيه إلى مواضعها من الكتاب .

والمؤسسة ترجو بنشر هذا الكتاب كاملا أن تكون قد قامت بخدمة إحياء تراثنا العربى الذى يربط ماضينا المجيد ، بحاضرنا العتيد، ومستقبلنا المرجو ؛ وأن تكون قد يسرت للقراء فى الأمة العربية ولغيرهم من المهتمين بالأدب العربى، سبيل الحصول على كنز من الكنوز التى كانت دفينة، فى طبعة تجمع بين الدقة العلمية والإخراج الفنى ، والثمن الميسر . وعلى الله قصد السبيل »

١١ / ٣ / ١٣٨٣ هـ	المؤسسة المصرية العامة
١ / ٨ / ٩٦٣ .	للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر — ٤٤١١٨
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) الحمد لله رافع السماء وفاتق رتْقها ، ومُنشئ السَّحاب ومُوكِف وَدْقها ، ومُجرى الأفلاك ومُدبِّرها ، ومُطْلِع النّيِّرات ومُكَوِّرها ، ومُرسِل الرياح ومُسخِّرها ، ومُزيّن سماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحافظها عند استراق السمع بإرسال الشُّهب الثواقب ، وهادى السارى بمطالع نجومها فى ظُلَم الغياهب ، وجاعل الليل سَكَنًا ولباسا ، ومُبدّل وحشة ظَلْمائه بفلَق الإصباح إيناسا ، وماحى آيته بآية النهار المُبْصِره ، ومُذهب دُجُنّته بإشراق شمسه النيّره ، و باسط الأرض فِراشا ومِهادا ، ومُرسى الجبال وجاعلها أوتادا ، ومُفجّر العيون من جوانبها وخلالها ، ومُضحِك ثغور الأزهار ببكاء عيون الأمطار وانهمالها ، ومُكرِّم بنى آدمَ بتفضيلهم على كثير من خَلْقه ، ومُذلِّل الأرض لهم ليمشُوا فى مناكبها وليأكلوا من رزقه ، وحاملِهم على ظهر اليمِّ فى بطون الجوارى المُنْشآت ، ومُعوِّضهم عن أعواد السُّفُن غواربَ اليَعْمَلات[1] . خالق كلّ دابّة من ماء وأودعها من خفىّ حِكَمه ما أودع ، و باين بين أشكالهم (فمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِه ومِنْهُم مَنْ يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ومِنْهُم مَنْ يَمْشِى عَلَىٰ أَرْبَعٍ) . وهدى الطير إلى ما اتخذته من الأوكار واتَّخذ لها من المبانى ، وجعلها من رسائل المنايا و وسائل الأمانى .

أحمده على نعمه التى كم أوْلَتْ من مِنّه ، ومِنَنِه التى كم والَت من نِعمه ، وأشكره على ألطافه التى كم كشفت من غُمّه ، وأزالت من نِقْمه .

---

(١) اليعملة (بفتح الياء والميم) الناقة النجيبة المعتملة المطبوعة والجمل يَعْمَلٌ . وهو اسم لا وصف .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادةَ عبدٍ نطق بها لسانُه وقلبُه ، وأَنِس بها ضميره ولُبُّه .

وأشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه ، الذى جُعلت له الأرضُ مسجدا وترابُها طَهُورا ، وأُنزل عليه : ﴿ يَأَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ومُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ . صلّى الله وسلّم عليه وعلىٰ آله الذين رَقُوا بنسبهم إليه أعلىٰ المراتب ، وتسنّموا من ذِرْوَة الشرف والثناء كاهلَ الكواكب ، وعلىٰ أصحابه الذين آتّطدت بهم قواعد الشريعة وعلا منارُها ، وهُدِمت معاقلُ الكفر وعفَتْ آثارُها ، وأنفقوا من قَبْل الفتح وقاتلوا ، وجالدوا فى دين الله وجادلوا : صلاةً ترفع منار قائلها ، وتُرسِل عليه سحائب المغفرة بوابلها !

وبعـد ، فمن أَوْلىٰ ماتدبّجت به الطروس والدفاتر ، ونطقت به ألسنة الأقلام عن أفواه المحابر ، وأصدرته ذوو الأذهان السليمه ، وآنتسبت إليه ذوو الأنساب الكريمه ، وجعله الكاتب ذريعةً يتوصّل بها إلىٰ بلوغ مقاصده ، ومَحَجّةً لا يَضِلُّ سالكها فى مصادره وموارده : فنُّ الأدب الذى ما حلّ الكاتب بِواديه ، إلّا وعَمَرت بَوَاديه ، ولا وَرَدَ مشارعه ، إلّا وآستعذَبَ شرائعه ، ولا نَزَل بساحته إلّا وآتّسعت له رحابها ، ولا تأمّل مشكلاته إلّا وتبيّنت له أسبابها .

وكنتُ ممّن عدل فى مبادئه ، عن الإلمام بناديه ، وجعل صناعة الكتابة فَنَّه الذى يستظلّ بوارفه ، وفنَّه الذى جُمِع له فيه بين تليده وطارفه . فعرَفتُ جليَّها ، وكشفتُ خفيَّها ، وبسطتُ الجرائد[1] ونظمتُ منها الآرتفاع ، وكنتُ فيها كُموقد نارٍ علىٰ

(١) لعلها : الجرائد . أى جرائد الحسبانات التى يستخرج منها الآرتفاع أى مقدار الإيراد . وبقية الكلام تدل علىٰ ذلك لأنه آستعار آصطلاحات أهل الحساب .

يفَاع . وآسترفعتُ القوانين ، ووضعتُ الموازين ، وعاينتُ المُقْتَرَحات . وآعتمدتُ على المقايسات ، وفذلكتُ على الأصل وما أُضيف إليه ، وحررتُ مابعد الفَذْلَكة فكان العمل على ما آستقرَّت الجملة عليه ، وآستخرجتُ وحصّلت ، وجمّلتُ من عرضه وخصّلت ، وسُقتُ الحواصل ، وأوردتُ المحاسيب وفذلكتُ على الواصل ، وطردتُ ما آنساق إلى الباقي والموقوف ، ونضّدتُ شواهد المصروف ، وشطبتُ شواهد الآرتفاع ، وقرنتُ أعمال المبيع بالمبتاع ، وآستوفيتُ أعمال الآعتصار وتوالى الغلّات ، وتأمّلتُ سياق الأصناف والآلات ، ونظرتُ في سياقات العلوفات والعوامل ، وأجبتُ عن المُخْرَج والمردود فأعجزتُ المُناظر والمُناضل ، وأتقنتُ مواد هذه الصناعه ، وتاجرتُ فيها بأنفس بضاعة .

ثمّ نبذتُها وراء ظهري ، وعزمتُ على تركها في سِرّي دونَ جَهْري ؛ وسألتُ الله تعالى الغُنْيَة عنها ، وتضرّعتُ إليه فيما هو خيرٌ منها . ورغبتُ في صناعة الآداب وتعلّقتُ بأهدابها ، وآنتظمتُ في سلك أربابها ، فرأيتُ غرضى لا يتمّ بتلقيها من أفواه الفضلاء شفاها ، ومَوْرِدى منها لا يصفو مالم أُجرّد العزم سفاها .

فآمتطيتُ جواد المطالعه ، وركضتُ في ميدان المراجعه . وحيث ذلّ لى مَرْكَبُها ، وصفا لى مشرَبها ، آثرتُ أن أُجرّد منها كتابا أستأنِسُ به وأرجعُ إليه ، وأُعوّل فيما يعرِض لى من المهمّات عليه . فآستخرتُ الله سبحانه وتعالى وأثبتُّ منها خمسة فنون حَسَنة الترتيب ، بيّنة التقسيم والتبويب : كلُّ فنّ منها يحتوى على خمسة أقسام .

الفن الأوّل

فى السماء والآثار العُلويّة ، والأرض والمعالم السُّفليّة

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأوّل — فى السماء وما فيها .

وفيه خمسة أبواب : ٥

الباب الأوّل — فى مبدإ خلق السماء .

الباب الثانى — فى هيئتها .

الباب الثالث — فى الملائكة .

الباب الرابع — فى الكواكب السبعة .

الباب الخامس — فى الكواكب الثابتة . ١٠

القسم الثانى — فى الآثار العُلويّة .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأوّل — فى السَّحاب ، وسبب حدوثه ، وفى الثلج ، والبَرَد .

الباب الثانى — فى الصواعق ، والنَّيَازك ، والرعد ، والبرق .

الباب الثالث — فى أُسْطُقُسّ الهواء . ١٥

الباب الرابع — فى أُسْطُقُسّ النار ، وأسمائها .

القسم الثالث — فى الليالى ، والأيام ، والشهور ، والأعوام ، والفصول ، والمواسم ، والأعياد .

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأوّل — فى الليالى ، والأيّام . ٢٠

الباب الثانى — فى الشهور، والأعوام.

الباب الثالث — فى الفصول.

الباب الرابع — فى المواسم، والأعياد.

القسم الرابع — فى الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون.

وفيه سبعة أبواب :

الباب الأوّل — فى مبدإ خلق الأرض.

الباب الثانى — فى تفصيل أسماء الأرض.

الباب الثالث — فى طول الأرض، ومساحتها.

الباب الرابع — فى الأقاليم السبعة.

الباب الخامس — فى الجبال.

الباب السادس — فى البحار، والجزائر.

الباب السابع — فى الأنهار، والغُدْران، والعيون.

القسم الخامس — فى طبائع البلاد، وأخلاق سكّانها، وخصائصها، والمبانى القديمة، والمعاقل، والقصور، والمنازل.

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأوّل — فى طبائع البلاد، وأخلاق سكّانها.

الباب الثانى — فى خصائص البلاد.

الباب الثالث — فى المبانى القديمة.

الباب الرابع — فيما وُصفَتْ به المعاقل.

الباب الخامس — فيما وُصفَتْ به القصور، والمنازل.

الفن الثانى

فى الإنسان وما يتعلّق به

ويشتمل على خمسة أقسام:

القسم الأوّل — فى آشتقاقه، وتسميته، وتنقّلاته، وطبائعه، ووصف أعضائه، وتشبيهها، والغزل، والنّسيب، والمحبة، والعشق، والهوى، والأنساب.

وفيه أربعة أبواب:

الباب الأوّل — فى آشتقاقه، وتسميته، وتنقّلاته، وطبائعه.

الباب الثانى — فى وصف أعضائه، وتشبيهها، وما وُصِف به طِيب الرِّيق، والنَّكهة، وحسن الحديث والنَّغمة، وآعتدال القُدُود. ووصف مشى النساء.

الباب الثالث — فى الغزَل، والنسيب، والهوى، والمحبّة، والعشق.

الباب الرابع — فى الأنساب.

القسم الثانى — فى الأمثال المشهورة عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم). وعن جماعة من الصحابة (رضى الله عنهم). والمشهور من أمثال العرب، وأوابد العرب، وأخبار الكَهَنة، والزجر، والفأل، والطِّيَرة، والفراسة، والذّكاء، والكنايات، والتعريض، والأحاجىّ، والألغاز.

وفيه خمسة أبواب:

الباب الأوّل — فى الأمثال.

الباب الثانى — فى أوابد العرب .

الباب الثالث — فى أخبـار الكَهَنة ، والزجْر، والفأل، والطِّيَرَة، والفِرَاسة، والذَّكاء .

الباب الرابع — فى الكنايات، والتعريض .

الباب الخامس — فى الأحاجىّ، والألغاز .

٥

القسم الثالث — فى المـدح، والهجو، والمُجُون، والفُكاهات، والمُلَح، والخمر، والمعاقرة، والنُّدمان، والقِيان، ووصف آلات الطرب .

وفيه سبعة أبواب :

١٠

الباب الأول — فى المدح .

وفيه ثلاثة عشر فصلا ، وهى :

حقيقة المدح، وما قيل فيه .

ما قيل فى الجُود، والكرم، وأخبار الكرام .

ما قيل فى الإعطاء قبل السؤال .

ما قيل فى الشجاعة، والصبر، والإقدام .

١٥

ما قيل فى وُفور العقل .

ما قيل فى الصدق .

ما قيل فى الوفاء، والمحافظة .

ما قيل فى التواضع .

ما قيل فى القناعة، والنزاهة .

٢٠

الباب الثالث — فى المُجون، والنوادر، والفُكاهات، والمُلَح .

الباب الرابع — فى الخمر، وتحريمها، وآفاتها، وجناياتها، وأسمائها. وأخبار مَن تنزّه عنها فى الجاهليّة، ومن حُدّ فيها من الأشراف، ومَن اشتهر بها، ولبس ثوبَ الخَلاعة بسببها . وما قيل فيها من جيّد الشعر، وما قيل فى وصف آلاتها، وآنيتها، وما قيل فى مبادرة اللذّات، وما وُصفت به المجالس، وما يجري هذا المجرىٰ.

٥

الباب الخامس — فى النُّدمان، والسُّقاة .

الباب السادس — فى الغِناء، والسَّماع، وما ورد فى ذلك من الحَظْر والإباحة، ومَن سمع الغِناء من الصحابة (رضوان الله عليهم) والتابعين، والأئمة، والعُبّاد، والزُّهّاد، ومَنْ غنَّى من الخلفاء، وأبنائهم، والأشراف، والقوّاد، والأكابر، وأخبار المُغنّين ممن نقل الغناء من الفارسيّة إلىٰ العربيّة .

١٠

١٥

الباب السابع — فيما يَحتاج إليه المُغنّى، ويُضطَرّ إلىٰ معرفته، وما قيل فى الغِناء، وما وُصفت به القِيان، وما وُصفت به آلات الطرب .

القسم الخامس — فى المَلِك، وما يُشترَط فيه، وما يَحتاج إليه، وما يجب له على الرعيّة، وما يجب للرعيّة عليه. ويتّصل به ذكر الوزراء، وقادة الجيوش، وأوصاف السلاح، ووُلاة المناصب الدينيّة، والكتّاب، والبُلَغاء.

وفيه أربعة عشر بابا:

الباب الأوّل — فى شروط الإمامة: الشرعيّة، والعرفيّة.

الباب الثانى — فى صفات المَلِك وأخلاقه، وما يفضُل به على غيره. وذكر ما نُقل من أقوال الخلفاء والملوك الدالّة على عُلُوّ همّتهم، وكرم شيمتهم.

الباب الثالث — فيما يجب للملك على الرعايا من الطاعة، والنصيحة، والتعظيم، والتوقير.

الباب الرابع — فى وصايا الملوك.

الباب الخامس — فيما يجب على المَلِك للرعايا.

الباب السادس — فى حُسن السياسة، وإقامة المملكة. ويتّصل به الحزم، والعزم، وانتهاز الفُرْصة، والحلم، والعفو، والعقوبة، والانتقام.

الباب السابع — فى المَشُورة، وإعمال الرأى، والاستبداد، ومن يُعتمد على رأيه، ومن كُره أن يستشير.

الباب الثامن — فى حفظ الأسرار، والإذن، والحجاب.

الباب التاسع — في الوزراء، وأصحاب المُلك،
الباب العاشر — في قادة الجيوش، والجهاد، ومكايد الحروب؛ ووصف الوقائع، والرباط، وما قيل في أوصاف السلاح .
الباب الحادي عشر — في القضاة، والحكام .
٥
الباب الثاني عشر — في ولاية المظالم، وهي نيابة دار العدل .
الباب الثالث عشر — في نظر الحسبة، وأحكامها .
الباب الرابع عشر — في ذكر الكتّاب، والبلغاء، والكتابة، وما تفرع عنها من الوظائف والكتابات، وهي: كتابة الإنشاء، وكتابة الديوان، والتصرُّف، وكتابة الحُكم، والشروط، وكتابة النسخ، وكتابة التعليم .

الفن الثالث

فى الحيوان الصامت

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأوّل — فى السباع، وما يتصل بها من جنسها.

وفيه ثلاثة أبواب : ٥

الباب الاوّل — فى الأَسَد ، والبَبْر ، والنَّمِر.

الباب الثانى — فى الفَهْد ، والكلب ، والذئب ، والضَّبُع ، والنِّمْس.

الباب الثالث — فى السِّنجاب، والثعلب، والدُّبّ، والهرّ، والخنزير. ١٠

القسم الثانى — فى الوحوش، والظباء، وما يتّصل بها من جنسها.

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأوّل — فيما قيل فى الفيل، والكَرْكَدَّن، والزّرافة، والمَهَاة، والإيَّل (١) .

الباب الثانى — فى الحُمُر الوحشيّة، والوَعِل، واللَّمْط. ١٥

الباب الثالث — فيما قيل فى الظَّبْى، والأرنب، والقرد، والنَّعام .

(١) و يقال أيضا : الأُيَّل والأَيِّل (قاموس) .

القسم الثالث — وفيه ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل — فى الخيـل.

الباب الثانى — فى البغال، والحمير.

الباب الثالث — فى الإبل، والبقر، والغنم.

٥ القسم الرابع — وفيه بابان:

الباب الأوّل — فى ذوات السموم القواتل.

الباب الثانى — فيما هو ليس بقاتل بفعله، من ذوات السموم.

القسم الخامس — وفيه سبعة أبواب: ستّة منها فى الطير، وباب فى السمك.

(وذيّلتُ عليه بباب ثامن، أوردت فيه ما قيل

١٠ فى آلات صيد البرّ، والبحر).

الباب الأوّل — فى سباع الطير، وهى: العِقبان، والبوازى، والصقور، والشواهين.

الباب الثانى — فى كلاب الطير، وهى: النَّسر، والرَّخَم، والحِدَأة، والغُراب.

١٥ الباب الثالث — فى بهائم الطير، وهى: الدُّرّاج، والحُبارى، والطاووس، والدِّيك، والدَّجاج، والإوَزّ، والبطّ، والنُّحام، والأنيس، والقاوَند، والخُطّاف، والقِيق، والزُّرزور، والسُّمانَى(١)، والهُدهُد، والعَقْعَق، والعصافير.

٢٠ (١) فى الأصل السُّمّان. وقال فى الصحاح والسُّمانَى ولا تشدّد الميم.

الباب الرابع — فى بُغَاث الطيْر، وهو : القُمْرِى ، والدُّبْسِىّ ، والوَرَشانُ ، والفَوَاخِتُ ، والشِّفْنِين ، والعَبَطْبَط ، والنوّاح ، والقَطَاة ، واليَمَام ، وأصنافه ، والبَبَّغاء .

الباب الخامس — فى الطيْر الليلىّ ، وهو : الخُفَّاش ، والكَرَوان ، والبُوم ، والصَّدىٰ .

الباب السادس — فى الهَمَج ، وهو : النمْل ، والزّنبور ، والعنكبوت ، والجراد ، ودود القزّ ، والذُّباب ، والبَعوض ، والبراغيث ، والحُرْقُوص .

الباب السابع — فى أنواع الأسماك .

الباب الثامن — يشتمل على ذكر شىء مما وُصفت به آلات الصيْد فى البرّ ، والبحر ، ووصف رُماة البُنْدق ، وما يجرى هذا المجرىٰ .

الفن الرابع

فى النبات

ويستمل على خمسة أقسام :

(وذيّلتُ على هذا الفن، فى القسم الخامس، بشىء من أنواع الطّيب، والبَخُورات،
٥ والغوالى، والنُّدود، والمُستقطَرات، وغير ذلك) .

القسم الأول — فى أصل النبات ، وما تختصّ به أرضٌ دون أرض .

(ويتّصل به ذكر الأقوات، والخضراوات، والبُقولات) .

وفيه ثلاثة أبواب :

الباب الأوّل — فى أصل النبات، وترتيبه .

١٠ الباب الثانى — فيما تختصّ به أرض دون أرض، وما يستأصل شأفة النبات الشاغل للأرض عن الزراعة .

الباب الثالث — فى الأقوات، والخضراوات، والبقولات .

القسم الثانى — فى الأشجار .

وفيه ثلاثة أبواب :

١٥ الباب الأوّل — فيما لثمره قشر لا يؤكل .

الباب الثانى — فيما لثمره نوًى لا يؤكل .

الباب الثالث — فيما ليس لثمره قشر ولا نوًى .

القسم الثـالث — فى الفواكه المشمومة .

وفيه بابان :

الباب الأوّل — فيما يُشَمّ رَطْبًا، ويُستقطر .

ويشتمل علىٰ أربعة أنواع : وهى "الوَرْد، والنِّسْرِينُ، والخِلَافُ، والنَّيْلُوفَرُ" . ٥

الباب الثانى — فيما يُشَمّ رَطْبا، ولا يُستقطَر .

ويشتمل علىٰ ماقيل فى البَنَفْسَج، والنرجس، والياسَمين، والآس، والزعفران، والحَبَق .

(٧) القسم الرابـع — فى الرياض، والأزهار .

(ويتصل به الصُّموغ، والأَمْنَـان، والعصائر) . ١٠

وفيه أربعة أبواب :

الباب الأوّل — فى الرياض، وما وُصفت به نظمًا، ونثرًا .

الباب الثانى — فى الأزهار، وما وُصفت به .

الباب الثالث — فى الصموغ .

وفيه ثمانية وعشرون صِنفا . ١٥

الباب الرابع — فى الأمنان .

القسم الخامس — فى أصناف الطيب، والبَخُورات، والغوالى، والنُّدود، والمُستقطَرات، والأدهان، والنَّضُوحات، وأدوية الباه، والخواصّ .

وفيه أحد عشر بابا : ٢٠

الباب الأوّل — فى المسك، وأنواعه

الفن الخامس

فى التاريخ

ويشتمل على خمسة أقسام :

القسم الأوّل — فى مبدإ خلق آدم (عليه السلام) وحوّاء ، وأخبارهما ،
ومن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرسّ . ٥

وفيه ثمانية أبواب :

الباب الأوّل — فى مبدإ خلق آدم (عليه السلام)، وموسى (عليه السلام)، وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما .

الباب الثانى — فى خبر شيث بن آدم (عليهما السلام)، وأولاده . ١٠

الباب الثالث — فى أخبار إدريس : النبىّ (عليه السلام) .

الباب الرابع — فى قصّة نوح (عليه السلام) ، وخبر الطُّوفان .

الباب الخامس — فى قصّة هود (عليه السلام) مع عاد، وهلاكهم بالريح العقيم .

الباب السادس — فى قصة صالح (عليه السلام) مع ثمود ، وعَقْرهم الناقة، وهلاكهم . ١٥

الباب السابع — فى أخبار أصحاب البئر المُعَطَّلة، والقصر المَشِيد، وهلاكهم .

الباب الثامن — فى أخبار أصحاب الرّسّ، وما كان من أمرهم .

القسم الثـانى — فى قصّة إبراهيم ، الخليل (عليه السلام) ، وخبره مع نُمْرود ؛ وقصّة لوط ؛ وخبر إسحاق ، و يعقوب ؛ وقصّة يوسف ؛ وأيُّوب ؛ وذى الكِفْل ؛ وشُعيب (عليهم السلام) .

وفيه سبعة أبواب :

٥ الباب الأوّل — فى قصّة إبراهيم ، الخليل (عليه الصلاة والسلام) ، وأخبار نمرود بن كنعان . (٨)

الباب الثانى — فى خبر لوط (عليه السلام) مع قومه ، وقلب المدائن .

الباب الثالث — فى خبر إسحاق ، و يعقوب (عليهما السلام) .

١٠ الباب الرابع — فى قصّة يوسف بن يعقوب (عليهما السلام) .

الباب الخامس — فى قصّة أيوب (عليه السلام) ، وآبتلائه ، وعافيته .

الباب السادس — فى خبر ذى الكِفْل بن أيوب (عليهما السلام) .

الباب السابع — فى خبر شُعَيْب (عليه السلام) ، وقصته مع مَدْيَنَ .

١٥ القسم الثالث — يشتمل على قصّة موسىٰ بن عِمْران (عليه السلام) ، وخبره مع فِرْعَوْن ؛ وخبر يُوشَع ، ومَن بعده ؛ وحِزْقِيلَ ، و إلياس ، وآلْيَسَع ، وعيلا ، وأَشْمويل ، وطالوت ، وجالوت ، وداود ، وسليمان بن داود ، وشعيا ، وأرميا ، وخبر بُخْتَ نَصَّر ، وخراب بيت المَقْدس ،
٢٠ وعمارته ؛ وما يتصل بذلك من خبر عُزَير ؛ وقصّة

يُونس بن متّى ، وخبر بلوقيـا ، وزكريا ، ويحيىٰ ، وعِمْران ، ومريم ، وعيسى (عليهم السلام) ، وقصص الحواريِّين ، وما كان من أمرهم فيمن أُرْسِلوا إليه ، وخبر جرجيس .

وفيه ستة أبواب : ٥

(وذيّلتُ علىٰ هذا القسم ذيلا يشتمل علىٰ أربعة أبواب ، ذكرتُ فيها ماقيل فى الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسىٰ — عليه السلام — إلىٰ الأرض ومدّة إقامته بها ، ووفاته ، وما يكون بعده ، وشيئا من أخبار الحشر والمعاد) .

التذييل علىٰ هذا القسم — ويشتمل علىٰ أربعة أبواب :

القسم الرابع — فى أخبار ملوك الأصقاع، وملوك الأمم، والطوائف؛ وخبر سيل العَرِم، ووقائع العرب فى الجاهليّة .

وفيه خمسة أبواب :

الباب الأوّل — فى أخبار ذى القرنين، المذكور فى سورة الكهف .

الباب الثانى — فى أخبار ملوك الأصقاع، وهم : ملوك مصر، والهند، والصين، وجبل الفتح .

الباب الثالث — فى أخبار ملوك الأمم من الأعاجم، وهم : ملوك الفُرْس الأول، وملوك الطوائف منهم؛ والملوك الساسانيّة؛ وملوك اليونان والسريان؛ والكلدانيين؛ والصقالبة؛ والبوكبرد؛ والإفْرِنجة؛ والجَلَالقة؛ وطوائف السودان .

الباب الرابع — فى أخبار ملوك العرب .
(ويتّصل به خبر سَيْل العَرِم) .

الباب الخامس — فى أيّام العرب، ووقائعها فى الجاهليّة .

القسم الخامس — فى أخبار الملة الإسلاميّة؛ وذكر شىء من سيرة نبيّنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأخبار الخلفاء من بعده (رضى الله عنهم)؛ وأخبار الدولة الأُمَويّة؛ والعباسيّة؛ والعلويّة؛ ودول ملوك الإسلام، وأخبارهم، وما فتح الله (سبحانه وتعالى) عليهم — على ما سنبيّن ذلك — إن شاء الله (تعالى) .

وفيه اثنا عشر بابا :

الباب الأول — في سيرة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
الباب الثاني — في أخبار الخلفاء من بعده : أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وآبنه : الحَسَن (رضي الله عنهم أجمعين) .
٥ الباب الثالث — في أخبار الدولة الأُمَوِيّة بالشام وغيره .
الباب الرابع — في أخبار الدولة العباسيّة بالعراق، ومصر .
الباب الخامس — في أخبار الدولة الأُمَوِيّة بالأندلس، وأخبار الأندلس بعد آنقراض الدولة الأموية .
الباب السادس — في أخبار إفريقيّة، وبلاد المغرب، ومَنْ وَلِيَها
١٠ من العُمَّال، ومَن آستقلّ منهم بالمُلك .
الباب السابع — في أخبار مَن نهض في طلب الخلافة من الطالبيّين، في مدّة الدولتين : الأُمَوِيّة، والعباسية، فقُتل دونها، بعد مقتل الحسين آبن عليّ (رضي الله عنهما) .
١٥ الباب الثامن — في أخبار صاحب الزنج، والقرامطة، والخوارج بالموصل .
الباب التاسع — في أخبار من آستقلّ بالمُلك، والممالك، بالبلاد الشرقيّة والشماليّة، في خلال الدولة العباسيّة، وهم : ملوك خُراسان، وما وراء النهر،
٢٠ والجبال، وطَبَرِسْتان، وغَزْنَة، والغَوْر

وبلاد السند، والهند : كالدولة السامانيّة .
والصّفّاريّة، والغزنويّة، والغُوريّة، والدّيلميّة
الختليّـــة .

الباب العاشر — فى أخبار ملوك العراق ، وما والاه ، وملوك
المَوْصل ، والديار الجزيريّة ، والبكريّة ، والبلاد ٥
الشاميّة ، والحلبيّة : كالدولة الحَمْدانيّة .
والدّيلميّة البُوَيهيّة ، والسُّلْجُقيّة ، والأتابكيّة .

الباب الحادى عشر — فى أخبار الدولة الخُوارَزْميّة . والجنكزخانيّة ،
وهى دولة التتار، وما تفرّع منها .

الباب الثانى عشر — فى أخبار ملوك الديار المصريّة الذين ملكوا ١٠
فى خلال الدولة العباسيّة ، نيابةً عن خلفائها ،
وهم : الملوك العُبَيْـدِيُّون الذين آنتسبوا إلىٰ
علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه)، وما كان
من أمرهم ، وما ملكوه من بلاد المغرب ،
وكيف آستولَوْا علىٰ الديار المصريّة ، والبلاد ١٥
الشاميّة ، والحَلَبيّـة ، والثغور ، والسواحل ،
وغير ذلك إلىٰ أن آنقرضت دولتهم ، وقيـام
الدولة الأيُّوبيّة ، وأخبار ملوكها بمصر ، والشام
إلىٰ حين آنقراضها ، وقيام دولة الترك ، ومَن
مَلَكَ منهم من أبنائهم ، وما حازوه من الأقاليم ، ٢٠
وما فتحوه من الممالك ، وغير ذلك من

أخبارهم ، وما آستقر فى ملك مُلوك هذه الدولة
إلىٰ حين وضعنا لهذا التأليف فى سنة ... ...
وسبعمائة (فى أيّام مولانا السلطان السيد
الأجل المالك الملك الناصر ، ناصر الدنيا
٥ والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ،
أبى الفتح محمد ، بن السلطان الشهيد ، الملك (١٠)
المنصور ، سيف الدنيا والدين ، أبى المظفر
قلاوون ، الصالحىّ . خلد الله ملكه علىٰ ممر
الزمان ، وسقىٰ عهد والده صَوْب الرحمة
١٠ والرِّضوان ، ببركة سيد ولد عدنان !)

هذا مجموعُ ما يشتمل عليه هذا الكتاب ، من فنون وأقسام وذيول وأبواب . ثم ينطوى كل باب منها علىٰ فصول وأخبار ، ويحتوى علىٰ وقائع وآثار .

ولما آنتهت أبوابه وفصوله ، وآنحصرت جملته وتفصيله ، ترجمتُه :

بنهاية الأَرَب فى فنون الأَدب

١٥ وأثبتُ فيه بالمقصود والغرض ، وأثبتُّ الجوهر ونفيتُ العَرَض ، وطوّقتُه بقلائد من مقولى ، ورصّعتُه بفرائد من منقولى . فكلامى فيه كالسارية تلتها السحائب ، أو السريّة رَدِفَتْها الكتائب . فما هو إلّا مترجِمٌ عن فنونه ، وحاجب لعيونه .

وما أوردتُ فيه إلّا ماغلب علىٰ ظنّى أنّ النفوس تميل إليه ، وأن الخواطر تشتمل عليه . ولو علمتُ أنّ فيه خطأً لقبضتُ بنانى ، وغضضتُ طَرْفى ، ولو خَبَرتُ طريق

المعترض لعطفتُ عِنانى ، وثنيتُ عِطفى . لكنّى تبعتُ فيه آثار الفضـلاء قبْـلى ، وسلكتُ منهجهم فوصـلتُ بحبالهم حبلى . فإنْ يكن ٱعتراض ، فعلىٰ عُلاهم لا علىَّ العار . وقد علمتُ أنه مَن صنّف كتابا فقد ٱسـتهدف ، وأصمَّ الأسمـاع وإنْ كان لبعضها قد شنّف .

وخليق للواقف عليه أن يسُدّ مايجد به من خَلَل ، وأن يغفر ما يلمح فيه من زَلَل . فاسـبِلْ عليها سِترَ معروفك الذى سـترتَ به قِدْمًا علىٰ عَوَارى . والذى أدّى إليه ٱجتهادى من تأليفه فقد أصدرتُه ، والذى وَقَفَتْ عنده غايتى فقد أوردتُه . قد تبلّغتُ فيه وُسعى ، لٰكنْ ليس من عثرة الكتّاب أمان . وبالله سـبحانه المستعان ! وعليـه أتوكّل ، واليه أتضرّع فى التيسير وأتوسـل ، ومن فضله أستمدّ الصواب ، وباسمه أستفتح الكتّاب[1] !

---

(١) ورد فى النسخة الفوتغرافية التى ٱعتمدنا الطبع عليها (وهى المحفوظة بكتبخانة الكوبريلى بالقسطنطينية) مانصه فى هذا الموضع : "هذا آخر الفهرست لهذا الكتاب . ولنبتدئ إن شاء الله تبارك وتعالىٰ بما بدأ به مؤلفه عفا الله تعالىٰ عنه وهو الفن الأوّل . ونرجو بعون الله وحوله وقوّته الإتمام بسلام . وصلى الله وسلم علىٰ أشرف الأنام ، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام" — وهى من زيادات الناسخ .

(١١)

الفن الأوّل

فى السماء والآثار العُلويّة ، والأرض والمعالم السُّفليّة

وقد أوردتُ فى هذا الفن نُبذة من وصف السماء ، التى هى قبلة الدعاء ، وباب الرجاء ؛ والكواكب السيّارات ذوات السنا والسناء ؛ والملائكة الذين هم أولو أجنحة ، مثنى ، وثلاثَ ، ورُباع ؛ والسحائب التى تجود بوَبْلها فتعدلُ فى قَسْمها بين السهل واليَفاع ؛ والرعدِ الذى إن وَنَتْ يَحُثُّها ؛ والريح الذى إن آجتمعت يَبُثُّها ؛ والبرق الذى شُبّه ببنانِ الحاسب والكفّ الخضيب ؛ والثلج الذى خَلَع على الأرض رداء المشيب ؛ وقوس السَّحاب الذى تنكّبَهُ الجوّ فأفرغ عليه مُصَبَّغات الحُلَل ، ورمى الجدْب ببنادق البَرَد فتباشرت بالخصب أهل الحِلَل ؛ والنّيران وعُبّادِها وعَدَدِها ، والمياه وأمدادها ومَدَدِها ؛ والليالى والأيام ، والشهور والأعوام ؛ والسَّنةِ وفصولِها ومباديها ، والأعيادِ والمواسم ومُتَّخِذِيها ؛ والأرضِ والجبال ، والبرارى والرمال ؛ والجزائر والبحار ، والعيون والأنهار ؛ وطبائعِ البلاد ، وأخلاقِ مَن سكنها من العبّاد ؛ والمبانى والمعاقل ، والقصور والمنازل .

وجعلتُه خمسة أقسام يُستدلُّ بها عليه ، ويُتَوَصَّل من أبوابها إليه .

القســـم الأوّل

فى السماء وما فيها

وفيـــه خمســـة أبواب :

الباب الأوّل

من القسم الأوّل من الفن الأوّل

---

١ — فى مبدإ خلق السماء

قال الله تعالى : ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ .

§ والسماء تُذكَّر وتُؤنَّث .

فشاهد التذكير قول الله (عزّ وجلّ) : ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ ؛ وقول الشاعر :

فلو رَفَعَ السماءُ إليه قوما ، * لَحِقْنا بالسماء مع السَّحاب !

وشاهد التأنيث ، قوله (تبارك وتعالى) : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ؛ وقول الشاعر :

* يلوبّ (١) ، ربّ الناس فى سمائه ! *

---

(١) هكذا فى الأصول ، أى بالتاء المثناة . ولو هُمزت ، لفات الشاهد .

٢ — ذكر ما قيل في أسماء السماء وخَلْقِها

قد نطقت العرب للسماء بأسماء .

منها : الجَرْباء . وسُمِّيَتْ بذلك لكثرة النُّجوم بها .

ومنها : الخَلْقاء ، لملاستها .

وبرقع[1] . والرَّقيع . ومنه قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لسعد بن مُعاذ : «لقد حكمتَ فيهم بُحكم الله من فوق سبع أرقعة » . أي من فوق سبع سماوات .

ومنها : الطرائق . قال الله تعالى : ﴿ ولَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾ .

والسماء مخلوقة من دُخَان .

---

٣ — حُكي في سبب حدوثه

أنَّ الله تعالى خلق جوهرة ، وَصف من طولها وعرضها عظما . ثم نظر إليها نظرَ هيبة ، فأماعت ، وعلاها من شدّة الخوف زَبَدٌ ودُخَان . فخلق الله من الزبد الأرضَ ، وفتقها سبعا ؛ ومن الدخان السماءَ ، وفتقها سبعا . ودليله قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوىٰ إلَى السَّمَاءِ وهِيَ دُخَانٌ﴾ . قال : ولما فتق الله تعالى السماوات ، أوحىٰ في كل سماء أمرها . واختلف المفسّرون في الأمر ، ماهو؟ فقال قوم : خلق فيها جبالا من بَرَد وبحارا ؛ وقال قوم : جعل في كل سماء كوكبا ، قدّر عليه الطلوع والأفول ، والسير والرجوع . وقال قوم : أسكنها ملائكة سخّرهم للعالَم السُّفليّ ، فوكّل طائفة بالسحاب وطائفة بالريح ، وجعل منهم حَفَظَة لبني آدم وكاتبين لأعمالهم ومستغفرين لذنُوبهم .

---

(١) كزبرج وقنفذ كما في القاموس .

البـاب الثـانى

١ — فى هيئتها

ذهب المفسّرون لكتاب الله عزّ وجلّ أنّ السماء مسطوحة، بدليل قوله تعالىٰ :
﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾.   ٥

وقال تعالىٰ : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾.

ويُطلق علىٰ مجموعها فَلَكٌ، لقوله تعالىٰ : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.   (١٢)

وذهب الحسن إلىٰ أنّ الفَلَكَ غيرُ السماوات، وأنّه الحامل بأمر الله تعالىٰ للشمس والقمر والنجوم.

قالوا : ولمّا فتق الله تعالىٰ رَتْق السماوات، جعل بين كلّ سماء وسماء مسيرةَ خمسمائة عام.   ١٠

ورُوى عن أبى هُرَيْرة (رضى الله عنه)، قال : "بينما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالسٌ هو وأصحابه، إذ أتىٰ عليهم سَحاب . فقال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) هل تدرون ماهذا؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال: هذا العَنان(١)، هذه رَوَايا الأرض، يسوقها الله تعالىٰ إلىٰ قوم لايشكرونه ولا يدْعُونه، ثم قال : أتدرون ما فوقكم؟ قالوا :   ١٥
الله ورسوله أعلم . قال: هذا الرقيع : سقف محفوظ، وموج مكفوف. ثم قال: هل تدرون ما بينكم وبينها ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: بينكم وبينها خمسمائة سنة، ثم قال: هل تدرون مافوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: سماءٌ فى بُعد ما بينهما

(١) العنان السحاب . واحدته بهاء . (قاموس).

خمسمائة سنة . قال ذلك حتّى بلغ سبع سماوات ، ما بين كل سماءين ، ما بين السماء والأرض . ثم قال : هل تدرون مافوق ذلك؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنّ فوق ذلك العرش . وبينه وبين السماء بعد مابين السماءين . ثم قال : هل تدرون ماتحتكم؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنّها الأرض . ثم قال : أتدرون ما تحت ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنّ تحتها أرضا أخرىٰ ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة . حتّى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرض وأرض خمسمائة سنة ". أخرجه أبو عيسىٰ الترمذىّ ، فى "جامعه" .

ويُروىٰ عن ٱبن عبّاس (رضى الله عنهما) أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان جالسا بالبطحاء ، بين أصحابه ، إذ مرّت عليهم سحابة . فنظروا إليها . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هل تدرون ما ٱسم هذه؟ قالوا : نعم . هذا السحاب . فقال (صلى الله عليه وسلم) : والمُزْن . قالوا : والمُزْن . قال : والعَنَان . قالوا : والعَنان . فقال : هل تدرون ما بين السماء والأرض ؟ قالوا : لاندرى . قال : خمسمائة عام . وبينها وبين السماء التى فوقها كذلك . (حتّى عدّ سبع سماوات) . ثمّ قال : وفوق السماء السابعة بحرٌ ، بين أعلاه وأسفله كما بين سماء إلىٰ سماء (وفى لفظ : كما بين السماء والأرض) . وفوق ذلك ثمانية أوْعال ، بين أظلافهم[(1)] ورُكَبهم[(1)] مثل مابين سماء إلىٰ سماء ، ثم فوق ظهورهم العرش ، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض .

وجاء فى رواية أخرىٰ ذكر الكُرْسىّ ، وقال : « ثم مابين السماء السابعة والكرسىّ مسيرة خمسمائة عام . ثم ما بين الكرسىّ إلىٰ الماء مسيرة خمسمائة عام . والعرش فوق الماء . » ولم يذكر الأَوْعال .

(1) فى الترمذىّ : أظلافهنّ وركبهنّ ... ... ظهورهنّ .

وجاء فى رواية أخرىٰ ذكر الكرسىّ ، وأنّ السماوات فى ضمنه . وهى بالنسبة إليه كحلْقة مُلقاة فى أرض فلاة ، والكُرْسىّ بالنسبة إلىٰ العرش كذَرّة مُلقاة فى أرض فلاة فيحاء . (وفى رواية كحلقة).

ورُوى أن أبا ذرّ (رضى الله عنه) قال : "يارسول الله : أىّ آية أُنزِلت عليك أعظم؟ قال : آية الكرسىّ . ثم قال : ياأبا ذرّ ! أتدرى ما الكرسىّ ؟ قلتُ : لا ؛ فعلّمنى يارسول الله ، ممـا علّمك الله . فقال : ما السماوات والأرض وما فيهنّ فى الكرسىّ ، إلا كحلْقة ألقاها مُلقٍ فى فلاة . وما الكرسىّ فى العرش ، إلا كحلْقة ألقاها مُلقٍ فى فلاة . وما العرش فى المـاء ، إلا كحلْقة ألقاها مُلقٍ فى فلاة . وما الماء فى الريح ، إلا كحلْقة ألقاها مُلقٍ فى فلاة . وجميع ذلك فى قبضة الله كالحبّة ، وأصغر من الحبّة ، فى كفّ أحدكم . تعالىٰ الله سبحانه" . رواه أبو حاتم فى كتاب العَظَمة .

والقول فى هيئة السماء ، علىٰ مذاهب أصحاب علم الهيئة ، كثير . أغضينا عنه ، لأنه لايقوم عليه دليل واضح . فلذلك اقتصرنا علىٰ ذكر المنقول دون المعقول .

فلْنذكُرْ ما جاء فى الأمثال التى فيها ذكر السماء ، وما وصفها الشعراء به وشبّهوها .

٢ ـــ أما الأمثـال

فقولهم : أرفع من السماء ، للبالغة .

وقول الشاعر :

مَن ذا رأىٰ أرضًا بغير سمـاء ؟

إنّ السماء تُرَجّى حين تحتجِبُ .

إنّ السماء ، إذا لم تبـكِ مُقلتُهـا ، * لم تضحكِ الأرضُ عن شىء من الزَّهَرِ .

٣ — وأما الوصف والتشبيه

فمنه قول عبد الله بن المعتز :

كأن سماءنا، لما تجلت * خلال نجومها عند الصباح،
رياض بنفسج خضل، نداه * تفتح بينه نور الأقاح .

٥ وقال آخر :

كأن سماءنا، والشهب فيها، * وأصغرها لأكبرها مزاحم،
بساط زمرد نثرت عليه * دنانير تخالطها دراهم .

ونحوه قول الآخر :

كأن سماء الأرض قطع زمرد، * وقد فرشت فيه الدنانير للصرف .

١٠ وقال آخر :

ورأيت السماء كالبحر إلا * أن مرسوبه من الدرطاف .
فيه ما يملأ العيون كبير * وصغير ما بين ذلك خاف .

وقال التنوخى يصف ليلة :

كأنما نجومها ، * نصب عيون الرمق .
١٥ دراهم قد نثرت * على بساط أزرق .

وقال أبو طالب الرقى :

وكأن أجرام السماء، لوامعا، * درر نثرن على بساط أزرق .

وقال ظافر الحداد :

كأن نجوم الليل، لما تبلجت، * توقد جمر فى خلال رماد .
٢٠ حكى، فوق ممتد المجرة شكلها، * فواقع تطفو فوق لجة وادى .

وقال آخر:

كأنّ النجومَ ، نجومَ السما ، * وقد لُحْنَ للعيْنِ من فرْط بُعْدِ ،
مسامِيرُ من فِضّةٍ سُمِّرَتْ * علىٰ وجه لَوْحٍ من اللّازَوَرْدِ .

وقال محمد بن عاصم :

تُرىٰ صفحةُ الخضراء ، والنجمُ فوقها ، * ككفِّ سَدُوسيّ بدا فيه دِرْهَمُ .
تُرىٰ ، وعلىٰ الآفاق أثوابُ ظُلمةٍ ، * وأزرارُها منها شَمالٌ ومِرْزَمُ[1] .

٤ — ومما قيل فى الفَلَك

قال أبو العلاء المعرّىّ :

ياليتَ شِعْرى ! وهَلْ لَيْتٌ بنافعةٍ ؟ * ما ذا وراءَكَ أو ما أنْتَ يا فَلَكُ ؟
كمْ خاضَ فى إثْرِكَ الأقوامُ واختلفُوا * قِدْمًا ! فما أوْضَحُوا حَقًّا ولا تَرَكُوا .
شمسٌ تَغِيبُ ويَقْفُو إثْرَها قَمَرٌ * ونُورُ صُبحٍ يُوَافِى بعْدَه حَلَكُ .
طَحَنْتَ طَحْنَ الرَّحىٰ مِن قَبْلِنا أُمَمًا * شَتّى ، ولم يَدْرِ خلقٌ أيّةً سَلَكُوا .
وقال ، إنّكَ طَبْعٌ خامِسٌ ، نَفَرٌ . * عَمْرِى ! لقد زعموا بُطْلًا وقد أَفَكُوا !
رامُوا سَرائِرَ للرحمٰن تَحْجُبُها ، * ما نالَهُنَّ نبىٌّ ، لا ولا مَلَكُ .

وقال الرئيس أبو علىّ بن سينا[2] :

بِربِّكَ ! أيُّها الفَلَكُ المُدَارُ ، * أقَصْدٌ ذا المَسِيرُ أمِ اضْطِرارُ ؟
مَدارُكَ ، قُلْ لنا ، فى أىّ شىءٍ ؟ * فَفِى أفهامِنَا مِنْكَ انْبِهارُ !

---

(١) المرزم : الثابت القائم علىٰ الأرض .

(٢) قال صاحب عيون الأنباء (ج ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩) إن بعض الناس ينسب هذه القصيدة لابن سينا وليست له ، ونص علىٰ أنها لابن الشبل البغدادى وقد أوردها فى خمسين بيتا .

وعندك تُرفَع الأرواحُ؟ أم هَل * مَعَ الأجسادِ يُدرِكُها البَوارُ؟
وفيك الشَّمسُ رافعةٌ شُعاعًا، * بأجنحةٍ قَوادِمُها قِصارُ؟
قُطُوفٌ، ذِى النُّجومُ أم اللآلى؟ * هِلالٌ أم يدٌ فيها سِوارُ؟
وشُهبٌ، ذى المَجَرَّةُ أم ذُبالٌ(١) * عليها المَرخُ(٢) يَقدَحُ والعَفارُ(٣)؟
وترصيعٌ، نُجومُك أم حَبابٌ * تُؤلِّف بينها اللُّجَجُ الغِزارُ؟
تُمَدُّ رُقومُها لَيلًا وتُطوى * نَهارًا، مِثلَ ما طُوِىَ الإزارُ!
فكَمْ بِصِقالِها صَدِئَ البَرايا! * وما يَصْدا لها أبدًا غِرارُ.
وتبدو ثُمَّ تَخنِسُ راجِعاتٍ * وتكنِس مثلَ ما كَنَسَ الصُّوارُ(٤).
فبَينا الشَّرقُ يَقدُمُها صُعودًا * تَلَقّاها من الغَربِ انحِدارُ.
هى العَشواءُ، ما خَبَطَتْ هَشيمٌ * هى العَجماءُ، ما جَرَحَتْ جُبارُ(٥).

وقال أبو عُبادة البُحتُرِىّ :

أناةً! أيُّها الفَلَكُ المُدارُ! * أنَهْبٌ ما تُصرِّف أم خِيارُ؟
ستَبلَى مِثلَ ما نَبلَى، وتَفنَى * كما نَفنَى، ويُؤخَذُ منك ثارُ.

---

(١) الذبال : الفتائل .

(٢) المَرخ : شجر سريع الوَرْى كثيره . وقد وصفه المؤلف فيما بعد (ص ٣٩) بأنه شجر تحتك بعض أغصانه ببعض فتورى نارا .

(٣) العفار : شجر يتخذ منه الزناد وهو من شجر النار .

(٤) الصوار كالصيار بكسر الصاد وضمها : القطيع من البقر .

(٥) الجبار (بضم الجيم) الهدر .

الباب الثالث

من القسم الأوّل من الفن الأوّل

١ — فى ذكر الملائكة

(١٤) قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "أَطَّتِ السماءُ[(١)]، وحُقَّ لها أن تَئِطّ . ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ، إلّا وعليه مَلَك قائم أو راكع أو ساجد".

والملائكة أولو أجنحة : مثنىٰ، وثُلاثَ، ورُباعَ، وأكثر من ذلك . فإنه قد ورد أن جبريل (عليه السلام) له ستمائة جناح . وهى الصورة التى رآه النبىّ (صلى الله عليه وسلم) فيها مرّتين :

إحداهما فى الأرض، وقد سدّ ما بين الخافقين . ووصفه الله تعالىٰ بالقوّة، فقال تعالىٰ : ﴿ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى العَرْشِ مَكِينٍ﴾ . ومن قوّته، أنه اقتلع مدائن قوم لوط، وكانت خمس مدائن، من الماء الأسود، وحملها علىٰ جناحه، ورفعها إلىٰ السماء، حتّى إنّ أهل السماء يسمعون نُبَاح كلابهم، وأصوات دَجاجهم، ثُمَّ قلبها .

والمرّة الثانية، رآه (صلى الله عليه وسلم) عند سِدْرَة المنتهىٰ . قال الله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ﴾ .

وكان هبوط جبريل (عليه السلام) علىٰ الأنبياء (صلوات الله عليهم) ورجوعه فى أَوْحَىٰ[(٢)] من رَجْع الطَّرْف .

---

(١) أطّ : صوّتَ .

(٢) أسرع .

وعُظماء الملائكة أربعة، وهم : إسرافيل، وميكائيل، وجبرائيل، وعزرائيل . وأقربهم من الله تعالىٰ منزلةً، إسرافيل .

فإذا أراد الله تعالىٰ بوحْيٍ ، جاء اللوحُ المحفوظُ حتّى يقرعَ جَبْهة إسرافيل، فيرفع رأسه، فينظر فيه . فإن كان إلىٰ السماء، دفعه إلىٰ ميكائيل؛ وإن كان إلىٰ الأرض، دفعه إلىٰ جبرائيل؛ وإن كان بموت أحد، أمر به عزرائيل . صلوات الله عليهم !

وقد رُوِى فى قوله تعالىٰ : ﴿ فالمُدَبِّرَاتِ أمْرًا ﴾، هم أربعة من الملائكة : جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل . فجبريل علىٰ الجنود والرياح، وميكائيل علىٰ القَطْر والنبات، وعزرائيل علىٰ قبض الأرواح، وإسرافيلُ يبلِّغهم مايؤمَرون به .

وجعل الله تعالىٰ لهم أن يتمثلوا للبشر علىٰ ماشاءوا من الصور، كما كان جبريل يتمثل لسيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) علىٰ صورة دِحْية الكلبىّ مرارا، وفى صورة غيره من الرجال؛ وكما تمثّل لمريم عليها السلام بشرا سويا . ونزلت الملائكة فى غزوة بدر على الخيول المسوّمة، وقد سدلوا ذوائب عمائمهم علىٰ مناكبهم . وهم مخلوقون من نور . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين !

الباب الرابع
من القسم الأوّل من الفن الأوّل
١ — فى الكواكب السبعة المتحيرة

قال الله تعالىٰ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِى الْكُنَّسِ ﴾ . ذهب المفسرون إلىٰ أنهـا هى الكواكب السبعة : زُحلُ، والمشترِى ، والمِرّيخ، والشمسُ، والزُّهَرة، وعُطارِدٌ، والقمر .

وقالوا : إن هذه الكواكبَ هى المعنيَّة بقوله تعالىٰ : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .

وسُميت كُنَّسا لأنها تجرى فى البروج ثم تَكْنِس أى تستتر كما تكنس الظباء؛ وخُنسا لآستقامتها ورجوعها . وقيل الخُنَّس والكُنَّس منها خمسة ، دون الشمس والقمر . وسميت خُنَّسا لأن الخُنُوس فى كلام العرب الآنقباض . وفى الحديث الشريف "الشيطانُ يُوَسْوِس للعبد، فإذا ذكر اللهَ تعالىٰ خَنَس" أى آنقبض ورجع . فيكون فى الكوكب بمعنىٰ الرجوع . وكُنَّسا من قول العرب كَنَس الظبيُ اذا دخل الكِنَاس، وهو مقرّه؛ ويكون فى الكوكب آختفاءه تحت ضوء الشمس .

وأسماء هذه الكواكب عند العرب مشتقة من صفاتها .

§ فقالوا فى زحل : زَحَل فلانٌ إذا أبطأ، وبذلك سمّى هذا الكوكب لبطئه فى السماء. وقيل الزَّحْل والزَّحِيل[1] الحقد وهو فى طبعه . وهذا الكوكب عند المفسرين هو المعنىّ بقول الله عز وجل ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ .

(١) الذحل الذى بمعنى الحقد بالذال المعجمة ولم يذكره أحد من أئمة اللغة فى الزاى . فهو آشتباه على الناقل . والذى "فى اللسان" أنه سمى بذلك لبعده .

§ وقالوا فى المشترِى : إنه إنما سُمِّى بذلك لحسنه ، كأنه اشترىٰ الحسنَ لنفسه . وقيل لأنه نجم الشراء والبيع ، ودليل الأموال ، والأرباح .

§ وقالوا فى المِرّيخ : إنه مأخوذ من المَرْخ (وهو شجر تحتك بعض أغصانه ببعض فتورِى نارا) فسمِّى بذلك لاحمراره . وقال آخرون المرّيخ سهمٌ لاريش له إذا رُمِىَ به لايستمرّ فى ممرّه . وكذلك المِرّيخ ، فيه التواء كثير فى سيره وحكمه ، فشبه بذلك .

§ وقالوا فى الشمس : إنها لما أن كانت واسطة بين ثلاثة كواكب عُلوية وثلاثة سفلية ، سميت بذلك لأن الواسطة التى فى المِخْنَقة تسمّٰى "شمسة" .

§ وقالوا فى الزُّهَرَة : إنها مشتقة من الزاهر ، وهو الأبيض النَّيِّر من كل شىء .

§ وقالوا فى عطارد : إنه النافذ فى الأمور ، ولهذا سمِّى بالكاتب . وهكذا هذا الكوكب كثير التصرف مع مايلابسه ويقارنه .

§ وقالوا فى القمر : إنه مأخوذ من القُمْرة ، وهى البياض ؛ والأقمر الأبيض .

§ والفُرس تسمِّى هـذه الكواكب بلغتها "كِيوان" ، ويعنون به زُحَل ؛ و "تير" ، ويعنون به المشترِىَ (وبعضهم يسميه "البِرْجيس") ؛ و "بَهْرام" ويعنون به المِرّيخ ؛ و "مِهْر" ويعنون به الشمس ؛ و "أَناهيد" ويعنون به الزُّهَرَة (وبعضهم يسميها "بِيدُخْت") ، و "هِرْمِسْ" (ويعنون به عُطارد) ، و "ماه" (ويعنون به القمر) .

§ وقد جمع بعض الشعراء أسماء هـذه الكواكب فى بيت واحد من بيتين يمدح بهما بعض الرؤساء فقال :

لازلتَ تَبقىٰ وتَرقىٰ للعُـلَا أبدًا * مادامَ للسَّبعةِ الأفلاكِ أحكامُ!

مِهْرٌ، وماهٌ، وكِيوانٌ، وتيرُ معًا * وهِرْمِسٌ ، وأَناهيدٌ ، وبَهْرامُ!

وقال أبو إسحاق الصابى :

نَلِ المُنىٰ فى يَوْمكَ الأجْوَدِ، * مُسْتَنْجِحا بالطالع الأسْعَدِ!
وٱرقَ كَمَرْقىٰ زُحَلٍ صاعدًا * إلىٰ المَعالى أشرفَ المَقْصِدِ!
وفِضْ كفَيْضِ المُشْتَرِى بالنَّدىٰ * إذا ٱعْتَلىٰ فى أُفْقِه الأبعدِ!
وزِدْ علىٰ المِرّيخ سَطْوًا بمَنْ * عاداكَ مِنْ ذى نَخْوةٍ أَصْيَدِ! ٥
وٱطْلُعْ كما تَطْلُعُ شمسُ الضُّحىٰ * كاسفةً للحِنْدِسِ الأسْوَدِ!
وخُذْ من الزُّهرةِ أفعالَها * فى عَيْشِكَ المُسْتَقْبَلِ الأرغدِ!
وَضَاهِ بالأقْلامِ فى جَرْيِها * عُطارِدَ الكاتِبَ ذا السُّودَدِ!
وبَاهِ بالمَنْظَرِ بَدْرَ الدُّجىٰ * وٱفضُلْهُ فى بَهْجَتِه وٱزْدَدِ!

وقد ٱختُص كلُّ كوكب من هذه الكواكب بقول . سنذكر من ذلك ماتقوم به ١٠ الحجة، وينهض به الدليل من الكتاب والسنة، وما يُتَمثَّل به مما فيه ذكرها، وما ورد فى ذلك من الأوصاف والتشبيهات : نظما ونثرا مما وقفتُ عليه فى أثناء مطالعتى لكتب الفضلاء، وتصانيفهم ودواوينهم. وعدلتُ عن أقوال المنجمين لما فيها من سوء الطويّة وقبح الٱعتقاد : لأن منهم من يرىٰ أن للنجوم فى الوجود تأثيرات وأفعالا . أعاذنا الله تعالىٰ من ذلك! ١٥

٢ — ذكر ما قيل فى الشمس

(والشمس هى النيِّر الأعظم)

وقد ذهب بعض المفسرين لكتاب الله تعالىٰ إلىٰ أن نور الشمس والقمر فى سائر السماوات بدليل قول الله عز وجل : ﴿وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ .

وجاء فى الحديث عن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "الشمس والقمر وجوههما إلىٰ السماء وأقفاؤهما إلىٰ الأرض" وفى حديث آخر "وجوههما إلىٰ العرش وأقفاؤهما إلىٰ الأرض". وفى حديث آخر "ان الشمس تكون فى الصيف فى السماء الخامسة، وفى الشتاء فى السماء السابعة تحت عرش الرحمن".

٥ § وزعموا أن حركتهما وحركة سائر الكواكب مستقيمة غير مستديرة، وأن الشمس تقطع سماء الدنيا فى يومها، وتغيب فى الأرض فى عين حَمِئَةٍ . ومعنىٰ حَمِئة ذات حَمْأة .

وقد جاء فى تفسير قوله تعالىٰ ﴿ والشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ أى إلىٰ موضع قرارها، لأنها تجرى إلىٰ أبعد منازلها فى الغروب، ثم ترجع؛ ومن قرأ "لامستقر" لها أى هى دائبة السير ليلا ونهارا . وهى قراءة شاذة[1] .

١٠ وقد قال الله تعالىٰ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والقَمَرَ دائِبَيْنِ ﴾ وروى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال: إنها تجرى لمستقر لها تحت العرش، فتخر ساجدة؛ فلا تزال كذلك حتّى يُؤْذَن لها فى الطلوع . ويوشك أن يقال لها : آرجعى من حيث جئت؛ وذلك طلوعها من مغربها .

١٥ وذهب وَهْب بن مُنَبِّه إلىٰ أن الشمس علىٰ عجلة لها ثلثمائة وستون عروة، وقد تعلق بكل عروة مَلَكٌ؛ يجرّونها فى السماء ودونها البحر المسجور فى موج مكفوف كأنه جبل ممدود فى الهواء، ولو بدت الشمس من ذلك البحر لأحرقت ما علىٰ وجه الأرض من شىء حتّى الجبال والصخور. ورُوى عن كعب أنه قال: "خلق الله القمر من نور وخلق الشمس من نار" .

(١) هذا الرأى هو الذى آستقر عليه علماء الفلك أخيرا، بعد التحقيق والتدقيق . فللّه در صاحبه! فإنه، ٢٠ وإن كان قد خالفه فيه الدهماء، لكنه قد أقرّه الراسخون فى العلم الآن .

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ . والسراج لا يكون إلا من نار، وهما مضيآن لأهل السماوات، كما يضيآن لأهل الأرض .

وقد تقدّم الدليل على ذلك .

٣ — ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الشمس

يقال : أشهرُ من الشمس . أحسنُ من الشمس . أدلُّ على الصبح من الشمس .

ومن أنصاف الأبيات :

* وهَلْ شمسٌ تكونُ بلا شُعاعٍ *	* فى طَلْعةِ الشمسِ ما يُغنيكَ عن زُحَلِ *
* ولو لم تَغِبْ شمسُ النهار، لمُلَّتِ *	* الشمسُ نَمَّامةٌ والليـلُ قَـوّادُ *
* الشمسُ طالعةٌ إنْ غُيِّبَ القمرُ *	* ورُبَّما تَنْكَسِفُ الشَّمْسُ *
* والشمسُ تنحطُّ فى المجرى وترتفعُ *	* إذا الشمسُ لم تغرُبْ، فلا طَلَعَ البدْرُ *

ومن الابيات قول الطائى :

فإنّى رأيتُ الشَّمسَ زِيدَتْ مَحبَّةً * إلى الناس إذ لَيْسَتْ عليهم بسَرْمَد .

وقال علىّ بن الجهم .

والشَّمْسُ لولا أنها مَحْجُوبةٌ * عن ناظِرَيْكَ لما أضاءَ الفَرْقَدُ .

وقال أبو تمّام :

وإنّ صَريحَ الرأْى والحَزْمِ لامرئٍ * إذا بلغَتْهُ الشمسُ، أن يَتَحوّلا .

وقــوله :

وكلُّ كُسوفٍ في الدَّرارِي شنيعةٌ، * ولٰكنَّه في الشمْسِ والبَدْرِ أشْنَعُ.

وقــوله أيضا :

أعِنْدكَ الشمسُ تَجْرِي في مَنَازِلِهَا، * وأنْتَ مُشتَغِلُ الالْحاظ بالقَمَرِ؟

٥ وقال البُحتُرِيُّ :

كَذاكَ الشَّمسُ تَبْعُد أن تُسامَى، * ويَدْنُو الضَّوْءُ منهـا والشُّعاعُ.

وقال ٱبن الرومى :

ورأيتُهُ كالشَّمْس: إن هي لم تُنَلْ * فالدِّفْء منهـا والضِّياء يُنَـالُ.

وقال أيضـا :

١٠ كالشَّمْسِ لا تَبْـدُو فَضِـيلتُها * حتّى تُغَشّى الأرضُ بالظُّـلَمِ.

وقال أيضـا :

كالشمسِ في كَبِدِ السماءِ مَحَلُّها، * وشـعاعُهـا في سـائرِ الآفاقِ.

وقال العبّاس بن الأحنف :

هِيَ الشمسُ مَسْكَنُها في السماء، * فعَزِّ الفُـؤَادَ عَزَاءً جميـلا!

١٥ وقال أبو عبيد البكريّ :

والشمسُ يُستَغْنَى، إذا طلَعَتْ، * أنْ يستَضاءَ بغرّة البَـدْرِ.

وقال أبو الطيب المتنبي :

كالشمسِ لا تبتغِي بمـا صَنَعتْ * مَنفَعَةً عِندَهُـمْ ولا جاهَـا.

وقال آبن لَنْكَك البصرىّ :

وَهَبْكَ كالشَّمْس فى حُسنٍ، ألم تَرَها * يُفَرُّ منها إذا مالَتْ إلى الضَّرر؟

وقال آبن عَبّاد :

فقلتُ : وشمسُ الضُّحىٰ تُحْتَمىٰ * إذا بَسطَتْ فى المَصِيف الأَذىٰ .

وقال ابن مسعويه الخالدىّ : ٥

لا يُعْجِبَنَّـكَ حُسْنُ القَصْرِ تَنْزِلُه * فَضِيلةُ الشمسِ لَيْسَتْ فى مَنازلها .

وقال أبو الفتح البُسْتِىّ :

فالحُرُّ حُرٌّ عَزِيزُ النَّفْسِ حَيْثُ ثوىٰ ، * والشَّمسُ فى كُلِّ بُرْجٍ ذاتُ أنوار .

---

٤ — ذكر ما جاء فى وصف الشمس وتشبيهها

§ من ذلك قول الوزير المهلَّبىّ : ١٠

الشَّمْسُ فى مَشْرِقِها قد بَدَتْ * مُنِـيرةً لَيْسَ لهـا حاجِبُ .

كأنَّهـا بُودَقَـةٌ أُحْمِيتْ ، * يَجُـولُ فيهـا ذهبٌ ذائبٌ .

وقال ظافر الحدّاد :

أُنْظُرْ لقَرْنِ الشَّمْسِ بازِغَةً * فى الشَّرْق تَبْدُو ثم تَرْتَفِع !

كَسَبِيكةِ الزَّجّاج ذائبـةً * حَمْـراءَ يَنْفُخُها فتَتَّسِع . ١٥

وقال أبو هلال العسكرىّ :

والشمسُ واضِحةُ الجَبِينِ كأنَّها * وجهُ المَلِيحةِ فى الخِمَار الأزْرقِ !

وكأنّها عِندَ انبِساطِ شُعاعِها * تِبرٌ يَذُوبُ على فُرُوعِ المَشرِق!

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبيّ :

أوَ ما ترىٰ شمسَ الأصيلِ عليلةً * تَزدادُ من بينِ المَغارِبِ مَغرِبا؟

مالَتْ لتحجُبَ شخصَها فكأنَّها * مَدّتْ على الدُّنيا مُلاءً مُذْهَبا!

٥ § ومما وصفت به — وقد قابلت القمر — قول الشاعر :

أما ترىٰ الشمسَ، وهْىَ طالِعةٌ، * تمنعُ عنّا إدامةَ النَّظَرِ؟

حمراءَ صفراءَ فى تلوُّنِها * كأنَّها تشتكى من السَّهَرِ،

مِثلَ عَرُوسٍ غَداةَ ليلتِها * تُمسِكُ مِرآتَها من القمرِ.

وقال مؤيد الدين الطغرائى، عفا الله عنه ورحمه :

١٠ وكأنَّما الشمسُ المُنيرةُ إذ بَدَتْ، * والبدرُ يجنَحُ للمَغيبِ وما غَرَبْ،

مُتحارِبانِ : لِذا مِجَنٌّ صاغَهُ * من فِضّةٍ، ولِذا مِجَنٌّ من ذَهَبْ.

§ ومن أحسن ما وصفت به فى الطلوع والزوال والغروب قول أعرابى :

مُخَبَّأةٌ : أمّا إذا اللّيلُ جَنَّها * فتخفى، وأمّا فى النَّهارِ فتظهرُ.

إذا انشقَّ عنها ساطِعُ الفجرِ وانجلىٰ * دُجى الليلِ وانجابَ الجِلادُ المُستّرُ

١٥ وأُلبِس عَرْضُ الأُفقِ لَونًا كأنّهُ * على الأُفُقِ الغربىّ ثوبٌ مُعَصفَرُ

عليها ذُروعُ الزّعفرانِ، يَشُوبُهُ * شُعاعٌ تَلالا فهو أبيضُ أصفرُ؛

ترىٰ الظِّلَّ يُطوىٰ حينَ تَبدُو وتارةً * تراه إذا زالَتْ عن الأرضِ يُنشَرُ.

فأفنَتْ قُرونًا، وهْىَ فى ذاكَ لم تَزَل * تَموتُ وتَحيا كُلَّ يومٍ وتُنشَرُ!

وقال آخر:

وبدا لنا تُرْسٌ من الذَّهبِ الذى * لم يُنْتَزَعْ من مَعْدِنٍ بتَعَمُّلِ

مِرْآةُ نُورٍ لم تُشَنْ بصِياغةٍ * كَلَّا ولا جُلِيَتْ بكفِّ الصَّيْقَلِ

تسمو إلى كَبِد السماء كأنَّها * تبغى هُناكَ دِفاعَ أمرٍ مُعْضِلِ

حتّى إذا بلَغَتْ إلى حيثُ انتَهَتْ * وقفَتْ كوقفةِ سائلٍ عن منْزِلِ ٥

ثم انثنَتْ تبغى الحُدورَ كأنها * طيرٌ أَسَفَّ مَخافةً من أجْدلِ

§ ومما وصفت به، وقد قابلت الغيم، قول ابن المعتز:

تظَلُّ الشمسُ ترمُقُنا بطَرْفٍ * خَفِىٍّ لَحْظُه من خَلْفِ سِتْرِ

تُحاوِلُ فَتْقَ غَيمٍ وهو يأبى * كعِنِّينٍ يُحاوِلُ نَيْلَ بِكْرِ

وقال آخر: ١٠

وعَيْنُ الشمسِ تَرْنُو من بَعيدٍ * رُنُوَّ البِكْرِ من خَلْفِ السُّتُورِ

وقال محمد بن رشيق:

فكأنَّ الشَّمسَ بِكْرٌ حُجِّبَتْ * وكأنَّ الغَيْمَ سِتْرٌ قد سُتِرْ[1]

---

٥ — ذكر شىء مما وصفت به على طريق الذم

فمن ذلك ماقاله عبد الملك بن عمير، وقد سئل عنها فقال: مُظْهِرة للدّاء، مثقِّلة ١٥ للهواء، مَبْلاة للثوب، جالبة للّهب.

وقال آخر: الشمس تشحب اللون، وتغيِّر العَرَق، وتُرخى البدن، وتُثير المِرّة. إذا احتجمت فيها، أمرضتك؛ وإن أطلت النوم فيها، أفلجتك؛ وإن قرُبت منها، صرت زَنْجيًّا، وإن بعدت عنها، صرت صِقِلِّيًّا.

---

(١) كذا بالأصل ولعل يد الناسخ حرفته عن "سدل" كما هو ظاهر. ٢٠

وقال ٱبن سنا الملك :

لا كانت الشمسُ! فكَمْ أصْدأتْ * صَفْحةَ خدٍّ كالحُسَام الصَّقيلْ!

وكَمْ وكَمْ صَدتْ بِوَادِى الكرَى * طيفَ خيالٍ جاءنِى عن خَليلْ!

وأعدمَتْنِى من نُجُومِ الدُّجَى * ومنه روْضًا بين ظِلٍّ ظليلْ!

٥ تَكْذِبُ فى الوَعْدِ، وبُرهَانُه * أنّ سَرَابَ القَفْرِ منها سَليلْ.

وهْىَ إذا أبصَرَها مُبْصِرٌ * حَدِيدُ طرفٍ، راحَ عنها كَليلْ.

ياعِلَّةَ المَهْمُومِ، يا جالدةَ الـ * ـمحموم، يا زَفْرةَ صَبٍّ نحيلْ!

ياقرْحةَ المَشرِق عند الضحى، * وسَلْحَةَ المَغرِب عِنْد الأصيلْ!

أنتِ عَجُوزٌ، لِمْ تبرَّجْتِ لِى، * وقد بَدَا منْكِ لُعَابٌ يَسِيلْ؟

١٠ وقال التيفاشى، عفا الله تعالى عنه ورحمه :

فى خِلْقةِ الشمس وأخلاقِها * شَتَّى عُيُوبٌ ستة تُذْكَرْ.

رَمْداءُ، عَمْشاءُ، إذا أصبحَتْ، * عَمياءُ عِنْدَ اللّيلِ، لاتُبصِرُ.

ويَغْتدِى البدرُ لها كاسِفًا * وجِرْمُها من جِرْمِه أكبَرْ.

خُرورُها فى القَيْظِ لانَتَّقِى * ودِفْؤُها فى القُرّ مُستَحْقَر.

١٥ وخُلْقُها خُلْقُ المَلِيكِ الذى * ينْكُثُ فى العهد ولا يَصبِرْ.

ليستْ بحسناءَ. وما حُسْنُ مَنْ * يَحْسِرُ عنه اللحظُ لا يُبصَرُ؟

وقال أبو الطيب المتنبى :

تُسوِّدُ الشَّمسُ منّا بِيضَ أوْجُهنا * ولا تُسوِّدُ بِيضَ العُذْرِ واللِّمَمِ.

وكان حالُهما فى الحكم واحدةً * لو ٱحْتَكَمْنا من الدُّنيا إلى حَكَمِ.

٦ — ذكر ما قيل فى الكسوف

روى أن الشمس كُسفت فى عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ووافق ذلك موتَ إبراهيم بن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال الناس: إنما كسفت الشمس لأجله فقال النبىّ (صلى الله عليه وسلم) "إنّ الشمسَ والقمرَ آيتان من آيات الله تعالىٰ يُخَوِّف بهما عباده، وإنهما لا يكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك، فادْعُوا اللهَ وكبِّروا وصلُّوا حتّى يكشَفَ ما بكم".

وقال محمد بن هانئ فى الكسوف.

هى الحوادثُ لا تُبْقى ولا تَذَرُ! * ما للبَرِيَّة من مَحْتُومها وَزَرُ!
لَوْ كان يُنْجِى عُلُوٌّ من بَوَائِقِها، * لم تُكْسَفِ الشمسُ بل لم يَخْسَفِ القمرُ!

---

٧ — ذكر أسماء الشمس اللغوية

وللشمس أسماء نطقت بها العرب. فمنها: ذُكاءُ، والجارية، والجَوْنة، والغَزَالة، واللاهة[1]، والضُّحىٰ، والضِّحُّ، ويُوح (بالياء المثناة والباء الموحدة)، والشَّرْق، وحَنَاذِ، والعَيْن، والمؤَوِّبة، والسِّراج.

(١) الذى فى كتب اللغة أن اللاهة اسم لحيّة. وأما الشمس فاسمها الإلاهة مثلثة وأليهة. فلعل ما هنا تصحيف من الناسخ.

٨ — ذكر عُبَّاد الشمس

قال الشهرستانىّ فى كتابه المترجم "بالملل والنحل" : إن عَبَدة الشمس طائفةٌ من الهنود يسمّون الديبكيتية(١) أى عباد الشمس، ومذهبهم مذهب الصابئة . وتوجههم إلى الهياكل السماوية دون قصر الإلهية والربوبيّة عليها . و يزعمون أن الشمس ملَك من الملائكة، وأن لها نفسا وعقلا ، ومنها نور الكواكب ، وضياء العالم، وتكوّن الموجودات السفلية . وهى مَلَك يستحق التعظيم ، والسجود، والتبخير، والدعاء . ومن سنتهم أنهم ٱتخذوا لها صنما بيده جوهرة على لون النار . وللصنم بيت خاصّ بنوه بٱسمه ووقفوا عليه ضياعا ، وله سَدَنة وقُوّام . فتأتى هذه الطائفة إلى البيت ، و يصلّون فيه ثلاث كرّات . و يأتى أصحاب العلل والأمراض فيصومون له ، و يصلّون ، و يدعون ، ويستشفون به .

٩ — ذكر ماقيل فى القمر

(وهو النير الثانى)

ذهب وَهْبُ بن مُنَبِّه أن القمر موضوع على عجلة فى فَلَك ، والفلك يدور بأمر الله تعالى إلى ناحية المغرب ، والعجلة يجرّها ثلثمائة وستون ملكا إلى ناحية المشرق ؛ وتدوير العجلة من تدوير الفلك الأعظم ؛ وتدوير فلك القمر من تدوير العجلة .

و يقال : إن القمر كان كالشمس فى الضياء ، فلم يكن يعرف الليل من النهار ، فأمر الله تعالى جبريل أن يمرّ عليه بجناحه ، فمرّ عليه ، فمحاه . فهو ما ترى فيه من السواد .

(١) الذى فى الشهرستانى طبع لوندرة : "الدينكيتيّة" . وهو الأقرب للصواب و بقول مترجمه الألمانى العلامة هاربردكرانه ولعله من "ديناكَرت" ومعناه «صانع النهار» .

وبهذا القول فسر قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ .

قالوا : ولا يسمّى قمرا إلا بعد مضىّ ثلاث ليال من آستهلاله . والأقمر هو الأبيض .

---

١٠ — ذكر ما قيل فى القمر

(من آستهلاله إلى آنقضاء الشهر وأسماء لياليه) ٥

قالوا : وللقمر من أوّل الشهر إلى آخره خمسُ حالات ، وللياليه عشرة أسماء

§ أما حالاته الخمس :

فالأولى : الهلالية ، وهى خروجه من تحت شُعاع الشمس وظهوره فى الغرب فى أوّل الشهر .

الثانية : أن يفضل فيه النور على الظلمة ، وذلك فى الليلة السابعة من الشهر . ١٠

الثالثة : الآستقبال ، وهو كونه فى البرج السابع من بروج الشمس ، ويسمّى الآمتلاء لآمتلاء القمر فيه نورا ، وذلك فى الليلة الرابعة عشرة من الشهر ، ويسمّى القمر فيها بدرًا لكماله ، ويسمّى بذلك لآمتلائه ، وقيل لمبادرته الشمسَ بالطلوع ، وتسمّى الليلة التى قبلها (وهى الثالثة عشرة) ليلة السَّواء لآستواء القمر فيها ، وقيل : لآستواء ليلها ونهارها فى الضياء ، وهى ليلة التَّمام . ١٥

الرابعة : أن تفضل الظلمة فيه على النور ، وذلك فى الليلة الثانية والعشرين من الشهر .

الخامسة : المحاقيّة ، وهى مُدّة آستتاره بُشعاع الشمس ؛ ويسمّى ذلك أيضا سِرارا ، وذلك فى الليلة التاسعة والعشرين ، ويمكن أن يغيب ثلاث ليال لا يرى ويهلّ فى اليوم الرابع ، ويسمّى حينئذ قمرا لاهلالاً ؛ والشمس تعطيه من نورها كلّ ليلة مايستضىء به نصفَ سُبع قُرصه حتّى يكمل ، ثم يُسْلَبُه من الليلة الخامسةَ عشرةَ ، فى كل ليلة نصف سبع قرصه حتّى لا يبقى فيه نور فيستتر .

§وأما أسماء لياليه ، فإنه يقال لأوّل ثلاثة منها غُرَر ، والثانية شُهب ، والثالثة زُهْر ، والرابعة بُهْر ، والخامسة بِيض ، والسادسة دُرَع ، والسابعة حَنادِس (١) ، والثامنةُ ظُلَم ، والتاسعة دَآدِ ، والعاشرة ليلتان منها مِحَاق وليلة سِرَار ؛ ويسمّون الليلة الثامنة والعشرين الدَّعْجاء ، والليلة التاسعة والعشرين الدَّهماء ، والليلة المُوفِيَةَ ثلاثين اللَّيْلاَء ، ويسمّونها ليلة البَرَاء لتبرّى القمر من الشمس .

١١ — ذكر أسماء القمر اللّغوية

وللقمر أسماء نطقَتْ بها العرب . فمنها : القَمر ، والباهِر ، والبَدْر ، والطَّوْس ، والجَلَمُ ، والغاسِقُ ، والوَبّاص ، والزِّبْرِقانُ ، والمُنْشَقُّ (٢) ، والواضِح ، والباحُور ، والأبرص ، والزَّمْهَرِير . ومنه قول الله سبحانه وتعالى : ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا﴾ وقول بعض العرب .

وليلةٍ ظَلاَمُها قد آعتكرْ * قَطَعْتُها والزَّمهريرُ ما ظهرْ .

---

(١) الذى فى اللسان والقاموس : ان الظُّلَمَ ، ثلاث ليال يَلِينَ الدُّرَع . والحنادس ، ثلاث ليال بعد الظلم . ويؤيده ما فى الصحاح : ان الحِنْدِس الليل الشديد الظلمة . وقد ذكر ابن سيدة هذه الأسماء فى المخصص (ج ٩ ص ٣٠ — ٣١) وأوردها على هذا الترتيب . وعليه فصواب العبارة هكذا : (والسادسة درع ، والسابعة ظلم ، والثامنة حنادس الخ) اھ .

(٢) الذى فى كتب اللغة : ان الوضح القمر ، فلعله تحريف من الناسخ .

ومن أسمائه : السِّنِمَّار، والسَّاهُور .

§ والفَخْت ضوءُه، والأَخْذ[1] مَنزلته . وكذلك الوَكْس، وهى المنزلة التى يُكْسَف فيها . والهالَة دارتُه .

١٢ — ذكر مايتمثل به ممـا فيه ذكر القمر

يقال فى أمثالهم : ٥

أضيَعُ من قمر الشتاء! قيل لأنه لايُجلَس فيه .

إن يَبْغِ عليكَ قومُكَ، لا يَبْغِ عليك القمر .

ويقال : أضوأ من القمر، وأتمُّ من البدر .

ومن أنصاف الأبيات :

* أُرِيها السُّهَا وتُرِينِى القَمَرْ * * لاتَخْرُجُ الأقمارُ من هالاتها * ١٠

* هكذا البَدْرُ فى الظَّلام يُوافِى * * كذاك كُسُوفُ البدرِ عِنْدَ تَمامِه *

ومن الأبيات قول الطائى :

إنَّ الهِلَالَ إذا رأيتَ نُمُوَّه * أيقنتَ أنْ سيكُونُ بَدْرا كاملا .

وقال ابن أبى البغل، والبيت الثانى لابن بحر :

المَرْءُ مِثْلُ هِلالٍ حين تُبْصِرُه * يَبْدُو ضعيفًا ضَئِيلا ثم يَتَّسِق . ١٥

«يَزْدادُ حتَّى إذا ماتَمَّ أعْقَبَه * كَرُّ الجَدِيدَيْنِ نَقْصًا ثم يَنْمَحِق» .

وقال أبو الفرج الببغا :

ستَخْلُصُ من هذا السِّرار وإنَّما * هلالٌ تَوارَى فى السِّرارِ فما خَلَصْ !

(١) عبارة اللسان فى مادة (ا خ ذ) : ونجوم الأخذ منازل القمر لأن القمر يأخذ كل ليلة فى منزل منها اهـ .

١٣ — ذكر ماقيل فى وصفه وتشبيهه

من ذلك قول عبد الله بن المعتز فى الهلال :

وَٱنْظُرْ إليهِ كَزَوْرَقٍ من فِضَّةٍ * قد أثقلَتْه حُمُولُه من عَنْبرِ !

وقول عبد الجبار بن حمديس الصقلىّ :

٥ ورُبَّ صُبْحٍ رقَبْناهُ، وقد طَلَعتْ * بَقِيَّةُ البَــدْرِ فى أُولىٰ بَشَـائِرِهِ !

كأنَّمـا أدْهَمُ الإظْلامِ حينَ نَجَـا * من أشْهبِ الصُّبْحِ، ألقىٰ نَعْلَ حافِرِهِ !

وقال آخر :

قدِ ٱنقضَتْ دَوْلةُ الصِّيامِ وقد * بَشَّر سُقْمُ الهِلالِ بالعِيــدِ !

يَتْـلُو الـثُّرَيَّا كفاغِرٍ شَرِهٍ * يَفْتَحُ فاهُ لأَكْلِ عُنْقُــودِ !

١٠ وقال أبو هلال العسكرىّ :

فى هِلَالٍ كأنَّهُ حَيَّــةُ الرَّمْـــلِ أصابَتْ علىٰ اليَفَاعِ مَقِيلا .

باتَ فى مِعْصَمِ الظَّلامِ سِوَارًا * وعلىٰ مَفْرِقِ الدُّجىٰ إكْليلا .

وقال آخر :

والجَوُّ صافٍ والهِلالُ مُشَنَّفٌ * بالزُّهرة الزَّهْراء نَحْوَ المَغْرب .

١٥ كصَحِيفةٍ زَرْقاءَ فيهـا نُقْطةٌ * من فضةٍ من تحتِ نُونٍ مُذْهَب .

وقال آخر :

قُلْتُ لَمَّا دنَتْ لمَغْرِبِهـا الشَّمْــسُ ولاحَ الهِلَالُ للنُّظَّـار :

أقرضَ الشَّرقُ صِنْوَه الغَرْبَ دينًا * رافأعطاهُ الرَّهْنَ نِصفَ سِوَار .

(٣٠) وقال أبو العلاء المعرّى :

ولاحَ هِلالٌ مثلُ نُونٍ أجادَهَا * بذَوْبِ النُّضارِ الكاتبُ ابنُ هلالِ .

وقال آخر :

وكأنّ الهلالَ نُونُ لُجَيْنٍ * غَرِقتْ فى صحيفةٍ زَرْقاءِ .

وقال أبو عاصم البصرىّ من شعراء اليتيمة : ٥

رأيتُ الهلالَ، وقد أحدَقَتْ * نُجُومُ الثُّريّا لكى تَسْبِقَه .

فشَبَّهتُهُ وَهْو فى إثرِها * وبينَهُما الزُّهَرةُ المُشْرِقَه ،

بقَوْسٍ لِرامٍ رَمَى طائرًا * فأتْبَعَ فى إثرِه بُنْدُقَه .

وقال آخر :

ولاحَ لنَا الهلالُ كشَطْرِ طَوْقٍ * على لَبّاتِ زَرقاءِ اللّباسِ . ١٠

وقال الواواء الدمشقىّ رحمه الله :

وكأنّ الهلالَ تحتَ الثُّرَيّا * مَلِكٌ فوقَ رأسه إكليلُ !

وقال إبراهيم بن محمد المرادىّ، من شعراء الأُنموذج، ملغزا فيه :

دَعْ ذا! وقُلْ للنّاس: ما طارقٌ، * يَطْرُقُكُمْ جَهْرًا ولا يَتَّقِى ؟

ليس له رُوحٌ على أنّهُ * يَرْكَبُ ظَهْرَ الأدْهَمِ الأبْلَقِ . ١٥

شَيْخٌ رَأَى آدمَ فى عَصْرِه * وهْوَ إلى الآنَ بخَدٍّ نَقِى .

ومدّ وَسْطَ السِّجْنِ مع قومه * لا يَبْرَى من نَهْجِه الضَّيِّقِ .

هذا ويَمْشِى الأرضَ فى لَيْلةٍ * أعْجِبْ به مِن مُوثَقٍ مُطْلَقِ .

فتارةً يَــنْزِلُ تحتَ الــثَّرىٰ * وتارةً وَسْطَ الســما يَرْتَقى .

وتارةً يُوجَــدُ في مَغْــرِبٍ * وتارةً يُوجَد في المَشْــرِق .

وتارةً تحسَــبُه سابِحًــا * يَسْرِى بشاطِئ البَحْرِ كالزَّوْرَق .

وتارةً تحسَــبُه وهْــوَ في * أستارِه والبعضُ منه بَقِى ،

ذُبابةٌ من صارِمٍ مُرْهَفٍ * بارِزةٌ من جَفْنِه المُطْبَق .

٥ يَدْنُو إلىٰ عِــرْس له حُسْنُهــا * يختَطِفُ الأبصــارَ بالرَّوْنَق .

حــتّى اذا جا معها يَرْتَدِى * بحُــلَّةٍ سَــوْداءَ كالمُحْرَق .

وهــو علىٰ عادتِه دائمًــا * يُجامِعُ الأنثىٰ ولا يَتَّــقِى .

ثم يَجُوبُ القَــفْرَ من أجلِهــا * مُشْــتَمِلا في مُطْرَفٍ أزرقِ .

١٠ حــتّى إذا قابَلَهــا ثانيًــا * تَشُكُّه بالرُّمْح في المَفْــرِق .

وبَعْــد ذا تُلْبِسُــه حُلَّةً * يا حُسْنَها في لَوْنِهــا المُونِق !

فجِسْــمُه من ذهبٍ جامِدٍ * وجِلْدُه صِيغَ مِنَ الزِّئْبَق .

وهو إذا أبصرتَه هــكذا * أملحُ من صــاحبة القُرْطَق .

وقال ابن المعتز :

١٥ نَظَــرْتُ في يَوْمِ لَذَّةٍ عَجَبًا * وافىٰ به للسُّــعودِ مِقْــدارُ .

يقابِلُ الشمسَ فيه بدرُ دُجى * يأخُذُ من نُورِهــا ويَمْتــارُ .

كصَيْرَفِيٍّ يروحُ منتَقِــدًا * في كَفِّه دِرْهَــمٌ ودينَــارُ .

وقال عبد الله بن علىّ الكاتب :

كَشفَ البدرُ وجْهَهُ لتمامٍ، * فوُجُوه النُّجُومِ مستتِراتُ .
وكأنّ البَدْرَ التَّمامَ عَرُوسٌ، * وكأنّ النُّجُومَ مُستنقِباتُ .

١٤ — ذكر شىء مما قيل فيه على طريق الذم

حكى أن أعرابيا رأى رجلا يرقُبُ الهلال . فقال له : ماترقب فيه، وفيه عيوب ٥
لو كانت فى الحمار لَرُدَّ بها؟ قال: وما هى؟ فقال : إنه يهدم العمرَ، ويقرّب الأجل،
ويُحِلُّ الدَّين، ويَقرِض الكتّان، ويشحب اللون، ويفسد اللحم، ويَفضَح الطارق،
ويَدُلُّ السارق .

(٢١) ومن عيوبه أن الإنسان إذا نام فى ضوئه حدث فى بدنه نوع من الاسترخاء
والكسل، ويهيج عليه الزكام والصُّداع ؛ وإذا وُضعت لحوم الحيوانات مكشوفة ١٠
فى ضوئه، تغيرت طعومها وروائحها .

وقال ابن الرومىّ :

رُبَّ عِرضٍ مُنزَّهٍ عن قبيحٍ * دنَّسته مُعرِّضاتُ الهجاء .
لوأرادَ الأديبُ أن يَهجُوَ البَدْ * رَ، رمَاهُ بالخُطّة الشَّنعاء .
قال : يابدْرُ أنتَ تَغدُرُ بالسَّا * رِى وتُزْرِى بزَوْرَة الحَسْناء . ١٥
كَلَفٌ فى شُحُوبِ وجهِكَ يَحْكى * نُكَتًا فوقَ وَجْنةِ بَرْصاءِ .
يَعتريكَ المحاقُ ثُمّ يُحَلِّيـ * ـكَ شبيهَ القُلامة الجَنْاء .

ويَليكَ النُّقصانُ فى آخِرِ الشَّهْـ * ـرِ فيمْحُوكَ من أديمِ السَّماء .
فإذا البَدْرُ نِيلَ بالهَجْوِ، هَلْ يا * مَنْ ذُوالفَضْلِ ألْسُنَ الشُّعراء ؟
لا لأجْلِ المَديحِ، بلْ خِيفَةَ الهَجْـ * ـوِ أخذْنا جَـوَائِزَ الخُلَفاء !

هذا ما أمكن إيراده فى القمر، فلنذكر خبر عُبّاد القمر .

١٥ — ذكر عُبّاد القمر

٥

قال الشهرستانيّ : عُبّاد القمر طائفة من الهنود يسمُّون الحندر بكتية[١]، أى عُبّاد القمر . يزعمون أن القمر ملَك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفليّ، ومنه نُضْج الأشياء المتكوّنة وآتصالها إلى كمالها، وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات؛ وهو تِلْو الشمس وقرينها، ومنها نوره، وبالنظر إليها زيادته ونقصانه ؛ ومن سُنّتهم أنهم آتخذوا صنما على عجلة تجرّه أربعة[٢]، وبيده جوهرة؛ ومن دينهم أن يسجدوا له ويعبدوه، وأن يصوموا النصف من كل شهر، ولا يفطروا حتّى يطلع القمر، ثم يأتون الصنم بالطعام والشراب واللبن، ثم يرغبون إليه وينظرون إلى القمر، ويسألونه حوائجهم ؛ فإذا آستهل الشهر عَلَوُا السُّطوح، وأوقدوا الدُّخَن، ودعَوْا عند رؤيته، ورغبوا إليه، ثم نزلوا عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح والسرور، ولم ينظروا إليه إلا على وجوه حسنة . وفى نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار، أخذوا فى الرقص واللعب بالمعازف بين يدى الصنم والقمر .

١٠

١٥

(١) فى الشهرستانى طبع لوندرة : "الجندريكنية" . وأفادنا مترجمه الى الألمانية أن "چندراكا" معناه القمر فى لغتهم .

(٢) الذى فى الشهرستانى : صنما على صورة عجل وبيد الصنم الخ .

١٦ — ذكر ما قيل فى الكواكب المتحيرة

والكواكب الخمسة الباقية من الكواكب السبعة تُسمّى المتحيرة. ثلاثة منها علوية تعلو أفلاكُها فلكَ الشمس، وهى : زحل، والمشترِى، والمِرّيخ؛ وآثنان سفلية فلكهما تحت فلك الشمس، وهى : الزُّهَرَة، وعُطارد .

وسُمِّيت هذه الكواكب المتحيرةَ لأنها ترجع أحيانا عن سَمْت مسيرها بالحركة الشرقية، وتتبع الغربية . فهذا الآرتداد فيها شبه التحير .

١٧ — ذكر عباد الروحانيات

(وما آحتجوا به فى سبب عبادتهم لها[1])

وعباد الروحانيات هم الصابئة . يقال : صبأ الرجل إذا مال وزاغ .

ومذهب هؤلاء أن للعالَم صانعا فاطرا حكيما مقدّسا عن سمات الحدثان .

وكانت الصابئة تقول : إنا نحتاج فى معرفة الله تعالىٰ ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه، إلىٰ متوسط؛ ولكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيا لا جسمانيا . وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب؛ والجسمانىّ بشر مثلنا يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، يماثلنا فى الصورة والمادّة .

قالوا : ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ .

وقالوا : الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلىٰ جلاله، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه، وهم الروحانيون المقدّسون المطهرون، جوهرا وفعلا وحالة .

(١) نقل المؤلف هنا بعض عبارات الشهرستانى فى الملل والنحل مع تقديم وتأخير (أنظر ص ٢٠٣ من طبعة الأب كرتون الانكليزى فى لندرة سنة ١٨٤٢ — ١٨٤٦) .

أما الجوهر فهم المقدّسون عن الموادّ الجسمانية، المبرؤون عن القوى الجسدانية، أى متنزهون عن الحركات المكانية، والتغييرات الزمانية؛ قد جبلوا على الطهارة، وفطروا على التقديس والتسبيح ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ .

وإنما أرشدنا إلى هذا معلمنا الأول، عاذيمون، وهُرْمُس. فنحن نتقرب إليهم، ونتوكل عليهم، وهم أربابنا، وآلهتنا، ووسائلنا، وشفعاؤنا عند رب الأرباب، وإله الآلهة . فالواجب علينا أن نطهّر نفوسنا من دنس الشهوات الطبيعية، ونهذّب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والغضبية، حتّى يحصل لنا مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات . فحينئذ نسأل حاجاتنا منهم، ونعرض أحوالنا عليهم، ونصبأ فى جميع أمورنا إليهم . فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم، ورازقنا ورازقهم . وهذا التطهير والتهذيب ليس إلا باكتسابنا، ورياضتنا، وفطامنا لأنفسنا عن دَنيَّات الشهوات، باستمداد من جهة الرُّوحانيات؛ والاستمداد هو التضرّع والابتهال بالدعوات، وإقامة الصلوات، وبذل الزكوات، والصيام عن المطعومات والمشروبات، وتقريب القرابين والذبائح، وتبخير البَخُورات، وتعزيم العزائم . فيحصل لنفوسنا استعداد أو استمداد من غير واسطة، بل يكون حكمنا وحكم من يدعى الوحى واحدا .

قالوا : والأنبياء أمثالنا فى النوع، وأشكالنا فى الصورة، ومشاركونا فى المادّة . يأكلون مما نأكل، ويشربون مما نشرب، ويساهموننا فى الصورة . أناس بشر مثلنا. فمن أين لنا طاعتهم، وبأية مزية لهم لزم متابعتهم؟ ﴿ولَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ .

تتمة القول: فالروحانيات هم الأسباب المتوسطون فى الاختراع، والإيجاد،

وتصريف الأمور من حال إلىٰ حال، وتوجيه المخلوقات من مبدإ إلى كمال، يستمدّون القوة من الحضرة القدسية، ويفيضون الفيض علىٰ الموجودات السفليه.

§ فمنها — مدبرات الكواكب السبعة السيّارة فى أفلاكها، وهى هياكلها. فلكل روحانى هيكل، ولكل هيكل فلك. ونسبة الروحانىّ إلىٰ ذلك الهيكل الذى ٱختص به نسبة الروح إلىٰ الجسد . فهو ربه ومديره ومدبره . ٥

وكانوا يسمون الهياكل أربابا (وربما يسمونها آباء)، والعناصرَ أمهاتٍ .

ففعل الروحانيات تحريكها علىٰ قدر مخصوص ليحصل من حركاتها ٱنفعالات فى الطبائع والعناصر، فيحصل من ذلك تركيبات وٱمتزاجات فى المركبات فتتبعها قوًى جسمانية، وتركب عليها نفوس روحانية، مثل أنواع النبات والحيوان . ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحانىّ كلىّ، وقد تكون جزئية صادرة عن روحانىّ جزئىّ . فمع جنس المطر ملك، ومع كل قطرة مَلَك . ١٠

§ ومنها — مدبرات الآثار العلوية الظاهرة فى الجو مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والثلوج والبَرَد والرياح، ومما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهب، وما يحدث فى الجو من الرعد والبرق والسحاب وقوس قُزَح وذوات الأذناب والهالة والمَجَرّة، وما يحدث فى الأرض من الزلازل والمياه والأبخرة إلىٰ غير ذلك . ١٥

§ ومنها — متوسطات القوىٰ السارية فى جميع الموجودات، ومدبرات الهداية الشائعة فى جميع الكائنات، حتى لاترىٰ موجودا مّا خاليا عن قوة وهداية، إذا كان قابلا لها.

قالوا : وأما الحالة، فأحوال الروحانيات من الرَّوْح، والرَّيحان، والنعمة، واللذة، والراحة، والبهجة، والسرور فى جوار رب العالمين، كيف تخفى؟ ثم طعامهم وشرابهم

التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد ، وأُنسهم بذكر الله وطاعته ، فمن قائم وراكع وساجد ، ومن قاعد لا يريد تبدل حالته لما هو فيه من النعمة واللذة ، ومن خاشع بصره لا يرفع ، ومن ناظر لا يغمض ، ومن ساكن لا يتحرك ، ومتحرك لا يسكن ، وكَرُوبِيٌّ(١) فى عالم القبض ، وروحانىٌّ فى عالم البسط «لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ» .

٥ وقد جرت مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء فى المفاضلة بين الروحانىّ المحض والبشرية النبوية ، ليس هذا موضع إيرادها .

فلنذكر إن شاء الله تعالى بيوت الهياكل ، تلو ماذكرناه من عباد الروحانيات ومحتجّاتهم !

١٨ — ذكر بيوت الهياكل

١٠ (وأماكنها ونسبتها إلى الكواكب)

قالوا : ثم لم تقتصر الصابئة على التقرب إلى الروحانيات بأعيانها ، والتلقى بذواتها حتى اتخذوا أصناما على هيئة الكواكب السبعة . وجعلوا لها بيوتا ، وسمّوا البيوتَ بالهياكل ، وجعلوا الهيا [illegible] الأفلاك للكواكب . وعظموا هذه الأصنام التى صنعوها ، وزعموا أنهم إذا عظموها تحركت لهم الكواكب السبعة العلوية بكل ١٥ مايريدون .

وحكى المسعودىّ فى كتابه المترجم "بمروج الذهب ومعادن الجوهر" أن هذه الطائفة تزعم أن البيت الحرام هيكل زُحَل ، وإنما طال بقاء هذا البيت على مرور الدهور ، معظما فى سائر العصور ، لأن زُحَل تولّاه : إذ من شانه الثبوت .(٢)

(١) الكروبيون سادة الملائكة المقرّبون .

٢٠ (٢) راجع الشهرستانى طبعة كرتن (ص ٤٣٠ – ٤٣١) .

ومن البيوت المشهورة[(١)] :

§ بيت على رأس جبـل أصفهان، يسمى مارس[(٢)] ، ثم اتخذه بعض ملوك المجوس بيت نار ؛

§ وبيت ببلاد الهند ،

§ وبيت ببلخ ،بناه منو شهر على آسم القمر،وكان الموكل بسدانته يسمونه برمك، ٥ وإليه تنسب البرامكة؛

§ وبيت غُمْدان باليمن، بناه الضحاك على آسم الزُّهَرة ؛

§ وبيت بفرغانة[(٣)] ، على آسم الشمس، يعرف بكاوسان ، بناه كاوس[(٤)] أحد ملوك الفرس، وخربه المعتضد[(٥)] بالله؛

§ وبيت ببلاد الصين ، بنـاه ولد عامور بن شوبل[(٦)] بن يافث ، وقيل بنـاه بعض ١٠ ملوك الترك[(٧)] .

§ وحكى غير المسعودى أن البيت الأوّل الكعبة . ويذكرون أن إدريس (عليـه السلام) أوصى به، وأوصى أن يكون الحج إليه وهو عندهم بيت زحل ؛ والبيت

(١) وراجع الشهرستانى (ص ٤٣١ ، ٤٣٢) .

(٢) فى الشهرستانى : فارس . ١٥

(٣) من مدن خراسان .

(٤) فى الأصل : مكاوس [وهو خطأ من الناسخ . والتصويب عن المسعودى وعن الشهرستانى] .

(٥) فى الشهرستانى أنه المعتصم .

(٦) فى بعض نسخ المسعودى : سوبل (بالسين المهملة) .

(٧) انظر الباب الرابع والستين من مروج الذهب، ففيه تفصيل لما أورده النويرى هنا بغاية التلخيص . ٢٠

الثانى وهو بيت المريخ، يزعمون انه كان بصور من الساحل الشامىّ؛ والبيت الثالث وهو بيت المشترى، كان بدمشق بناه جيرون بن سعد بن عاد، وموضعه الآن الجامع الأموىّ؛ والبيت الرابع وهو بيت الشمس بمصر، ويسمى عين شمس، وآثاره باقية الى وقتنا هذا[1]؛ والبيت الخامس وهو بيت الزهرة، كان بمَنْبِج ونحرِب؛ والبيت السادس بيت عُطارد، وكان بصَيْدا من الساحل الشامىّ ونحرِب؛ والبيت السابع وهو بيت القَمَر، كان بحرّان؛ وهو بيت الصابئة الأعظم .

البـاب الخامس
من القسم الأوّل من الفن الأوّل

١ — فى الكواكب الثابتة

ذهب بعض من تكلم فى ذلك أن هذه الكواكب معلقة فى سماء الدنيا كالقناديل، وأنها مخلوقة من نور .

وقال آخرون : إنها معلقة بأيدى ملائكة . وفسر بهذا القول قوله تعالى ﴿إذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ وإذَا الكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ . يقال انتثارها يكون بموت من كان يحملها من الملائكة .

وهذه الكواكب فى سماء الدنيا بنص الكتاب العزيز لقول الله عز وجل : ﴿ولقد زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ .

(١) زالت هذه الآثار الآن .

وقال قتادة : خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاثة : جعلها زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يُهتدى بها فى البر والبحر. فمن تأوّل غير هذا فقد أخطأ .

قالوا : وإنما سميت بالثوابت، وإن كانت متحرّكة لأنها ثابتة الابعاد على الأبد، لا يقرب أحدها من الآخر، ولا يبعد عنه، ولا يزيد، ولا ينقص، ولا تتغير عن جهاتها . لأنها تتحرك بحركتها الطبيعيه حول قطبى العالم . ولهذا سميت ثابتة . وهى فى فلك ثامن غير أفلاك الكواكب السبعة السيارة . ودليل ذلك أن للكواكب السبعة حركات أسرع من حركات هذه .

٢ — ذكر مايتمثل به مما فيه ذكر الكواكب

يقال : أنأى من كوكب ؛ أبعد من مَناط النجم ؛ أهدى من النجم .

ومن أنصاف الأبيات :

* وأينَ ترَيلُ الأرض عِندالكَواكب؟ * * وأينَ الثُّريَّا مِنْ يَدِ الْمتناوِلِ؟ *

* والكَوْكبُ النَّحْسُ يَسْقِى الأرضَ أحيانا *

ومن الأبيات قول أبى تمَّام عفا الله عنه :

كالنَّجْم إن سافرْتَ كانَ مُوَاكِبًا * وإذا حطَطْتَ الرحْلَ كانَ جَليسا .

وقال أبو نُوَاس :

أينَ النُّجُومُ الثَّابِتا * تُ مِنَ الأهلَّةِ والبُدورِ؟

وقال آخر :

وكُنَّا فى اجْتِماعٍ كالثُّرَيَّا، * فصِرْنا فُرْقةً كبَناتِ نَعْش !

وقال آخر:

كالفَرْقَدَيْنِ إذا تأمّلَ ناظِرٌ، * لم يُعْلِ موضِعَ فَرْقَدٍ من فَرْقَدِ.

وقال الوزير أبو الفتح البُستىّ:

ولِلنَّجْم من بَعْدِ الرُّجُوع ٱسْتِقامةٌ * وللشَّمْس من بَعْد الغُرُوب طُلُوعُ.

٥ وقال جَحْظَةُ:

مثـــل الّذى يَرْجُو البُــلُو * غَ إلى الكَوَاكب وهو مُقْعَدْ.

وقال عمر بن أبى ربيعة:

أيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلا، * عَمْرَكَ اللهَ! كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ؟

هِىَ شاميّةٌ إذا ما ٱسْتَهلّتْ، * وسُهَيْلٌ إذا ٱستهلَّ يَمـانِى.

١٠ وقال آخر:

وكُلُّ أخٍ مُفارِقُه أخُوه، * لَعَمْرُ أبيكَ، إلا الفَرْقَدانِ!

---

٣ — ذكر ما قيل فى وصف الكواكب وتشبيهها

من ذلك ما قاله ٱبن حَجّاج فى المَجَـرّة:

ياصاحِبَىَّ ٱسـتَيْقِظا من رَقْدةٍ * تُزْرِى على عَقْلِ اللّبيبِ الأكْيَسِ!

هــذى المَجَرّةُ والنُّجومُ كأنّهـا * نَهَرٌ تدفّق فى حَديقةِ نَرْجِسِ!

وقال آخر:

وكأنّ المَجَـرّ جَدْولُ ماءٍ * نَوّرَ الأقْحُـوانُ فى جانِبَيْهِ.

وقال المهذب بن الزبير فيها :

وَترىٰ المَجَـرّةَ والنُّجومَ كأنَّها * تَسْقِى الرياضَ بجَدْولٍ ملآنِ.

لو لم يكُنْ نَهْرًا، لمـا عامتْ بِهِ * أبَدًا نُجُومُ الحُوتِ والسَّرطَانِ.

وقال أبو هلالٍ العسكرىّ :

تَبْـدُو المَجرّةُ مُنْجَرًا ذوائبُها * كالماء يَنْساحُ أوكالأَيْمِ (١) يَنْسابُ. ٥

وقال هشام بن إلياس فى الجوزاء:

فكأنَّمـا جَوْزاؤه فى غَرْبِها * بَيضاءُ سابحةٌ بِبركة زِئبَقٍ.

وكأنَّمـا أوْمتْ ثلاثُ أناملٍ * منها تَقُول: إلىٰ ثلاثٍ نلتَقِى!

وقال آخر:

وكأنَّ الجَوْزاءَ لَمَّا ٱسْتَقَلّتْ * وتَدَلّتْ، سُرادِقٌ مَمْـدُودُ. ١٠

وقال العلوىّ فيها أيضا :

ها إنّها الجَوْزاءُ فى أُفْقِها * واهيَةٌ ناعسَـةٌ تُسْحَبُ.

نِطـاقُها وَاهٍ لدىٰ أُفقِها * يَنْسلُّ منها كَوْكَبٌ كَوْكَبُ.

وقال ٱبن وكيع فيها :

قُمْ فٱسْـقِنِى صافيَةً * تَهْتِكُ جُنْحَ الغَسَقِ! ١٥

أَمَا تَرىٰ الصُّبْحَ بَدَا * فى ثَوْبِ ليلٍ خَلَقِ؟

---

(١) الأَيْم، والأَيْن : ضرب من الحيات . (عن النوادر فى اللغة) .

أَمَا تَرىٰ جَوْزاءَهُ * كأنَّها في الأُفُق،
مِنْطَقَةٌ من ذَهَبٍ * فَوْق قَباءٍ أَزْرَقِ؟

وقال كعب الغَنَوِيّ :

وقد مالَتِ الجَوْزاءُ حتَّى كأنَّها * فَسَاطِيطُ رَكْبٍ بالفَلاةِ نُزُولُ.

٥ وقال امرؤ القيس في الثُّرَيَّا :

إذا ما الثُّرَيَّا في السَّماء تعرَّضَتْ * تَعَرُّضَ أثناءِ الوِشاحِ المُفَصَّلِ.

وقال ابن الطَّثَرِيَّة :

إذا ما الثُّرَيَّا في السَّماءِ كأنَّها * جُمَانٌ وَهىٰ من سِلْكِه، فتبدَّدا.

وقال المبرّد :

١٠ إذا ما الثُّرَيَّا في السَّماءِ تعرَّضَتْ، * يَراهَا حَدِيدُ العينِ ستَّةَ أنجُمِ.
علىٰ كَبِدِ الجَرْباء وهْيَ كأنَّها * جَبِيرةُ دُرٍّ رُكِّبَتْ فَوقَ مِعْصَمِ.

وقال عبد الله بن المعتز :

فناوَلَنِيها، والثُّرَيَّا كأنَّها * جَنَىٰ نَرْجِسٍ حَيَّا النَّدامىٰ بها الساقِي.

وقال أيضا :

١٥ كأنّ الثُّرَيَّا في أَواخِرِ لَيْلِها * تَفَتُّحُ نَوْرٍ أو لِجامٌ مُفَضَّضُ.

وقال السلامىّ، شاعر اليتيمة فيها :

فَسَمَوْنا، والفَجْرُ يَضْحَكُ في الشَّرْ * قِ إِلَيْنَا مُبَشِّرًا بالصَّباح.

والثُّرَيَّا كرايةٍ أو لِجامٍ * أو بَنانٍ أو طائرٍ أو وِشاحِ،
وكأنّ النجومَ فى يدِ ساقٍ * يتهادى تهادىَ الأقداحِ.

وقال ابن المعتز:

ولاحتْ لِساريها الثُّرَيَّا كأنّها * على الأُفُقِ الغربىّ قُرْطٌ مُسَلْسَلُ.

وقال أبو نضلة: ٥

وتأمّلتُ الثُّرَيَّا * فى طُلوعٍ ومَغيبِ.
فتخيّرتُ لها التشـ * ـبيهَ فى المعنى المُصيبِ.
وَهْىَ كأسٌ فى شُروقٍ * وهى قُرْطٌ فى غُروبِ.

(٢٥) وقال آخر:

كأنّ الثُّرَيَّا هَوْدجٌ فوقَ ناقةٍ * يَسير بها حادٍ مع الليل مُزْعِجُ، ١٠
وقد لمعتْ بين النجومِ كأنّها * قواريرُ فيها زِئْبَقٌ يترجرجُ.

وقال ابن سكرة الهاشمىّ:

ترى الثُّرَيَّا، والغربُ يجذبُها * والبدرُ يَهوِى والفجرُ ينفجرُ،
كفَّ عَروسٍ لاحتْ خواتمُها * أو عِقدَ دُرٍّ فى البحرِ ينتثرُ.

وقال محمد بن الحسن الحاتمىّ: ١٥

وخِلْتُ الثُّرَيَّا كفَّ عذراءَ طفلةٍ * مُختّمةٍ بالدُّرّ منها الأناملُ.
تخيّلتها فى الجوّ طُرّةَ جُعْبةٍ * ملوكيّةٍ لم تعتلقها حمائلُ.
كأنّ نِبالاً ستّةً من لآلئٍ * يُوافِى بها فى قُبّةِ الأفقِ نابلُ.

وقال أحمد بن إبراهيم الضبيّ: شاعر اليتيمة :

خِلْت الثريا إذ بَدَتْ * طالعةً فى الحِنْدس:
مُرْسَلَةً من لُؤلُؤٍ * أو باقَةً من نَرْجس

وقال أبو العلاء المعرّى فى سُهَيل .

٥ وسُهَيْل كوَجْنَة الحِبِّ فى اللَّو * نِ وَقَلب المُحِبِّ فى الخَفَقان،
مُسْتَبِدًّا كأنَّهُ الفارِسُ المُعْـ * ـلَمُ يَبْدُو مُعَارِضَ الفُرْسان،

وقال عبد الله بن المعتز :

وقَدْ لاحَ لِلسَّارِى سُهَيْلٌ كأنَّهُ * على كُلِّ نَجْمٍ فى السَّماءِ رَقيبُ !

وقال الشريف بن طباطبا :

١٠ وسُهَيْلٌ كأنَّهُ قَلْبُ صَبٍّ * فاجَأَتْه بالخَوْف عَيْنُ الرقيب،

وقال أبو عبادة البُحْتُرِىّ :

كأنَّ سُهَيْلًا شَخْصُ ظمآنَ جانحٌ * من اللَّيْلِ فى نَهْرٍ من الماءِ يكْرَع .

وقال ابن طباطبا :

كأنَّ سُهَيْلًا، والنُّجُومُ أمامَه * يُعَارِضُهَا ، راعٍ أمامَ قطيع،

١٥ وقال الشريف الرضىّ فى الفرقدين :

وهَبْتُ لضَوْءِ الفرقَدَيْن نَواظرى * إلى أن بَدَا ضَوْءٌ من الفَجْرِ ساطِعُ،
كأنَّهُما إلفانِ قال كِلاهُمَا * لشَخْصِ أخيه : قُلْ فإنِّى سامعُ !

وقال آخر:

قُلْتُ للفَرْقَدَيْنِ والَّليْـلُ مُرْخٍ * سِـــتْرَ ظَلْمــائه علىٰ الآفاقِ:

اِبقَيَـا ما بَقِيتُما سَـوْفَ يُرْمىٰ * بَيْنَ شَخْصَيْكُما بِسَهْمِ الفِراقِ!

وقال القاضى التنُوخىّ :

وأشقر الجوّ قد لاحتْ كواكبُه * فيــه كدرٍّ علىٰ الياقوت مَنْثُور. ٥

وقال القاضى الفاضل، عبد الرحيم من رسالة :

"سِرْنا، وروضةُ السماء فيها من الزهر زَهَر، ومن المجرّة نَهَر، والليل كالبَنَفْسَج تخلله من النجوم أَقَاح، أو كالزَّنج شـعله من الرمح جراح، والكواكب سائرات المواكب لامُعَرِّس لهـا دون الصَّباح، وسهيل كالظمآن تدلّى إلىٰ الأرض ليشرب، أو الكريم أَنِفَ من المُقام بدار الذُّل فتغرّب. فكأنه قَبَسٌ تتلاعب به الرياح، أو زينـة قدمها بين يَدَى الصباح، أو ناظر يغُضُّه الغيظ ويفتحه، او معنًى يغمضه الحسن ثم يشرحه، أو صديقٌ لجماعة الكواكب مغاضب، أو رقيبٌ علىٰ المواكب مُواكب، أو فارسٌ يحمى الأعقاب، أو داع به إليهـا وقد شَرَدت عن الأصحاب. والجوزاء كالسرادق المضروب، أو الهودج المنصوب، أو الشجرة المنوّرة، أو الحبر المصوّرة. والثريا قد همّ عُنقودها أن يتدلّى، وجيش الليل قد همّ أن يتولّى". ١٠ ١٥

القسم الثانى

من الفن الأوّل فى الآثار العلوية

وفيه أربعة أبواب

(٢٦)

الباب الأوّل

من القسم الثانى من الفن الأوّل

١ — فى السحاب، وسبب حدوثه، وفى الثَّلْج والبَرَد

والسحاب من الآثار العلوية .

روى أبو الفرج بن الجوزىّ بإسناد يرفعه إلى عبيد ابن عمير أنه قال : يبعث الله ريحا فتقُمّ الأرض، ثم يبعث المُثيرة فتثير السحاب، وذلك أنها تحمل الماء فتمجّه فى السحاب، ثم يَمْرِيه فيَدِرّ كما تدرّ اللِّقحة .

وقد روى فى الأثر أن الرياح أربع : ريح تَقُمّ، وريح تُثير، فتجعله كِسَفًا، وريح تؤلّف، فتجعله رُكامًا، وريح تُمْطر .

ورُوِىَ عن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) أنه قال : إن الله تعالى يرسل الرياح فتُثير سحابا، وينزل عليه المطر فتمخض به الريح كما تمخض النَّتوج بولدها .

وروى عن عكرمة (رضى الله عنه) أنه قال : يُنزل الله الماء من السماء السابعة

فتقع القطرة على السحاب مثل البعير، والسحابُ للطر كالغربال ينزل منـه بقَدَر . ولولا ذلك لأفسد ما على الأرض .

وقال الزمخشرى فى تفسيره : السحاب من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه لا كزعم من يزعم أنه يأخذ من البحر . ويؤيد ذلك قوله عز وجل ﴿ وَيُنَزِّلُ من السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ . ٥

---

٢ — ذكر ما قيل فى ترتيب السحاب

(وأسمائه اللغوية وأصنافه)

قال أبو منصور، عبد الملك بن محمد الثعالبيّ فى فقه اللغة، ينقله عن أئمتها :

أوّل ما ينشأ السحاب، فهو نَشْء .

فإذا انسحب فى الهواء، فهو السحَابُ . ١٠

فإذا تغيرت وتغممت له السماء، فهو الغَمَام .

فإذا كان غيم ينشأ فى عُرْض السماء فلا تبصره، وإنما تسمع رعده، فهو العَقْر .

فإذا أطلّ وأظلّ السماء، فهو العارِضُ .

فإذا كان ذا رعد وبرق، فهو العَرَّاصُ .

فإذا كانت السحابة قِطَعا صغارا متدانياً بعضُها من بعض، فهى النَّمِرَةُ . ١٥

فإذا كانت متفرّقة، فهى القَزَعُ .

فإذا كانت قطعا متراكمة، فهى الكِرْفِئُ (واحدتها كِرْفِئَة) .

فإذا كانت قطعا كأنها قطع الجبال، فهى قَلَعٌ، وكَنَهْوَرٌ (واحدتها كَنَهْوَرَة) .

فإذا كانت قطعا رِقَاقا، فهى الطَّخَارِيرُ (واحدتها طُخْرُورٌ) .

فإذا كانت حولها قطع من السحاب، فهي مُكَلَّلةٌ .

فإذا كانت سوداء، فهي طَخْياءُ، ومُتَطَخْطِخَة .

فإذا رأيتها وحسبتها ماطرة، فهي مُخَيِّلة .

فإذا غَلُظ السحاب وركب بعضُه بعضا، فهو المُكْفَهِرّ .

٥ فإذا ٱرتفع ولم ينبسط، فهو النَّشَاصُ .

فإذا تقطع في أقطار السماء وتلَبَّد بعضُه فوق بعض، فهو القَرِدُ .

فإذا ٱرتفع وحمل الماء وكَثُف وأَطْبَق، فهو العَمَاء، والعَمَاية، والطَّخَاء، والطَّخَاف، والطَّهَاء .

فإذا ٱعترض ٱعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء، فهو الحَبِيُّ .

١٠ فإذا عنّ، فهو العنَان .

فإذا أظل الأرض، فهو الدَّجْن .

فإذا ٱسودّ وتراكب، فهو المُحْمَوْمِي (١) .

فإذا تعلق سحاب دون السحاب، فهو الرَّبَاب .

فإذا كان سحاب فوق سحاب، فهو الغِفَارَةُ .

١٥ فإذا تدلّى ودنا من الأرض مثل هُدْب القَطِيفة، فهو الهَيْدَبُ .

فإذا كان ذا ماء كثير، فهو القَنِيف .

فإذا كان أبيض، فهو المُزْن، والصَّبِير .

فإذا كان لرعْده صوتٌ، فهو الهَزِيم .

(١) اسم فاعل من ٱحمومى الشيء اذا ٱسودّ . يوصف به نحو السحاب والليل .

فإذا آشتدّ صوتُ رعده، فهو الأَجَشّ .

فإذا كان باردًا وليس فيه ماءٌ، فهو الصَّرَّاد[1] .

فإذا كان ذا صوت شديد، فهو الصَّيِّب .

فإذا أهرق ماءه، فهو الجَهَام (وقيل بل الجَهَام الذى لا ماء فيه) .

٣ — ذكر ما قيل فى ترتيب المطر

قال الثعالبىّ رحمه الله: أخفُّ المطر وأضعَفُه الطَّلُّ، ثم الرَّذَاذُ، ثم البَغْشُ والدَّثُّ ومثله الرَّكُّ، ثم الرِّهْمة .

(٣٧) ويقال أيضا: أوّله رَشٌّ وطَشّ، ثم طَلٌّ ورَذَاذ، ثم نَضْح ونَضْخ، وهو قَطْرٌ بين قَطْرين، ثم هَطْل وتَهْتانٌ، ثم وابِلٌ وجَوْدٌ .

٤ — ذكر ما قيل فى فعل السحاب والمطر

يقال إذا أتت السماءُ بالمطر اليسيرِ الخفيف[2] : حَفَشت، وحَشَكَت .

فإذا آستمرّ قَطْرها، قيل : هَطَلتْ، وهَتَنَتْ .

فإذا صبّت الماءَ، قيل : هَمَعت، وهَضَبتْ .

فإذا آرتفع صوتُ وَقْعها، قيل : آنهلّت، واستَهلّت .

(١) فى فقه اللغة بعده : فإذا كان خفيفا تسفره الريح فهو الزِّبْرِج، وبعده فإذا كان ذا صوت الخ .

(٢) كذا فى فقه الثعالبى وعبارة اللسان : حَفَشت السماء تحفِش حَفْشا : جاءت بمطر شديد ساعة ثم أقلعت، ومثله حشكت وأغبت فالحَفْشة والحَشْكة والغَبْيه بمعنى واحد .

فإذا سالَ المطرُ بكثْرة، قيل : آنسكَبَ، وآنْبعَقَ.

فإذا سال يركب بعضُه بعضا، قيل : آثْعَنْجَرَ، وآثعَنْجَجَ.

فإذا دام أيامًا لا يُقْلِع، قيل : أَثْجَمَ، وأغْبَطَ، وأدْجَنَ.

فإذا أقْلع، قيل : أَثْجَمَ، وأفْصَمَ، وأفْصىٰ.

٥ ٥ — ذكر أسماء أمطار الأزمنة

قالت العرب : أوّل مايبدأ المطر فى إقبال الشتاء، فآسمه الخَرِيفُ، ثم يليه الوَسْمِيّ، ثم الرَّبيع، ثم الصَّيِّف، ثم الحَمِيم.

وقيل المطر الأوّل هو الوَسْمِيّ، ثم يَليه الوَلْيُ، ثم الربيع، ثم الصَّيِّف، ثم الحَمِيم.

٦ — ذكر أسماء المطر اللغوية

١٠ قال الثعالبيّ :

إذا أحيا الأرض بعدَ موتها، فهو الحَيَا.

فإذا جاء عقيبَ المَحْل أو عند الحاجة إليه، فهو الغَيْثُ.

فإذا دام مع سكون، فهو الدِّيمَةُ. والضَّرْب فوق ذلك قليلا، والهَطْل فوقه.

فإذا زاد، فهو الهَتَلَان، والهَتَّان، والتَّهْتَانُ.

١٥ فإذا كان القطر صغارا كأنه شَذْرٌ، فهو القِطْقِطُ.

فإذا كانت مطرة ضعيفة، فهى الرِّهْمَةُ.

فإذا كانت ليست بالكثيرة، فهى الغَبْيَةُ، والحَفْشَةُ، والحَشْكَة.

فإذا كانت ضعيفة يسيرة، فهى الذِّهَابُ، والهَمِيمَةُ[1].

فإذا كان المطر مستمرّا، فهو الوَدْق.

فإذا كان ضَخْمَ القَطْر شديدَ الوَقْع، فهو الوَابِل.

فإذا ٱنْبَعَق بالمـاء، فهو البُعَاق.

فإذا كان يروى كل شيء، فهو الجَوْد.

فإذا كان عامًّا، فهو الجَدَا.

فإذا دام أيّاما لا يُقلِـع، فهو العَيْن.

فإذا كان مستَرْسِلا سائلا، فهو المُرْثَعِنُّ.

فإذا كان كثير القطر، فهو الغَدَق.

فإذا كان شديد الوَقْع كثير الصَّوْب، فهو السَّحِيفَةُ[2].

فإذا كان شديدا كثيرا، فهو العزُّ، والعُبَاب.

فإذا جرَف ما مرّ به، فهو السَّحِيقَةُ[2].

فاذا قشرتْ وجه الأرض، فهى السَّاحِيَةُ.

فإذا أثرت فى الأرض من شدّة وقعها، فهى الحَرِيصَةُ.

فإذا أصابت القطعةَ من الأرض وأخطأت الأُخرىٰ، فهى النُّفْضَةُ.

فإذا جاءت المطرة لمـا يأتى بعدها، فهى الرِّصْدة، والعِهَادُ نحوٌ منها.

(١) فى فقه الثعالبى: الهَيمة. بإسقاط الميم الأولىٰ وهو تحريف كما يعلم من مراجعة القاموس.

(٢) نقل صاحب اللسان فى مادة (س ح ف) عن الأصمعى: (ان السحيفة بالفاء، المَطْرة الحديدة التى تجرف كل شىء. والسحيقة بالقاف، المطرة العظيمة القطر الشـديدة الوقع القليلة العرض) وهو عكس ما نقله النويرى عن الثعالبى.

فإذا أتى المطر بعد المطر، فهو الوَلْىُ.

فإذا رجع وتكرر، فهو الرَّجْعُ.

فإذا تتابع، فهو اليَعْلُولُ.

فإذا جاءت المطرة دَفَعات، فهى الشَّآبيبُ.

٥

٧ — ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر المطر

يقال: أبرَدُ من غِبِّ المطر. أرقُّ من دَمْع الغمام. أسرَعُ من السيل إلى الحُدُور. أطغى من السيل. أغشَمُ من السيل. أمضى من السيل. يذهب يومُ الغيم ولا يُشْعَر به. قد بلغ السيل الزُّبى. اضطره السيل إلى مَعْطَشِه. أرنيها نَمِره، أُرِيكَهَا مَطِره. سبق سيله مطَرَه. قبل السحاب أصابنى الوَكْف.

١٠ ومن أنصاف الأبيات:

* هَلْ يُرْتَجَى مَطَرٌ بغَيرِ سَحَابِ * — * وأوَّلُ الغَيْثِ طَلٌّ ثم يَنْسَكِبُ *

* سَحَابةُ صَيْفٍ عنْ قَرِيبٍ تَقَشَّعُ * — * فَدَرَّ كما دَرَّ السَّحاب على الرَّعْدِ *

* أسْرَعُ السُّحْبِ فى المَسِيرِ الجَهامُ * — * ومَنْ يَسُدُّ طَرِيقَ العارِضِ الهَطِلِ؟ *

* سَحابٌ عَدانى فَيْضُه وهْوَ صَيِّبُ * — * يَحْسَبُ المَمْطُورُ أنْ كُلُّ مُطِرْ *

١٥ * سالَ بِهِ السَّيْلُ وما يَدْرِى بِهِ *

ومن الأبيات قول الطائى:

وكذا السَّحائبُ، قَلَّما تَدْعُو إلى * مَعْرُوفِهَا الرُّوَّادَ ما لم تَبْرُقِ.

وقال البحترىّ عفى عنه :

وأعلم بأنّ الغيث ليس بنافع * مالم يكن للنّاس فى إبّانه . (٢٨)

وقال أبو الطّيّب :

ليت الغمام الّذى عندى صواعقه * يزيلهنّ الى من عنده الدّيم !

وقال كثيّر : ٥

كما أبرقت يوما عطاشا غمامة . * فلمّا رجوها ، أقشعت وتجلّت .

وقال آخر :

أنا فى ذمّة السّحاب وأظما ! * إنّ هذا لوصمة فى السّحاب !

وقال آخر :

والله ينشى سحابا تطمئنّ به النّـ * ـفوس من قبل بلّ الأرض بالمطر. ١٠

---

٨ — ذكر شىء مما قيل فى وصف السحاب والمطر

قال أبو تمّـام الطائى :

سحابة صادقــة الأنواء * تجرّ أهدابا على البطحاء .

تجمع بين الضّحك والبكاء : * بدت بنار وثنت بمـاء .

وقال أبو عبادة البحترىّ عفا الله تعالى عنه : ١٥

ذات ارتجـاس بحنين الرّعد * مجرورة الذّيل صدوق الوعد ،

مسفوحة الدّمع بغـير وجد * لهـا نسيم كنسـيم الورد ،

ورنّةٌ مثــل زئير الأُسْـــد * ولَمْعُ برقٍ كسيُوف الهِنْـد.
جاءتْ بها ريحُ الصَّبا من نَجْدِ * فٱنتثرتْ مثلَ ٱنتثار العِقْد.
وراحتِ الأرضُ بعَيْشٍ رَغْدِ * من وَشْيِ أنوار الثَّرىٰ فى بُرْد.
كأنمـا غُدْرانُهـا فى الوَهْد * يَلْعَبْنَ تَرْحاباً بهـا بالرَّنْد.

٥ وقال أبو الحسن علىّ بن القاسم القاشانى من شعراء اليتيمة عفى عنه:

إذا الغُيومُ ٱرْتَجَحْنَ باسِقُها * وحَفَّ أرجاءَها بوَارِقُهـا،
وعُبِّيتْ للـــثَّرىٰ كتائبُهـا * وٱنتصبتْ وسْطَها عَقائقُها،
وجَلْجَلَ الرعدُ بَيْنها فحكىٰ * خَفْقَ طُبُولٍ أخَلَّ خافِقُهـا،
وٱبتسَمتْ فَرْحةً لوامِعُها * وٱختلفَتْ عَبرةً حَمَـالِقُها،
١٠ وقيل: طُوبىٰ لبلدةٍ نُتِجتْ * بجَــوِّ أكنافِها بوَارِقُهـا.
أيَّةُ نَعْماءَ لا تَحُـــلُّ بها؟ * وأىُّ بأساءَ لا تُفـارِقُها؟

وقال القاضى التَّنُوخىّ:

سحــابٌ أتىٰ كالأمْنِ بعد تَخَوُّف * له فى الثَّرىٰ فِعلُ الشِّفاء بمُدْنَف.
أكبَّ علىٰ الآفاقِ إكْبابَ مُطرِقٍ * يُفَــكِّرُ أو كالنَّـادم المُتلهف.
١٥ ومَدَّ جَناحَيْه علىٰ الأرض جانِحًا * فراحَ علَيْهـا كالغُـرَاب المُرَفْرِف.
غدا البَرُّ بحرا زاخِرًا وٱنثنىٰ الضُّحى * بظلْمته فى ثَوبِ ليـــلٍ مُسَجَّف.
فعبَّسَ عن بَرْقٍ به مُتبَسِّـــمٍ * عُبُوسَ بَخِيـــلٍ فى تبسُّم مُعتَف.
تُحاوِلُ منه الشمسُ فى الجوِّ مَخْرَجا * كما حاوَلَ المغلوبُ تَجْرِيدَ مُرْهَف.

وقال ابن الرومى :

سَحَائبُ قِيسَتْ بالبِلاد فأُلفِيَتْ * غِطَاءً على أغوارِهَا ونُجُودِهَا .

حَدَتْهَا النُّعَامَى مُقبِلاتٍ فأقبَلَتْ * تَهادَى رُوَيْدا سَيْلُها كُرُكُودِها .

وقال أبو هلال العسكرى :

وبَرْقٍ سَرَى، والليلُ يُحْيِى سَوادَه * فَقُلْتُ : سِوارٌ فى مَعَاصِمِ أسْمَرا !

وقد سَدّ عُرْضَ الأفْقِ غَيْمٌ تَخَالُه * يَزُرُّ على الدُّنيا قَمِيصًا مُعَنْبَرَا .

تَهادَى على أيْدى الجَنائِبِ والصَّبَا * تَخَرُّقَ من الفِتْيانِ نازَعَ مُسْكِرا .

تَخَالُ بِهِ مِسْكًا وبالقَطرِ لُؤْلُؤًا * وبالرَّوْضِ ياقُوتًا وبالوَحْلِ عَنْبَرا .

سَوَادُ غَمَامٍ يَبْعَثُ المَاءَ أبيضًا * وغُرّة أرضٍ تُنْبِتُ الزَّهْرَ أصْفَرا .

أتَتْكَ بِهِ أنْفَاسُ رِيحٍ مَرِيضَةٍ * كَمُقْطَعَةٍ رَعْنَاءَ تَسْتَاقُ عَسْكَرَا .

فألقَى على الغُدْرانِ دِرْعا مُسَرَّدًا * وأهدَى إلى القِيعانِ بُرْدًا مُحَبَّرًا .

تَخَال الحَيَا فى الجَوّ دُرًّا منظَّمًا * وفى وَجَنات الرَّوْضِ دُرًّا منَثَّرا .

وأقبَلَ نَشْرُ الأرضِ فى نَفَسِ الصَّبَا * فباتَ بِهِ ثَوْبُ الهَوَاءِ مُعَطَّرا .

إذا مادَعَتْ فيه الرُّعُودُ فأسمَعَتْ * أجابَ حُدَاةً واستَهلّ فأغْزَرا .

ويَبْكِى إذا ما أضْحَكَ البَرْقُ سِنَّهُ * فيجْعَلُ نارَ البَرْقِ ماءً مُفَجَّرا .

كأنَّ بِهِ رُؤْدَ الشَّبابِ خريدةً * قد اتَّخَذَتْ ثِنْىَ السَّحابَةِ مِعْجَرا .

فثغرٌ يُرِينَا من بَعِيدٍ تَبَلُّجًا * ودَمْعٌ يُرِينَا من بعيدٍ تَحَدُّرا .

وقال مؤيد الدين الطُّغرائى :

سـارِيةٌ ذاتُ عُبُوسٍ بَرْقُها * يَضْحَك والأجْفانُ منها تَهْمُلُ .
كُحْلِيَّةٌ دَكْناءَ فى حاشِيَةٍ * فيها طِرازٌ مُذْهَبٌ مُسَلْسَلُ .
إذا دَنَتْ عِشَارُها، صاحَ بِها * قاصِفُ رَعْدٍ وحَدَتْها الشَّمْأَلُ .

٥ وقال عبد الله بن المعتزّ :

ومُزْنةٍ جادَ من أجْفانِها المطَرُ: * فالرَّوْضُ منتَظِمٌ والقَطرُ منتَثِرُ.
ترىٰ مواقعَهُ فى الأرضِ لائحةً * مِثْلَ الدراهمِ تَبْدُو ثم تَسْتَتِرُ.

وقال أيضا :

ما ترىٰ نِعْمَةَ السَّماء علىٰ الأر * ضِ وشُكْرَ الرِّياضِ للأمْطارِ؟
١٠ وكأنَّ الرَّبِيعَ يَجْلُو عَرُوسا * وكأنَّا مِنْ قَطْرِه فى نِثَارِ!

وقال ابن عوف الكاتب فى إطباق الغيم وكَرْبه :

فى مُزْنةٍ أطبقَتْ فكادَتْ * تُصافِحُ التُّرْبَ بالغَمامِ .

وقال آخر :

تَبَسَّمَتِ الرِّيحُ، رِيحُ الجَنُو * بِ فِيها هَوًى غالبًا وآدِّكارا .
١٥ وساقَتْ سَحابًا كمِثْلِ الجِبَال * إذا البرْقُ أوْمَضَ فيه، أنارَا .
إذا الرَّعْدُ جَلْجَلَ فى جانِبَيْـ * ـه، رَوَّىٰ النَّباتَ وأرْوىٰ الصَّحارىٰ .
تُطالِعُنا الشَّمْسُ مِنْ دُونِه * طِلاعَ فَتاةٍ تَخافُ آشْتِهارا ،
تَخافُ الرَّقيبَ علىٰ نَفْسِها * وتَحْذَرُ من زَوْجِها أن يَغارا .
فتَسْتُرُ غُرَّتَها بالخِمَا * رِ طَوْرًا، وطَوْرًا تُزِيلُ الخِمارا .

فلمّا رآه هبوبُ الجنو * ب وانهمرَ الماءُ فيه انهمارا،
تبسّمتِ الأرضُ لمّا بكتْ * عليها السماءُ دموعًا غِزارا!

وقال الأسعد بن بُليطة من شعراء الذخيرة :

لو كنتَ شاهدَنا عشيّةَ أمسِنا، * والمزنُ تبكينا بعينَيْ مُذنِبِ،
والشمسُ قد مدّتْ أديمَ شُعاعِها * فى الأرضِ تجنحُ غيرَ أنْ لم تذهبِ،
خِلتَ الرَّذاذَ بُرادةً مِنْ فضّةٍ * قد غُرْبِلَتْ من فوقِ نِطعٍ مُذهَبِ!

وقال أبو عبد الله محمد بن الخياط من شعرائها :

راحتْ تُذكّرُ بالنسيمِ الرّاحا * وطفاءُ تكسِر للجنوحِ جناحا.
أخفى مسالكَها الظلامُ فأوقدتْ * من برقِها، كى تهتدى، مصباحا.
وكأنّ صوتَ الرعدِ خلفَ سحابِها * حادٍ إذا ونَتِ السحائبُ، صاحا.
جادتْ على التلَعاتِ فاكتستِ الرُّبا * حُلَلًا أقامَ لها الربيعُ وِشاحا.

وقال ابن بُرد الأصغر الأندلسىّ من شعرائها :

ومازلْتُ أحسَبُ فيه السّحاب. * ونارُ بوارقِها تلتهبْ :
بخاتىَّ تُوضِعُ فى سيرِها * وقد قُرِعَتْ بسِياطِ الذّهبْ.

ومما ورد فى وصفها نثرا

§ قال بعض الأندلسيّين من رسالة :

ثم أرسل الله الرياح من كائنها، وأخرجها من خزائنها، بجرّتْ ذيولَها، وأجرت خيولَها، خافقة بنودُها، متلاحقة جنودُها، فأثارتِ الغمام، وقادَتْه بغير زِمام، وأنشأت بَحْرِيّةً من السحاب، ذات أتراب وأصحاب، كثيرًا عددُها، غزيرا مددُها،

فبشَّرتْ بالقَطْر كلَّ شائم ، وأنذرت بالوِرْد كلّ حائم ، والريح تَنُثّها ، والبرق يحثّها ، كأنه قضيب من ذهب ، أو لسان من لهب ؛ وللسحاب من ضوء البرق هاد ، ومن صوت الرعد حاد ؛ والريح توسع بلُحْمتها سَدَاها ، وتُسْرع فى حياكتها يداها . فلما ٱلتحم فَتْقُها ، وٱلتأم رَتْقُها ؛ وٱمتـدّت أشطانها ، وٱتسعت أعطانها ؛ وٱنفسحت أجنابها ، وٱنسـدلت أطنابها ؛ وتهدّل حملها ، وتمخض حملهـا ؛ ومدّت على آفاق السماء نطاقَها ، وزرّت على أعناق الجبال أطواقَها ، كأنها بنـاء على الجو مقبوب ، أو طَبَقٌ على الأرض مكبوب ؛ تمشى من الثقل هَوْنا ، وتستدعى من الريح عَوْنا ؛ ومخايلها تقوى ، وعارضها أحوى . فلما أذن الله لها بالانحـدار ، وأنزل منه الوَدْق بمقـدار ، أرسـلت الريح خُيوطَ القطر من رُود السحائب ، وأسـبلتها إسبال الذوائب . فدرّت من خِلْف مَصْرُور ، ونثرت طلّها نثر الدرور . ثم ٱنخرق جيبُها ، وٱنبثق سيبُها ؛ وصار الخيط حبلا ، والطلُّ وَبْلا . فالسحاب يتعلّق ، والبرق يتألّق ؛ والرعد يرتجس ، والقطر ينبجس ؛ والنُّقَط تترامى طِباقا ، وتتبارى ٱتساقا ؛ فيَرْدِف السابقُ المصلِّى ، ويتصل التابع بالمولّى ؛ كما يقع من المُنْخُل البُر ، وينتثر من النظام الدُّر ؛ لجيوب السماء تُسـقطه ، وأكفُّ الغُدْران تلقُطه ؛ والأرض قد فَتَحت أفواها ، وجَرَعت أمواها . حتّى أخذت رِيَّها من المطر ، وبلغت منه غاية الوطر ، خفى من الرعد تسبيحه ، وطَفِئت من البرق مصابيحه ، وحَسَرت السماء نِقابها ، وولّت المطر أعقابها ؛ وحكت فى ردّها طِلْق السابق ، وهَرَب الآبق .

§ومن رسالة لمحمد بن شرف القيروانى :

برمىٌّ عليل البرى ، وأثرى فقير الثرى ، وتاريخ ذلك ٱنصرام ناجر[1] ، وقد بلغت القلوبُ

(١) رجب أو صفر . وكل شهر من شهور الصيف (قاموس) .

الحناجر، مجمارة احمرت لها خضرة السماء، واغبرت مرآة الماء، حتى انهل طالع وسمى، وتلاه تابع ولى، دنا فأسف، ووكف فما كف . فما فتئ مسكوبا قطره، محجوبا شمسه وبدره، وجليت عروس الشمس، معتذرة عن مغيبها بالأمس . فعندها مزق عن الدقعاء صحيح إهابها، واختزن در البر فى أصداف ترابها . فما مرت أيام إلا والقيعان مسندسه، والآكام مطوسه .

§ ومن رسالة لأبى القاسم، محمد بن عبد الله بن أبى الجد فى وصف مطر بعد قحط :

قال : لله تعالى فى عباده أسرار، لا تدركها الأفكار، وأحكام، لا تنالها الأوهام . تختلف والعدل متفق، وتفترق والفضل مجتمع متسق . ففى منحها نفائس المأمول، وفى محنها مداوس[(1)] العقول . وفى أثناء فوائدها حدائق الإنعام رائقه، وبين أرجاء سرائرها بوارق الإعذار والإنذار خافقه . وربما تفتحت كمائم النوائب، عن زهرات المواهب . وانسكبت غمائم الرزايا، بنفحات العطايا . وصدع ليل اليأس صبح الرجاء، وخلع عامل البأس والى الرخاء . ذلك تقدير اللطيف الخبير، وتدبير العزيز القدير!

ولما ساءت بتثبط الغيث الظنون، وانقبض من تبسط الشك اليقين، واسترابت حياض الوهاد، بعهود العهاد، وتأهبت رياض النجاد، لبرود الحداد، واكتحلت أجفان الأزهار، بإثمد النقع المثار، وتعطلت أجياد الأنوار، من حلى الديمة المدرار، أرسل الله بين يدى رحمته ريحا بليلة الجناح، مخيلة التجاح، سريعة الإلقاح . فنظمت عقود السحاب، نظم السخاب، وأحكمت برود الغمام، رائقة الأعلام . وحين ضربت تلك المخيلة فى الأفق قبابها، ومدت على الأرض أطنابها، لم تلبث أن انهتك رواقها،

(1) جمع مدوس [أى مصاقل العقول] .

وآنبتك وَشِيكًا نِطاقُها، وآنبرت مدامعُها تبكى بأجفان المُشْتاق، غداة الفِراق، وتحكى بَنَان الكِرام، عند أريحيّة المُدام، فآستغربت الرياض ضحكا ببُكائها، وآهتزّ رُفَات النبات طرَبا لتغريد مُكَّائها، وآكتست ظهور الأرض من بيض إنائها، خُضْرَ مُلائها. فكأنّ صنعاء قد نَشرت على بسيطها بِساطا مُفَوَّفا، وأهدت إليها من زخارف بَزِّها ومطارف وشْيها ألطافا وتحفا. وخُيِّل للعُيون أن زواهر النجوم، قد طلعت من مواقع التُّخُوم، ومباسم الحسان، قد وصلت بآفترار الغيطان. فيا بَرْدَ موقِعها على القلوب والأكباد! ويا خلوص ريها إلى غُلَل النفوس الصوّاد! كأنما آستعارت أنفاسَ الأحباب، أو ترشّفَت شَنَب الثنايا العِـذاب، أو تحملتْ ماء الوِصال، إلى نار البلبال. أو سرت على أنداء الأسحار وريحان الآصال. لقد تبين للصنع الجليل، من خلال ديمها تنفس ونصول، وتمكنَ للشكر الجميل، من ظلال نعمها معرّس ومقيل. فالحمد لله على ذلك ما آنسكب قطر، وآنصدع فجر، وتوقّد قبَس، وتردّد نَفَس، وهو الكفيل تعالى بإتمام النعمى، وصلة أسباب الحياة والحيا بعزته!

§ وقال الوزير أبو عمرو الباجىّ فى مثل ذلك:

إن لله تعالى قضايا واقعةً بالعدل، وعطايا جامعةً للفضل، ونِعَما يبسطها إذا شاء إنعاما وتَرْفيها، ويقبضها متى أراد إلهاما وتنبيها، ويجعلها لقوم صـلاحا وخيرا، ولآخَرين فسادا وضَيْرا. ﴿وهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا ويَنْشُرُ رَحْمَتَـهُ وهُوَ الوَلِىُّ الحَمِيدُ﴾. وإنه كان من آمتساك السُّقيا، وتوقُّف الحيـا، ما رِيعَ به الآمن، وآستُطير له الساكن، ورَجَفت الأكباد فزعا، وذَهَلت الألبابُ جَزَعا، وأذكتْ ذُكاءُ حرّها، ومنعت السماءُ دَرّها، وآكتست الأرضُ غُبرة بعد خُضرة، ولبست شُحوبا بعد نَضرة، وكادت بُرُودُ الرياض تُطْوى، ومُدُود نِعم الله تُزْوى،

ثم نشر الله تعالى رحمته ، وبسط نعمته ، وأتاح مِنّته ، وأزاح مِحْنته . فبعث الرياح لَوَاقِح ، وأرسل الغَمام سَوَافِح ، بماء يتدفّق ، ورَوَاءٍ غَدَق ، من سماء طبَق . آستهلّ جفنها فدمَع ، وسمح دمعها فهمَع ، وصاب وَبْلُها فنقع . فاستوفت الأرض رِيّاً ، وآستكملت من نَباتها أثاثا ورِئْياً ؛ فزينة الأرض مشهوره ، وحُلّة الزهر منشوره ، ومِنّة الرب موفوره ؛ والقلوب ناعمة بعد بُوسها ، والوجوه ضاحكة إثر عُبُوسها ؛ وآثار الجَزَع ممحوّه ، وسُوَر الشكر متلوّه ؛ ونحن نستزيد الواهب نعمة التوفيق ، ونستهديه فى قضاء الحقوق إلى سواء الطريق ؛ ونستعيذ به من المِنّة أن تعود فتنه . والمنحة أن تصير محنه ! والحمد لله رب العالمين !

٩ — ذكر شيء مما وصف به الثلج والبَرَد

قال أبو الفتح كشاجم :

الثلج يسقط أم لُجَينٌ يُسبَكُ ، * أم ذا حَصَى الكافور ظَلّ يُفرَكُ ؟
راحتْ به الأرضُ الفضاءُ كأنّها * فى كُلّ ناحيــةٍ بثغر تَضْحَكُ !
شابتْ ذوائبُهـا فبينَ ضَحِكها * طرباً وعَهْدِى بالمَشيب يُنَسِّكُ !
وتردّت الأشجارُ منه مُلاءةً * عَمّا قليــلٍ بالرّياح تُهتَّــكُ !

وقال أيضا :

ثَلْــجٌ وشمس وصَــوْبُ غادية * فالأرضُ من كُلّ جانب غُرّه !
باتت وقيعانُها زَبَرْجدةٌ * فأصبحتْ قد تحوّلتْ دُرّه !
كأنها والثُّلوجُ تُضْحِكُها * تُعار ممن أُحِبُّه ثَغْره !
شابتْ فسُرّتْ بذاك وآبتهجتْ * وكان عهدى بالشَّيب يُسْتَكْره !

وقال الصاحب بن عبّاد :

أقبــلَ الثّلجُ فى غلائل نَوْرٍ * تتهــادىٰ بلؤلؤ مَنثُــورِ !

فكأنّ السماءَ صاهَرَتِ الأر * ضَ فصار النّثار من كافُور !

وقال النميرىّ :

٥ أهــدىٰ لنــا بَرَدًا يَلُوحُ كأنه * فى الجو حَبُّ لآلِئٍ لم يُثْقَبِ ،

أو ثَغْرُ حَوَاءِ اللِّثَــاتِ تبَسَّمَتْ * عن واضحٍ مثلِ الأقَاحى أشْنَبِ !

البــاب الثــانى

من القسم الثــانى من الفن الأوّل

فى النيازك، والصواعق، والرعد، والبرق، وقوس قُزَح

١ (ا) فأما النيازك، فهو ما يُرىٰ من الذوائب المتصلة بالشُّهُب والكواكب .

روى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال لجماعة من الأنصار : "ما كنتم تقولون فى هذا النجم الذى يرمىٰ به؟ قالوا : يارسول الله، كنا نقول إذا رأيناها يرمىٰ بها : مات ملك، ولد مولود . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ليس ذلك كذلك، ولكن الله تعالىٰ كان إذا قضىٰ فى خلقــه أمرا سمعه الملائكة فيسبحون،

١٥ فيسبّح مَن تحتهم لتسبيحهم، فيسبّح مَن تحت أولئــك حتّى ينتهى إلىٰ السماء الدنيا فيسبحون، ثم يقولون ألا تسألون من فوقكم ممّ يسبحون؛ فيقولون قضىٰ الله فى خلقه كذا وكذا، للأمر الذى كان . فيهبط به الخبر من سماء إلىٰ سماء حتّى ينتهى إلىٰ السماء الدنيا فيتحدّثون به، فتسترقه الشياطين بالسمع علىٰ توهم واختلاف . ثم يأتون

به الكُهّان، فيصيبون بعضا، ويُخطئون بعضا . ثم إن الله تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التى يُقْذَفون بها، فانقطعت الكَهانة، فلا كَهانةَ اليومَ".

والشهب التى يُقذف بها الشياطين غير النجوم الثوابت التى منها البروج والمنازل لقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وجَعَلْناها رُجُومًا لِلشَّياطِينِ﴾.

وقال بعض الشعراء :

وكَوْكَبٍ نَظَرَ العفْريتَ مُسْتَرِقًا * للسَّمْعِ فَانْقضَّ يُذْكِى إثْرَه لَهَبَه

كفارسٍ حلَّ من تِيهٍ عمامَتَه * وجَرّها كُلَّها من خَلْفِه عَذَبه

وكتب ابن الحرون إلى صديق له، وقد كثر انقضاض الكواكب، وذلك فى أيام المتوكل على الله :

أما بعد . فإن الفلك قد تفرّى عن شُهُبٍ ثواقب، كنيران الحُباحب، مُتَّقدة كشرر الزنود، وشُعَل زُبَرِ الحديد؛ مازجها عرض حمرة البَهْرَمان، وصفرة العِقْيان (١). فهى كأرسال جرادٍ منتشر، وهشيم ذَرَتْه ريحٌ صرصرٌ، فى سُرْعة الكفّ، ووَحَى لحظ الطَّرْف .

(ب) وأما الصواعق، فهى ماقاله الزمخشرى فى تفسيره : الصاعقة قصفة من رعد ينقضّ معها شُقّة من نار .

وقالوا : إنها تنقدح من السحاب إذا اصطكّت أجرامُه . وهى نار لطيفة حديدة لا تمرّ بشىء إلا أتت عليه، إلا أنها مع حدّتها سريعةُ الخمود . على أنها متى سقطت على نخلة أحرقت عاليَها .

(١) العقيان الذهب .

وقال صاحب كتاب "مناهج الفكر ومباهج العبر" في كتابه :

ومن عجيب شأنها أنها تحرق ما في الكيس ، ولا تُحْرِق الكيس ؛ وإن احترق فإنما يحترق باحتراق ما ذاب فيه وسال . قال : وهي إذا سقطت على جبل أو حجر كلسته ونفذته ، وإذا سقطت في بحر غاصت فيه وأحرقت ما لاقت من جوانبه .
٥ وربما عرض لها عند انطفائها في الأرض برد ويبس ، فتكوّن منها أجرام حجرية ، أو حديدية ، أو نحاسية . وربما طبعت الحديد سيوفا لا يقوم لها شيء .

(ج) وأما الرعد وما قيل فيه . قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ . قال المفسرون : الرعد مَلَكٌ موكل بالسحاب ، معه كُرٌّ من حديد ، يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله . فكلما خالف سحاب ، صاح به فزجره . فالذي يُسْمَع هو
١٠ صوت المَلَك .

وقال الزمخشري في تفسيره : الرعد الذي يسمع من السحاب ، كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حدتها الريح فتصوّت عند ذلك .

وأما صوت الرعد ، تقول العرب : رَعَدت السماء .

فإذا ازداد صوتها ، قيل : ارتجست .

١٥ فإذا زاد ، قيل : أرزَمَت ، وقَعْقَعَتْ[1] .

فإذا بلغت النهاية ، قيل : جَلْجَلَتْ ، وهَدْهَدَتْ .

---

(١) عبارة فقه اللغة : (فإذا زاد ، قيل : أرزمت ، ودوّت . فإذا زاد واشتد ، قيل : قصفت ، وقعقعت . فإذا بلغ النهاية إلخ) اهـ .

المثــــل

رُبَّ صَلَفٍ تحت الراعدة. (للبخيل المتكبر).

(د) وأما البرق وما قيل فيه، فقد ذهب المفسرون لقول الله تعالى إلى أنه ضَرْبُ المَلَك الذى هو الرعد للسحاب بمِخْراق من حديد. وروى عن مجاهد: ان الله عز وجل وكّل بالسحاب مَلَكا. فالرعد قَعْقَعة(١) صوته، والبرق سَوْطه(٢).

وأما ترتيبه فى لمعانه

تقول العرب إذا برق كأنه يتبسم، وذلك بقدر ما يريك سوادَ الغَيْم من بياضه: آنكلّ آنكلالًا.

فإذا بدا من السماء برقٌ يسير، قيل: أَوْشَمَت السماءُ. ومنه قيل: أوشَمَ النبتُ إذا أبصرت أوّلَه.

فإذا بَرَق بَرْقا ضعيفا، قيل: خَفَا.

فإذا لمع لمعا خفيفا، قيل: لَمَحَ، وأَوْمَضَ.

فإذا تشقق، قيل: آنعقّ آنعقاقًا.

فإذا ملأ السماء وتكشف وآضطرب، قيل: تبوّجَ.

فإذا كثر وتتابع، قيل: آرتَعَجَ.

فإذا لمع وأطمَعَ ثم عَدَلَ، قيل له: خُلَّبٌ.

(١) فى الأصل نغنغة: وهو محرّف عن قعقعة بالقاف كما يقتضيه السياق.

(٢) فى الأصل صوته. وهو محرّف عن سوطه وهو مخراق الحديد الذى ذكر فى السطر الذى قبله.

المثـــل :

" ليس في البرق اللّامع مُسْتَمْتَعٌ " .

ذكر ما قيل في وصف الرعد والبرق

قال أبو هلال العسكرىّ، عفا الله عنه :

والرعـــدُ في أرجائه مُـــتَرَنِّم * والـــبرقُ في حافاته متلَهِّبُ .
كالبُلْق ترمَح، والصَّوارمُ تُنْتَضىٰ * والجوّ يَبْسِمُ، والأنامل تَحْسُب .

وقال آخر :

إذا وَنَتِ السُّحْبُ الثِّقالُ وحثَّها * من الرعد حادٍ ليس يُبْصَرُ أكْمَهُ ،
أحاديثُه مُسْـتَهِولاتٌ وصَوْتُه * إذا انخفضت أصواتُهن مُقَهْقِهُ ،
إذا صـاح في آثارهنّ حَسِبْتَه * يحاوِبُه من خَلْفِه صاحبٌ له .

وقال ابن الدقّاق الأندلسيّ :

أرىٰ بارقًا بالأبلق الفَـرْدِ يُومِض * يُذَهِّب أكناف الدُّجىٰ ويُفَضِّضُ .
كأنّ سُلَيْمىٰ من أعاليـه أشرَفَتْ * تَمُدّ لنـا كفًّا خضيبا وتَقْبِضُ .

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ :

ويوم جرىٰ برقُـهُ أشـــقَرا * يُطارِدُ من مُزْنه أشهبَا :
ترىٰ الأرضَ فيه وقد فُضِّضَتْ * ووجهَ السَّـماءِ وقد ذُهِّبَا !

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبيّ، شاعر الذخيرة :

ولـما تجلّىٰ اللّيـلُ والبَرْقُ لامِعٌ * كما سَلَّ زَنْجِيٌّ حُسامًا من التِّبر
وبِتُّ سَمِيرَ النجم وهو كأنه * علىٰ مِعْصَم الدّنيا جبائرُ من دُرّ .

وقال محمد بن عاصم، شاعر الخريدة عفا الله عنه :

أضاءَ بِوادِى الأَثْلِ واللّيلُ مُظلِمٌ * بُرَيْقٌ كحَدِّ السَّيفِ ضَرَّجَهُ الدَّمُ.

إذا البرقُ أجرىٰ طَرْفَه فصهيله * إذا ما تفرّى رعدُه المُتَرَنِّمُ.

فشبَّهتُه إذ لاحَ فى غسَق الدُّجىٰ * بأسنانِ زَنْجِىٍّ بَدَتْ لتَبسُّمُ.

٥

وقال أيضا :

والبرقُ يَضحَك كالحبيب وعِنْده * رَعْدٌ يُخَشِّنُ كالرَّقيب مَقالَهُ!

وقال آخر :

أرِقتُ لبرقٍ غَدَا مَوْهِنًا * خَفِىٍّ كغَمزِكَ بالحاجب.

كأنَّ تألُّقَه فى السما * يَدَا كاتبٍ أو يَدَا حاسبِ.

وقال عبد الله بن المعتزّ، يشير إلى سحابة :

١٠

رأيتُ فيها بَرْقَها مُنذُ بدت * كمثل طَرْفِ العين أو قلبٍ يَجِبْ.

ثم حَدَتْ بها الصَّبا حتّى بدا * فيها إلى البرق كأمثال الشُّهُب.

تَحسَبُه فيها إذا ما انصَدَعَتْ * أحشاؤها عنه شُجاعًا يَضطَرِبْ.

وتارةً تُبصِرُه كأنّه * أبلَقُ مالَ جُلُّه حينَ وَثَبْ.

حتّى إذا ما رَفَع اليومُ الضُّحىٰ * حَسِبْتَه سَلاسلًا مِنَ الذَّهَبْ.

١٥

قوله شجاعا يضطرب مأخوذ من قول دعبل :

أرِقتُ لبَرْقٍ آخرَ الليلِ مُنْصِب * خَفِىٍّ كبطن الحيّة المتقلِّبِ.

وقال أيضا :

مازِلْتُ أكْلأُ بَرْقًا فى جَوانِبه * كطَرْفَةِ العَيْنِ تَخْبُو ثم تَخْتَطِفُ.

بَرْقٌ تجاسَرَ من حَفّان لامِعُه * يَقضِى اللُّبانَةَ من قلبى ويَنْصرِفُ.

٢٠

(هـ) وأما قوس قزح وماقيل فيه . قالوا : وإنما سمى بذلك لتلوّنه .

وكان ابن عبّاس (رضى الله عنهما) يكره أن يسميَه قوس قُزَحَ، ويسميه قوس الله، ويقول: قُزَحُ اسم الشيطان .

وزعم القدماء فى علة تلوّنه وتكوّنه، أنه إذا تكاثف جزء من الهواء بالبرد ثم أشرق عليه نور بعض الكواكب انصبغ ذلك الجزء، وانعطف منه الضوء إلىٰ ما يليه من الهواء، كالجمرة الصافية إذا طلعت عليها الشمس سطع نُورها، وانعطف منه ألوان مختلفة إلىٰ ما يقرب منها . وحمرته وصفرته من قِبَل الرُّطوبة واليُبْس .

قالوا : وقياس ذلك النارُ ، فإنهـا إذا كانت من حطب رَطْب ، كان لونها أحمر كَدِرًا ، فإن كانت من حطب يابس، كان لونها أصفر صافيا .

١٠ وقال آخرون : القوس يحدث عن رطوبة الهواء وصـقالته، حتّى يمكن أن ترسم فيه دائرة الشمس كما تُرسم الأشباح فى المَرَايا، وتشتبك الأشعة بمـا يكون فيه البخار الرطب فيتولد، فيكون منها تلك الألوان . وإنمـا توجد دائرة علىٰ الناظر، لأن الشمس أبدا تكون فى قفاها ، ولذلك تُرىٰ فى مقابلة الجهة التى تكون فيهـا الشمس، فتُرىٰ فى المغرب إذا كانت الشمس فى المشرق، وتُرىٰ فى المشرق إذا كانت فى المغرب .

١٥ وزعم بعض القـدماء أن أثر القوس غير حقيقىّ ، وإنمـا هو تخييل لا وجودَ له فى نفسه . وقال إن إدراكه علىٰ نحو إدراك صورة الإنسان فى المرآة من غير أن تكون منطبعة علىٰ الحقيقة فيها ولا قائمةً بها . وذلك بحسب غِلَظ الحس الباصر، وهو لا يُرىٰ إلا أن يكون وراء السحاب الصقيل، إذ ذاك يكون كالمرآة مؤديا للبصر علىٰ نحو تأدية البِلَّوْر، إذا جعل وراءه شىء غير مشفّ ، ولا يكون ذلك عن السحاب الصقيل وحده، كما لا يكون عن البِلَّوْر وحده، ولا عن غير المُشِفّ وحده . والله أعلم .
٢٠

ذكر ما قيل فى وصفه وتشبيهه

قال أبو الفرج الوأواء، عفا الله تعالى عنه و... :

(٣٥) سَقْيًا ليوم بَدَا قوسُ الغمامِ به * والشمسُ طالعةٌ والبرقُ خلّاسُ!
كأنه قوسُ رامٍ والبروقُ له * رَشْقُ السهام وعينُ الشمس بُرْجاسُ.

وقال سعيد بن حميد القيروانى، رحمة الله عليه : ٥

أما ترى القوسَ فى الغمامِ وقد * نَمَّقَ فيه الهواءُ نُوّارا؟
حَكَى الطواويسَ وهى جاعلةٌ * أذنابَها لِلمِياهِ أستارا.
أخضرُ فى أحمرٍ على يَقَقٍ * على وِشاحِ السحابِ قد دارا.
كأنما المُزْنُ وهى راهبةٌ * شَدَّتْ على الأفقِ منه زُنّارا.

وقال ظاهر الدين الحريرى ، شاعر الخريدة عفا الله عنه : ١٠

ألستَ ترى الجوَّ مُستعبِرًا * يُضاحكه برقُه الخُلَّبُ؟
وقد بَاتَ من قُزَحٍ قوسُه * بعيدًا وتحسَبه يَقْرُبُ؟
كطاقَىْ عقيقٍ وفَيْرُوزَج * و بينهما آخَرٌ مُذْهَبُ.

وقال سيف الدولة بن حمدان، من أبيات :

وقد نشرَتْ أيدى الجَنُوبِ مَطارِفًا * على الجوّ دُكْنًا والحواشى على الأرض. ١٥
يُطَرِّزُها قوسُ السحابِ بأصفرٍ * على أحمرٍ فى أخضرٍ وَسْطَ مُبْيَضِّ.
كأذيالِ خَوْدٍ أقبلَتْ فى غَلائلٍ * مُصَبَّغةٍ، والبعضُ أقصرُ من بعضِ.

وقال عبد المحسن الصُّورىّ، عفا الله تعالى عنه :

تأمَّلِ الجوَّ ترى والِيًا * قد وَلِىَ العَهْدَ على السُّحْبِ!
سارَ، وقوسُ الله تاجٌ له ، * رَكْضًا من الشرقِ إلى الغربِ! ٢٠

الباب الثالث

من القسم الثانى من الفن الأوّل

١ — فى أُسطقسّ[1] الهواء

رُوى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : "الريح من رَوْح الله تعالى، تأتى بالرحمة، وتأتى بالعذاب . فلا تسبُّوها، وآسألوا الله خيرها ، وآستعيذوا بالله من شرّها". أخرجه البيهقىّ فى سننه .

وروى أبو الفرج بن الجوزىّ بإسناده أن الريح تنقسم إلى قسمين : رحمة وعذاب ، وينقسم كل قسم إلى أربعة أقسام . ولكل قسم آسم . فأسماء أقسام قسم الرحمة : المبشِّرات ، والنُّشُر ، والمرسَلات ، والرُّخاء . وأسماء أقسام قسم العذاب : العاصف ، والقاصف (وهما فى البحر) ، والعقيم ، والصرصر (وهما فى البر) .

وقد جاء القرءان بكل هذه الأسماء .

٢ — ذكر ما قيل فى حدّ الهواء

قال الشيخ الرئيس أبو علىّ بن سينا فى حدّه : الهواء جِرم بسيط ، طباعه أن يكون حارّا رطبا مشفا متحرّكا إلى المكان الذى تحت كرة النار التى فوق كرة الأرض والماء .

(١) كلمة معربة عن اليونانية معناها : العنصر .

وقال أبقراط : إن تغير حالات الهواء هو الذى يغير حالات الناس مرة إلى الغضب، ومرة إلى السكون، وإلى الهم والسرور، وغير ذلك . وإذا آستوت حالات الهواء، آستوت حالات الناس وأخلاقهم .

وقال : إن قوى النفوس تابعة لأمزجة الأبدان، وأمزجة الأبدان تابعة لتصرف الهواء، إذا برد مرة، وسخن مرة، خرج مرة الزرع نضيجا، ومرة غير نضيج، ومرة قليلا، ومرة كثيرا، ومرة حارّا، ومرة باردا، فتتغير لذلك صورهم ومزاجاتهم . وإذا آستوى وآعتدل الهواء، خرج الزرع معتدلا، فآعتدلت بذلك الصور والمزاجات . قال : والعلة فى تشابه الترك، هو أنه لما آستوى هواء بلادهم فى البرد آستوت صورهم وتشابهوا .

وقال : إن الرياح تقلب الحيوان حالا إلى حال، وتصرفه من حرّ إلى برد، ومن يبس إلى رطوبة، ومن سرور إلى حزن؛ وإنها تغير ما فى البيوت من أصناف المآكل كالتمر، والعسل، والسمن، والشراب، فتسخنها مرة، وتبردها أخرى، وتصلبها مرة، وتيبسها مرة . وعلة ذلك أن الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها؛ وإذا تغير الهواء، تغير بتغيره كل شىء .

وقال : إن الجنوب إذا هبت، أذابت الهواء وبرّدته، وسخنت البحار والأنهار . فكل شىء فى رطوبة تغير لونه وحالاته . وهى ترخى الأبدان والعصب، وتورث الكسل، وتحدث ثقلا فى الأسماع، وغشاوة فى الأبصار. وأما الشمال فإنها تصلب الأبدان، وتصحح الأدمغة، وتحسن اللون، وتصفى الحواس، وتقوّى الشهوة والحركة، غير أنها تهيج السعال، ووجع الصدر .

وزعم بعض من تأخر فى الإسلام من الحكماء : أن الجنوب إذا هبت بأرض العراق ، تغير الورد ، وتناثر الورق ، وتشقق القُنَّبيط ، وسخُن الماء ، وآسترخت الأبدان ، وتكدّر الهواء .

وزعم آخرون من القدماء : ان الهواء جسم رقيق متىٰ تموج من المشرق إلىٰ المغرب
٥ سمى ريح الصَّبا .

قيل : سميت ريحَ الصَّبا ، لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها ورَوْحها . والصَّبْوة المَيْل . وجاء فى بعض الآثار : مابعث نبىّ إلا والصَّبا معه ، وهى الريح التى سُخِّرت لسليمان (عليه السلام) غدوُّها شهر ، أى من أول النهار إلىٰ الزوال ، ورواحها شهر ، أى من الزوال إلىٰ المغرب . كان يغدو من تَدْمُر من بلاد الشام
١٠ فيَقيل فى إصْطَخْر من بلاد فارس ، ويبيت بكَابُل من بلاد الهند .

وعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال " نُصِرْتُ بالصَّبَا ، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور" .

وإذا تموج من الجَنُوب إلىٰ الشّمال ، سمى ريحَ الجنوب ، وهى الريح التى أهلك الله عز وجل بها عادًا .

١٥ وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالىٰ فى الفن الخامس من كتابنا هذا .

وإذا تموج من الشّمال إلىٰ الجَنوب ، سمى ريحَ الشَّمال .

وهم يزعمون أن مبادئ الرياح شَمَالية أخَذَتْ إلىٰ الجَنوب ، وغربيةٌ أخَذَتْ إلىٰ المشرق للطف الهواء فى هاتين الجهتين .

والعرب تُحبُّ الصَّبَا لرقتها ، ولأنها تجىء بالسحاب ، والمطرُ فيها والخِصْبُ .
٢٠ وهى عندهم اليمانية .

٣ - ذكر أسماء الرياح اللغوية

قال الثعالبي فى فقه اللغة :

إذا وقعت الريحُ بين رِيحَين ، فهى النَّكْباءُ .

فإذا وقعت بين الجَنوب والصَّبَا ، فهى الجِرْبِيَاء .

فإذا هَبَّتْ من جهات مختلفة ، فهى المتناوِحة .

فإذا كانت لَيِّنةً ، فهى الرَّيْدانةُ .

فإذا جاءت بنَفَسٍ ضعيف ورَوْح ، فهى النَّسيمُ .

فإذا كان لها حَنِين كحَنِينِ الإبل ، فهى الحَنُونُ .

فإذا ابتدأت بشدّة[1] ، فهى العاصف ، والسَّيْهُوج .

فإذا كانت شديدة ولها زَفْزَفة وهى الصوت ، فهى الزَّفْزافَةُ .

فإذا اشتدّت حتّى تَقْلَع الخيامَ ، فهى الهَجُوم .

فإذا حرَّكت الأغصانَ تحريكا شديدا أو قلعت الأشجار ، فهى الزَّعْزاع ، والزَّعْزعَانُ ، والزَّعْزَعُ .

فإذا جاءت بالحَصْباء ، فهى الحاصِبَةُ .

فإذا دَرَجتْ حتّى ترى لها ذيلا كالرَّسَن فى الرمل ، فهى الدَّرُوج .

فإذا كانتْ شديدة المرُور ، فهى النَّؤوج .

فإذا كانتْ سريعة ، فهى المُجْفِل ، والجافِلَةُ .

فإذا هَبَّت من الأرض كالعَمُود نحوَ السماء ، فهى الإعْصَار .

فإذا هبَّت بالغَبَرة ، فهى الهَبوة .

---

(١) عبارة الثعالبي : فإذا ابتدأت بشدة ، فهى النافجة . فإذا كانت شديدة ، فهى العاصف الخ .

فإذا حملت المُورَ وجَرّت الذيل، فهى الهَوجاء .

فإذا كانتْ باردةً، فهى الحَرْجَف، والصَّرْصَر، والعَرِيّة .

فإذا كان مع بَرْدها ندًى، فهى البَلِيل .

فإذا كانتْ حارّةً، فهى الحَرُور، والسَّمُوم .

٥ فإذا كانت حارّة وأتتْ من قِبَل اليَمَن، فهى الهَيْف .

فإذا كانت باردةً شديدة تَخْرِق البيوت، فهى الخَرِيق[1] .

فإذا ضَعُفت وجرت فُوَيقَ الأرض، فهى المُسَفْسِفَة .

فإذا لم تُلْقِحْ شجرا ولم تحملْ مطرا، فهى العَقِيم . (وقد نطق بها القرآن) .

٤ — فصل فيما يذكر منها بلفظ الجمع

١٠ يقال : الرياح الحواشِك: المختلفة الشديدة . البوارح: الشَّمال الحارّة فى الصيف . الأعاصير: التى تهيج بالغُبَار . المُعْصِرات : التى تأتى بالأمطار . المبَشِّرات : التى تُهُبّ بالسحاب والغيث . السَّوافى : التى تسفى التراب .

٥ — ذكر مايُتَمَثَّل به مما فيه ذكر الهواء

يقال :

١٥ أخَفُّ من النسيم . أسرع من الرِّيح . ريحهما جَنوب (يضرب للمتصافِيَيْن) . هو ساكن الريح (اذا كان عليا) . قد هبَّتْ ريحه (إذا قامت دولته) .

ومن أنصاف الأبيات .

* إن كنتَ ريحاً فقد لاقَيْتَ إعصارا * * وبعضُ القولِ يَذهبُ بالرياح *

* تَجْرى الرياحُ بما لاتشتهِى السُّفنُ * * لوكنتَ ريحًا كانتِ الدَّبُورا *

٢٠ (١) فى اللسان أنها الريح الباردة الشديدة الهبوب كأنها خُرِقت . أماتوا الفاعل بها .

ومن الأبيات :

إذا هبّتْ رِياحُكَ، فاغتنمها * فإن لكلّ خافقةٍ سُكُونُ !

وقال آخر :

وكُلّ ريح لها هُبوبٌ * يوماً فلا بدّ من رُكُودِ .

٥

وقال آخر :

والريحُ ترجعُ عاصفًا * من بعد ما ابتدأتْ نسيا .

وقال أبو تمّام، عفا الله عنه :

(٣٧)

إنّ الرياحَ إذا ما أعْصَفَتْ، قَصَفَتْ * عِيدانَ نَجْدٍ ولم يَعْبأْنَ بالرَّتَمِ .

وقال ابن الروميّ، رحمة الله عليه :

لا تُطفِئَنّ جَوًى بلَوْمٍ إنه * كالريح تُغرِى النّارَ بالإحراق .

١٠

٦ — ذكر ما جاء فى وصف الهواء وتشبيهه

قال عبد الله بن المعتزّ، رحمة الله عليه :

ونَسيم يُبشّرُ الأرضَ بالقَطْـ ـرِ كذيْلِ الغِلالةِ المَبْلول .

ووجوهُ البلاد تنتظرُ الغَيْـ ـثَ انتظارَ المُحِبِّ ردَّ الرسول .

وقال ابن الروميّ :

١٥

حَيَّتْكَ عنّا شَمالٌ طافَ طائفُها * تحيّةً، بُخِرَتْ رَوْحا ورَيْحانا .

هبّت سُحَيْرًا فناجى الغُصْنُ صاحبَه * سِرًّا بها، وتنادى الطيرُ إعلانا .

وُرْقٌ تُغَنّى على خُضْرٍ مُهَدَّلة * تَسْمُو بها وتَشَمُّ الأرضَ أحيانا .

يُخَالُ طائرُها نَشْوانَ من طَرَبٍ * والغصنُ من هَزّه عِطْفَيْه نَشْوانا .

وقال أيضا :

كأنَّ نَسيمَها أَرَجُ الخُزامَى ✻ ولَاهَا بَعْدَ وَسْمِيٍّ وليُّ.

هَدِيَّةُ شمألٍ هبَّتْ بليلٍ ✻ لأفنانِ الغُصونِ بها نَجِيُّ.

إذا أنفاسُها نَسَمَتْ سُحَيْرًا ✻ تَنَفَّسَ كالشَّجِيِّ لها الخَلِيُّ.

وقال آخر :

وأنفاسٌ كأنفاسِ الخُزامى ✻ قُبَيْلَ الصُّبْحِ بلَّتْها السماءُ.

تَنَفَّسَ نَشْرُها سَحَرًا فجاءتْ ✻ به سَحَرِيَّةَ المَسْرَى رُخاءُ.

وقال إسحاق الموصليّ :

ياحبَّذا ريحُ الجَنوب إذا جَرَتْ ✻ في الصُّبحِ وهي ضعيفةُ الأنفاسِ!

قد حُمِّلت بَرْدَ النَّدى وتحمَّلتْ ✻ عَبَقًا من الجَثْجاثِ (١) والبَسْباسِ (٢)!

---

(١) في الأصل بالإهمال وهو من إهمال الناسخ . فقد ورد في مادة (ج ث ث) من لسان العرب : « الجثجاث شجر أصفر مُرٌّ طيب الريح تستطيبه العرب وتكثر ذكره في أشعارها » . وقال أبو حنيفة الدينوري إنه من أحرار الشجر وهو أخضر ينبت بالقيظ له زهرة صفراء كأنها زهرة العرفجة طيبة الريح . وقال ابن البيطار : أول ما رأيته بساحل نيل مصر في أعلاه في صحاريه بمقربة من ضيعة هناك ، تسمى شاهور ، وهي على طريق الطرانة . وقال داود في تذكرته إنه يسمى باليونانية نرديسيون .

(٢) في اللسان : "البسباس نبات طيب الريح" . وهو المعروف عند علماء العرب بالاسم الفارسي "الرازيانج" وبهذا الاسم كان يعرف في الأندلس والمغرب ولا يزال معروفا به الى اليوم في قطر الجزائر واسمه السرياني "برهليا" ويعرف في مصر والشام باسم "الشمار" ومنه نوع برى ينبت بالقيروان ويسميه

وقال آخر:

إذا خلا الجو من هواء، * فعيشهم غمة وبؤس.
فهو حياة لكل حي، * كأن أنفاسه نفوس.

وقال ابن سعيد الأندلسي:

الريح أقود ما يكون لأنها * تبدى خفايا الردف والأعكان.(١) ٥
وتميل الأغصان بعد علوها * حتى تقبل أوجه الغدران.
وكذاك العشاق يتخذونها * رسلا إلى الأحباب والأوطان.

وقال آخر:

أيا جبلى نعمان بالله خليا * سبيل الصبا يخلص إلى نسيمها.
أجد بردها أو تشف مني حرارة * على كبد لم يبق إلا صميمها. ١٠
فإن الصبا ريح إذا ما تنفست * على كبد حراء، قلت همومها.

وقال ابن هتيمل اليمني:

هبت لنا سحرا، والصبح ملتثم، * والليل قد غاب فيه الشيب والهرم.
سقيمة من بنات الشرق أضعفها * عن قوة السير، لما هبت، السقم.
فبلغت بلسان الحال قائلة * ما لم يبلغه يوما إلى فم، ١٥
سرا لغانية تسري إلى به * من النسيم رسول ليس يتهم.
أصافح الريح إجلالا لما حملت * إلى من ريح برديها وأستلم.

(١) واحده عكنة بالضم، وهي ما تثنى من لحم البطن سمنا.

الباب الرابع
من القسم الثانى من الفن الأوّل

١ — فى أسطقس النار [(١)] وأسمائها، وعبادها، وبيوت النيران

حكى أصحاب التواريخ فى حدوث النار أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الارض وجع، نزل جبل أبى قُبَيْس. فأنزل الله إليه مَرْختين من السماء، فحك إحداهما بالأخرى فأَوْرَيا نارا. فلهذا سمى الجبل بأبى قُبَيْس.

ويدل على أن النار من الشجر، قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

والعرب تقول: "فى كل شجر نار، واستمجد المَرْخُ والعَفَار". لأنهما أسرع اقتداحا.

قال الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾.

وقال أصحاب الكلام فى الطبائع: إن الله عز وجل جمع فى النار الحركة، والحرارة، واليبوسة، واللطافة، والنور. وهى تفعل بكل صورة من هذه الصور خلاف ما تفعل بالأخرى.

فبالحركة تعلى الأجسام؛ وبالحرارة تسخن؛ وباليبوسة تجفف؛ وباللطافة تنفذ؛ وبالنور تضىء ما حولها.

(١) أنظر فى كتاب الحيوان للجاحظ تفصيلات ومعلومات عن النار. وهى مما يجب الوقوف عليه والاحاطة به من الوجهة العلمية والفلسفية. أما من حيث اللغة والأدب فيراجع ما ورد فى كتاب «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» للتيفاشى باختصار صاحب لسان العرب، وهو موجود بالفتوغرافية فى «دار الكتب المصرية» ومحل الشاهد هو الباب الثامن من ص ٣٩١ الى ص ٤٢٣

ومنفعة النـار تختص بالإنسان دون سائر الحيوان. فلا يحتاج إليها شيء سواه، وليس به عنها غنى فى حال من الأحوال .

ولهذا عظمتها المجوس[(١)]، وقالوا : إذ أفردتنا بنفعها، فنفردها بتعظيمها . على أنهم يعظمون جميع ما فيه منفعـة على العباد ، فلا يدفنون موتاهم فى الأرض، ولا يستنجون فى الأنهار .

٢ — ذكر أسماء النار

(وأحوالهـا فى معالجتها وترتيبها)

أما أسمـاؤها ، فمنها :

النار ، والصِّلاء ، والسَّكَن ، والضَّرَمةُ ، والحَرَق ، والحَمَدَةُ (وهو صوتُ ٱلتهابها)، والحَدَمةُ ، والجَحيم ، والسَّعير ، والوَحَىٰ .

وأما تفصيل أحوالهـا ومعالجتها وترتيبها ، فقـد قال الثعالبيّ فى فقه اللغة :

إذا لم يُخْرِجِ الزَّنْدُ النارَ عند القَدْح ،قيل: كَبَا يَكْبُو .

فإذا صوّت ولم يخرج ،قيل : صَلَدَ يَصْلِد .

فإذا أخرج النار، قيل : وَرَى يَرِى .

فإذا ألقى الإنسانُ عليها ما يحفَظُها ويُذْكِيها ، تقول : شيّعتها وأثقبتها .

فإذا عالجها لتلتهبَ ،قال : حَضَأْتُها وأَرَّثتها[(٢)] .

فإذا جعل لها مَذْهَبا تحتَ القِدْر، قال : سَخَوتُها .

---

(١) guèbres, mages. عند الفرنسيين . والمجوس لفظ مشتق من "موغ" و "مُغ" ومعناه النور فى اللغة الطورانية .

(٢) فى فقه الثعالبى : وأرّشتها بالشين وعبارة القاموس فى مادة (ارش) وتأريش النار تأريثها .

فإذا زاد فى إيقادها وإشعالها، قال : أَجَّجْتُها .

فإذا آشتد تأججها، فهى جاحمة[1] .

فإذا طَفِئت البتة، فهى هامدة .

فإذا صارت رَمَادا، فهى هابِيَة .

والله تعالى أعلم .

٣ — ذكر عُبَّاد النار

(وسبب عبادتها وبيوت النيران)

§ أوّل مَن عبد النار قابيلُ بنُ آدم .

وذلك أنه لما قتل أخاه هابيلَ هرب من أبيه إلى اليمن، فجاءه إبليس لعنه الله، وقال له : إنما قُبِل قُرْبانُ هابيلَ وأكلته النارُ لأنه كان يخدمها ويعبُدها . فآنصب أنت أيضا نارا تكون لك ولعقِبك، فبنى بيت نار .

فهو أول من نَصَب النار وعَبَدها .

§ وأوّل من عظمها من ملوك الفرس، جم . وهو أحد ملوك الفرس الأُوَل، عظمها ودعا الناس إلى تعظيمها، وقال : إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب، لأن النور عنده أفضل من الظلمة .

§ ثم عُبِدت النار بالعراق ، وأرض فارس ، وكَرْمان ، وسِجِسْتان ، وخُرَاسان ، وطَبَرِسْتَان ، والجبال ، وأَذْرَبِيجان ، وأَرَّانَ ، وفى بلاد الهند ، والسند ، والصين .

(١) عبارة فقه اللغة بعده : (فاذا سكن لهبها ولم يُطفأ جمرها فهى خامدة) وبعده فاذا طفئت البتة الخ

§ وبُنِيَ فى جميع هذه الأماكن بيوت للنِّيران ، نذكرها بعد إن شاء الله تعالىٰ .

§ ثم انقطعت عبادة النيران من أكثر هذه الأماكن إلا الهند . فإنهم يعبدونها إلىٰ يومنا هذا . وهم طائفة تدعىٰ الإكنواطرية[1] . زعموا أن النار أعظم العناصر جِرْما ، وأوسعُها حيزا ، وأعلاها مكانا ، وأشرفها جوهرا ، وأنورها ضياء وإشراقا ، وألطفها جسما وكيانا ؛ وأن الاحتياج إليها أكثر من الاحتياج إلىٰ سائر الطبائع ؛ ولا نور فى العالم إلا بها ، ولا نمو ولا انعقاد إلا بممازجتها .

وعبادتهم لها أن يحفِروا أُخْدُودا مربعا فى الأرض ويحشُوا النار فيه ، ثم لا يَدَعُون طعاما لذيذا ، ولا شرابا لطيفا ، ولا ثوبا فاخرا ، ولا عطرا فائحا ، ولا جوهرا نفيسا ، إلا طرحوه فيها : تقربا إليها ، وتبرّكا بها . وحرّموا إلقاء النفوس فيها ، وإحراق الأبدان بها ، خلافا لجماعة أخرىٰ من زهّاد الهند .

§ وعلىٰ هذا المذهب أكثر ملوك الهند وعظمائها . يعظمون النار لجوهرها تعظيما بالغا ، ويقدّمونها علىٰ الموجودات كلها .

§ ومنهم زهّاد وعبّاد يجلسون حول النار صامتين ، يسدّون منافسهم حتّى لا يصل إليها من أنفاسهم نَفَسٌ صَدَرَ عن صَدْر مجرم . وسُنّتهم الحثّ علىٰ الأخلاق الحسنة ، والمنع من أضدادها ، وهى : الكذب ، والحسد ، والحِقْد ، واللِّجاج ، والحرص ، والبغى ، والبطر . فإذا تجرّد الإنسان عنها ، تقرّب من النار .

(١) أفادنا المترجم الألمانى لكتاب الملل والنحل أن هذه الكلمة مأخوذة من "أجنيهُتْرا" وهى النار المقدسة (أى التى تتأجج إكراما للإله أجنى .)

٤ ـــ وأما بيوت النيران
(ومن رسمها من ملوك الفرس)

قال المسعودى :

§ أول من حُكِى ذلك عنه أفريدون الملك. وذلك أنه وجد نارا يعظمها أهلها، [وهم][١] معتكفون على عبادتها . [فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم فى عبادتها . فأخبروه بأشياء آجتذبت نفسه إلى عبادتها][١] وأنها واسطة بين الله تعالى و بين خلقه، وأنها من جنس الآلهة النورية، وأشياء ذكروها له . وجعلوا للنور مراتب وقوانين [وفرقوا بين طبع النار والنور][١] وزعموا أن الحيوان يجتذبه النور، فيحرق نفسه : كالفَرَاش الطائر بالليل فما لَطف جسمه، يطرح نفسه فى السراج فيحرقها . وغير ذلك مما يقع فى صيد الليل من الغِزلان ، والوحش ، والطير ، وكظهور الحيتان من الماء إذا قربت من السراج فى الزوارق كما يصاد السمك ببلاد البصرة فى الليل ، فإنهم يجعلون السُّرُج حوالى المركب ، فيثب السمك من الماء إليها ؛ وأن بالنور صلاح هذا العالم ، وشرف النار على الظلمة إلى غير ذلك .

فلما أخبروا الملك أفريدون بذلك أمر أن تحمل جمرة منها إلى خراسان ، فحملت . فاتخذ لها بيتا بطوس . [وآتخذ بيتا آخر بمدينة بخارا يقال له برد سورة][٢] . و بيتا آخر بسجستان كواكر[٣] ، كان آتخذه بهمن بن إسفنديار بن يُسْتاسْف بن بهراسف .

---

(١) الزيادة عن المسعودى .

(٢) سماه الشهرستانى : "قُباذان" (ص ١٩٧) .

(٣) سماه الشهرستانى : "كَرْكَرَا" (ص ١٩٧) .

§ و بيت آخر ببلاد الشير و الرّان ، كانت فيه أصنام أخرجها منه أنوشروان ، وقيل إنه صادف هذا البيت ،وفيه نار معظمة فنقلها إلىٰ الموضع المعروف بالبركة .

§ و بيت آخر للنار يقال له كوسجة(١) : بناه كيخسرو الملك .

§ وقد كان بقومس بيت نار معظم لايُدرىٰ من بناه ، يقال له حريش(٢) . ويقال إن الإسكندر لما غلب عليها، تركها ولم يطفئها .

§ و بيت نار آخر يسمّى كَنْكَدَز، بنـاه سياوش بن كاوس الجبار ، وذلك فى زمن لُبثِه بشرق الصين مما يلى البركة .

§ و بيت نار بمدينة أرّجان من أرض فارس ،بناه قمـار .

§ و بيت بأرض فارس آتُّخذ فى أيام يهراسف(٣) .

§ فهذه البيوت كانت قبل ظهور زرادشت .

§ ثم آتخذ زرادشت بعد ذلك بيوتا للنيران . فكان ممـا آتخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان، و بيت بمدينة نَسا والبيضاء من أرض فارس . وقد كان زرادشت أمر يستاسف(٤) الملك بطلب نار كان يعظمها جم(٥) فطلبت ،فوجدت بمدينة خوارزم. فنقلها يستاسفُ إلىٰ مدينة دَارَابجِرْد من أرض فارس ... ... والمجوس تعظم هـذه النار مالا تعظم غيرها من النيران والبيوت ... ... وللفرس بيت نار

(١) سماه الشهرستانى : "كُوَيسة" (ص ١٩٧) .
(٢) سماه الشهرستانى : "جَرِير" (ص ١٩٧) .
(٣) هو لهراسب .
(٤) فى الشهرستانى : كشتاسف .
(٥) هو الملك جمشيد .

بإصطخر فارس، يعظمه المجوس . كان فى قديم الزمان للأصنام، فأخرجتها جمان بنت بهمن بن آسپنديار وجعلته بيت نار . ثم نقلت عنـه النار فخرب ... ... وفى مدينة سابور من أرض فارس بيت معظم عنـدهم آتخذه دارا بن دارا . وفى مدينة جور من أرض فارس ... ... بيت بناه أردشـير بن بابك ... ... وقد كان أردشير بنىٰ بيت نار يقال له بارنوا فى اليوم الثانى من غلبتـه علىٰ فارس . و بيت نار علىٰ خليج القسطنطينية من بلاد الروم بناه سابور الجنود آبن أردشير بن بابك حين نزل علىٰ هذا الخليج وحاصر القسطنطينية . ولم يزل هذا البيت إلىٰ خلافة المهدىّ . وكان سابور آشترط علىٰ الروم بقاء هـذا البيت ... ... و بأرض العراق بيت نار بالقرب من مدينة السلام . بنته بُوران (١) بنت كسرىٰ أبرويز، الملكة، بالموضع المعروف بأسنيبا (٢) .

و بيوت النيران كثيرة تعظمها المجوس . والذى ذكرناه هو المشهور منها (٣) .

٥ — ذكر نيران العرب

ونيران العرب أربعة عشر نارا .

١ — نار المُزْدلِفـــة . توقد حتّى يراها مَن دفع من عرفة . وأوّل من أوقدها قُصىّ بن كلاب .

٢ — نار الآستسقاء . كانت الجاهلية الأولىٰ، إذا تتابعت عليهم الأَزَمات ، وآشتدّ الجدب ، وآحتاجوا إلىٰ الأمطار ، يجمعون لها بَقَرًا ، معلقة فى أذنابها وعراقيبها

(١) فى الشهرستانى : توران .

(٢) فى المسعودى : استينيا . وفى الشهرستانى : إسفينيا .

(٣) هذا الباب كله منقول عن مروج الذهب (أنظر طبعة باريس ج ٤ ص ٧٢ — ٨٦) .

السَّلَع[1] والعُشَر[2]، ويصعدون بها إلى جبل وَعْر، ويشعلون فيها النار، ويَضِجُّون بالدعاء والتضرّع. وكانوا يرون ذلك من الأسباب المتوصَّل بها إلى نزول الغيث[3]. وفى ذاك يقول الوديك الطائى :

لادَرَّ دَرُّ رجالٍ خابَ سَــعْيُهُمُ، * يَستَمْطِرُونَ لَدَى الأزماتِ بالعُشَرِ!
أجاعِلٌ أنت بَيْقُــورًا مُسَــلَّعةً * ذَرِيعــةً لكَ بينَ اللهِ والمَطَــرِ؟

وقال أُمية بن أبى الصَّلْت :

ويَسُوقُون باقِرَ السَّهْلِ لِلطَّوْ * دِ مَهَازِيلَ خَشيةً أن تَبُورَا.
عاقِدِينَ النّيرانَ فى بُكَرِ الأذْ * نَابِ مِنْها، لِكَىْ تَهِيجَ النُّحُورا.
سَلَعٌ مّا ومِثْــلُهُ عُشَرٌ مّا * عائلٌ مّا وعالَتِ البَيْقُــورا.

٣ — نار الزائر والمسافر. ويسمونها نار الطَّرْد. وذلك أنهم كانوا إذا لم يحبوا رجوع شخص، أوقدوا خلفه نارا ودَعَوْا عليه، ويقولون فى الدعاء: أبعده الله وأسحقه! وأوقدوا نارا إثره. قال الشاعر :

وجُمّةِ قَوْمٍ قد أتَوْكَ ولم تكُنْ * لِتُوقِدَ نارًا خَلْفَهـا للتنَدُّمِ.

---

(١) قال العلامة الدكتور أوغست هفنر الألمانى والأب المحقق الفاضل لويس شيخو اليسوعى فى حاشية صفحة ٣٦ من كتاب النبات والشجر للأصمعى الذى عنيا بتحقيقه وطبعه فى بيروت سنة ١٩٠٨، مانصه : السلع نبات. وقيل شجر مر، وقيل أنه سمٌّ. له ورقة صغيرة شاكة كأن شوكها زغب. وهو بقلة تنفرش كأنها راحة الكلب.

(٢) قال الفاضلان المذكوران فى ذلك الموضع أيضا مانصه : "قيل إن العشر من كبار شجر العضاه وهو ذو صمغ حلو وحرّاق مثل القطن. يقتدح به. وهو عريض الورق. يخرج من شعبه ومواضع زهره سكر فيه شىء من المرارة يقال له سكر العشر. ويخرج له نفاخ كشقاشق الجمال. وله نور كالدفلى، مشرق حسن النظر. وله ثمر: Calotropis procera Forsk.. Asclépiade: Le.. Asclepias gigantea. L..

(٣) أما الافرنج والأمريكان فى هذا العصر فانهم يستنزلون الغيث باطلاق المدافع لاحداث الدوى والضجيج والالتهاب فى الجو.

والجُمّة : الجماعة يمشون فى الدّم، وفى الصلح . ومعنىٰ هذا البيت : لم تندم علىٰ ما أعطيت فى الحَمَالة عند كلام الجماعة، فتوقد خلفهم نارا كى لا يعُودوا .

٤ — نار التحاليف . كانوا لا يعقِدون حِلفهم إلا عليها، فيذكرون منافعها، ويدعُون اللهَ بالحِرْمان والمنع من منافعها علىٰ الذى ينقضُ العهدَ، ويطرحُون فيها الكبريتَ والمِلح . فإذا فرقعتْ هوّل علىٰ الحالف . قال الكُميت :

هُمُو خَوَّفُونِى بالعَمىٰ هُوَّة الرَّدىٰ * كما شَبَّ نارَ الحالِفِينَ المُهَوِّلُ.

وقال أَوْس بن حَجَر :

إذا آستقبلَتْه الشَّمْسُ، صَدَّ بوَجْهِه * كما صَدّ عنْ نارِ المُهَوِّلِ حالِفُ.

٥ — نار الغَـدْر . كانت العرب إذا غدر الرجل بجاره، أوقدوا له نارا بمِنى، أيامَ الحج علىٰ الأخشَب (وهو الجبل المطلّ علىٰ منًى). ثم صاحوا: هذه غَدْرة فلان. قالت آمرأة من هاشم :

فإنْ نَهْلِكْ فلم نَعْرِف عُقُوقا * ولم تُوقَدْ لنا بالغَـدْرِ نارُ.

٦ — نارُ السَّـلامة . وهى نار توقد للقادم من سفره، إذا قدم بالسلامة والغنيمة . قال الشاعر :

يا سُلَيْمىٰ أَوْقِدِى النارا * إنَّ مَنْ تَهْوِينَ قَدْ زارَا.

٧ — نارُ الحرب . وتسمّى نارَ الأُهْبَة والإنذار. توقد علىٰ يَفَاعٍ، فتكون إعلاما لمن بَعُد . قال آبن الرومى :

له نارَان: نارُ قِرًى وحَرْبٍ. * ترىٰ كِلْتَيْهِمَا ذاتَ آلْتِهابِ.

٨ — نار الصَّيْد . يوقدونها لصيد الظباء، لتُعْشِىَ أبصارها .

٩ — نار الأَسَد . كانت العرب توقدها إذا خافوه؛ فإن الأسد إذا عاين النار حدّق إليها وتأملها .

١٠ — نار السَّليم . توقد للملدوغ ، والمجروح ، ومَن عضّه الكَلْب الكَلِب حتّى لاينامُوا فيشتدّ بهم الألم . قال النابغة :

يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا ٭ لِحَلْيِ النِّسَاءِ فِى يَدَيْهِ قَعَاقِعُ .

وذلك لأنهم كانوا يعلقون عليه حَلْى النساء ويتركونه سبعة أيام .

١١ — نار الفـــداء . وذلك أن ملوكهم كانوا إذا سبَوْا قبيلة وخرجت إليهم السادات فى الفداء وفى الاستيهاب ، كرهوا أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضحْن . وأما فى الظلمة فيخفىٰ قدر ما يحبسون من الصفىّ لأنفسهم ، وقدرُ ما يجودون به ، وما يأخذون عليه الفداء . فيوقدون لذلك النار . قال الشاعر :

نِساءُ بَنِى شَيْبَانَ يَوْمَ أُوَارةٍ ٭ علىٰ النَّارِ إذ تُجْلَىٰ له فَتَيَاتُها .

١٢ — نار الوَسْم . كانوا يقولون للرجل : ما نارك ؟ (فى الاستخبار عن الإبل) أو ما سِمَتُك ؟ [فيقول] : حياط ، أو علاط ، أو حَلْقة ، أو كذا ، أو كذا .

حُكى أن بعض اللصوص قرّب إبلا كان قد أغار عليها وسلبها من قبائل شتّى إلىٰ بعض الأسواق ، فقال له بعض التجّار : ما نارُك ؟ وإنما سأله عن ذلك ، لأنهم كانوا يعرفون مِيسَم كل قوم وكرم إبلهم من لؤمها ، فقال :

تَسْأَلُنِى البـاعةُ : ما نِجَارُها ، ٭ إذ زَعْزَعُوها فسَمَتْ أبصارُها ؟

وكـلُّ دارٍ لأناسٍ دارُها ! ٭ وكلُّ نارِ العـالَمِين نارُهـا ! (١)

(١) يقول العرب فى أمثالهم : "كل نجار إبل نجارها" وشطره الثانى "ونار إبل العالمين نارها" يضربون المثل للمخلط الذى فيه كل لون من الأخلاق وليس له رأى يثبت عليه .

١٣ — نار القِرىٰ . وهى من أعظم مفاخر العَرَب . كانوا يوقدونها فى ليالى الشتاء، ويرفعونها لمن يلتمس القِرىٰ . فكلما كانت أضخم وموضعها أرفع، كان أفخر. وهم يتمادحون بها، قال الشاعر :

له نارٌ تُشَبُّ بكُلِّ وادٍ * إذا النِّيرانُ أُلْبِسَتِ القِنَاعا .

٥ وقال إبراهيم بن هَرمة :

إذا ضلَّ عنهم ضَيْفُهم، رَفَعُوا له * من النار فى الظَّلْماء أَلْوِيةً حُمْرا .

١٤ — وكانت للعرب نار عظمىٰ تسمّى نار الحرّتين . وهى التى أطفأها الله تعالىٰ بخالد بن سنان العبسىّ . وكانت حَرّة ببلاد عبس، تسمّى حَرَّة الحدثان . روى عن ابن الكلبىّ أنه قال : كان يخرج منها عنق فيسيح مسافة ثلاثة أو أربعة (٤١)

١٠ أميال، لاتمر بشىء إلا أحرقته . وأن خالد بن سنان أخذ من كل بطن من بنى عبس رجُلا فخرج بهم نحوها، ومعه درّة حتّى انتهىٰ إلى طَرَفها، وقد خرج منها عُنُق كأنه عُنُق بعير فأحاط بهم، فقالوا : هلكتُ والله أشياخ بنى عبس آخرَ الدهر! فقال خالد كَلّا ! وجعل يضرب ذلك العُنُق بالدِّرّة ويقول : "بَدًّا بَدًّا ، كلُّ هَدْى الله يُؤَدّىٰ ! أنا عبد الله خالد بن سنان ! " فما زال يضربه حتّى رجع، وهو يتبعه والقوم معه كأنه

١٥ ثُعبانٌ يملك حجارة الحرّة حتّى انتهىٰ إلىٰ قَلِيب، فانساب فيه وتقدّم عليه، فمكث طويلا . فقال ابن عم لخالد، يقال له عروة بن شب : لاأرىٰ خالدا يخرج إليكم أبدا! فخرج يَنْطِف عَرَقا، وهو يقول : زعم ابن راعية المِعْزىٰ أنى لا أخرج . فقيل لهم بنو راعية المعزىٰ إلىٰ الآن .

وفى هذه النار يقول الشاعر :

٢٠ كنار الحَرَّتَيْن لها زَفيرٌ * تُصِمُّ مَسَامِعَ الرجل السَّميع .

٦ — ذكر النيران المجازية

ومن النيران، نيران مجازية لا حقيقية . فمنها :

§ نار البرق . وقد وصفها بعض الأعراب فقال :

نارٌ تُجَـــدِّد للعيدانِ نَضْرتَها * والنارُ تُشْعِل عِيداناً فتحترِق

إشارة إلى أن النار تُحْرق العيدان، إلا نار البرق فإنها تجيء بالغيث . ٥

§ نار المَعِدَة . وهى التى تهضم الطعام. وهى كنار الحياة، ونار الغريزة. وقوتها مادّة للصحة، كما أن ضعفها سبب للعلة .

§ نار الحُمّى . وقد قيل : النيران ثلاثة : نار لا تأكل ولا تشرب، وهى نار الآخرة؛ ونار تأكل وتشرب، وهى نار الحمّى، تأكل اللحم وتشرب الدم؛ ونار تأكل ولا تشرب، وهى نار الدنيا . ١٠

ومن النيران المجازية :

§ نار الشوق، نار الشَّرَه، نار الشباب، نار الشراب .

قال شاعر يمدح بعض الملوك :

وُقيتَ نارَ الجَحيم يامَلِكُ، * أربعُ نِـــيرانِه له نَسَقُ!

نارُ شبابٍ تَرُوقُ نَضْرتُها، * ونارُ راحٍ كأنَّهُ شَفَقُ، ١٥

ونارُ سُــلْطانِه، تقارِنُهـا * نارُ قِـــرًى لاتَزالُ تأْتَلِقُ،

٧ — ذكر النيران التي يضرب المثل بها

يُضْرب المثل :

§ بنار الحُباحِب . وهي نار لبخيل كان يوقدها، فإذا آستضاء بها إنسان، أطفأها.

وقيل : إنها النار التي تُوريها الخيل بسنابكها من الحجارة . قال الله تعالى :
﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ . وقال النابغة :

* ويُوقِدْنَ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحب *

وهذا المثل يضرب لما لا منفعةَ فيه ولا حاصلَ له .

§ نار الغَضَى . يضرب بها المثل في الحَرارة . وهي جمر أبيض لا يصلح إلا للوقود.

§ نار العَرْفَج . هي نار تتقد سريعا . قال قتيبة بن مسلم لعمرو بن عباد بن الحصين :
"لَلسُّؤدُدُ أسرع إليك من النار في يبس العرفج" . إذا آلتهبت فيه النار آنتشرت

وتسمى نار الزَّحفتين ، لأن العرفج إذا آنتشرت فيه النار عظُمت وآستفاضت .
فمن كان بالقرب منها زحف عنها، ثم لا تلبث أن تنطفئ من ساعتها . فيحتاج الذي
زحف عنها أن يزحف إليها . فلا يزال المصطلي بها كذلك، فلذلك سميت نار الزحفتين .

§ نار الحَلْفاء . يضرب بها المثل في سرعة الآتقاد ، كما قيل :

فما ظَنُّك بالحَلْفا * ء أَدْنَيْت له نارا .

وفي سرعة الآنطفاء، كما قيل : نار الحَلْفاء، سريعة الآنطفاء .

٨ — ذكر ماجاء منها على لفظ أفعل

يقال :

آكل من النار، أحرّ من النار، أحرّ من الجمر، أحسَنُ من النار، أسرع من شرارة في قَصْباء .

ويقال : ٥

فلان واري الزناد، وَرِيَتْ بك زِنادي ، فلان ثاقب الزَّنْد ، فلان كابِي الزِّناد ، صَلَدَتْ زِنادُه ، فلان مايُصْطَلَى بناره ، هو القابِسُ العَجْلان ، هما زَنْدانِ في وِعاء .

ومن أنصاف الأبيات :

والنار قد يُخْمِدُها النّافِخُ . كمُلْتَمِسٍ إطفاءَ نارٍ بنافِخ

والجمرُ يوضَعُ في الرَّمادفيَخْمُدُ . كذا كُلُّ نارٍ رُوِّحَتْ تَتَوَهَّجُ ١٠

. هيهاتَ تُكْتَمُ في الظَّلامِ مَشاعِلُ .

ومن الأبيات قول علىّ بن الجَهْم :

والنّارُ في أحجارها مَكْنُونَةٌ . لاتُصْطَلَى إن لم تُثِرْها الأزْنُدُ

وقال آخر :

والنارُ بالماء الذي هو ضِدُّها . تُعْطِي النِّضاجَ ، وطَبْعُها الإحراقُ . ١٥

وقال آخر :

والكاتِمُ الأمْرِ ليس يَخْفَى . كالمُوقِدِ النارِ باليَفاعِ .

وقال آخر :

لاتَتَّبِعْ كُلَّ دُخانٍ ترى ، * فالنّارُ قد تُوقَدُ للكَيِّ .

وقال أبو تمام :

لولا اشتعالُ النَّار فيما جاوَرَتْ، * ما كان يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُود.

وقال آخر :

وفَتِيلَةُ المصباح تُحْرِقُ نَفْسَهَا * وتُضِيءُ للسَّارِى، وأَنْتَ كَذَا كَا.

٩ — ذكر ما قيل فى وصف النار وتشبيهها

٥

قال عبد الله بن المعتزّ، غفر الله له :

كأنَّ الشَّرَارَ علىٰ نارها * وقد راقَ مَنْظَرُها كُلَّ عَيْن.

سُحَالَةُ تِبْرٍ إذا مَا عَلَا، * فإمّا هوىٰ فَفُتَاتُ اللُّجَيْن.

أخذه العسكرىّ فقال :

أَوْقَدْتَ بعد الهُدُوِّ نارًا * لها علىٰ الطارقين عَيْنُ.

١٠

شَرَارُها إنْ عَلَا نُضَارٌ، * لكنَّهُ إن هَوىٰ لُجَيْنُ.

وقال السَّرِىّ الرَّفَّاء :

والْتَهَبَتْ نارُنا، فَمَنْظَرُها * يُغْنِيك عن كُلِّ مَنْظَرٍ عَجَبِ.

إذا رَمَتْ بالشَّرار فاطَّرَدَتْ * علىٰ ذُرَاها مَطارِدُ اللَّهَبِ،

رأيتَ ياقوتةً مُشَبَّكَةً * تَطِيرُ عنها قُرَاضَةُ الذَّهَب.

١٥

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسىّ :

حَمْراءُ نازَعَتِ الرِّياحَ رِداءَها * وَهْنًا وزاحَمَتِ السَّماءَ بِمَنْكِب.

ضَرَبَتْ سَماءً من دُخَانٍ فوقها، * لم تدر منها شُعْلَةً من كوكب.

وتَنَفَّحَتْ عن كُلِّ نفحةِ جَمْرةٍ * باتت لها ريحُ الشَّمال بِمَرْقَب.

قد أُلْهِبَتْ فتذهَّبَتْ فكأنها * شَقْراءُ تَمْرَحُ فى عَجَاجٍ أَكْهَب[١].

٢٠

(١) الكهبة لون ليس بخالص فى الحمرة . وهو فى الحمرة خاصة (صحاح الجوهرى) .

وقال أبو الفتح كُشَاجِمُ :

كأنمـا النارُ والرَّمادُ وقـــد * كاد يُوارِى من نُورِها النُّورَا :

وَرْدٌ جَنِيٌّ القِطافِ أحمرُ قد * ذَرَتْ عليه الأَكُفُّ كافُورَا.

وقال تاج الملوك بن أيوب :

أَمَا تَرىٰ النارَ وهى تُضْرَمُ فى * أحشـاء كانُونِهَا وتلتَهِبُ؟

كأنّمـا الفحمُ فوقهـا قُضُبٌ * من عَنْبَرٍ وهى تحتَهُ ذَهَبُ.

وقال أبو مرْوان بن أبى الخِصَال :

لابنة الزَّنْدِ فى الكوانين حُمْرٌ * كالدَّرارِىّ فى دُجىٰ الظَّلماءِ.

خَبِّرونى عنها ولاتكْتُمُونِى * أَلَدَيْها صِـنَاعَةُ الكيمياءِ؟

سَبَكَتْ فَحْمَها صَفَائِحَ تِبْرٍ * رَصَّعَتْها بالفِضَّـةِ البيضاءِ.

كُلَّمَا رَفْرَفَ النَّسِـيمُ عليها * رَقَصَتْ فى غِـلَالةٍ حَمْراءِ.

هذا البيت مأخوذ من قول الخفاجىّ :

وكأنّها والريحُ عابثَـةٌ بهـا * تُزْهىٰ فتَرْقُصُ فى قميصٍ أحمرِ.

وقال أبو هلال العسكرىّ :

نارٌ تَلعَبُ بالسُّـقُوفِ كأنهـا * حُلَلٌ مُشَقَّقَةٌ علىٰ حُبْشَانِ .

رَدَّتْ عليها الريحُ فَضْـلَ دُخَانها * فأتَتْ به سُبُجًا علىٰ عِقْيَانِ .

فالجوُّ يَضحَكُ فى ٱبيضاضِ شَرائِرٍ * منها ويَعْبِسُ فى ٱسْوِدَادِ دخَانِ.

(٤٣)

وقال ابن أبي الخصال :

وعوجوا على ياقوتة ذهبية * يهيم بها المقرور بالسبرات[1]

إذا ما ارتمت من فحمها بشرارها * رأيت نجوم الليل منكدرات

وقال سيف الدولة بن حمدان :

كأنما النار والرماد معا * وضوءها في ظلامه يحجب :

وجنة عذراء مسها خجل * فاستترت تحت عنبر أشهب

وقال آخر :

فحم كيوم الفراق تشعله * نار كنار الفراق في الكبد

أسود قد صار تحت حمرتها * مثل العيون اكتحلن بالرمد

وقال أبو طالب المأموني :

ما ترى النار كيف أسقمها القر فأضحت تخبو وطورا تسعر ؟

وغدا الجمر والرماد عليه * في قميص مذهب ومعنبر ؟

وقال أبو فراس الحمداني :

لله برد ما أشد * ومنظر ما كان أعجب !

جاء الغلام بناره * هوجاء في فحم تلهب

فكأنما جمع الحلي * فمحرق منه ومذهب

ثم انطفت فكأنما * ما بيننا ند مشعب

(١) السبرة : الغداة الباردة .

١٠ — ذكر شىء مما قيل فى الشَّمْعَة والشَّمْعدان
(والسراج[1] والقِنْديل[2])

١ — أما الشمعة، فمن جيّد ماقيل فيها قولُ الأَرَّجانىّ :

نَمَّتْ بأسْرار لَيْـــلٍ كان يُخْفيها * وأطْلَعَتْ قلبهَا للنّـاسِ مِنْ فِيهَا .
قَلْبٌ لها لم يَرُعْنَا وهو مُكْتَمِنٌ * إلا بِرُقْيَــةِ نار من تَرَاقِيهـا .
سقيمةٌ لم يَزِلْ طولُ اللسان لها * فى الحىّ يَجْنِى عليها ضَرْبَ هَاديها .
غَرِيقَةٌ فى دُمُوع ، وهى تُحْرِقُها * أنفاسُها بدَوامٍ من تَلَظِّيهـا .
تَنَفَّسَتْ نَفَسَ المَهْجُور إذْ ذَكَرَتْ * عَهْدَ الخَليط فبات الوَجْدُ يُبْكيها .
يُخْشىٰ عليها الرَّدىٰ مَهْمَا ألمّ بها * نَسِـــيمُ رِيحٍ إذا وافىٰ يُحَيّيهـا .
بَدَتْ كَنَجْمٍ هوىٰ فى إثْرِ عِفْرِيَةٍ * فى الأرض فٱشتعَلَتْ منه نَوَاصيها .
نجم رأىٰ الأرضَ أولىٰ أن يُبَوَّأها * من السماءِ ، فأمْسىٰ طَوْعَ أهليها .
كأنهـا غُرَّةٌ قد سالَ شادِخُها * فى وَجْهِ دَهْمَـاءَ يُزْهيها تَجَلِّيهـا .
أو ضَرَّةٌ خُلِقَتْ للشَّمْس حاسِدةٌ ؛ * فكُلَّما حُجِبَتْ ، قامت تُحَاكِيها .
وَحِيــدةٌ كشَــبَاةِ الرُّمْحِ هازمةٌ * عساكِرَ الليل إن حَلَّتْ بِوَادِيها .
ماطَنَّبَتْ قَطُّ فى أرض مخيِّمةً * إلا وأقْمَرَ للأَبصــارِ دَاجِيهـا .

(١) ممـا يجب التنبية اليه ان "سُورَج" و"سُرْج" معناهما الشمس فى اللغة الهندية عن السنسكريتيه (أنظر القاموس الهندى الانكليزى تأليف فوربس) .

(٢) فى اللغة اللاتينية Candella وفى الفرنسية Chandelle بمعنى الشمعة وعنها Candélabre . و يقول علماء الافرنج ان اختراع الشمع للاستضاءة ممـا توصل اليه الغاليون وعلى ذلك يكون الأصل افرنكيا ثم نقله العرب لمعنى المصباح المعرف بالقنديل .

لَهَا غَرَائِبُ تَبْدُو من مَحَاسِنِها ، * إذا تَفَكَّرْتَ يومًا فى مَعَانِيها .
كصَعْدةٍ فى حَشَا الظَّلْمَاءِ طاعنةٍ * تَسْقِى أسافِلُها رَيًّا أَعَالِيها .
فالوَجْنَةُ الوَرْدُ إلا فى تناوُلِها * والقامةُ الغُصْنُ إلا فى تَثَنِّيها .
صَفراءُ هِنْدِيَّةٌ فى اللَّوْنِ إن نُعِتَتْ ، * والقدِّ واللّين إن أَتْمَمْتَ تَشْبِيها .
فالهِنْدُ تَقْتُل بالنِّيرانِ أَنْفُسَها * وعِنْدَها أنَّ ذاكَ القتلَ يُحْيِيها .
قد أثْمَرَتْ وردةً حمراءَ طالِعةً * تَجْنِي علىٰ الكَفِّ إن أَهْوَيْتَ تَجْنِيها .
وَرْدٌ تُشَاكُ به الأيْدِى إذا قُطِفَتْ ، * وما علىٰ غُصْنِها شوكٌ يُوَقِّيها .
ما إن تَزَالُ تبيتُ اللَّيلَ ساهرةً * وما بها غُلَّةٌ فى الصَّدْرِ تُطْفِيها .
صُفْرٌ غَلَائِلُها ، حُمْرٌ عمائمُها ، * سُودٌ ذوائبُها ، بيضٌ لياليها .
تُحْيِى الليالىَ نُورًا ، وهى تَقْتُلُها . * بئس الجزاءُ لعَمْرُ اللهِ تَجْزِيها !
قُدَّتْ علىٰ قَدِّ ثوبٍ قد تَبَطَّنَها * ولم يُقَدَّرْ عليها الثوبَ كاسِيها .
غَرَّاءُ فَرْعاءُ ماتنفكُّ قالِيَةً * تقصُّ لِمَّتَها طَوْرًا وتَفْلِيها .
شَبَّاءُ شَعْثاءُ لا تُكْسى غدائِرُها * لَوْنَ الشَّبِيبةِ إلا حينَ تُبْلِيها .
قَنَاةُ ظَلْمَاءَ لا تنفك يأكلُها * سِنانُها طولَ طَعْنٍ أو يُشَظِّيها .
مَفْتوحةُ العين تُفْنِى ليلها سَهَرًا ، * نَعَمْ ، وإفناؤُها إيّاهُ يُفْنِيها .
ورُبَّما نالَ من أطْرافِها مَرَضٌ * لم يُشْفَ منه بغير القَطْعِ مُشْفِيها .

وقال آخر :

بَيْضاءُ أَضْحَكَتِ الظلامَ قِرَاعُها * فبَكَتْ وأسبَلَتِ الدُّمُوعَ بَوَادِرا .
جَفَّت دُموعُ جُفُونِها فكأنَّما * كُسِيَتْ من الطَّلْعِ النَّضِيدِ ضَفَائِرا .

وقال أبو القاسم المطرِّز من أبيات :

وللشُّـــمُوع عيُونٌ كُلَّمــا نظَرَتْ * تَظَلَّمَتْ من يَدَيْهــا أنْجُم الغَسَــق.

من كلِّ مُرْهَفَة الأعْطاف كالغُصْن الــ * ـمَيَّاد لكنَّـــه عارٍ من الوَرَق.

إنى لأعْجَبُ منْهــا وهى وادِعَـــةٌ * تَبْلىٰ ، وعيشَتُها من ضَرْبة العُنُق!

وقال آخر : ٥

جاءتْ بجِسْمٍ كأنَّه ذَهب * تَبْكِى وتَشْكِى الهَوىٰ وتلتهِبُ.

كأنها فى أكُفِّ حامِلِها * رمْحُ لجينٍ سِــنانُه ذَهَبُ.

وقال محمد بن أبى الثبات، شاعر اليتيمة :

ومَجْدولَةٍ مثل صَــدْر القناة * تعرّت، و باطِنُهــا مُكْتَسِى.

لها مُقْــلَةٌ هى رُوحٌ لَهَــا، * وتاجٌ علىٰ الرأس كالـبُرْنُس. ١٠

إذا غازَلَتْها الصَّـبا حَرَّكَتْ * لِسَــانًا من الذَّهَبِ الأمْلَس.

وتُنْتَجُ من حيْثُ ما ألْقَحتْ * ضِياءً يُجَلِّى دُجىٰ الحِنْـدِس.

فنَحْنُ من النُّور فى أسْعُدٍ، * وتِلْك من النـارِ فى أنْحُس!

وقال آخر:

ورشيقةٍ بيضاءَ تَطْلُعُ فى الدُّجىٰ * صُبْحا وتَشْــفِى الناظِرِينَ بِدَائها. ١٥

شــابَتْ ذوائِبُهــا أوانَ شَبَابِها، * وٱسْــوَدَّ مَفْرِقُها أوانَ فَنَائِهــا.

كالعَيْن : فى طَبَقَاتِها ودُمُوعِها * وبَيَــاضِها وسوادِها وضِيَائِها.

وقال الصاحب بن عبّاد :

وشمعـــةٍ قُدِّمَتْ إلينـا * تجمعُ أوصافَ كُلِّ صَبِّ :

صُفرةُ لونٍ، وذوبُ جسمٍ، * وفيضُ دمعٍ، وحرّ قلب .

وقال السرىّ الرفّاء :

مفتولةٌ مجدولةٌ * تحكى لنا قدّ الأَسَلْ .

كأنّها عُمْرُ الفتىٰ * والنارُ فيها كالأجَلْ .

وممّا ورد فى وصفها نثرا .

من رسالة لابن الأثير الجزرىّ جاء منها :

وكان بين يدىّ شمعةٌ تعمُّ مجلسى بالإيناس، وتغنى بوجودها عن كثرة الجُلَّاس، وكانت الريح تتلعّبُ بشُعَبها، وتدور علىٰ قُطْب لَهَبها؛ فَطَوْراً تقيمه فيصير أُنْمُلَه، وطورا تُميله فيصير سِلْسِله، وتارة تُجوّفه فيصير مُدْهُنَه، وتارة تجعله ذا وَرَقات فيمثل سَوْسَنَه، وآونة تنشره فيبسط مِنْديلا، وآونة تَلُفّه علىٰ رأسها فيستدير إكليلا .

ومن رسالة أخرىٰ له :

وكانت الريح تتلعّبُ بلَهَبِها لدىٰ الخادم فتشكله أشكالا، فتارة تُبْرِزُه نجما، وتارة تُبْرِزه هلالا، ولربما سطع طورا كالجُلَّنارة فى تضاعيف أوراقها، وطورا كالأصابع فى انضمامها وافتراقها .

§ وقال سيف الدّين المشدّ فى الفانوس :

وكأنّما الفانوسُ فى غَسَقِ الدُّجىٰ * دَنِفٌ براهُ سُقْمُهُ وسُهادُه .

حُنِيَتْ أضالعُه ورَقَّ أديمُه * وجَرَتْ مَدامعُه وذابَ فُؤادُه .

٢ — ومما قيل فى السراج .

من رسالة لأبى عبدالله محمد بن أبى الخصال ، جاء منها :

عذرا إليك أيّدك الله! فإنى خططت والنوم مُغَازِل ، والقُرُّ نازل ؛ والريح تلعب بالسراج ، وتصول عليه صَوْلَةَ الحَجَّاج ؛ فطورا تبرزه سنانا ، وتحرّكه لسانا ؛ وآونةً تَطْوِيه جُنَّابَه ، وأخرىٰ تنشره ذُؤَابه ؛ وتارة تقيمه إبْرة لهب ، وتعطفه بُرَةَ ذهب ؛ وحينا تقوّسه حاجب فتات ، ذات غمزات ؛ وتسـلطه علىٰ سليطه ، وتديله علىٰ خليطه ؛ وربما نصبته أُذُنَ جَوَاد ، ومسختته حَدَقَ جَرَاد ؛ ومشَقّتْه حروف برق ، بكفّ وَدْق ؛ ولَثَمت بسناه قِنْدِيلَه ، وألقت علىٰ أعطافه مِنْدِيلَه ؛ فلاحظّ منه للعين ، ولا هداية فى الطِّرس سيدين .

٣ — رسالة القِنْدِيل والشمعدان .

من إنشاء المولىٰ الفاضل البارع البليغ تاج الدين عبد الباقى بن عبدالمجيد اليمانى ، سمعتُها من لفظه ، وقرأتها عليه ، وأجاز لى روايتها عنه . وهى الموسومة "بزهر الجنان ، فى المفاخرة بين القنديل والشمعدان" .

ابتدأها بأن قال :

الحمد لله الذى أنار حَالِك الظَّلْمَاء ، بأنوار بَدْر السماء ؛ وحلّى جيدها ، بعقود النجوم ، وحرس مَشِيدها ، بسِهَام الرجوم ؛ وجعلها عبرة للاستبصار ، ونزهة للأبصار ؛ غِشَاؤها لازَوَرْدٌ مكلل بنُضَار ، أو أقاحىٌ خميلة تفتحت فيها أزرارُ الأزهار ؛ تَهْـدِى السارىَ بسواريها ، وتُزْرِى بالدرر أنوارُ دراريها ؛ كرع فى نهر مَجَرّتِها النَّسْرَان ، ورتع فى مراعى رياضها الفَرْقَدَان .

أحمده على نعمه التي لايقوم بشكرها لسان، ولا يؤدّى واجب حقها إنسان، حمدا يجلبُ إلى الحامد أنواعَ الإحسان، ويسوق إلى الشاكر ركائب الخيرات الحسان.

وأصلى وأسلم على سيدنا محمد الذى أنار الله بوجوده ظُلْمة الوجود، وأظهر بظهوره أفعالَ الركوع والسجود؛ صلّى الله وسلم عليه وعلى آله الوافين بالعهود، وعلى أصحابه أهل الإفضال والجود، صلاة وسلاما دائمين إلى اليوم الموعود!

وبعد فإن فُنونَ الاداب كثيرة الشعوب، متباينة الأُسْلُوب، طالمَا تلاعب الأديب بفنونها بين جِدٍّ ومُجُون، وكيف لا والحديث ذو شجون. وكنت بحمد الله ممن هو قادر على إبراز مُلَح الأدب، وعلى إظهار لطائف لغة العرب؛ فَتَمَثّل في خاطرى المفاخرة بين الشمعدان والقِنديل، ولا بدّ من إبراز المفاخرة بينهما في أحسن تمثيل؛ لأنهما آلتا نور، ونديما سرور؛ طالما مزّقا جِلْباب الدُّجى بأضوائهما، وحسما مادّة الظلمة بأنوارهما؛ وطلعا في سماء المجالس بدورا، وأخجلا نَوْر الرياض لما أصدرا من جوهرهما نُورا. سِمّا كل واحد منهما إلى أنه الأصل، وأن بمدحه يَحْسُن الفصل والوصل؛ وأنه الجوهرة اليتيمه، والبَدْرَةُ التي ليست لها قيمه؛ سارت بمحاسنه ركائب الركبان، ونُظِمت في جيد مجده قلائدُ العِقْيان.

فأحببت أن أنْظِمهما في مَيْدان المناظرة لِيُبْرِز كلّ واحد منهما خصائصه الواضحه، ويُظْهِرَ نقائص صاحبه الفاضحه؛ وليتسنم غارب الاستحقاق بالفضيله، ويؤكد في تقرير فضائله الراجحة دليله؛ مع أنه لاتقبل الدَّعاوى إلا بالبرهان. ولعمرى لقد قيل قدْمًا:

من تَحَلّى بغَيْرِ ماهُو فِيه * فَضَحَتْه شَواهِدُ الإمْتِحان.

فأتلع الشمعدان جِيدَه لمطاوله، وعَرض سَمْهَرِيَّه الجَنِيّ لمناضله. وقال :

* اِسْتَنَّت الفِصالُ حتّى القَرْعىٰ *

لستَ بنديم الملوك فى المجالس، كلّا ولا الروضةِ الغَنّاءِ للمُجَالس! طالما أحدقتْ بى عساكرُ النظار، ووقفت فى آستحسان هياكلى رؤيةُ الأبصار، وحُمِلْتُ علىٰ الرؤوس (٤٦) إذا عُلِّقْتَ بآذانك، وجُلِيتُ بجلاء المرهَفَات إذا آسودّ وجهك من دُخَانك. ٥

فنضنض لسانُ القِنديل نضنضة الصِّلّ، وآرتفع آرتفاع البازى المُطِلّ. وقال:

إن كان فخرك بمجالسة السلاطين، فآفتخارى بمجالسة أهل الدين! طالما طلعتُ فى أفق المحراب نجما آزداد عُلا، وآزدانت الأماكن المقدّسة بشموس أنوارى حُلا؛ جمع شكلى مجموع العناصر، فعلىٰ مثلى تُعْقَد الخناصر؛ يحسَبُنى الرائى جوهرة العقد الثمين، إذا رأىٰ آصفرار لونك كصُفْرة الحزين؛ ولقد علوتك فى المجالس زمانا، ومن صبر علىٰ حرّ المشقة آرتفع مكانا. ١٠

فنظر إليه الشمعدان مُغْضَبًا، وهمّ بأن يكون عن جوابه منكّبا. وقال :

أين ثمنك من ثمنى، ومسكنك من مسكنى؟ صفائحى صَفَحات الإبريز، فلذا سموت عليك بالتّبْريز؛ تتنزّه العيونُ فى حمائلى الذهبيه، وتسر النفوسُ ببزُوغ أنوارى الشمسيه؛ ولا يملكنى إلا من أوطنته السعادة مِهادَها، وقَرَّبتْ له الرياسة جِيَادها؛ ولقد نفعتُ فى الصحة والسَّقَم، وآزدادت قيمتى إذا نقصتَ فى القيم؛ إن آنفصمت عُرَاك فلا تُشْعَبْ، ولا تعاد إلىٰ سبكٍ نار فتصبّ وتُقْلَبْ؛ لست من فُرْسان مناظرتى، ولا من قُرَنَاء مفاخرتى. ١٥

فالتفت القنديل آلتفات الضِّرغام، وفَوّق إلىٰ قرينه سهامَ الملام. وقال :

أنت عندى كنُعاله ، لامحاله ، طالك العنقود ، فأبرزت أنواع الحقود ، وأين الثريّا من يد المتناول؟ أم أين السها من كف المتطاول؟ تالله إنك فى صرفك بصُفرك مغلوط ! لقــد خُصِصْتُ بالعلو وخُصِصْتَ بالهُبُوط . ترىٰ باطنى من ظاهرى مشرقا ، وتخالنى لخزائن الأنوار مطلقا ، فحديث سيادتى مُسَلْسَل ، وتاج فضائلى بجواهر العلو مكلّل .

٥ فلحظه الشّمعدان بطرَف طَرْفه ، وأرسل فى مَيْدان المناظرة عِنان طِرْفه . وقال :

إنّ ٱفتخارك بالعلو غير مفيد ، ومزية ٱختصاصك به ليس له أبهّة مزيد ، طالمـا علا القَتام وٱنحطت الفُرسان ، ومكث الجمر وسمـا الدُّخَان ، ولقد صَيرّتكَ كنظر المشـــنوق حاله ، وكضوء السُّها ذُبَاله ، وأنت الخليق بمـا قيل :

* وقلْبٌ بلا لُبٍّ ، وأذْنٌ بلا سَمْعِ *

١٠ وسلاسلك تشــعر بعقلك ، وعلوك ينبئ عن غلو إسقاطِ كمثلك ، عادلت التبر كفَّة بِكفّه ، ووزنته إذ كان فيه خفه ، فأصغ لمفاخرى الجليله ، وٱستمع مناقبى الجميله . أُطارِد جيوش الظَّلْماء برمحى ، وأمزق أثواب الديجور بصبحى ، جمع عاملى بين طلع النخل ، وحلاوة النحل ، يتلو سورة النور لســانى ، ويقوىٰ فى مصادمة عسا كر الليــل البهيم جَنَانى ، أسامر المليك خَلْوه ، ويستجلى من محاسنى أحسن جَلْوَه .

١٥ ولله درّ القائل :

أُنظر إلىٰ شَمعــدانٍ شَكْلُه عَجَبُ * كروضة رَوضتْ أزهارَها السُّحُبُ .
يُطارِدُ الليــلَ رمحٌ فيــه من وَرِق * ســنَانُهُ لَهَبٌ من دونه الذَّهَبُ .

فمثل هذه المناقب تُتلىٰ ، ومثل هذه المحاسن تظهر وتُجْلىٰ .

فأضرم نار تبيينه، فى أحشاء قرينه. فعندها قال القنديل :

لقد أطلت الافتخار بمحاسن غيرك، لمّا وقفت فى المناظرة ركائب سيرك، فاشكر اليد البيضاء من شمعك، واحرص على معرفة قيمتك ووضعك، وأما افتخارك بتلاوة سورة النور، فأنا أحق بها منك إذ محلى الجوامع، والفرقان فارق بينى و بينك مع أنه ليس بيننا جامع، ففضيلتى فيه بيّنه، وآية نورى فى سورة النور مبيّنه، فاقطع موادّ اللجاجة، واقرأ الآية المشتملة على الزجاجة، يظهر لك من هو الأعلى، ومن بالافتخار الأولى، تخالنى دُرَّة عُلّقت فى الهواء، أو كوكبا من بعض كواكب الجوزاء.

ولله درّ القائل :

قنـديلنا فاق بأنواره ... نَوْرَ رياض لم تزل مُزْهِرَه

ذُبالةٌ فيـه إذا أوقدتْ ... حَكَتْ بحُسْن الوَضْعِ نَيْلُوفَرَه

لا يحمل الأقذاء خاطرى، ولا يغتمّ مشاهدى وناظرى، فأنا خلاصة السبك، والتبر الذى لا يفتقر إلى الحكّ، اشتقاق اسمك من النحوس، ومن جِرْمِك تقام هياكل الفلوس، لقد عرّضتَ نفسك للمنيه، وانعكست عليك موادّ الأمنيه، مع أن الحق أوضح من لَبَّة الصباح، وأسطعُ من ضوء المصباح، والآن غُصِصْتَ بريقك، وخفيتْ لوامع بُرُوقك، فهذه الشهباء والحَلْبَه، وهذه ميادين المناضلة رَحْبه. (٤٧)

فحار الشمعدان فى الجواب، وجعل ما أبداه أوّلا فصل الخطاب

فقال القنديل :

لا بدّ من الإقرار بأن قِدْحى المعلّى، وأنى عليك بالتقديم الأولى، وأن مقامى العالى، ونورى المتوالى.

فقال الشمعدان :

لا منازعة فيما جاء به الكتاب من تفضيلك، وكونك الكوكب الدرّىّ الذى قَصُر عن بلوغك باعُ مثيلك .

فجنح الشمعدان للسِّلْم ، وترفع عن استيطان مواطن الإثم؛ وشرع يُبْدِى شعائر الخضوع، وينشر أعلام الأوبة عما قال والرجوع ؛ وقال :

لولا حَمِيَّةُ النفوس، ما تَجَمَّلت بمفاخرنا صفحات الطروس؛ ولولا القال والقيل، ما ضَمَّنا معرض التمثيل؛ ولكن أين صفاؤك من كدرى، وأين نظرك من نظرى؛ خصك الله بنوره، وذكرك فى فرقانه وزبوره .

فعندها تهللت أسارير القِنْديل ، وتبسم فرحا بالتعظيم والتبجيل . وقال :

حيث رجعنا إلى شرع الإنصاف، وإظهار محاسن الأوصاف؛ ففضلك لايبارى، ووصفك لايجارى؛ يحسبك الرائى خميلة نَوْر تفتّحت أزهارها، وحديقة نرجس اطّردت أنهارها؛ تُسَرّ بك النفوس، وتدار على نضارتك الكؤوس؛ وإن اللائق بحالنا طىّ بساط المنافسه، وإخماد شرر المقابسه؛ والاستغفار فيما فرط من كلامنا، والرجوع إلى الله فى إصلاح أقوالنا وأفعالنا .

ونقول :

الأصل فيما نقلناه عدمه، فقد حَفِىَ كل واحد منا فى إبراز معايبه قَلَمُه . ونسأل الله أن تدوم لنا نِعَمُه، ويتعاهدنا فى المساء والصباح كرمه! بمنه وجوده وكرمه! آمين!

القسم الثالث من الفن الأوّل

فى الليالى والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد

وفيه أربعـــة أبواب

البـاب الأوّل

من هذا القسم

١ — فى الليـالى والأيام

رُوى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : خلق الله الخلق فى ظلمة . (ورُوى : فى عَمَاء) ثم رش عليهم من نوره .

وهذا يدل على أن الظلمة خلقت قبل النور .

وروى أن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) سئل عن الليل ، أكان قبـل أو النهار؟ قال : أرأيتم حيث كانت السماوات والأرض رتقا ، هل كان بينهما إلا ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل كان قبل النهار .

والذى ورد فى القرآن من ذكر الليل والنهار، والظلمات والنور بدأ الله (عز وجل) بذكر الليل قبل النهار، وبالظلمات قبل النور .

ويروى أن الله (عز وجل) لما خلق السماء والأرض، وقع ظل السماء على الارض فأظلمت، فجعل الشمس ضياء والقمر نورا

ثم خلق الزمان وقسمه قسمين : ليلا، ونهارا . فجعل خصة الليل للقمر، وحصة النهار للشمس . فكانا يتعاقبان بالطلوع فيهما ، فلم يكن بين الليل والنهار فرق فى الإضاءة .

فلما أراد الله عز وجل خلق النوع الإنسانى — وعلم أنه لاغنى له عن حركته للعاش نهارا وسكونه للراحة ليلا — أمر جبريل فأمر جناحه على القمر فمحا نوره. فالسواد الذى يرى فى القمر هو أثر المحو، وصار الليل مظلما، والنهار مبصرا .

ورُوِى أيضا أن الله (عز وجل) خلق حجابا من ظلمة مما يلى المشرق، ووكّل به مَلَكا يقال له سراهيل. فإذا آنقضت مدّة النهار، قبض الملك قبضة من تلك الظلمة وآستقبل بها المغرب، فلا تزال الظلمة تخرج من خلل أصابعه وهو يراعى الشفق . فإذا غاب الشفق، بسط كفه فطبق الدّنيا ظلمة. فإذا آنقضت مدّة الليل، قبض كفه على الظلمة ، إصبعا بعد إصبع إلى أن يذهب الظلام، حتّى تنتقل الشمس من الشرق إلى الغرب. وذلك من أشراط الساعة. والله أعلم !

---

٢ — ذكر ما قيل فى الليل وأقسامه

الليل طبيعىّ ، وشرعىّ .

أما الطبيعىّ ، فهو من حين غروب الشمس واستتارها إلى طلوعها وظهورها .

وأمّا الشرعىّ ، فهو من حين غروبها إلى طلوع الفجر الثانى، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ﴾ .

§ والليل ينقسم إلى آثنتى عشرة ساعة ، لها أسماء وضعتها العرب، وهى :

الشاهد، ثم الغَسَقُ، ثم العَتَمَةُ، ثم الفَحْمَةُ، ثم المَوْهِنُ، ثم القِطْعُ، ثم الجَوْشَنُ ثم العبكَة (١)، ثم التَّباشير، ثم الفجر الأول، ثم الفجر الثانى، ثم المُعْتَرِض .

هذا ما ذكره ابن النحاس فى وصف صناعة الكُتّاب .

وحكى الثعالبىّ فى فقه اللغة — عن حمزة الأصفهانىّ، قال : وعليه عهدته — أسماء غير هذه، وهى :

الجَهْمَةُ، والشَّـفَقُ، والغَسَقُ، والعَتَمَةُ، والسُّدْفَةُ، والزُّلَّة (٢)، والزُّلْفَـةُ، والبُهْـرَةُ، والسَّحَر، والفجر، والصُّبح، والصَّباح .

فصـــــل

وقد عُبِّر بالليالى عن الأيام، كقول الله عزّ وجلّ : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾؛ وقوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾. فعبر عن الأيام بالليالى، لأن كل ليلة تتضمن يوما .

٣ — ذكر الليـالى المشهورة

من الليالى المشهورة :

§ ليلة البَرَاءة، وهى ليلة النصف من شعبان، قيل سميت بذلك لأنها بَراءة لمن يُحْييها ؛

§ وليلة القَدْر، والصحيح أنها فى مفرَدات العشر الأخير من شهر رمضان ؛

§ وليلة الغَدِير، وهى ليلة الثامنَ عشرَ من ذى الحجة ؛

(١) كذا بالأصل والذى فى كتب اللغة بهـذا المعنى "المُتَكَة" فلعل ماهنا تحريف من الناسخ .

(٢) لا توجد هذه الكلمة بهذا المعنى لا فى اللسان ولا فى القاموس ولا فى مستدرك شارحه . وهذا هو الذى دعا الثعالبى لجعل العهدة على حمزة الاصفهانى .

§ وليلة الهَرِير. وهي ليلة من ليالى صِفّين، قُتِل فيها خَلْقٌ كثير من أصحاب معاوية (رضى الله عنه)؛

§ وليلة الخُلَعاء. وهي ليلةٌ باتها أبو الطَّمَحان القَيْنِيّ عند دَيْرانية، فأكل طَفَيْشَلها[1] بلحم الخنزير، وشرب خمرها، وزنىٰ بها، وسرق كساءها؛

§ وليلة النابغة. يُضْرب بها المثل فى الخوف؛

§ وليلة المتوكل. تضرَب مثلا فى موت نتج من سرور، لأنه قُتِل فى مجلس أُنسه، علىٰ ما نذكره فى أخباره إن شاء الله تعالىٰ.

---

٤ — ذكر مايُتَمَثَّل به ممـا فيه ذكر الليل

يقـال:

أطغىٰ من الليل. أطْفَل من ليل علىٰ نهار. أحْيَرُ من الليل. أستَرُ من الليل. أظلم من الليل. أندىٰ من ليلةٍ ماطرة.

ويقـال:

الليل أخفىٰ للويل. الليل نهار الأريب. الليل طويل وأنت مُقْمِر. الليل وأهضام الوادى. الليل أعور (لأنه لا يُبْصَر فيه).

ويقـال:

اتخذ الليلَ جَمَلا. شَمِّرْ ذيلا، وادَّرِعْ ليلا. أمرُ نهارٍ قُضِى بليل.

---

(١) نوع من المرق (قاموس). وقال ابن الخشّاب فى تفسير ألفاظ الكتاب المنصورى للرازى مانصه: طِفَشِيل (بهذا الضبط) طعام يتخذ من الحبوب كالباقلى والحمّص ونحوهما (عن تكملة المعجمات العربية لدوزى).

ومن أنصاف الأبيات :

* الليل حُبلىٰ ليس تَدْرِى ما تَلِد * * ما أقصرَ الليـلَ علىٰ الراقد! *

* ما أشْـبَهَ الليـلَةَ بالبارِحَهْ! * * وليـلُ المُحِبِّ بلا آخـر *

* إحدىٰ لياليك فهِيسِى هِيسِى! * * فإنَّكَ كالليل الذى هو مُدْرِكى *

ومن الأبيـات : ٥

إن اللَّيالىَ لم تُحْسِـنْ إلىٰ أحدٍ * إلا أسَاءتْ إليـه بعْدَ إحسان.

والَّليـالى كما عَهِـدتَ حَبَالىٰ * مُقْـرِبَاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيب.

أمَا ترىٰ الَّليـلَ والنهـارا * جَارَيـنِ لايُبْقِيَـان جارًا؟ ١٠

وقال حميد بن ثور :

وَلَنْ يَلْبَث العَصْرانِ يومٌ وليلةٌ * إذا طَلَبَا أن يُدْرِكَا ما تَمنَّيَا!

وقال أبو حية النُّمَيرىّ :

إذا ما تقاضىٰ المرءَ يومٌ وليلةٌ، * تقاضاه شىءٌ لا يَمَلُّ التَّقاضيَا.

٥ — ذكر ما قيل فى وصف الليل وتشبيهه ١٥

قد أكثر الشعراء فى وصف الليل بالطُّول والقصَر. وذكروا سببَ الطول الهُمُومَ وسبَبَ القِصر السرورَ.

ولهذا أشار بعض الشعراء فى قوله :

إنّ الليالِيَ للأنامِ مَنَـاهل * تُطوىٰ وتُنْشَرُ بينها الاعمارُ.

فقِصارُهنّ مع الهُمُومِ طويلةٌ، * وطِوالهُنّ مع السرورِ قِصارُ. ٢٠

وقال آخر :

إنّ التّواصُلَ في أيامِه قِصَرٌ، * كما التهاجُر في أيّامه طُولُ.
فليس يَعْرِف تَسْهيدًا ولا رَمَدًا * جفنٌ برؤيةِ مَنْ يهواهُ مشغولُ.

وقال ابن بَسّام :

لا أظْلِمُ الليلَ ولا أدّعى * أنّ نجومَ الليلِ ليستْ تَغُورْ.
ليلى كما شاءت فإن لم تَزُر، * طالَ، وإنْ زارَتْ، فلَيلٌ قصيرْ.

أصله من قول عليّ بن الخليل :

لا أَظلِمُ الليلَ ولا أدّعى * أنّ نجوم الليلِ ليسَتْ تَحُولْ.
ليلٌ كما شاءَتْ قصيرٌ إذا * جادَتْ، وإن صدّتْ، فليلٌ طويلْ.

وقال آخر :

أخُو الهوى يستطيلُ الليلَ من سَهرٍ، * والليلُ في طُوله جارٍ على قَدَرِهْ.
ليلُ الهوى سَنَةٌ في الهَجْر مدّتُه، * لكنّه سِنَةٌ في الوَصْل من قِصَرِهْ.

وقال الوليد بن يزيد بن عبد الملك :

لا أسألُ اللهَ تغييرًا لما صَنَعَتْ : * نامتْ وقد أسهرتْ عَيْنَيّ عيناها.
فالليلُ أطولُ شيءٍ حينَ أَفقِدُها * والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها.

٦ — وأما ما وصف به من الطول

قال الخبّاز :

ولَيلٍ كَوَاكِبُه لا تَسِيرْ * ولا هُوَ منها يُطيقُ البَرَاحا.
كيومِ القيَامةِ في طُولِهِ * على مَنْ يُراقِبُ فيه الصَّبَاحا.

وقال ابن المعتز :

مالى أرى الليل مسبلا شعرا * عن غرة الصبح غير مفروق .

وقال بشار :

خليلى ! ما بال الدجى لا يزحزح ، * وما بال ضوء الصبح لا يتوضح ؟

أضل النهار المستنير طريقه ؟ * أم الدهر ليل كله ليس يبرح ؟

وقال الرفاء :

ألا رب ليل بت أرعى نجومه * فلم أغتمض فيه ولا الليل أغمضا .

كأن الثريا راحة تشبر الدجى * لتعلم طال الليل لى أم تعرضا .

عجبت لليل بين شرق ومغرب * يقاس بشبر كيف يرجى له انقضا ؟

وقال محمد بن عاصم :

أقول ، والليل دجى مسبل * والأنجم الزهر به مثل :

ياطول ليل ما له آخر * منك ، وصبح ماله أول !

وقال التنوخى :

وليلة كأنها قرب أمل * ظلامها كالدهر ما فيه خلل .

كأنما الإصباح فيها باطل * أزهقه الله بحق ، فبطل .

ساعاتها أطول من يوم النوى * وليلة الهجر وساعات العذل .

مؤصدة على الورى أبوابها * كالنار لا يخرج منها من دخل .

وقال أبو محمد ، عبد الله بن السيد البطليوسى :

ترى ليلنا شابت نواصيه كبرة * كما شب ، أو فى الجو روض نهار ؟

أكانت الليالى السبع فى الأفق جمعت * ولا فصل فيما بينها بنهار .

وقال الشريف البياضي:

أقولُ لصَحْبِي والنجومُ كأنَّها * وقد ركَدَتْ في بَحْرِ حِنْدِسها غَرْقَى:
أرى ثوبَ هذا اللَّيلِ لا يَعرِفُ البِلَى! * فهل أَرَيَنْ للصُّبْحِ في ذَيْله فَتقَا؟

وقال أيضا:

٥ أقولُ وللدُّجَى عُمْرٌ مَدِيدٌ * وآخرُه يُرَدّ إلى مَعادِ.
وقد ضَلَّتْ كواكِبُه، فظلَّتْ * حَيارَى ما لها في الأُفْقِ هادي:
لعلَّ الليلَ ماتَ الصُّبحُ فيه، * فلازَمَ بعده لُبْسَ الحِداد.

وقال آخر:

أَمَا لِظَلَامِ لَيْلِي من صَبَاحِ؟ * أَمَا للنَّجم فيه من بَرَاحِ؟
١٠ كأنَّ الأُفْقَ سُدَّ، فليس يُرجَى * به نَهْجٌ إلى كُلِّ النواحي.
كأنَّ الشَّمسَ قد مُسِخَتْ نُجومًا * تَسِيرُ مَسِيرَ رُوَّادٍ طِلَاحِ.
كأنَّ الصُّبحَ مَهجورٌ طَرِيدٌ، * كأنَّ الليلَ ماتَ صَرِيعَ رَاحِ.
كأنَّ بناتِ نَعْشٍ مُتْنَ حُزْنًا، * كأنَّ النَّسرَ مَكسورُ الجَناحِ.

وقال آخر:

١٥ يا لَيْلَةً طالَتْ على عاشِقٍ، * مُنْتَظِرٍ للصُّبْحِ مِيعادَا!
كادتْ تكونُ الحَوْلَ في طُولِها، * إذا مَضَى أوّلُها، عادَا.

وقال ابن الرومي:

رُبَّ لَيْلٍ كأنَّهُ الدَّهْرُ طُولًا * قد تَنَاهَى فلَيْسَ فيه مَزِيدُ.
ذي نُجُومٍ كأنَّهُنَّ نُجُومُ الشَّيْبِ * لَيْسَتْ تَزُولُ، لَكِنْ تَزِيدُ.

وقال أبو الأحنف :

حَدِّثُونِى عن النَّهارِ حَدِيثًا * أو صِفُوه، فقد نَسِيتُ النَّهارا .

وقال بشَّار :

طالَ هذا اللَّيْلُ بَلْ طالَ السَّهَرْ! * ولقَدْ أعْرِفُ لَيْلِى بالقِصَرْ.

لم يَطُلْ حَتَّى دَهانِى فى الهَوىٰ * ناعِمُ الأطْرافِ فَتَّانُ النَّظَرْ.

فكأنَّ الهَجْرَ شَخْصٌ ماثِلٌ * كُلَّما أبْصَرَه النَّومُ نَفَر.

وقال إبراهيم بن خفاجة الأَنْدَلُسِىّ :

يا لَيْلَ وَجْدٍ بِنَجْدٍ * أما لِطَيْفِكَ مَسْرىٰ ؟

وما لِدَمْعِى طَلِيقٌ * وأَنْجُمُ الجَوِّ أَسْرىٰ ؟

وقد طَمَا بحرُ لَيْلٍ * لم يُعْقِبِ المَدَّ جَزْرا .

لا يَعْبُرُ الطَّرْفُ فيه * غَيْرَ المَجَرَّة جِسْرا .

وقال أبو مَرْوان بن أبى الخصال :

وليلٍ كأنّ الدّهرَ أفضىٰ بعُمْره * جميعًا إلَيْه، فانتهىٰ فى ٱبْتِدائه .

يُحَدِّثُ بعضُ القومِ بَعْضًا بطُولِه ، * ولم يَمْضِ منه غيرُ وَقْتِ عِشَائِه .

وقال إبراهيم ولد ٱبن لنكك البصرىّ، شاعر اليتيمة :

ولَيْلَةٍ أرَّقَنِى طُولُها * فبِتُّها فى حَيْرَة الذّاهِلِ .

كأنّما ٱشْتُقَّتْ لإفراطها * فى طُولِها من أمَلِ الجاهل .

وقال امرؤ القيس :

وليلٍ كَمَوْج البَحْرِ مُرْخٍ سُدولَه * علىَّ بأنواع الهُمُومِ ليبتلى .

فقُلتُ له لما تَمطَّى بصُلْبِه * وأردفَ أعجازًا وناءَ بِكَلْكَلِ :

ألا أيها الليلُ الطويلُ، ألا انجلي * بصبحٍ! وما الإصباحُ منكَ بأمثل!
فيا لكَ من ليلٍ كأنّ نجومَه * بأمراسِ كتّانٍ إلى صُمّ جندَلِ.

وقال آخر:

أُراقبُ في السّماء بناتِ نعشٍ، * ولو أستطيعُ، كنتُ لهنّ حادي.
٥ كأنّ الليلَ أُوثِقَ جانِباهُ * وأوسَطُه بأمراسٍ شِدادِ.

وقال أنعم بن حميد:

وليلٍ طويلِ الجانبَيْنِ قطعتُه * على كَبِدٍ، والدّمعُ تجري سَواكِبُهْ.
كواكِبه حَسرى عليه كأنها * مُقَيَّدَةٌ دونَ المسيرِ كواكِبُه.

وقال ابن الرقاع:

١٠ وكأنّ لَيلي حينَ تغرب شمسُهُ * بسوادِ آخَرَ مثلِه موصُولُ.
أرعى النجومَ، إذا تغيبَ كوكبٌ، * أبصرتُ آخرَ كالسّراجِ يجُولُ.

وقال آخر:

ما لِنجُومِ اللّيلِ لا تَغرُبُ؟ * كأنّها منْ خَلفِها تُجذَبُ!
رَواكِدٌ ماغارَ في غَربِها * ولا بَدَا من شَرقِها كوكبُ.

١٥ وقال سعيد بن حميد:

يا لَيلُ، بَل يا أبَدُ! * أنائمٌ عَنكَ غَدُ؟
يا لَيلُ لو تَلقَى الّذي * أَلقَى بها أو تَجِدُ،
قَصّر من طُولكَ أو * ضَعّفَ منك الجَلَدُ!

وقال سيف الدين المشدّ :

مات الصّباحُ بلَيْلٍ * أحْيَيْته حِينَ عَسْعَسْ .
لو كانَ فى الدهر صُبْحٌ * يَعيشُ ، كان تَنَفَّسْ .

٧ — أما ما وصف به من القِصَر

فمن ذلك قول إبراهيم بن العباس :

ولَيْلةٍ إحْدىٰ الليالى الزُّهْرِ ، * قابلتُ فيها بَدْرَها ببَدْرى .
لم تكُ غيرَ شَفَقٍ وفَجْرِ ، * حتّى تولَّتْ وهى بِكْرُ الدَّهْرِ .

وقال الشريف الرضىّ :

يا لَيْلَةً كادَ منْ تَقاصُرِها * يَعْثُر فيها العِشاءُ بالسَّحَرِ .

وقال آخر :

يا ليلةً جَمَعتْنَا بعد فُرْقَتِنَا * فبِتُّ من صُبْحِها لَمَّا بدا ، فَرِقا .
لما خَلَوْتُ بآمالى بها ، قَصُرتْ * وكاد يَسبِقُ فيها فَجْرُها الغَسَقا .

وقال آخر :

يارُبَّ لَيلِ سُرُورٍ خِلْتهُ قِصَرًا * يُعارِضُ البرق فى أُفْقِ الدُّجىٰ بَرَقا .
قد كاد يَعْثُرُ أُولاه بآخِرهِ * وكادَ يسبِقُ منه فَجْرُهُ الشَّفَقا .

وقال القاضى السعيد بن سناء الملك :

يا لَيلَةَ الوَصْلِ ، بل يا لَيلَةَ العُمُرِ ! * أحْسَنْتِ ، إلا إلى المشتاق ، فى القِصَر .
يا ليتَ زِيدَ بحكم الوصل فيكِ لنا * ما طوّلَ الهَجْرُ من أيامِكِ الأُخَرِ .

أو ليتَ نجمكِ لم تقفُلْ ركائبُه، * أو ليتَ صُبحَكِ لم يَقدَمْ من السَّفَر،
أو ليتَ لم يَصْفُ فيكِ الشرقُ من غَبَشٍ، * فذلك الصَّفوُ عندي غايةُ الكَدَر،
أو ليتَ كُلًّا من الشرقَينِ ما ابتَسَما، * أو ليتَ كُلًّا من النَّسرَينِ لم يَطِر،
أو ليتَ كنتِ كما قد قال بعضُهم: * "لَيْلَ الضَّريرِ فصُبْحى غيرُ مُنتَظَر"،
أو ليتَ فجرَكِ لم يَنفُرْ به رشَئٌ، * أو ليتَ شمسَكِ ما جارتْ على قَمَري،
أو ليتَ قلبي وطَرْفي تحتَ مِلْكِ يدى * فزدْتُ فيه سوادَ القلبِ والبَصَر،
أو ليتَ ألقى حَبيبي نَحْرَ مُقْلَتِه * على العِشاء فأبقاها بلا سَحَر،
أو ليتَ كنتَ سألتيه مُساعدةً * فكان يَحْبُوكِ بالتكحيلِ والشَّعَر،
كأنَّها حينَ ولَّتْ قمتُ أَجذِبُها * فانقدَّ في الشَّرقِ منها الثَّوبُ من دُبُرٍ،
لا مَرحبًا بصباحٍ جاءني بَدَلًا * من غُرَّةِ النَّجمِ أو من طَلْعةِ القمر!

وقال عبد الله بن المعتز:

يا ليلةً ما كان أطيبَها سِوى قِصَرِ البقاء!
أحييتُها فأمتُّها * وطَويتُها طَيَّ الرِّداء،
حتَّى رأيتُ الشَّمسَ تتلو البَدْرَ في أُفُقِ السماء،
فكأنه وكأنَّها * قَدَحانِ من خمرٍ وماء،

وقال المهلبي:

قد قَصُرَ الليلُ عِندَ أُلفَتِنا * كأنَّ حادِي الصَّباحِ صاحَ بِهِ،

وقال آخر:

كأنَّما الليلُ راكبٌ فرسًا * منهزِمًا والصَّباحُ في طَلَبِه.

٨ — أما ما وصف به من الإشراق

فمن ذلك قول شاعر أندلسىّ :

رُبَّ ليــلٍ عَمَــرتُه * فيكَ خالٍ من الفِكَرْ
كَثُرتْ حَوْلَه الحُجو * لُ وسارَتْ به الغُرَرْ

وقال أبو بكر الصنوبرى :

يا ليلةً طَلَعتْ بأسْــعَدِ طالِــعِ * تاهَتْ علىٰ ضَــوْءِ النهــارِ السَّاطِعِ
بمحاسِــنٍ مَقْــرُونةٍ بمَحَاسِنٍ * وبَــدَائعٍ مَوْصُــولَةٍ ببَــدائعِ
ضَوءُ الشُّمُوعِ وضَوْءُ وجهِكَ مازجًا * ضَــوْءَ العُقَارِ وضَــوءَ برقٍ لامِعِ
فكأنَّمــا ألْــقىٰ الدُّجىٰ جلْبــابَه * وأراكَ جلْبابَ النَّهــارِ الساطِــعِ

٩ — أما ما وصف به من الظلمة

قال الله عز وجل : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فى بَحْرٍ لُجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ . فهذه أتمّ أوصاف الظلمة .

وقال مُضَرِّسُ بن رِبْعِىٍّ :

وليلٍ يقولُ النــاس فى ظُلُمَاته : * سَواءٌ صحيحاتُ العُيُونِ وعُورُها
كأنَّ لَنَــا منه بيوتًا حَصِينةً * مُسُوحٌ(١) أعاليهــا وسَاجٌ كُسُورُها

وقال أبو تمــام :

إليكَ هَتَكْنا جُنْحَ ليــلٍ كأنَّمــا * قدِ اكتحلَتْ منه البِلادُ بإثمِدِ

(١) جمع مِسْح بكسر فسكون وهو الكساء يتخذ من الشعر .

وقال أبو نواس :

أَبِنْ لى: كيف صِرتَ إلىٰ حَرِيمى، * وجَفْنُ الليــلِ مُكْتَحِلٌ بقار

وقال العلوىّ الأصفهانىّ :

وربَّ ليــلٍ باتَتْ عَسَاكِرُهُ * تحملُ فى الجوّ سُــودَ رايات

٥ لامعـــة فوقَهَــا أسِنَّتُهَــا * مثلَ الأزاهير وسْطَ رَوْضَات

(٥٢)

ومن رسالة لأبى عبدالله بن أبى الخصال ، جاء منها :

والليل زنجىّ الأديم، تبرىّ النجوم، قد جلّلنا ساجهُ، وأغرقتنا أمواجهُ، فلا مجال لِلَّحظ، ولا تعارُف إلا باللفظ؛ ولو نظرتْ فيه الزرقاء لاكتحلت، ولو خُضبتْ به الشَّيبة ما نَصَلَتْ .

---

١٠ ١٠ — ومما قيل فى تباشير الصباح

قال أبو محمد العلوىّ :

كأنّ اخْضِرارَ الجوّ صَرْحٌ مُمرَّدٌ * وفيــه لآلٍ لم تُشَنْ بثُقُوبِ.

كأنّ سَوَادَ اللّيلِ فى ضَوْءِ صُبْحِه * سوادُ شَباب فى بياضِ مَشيبِ.

وقال أبو علىّ بن لؤلؤ، الكاتب :

١٥ رُبَّ فجرٍ كطَلْعةِ البدر جَلّى * جُنْحَ ليلٍ كطلعةِ الهِجْرانِ،

زَارَ فى حُلَّةِ البـُزاة فولّى اللـ * ـيلُ عنه فى حُلّةِ الغِرْبَان .

وقال الخالديّان :

وكأنّما الصُّبْحُ المنيرُ وقد بدا * بازٌ(١) أطارَ من الظّلام غُرابَا .

---

(١) البازلغة فى البازىّ . (عن الجوهرى)، واخترنا ذلك لأنه منقول عن كلمة فارسية هى "باز" . وتركية "طوغان" وهو نوع من الصقور وأشد الجوارح تكبرا وأضيقها خلقا . يوجد بأرض الترك و يؤخذ للصيد .

وقال النظامُ البلخىّ ، من شعراء الخريدة :

فَلاحَ الصبحُ مبتسِمَ الثّنايَا * وطارَ اللَّيلُ مَقْصوصَ الجَناحِ .
يَطيرُ غُرابُ أوْكارِ الدّيَاجِى * إذا ماحَلَّ بازِىُّ الصَّباحِ .

وقال تميم بن المعزّ :

وكأنَّ الصَّباحَ فى الأُفقِ بازٌ * والدُّجىٰ بين مِخْلَبيْه غُرابُ . ٥

وقال ٱبن وكيع :

غَرَّدَ الطيرُ فنبِّهْ من نَعَسْ . * وأدِرْ كأسَكَ فالعيشُ خُلَسْ !
سُلَّ سَيْفُ الفجرِ من غِمْدِ الدُّجىٰ * وتعرّىٰ الصبحُ من ثوبِ الغَلَسْ .
وٱنْجَلىٰ فى حلة فضِّيّةٍ * ما بها من ظُلْمة اللَّيل دَنَسْ .

وقال أبو مروان بن أبى الخصال : ١٠

ولَمّا رأيتُ الغَرْبَ قد غُصَّ بالدُّجىٰ * وفى الشَّرْق من ثوب الصَّباحِ دلائلُ ،
توهَّمتُ أنّ الغربَ بحرٌ أخُوضُهُ * وأن الذى يَبْدُو من الشَّرق ساحلُ .

وقال أسعد بن بليطة الأندلسىّ :

جَرَتْ بمِسْكِ الدُّجىٰ كافُورةُ السَّحَرِ * فغابَ ، إلا بَقَايَا منه فى الطُّرَرِ ،
صبحٌ يَفيض وجُنحُ الليلِ مُنغَمِسٌ * فيه كما غَرِقَ الزِّنْجِىُّ فى نَهَرِ . ١٥
قد حارَ بينَهُما فى بَرْزَخٍ قَمَرٌ * يلُوحُ كالشَّنْفِ بين الخَدِّ والشَّعَرِ .

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبىّ :

بِتْنا كأنَّ حِدَادَ الليلِ شَمْلتنا * حتّى بدا الصبحُ فى ثوبٍ سَحُولىّ .
كأنَّ ليلتَنا ، والصبحُ يتبعُها ، * زنجيّةٌ هربتْ قُدّام رُومىّ .

وقال أبو نُوَاس :

فقُمْتُ والليلُ يجلوه الصَّباحُ، كما * جَلَا التبسمُ عن غُرِّ الثَّنِيَّاتِ.

وقال عبد الله بن المعتزّ :

قد أغتدى واللَّيلُ فى جِلْبَابِهِ * كالحَبَشىِّ فرّ من أصحابِهِ.

والصُّبحُ قد كَشَّرَ عن أنيابِهِ * كأنَّما يَضْحَكُ من ذَهَابِه.

وقال السرىّ :

وشَرَّدَ الصبحُ عنَّا الليلَ فاتَّضَحتْ * سُطُورُه البيضُ فى آياتِهِ السُّود.

وقال أبو فراس :

مَدَدْنَا علينا الليلَ، والليلُ راضِعٌ * إلىٰ أن تَرَدَّىٰ رأسُه بمَشِيب.

بحالٍ تَرُدُّ الحاسدينَ بغَيْظهم * وتَطْرِفُ عنَّا عينَ كُلِّ رقيبِ.

إلىٰ أنْ بَدَا ضَوْءُ الصَّباح كأنه * مَبَادِى نُصُولٍ فى عِذَارِ خَضيب.

وقال عبد الصمد بن بابك، شاعر اليتيمة :

وآستهلّتْ لِمَصْرعِ الليلِ وُرْقٌ * ثاكلاتٌ، حِدادُها التَّطْوِيقُ.

فتضاحَكْتُ شامتًا وكأنَّ الصُّبحَ جيْبٌ على الدُّجىٰ مَشْقُوقُ.

وقال أبو بكر الصنوبرىّ :

وليلةٍ كالرَّفرفِ المُعْلَمِ * مَحْفُوفةِ الظَّلْماء بالأنجمُ.

تَعَلَّقَ الفجرُ بأرجائها، * تَعَلُّقَ الأشْقَرِ بالأدْهمِ.

وقال السلامىّ، شاعر اليتيمة :

وقد خالَطَ الفجرُ الظَّلامَ كما التقىٰ * علىٰ روضةٍ خَضْراءَ وَرْدٌ وأدهمُ.

وعَهدى بها، والليلُ ساقٍ ووَصْلُنا * عُقَارٌ، وفُوها الكأسُ أو كأسُها الفمُ.
إلىٰ أن بَدَرْنا بالنجوم، وغربُها * يَفُضُّ عُقُودَ الدُّرِّ والشَّرقُ يَنْظِم.
ونَبَّهتُ فِتيانَ الصَّبُوحِ للذّة * تلوحُ كدينارٍ يُغَطِّيه دِرْهَمُ.

*
* *

ومن رسالة للقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى، عفا الله عنه . جاء منها : ٥

"فلما قضىٰ الليلُ نحبَه، وأرسلَ الصباحُ علىٰ دُهْمِه شُهبَه، شمَّر الليلُ إزارَه، ووضع النجمُ أوزارَه، ونزحَ بالطَّيْف طاردًا، وظلّ وراء الصبح ناشدا، وفَجَرَ الفجرُ نهر النهار، وآستردّ البنفسجَ وأهدىٰ البَهار، فمواكب الكواكب منهزمَه، وغرّة الفجر كغرّة مولاى مبتسمَه".

*
١٠ * *

ومما يدخل فى هذا الباب، ما حُكِى أن بعض الأعراب تزوج بأربع نسوة، فأراد أن يختبر عقولَهن .

فقال لإحداهنّ : إذا دنا الصبحُ فأيقظينى . فلما دنا الصبح، قالت له : قم، فقد دنا الصبح! فقال : وما يدريك؟ قالت : غارت صغار النجوم وبقى أحسنها وأضوؤُها وأكبرها، وبَرَدَ الحُلِىُّ علىٰ جسدى، وآستلذذت بآستنشاق النسيم . فقال ١٥ لها : إن فى ذلك دليلا .

ثم بات عند الثانية، فقال لها مثل مقالتــه للأولىٰ . فلما دنا الصبح، أيقظته . فقال لها: وما يُدريكِ؟ قالت : ضحكت السماءُ من جوانبها، ولم تبق نابتة إلا فاحت روائحُها، وعينى تطالبنى بإغفاءة الصباح . فقال لها : إن فى ذلك دليلا .

ثم بات عند الثالثة، فقال لها مثل ذلك . فلما دنا الصبح، أيقظته. فقال لها : وما يدريك ؟ فقالت : لم يبق طائر إلا غَرِد، ولا ملبوس إلا بَرَد، وقد صار للطَّرْف في الليل مجال، وليس ذلك إلا من دنو الصباح. فقال لها : إن في ذلك لدليلا .

ثم بات عند الرابعة، فقال لها مثل ذلك . فلما دنا الصبح، قالت له : قم، فقد دنا الصبح ! فقال لها : وما يُدريكِ؟ قالت : أبتْ نفسي النوم، وطلبني فمي بالسواك ٥ واحتجت إلى الوَضُوء . فقال لها : أنت طالق، فإنكِ أقبحهنّ وصفا .

١١ — ذكر ما قيل في النهار

والنهار طبيعيّ، وشرعيّ .

فالطبيعيّ زمان بين طلوع نصف قرص الشمس من المشرق، وإلى غيابه ١٠ في المغرب . والشرعيّ مابين انفجار الفجر الثاني إلى غروب الشمس .

والفجر فجران : الفجر الكاذب، وهو بياض مستطيل؛ والفجر الصادق بياض مستطير .

§ وقد وضعت العربُ لساعات النهار أسماء، كما وضعت لساعات الليل، وهي :

الذُّرُورُ، ثم البُزوغُ، ثم الضُّحىٰ، ثم الغَزَالةُ، ثم الهاجِرة، ثم الزَّوالُ، ثم الدُّلُوكُ، ١٥ ثم العَصْرُ، ثم الأصيلُ، ثم الصَّبُوبُ، ثم الحَدُورُ، ثم الغُروبُ .

ويقال أيضا : البُكورُ، ثم الشُّروق، ثم الإشراقُ، ثم الرَّأْدُ، ثم الضُّحىٰ، ثم المُتُوع، ثم الهاجرة، ثم الأصيلُ، ثم العَصْر، ثم الطَّفَل، ثم العَشِيّ، ثم الغُرُوب .

ذكر ذلك معا أبو جعفر النحاس .

وحكىٰ الثعالبيّ فى كتاب فقه اللغة — عن حمزة بن الحسن — قال: وعليه عهدتها :

الشُّروقُ، ثم البُكورُ، ثم الغُدْوةُ، ثم الضُّحىٰ، ثم الهاجرة، ثم الظَّهيرة، ثم الرَّواحُ، ثم العصر، ثم القَصْر، ثم الأصيل، ثم العشىُّ، ثم الغروب.

§ وكانت العرب العاربةُ تُسَمّى أيامَ الأُسبوع بأسماءٍ غير هذه التى تتداولها الناس فى وقتنا هذا، وهى :

"أوّلُ" وهو الأحد "أهْوَنُ" وهو الاثنان "جُبَارٌ" وهو الثلاثاء "دُبَارٌ" وهو الأربعاء "مُؤْنِسٌ" وهو الخميس "عَرُوبةُ" وهو الجمعة "شِيَارٌ" وهو السبت.

نظم ذلك شاعرٌ فقال :

أؤمِّلُ أن أَعيشَ وأنَّ يومى * لأوّلَ أو لأهونَ أو جُبَارِ

أو التالى دُبارَ وإن أُفُتْه * فمؤنِس أو عَرُوبةَ أو شِيَارِ

١٢ — ذكر الأيام التى خُصّت بالذكر

منها :

§ الأيام المعلومات . وهى عشر ذى الحجة، وفيها يوم التَّروية. وهو اليوم الثامن سمى بذلك لأنهم يرتوون من الماء لما بعده، لأن مِنًى لا ماء بها .

§ الأيام المعدودات . هى أيام التشريق . وعدّتها ثلاثةٌ بعد يوم النحر. سميت بذلك لأنهم كانوا يشرّقون فيها لحومَ الأضاحى فى الشمس والهواء، لئلا تَفسُدَ .

§ أيام العجوز . ويقال فيها الأيام الأعجاز. وهى سبعة: أولها السادس والعشرون من شباط من شهور الروم، والخامس من برمهات من شهور القِبط . وهى لا تخلو من رياح وبرد. وسميت بالعجوز: لأنها فى عَجُز الشتاء .

§ يوم عَبِيد ، مَثَلٌ لليوم المنحوس . كان عَبِيد بن الأبرص قد تصدّى للنعمان في يوم بؤسه الذي لا يُفلِحُ مَن لقيه فيه، كما لا يَخيبُ مَن لقيه في يوم نعيمه، قال أبو تمّام :

مِنْ بعدِ ماظَنَّ الأعادي أنّه * سيكونُ لي يومٌ كيومِ عَبِيدِ .

٥ § يوم المطر . يضرب مثلا في كفر النعمة . وذلك أنه حكي عن المعتمد على الله ابن عباد صاحب إشبيلية أنه خلا بزوجته الرميكية في مجلس أنس، والزمان فيه قيظٌ . فتمنَّتْ عليه غيما ومطرا . فأمر بمجامر العنبر والعود والنَّدِّ، حتّى انعقد الدّخان كالضَّباب، ثم أمر برشّ صحن المجلس بماء الورد من أعلاه . وحصل بينهما بعد ذلكَ نَبْوَةٌ (١)، فقالت له : مارأيتُ معكَ يومَ سرورٍ قَطُّ ! فقال لها : ولا يوم المطر؟

١٠ صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قوله : إنَّهُنَّ يَكْفُرْنَ العَشِيرَ .

§ يوم عاشوراء . وهو اليوم العاشر من المحرّم . ورد في فضله أحاديث كثيرة . ويقال إن نوحا (عليه السلام) ركب السفينةَ فيه فصامه وأمر مَن معه بصومه .

وصحّ أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما هاجر، رأى اليهود في المدينة صِيَاما في هذا اليوم . فسألهم عنه . فقالوا : هذا اليوم الذي نجّى الله تعالى فيه موسى

١٥ وبني إسرائيل، وأغرق فرعون وقومه . فنحن نصومه شكرا لله تعالى . فقال (عليه الصلاة والسلام) : أنا أحقُّ بأخي موسى . ثم أمر مناديا فنادى: من أكل فليُمْسِكْ، ومن لم يأكل فليصُم !

وفيه قُتِل الحسين بن عليّ (رضي الله عنهما) .

(١) راجع رواية أوفى في نفح الطيب للمقري . وقد سماه "يوم الطين" . (ص٢٨٧ ج١ طبعة ليدن) .

١٣ — ذكر أيام أصحاب الملل الثلاث

§ يوم الجمعـة، للسلمين . وسبب آتخـاذهم له أنه اليوم الذى أتمّ الله فيه خلق العَالَم، وأوجد فيـه أبا البشر آدم (عليه السـلام) وفيه قُبِضَ ، وفيه يكون النفخُ فى الصُّور، وفيه الصَّعْقُ،وفيه الساعة التى لا يُصادفُها عبدٌ مسلم يسأل الله فيها حاجة إلا قضاها له . ٥

§ يوم السبت، لليهود . وحُجّتهم علىٰ آتخاذهم له أن الله تعـالىٰ آبتدأ خلق العالَم يوم الأحد،وفرغ منه يوم الجمعة، وأن يوم السبت يومُ فراغٍ ودَعَةٍ . ولهم فى ذلك أقوال كثيرة .

§ يوم الأحد، للنصارىٰ . ذكر فى سبب آتخـاذهم له أن الله (سبحانه وتعالىٰ) آبتدأ فيه بخلق الأشياء . ١٠

---

١٤ — ذكر مايُتَمَثَّل به مما فيه ذكر النهار

يقـال :

أطولُ من يومِ الفِراق . أَضْوَأُ من نهارٍ . أنورُ من وضَحِ النهار .

ويقـال :

يَذْهَبُ يومُ الهَمِّ ولا يُشْعَرُ بِه . ما يومُ حَليمةَ بِسِرٍّ . مَنْ يُرِ يومًا يُرَ بِهِ . يومُ السُّرورِ قصيرٌ . اليومَ خمرٌ وغدًا أمرٌ . اليومَ عَيْشٌ وغَدًا جَيْشٌ . اليومَ فِعْـلٌ وغدًا ثوابٌ . يومٌ لنا ويومٌ علينا . لِكُلِّ قَوْمٍ يومٌ . ١٥

ومن أنصاف الأبيـات :

* وهل يَخْفَى علىٰ الناس النهارُ * * وفى اللَّيـالى والأيامِ مُعْتَبرٌ *

ومن الأبيات :

وآلهُ ما أمكنَ يومٌ صالحٌ * إنَّ يومَ الشَّر لا كانَ عَتِيدَا !

وقال آخر :

أَمَامَ! لا أَدْرِي، وإن سَأَلتِ: * ما نُسْكُ يومِ جمعةٍ من سَبْتِ .

وقال آخر :

وأيامُ! الشُّرورِ مُقَصَّصَاتٌ * وأيَّامُ السُّرورِ تَطِيرُ طَيرَا .

وقال آخر :

لا تَحْمِلَنَّ هُمُومَ أيَّامٍ على * يومٍ، لعلَّكَ أن تُقَصِّرَ عن غَده .

١٥ — ذكر شيء مما قيل في وصف النهار وتشبيهه

فمن ذلك قول شاعر، يصفه بالقِصَر :

ويوم سُرُورٍ قد تكاملَ وصفُه * سِوى قِصَرٍ، لاعيبَ فيه سِواهُ !

وعَهْدِي به كالرُّمح طُولًا، فعندما * هَزَزْنَاهُ لِلَّهْوِ ٱلتَقَى طَرفَاه .

وقال آخر :

بِأَبِي مَنْ نَعِمْتُ منه بيومٍ ، * لم يَزَلْ للسُّرورِ فيه نُمُوٌّ !

يومُ لَهوٍ ، قد ٱلتقى طَرَفاهُ * فكأنَّ العَشِيَّ فيه غُدُوٌّ .

وقال آخر :

لم يَنتَشِرْ فَلَقُ الإصْباح مِنْ قِصَرٍ * فيه إلى أن طَواهُ فَيْلَقُ الغَسَق .

ولم يكن مُلْتَقَى جَفْنَيْ أخي رَمَدٍ * كمُلتقى طرفيه : الصُّبح والشَّفَق .

وماتناولتُ فيه الرَّطلَ مُصْطَبِحًا * إلا أعادَتْه مِنِّي كَفُّ مُغْتَبِق .

وقال آخر :

لله يــوم مســرّة * أضوا وأقصر من ذُبَالَهْ !

لما نَصَبْنَا للمُنىٰ * فيه بأشراكِ حِبَالَهْ ،

طارَ النّهارُ مُرَوَّعاً * فيه وأجفلَتِ الغزالَهْ !

وقال آخر : ٥

حُثَّ الكُؤوسَ ! فذا يومٌ به قِصَرٌ * وما به من تمام الحُسنِ تقصيرُ .

صَحْوٌ وغيمٌ ، يَرُوقُ الطَّرفَ حُسْنُهما : * فالصَّحوُ فيروزجٌ ، والغيمُ بلّورُ .

وقال آخر :

ويوم تَحَلَّى الغانياتِ سَلَبْتَهُ * حُليَّ الرُّبَا حتّى انثَنى وهو عاطلُ .

سبقت إليه الشمسَ ، والشمسُ غَضَّةٌ * وصِبْغُ الدّجىٰ من مَفْرِق الفجرِ ناصِلُ . ١٠

* * *

ومن كلام ابن برد الأصغر الأندلسىّ :

اليومُ يومٌ بكت أمطارُه ، وضحكت أزهاره ، وتقنعت شمسُه ، وتعطّر نسيمُه ؛ وعندنا بُلبُلٌ هَزِج ، وساقٍ غَنِج ، وسُلافتانِ : سُلافَةُ إخوان ، وسُلافَةُ دِنَان ؛ قد تشاكلتا فى الطباع ، وازدوجتا فى إثارة السرور . فاخرِق إلينا سُرادقَ الدَّجْنِ تجد مَرْأًى لم يحسن إلا لك ، ولا يتم إلا بك . ١٥

ومن كلامه أيضا :

لم نلتق منذ عرّينا مَرْكَبَ اللّهو ، وأخلينا رَبْعَ الأُنس ، وقَصَصنا جناحَ الطَّرَب ، وعبَسْنا فى وجوه اللذات . فإن رأيت أن تخفّ إلىٰ مجلس قد نُسِخت فيه الرياحين

بالدواوين، والمحابر بالمحابر، والأطباق، بالأوراق، وتنازع المدام، بتنازع الكلام؛ وآستماع الأوتار، بآستماع الأخبار، وسجع البلابل، بسجع الرسائل، كان أشحذ لذهنك، وأرشد لرأيك .

١٦ — ذكر شيء مما وصفت به الآلات

الموضوعة لمعرفة الأوقات

٥ قد وضع أهل هذا الفنّ لمعرفة درجات الليل وساعات النهار آلات، يستدلّون بها على معرفة مامضى من ذلك ومابقى، ولتحرير المواقيت: كالأصطرلاب، والطّرجهارة والبنكام .

ووصف الشعراء والفضلاء ذلك بأوصاف، نذكر منها إن شاء الله تعالى ما نقف ١٠ عليـــه .

١ — فأما الأصطرلاب وما قيل فيه .

فقال أبو طالب، عبد السلام المأمونى :

وشبيهٍ بالشّمس يَسْترِقُ الأنـــ * ـــوارَ من نُورِ جِرْمها فى خفـاء.
فــتَرَاهُ أدرىٰ وأعلَمَ منهـا ، * وهوفى الأرض، بالذى فى السّماء.

١٥ وقال أيضا :

وعالم بالغيبِ مِنْ غيرِ مَا * سَمْعٍ، ولا قَلْبٍ، ولا ناظر!
يُقابلُ الشمسَ فيأتى بما * ضُمِّنَهـا من خبرٍ حاضرِ.
كأنها ناجتْــهُ لَمَّا بَدَا * لِعَينِها بالفكر والخـاطرِ.
وألهمَتْه علمَ ما يحتوى * عليه صَدْرُ الفلكِ الدّائرِ.

وقال أبو إسحاق الصابى ، وقد أهداه فى مهرجان إلىٰ مخدومه :

أَهْدىٰ إليكَ بَنُو الآمالِ وآجتهدُوا * فى مَهْرجانٍ جديدٍ أنت تُبْلِيـه،
لكنّ عبدَكَ إبراهيمَ، حين رأىٰ * سمُوّ قَدْرِكَ عن شىءٍ يُساميـه،
لم يرضَ بالأرض يُهديها إليك فقد * أهدىٰ لك الفَلَكَ الأعلىٰ بمـا فيه!

وقال أبو الصلت أُميّة بن عبد العزيز :

أفضلُ ما آستَصْحَبَ النبيلُ فلا * يُعْـدَل به فى المُقام والسَّـــفَرِ،
جِرْمٌ إذا ما آلتَمَسْتَ قيمتَــه * جَلَّ عن التِّبروهو من صُــفُرِ،
مُختصَـــرٌ وهـو إذْ تُفتّشُـــه * عن مُلَح العـلم غيرُ مختصَرِ،
ذُو مُقْــلةٍ تَستنيرُ ما رَمَقتْ * عن صائب اللحظ صادقَ النَّظَرِ،
تَحمِـــلُه وهـــو حامـلٌ فَلَكًا * لو لم يُدَرْ بالبَنَـانِ لم يَدُرِ،
مَسْـــكنُه الأرضُ وهو يُنْبِئنا * عن جُلّ ما فى السماء من خَبَرِ،
أبدعَهُ رَبُّ فِــكْرَةٍ بَعُــدَتْ * فى اللُّطفِ عن أنْ تُقاسَ بالفِكَرِ،
فاســتَوْجَبَ الشُّكرَ والثناءَ به * من كلّ ذى فطنــةٍ من البَشَرِ،
فهو لذى اللُّبِّ شَـاهدٌ عَجَبٌ * علىٰ آختــلاف العُقُول والفِطَرِ،

وكتب أبو الفرج الببغاء يصف آصطرلابا أهداه فقال :

آثرتك — أيدك الله — ببرهان الحكمة ونسبها، ومدار الفلسفة وقطبها؛ ومُرشد الفكر ومناره، وميزان الحسن ومعياره؛ ونافِى الشك ومُزِيله، وشاهدِ الأثير ودليله؛ مصوّر الحكمة ومُمثّلها، ومقسم البروج ومعدّلها؛ وموقف النجوم ومسيّرها، وجامع الأقاليم ومدبّرها؛ مرآة الحبك، وصورة الفلك؛ وأمين الكواكب، وحدّ المشارق والمغارب؛ مما آخترعت العقولُ تسطيحَهُ، وأتقنَ الحُسّابُ تصحيحَه؛ وتمارت الفطنُ

في ترتيبه، وٱصطلحت الحكماءُ علىٰ تركيبه؛ فأوضحت بالنقش تقسيمَه، وأبانتْ بالكتابة رُســومَه؛ إلىٰ أن شافهنا بالآرتفاع علىٰ بعد مسافته، وحصرَ متفرّقَ الأمور في خَرْقِ عضــادته؛ وٱحتوىٰ علىٰ قُطْــرَيِ الشَّمال والجَنوب، وٱطلع باللطف علىٰ خفيَّــات الغيوب؛ الملقب بالآصطرلاب، الفاصل بين الخطإ والصواب .

٥ وقال أبو نصر الكاتب فيه :

قطبُ الزمن ومدارُه، وميزانُ الفلك ومعيارُه؛ وأساسُ الحكمة وموضوعها، وتفصيلُ الفطنة ومجموعُها؛ الناطقُ في صمته، المُوفى علىٰ نعته؛ مظهرُ السِّر المكنون، المخبر بمــا كان وما يكون؛ ذو شكل مقمر مستدير، ولون مشمس مستنير؛ ومنطَقة محيطة بأجزائه، وخطوط معدّلة علىٰ اعضائه؛ وكتابة مطبقة بتدويره، ورموز بائحة

١٠ بضميره؛ متقابل الأهداف، متكامل الأوصاف؛ بحجرة مسكونه، وصفائح مصونه؛ وقدّ مومُوق، وباب مطروق؛ للعــلم فتحه ورتاجه، وعليه طريقــه ومنهاجه؛ إذا ٱنتصب قال فحمــد، وإذا ٱضطجع عِيَ فلم يُفْــد؛ صفريّ الانتساب، ذهبيّ الإهاب؛ يخترق الأنوار من نقابه، ويســتخدم الشَّمسَ في حسابه؛ يجمــع الشرقَ والغرب في صفحته، ويســتره الحامل في راحته؛ رافعه ينظر من تحته، وأخباره

١٥ تسند عن خُرْته .

٢ — وممــا قيل في طَرْجَهَارَة .

قال أبو الفتح كُشَاجِم[1] يصفها :

رُوحٌ من المــاء في جِسْم من الصُّفْرِ * مؤلَّفٌ بلطيف الحِسِّ والفِــكْر .

(١) هي من الآلات التي تعرف بها الساعات . ولهم آلات أخرى في هذا المعنى مثل صندوق الساعات، دَبّة الساعات، الرخامة، المكحلة، اللوح (أنظر مفاتيح العلوم للخوارزمي طبع ليدن ص ٢٣٥) .

٢٠

له علىٰ الظَّهــــر أجفانٌ مُحَجَّــرَةٌ * ومُقْـلَةٌ دَمْعُها جارٍ علىٰ قَــدَرِ .
تُنْشَا له حَرَكَاتٌ فى أسافِــلِه * كأنهـا حَرَكَاتُ المـاءِ فى الشَّجَرِ .
وفى أعاليـه حُسَّابٌ مُفَصَّــلَةٌ * للنـاظِرِينَ بلا ذِهْنٍ ولا نَظَـرِ .
إذا بكىٰ ، دارَ فى أحشـائه فَلَكٌ * خَافِى المَسِيرِ ، وإن ، لم يَبْكِ لم يَدُرِ .
ومُخْـــرِجٌ لك بالأجزاء ألطفَهَـا * من النهار ، وقَوْسُ اللّيل فى السَّحَرِ . ٥
مُتَرْجِمٌ عن مواقيت يُخَــبِّرُنا * عنها فيوجَدُ فيها صادقَ الخـــبرِ .
تُقْضَى به الخمسُ فى وقت الوجوب وإن * غُطِّى على الشمس أو غُطِّى على القمرِ .
وإن سَهِرْتُ لأســباب تُؤَرِّقُنى * عَرَفْتُ مقدارَ ما ألقىٰ من السَّهَرِ .
مُحَــدِّدٌ كُلَّ ميقَـاتٍ ، تَخَــيَّرَه * ذَوُو التَّخَيُّر للأسباب والسَّــفَرِ .

١٠

البـاب الثـانى

من القسم الثـالث من الفن الأوّل

فى الشــــهور والأعوام

نذكر فى هذا الباب الشهورَ العربيةَ ، واَشتقاقها ، والشهورَ العجميةَ ، ودخول بعضها فى بعض ، والسنين القمرية ، والشمسية ، والنسيء ومعناه ، وما يجرى هذا المجرىٰ ، مما لمحناه أثناء المطالعة بعون الله تعالىٰ وقدرته . وإياه أسأل التوفيق بكرمه ومنته ! . ١٥

١ — ذكر الشهور وما قيل فيها

الشهر إما طبيعىّ ، وإما اَصطلاحىّ .

فالطبيعىّ هو مدّة مسير القمر من حين يفارق الشمس إلىٰ حين يفارقها مرة أخرىٰ .

وقال آخرون : هو عود شكل القمر فى جهة بعينها إلى شكله الأوّل .

وأما الاصطلاحى، فهو مدّة قطع الشمس مقدارَ برج من بروج الفلك . وذلك ثلاثون يوما، وثلثُ عُشرِ يوم بالتقريب . وهذا مذهب الروم، والسريان، والفُرْس والقبط . والله (سبحانه وتعالى) أعلم !

٢ — ذكر الأشهر العربيـــة
(وما يختص بها من القول)

(٥٧)

والأشهر العربية قسمان : قسم غير مستعمل، وهو الذى وضعته العرب العاربة؛ وقسم مستعمل، وهو الذى وضعته العرب المســتعربة . وكلا القسمين موضوع على الأشهر القمرية .

§ فأما القسم غير المستعمل، فهو أسماء كانت العرب العاربة اصطلحوا عليها، وهى : مؤتمر، ناجر، خَوّان، صوان (ويقال فيه : بُصَان)، رُنَّى، أيِّدة، الأصَمُّ، عَادِل، ناطِلٌ، واغِلٌ، وَرْنَةُ، بُرَك .

وفى هذه الأسمــاء خلاف عند أهل اللغــة . والذى ذكرناه منها هو المشهور، ويدل عليه قول الشاعر :

بمؤتَمِـرٍ وناجرٍ ابتـدَأنا * وبالخَوّانِ يَتْبعُـه البُصَانُ
ورُنَّى ثم أَيِّدةٌ تليـــه * تَعودُ أصَمُّ صُمَّ به السِّنَانُ
وعادله وناطـــله جميعًـا * وواغِله فهم غُرَرٌ حِسَانُ
ووَرْنَةُ بعدها بُرَكٌ فتمتْ * شُهورُ الحولِ يعقدها البَنَانُ .

§ وأما القسم المستعمل، فهو هذه الأسماء المشهورة :

المحرَّم، صَفَر، الربيعان، الجُمَادَيان، رَجَبٌ، شعبانُ، رمضانُ، شوّالٌ، ذو القَعْدة، ذو الحِجَّة .

قيــل : وإنما وضعوا هذه الأسماء علىٰ هذه الشهور لاتفاق حالات وقعت فى كل شهر، فسمى الشهر بهـا عند ٱبتداء الوضع . فسموا المحرّم محرّما : لأنهم أغاروا فيه فلم ينجحوا، فحرّموا القتال فيه، فسَمَّوْه محرّما . وسموا صَفَرًا : لِصَفَرِ بيوتهم فيه منهم عند خروجهم إلىٰ الغارات . وقيل : لأنهم كانوا يُغيرُون علىٰ الصُّفرِيَّة، وهى بلاد . وشهرا ربيع : لأنهم كانوا يُخْصِبون فيهما بمـا أصابوا فى صفر، والربيع الخِصْب . والجُمَاديان : من جَمَد المــاءُ، لأن الوقت الذى سميا فيه بهذه التسمية كان الماء جامدا فيه لبرده . ورجب : لتعظيمهم له . والترجيب التعظيم . وقيل : لأنه وسطُ السنة فهو مشتق من الرواجب، وهى أنامل الأصبع الوسطىٰ . وقيل : إن العود رجب النبات فيه أى أخرجه، فسمى بذلك . وكذلك تشعَّب العود فى الشهر الذى يليه، فسمى شعبان . وقيل : سمى بذلك لتشعبهم فيه للغارات . وسمى رمضان . أى شهر الحر، مشتق من الرمضاء . وشوال، من شالت الإبل أذنابها إذا حالت . أو من شال يشول إذا ٱرتفع . وذو القعدة : لقعودهم فيه عن القتال إذ هو من الأشهر الحرم . وذو الحجة، لأن الحج ٱتفق فيه، فسمى به .

ويقال إن أوّل من سماها بهذه الأسماء، كلاب بن مُرّة .

ومن مجموع هذه الأشهر أربعة حرم، ثلاثة سَرْد، وهى : ذو القَعْدة، وذو الحجة، والمحرم؛ وواحد فرد، وهو رجب .

هذا ما رواه الأصمعىّ عن العرب فى ترتيب الأشهر الحرم. وآختار غيره أن الواحد الفرد هو المحرّم، والسرد رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، لتكون الأربعة أشهر فى سنة واحدة . وهذا مروى عن آبن عباس رضى الله عنهما .

ومنها أربعة أشهر لا تكاد العرب تنطق بها إلا مضافة، وهى : شهرا ربيع، وشهر رجب، وشهر رمضان[1] .

فهذه الشهور العربية وما قيل فيها .

٣ — وأما شهور اليهود

فأسماؤها :

تشرى، مرحشوان، كسلاو، طابات، شباط، آذار، نيسان، أيار، سيوان، تموز، آب، أيلول .

٤ — وأما الشهور العجمية

فإنها شمسية . وهى أقسام، بحسب الأمم التى تنسب إليهم .

§ فمنها الشهور القبطية، وتنسب لدقلطيانوس . وكل شهر منها ثلاثون يوما . وما فضل من عدد أيام السنة الشمسية جعلوه كبيسا فى آخر شهر منها، وهى :

توت، بابه، هاتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهات، برموده، بشنس، بؤونه، أبيب، مسرى .

وأوّل توت يكون النوروز . وفى أوّل يوم من كيهك تدخل الأربعينيات، وهى أربعون يوما باردة تؤذن بالشتاء . وفى الرابع من برمودة تدخل الخمسينيات، وهى أيام حارّة تؤذن بالصيف .

(١) أى لا يقال : ربيع الأوّل، ربيع الثانى، رجب، رمضان . بل يضيفون الى كل منها لفظة "شهر" .

§ ومنها شهور السريان والروم . وهما متفقان فى العدد والدّخول . والسريانيون ينسبون شهورهم لأغسطش(١)، وهو قيصر. وهذه الشهور منها ما ينقص عن الثلاثين، ومنها ما يوفيها، ومنها ما يزيد عليها . وفيها يقول الكيزانىّ :

(٥٨)

شهورُ الروم ألوانٌ : * زياداتٌ ونقصانُ .
فتشرينُهم الثانى، * وأيلولٌ ونيسانُ .
ثلاثون ، ثلاثون ، * سَـواءٌ، وحَزيرانُ .
وأشباطٌ ثمانٌ بعـ * ـد عشرينَ له شَانُ .

والسبعة التى تركها ، كل شهر منها يزيد يوما .

ووضع لها بعض المغاربة ضابطا ، وهو حروف معجمة ومهملة يجمعها فى أربع كلمات، وهى : "فازَ رجلٌ خَتمَ بحجّ" . وجمعها آخر فى مثل ذلك فقال : "غاب عنك زيدٌ فحجّ" . فما كان معجما فهو أحد وثلاثون يوما، وما كان مهملا فهو ثلاثون، والشهر الموافق للألف ثمانية وعشرون .

وأوّل سنة السريان تشرين الأوّل . ودخوله رابع بابه، ويوافق أكتوبر من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما ؛ ثم تشرين الثانى، ودخوله فى الخامس من هتور، ويوافقه نومبر(٢) من شهور الروم ، وهو ثلاثون يوما ؛ ثم كانون الأوّل ، ودخوله فى الخامس من كيهك، ويوافقه دجنبر(٣) من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما ؛

(١) هو القيصر الرومانى المشهور، نقلا عن اللاتينية Augustus . ولكن العرب حينما عربوا الشهر المعروف باسمه اكتفوا بقولهم أغشت (August) للتمييز بين اللفظين . وأما نحن فى هذه الأيام فقد تركنا هذا الفارق ونقول فى تسمية هذا الشهر "أغسطس" أيضا .

(٢) Novembre . ونقول فى مصر الآن نوفمبر .

(٣) Décembre . ونقول فى مصر الآن ديسمبر .

ثم كانون الثانى، ودخوله فى السادس من طوبه، ويوافقه ينير[1] من شهور الروم، وهو أوّل سنتهم، وعدد أيامه أحد وثلاثون يوما؛ ثم شباط، ودخوله فى السابع من أمشير ويوافقه فبرير[2] من شهور الروم، وهو ثمانية وعشرون يوما وربع يوم؛ ثم آذار، ودخوله فى الخامس من برمهات، ويوافقه مارس من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم نيسان، ودخوله فى السادس من برمودة، ويوافقه أبريل من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما؛ ثم أيّار، ودخوله فى السادس من بشنس، ويوافقه مايه من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم حزيران، ودخوله فى السابع من بؤونة، ويوافقه يونيه من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما؛ ثم تموز، ودخوله فى السابع من أبيب، ويوافقه يوليه من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم آب، ودخوله فى الثامن من مسرىٰ، ويوافقه أغشت[3] من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم أيلول، ودخوله فى الرابع من توت، ويوافقه ستنبر[4] من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما .

*
* *

§ ونظم بعض الشعراء أرجوزة فى مداخلة الشهور، فقال :

وإن حفظتَ أشهرَ السُّرْيانِ * وكنتَ من ذاكَ علىٰ بيانِ
ورُمْتَ منها عَمَلَ المنازل * فإنها معلومةُ التداخل

(١) Janvier . ونقول فى مصر الآن يناير . (وقد كان عربه المرحوم رفاعه بك بقوله : "ينويه") غير ان هذا الاصطلاح لم يُعمل به .

(٢) Février . ونقول فى مصر الآن فبراير (مع الإشباع) .

(٣) أنظر حاشية رقم (١) من صفحة ١٦٠

(٤) نقول الآن فى مصر "سبتمبر" مجاراة للنطق الفرنسى الحديث Septembre . على انهم يقولون "ست" عند ما يريدون السبعة Sept بإهمال حرف الباء . فاذا أرادوا السبعين لفظوا بالباء .

أيلولُ يبدو رابعًا من تُوتِ * هـذا بحكم النظر المثبوتِ .
وهكذا تشرينُ وهو الأوّلُ * من بابة أربعـة تكمل .
أوّل تشرين الأخير يدخلُ * ومن هتور خمسـة يارجلُ .
أوّل كانون وأعنى الأولا * وخامس من كيهك تعـدّلا .
أوّل كانون الأخير سادس * من طوبة فيها يقيس القائس .
ومن شـباط أوّلٌ يوافى * سابع أمشير بلا خلاف .
أوّل آذار حسـابٌ صادقُ * من برمهات خامسا يوافِقُ .
برمودة سادسُـه وأوّلُ * نيسانَ وَفْقٌ ليس عنه مَعْدل .
أوّل أيّار بغـير لبسٍ * يوافقُ السادسَ من بشنسِ .
بؤونة وافق منـه سابعه * أوّلُ حزيران لمـا يتابعـه .
أوّل تمـوز على الترتيب * يدخلُ فى السابع من أبيب .
أوّل آب ثامن من مسرىٰ * العلم بالمـرء اللبيب أحرىٰ .

وقال بعض الشعراء فى مثل ذلك :

متىٰ تشأ معرفة التـداخُل * من أوّل الشهور فى المنَازل .
فعدّ من توت بلا تطويل * أربعـةً فهى ابتدا أيلول .
وبابة كذاك من تشرين * الأوّل السابق فى السنين .
والخامسُ المعدودُ من هاتور * أوّل تشرينهـم الأخـيرِ .
أوّلُ كانون بغير دُلْسَـهْ * إذا نقصت من كيهك خمسه .
وطوبة إن مرّ منه ستّهْ * أتاك كانونُ الأخيرُ بَغْتَـهْ .

ومن شـباط أوّل يوافِقُ * سابعَ أمشير، حسابٌ صادقُ .
أوّل آذار إذا جعـلتَه * لبرمهات خامسًا وجدتَه .
أوّلُ نيسانَ لدى التجريد * السادسُ المعدودُ من برمودِ .
ومثـله أيّار مع بشنس * واحـدةٌ مقرونةٌ بخمس .
٥ أما حزيرانُ فيحسُبُونهْ * من أوّل السابع من بؤونه .
كذلك السـابع من أبيبِ * أوّلُ تمـوز بلا تكذيب .
أوّل آبَ عند من يُحَصِّل * ثامنُ مسرىٰ ذاك ما لا يُجْهَلُ .

❖

§ وأما شهور الفرس، فهي موافقة لشهور القبط في العدد. لأن كل شهر منها ثلاثون
١٠ يوما، إلا أبان ماه، وهو الشهر الثامن، فإنهم يضيفون إليه خمسة أيام لأجل النسيء،
ويسمونها الاندركاه . ولكل يوم من أيام الشهر آسم خاص، يزعمون أنه آسم ملك
من الملائكة موكل به . فأسماء المشهور منها : افريدون ماه (وهو رأس سنتهم)،
أرديهشت ماه، حرداد ماه، تير ماه، ترد ماه، بر ماه، مهر ماه، أبان ماه، ادر ماه،
دى ماه، بهمن ماه، اسفندار ماه . ويعنون بقولهم "ماه" القمر .

١٥ ❖

المثـل — قول بعض الشعراء :

شُهُورٌ ينقضينَ وما شَعَرنا * بأنْصَافٍ لهُنَّ ولا سِرَارِ

---

٥ — ذكر ما يختص بالسنة من القول

وما جاء من اختلاف الأمم فى ابتدائها وانتهائها، والفرق بين السنة والعام

§ أما الفرق بين السنة والعام، فإنهم يقولون "سَنَةٌ جَدْبٌ" و "عامٌ خِصْبٌ". قال الله تعالى : ﴿ ولَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بالسِّنِينَ ونَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾. وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ . ٥

والصحيح أنهما اسمان موضوعان على مسمًّى واحد . قال الله تعالى : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ .

§ والسنة طبيعية ، واصطلاحية .

فالطبيعيــة قمرية ؛ وأولهــا استهلال القمر فى غُرَّة المحرم، وانسلاخها بِسَرَارِه فى ذى الحجة . وهى اثنا عشر شهرا ، وعدد أيامها ثلثمائة يوم وأربعة وخمسون يوما ١٠ وخمس وسدس يوم تقريبا ؛ ويتم من هــذا الخمس والسدس فى ثلاث سنين يومٌ، فتصير السنة فى الثالثة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوما . ويبقى شىء يتم منه ومن خمس اليوم وسدسه المستأنف فى السنة يوم واحد إلى أن يبقى الكسر أصلا بأحد عشر يوما عند تمام ثلاثين سنة . وتسمّى تلك السنين كبائس العرب .

وأما السَّــنةُ الاصطلاحيةُ فإنها شمسيَّةٌ ، وعَدَدُ أيامها عند سائر الأمم ثلثمائة يوم ١٥ وخمسة وستون يوما وربعُ يوم. فتكون زيادتها على السنة العربية عشرة أيام ونصف يوم وربع يوم وثمن يوم وخُمسًا من خُمس يوم .

ويقال: إنهم كانوا فى صدر الإسلام يُسقِطون عند رأس كل اثنتين وثلاثين سنةً عربيةً سـنةً ، ويسمونها الازدلافَ . لأن كل ثلاث وثلاثين سـنةً قمرية اثنتان

وثلاثون سنة شمسية تقريبا . وذلك لتحرزهم من الوقوع فى النسىء الذى أخبر الله عز وجل أنه زيادة فى الكفر . وهذا الآزدلاف هو الذى نسميه فى عصرنا هذا بين كتاب التصرف " التحويل " . لأنا نحوّل السنة الخراجية إلىٰ الهلالية ، ولا يكون ذلك إلا بأمر السلطان .

٥ § وسنة العالم — علىٰ ما آتفق عليه المنجمون — هى من حين حلول الشمس رأس الحمل ، وهو الآعتدال الربيعىّ . ومنهم من يجعل أوّلها من حين حلول الشمس رأس الميزان ، وهو الآعتدال الخريفىّ .

§ وآبتداء سنة القبط قطع الشمس آثنتى عشرة درجة من السنبلة ، وآبتدؤا بفعل ذلك فى زمن أغسطش ، وهو قيصر الأوّل علىٰ ماذكره أصحاب الزيجات .

١٠ § وأما الفُرس ، فأوّل سنتهم عند حلول الشمس أوّل نقطة من الحَمَل[1] .

§ وأما السُّريانيون ، فأوّل سنتهم عند قطع الشمس من الميزان ستَّ عشرة درجة .

٦ — ذكر النسىء ومذهب العرب فيه

يقال إن عمرو بن لُحَىّ ، وهو خُزاعة — ويقال آسمه عمرو بن عامر الخزاعىّ — هو أوّل من نَسَأ الشهور ، وبَحر البحيرة ، وسَيَّب السائبة ، وجعل الوصيلة ، والحامى . وهو ١٥ أوّل من دعا الناس إلىٰ عبادة هُبَل ، قدم به معه من هيت .

ومعنىٰ النسىء أنهم يُنْسِئُونَ المحرمَ إلىٰ صَفَر ، ورجبَ إلىٰ شعبان .

(١) وهذا اليوم هو عيد نيروزهم إلى الآن .

وكان جملة ما يعتقدونه من الدّين تعظيم الأشهر الحرم الأربعة، وكانوا يتحرّجون فيها من القتال. وكانت قبائل منهم يستبيحونها فإذا قاتلوا فى شهر حرام، حرموا مكانه شهرا من أشهر الحلّ، ويقولون نُبِئ الشهر .

وحكىٰ ٱبن إسحاق صاحب السيرة النبوية (علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام) أن أوّل من نَسَأ الشهور علىٰ العرب، وأحلّ منها ما أحلّ، وحرّم ما حرّم، القَلَمَّسُ. ٥
وهو حذيفة بن فُقَيم بن عامر بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة .

ثم قام بعده ولده عباد، ثم قام بعد عباد ٱبنه قلع، ثم قام بعد قلع ٱبنه أمية، ثم قام بعد أمية ٱبنه عوف، ثم قام بعد عوف ٱبنه أبو ثمـامة جنادة، وعليه ظهر الإسلام.

فكانت العرب إذا فرغت من حجها، ٱجتمعت عليه بمنىٰ، فقام فيها علىٰ جمل، وقال بأعلىٰ صوته: «اللهم إنى لا أخافُ ولا أعافُ[(١)]، ولا مردّ لـما قضيتُ! اللهم إنى ١٠
أحللت شهر كذا (ويذكر شهرا من الأشهر الحرم، وقع ٱتفاقهم علىٰ شنّ الغارات فيه) وأنسأته إلىٰ العام القابل (أى أخرت تحريمه) وحرمتُ مكانه شهر كذا من الأشهر البواقى! »

وكانوا يحلون ما أحلّ، ويحرّمون ما حرّم .

وفى ذلك يقول عمرو بن قيس بن جذل الطّعان، من أبيات يفتخر :

أَلَسْـنَا الناسئينَ علىٰ مَعَدٍّ * شُهُورَ الحِلِّ، نجعلُها حَرامًا ؟ ١٥

وحكىٰ السهيلىّ فى كتابه المترجم "بالروض الأُنُف" أن نسيء العرب كان علىٰ ضربين: أحدهمـا تأخير المحرّم إلىٰ صفر لحاجاتهم إلىٰ شنّ الغارات وطلب الثأر، والثانى تأخير الحج عن وقته تحرّيا منهم للسنة الشمسية. فكانوا يؤخرونه فى كل عام

---

(١) فى اللسان : "أنا الذى لا أعاب ولا أجاب ولا يرد لى قضاء".

أحد عشر يوما حتى يدور الدور فى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته . فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة، حج بالناس أبو بكر الصدّيق (رضى الله عنه) فوافق حجه فى ذى القَعدة، ثم حج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى العام القابل فوافق عود الحج إلى وقته فى ذى الحجة كما وضع أوّلا . فلما قضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حجه، خطب فكان مما قال فى خطبته (صلى الله عليه وسلم) : "إنّ الزمانَ قد آستدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض". يعنى أن الحج قد عاد فى ذى الحجة .

٧ — ذكر السنين التى يضرب بها المثل

يُضْرب المثل :

§ بعام الجراد . كان بسنة ثمان من الهجرة .

§ عام الحزن . وهى السنة التى مات فيها أبو طالب عم النبىّ (صلى الله عليه وسلم) وخديجة (رضى الله عنها) وهى سنة عشر من الهجرة ، وكان موتها بعده بثلاثة أيام وقيل بسبعة .

§ عام الرَّمَادةِ . كان سنة ثمانى عشرة من الهجرة، فى خلافة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) . أصاب الناسَ فيه قحْطٌ حتّى صارت وجوههم فى لون الرماد من الجوع . وقيل : كانت الريح تَسفِى ترابا كالرَّمادِ لشدّة يُبْس الأرض ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى "التاريخ" .

§ عام الرُّعَاف . كان سنة أربع وعشرين من الهجرة، سمى بذلك لكثرة ما أصاب الناسَ فيه من الرُّعاف .

§ عام الجمـاعَة . كان سنة أربعين من الهجرة . فيه سَلَّم الحسن بن علىّ (رضى الله عنهما) الخلافة لمعاوية ، فاجتمعت الكلمة فيه .

§ عام الجُحَاف . كان سنة ثمـانين من الهجرة ، وقع بمكة سيل عظيم ذهب بالإبل وعليها الحمول .

§ عام الفقهاء . وهو سنة أربع وتسعين من الهجرة . فيها مات علىّ بن الحسين زين العابدين ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصـدّيق (رضى الله عنهم) وسعيد بن المسيَّب ، وعروة بن الزبير ، وعطاء بن يسار ، وسعيد بن زيد بن ثابت . وفيه قَتَلَ الحجاج بن يوسف الثقفىّ سعيدَ بن جبير .

§ سُنَيَّاتُ خالد . يُضربُ بها المثلُ فى الجدب . وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث المعروف بأبى مطير . كان قد تولّى لهشام بن عبد الملك المدينة سبع سنين توالى القحط فيها حتّى أجلىٰ أهل البوادى .

§ سنة عشر ومائة . مات فيها قرينان فى الزهد : الحسن البصرى ومحمد بن سيرين ، وقرينان فى الشعر : جرير والفرزدق .

§ سنة ست وخمسين وثلثمائة . مات فيها جماعة من الملوك ، وهم : شمكير بن زياد صاحب طبرستان وجرجان ، ومعز الدّولة بن بويه ، وكافور الأخشـيدىّ صاحب مصر ، ونقفور ملك الروم ، وأبو علىّ محمد بن إلياس صاحب كرمان ، وسيف الدّولة ابن حمدان ممدوح المتنبى ، والحسن بن فيرزان صاحب أَذْرَبِيجان .

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الأول

١ — فى الفصول وأزمنتها

وفصول السنة أربعة : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء . ولكل فصل منها ثلاثة بروج ، وثلاثة أشهر ، وسبع منازل ، وموافقة من الطبائع الأربع .

١ — فأما فصل الربيع ، وهو عند العرب الصيف ، فطبعه حارّ رطْب . ودخوله عند حلول الشمس برج الحمل ، والثور ، والجوزاء . وهذه البروج عندهم تدل على الحركة . وله من السن الطفولية والحداثة ، ومن الرياح الجنوب ، ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة ، ومن القوى القوة الجاذبة ، ومن الأخلاط الدم ، ومن الكواكب القمرُ والزُّهَرَة ، ومن المنازل بعض الفَرْغ المقدّم والفرغ المؤخر ، والرشاء ، والسَّرطَان ، والبُطَين ، والثُّريّا ، والدَّبَران ، وبعض الهَقْعة . وعدد أيامه أربعة وتسعون يوما .

وحلول الشمس[1] فى الثانى عشر من آذار ، ويوافقه مارس من شهور الروم ، وفى السادس عشر من برمهات من شهور القبط ، وفى العشرين من أسفندار ماه من شهور الفرس . وإذا حلت الشمس برج الحمل ، اعتدل الليل والنهار ، وصار كل واحد منهما اثنتى عشرة ساعة . ثم يأخذ النهار فى الزيادة ، والليل فى النقصان .

وفى هذا الفصل تتحرك الطبائع ، وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء . فيطلع النبات وتُزهِرُ الأشجار وتُورِق ، ويَهيجُ الحيوان للسِّفاد ، وتذوب الثلوج ، وتنبُع العيون ، وتسيل الأودية .

(١) أى برج الحمل الذى هو أول فصل الربيع .

ذكر ما قيل فى وصف فصل الربيع وتشبيهه نظما ونثرا .

فمن ذلك ما قاله الصنوبرىّ :

ما الدّهرُ إلّا الرّبيعُ المُسْتَنيرُ إذا * جاء الرّبيعُ، أتاكَ النّوْر والنُّورُ.
فالأرضُ ياقوتةٌ، والجوُّ لُؤلُؤةٌ ، * والنّبْتُ فيروزجٌ، والماءُ بلّورُ.

وقال آخر : ٥

اشرَبْ هنيئًا قد أتاكَ زَمَانُ * مُتَعطّرٌ، مُتَهلِّلٌ، نَشْوانُ !
فالأرضُ وَشْيٌ، والنّسيمُ مُعَنبرٌ، * والماءُ راحٌ، والطّيورُ قِيَانُ.

وقال الثعالبىّ :

أَظُنُّ الرّبيعَ العَامَ قد جاءَ زائرًا * ففى الشّمسِ بَزّازًا، وفى الرّيحِ عطّارا.
وما العَيشُ إلا أنْ تُواجِهَ وجْهَهُ * وتَقْضِىَ بين الوَشْيِ والمِسْكِ أوْطَارا. ١٠

وقال آخر :

وفصّلَ فصْلُ الربيع الرياض * عقودًا ورصّع منها حُليًّا.
وفاخَرَ بالأرضِ أفقَ السّماء * فَحَلّى الثّرىٰ بنجوم الثُّرَيَّا.

وقال الحسن بن وهب :

طَلَعَتْ أوائلُ للرّبيع فبشّرتْ * نَوْرَ الرّياضِ بِجِدّةٍ وشَبَابِ ! ١٥
وغَدَا السحابُ يكادُ يَسْحَبُ فى الثّرىٰ * أذيَالَ أسْحَمَ حَالكِ الجِلْبَابِ.
فَتَرىٰ السّماءَ إذا أجَدّ رَبَابُهَا * فكأنّما ٱلتحفَتْ جَنَاحَ غُرَابِ.
وتَرىٰ الغُصُونَ إذا الرّيَاحُ تَناوحَتْ * مُلتَفّةً كتَعَانُقِ الأحْبَابِ.

وقال بعض فضلاء أصفهان فى وصف فصل الربيع من رسالة ذكرها العماد الأصفهانىّ فى الخريدة : ٢٠

أما بعد . فإن الزمانَ جَسَدٌ وفصلُ الربيعِ رُوحُه ، وسِرّ حكمةٍ إلهيةٍ وبه كَشْفُه ووضُوحُه ، وعمر مقدور وهو الشبيبة فيه ، ومنهلٌ جَمٌّ وهو نَميره وصافِيه ، ودَوْحة خَضِرَةٌ وهو يَنْعُها وجَنَاها ، وألفاظ مجموعة وهو نتيجتها ومعناها ؛ فمن لم يَسْتَهو طباعَه (٦٣) نسيمُ هوائه ، ولم يُدرِك شِفَاء دَائه في صَفَاء دَوَائه ، لم يَذُقْ لِطَعْم حياته نفعًا ، ولم يجد لخفض حظه من أيامه رفعا .

٢ — وأما فصل الصيف ، فإن طبيعته الحرارة واليبس ، ودخوله عند حلول الشمس برج السرطان ، والأسد ، والسنبلة .

وهذه البروج تدل على السكون . وله من السنّ الشباب ؛ ومن الرياح الصبا ؛ ومن الساعات الرابعة والخامسة والسادسة ؛ ومن القوى القوّة الماسكة ؛ ومن الأخلاط المِرّة الصفراء ؛ ومن الكواكب المرّيخ ، والشمس ؛ ومن المنازل بعض الهَقْعة ، والهَنْعة ، والذراع ، والنَّثْرة والطَّرْف والجَبْهة (وهي أربعة عشر يوما) والخَرَاتَان وبعض الصَّرْفة . وتنزل الشمس في برج السرطان في الرابع عشر من حزيران . وعدد أيامه ثلاثة وتسعون يوما ، ويوافقه يُنِيُر من شهور الروم ؛ وفي العشرين من بؤونه ، وإذا حلت الشمس برج السرطان ، أخذ الليل في الزيادة ، والنهار في النقصان . والله أعلم .

ذكر ما قيل في وصف فصل الصيف وتشبيهه نظما ونثرا

فمن ذلك ما قاله ذو الرمّة :

وَهَاجِرَةٍ حَرُّهَا وَاقِدٌ * نَصَبْتُ لِحَاجِبِهَا حَاجِبِي .

تَلُوذُ من الشمس أطْلَاؤُهَا * لِيَاذَ الغَرِيم من الطَّالِب .

وتَسْجُدُ للشمس حِرْبَاؤُهَا * كما يَسْجُدُ القَسُّ للرَّاهِب .

وقال مسكين الدارمىّ :

وهَاجِرةٍ ظَلَّتْ كأنّ ظِبَاءَها * إذا ما ٱتَّقَتْها بالقرون سُجُودُ،
تَلُوذُ بِشُؤْبُوبٍ من الشمس فوقَها * كما لاذَ من حَرِّ السِّنانِ طَرِيدُ.

وقال ابن الفقيسىّ :

فى زَمَانٍ يَشْوِى الوُجُوهَ بحَرٍّ، * ويُذِيبُ الجُسومَ لو كُنَّ صَخْرا،
لا تَطِيرُ النُّسُورُ فيه إذا ما * وَقَفَتْ شَمسُه وقارَبَ ظُهْرا،
ويَوَدُّ الغُصْنُ النَّضِيرُ به لَوْ * أنّه مِن لِحَائه يَتَعَرَّى.

وقال أيضا :

يا ليلةً بِتُّ بها ساهِدًا * من شِدّةِ الحَرِّ وفَرْطِ الأُوارْ،
كأنّنِى فى جُنْحِها مُحْرِمٌ * لو أنّ للعورةِ مِنّى ٱستِتَارْ،
وكيف لا أُحْرِمُ فى ليلةٍ * سَماؤُها بالشُّهْبِ تَرْمِى الجِمَارْ؟

وقال آخر :

ويومِ سَمُومٍ خِلتُ أنّ نَسِيمَهُ * ذَوَاتُ سُمُومٍ للقُلوبِ لَوَادِغُ،
ظَلِلْتُ به أشكو مُكَابَدَةَ الهوىٰ * فكُوزِىَ مَلْآنٌ ومائِىَ فارِغُ.

وقال محمد بن أبى الثياب، شاعر اليتيمة :

وهاجِرةٍ تَشْوِى الوُجُوهَ كأنّها * إذا لَفَحتْ خَدَّىَّ نارٌ توهَّجُ،
وماء كلونِ الزيتِ مِلْحٍ كأنّه * بِوَجْدِىَ يَغْلِى أو بهَجْرِكَ يُمْزَجُ.

وقال الثعالبىّ :

رُبَّ يومٍ هَوَاؤُهُ يَتَلَظَّى * فيه حَاكَى فُؤادَ صَبٍّ مُتَيَّمْ،
قُلْتُ إذ صَكَّ حَرُّهُ حُرَّ وَجْهِى : * "رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمْ"!

ومما وصف به من النثر قول بعضهم :

أوقدت الظهيرة نارها، وأذكت أوارها ؛ فأذابت دماغ الضب، وألهبت قلب الصب ؛ هاجرة كأنها من قلوب العشاق، إذا آشتعلت بنيران الفراق ؛ حر تهرب له الحرباء من الشمس، وتستجير بمتراكب الرمس ؛ لا يطيب معه عيش، ولا ينفع معه سرج ولا خيش[1] ؛ فهو كقلب المهجور، أو كالتنور المسجور .

٣ — وأما فصل الخريف — فإن طبعه بارد يابس ؛ ودخوله عند حلول الشمس برأس الميزان والعقرب والقوس .

وهذه البروج تدل على الحركة ؛ وله من السن الكهولة ؛ ومن الرياح الشمال ؛ ومن الساعات السابعة والثامنة والتاسعة ؛ ومن القوى القوة الهاضمة ؛ ومن الأخلاط المرة السوداء ؛ ومن الكواكب زحل ؛ ومن المنازل بعض الصرفة والعواء والسماك والغفر والزبانيان والقلب وبعض الشولة ؛ وعدد أيامه تسعة وثمانون يوما ؛ ويكون حلول الشمس الميزان في الخامس عشر من أيلول، ويوافقه سبتمبر من شهور الروم، وفي الثامن عشر من توت .

وفي هذا الفصل يبرد الهواء، ويتغير الزمان، وتصرم الثمار، ويغبر وجه الأرض، ويصفر ورق الشجر، وتهزل البهائم، وتموت الهوام، وتنجحر الحشرات، وتطلب الطير المواضع الدفئة، وتصير الدنيا كأنها كهلة مدبرة .

ويقال : فصل الخريف ربيع النفس كما أن فصل الربيع ربيع العين .

والله أعلم .

---

(١) هكذا بالأصل وفي صبح الأعشى ثلج .

ذكر ماقيل فى وصف فصل الخريف وتشبيهه نظما ونثرا .

فمن ذلك ماقاله الصنوبرىّ ، عفا الله عنه :

ماقضىٰ فى الربيع حقّ المسرّا * تِ مُضيعٌ زمانَهُ فى الخريف .
نحنُ منه علىٰ تلقّى شتاءٍ * يُوجِبُ القَصْفَ أو وَدَاعِ مَصِيف .
فى قميصٍ من الزمان رقيقٍ * ورداءٍ من الهواءِ خفيف .
يَرعُدُ الماءُ منه خوفًا إذا ما * لَمَسَتْه يَدُ النسيم الضعيف .

وقال عبد الله بن المعتز :

طَابَ شُرْبُ الصَّبوح فى أيلولِ ! * بَرَدَ الظلُّ فى الضُّحىٰ والأصيلِ !
وخَبَتْ جَمْرَةُ الهَوَاجرِ عنّا ، * وٱسْتَرَحْنَا من النهار الطّويل .
وخَرَجْنَا من السَّمُومِ إلىٰ بَرْ * دِ نَسيم ، وطيب ظلٍّ ظَليل ،
وشَمَالٍ تبشّر الأرض بالقَطْـ * ـر كذيل الغِلالة المبلول .
فكأنّا نزداد قُربًا الى الجنـ * ـة فى كلّ شارقٍ وأصيل .
ووُجُوهُ البِقَاعِ تَنْتَظِرُ الغَيْـ * ـثَ ٱنتِظَارَ المُحِبِّ رَدَّ الرَّسُول .
تَبْتَغِى غُلَّةً لِتَعْمَلَ رَوْضًا * بكثيرٍ من الحَيَا أو قليل .

وقال آخر :

اِشْرَبْ علىٰ طِيبِ الزمانِ فقد حَدَا * بالصَّيف من أيلولَ أَسْرَعُ حَادِ .
وأشَمَّنَا بالليلِ بَرْدَ نسيمه * فارتاحَتِ الأرواحُ فى الأجساد .
وافاكَ بالأنداءِ قُدَّامَ الحَيَا * فالأرضُ للأمطارِ فى ٱستعداد .
كم فى ضمائرِ تُربها من رَوْضةٍ * بمَسِيلِ ماءٍ أو قَرَارةِ وَادِ .
تَبْدُو إذا جَادَ السَّحابُ بِقَطْرِهِ * فكأنما كانا علىٰ مِيعَاد .

وقال آخر :

لا تَصْغَ لِلَّوْمِ إنَّ اللومَ تَضْليلُ ٭ واشْرَبْ ففى الشُّرْبِ للأحزانِ تَحليلُ .
فقد مَضَى القيظُ واجتُثَّتْ رَوَاحِلُه ، ٭ وطَابَتِ الرَّاحُ لما آلَ أَيْلُولُ .
وليس فى الأرض نَبتٌ يشْتَكِي رَمَدًا ٭ إلا وناظِرُهُ بالطَّلِّ مَكْحولُ .

٥ وقال آخر يذمه :

خُذْ بالتَّدَثُّرِ فى الخَرِيف فإنَّهُ ٭ مُسْتَوْبَلٌ ، ونَسِيمُه خَطَّافُ .
يَجْرى معَ الأيَّام جَرْىَ نِفَاقِها ٭ لِصَدِيقِها "ومن الصَّديق يُخَافُ"!

ومما وصف به من النثر :

قال أبو إسحاق الصابى يصفه :

١٠ الخريفُ أصح فصول السنة زمانا ، وأسهلُها أوانا ، وهو أحد الاعتدالين ، المتوسطين بين الانقلابين ، حين أبدتِ الأرضُ عن ثمرتها ، وصرَّحتْ عن زينتها ؛ وأطلقت السماءُ حوافلَ أنوائها ، وتأذَّنتْ بانسكاب مائها ؛ وصارَتِ الموارد ، كمُتُونِ المَبَارد ؛ صَفَاءً من كَدَرِها ، وتهذُّباً من عَكَرِها ؛ واطّرادا مع نَفَحات الهواء ، وحركات الريح الشَّجْوَاء ؛ واكتَسَتِ الماشيةُ وبَرها القَشِيب ، والطائر رِيشَه العَجيب .

١٥ وقال ابن شبل :

كُلُّ ما يَظْهَر فى الربيع نُوَّاره ، ففى الخَرِيفِ تُجْتَنَى ثِمَارُه ؛ فهو الحاجبُ أَمَامَه ، والمُطْرِقُ قُدَّامَه .

وقال ضياء الدين ابن الأثير الجزرى عن الخريف يفتخر على فصل الربيع :
أنا الذى آتى بذَهاب السَّمُوم ، وإياب الغُيُوم ، واعتصار بنات الكُروم ، وتكاثر ألوان
٢٠ المشروب والمطعوم ؛ وفىَّ يترقرقُ صفاءُ الأنهار ، فتشتبه القوابلُ بالأسحار ، وأيامى

هى الدهبيات وتلك نسـبة كريمة النِّجار؛ ومن ثمراتى ما لا تزال أمّهاته حوامل ، وأوراقه بو ضر وعيرها ذوابل ،وقد شـبه بالمصابيح وشبهت أغصانه بالسلاسل .

ولقد أنصف من قال :

مَحَاسِنُ لِلْخَرِيفِ بِهِنَّ فَخْرٌ * علىٰ زمن الربيع،وأىُّ فَخْرِ !
به صَـارَ الزَّمانُ أَمَامَ بردٍ * يُرَاقِبُ نَزْحَهُ وعقيبَ حَرِّ .

٥

— وأما فصل الشتاء،فإن طبعه بارد رطب، ودخوله عند حلول الشمس رأس الجدى والدلو والحوت .

وهذه البروج تدل علىٰ السكون. وله من السنّ الشيخوخة؛ ومن الرياح الدّبور؛ ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة والثـانية عشرة؛ ومن القوىٰ القوّة الدّافعة ؛ ومن الاخلاط البلغم؛ ومن الكواكب المشترِى وعُطَارِد؛ ومن المنازل بعض الشولة والنعائم والبلدة وسـعدُ الذابح وسعدُ بُلَعَ وسعد السـعود وسعد الأخبيـة وبعض الفرغ المقدّم؛ وعدد أيامه تسعة وثمانون يوما .

١٠

ويكون حلول الشمس برأس الجدى فى الثالث عشر من كانون الأول،ويوافقه دجنبر من شهور الروم ؛ وفى السابع عشر من كيهك من شهور القبط . وإذا حلت الشمس ببرج الجدى يشتدّ البرد،ويخشن الهواء، ويتساقطُ ورق الشـجر،وتنجحرُ الحيوانات،وتضعُفُ قوىٰ الأبدان،وتكثر الأنواء، ويُظْلِم الجوّ، وتصير الدّنيا كأنها عجوز هَرِمة قد دنا منها الموت .

١٥

وروى عن علىّ (رضى الله عنه) أنه قال : "توقَّوُا البرد فى أوّله،وتلقّوْه فى آخره، فإنه يفعل فى الأبدان كفعله فى الأشجار : أوّله يُحرِق،وآخره يُورِق".

ذكر ماقيل في وصف فصل الشتاء وتشبيهه .

فمن ذلك ماقاله جرير شاعر الحماسة :

في لَيلةٍ من جُمادىٰ ذاتِ أنديةٍ * لايُبصِرُ الكلبُ في ظلمائِها الطُّنُبا .
لاينبحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ * حتّى يلُفَّ علىٰ خيشومِه الذَّنَبا .

وقال ابن حكينا البغدادي :

البَسْ إذا قَدِمَ الشِّتاءُ بُرودًا * وافرُشْ علىٰ رَغمِ الحصيرِ لُبودًا .
الرِّيقُ في اللَّهَواتِ أصبحَ جامدًا * والدَّمعُ في الآماقِ صارَ بَرودًا .
وإذا رميتَ بفضلِ كأسِكَ في الهوا * عادتْ عليكَ من العقيقِ عُقودًا .
وترىٰ علىٰ بردِ المياهِ طُيورَها * تختارُ حَرَّ النّارِ والسَّفُّودا .
ياصاحبَ العُودَينِ لاتُهمِلْهُما * أوقِدْ لنا عُودًا ، وحرِّكْ عُودا !

وقال آخر :

ويومُنا أرواحُه قَرّةٌ * تُخمِّشُ الأبدانَ من قَرْصِها .
يومٌ تودُّ الشمسُ من بردِه * لو جَرَّتِ النّارَ إلىٰ قُرْصِها !

وقال عبد الله بن المعتزّ :

قد منعَ الماءُ من اللَّبسِ * وأمكنَ الجمرُ من المَسِّ .
فليسَ تلقىٰ غيرَ ذي رِعْدةٍ ، * ومُسلمٍ يَسجُدُ للشَّمسِ !

وقال آخر :

ليس عندي من آلةِ البردِ إلّا * حُسْنُ صبري ، ورِعْدتي ، وقُنوعي .
فكأنّي لشِدّةِ البردِ هِرٌّ * يرقُبُ الشَّمسَ في أوانِ الطُّلوعِ .

(٦٥) وقال ابن سُكَّرة الهاشمىّ، عفا الله تعالىٰ عنه ورحمه :

قيل: ما أعددتَ للبَرْ * دِ وقد جاءَ بشِدَّه؟
قلت: دُرَّاعَةُ بَرْد * تحتها جُبَّةُ رِعْدَه.

وقال أبو سعيد المخزومىّ :

إذا كُنتَ فى بلدةٍ نازلًا * وحَلَّ الشِّتاءُ حُلُولَ المُقيم،
فلا تبرُزَنَّ إلىٰ أن ترىٰ * من الصَّحْو يومًا صحيحَ الأديم.
فكم زَلْقَةٍ فى حَواشِى الطريق * تَرُدُّ الثيابَ بخِزيٍ عَظيمْ!
وكم مِنْ لئيمٍ غدا راكبًا * يَحُثُّ البلاءَ لماشٍ كَريم!

وقال الصاحب بن عبّاد:

أنّى رَكِبْتُ فكفُّ الأرض كاتِبَةٌ * علىٰ ثِيابِى سُطورًا ليسَ تَنكَتِمُ.
فالأرضُ مِحْبَرةٌ، والحِبْرُ مِنْ لَثَقٍ * والطِّرسُ ثوبى، ويُمنَى الأشْهَبِ القَلَمُ.

قال أبو علىّ كاتب بكر شاعر اليتيمة :

يا بلدةً أسلَمنِى بَرْدُها * وبَرْدُ مَنْ يَسْكُنُها للقَلَقْ.
لا يَسْلَمُ الشّاتِى بها من أذًى * من لَثَقٍ، أو دَمَقٍ، أو زَلَقْ.

ومما وصف به نثرا قول بعضهم :

إذا حَلَّتِ الشمسُ برجَ الجدى مدّ الشتاءُ رِواقَه، وحَلَّ نِطاقَه، ودَبَّتْ عَقارِبُ البردِ لاسِبَهْ، ونَفَعَ مَذْخُورُ الكَسْبِ كاسِبَهْ .

ومن رسالة لابن أبى الخصال، جاء منها :

الكلب قد صافح خيشومه ذنبَه، وأنكر البيتَ وطُنُبَه، والتَوىٰ التِواءَ الحُبَاب، واستدار استدارة الغراب، وجَلَده الجليد، وضربه الضَّريب وصعّد أنفاسَه الصعيد،

فجاه مباح، ولا هرير له ولا نُباح؛ والنارُ كالصَّديق، أوكالرَّحيق؛ كلاهما عَنقاء مُغْرب، أو نجم مُغَرِّب .

وقال بعضهم :

برد يُغير الألوان، وينشِّف الأبدان؛ ويُجمِّد الريقَ في الأشداق، والدَّمعَ في الآماق؛ بردٌ حالَ بين الكلب وهَريره، والأسدِ وزئيره، والطيرِ وصَفيره، والماء وخَريره .

وقيل لبعضهم : أيُّ البرد أشدُّ؟ فقال : إذا دمعت العينان، وقطر المَنْخَران، وتلجلج اللسان، واصطكَّت الأسنان .

ووصف ابن وكيع الفصول الأربعة في أرجوزة فقال :

عِندي في وَصْفِ الفُصول الأربَعه * مَقَالَةٌ تُغْنِي اللَّبيبَ مَقْنَعَه .

ذكر ما قيل في فصل الصيف

١٠

أمَّا المصيفُ، فاستمِعْ ما فيه * من فَطِنٍ يُفْهِمُ سامِعِيه .

فصل من الدَّهر إذا قيل حَضَرْ، * أذكرنا بحرّه نارَ سَقَرْ .

يَظَلُّ فيه القلبُ مُقْشَعِرَّا، * والأرضُ تشكو حَرّه المُضِرَّا .

أوّله فيه نَدًى مُنَغِّص * كأنه على القُلوب يَقْنِص .

يَلْصَقُ منه الجلدُ بالثِّياب * ويَعْلَقُ التُّرابُ بالأثواب .

١٥

حتَّى إذا ما طَرَدَتْه الشمسُ * وفَرِحتْ بأن يَزُولَ النَّفْسُ .

فَتَّحَت النَّارُ لنا أبوابَها * وشَبَّ فيها مالكٌ شِهابَها .

حرٌّ يحيل الأوجهَ الغُرَّانا * حتَّى تُرى الرومُ به حُبْشانا .

يَعلو به الكَرْبُ ويَشْتَدُّ القَلَق * وتَنْضَحُ الأبدانُ فيه بالعَرَق .

تُبصِرُه فوقَ القَميص قد علاَ * حتّى ترىٰ مُبيَضَّهُ مُصَندَلاَ.
إن كانَ رَثًّا، زادَ فى تَمزيقِهِ؛ * أو مُستَجدًّا، جَدَّ جَبْلَ زيقه.
ثم يُعيدُ الماءَ نارًا حاميَهْ * يَزيدُ فى كربِ القُلوبِ الصّاديه.
شاربُهُ يكرَعُ فى حَميمِ * كأنّه من ساكِنِي الجَحيمِ.
يُنسيهِ ما يَلقىٰ من ٱلتهابهِ * أن يَحمَدَ اللهَ علىٰ شَرابِه؛
حتّى إذا أعيا، ٱنقضىٰ نهارُه * وأُرخِيَتْ من لَيلِهِ أستارُه،
تحرّكتْ فى جُنحِه دَواهِي * سارِيَةٌ، وأنتَ عنها لاهي.
من عَقرَبٍ تَسعىٰ كسَعْىِ اللِّصِّ * سِلاحُها فى إثرِهِ كالشِّصِّ.
وحَيّةٍ تَنفُثُ سُمًّا قاتِلاَ * تُزوِّدُ الملسوعَ حَتفًا عاجِلاَ.
تُبصِرُ ما بجِلدِها من الرَّقَشْ * كوَجنةٍ مُصفَرّةٍ فيها نَمَشْ.
لو نَهشَتْ بالنّابِ منها الخَضرَا، * لَنَثَرَتْ منه الحياةَ نَثْرَا.
فلا تَقُلْ إن جاء يومًا أهلاَ * فَلعنةُ اللهِ عليه فَصْلاَ.

ذكر ما قيل فى فصل الخريف

حتّى إذا زالَ، أتىٰ الخريفُ: * فَصلٌ بِكُلِّ سَوأةٍ معروفُ.
أهونُه يُسرِعُ فى حَلِّ الجَسَدْ * وهو كطَبعِ الموتِ يُبسٌ وبَرَدْ.
يَجني علىٰ الأجسامِ من آفاتِه، * وأرضُه قَرعاءُ من نَباتِه.
لا يُمكِنُ النّاسَ ٱتّقاءُ شَرِّه * ولا خِلافُ بَردِه وحَرِّه.
تُبصِرُه مثلَ الصّبيّ الأرعَنِ * من كثرةِ العُشّاقِ والتّلَوُّنِ.
فأنتَ منه خائفٌ علىٰ حَذَرْ * لأنّه يَمزُجُ بالصّفوِ الكَدَرْ.

أَحْسَنُ مَا يُهْدِى لَكَ النَّسِيمَا * يَقْلِبُهُ فى سَاعَةٍ سَمُومَا .
وهو على المعدودِ من ذُنُوبِهِ * خيرٌ من الصَّيفِ على عُيُوبِهِ .

ذكر ما قيل فى فصل الشتاء

حَتَّى إذا ما أقبلَ الشِّتاءُ ، * جاءتكَ منه غُمَّةٌ عَمْيَاءُ .
لو أنَّهُ رُوحٌ ، لكان قَذْمَا * أو أنه شَخْصٌ ، لكان جَهْمَا .
يلقاكَ منه أسَدٌ يَزِيرُ * له وَعِيدٌ وله تَحْذِير .
تأتِيكَ فى أيَّامِه رِيَاحُ * ليسَ على لَاعِنِهَا جُنَاحُ .
حَرَاكُها ليسَ إلى سُكُونِ * تَضُرُّ بالأسْمَاعِ والعُيُونِ .
يَحْدُثُ من أفعالِها الزُّكَامُ * هذا إذا ما فاتَكَ الصُّدَامُ .
ثم يَلِيهَا مَطَرٌ مُدَاوِمُ * كأنه خَصْمٌ لَنَا مُلَازِمُ .
يَقْطَعُنَا بعضًا عن الطرِيقِ * وعن قَضاءِ الحَقِّ للصَّدِيقِ .
و ربما خَرَّ عليكَ السَّقْفُ ، * فإن عَفا عنكَ أتاكَ الوَكْفُ .
و إنْ أردتَ فى النَّهارِ الشُّرْبَا * فيه ، فقد قاسَيْتَ خَطْبًا صَعْبًا .
واحتجتَ أن تُوقِدَ فيه نَارَا * تُطِيرُ نحو الحَدَقِ الشَّرَارَا .
يَتْرُكُ مُبيَضَّ الثِّيَابِ أرْقَطَا * يَحكِى السَّعِيدِىَّ لَكَ المُنَقَّطَا .
وبَعْدَ ذَا تُسَدِّدُ النِّقَابَا * من خوفه وتُغْلِقُ الأبوابَا .
نعم ، وتُرْخِى دُونَه السُّتُورَا * حتَّى ترى صَبَاحَه دَيْجُورَا .
و إن أردتَ الشُّربَ فى الظَّلَامِ * عاقَكَ عن تَنَاوُلِ المُدَامِ .
حَسْبُكَ أن تَنْدَسَّ فى اللِّحَافِ * من خَشْيةِ البَرْدِ على الأطرافِ !
و رِعْدَهُ يَشْغَلُ عن كُلِّ عَمَلْ * و يُؤْثِرُ النَّومَ ويَسْتَحْلِى الكَسَلْ .

حتّى إذا جئتَ إلى الرُّقادِ، * نِمْتَ على فرشٍ من القَتادِ.
إنَّ البراغيثَ عَذَابٌ مُزْعِجُ * لكُلِّ قلبٍ وجِلْدٍ ينضجُ.
لا يَسْتَلِذُّ جِلدُكَ المَضاجِعَا * كأنّما أفرَشَهُ مَباضِعَا.
تَنَحَّ فَضْلًا فوق ماذمَمْتُهُ * لو أنه يَظْهَرُ لى، قَتَلْتُهُ.
حَتَّى إذا ماهُوَ عَنَّا بَانَا * وزَالَ عَنَّا بَعْضُه، لا كَانَا!

ذكر ما قيل فى فصل الربيع

جاءَ إلَيْنا زَمنُ الرَّبيع * فجاءَ فصلٌ حَسَنُ الجَميعِ.
لبَرْدِهِ وحَرِّه مِقْدارْ * لم يكتنِفْ حَدَّهُمَا إكْثارْ.
عُدِّلَ فى أوزانِهِ حتّى اعْتَدَلْ * وحُمِدَ التَّفْصيلُ منهُ والجُمَلْ.
نهارُهُ فى أحْسَنِ النَّهارِ * فى غايَةِ الإشْراقِ والإسْفارِ.
تَضْحَكُ فيه الشَّمسُ من غيرِ عَجَبْ * كأنَّها فى الأُفْقِ جامٌ من ذَهَبْ.
ولَيْلُهُ مُسْتَلْطَفُ النَّسيمِ * مُقَوَّمٌ فى أحْسَنِ التَّقويمِ.
لِبَدْرِهِ فَضْلٌ على البُدُورِ * فى حُسْنِ إشْراقٍ وفَرْطِ نُورِ.
كَ[illegible] * أذَابَتِ الجرادَ فى نِقَابِهَا.
كأنَّها إذا دَنَتْ من بَدْرِهِ * جَوْزَاؤُه قَبلَ طُلُوعِ فَجْرِه.
رُومِيَّةٌ حُلَّتُهَا زَرْقَاءُ * فى الجِيدِ منها دُرَّةٌ بيْضَاءُ.
هذا وكم تجمعُ مِن أُمورِ * إطْرَاءُ مُطْرِيهَا من التَّقْصِيرِ.
فيه تَظَلُّ الطَّيرُ فى ترنُّمِ * حَاذِقَةً باللَّحنِ لم تَعَلَّمِ.
غِنَاؤُها ذُو عُجْمَةٍ لا يَفْهَمُهْ * سَامِعُهُ وهو على ذا يَعْرِفُهْ.
من كُلِّ دُبْسِىٍّ له رَنِينُ * وكُلِّ قُمْرِيٍّ له حَنِينُ.

في قُرْطَقٍ أُعْجِلَ أن يُورَدَا * خاطَ له الخيَّاطُ طَوْقًا أسْوَدَا .
تُبصِرُه منهُ على الحَيْزُومِ * كَمِثْلِ عِقْدِ سَبَجٍ مَنْظُومِ .
هذا وفيه للرِّياضِ مَنْظَرُ * يُفْشِي الثَّرى من سِرِّه ما يُضْمِرُ .
سِرُّ نَبَاتٍ حُسْنُهُ إعلانُه * إذا سِواهُ زانَهُ كِتْمانُهُ .
٥ فيه ضروبٌ لنَبَاتِ(١) الغَضِّ * يَحْكِى لِبَاسَ الجُنْدِ يومَ العَرْضِ .
من نَرْجِسٍ أبيضَ كالثُّغُورِ * كأنَّه مَخَانِقُ الكافُورِ .
ورَوْضَةٍ تُزْهِرُ من بَنَفْسَجِ * كأنَّها أرْضٌ من الفَيْرُوزَجِ .
قد لَبِسَتْ غِلالَةً زَرْقاءَ * وكَايَدَتْ بلونِها السَّماءَ .
يَضْحَكُ منها زَهَرُ الشَّقِيقِ * كأنَّه مَدَاهِنُ العَقِيقِ .
١٠ مُضَمَّنَاتٍ قِطَعًا من السَّبَجْ * قد أشْرَقَتْ من احمرارٍ ودَعَجْ .
كأنَّما المُحْمَرُّ في المُسْوَدِّ * منهُ إذا لاحَ عُيونُ الرُّمْدِ .
وارْمِ بِعَيْنَيْكَ إلى البَهَارِ * فإنَّهُ من أحْسَنِ الأزْهَارِ .
كأنَّهُ مَدَاهِنٌ من عَسْجَدِ * قد سُمِّرَتْ في قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ
فانْهَضْ إلى اللَّهْوِ ولا تَخَلَّفِ * فلَسْتَ في ذلكَ بالمُعَنَّفِ .
١٥ واشْرَبْ عُقَارًا طالَ فينا كَوْنُها * يَصْفَرُّ من خَوْفِ المِزَاجِ لَوْنُها .

* * *

دونَكَ هذى صِفَةُ الزَّمانِ * مَشْرُوحَةً في أحْسَنِ التِّبْيانِ !
وارْضَ بِتَقْلِيدِى فيمَا قُلْتُهُ * فإنَّنِي أدْرَى بما وصَفْتُهُ .

(١) لعله للنبات بالتعريف .

البـاب الرابع

من القسم الثـالث من الفن الأول

فى ذكر مواسم الأمم وأعيادها، وأسباب آتخاذهم لهـا، وما قيل فى ذلك

والذى أُورِدُه فى هذا الباب، هو مما وقفتُ عليه أثناء مطالعتى للكتب الموضوعة فيه، ونقلته منها لمّـا تعـذر علىّ مَنْ أتلقاه مِنْ فِيهِ. وضمنته أعياد المسلمين، والفُرْس والنصارىٰ، واليهود.

١ — ذكر الأعياد الإسلامية

والأعياد الإسلامية التى وردت بها الشريعة آثنان: عيد الفطر، وعيد الأضحىٰ.

والسبب فى آتخاذهما، ما رُوِى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "أنه قَدِم المدينةَ، ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: ماهذان اليومان؟ فقالوا: كنا نلعب فيهما فى الجاهلية. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): إن الله (عز وجل) قد بدّلكم خيرا منهما، يوم الفطر، ويوم الأضحىٰ". فأوّل ما بدئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك فى سنة آثنتين من الهجرة. وفيها كان عيد الأضحىٰ.

وعيد آبتدعته الشِّيعة، وسموه عيد الغَدِير. وسبب آتخاذهم له مؤاخاة النبىّ (صلى الله عليه وسلم) علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) يوم غَدِير خُمٍّ. والغدير علىٰ ثلاثة أيام من الجُحفة بِسُرَّةِ الطَّريق[1]. قالوا: وهذا الغدير تَصُبُّ فيه عين، وحوله شجر كثيرٌ ملتفٌّ بعضها ببعض. وبين الغدير والعين مسجدٌ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم).

واليوم الذى آبتدعوا فيه هذا العيد هو الثامن عشر من ذى الحجة، لأن المؤاخاة كانت

(١) فى صبح الأعشى (ج ٢ ص ٤٠٧) ثلاثة أميال؛ وفى المعجم [بينه وبين الجحفة ميلان].

فيه فى سنة عشرة من الهجرة، وهى حجة الوداع. وهم يُحْيون ليلتها بالصلاة، ويصلون فى صبيحتها ركعتين قبل الزوال. وشعارُهم فيه لبس الجديد، وعتق الرّقاب، وبرّ الأجانب، والذبائح.

وأوّل من أحدثه معز الدّولة أبو الحسن علىّ بن بويه، علىٰ ما نذكره إن شاء الله تعالىٰ فى أخباره فى سنة آثنتين وخمسين وثلثمائة.

ولما آبتدع الشيعة هذا العيد وآتخذوه من سُنَنهم، عمل عوامُّ السُّنَّة يومَ سرورٍ نظير عيد الشيعة فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة. وجعلوه بعد عيد الشيعة بثمانية أيام، وقالوا: هذا يوم دخول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الغار هو وأبو بكر الصدّيق (رضى الله عنه). وأظهروا فى هذا اليوم الزينةَ، ونصبَ القِبَاب، وإيقادَ النيران.

٢ — ذكر أعياد الفُرس

وأعياد الفُرس كثيرة جدّا. وقد صنف علىّ بن حمزة الأصفهانىّ فيها كتابا مستقلاّ ذكر فيه أعيادهم، وسبب آتخاذهم لها، وسُنَنَ ملوكهم فيها. وقد رأيتُ أن أقتصر علىٰ المشهور منها، وهى ثلاثة أعياد: النَّيْروزُ، والمَهْرَجَانُ، والسَّذَقُ.

١ — فأما النَّيْروز، فهو أعظم أعيادهم وأجَلُّها. يقال إن أوّل من آتخذه جمشيد أحد ملوك الفرس الأُوَل. ويقال فيه جمشاد، ومعنىٰ جم القمر، وشاد الشعاع والضياء، وسبب آتخاذهم لهذا العيد أن طهومرت لما هلك، ملك بعده جمشاد. فسمى اليوم الذى ملك فيه نُوروز، أى اليوم الجديد.

ومن الفرس من يزعم أن النَّيْروزَ اليومُ الذى خلق الله (عز وجل) فيه النورَ، وأنه كان مُعَظَّمَ القدر عند جمشاد. وبعضهم يزعم أنه أوّل الزمان الذى آبتدأ فيه الفلك بالدوران.

ومدّته عندهم ستة أيام، أوّلها اليوم الأوّل من شهر أفريدون ماه، الذى هو أوّل شهور سنتهم . و يسمون اليوم السادس النُّوروزَ الكبير، لأن الأكاسرة كانوا يقضُون فى الأيام الخمسة حوائج الناس ثم ينتقلون إلىٰ مجالس أُنسهم مع خواصّهم .

وحكىٰ آبن المُقَفَّع أنه كان من عادتهم فيه أن يأتى الملِكَ من الليل رجلٌ جميلُ الوجه، قد أُرْصِد لما يفعله . فيقف علىٰ الباب حتّى يُصبِح . فإذا أصبح دخل علىٰ الملك من غير آستئذان . فإذا رآه الملك، يقول له : من أنت؟ ومن أين أقبلتَ؟ وأين تريد؟ وما آسمك؟ ولأىّ شىء وردتَ؟ وما معك؟ فيقول : أنا المنصور، وآسمى المبارك، ومن قِبَل الله أقبلتُ، والملكَ السعيدَ أردتُ، و بالهناء[1] والسلامة وردتُ، ومعى السنة الجديدة . ثم يجلس، ويدخل بعده رجل معه طبق من فضة، وفيه حنطة، وشعير، وجُلْبَانٌ، وحِمَّصٌ، وسمسم، وأرز (من كل واحد سبع سنابل وتسع حبات) وقطعة سكر، ودينار ودرهم جديدان . فيضع الطبق بين يدى الملك . ثم تدخل عليه الهدايا . ويكون أوّل من يدخل عليه وزيره، ثم صاحب الخراج، ثم صاحب المَعُونة، ثم الناس علىٰ طبقاتهم ومراتبهم . ثم يقدّم للملك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب، موضوع فى سَلَّةٍ . فيأكل منه ويُطْعِمُ من حضره . ثم يقول : هذا يوم جديد، من شهر جديد، من عام جديد، من زمان جديد، يحتاج أن نجدّد فيه ما أخلق من الزمانُ، وأحَقُّ الناس بالفضل والإحسان الرأْس لفضله علىٰ سائر الأعضاء . ثم يخلع علىٰ وجوه دولته ويصلهم ويفرّق فيهم ما حُمِل إليه من الهدايا .

وكانت عادةُ عوامّ الفرس فيه رفعَ النار فى ليلته، ورشَّ الماء فى صبيحته . وفى ذلك يقول المعوج :

(١) لم يوجد هذا المصدر فى القاموس واللسان بهذا المعنى والمصدر الهنء والتهنئة .

كيف ابتهاجُكَ بالنَّيْرُوزِ ياسَكَنِي؟ * وكُلُّ ما فيـه يَحْكيني وأحْكِيهِ!
فنـارُه كلهيبِ النار في كَبِدِي! * وماؤه كتَـوَالِي عَبْرَتِي فِيـهِ!

وقال آخر:

نَوْرَزَ النَّـاسُ ونَوْرَزْ * تُ، ولكِنْ بدموعي!
وذَكَتْ نارُهُـمُ، والنَّـ * ـارُ ما بينَ ضُلوعِي!

٢ — وأما المهرجان، فوقوعه في السادس والعشرين من تشرين الأول من شهور السُّرْيان، وفي السادس عشر من مهرماه من شهور الفرس.

وهذا الأوان وسط زمان الخريف، وفيه يقول بعض الشعراء:

أُحِبُّ المَهْرَجَانَ لأنَّ فِيه * سُرُورًا للملوكِ ذَوِي السَّنَاءِ،
وبَابًا للمصـير إلى أَوَانٍ * تُفَتَّحُ فيه أبوابُ السَّماءِ.

وهو ستة أيام. ويسمَّى اليوم السادس المهرجان الأكبر. قال المسعوديّ: وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم، أنهم كانوا يسمون شهورهم بأسماء ملوكهم. وكان لهم ملك يسمَّى مهر، يسير فيهم بالعنف والعسف. فمات في نصف الشهر الذي يسمونه مهرماه، فسمي ذلك اليوم مهرجان. وتفسيره "نفس مهر ذهبت" وهذه لغة الفرس الأُوَل. وزعم آخرون أن "مهر" بالفارسية حِفَاظ و"جان" الروح.

وقد نظم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ذلك، فقال:

إذا ما تَحَقَّقَ بالمَهْرَجا * نِ مَنْ ليسَ يَعرِفُ معناهُ، غاظا.
ومعناهُ أن غَلَبَ الفُرْسُ فيه * فسَمَّوْهُ للرُّوحِ حقًّا حِفَاظا.

وقيل إنه إنما عُمِلَ في عهد أفريدون الملك، وأن معنى هذا الاسم "إدراك الثأر".

وسبب اتخاذهم له ، أن بيوراسف (وهو الضحاك)، ويقال له أزدهاق ذوالحيّتين والأفواه الثلاثة، والأعين الستة، الداهى الخبيث المتمرّد، لما قتل جمشاد، وملك بعده، غيّر دين المجوسية . وجاء إبليس فى صورة خادم، فقبّل منكبيه، فنبت فيهما حيتان، فكان يُطْعمهما أدمغة الناس . فأجحف ذلك بالرعية، فخرج رجل بأصبهان، يقال له كابى، ويقال فيه كابيان . ودعا الناس إلىٰ قتاله، فاجتمع له خلق كثير . ٥ فشخص الضحاك لقتاله، فهاب كثرةَ جمعه وفرّ منهم . فاجتمع الناس علىٰ كابى ليملكوه عليهم، فأبىٰ ذلك وقال: ماأنا من أهل الملك، وأخرج صبيا من ولد جمشاد، يسمّى أفريدون وملّكه، فأطاعه الناس فيه وملّكوه عليهم .

وخرج أفريدون فى طلب الضحاك ليأخذ ثأر جدّه فظفر به، وجعل ذلك اليوم عيدا، وسماه المهرجان . ويقال إن المهرجان هو اليوم الذى عقد فيه التاج علىٰ رأس ١٠ أردشير بن بابك، أوّل ملوك الفرس الساسانية .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يفضل المهرجان علىٰ النيروز:

أخَا الفُرْسِ إنّ الفُرْسَ تَعْلَمُ إنّه * لأطْيَبُ من نَيْروزِهَا مَهْرَجَانُهَا :

لإدبارِ أيّام يَغُمُّ هـواؤُهـا * وإقبالِ أيّامٍ يَسُـرُّ زَمَانُهـا .

وكان مذهب الفرس فيه أن يَدّهِنَ ملوكُهم بدُهن البان تبرُّكا، وكذلك عوامهم، ١٥ وأن يلبس القَصَبَ والوَشْىَ، ويتوج بتاج عليه صورة الشمس وعجلتها الدائرة عليها، ويكون أوّل من يدخل عليه المُوبَذَان بطبق فيه أُتْرُجّةٌ، وقطعة سُكّرٍ، ونَبَقٌ، وسَفَرْجَل ، وعُنّاب، وتُفّاح، وعُنْقُودُ عنب أبيض، وسبعُ طاقات آسٍ قد زَمْزِم عليها .

ثم يدخل الناس علىٰ طبقاتهم بمثل ذلك .

وكان أردشير، وأنو شروان يأمران بإخراج مافى خزائنهم فى المهرجان والنيروز من أنواع الملابس والفُرُش، فَتُفَرَّقُ كلُّها فى الناس علىٰ مراتبهم، ويقولان : إن الملوكَ تستغنى عن كُسوة الصيف فى الشتاء، وعن كُسوة الشتاء فى الصيف، وليس من أخلاقهم أن يَخْبؤوا كسوتهم فى خزائنهم ويساووا العامّة فى فعلها .

وزعم بعض أصحاب التاريخ أن النيروز عَمِلته الفُرْسُ قبل المهرجان بألفى سنة وخمسمائة سنة .

٣ — وأما السَّدَقُ ، فإنه يعمل فى ليلة الحادى عشر من شهر بهمن ماه . ويسمّى هذا اليوم عندهم أبان روز، لأن لكل يوم من أيام الشهر عندهم آسما .

ويقال فى سبب آتخاذهم له : إن فراسياب لما ملك، سار إلىٰ بلاد بابِلَ وأكثر فيها الفساد، وخرّب العمران . فخرج عليه دق بن طهماسب، وطرده عن مملكته إلىٰ بلاد التُّرك . وكان ذلك فى يوم أبان روز. فآتخذ الفُرْسُ هذا اليوم عيدا، وجعلوه ثالثا ليوم النيروز، والمهرجان .

ويقال أيضا فى سبب آتخاذهم له : إن الأب الأوّل، وهو عندهم كيومرت، لما كمل له مائة ولد، زوج الذكور بالإناث، وصنع لهم عُرْسًا أكثر فيه من إشعال النيران، فوافق ذلك الليلة المذكورة، وآستنه الفُرْسُ بعده .

وهم يوقدون النيران بسائر الأدهان، ويزيدون فى الوَلُوع بها، حتّى إنهم يلقون فيها سائر الحيوانات .

وفى ذلك يقول ابن حجاج من أبيات يمدح بها عضد الدولة بن بويه :

مَوْلَاىَ يا مَنْ نَدَاهُ يَعْـدُو * فَفَاتَ سَبْتًا ولَيْسَ يُلْحَقْ .
لَيْلَتُنَا حُسْـنُهَا عَجِيبٌ * بالقَصْفِ والعَزْفِ قَدْ تَحَقَّقْ .
لِنَارِهَا فى السَّما لِسَانٌ * عن نُورضَوْء الصَّبَاح يَنْطِقْ .
والجَوُّ(١) منها قد صار جَمْـرًا * والنجمُ منها قد كَادَ يُحْرِقْ . ٥
وَدِجْلَةٌ أضْرِمَتْ حَرِيقًـا * بألْفِ نَارٍ وألْف زَوْرَقْ .
فـاؤُها كلّها حَمِـيمٌ * قَدْ فَارَ مما غَلَى(٢) وبَقْبَـقْ .

وقال أبو القاسم المطرّز، فى سَدَق عمله السلطان ملك شاه، أشعل فيه الشموع والنيران فى السُّمَيْريّات بدجْلةَ، وذلك فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة :

وكُلُّ نارٍ على العُشَّاقِ مُضْرَمَةٌ * مِن نارِ قَلْبِى أو من ليلة السَّدَقِ . ١٠
نارٌ تَجَلَّتْ بها الظَّلْماءُ فاشْـتَبَهَتْ * بسَـدْفَةِ الليل فيها غُرَّةُ الفَلَقِ !
وزارَتِ الشمسُ فيها الليلَ واصطلحا * على الكواكب بعد الغَيْظِ والحَنَقِ .
مدّتْ على الأرض بُسْطًا من جَواهِرِها * ما بين مُجْتَمِـعٍ وَارٍ ومُفْـتَرِقِ .
مثـلَ المَصَابيح إلا أنهـا نَزَلَتْ * مِن السماء بلا رَجْمٍ ولا حَرَقِ .
أعْجِبْ بنـارٍ ورِضْوَانٌ يُسَـعِّرُها * ومالكٌ قائم منهـا على فَـرَقِ ! ١٥
فى مجلس ضَحِكت روضُ الجِنَانِ له * لمـا جلا ثَغْـرُهُ عن واضحٍ يَقَقِ .

(١) كذا فى الأصل ولعله « والجو منها يصير جمرا * والنجم منها يكاد يحرق » ليستقيم الوزن .

(٢) فى الأصول يغلى .

٣ — ذكر أعياد النصارى القبْط

(٧١) وأعياد النصارى أربعة عشر عيدا : سبعة يسمونها كبارا ، وسبعة يسمونها صغارا .

فأما الكبار :

١ — فمنها عيد البِشَارة . ويعنون بها بشارة غبريال ، وهو عندهم جبريل عليه
٥ السلام على ما يزعمون أنه بشر مريم ابنة عمران بميلاد عيسى (عليهما السلام) . وهم
يعملونه فى التاسع والعشرين من برمهات من شهورهم .

٢ — ومنها عيد الزيتونة . وهو عيد الشَّعانين، وتفسيره التسبيح . يعملونه فى سابع
أحد من صومهم . وسُنَّتهم فيه أن يخرجوا بِسَعَف النخل من الكنيسة . ويزعمون
أنه يوم ركوب المسيح اليَعْفُور فى القدس ، وهو الحمار، ودخوله صِهْيَوْن وهو راكب،
١٠ والناس يسبحون بين يديه ، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

٣ — ومنها الفِصْح . وهو العيد الكبير عندهم يقولون إن المسيح قام فيه بعد
الصَّلَبُوت بثلاثة أيام .

٤ — ومنها خميس الأربعين . ويسميه الشاميون السُّلَّاق(١) . وهو الثانى والأربعون
من الفِطْر . يزعمون أن المسيح عليه السلام تَسَلَّق فيه من بين تلاميذه إلى السماء
١٥ من بعد القيام، ووعدهم إرسال الفارقليط وهو روح القدس .

٥ — ومنها عيد الخميس . وهو العُنْصُرة يُعمل بعد خمسين يوما من يوم القيام
يقولون إن روح القدس حلّت بالتلاميذ، وتفرقت عليهم ألسنة الناس، فتكلموا بجميع
الألسنة، وتوجه كل واحد منهم إلى بلاد لسانه الذى تكلم به يدعوهم إلى دين المسيح .

(١) فى الأصل السلاق . وفى القاموس [وكُمَّان عيد للنصارى] وفى صبح الأعشى بغير ياء على الصواب .

٦ — ومنها الميلاد . وهو اليوم الذى ولد فيه المسيح . يقولون إنه ولد فى يوم الاثنين فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد . وهم يوقدون فيه المصابيح بالكنائس ويزينونها . ويعمل فى التاسع والعشرين من كيهك من شهورهم .

٧ — ومنها الغطاس . ويعمل فى الحادى عشر من طوبة من شهورهم . ويقولون إن يحيىٰ بن زكريا ، وينعتونه بالمعمدان ، غسل عيسىٰ عليه السلام فى بحيرة الأُرْدُنّ ، ويزعمون أن عيسىٰ (عليه السلام) لما خرج من الماء اتصل به روح القدس علىٰ هيئة حمامة . والنصارىٰ يغمسون أولادهم فى الماء فيه ، ووقته شديد البرد .

وأما الأعياد الصغار :

١ — فمنها الختان . ويعمل فى سادس بشنة ، يقولون إن المسيح ختن فى هذا اليوم ، وهو الثامن من الميلاد .

٢ — ومنها الأربعون . وهو عند دخول الهيكل يقولون إن سمعان الكاهن دخل بعيسىٰ (عليه السلام) مع أمّه [الهيكل][1] وبارك عليه . ويعمل فى ثامن أمشير من شهورهم .

٣ — ومنها خميس العهد . ويعمل قبل الفِصْح بثلاثة أيام . وسُنَّتهم فيه أن يأخذوا إناء ويملؤوه ماء ويزمزموا عليه ، ثم يغسل البطريك به أرجل سائر الناس . ويزعمون أن المسيح عيسىٰ (عليه السلام) فعل مثل هذا بتلاميذه فى مثل هذا اليوم ، يعلمهم التواضع ، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرّقوا ، وأن يتواضع بعضهم لبعض . وعوامّ النصارىٰ يسمون هذا الخميس خميس العَدَس ، وهم يطبخون فيه العدس المقشور

(١) الزيادة من صبح الأعشى .

على ألوان، ويسميه أهل الشام خميس الأرز . ومنها خميس البيض أيضا . ويسميه أهل الأندلس خميس أبريل، وأبريل شهر من شهور الروم .

٤ — ومنها سبت النور . وهو قبل الفصح بيوم . يقولون إن النور يظهر على مقبرة المسيح فى هذا اليوم، فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة التى بالقدس. وليس كذلك، بل هو من تخييلات فعلها أكابرهم ليستميلوا بها عقول أصاغرهم . وقيل إنهم يعلقون القناديل فى بيت المذبح، ويتحيلون فى إيصال النار إليها بأن يمدوا على سائرها شريطا من حديد فى غاية الدقة، يدهنونه بدهن البلسان ودهن الزنبق . فإذا صلوا ، وحان وقت الزوال، فتحوا المذبح ، فدخل الناس إليه، وقد أشعلت فيه الشموع . ويتوصل بعض القوم إلى أن يعلق بطرف الشريط الحديد النار فتسرى عليه، فتقد القناديل واحدا بعد واحد بسبب الدهن .

٥ — ومنها جد الحدود . وهو بعد الفصح بثمانية أيام . يعمل أول أحد بعد الفطر، لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم . وفيه يجددون الآلات، والأثاث، واللباس، ويأخذون فى المعاملات، والأمور الدنيوية .

٦ — ومنها التجلى . يقولون : إن المسيح (عليه السلام)، تجلى لتلاميذه بعد أن رفع، وتمنوا عليه أن يحضر لهم إيليا ، وموسى ، فأحضرهما لهم فى مصلى بيت المقدس، ثم صعد . ويعمل فى ثالث عشر مسرى من شهورهم .

٧ — وعيد الصليب . وتزعم النصارى أن قسطنطين بن هيلانى انتقل عن اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية ، وبنى كنيسة قسطنطينية العظمى ، وسائر كنائس الشام .

(٧٣) وسبب ذلك — على ما نقله المؤرخون — أنه كان مجاورا للبُرْجان، فضاق بهم ذَرْعا من كثرة غاراتهم على بلاده. فهمّ أن يصانعهم ويقرّر لهم عليه إتاوة فى كل عام ليكفّوا عنه. فرأى ليلة فى المنام أن ملائكة نزلت من السماء ومعها أعلام عليها صلبان، فحاربت البُرْجان فهزموهم. فلما أصبح، عمل أعلاما وصوّر فيها صلبانا، ثم قاتل بها البرجان فهزمهم.

وقيل إنه رأى فى المنام صلبانا من نور فى السماء، وقائلا يقول له: آعمل مثل هذا على رؤوس أعلامك فإنك تنتصر. فلما أصبح، أمر بعمل صلبان من ذهب على رءوس أعلامه وقاتل بها فنُصِر. فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم والدخول فى دين النصرانية، وأن يقصوا شعورهم، ويحلقوا لحاهم. وإنما فعل ذلك بهم لأن رسل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان من قبلُ يأمرونهم بالتعبد بدين النصرانية، فأعرضوا عنهم، ومَثَّلُوا بهم هذه المثلة نَكَالا بهم. ففعلوا ذلك تأسّيا بهم.

ولما تنصر قسطنطين، خرجت أمه هيلانى إلى الشام، فبنت الكنائس، وسارت إلى بيت المقدس، فطلبت الخشبة التى صلب عليها المسيح، على ما يزعمون. وكانت مدفونة فى مزبلة. فأُخرِجتْ منها، وفيها مواضع سبعة مسامير فلما حُمِلَتْ إليها، غلفتها بالذهب وحملتها إلى آبنها. وآتخذت يوم رؤيتها لها عيدا.

قال المسعودىّ: وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من أيلول، ووافق ذلك سبع عشرة ليلة خلت من توت من شهور القبط. وكان من مولد عيسى إلى اليوم الذى وجدت فيه الخشبة ثلثمائة وثمان وعشرون سنة.

وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخبار الروم فى فنّ التاريخ، وهو فى الجزء الثالث عشر من هذا الكتاب.

٤ — ذكر أعياد اليهود

وأعياد اليهود التى نطقت بها توراتهم خمسة :

١ — منها عيد رأس السنة . ويسمونه رأس هيشا ، أى عيد رأس الشهر ، وهو أوّل يوم من تشرين . ينزل عندهم منزلة عيد الأضحية عندنا . ويقولون إن الله عز وجل أمر إبراهيم بذبح إسحاق آبنه عليهما السلام فيه ، وفداه بذبح عظيم .

٢ — ومنها عيد صوماريا . ويسمّى الكبور . وهو عندهم الصوم العظيم الذى فرض عليهم ، ويقتل من لم يصمه . ومدّة الصوم خمس وعشرون ساعة ، يبدأ فيها قبل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرين ، ويختم بمضىّ ساعة بعد غروبها من اليوم العاشر . ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار . وهى عندهم تمام الأربعين الثالثة التى صام فيها موسىٰ عليه السلام . ولا يجوز أن يقع عندهم فى يوم الأحد ، ولا يوم الثلاثاء ، ولا فى يوم الجمعة . ويزعمون أن الله تعالىٰ يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم إلا الزنا بالمُحْصَنات ، وظلم الرجل أخاه ، وجحد ربوبية الله تعالىٰ .

٣ — ومنها عيد المِظَلَّة . وهو ثمانية أيام [(١)] ، أوّلها الخامس عشر من تشرين . وكلها أعياد ، واليوم الأخير منها يسمّى عرابا [(٢)] ، وتفسيره شجر الخلاف . وهو أيضا حج لهم . وهم يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلال سعف النخل الأخضر ، وأغصان الزيتون ، والخلاف ، وسائر الشجر الذى لا ينتثر ورقه علىٰ الأرض . ويزعمون أن ذلك تذكار منهم لإظلال الله تعالىٰ إياهم فى التّيه بالغمام .

(١) فى صبح الاعشى [سبعة أيام] .
(٢) فى صبح الأعشى [عرايا] .

٤ — ومنها عيد الفطير . ويسمونه الفِصْح . ويكون فى الخامس عشر من نَيْسَان . وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير، وينظّفون بيوتهم فيها من خبز الخمير . لأنها عندهم الأيام التى خلص الله تعالىٰ فيها بنى إسرائيل من فرعون وأغرقه . فخرجوا إلىٰ التيه، وجعلوا يأكلون اللحم، والخبز الفطير، وهم بذلك فرحون . وفى آخر هذه الأيام غرق فرعون . ٥

٥ — ومنها عيد الأسابيع، وهى الأسابيع التى فرضت عليهم فيها الفرائض، وكمّل فيها الدين . ويسمّى عيد العنصرة، وعيد الخطاب . ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع . يقولون إنه اليوم الذى خاطب الله تعالىٰ فيه بنى إسرائيل من طورسينا، وإن من جملة ما خوطبوا به العشر كلمات، وهى وصايا تتضمن أمرا ونهيا . وهو : من حجوجهم . وحجوجهم ثلاثة : الأسابيع، والفطير، والمظلّة . وهم يعظمونه ١٠ ويأكلون فيه القطائف ويجعلونها بدلا عن المنّ الذى أُنزل عليهم فى هذا اليوم، علىٰ ما يزعمون . وآتخاذهم لهذا العيد فى اليوم السادس من سيوان .

٦ — وعيد الفوز . وهو عيد أحدثوه، ويسمونه الفوريم . وذكروا فى سبب آتخاذهم له أن بختنصر لما أجلىٰ من كان ببيت المقدس من اليهود إلىٰ عراق العجم، أسكنهم مدينة جَىّ، وهى إحدىٰ مدينتى أصفَهَان . فلما ملك أردشير بن بابك، سماه ١٥ اليهود بالعبرانية أجشادوس . وكان له وزير يسمونه بلغتهم هيمون . ولليهود يومئذ (٧٣) حَبْر يسمّى بلغتهم مردوخاى . فبلغ أردشير أن له آبنة عَمّ بجميلة الصورة من أحسن أهل زمانها . فطلب تزويجها منه، فأجابه إلىٰ ذلك . فتزوجها، وحظيت عنده، وصار مردوخاى قريبا منه . فأراد هيمون الوزير إصغاره حسدا له، وعزم علىٰ إهلاك طائفة اليهود التى فى جميع مملكة أردشير . فرتب مع نوّاب الملك فى سائر الأعمال ٢٠

أن يقتل كلٌّ واحد منهم من يعلمه من اليهود. وعيّن لهم يوما وهو النصف من آذار. وإنما خص هذا اليوم دون غيره، لأن اليهود يزعمون أن موسىٰ عليه السلام وُلد فيه، وتوفى فيه. وأراد بذلك المبالغة فى نكايتهم ليضاعف الحزن عليهم بهلاكهم، وبموت موسىٰ (عليه السلام).

٥ فبلغ مردوخاى ذلك، فأرسل إلىٰ ابنة عمه يُعلمُها بما بلغه، ويحضها علىٰ إعمال الحيلة فى خلاصهم. فأعلمت الملك بالحال، وذكرت له أن الوزير إنما حمله علىٰ ذلك الحسد، لقرب مردوخاى منه. فأمر بقتل هيمون الوزير، وأن يكتب أمان لليهود.

فاتخذوه عيدا. واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام.

وهذا العيد عندهم عيد سرور، ولهو، وخَلَاعة، وهدايا يهديها بعضهم لبعض،

١٠ ويصوّرون فيه من الورق صورة هيمون، ويملئون بطن الصورة نخالة ويلقونها فى النار حتىٰ تحترق.

٧ — وعيد الحنكة. وهو أيضا مما أحدثوه. وهو ثمانية أيام، أولها ليلة الخامس والعشرين من كسلا. وهم يوقدون فى الليلة الأولىٰ من لياليه علىٰ كل باب من أبوابهم سراجا، وفى الثانية سراجين، ويَضْعُف ذلك فى كل ليلة إلىٰ ثمان

١٥ ليال. فيكون فى الثامنة ثمانية سُرُج.

وسبب اتخاذهم لهذا العيد، أن بعض الجبابرة تغلّب علىٰ البيت المقدّس وقتل من كان فيه من بنى إسرائيل، وافتض أبكارهم. فوثب عليه أولاد كاهنهم، وكانوا ثمانية، فقتله أصغرهم. فطلب اليهود زيتا لوقود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا، وزعوه علىٰ عدد مايوقدونه من السرج علىٰ أبوابهم فى كل ليلة إلىٰ ثمان ليال. فاتخذوا هذه الأيام عيدا

٢٠ وسموه الحنكة، وهو مشتق من التنظيف، لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار شيعة الجبار.

القسم الرابع من الفن الأوّل

فى الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون، والغُدْران

وفيه سبعة أبواب

الباب الأوّل

من هذا القسم

١ — فى مبدإ خلق الأرض

قال الله تعالىٰ : ﴿ أَمْ مَنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ .

والأرض سبع، كما أن السماوات سبع . والدّليل علىٰ ذلك قوله عز وجل : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ ومِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

واختلف فيها هل هى سبع متطابقات بعضها فوق بعض، أو سبع متجاورات؟ فذهب قوم إلىٰ أن الله تعالىٰ خلق سبعَ سماوات متطابقات متعاليات، وسبعَ أرضين متطابقات متسافلات ، وبين كل أرض وأرض ، كما بين كل سماء وسماء ، خمسمائة عام . وفُسر بهذا قوله تعالىٰ : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا (١) رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ . أى كانت سماء واحدة ففتقناهما سبعا .

قيل : ولكل أرض أهل وسُكّان مختلفو الصور والهيئات، ولكل أرض آسمٌ خاص.

(١) أى وأرضا واحدة [ولعله سقط من قلم الناسخ] .

وذهب قوم إلى أنها سبع متجاورات متفرّقات لامتطابقات. فجعلوا الصين أرضا، وخراسان أرضا، والسند والهند أرضا، وفارس والجبال والعراق وجزيرة العرب أرضا، والجزيرة والشام وبلاد إِرْمِينِيَة أرضا، ومصر وإفْرِيقِيَّة أرضا، وجزيرة الأندلس وما جاورها من بلاد الجلالقة والأنْكُبُرْدَة وسائر طوائف الروم أرضا.

٥ ويقال: إنها كانت على ماء، والماء على صخرة، والصخرة على سَنَام ثور، والثور على كمكم[1]، والكمكم على ظهر حوت، والحوت على الماء، والماء على الريح، والريح على حجاب ظلمة، والظلمة على الثرى، وإلى الثرى ٱنقطع علم المخلوقين.

قال الله تعالى: ﴿لَهُ ما فِى السَّمٰوات وَمَا فِى الأَرْض وما بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرىٰ﴾.

وزعم آخرون أن تحت الأرض السابعة صخرةً، وتحت الصخرة الحوت، وتحت ١٠ الحوت الماء، وتحت الماء الظلمة، وتحت الظلمة الهواء، وتحت الهواء الثرى.

وقد تقدّم فى الباب الأوّل من هذا الكتاب أن الأرض مخلوقة من الزَّبَد. فلا فائدة فى تكراره.

الباب الثانى

من القسم الرابع من الفن الأوّل

١٥ ١ — فى تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها، فى الآتساع، والآستواء، والبعد، والغلظ، والصلابة، والسهولة، والحزونة، والآرتفاع، والآنخفاض، وغير ذلك (٧٤)

قال الثعالبىّ: فى كتابه المترجَم "بفقه اللغة" وأسنده إلى أئمة اللغة:

---

(١) كذا بالأصل ؟

إذا اتّسعت الأرض ولم يتخللها شجر أوخمر، فهي الفضاءُ والبَرازُ والبَراحُ، ثم الصَّحْراءُ والعَرَاء، ثم الرَّهاءُ والجَهْرَاءُ .

فإذا كانت مستوية مع الاتّساع، فهي الخَبْتُ والجَدَدُ، ثم الصَّحْصَحُ والصَّرْدَحُ، ثم القَاعُ والقَرْقَرُ، ثم القَرِقُ والصَّفْصَفُ .

فإذا كانت مع الاستواء والاتّساع بعيدة الأكناف والأطراف، فهي السَّهْبُ والخَرْقُ، ثم السَّبْسَبُ والسَّمْلَقُ والمَلَق .

فإذا كانت مع الاتّساع والاستواء والبُعْد لا ماء فيها، فهي الفَلاَةُ والمَهْمَهُ، ثم التَّنُوفَةُ والفَيْفَاءُ، ثم النَّفْنَفُ والصَّرْمَاءُ .

فإذا كانت مع هذه الصفات لايهتدى فيها لطريق، فهي اليَهْمَاءُ والغَطْشاء .

فإذا كانت تُضِلُّ سالكها، فهي المَضِلَّةُ والمَتِيهَةُ .

فإذا لم يكن بها أعلام ولا معالم، فهي المَجْهَلُ والهَوْجَلُ .

فإذا لم يكن بها أثر، فهي الغُفْلُ .

فإذا كانت قَفْرَاءَ، فهي القِيُّ .

فإذا كانت تُبِيدُ سالكها، فهي البَيْدَاءُ، والمَفَازَةُ كِنَايَةٌ عنها .

فإذا لم يكن فيها شيء من النَّبْت، فهي المَرْتُ والمَلِيعُ .

فإذا لم يكن فيها شيء، فهي المَرْوَرَاةُ والسُّبْرُوتُ والبَلْقَعُ .

فإذا كانت الأرض غليظةً صُلْبةً، فهي الجَبُوبُ، ثم الجَلَدُ، ثم العَزَازُ، ثم الصَّيْدَاء، ثم الجَدْجَد .

فإذا كانت صُلْبةً يابسة من غير حصًى، فهي الكَلَدُ، ثم الجَعْجَاعُ .

فإذا كانت غليظة ذات حجارة ورمل، فهي البُرْقَة والأَبْرَق .

فإذا كانت ذات حصًى، فهي المَحْصَاةُ والمَحْصَبَةُ .

فإذا كانت كثيرة الحصى، فهي الأَمْعَز والمَعْزَاءُ .

فإذا آشتملت عليها كلِّها حجارة سودٌ، فهي الحَرَّةُ واللَّابَةُ .

٥ فإذا كانت ذات حجارة كأنها السكاكينُ، فهي الحَزِيزُ .

فإذا كانت الأرض مطمئنة، فهي الجَوْفُ والغائطُ ؛ ثم الهَجْلُ والهَضْمُ .

فإذا كانت مرتفعة، فهي النَّجْد والنَّشَزُ .

فإذا جمعت الأرض الآرتفاع والصَّلابة والغلَظ، فهي المَتْنُ والصَّمْدُ، ثم القُفُّ والفَدْفَدُ والقَرْدَدُ .

١٠ فإذا كان آرتفاعها مع آتساع، فهي اليَفَاعُ .

فإذا كان طولها في السماء مثل البيت، وعرض ظهرها نحو عشرة أذرع، فهي التَّلُّ ؛ وأطول وأعرض منها الرَّبْوَةُ والرَّابيةُ، ثم الأَكَمَةُ، ثم الزُّبْيَةُ، وهي التي لا يعلوها الماء، وبها ضُرب المثل في قولهم: "بلغ السيل الزُّبى"؛ ثم النَّجْوَةُ، وهي المكان الذي تظن أنه نجاؤك ؛ ثم الصَّمَّانُ، وهي الأرض الغليظة دون الجبل .

١٥ فإذا آرتفعت عن موضع السيل وآنحدرت عن غِلَظ الجَبَل، فهي الخَيْفُ .

فإذا كانت الأرض لينة سهلة من غير رَمْل، فهي الرَّقَاقُ والبَرْثُ، ثم المَيْثاءُ والدَّمِثَةُ .

فإذا كانت طيبة التربة كريمة المَنْبت بعيدة عن الأَحْسَاء والنُّزُوز، فهي العَذَاةُ .

فإذا كانت مخيلة للنبت والخير، فهي الأَرِيضَةُ .

فإذا كانت ظاهرة لا شجر فيها ولا شيء يختلط بها، فهي القَرَاحُ والقِرْوَاحُ .

٢٠ فإذا كانت مهيأة للزراعة، فهي الحَقْلُ والمَشَارَةُ والدَّبْرَةُ .

[فإذا لم تهيأ للزراعة، فهى بور][1] .

فإذا لم يصبها المطر، فهى القِلّ والجُرُز

فإذا كانت غير ممطورة وهى بين أرضين ممطورتين، فهى الخَطِيطة .

فإذا كانت ذات ندًى ووَخَامة، فهى الغَمِقَةُ .

فإذا كانت ذات سِباخ، فهى السَّبَخَةُ .

فإذا كانت ذات وباء، فهى الوَبِئَةُ والوَبِيئَةُ .

فإذا كانت كثيرة الشجر، فهى الشَّجْرَاءُ والشَّجِرَةُ .

فإذا كانت ذات حَيّات، فهى المُحْوَاةُ[2] .

فإذا كانت ذات سباع أو ذئاب، فهى المَسْبَعَةُ والمَذْأَبَةُ .

٢ — ذكر تفصيل أسماء التراب وصفاته

قال الثعالبىّ رحمه الله تعالى :

الصَّعيد، تراب وجه الأرض .

والبَوْغَاءُ، والدَّقْعَاءُ، التراب الرخو الرقيق الذى كأنه ذَرِيرَةٌ .

والثَّرَىٰ، التراب النَّدِىّ : وهو كل تراب لا يصير طينا لَازِبًا إذا بُلَّ .

المُورُ، التراب الذى تَمُور به الريح .

الهَبَاءُ، التراب الذى تُطَيِّره الريح فتراه على وجوه الناس وجلودهم وثيابهم [يلتزق لُزُوقا][1] .

---

(١) الزيادة من فقه الثعالبى .

(٢) كذا ضبط فى فقه اللغة ، وفى اللسان : (وأرض مَحْيَاة ومَحْوَاة كثيرة الحيات) وهو الأولى لاطراد هذا الوزن فى مثل ذلك .

[والهابي ، الذي دقّ وٱرتفع](1) .

السَّافِيَاءُ ، التراب الذي يذهب في الأرض مع الريح .

النَّبِيثَةُ ، التراب الذي يُخْرَجُ من البئر عند حفرها .

الرَّاهِطَاءُ والدَّامَّاءُ ، التراب الذي يُخرجه اليربوع من جُحْرِهِ ويجمعه .

الجُرْثُومَةُ ، التراب الذي يجمعه النمل عند قريته . ٥

العَفَاءُ ، التراب الذي يُعَفِّي الآثارَ . وكذلك العَفَرُ .

الرَّغَامُ ، التراب المختلط بالرمل .

السَّمَادُ ، التراب الذي يُسَمَّدُ به النبات . فإذا كان مع السِّرْقين ، فهو الدَّمَالُ . (٧٥)

٣ — ذكر تفصيل أسماء الغبار وأوصافه

النَّقْعُ والعَكُوبُ ، الغبار الذي يثُور من حوافر الخيل وأَخْفاف الإبل . ١٠

العَجَاج ، الغبار الذي تُثيره الريح .

الرَّهَجُ والقَسْطَلُ ، غبار الحرب .

الخَيْضَعَةُ ، غبار المَعْرَكَةِ .

العِثْيَرُ ، غبار الأقدام .

المَنِينُ ما تقطَّع منه . ١٥

٤ — ذكر تفصيل أسماء الطين وأوصافه

قال :

إذا كان الطين حُرًّا يابسا ، فهو الصَّلْصَالُ .

فإذا كان مطبوخا ، فهو الفَخَّارُ .

(١) الزيادة من فقه الثعالبي . ٢٠

فإذا كان عَلِكا لاصقا، فهو اللّازِبُ .

فإذا غَيَّره المـاء وأفسده، فهو الحَمَأ .

(وقد نطق القرآن بهذه الأسماء الأربعة) .

فإذا كان رطبا، فهو الثَّأْطَةُ والثُّرْمُطَةُ والطَّثْرَة .

فإذا كان رقيقا، فهو الرِّدَاغُ . ٥

فإذا كان تَرْتَطِم فيه الدوابُّ، فهو الوَحَلُ . وأشدّ منه الرَّدْغَة والرَّزَغَةُ . وأشدّ منها الوَرْطَةُ تقع فيها الغنم فلا تقدِر على التخلّص منها ؛ ثم صارت مثلا لكل شِدّة يقع فيها الإنسان .

فإذا كان حُرًّا طيبا عَلِكًا وفيه خضرة، فهو الغَضْرَاءُ .

فإذا كان مخلوطا بالتبن، فهو السَّيَاعُ . ١٠

فإذا جُعِل بين اللَّبِن، فهو المِلَاطُ .

---

٥ — ذكر تفصيل أسماء الرّمال

قال :

العَدَابُ، ما آسترقّ [(١)] من الرمل .

الحَبْلُ، ما آستطال منه . ١٥

اللَّبَبُ، ما آنحدر منه .

الحِقْفُ، ما آعْوَجّ منه .

الدِّعْصُ، ما آستدار منه .

---

(١) فى الأصل : ما آشتدّ . ولكن الذى فى القاموس وفقه اللغة : ما آسترق .

العَقَدَةُ، ما تعقَّد منه .

العَقَنْقَلُ، ما تراكم منه .

السِّقْطُ، ما جَعَل يتقطَّع ويتصل منه .

النُّهْبُورَةُ، ما أشرف منه .

التَّيْهُورُ، ما اطمأنّ منه . ٥

الشَّقِيقَة، ما انقطع وغَلُظ منه .

الكَثِيبُ والنَّقا، ما احْدَوْدَبَ وانهال منه .

العَاقِرُ، ما لا يُنْبِت شيئا منه .

الحَدَمْلَةُ، ما كثر شجره منه .

الأَوْعَسُ، ما سَهُل ولان منه . ١٠

الرَّغَامُ، ما لان منه . وليس هو الذى يسيل من اليد .

الهَيَامُ، ما لا يتمالك أن يُمْسك باليد منه للينه .

الدَّكْدَاكُ، ما التبد بالأرض منه .

العَانِكُ، ما تعقَّد منه حتّى لا يقدر البعير على المسير فيه .

---

٦ — ذكر ترتيب كمية الرمل ١٥

قال الثعالبيّ :

الكثير يقال له العَقَنْقَلُ .

فإذا نقص، فهو كَثِيبٌ .

فإذا نقص، فهو عَوْكَلٌ .

فإذا نقص عنه، فهو سِقْطٌ .

فإذا نقص عنه، فهو عَدَابٌ .

فإذا نقص، فهو لَبَبٌ .

وقال فى كتابه "الغريب"(١) :

إذا كانت الرملة مجتمعة، فهى العَوْكَلَة .

فإذا آنبسطت وطالت، فهى الكَثِيبُ .

فإذا آنتقل الكَثِيبُ من موضع إلى آخر بالرياح و بقى منه شىء رقيق، فهو اللَّبَبُ .

فإذا نقص، فهو العَدَابُ .

---

٧ — ذكر تفصيل أسماء الطرق وأوصافها

قال الثعالبىّ :

المِرصاد والنَّجْدُ، الطريق الواضح، وكذلك الصِّرَاطُ

والجادّة والمَنْهَجُ واللَّقَمُ والمَحَجَّةُ، وسَطُ الطريق ومُعْظَمه .

واللَّاحِبُ، الطريق المُوَطَّأ .

المَهْيَعُ، الطريق الواسع .

الوَهْمُ، الطريق الذى يَرِدُ فيه الموارد .

الشَّارِعُ، الطريق الأعظم .

النَّقْبُ والشِّعْبُ، الطريق فى الجبل .

الخَلُّ، الطريق فى الرمل .

---

(١) ليس هذا الكتاب للثعالبى؛ وإنما هو كتاب "الغريب المصنف" لأبى عمرو الشيبانى؛ الموجود منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

المَخْرَفُ، الطريق فى الأشجار . ومنه الحديث : "عائدُ المريض فى مَخَارِفِ الجنة".
النَّيْسَبُ، الطريق المستقيم ؛ وقيل إنه الطريق المستدق الواضح، كطريق النمل والحية وحمر الوحش .

والله أعلم .

الباب الثالث

من القسم الرابع من الفن الأوّل

فى طول الأرض ومسافتها

ذهب المتكلمون فى ذلك أن مسافة الأرض خمسمائة عام : ثُلُثٌ عمران، وثُلُثٌ خراب، وثُلُثٌ بحار؛ وأن مقدار المعمور من الأرض مائة وعشرون سنة : تسعون منها ليأجوج ومأجوج، وآثنا عشر للسودان، وثمانية للروم، وثلاثة للعرب، وسبعة لسائر الأمم .

وقيل إن الدنيا سبعة أجزاء : ستة منها ليأجوج ومأجوج، وواحدٌ لسائر الناس .

وقيل إن الأرض خمسمائة عام : البحار منها ثلثمائة، ومائة خراب، ومائة عمران .

وقيل إن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ : للسودان منها آثنا عشر ألفا، وللروم ثمانية آلاف فرسخ، ولفارس ثلاثة آلاف، وللعرب ألفٌ .

وقال وهب بن منبه : ما العمارة من الدنيا فى الخراب إلا كفُسْطاط فى الصحراء .

وقال أردشير بن بابك : إن الأرض أربعة أجزاء : جزء منها للترك، وجزء للعرب، وجزء للفرس، وجزء للسودان .

وقيل : إن الأقاليم سبعة، والأطراف أربعة، والنواحى خمسة وأربعون، والمدائن عشرة آلاف، والرساتيق مائتا ألف وستة وخمسون ألفا .

وقال الخُوَارَزْمىّ صاحب الزيج : دور المعمور سبعة آلاف فرسخ، وهو نصف سُدُس الأرض، والجبال، والمفاوز، والبحار . والباقى خراب يَبَاب لا نباتَ فيه ولا حيوانَ .

ومثّل المعمور بصورة طائر، رأسه الصين، والجناح الأيمن الهند والسند، والجناح الأيسر الخزر، وصدره مكة والعراق والشام ومصر، وذَنَبه الغرب .

وزعم أصحاب الهيئة أن قطر الأرض سبعة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلا ، وأن دَوْرها عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل . وذلك جميع ما أحاطت به من برّ وبحر .

وإنما علم ذلك وحرر من عبد الله المأمون، وذلك أنه لما أشكل عليه ما ذكره المتقدّمون من مقدار الأرض بعث جماعة من أهل الخبرة بالحساب والنجوم — منهم علىّ بن عيسىٰ — إلىٰ بَرِّية سِنْجَار . وتفرّقوا من هناك . فذهب بعضهم إلىٰ جهة القطب الشمالىّ ، وذهب آخرون إلىٰ جهة القطب الجنوبىّ ، وسار كل منهم فى جهته إلىٰ أن وصل غاية ٱرتفاع الشمس نصف النهار، وقد زال وتغير عن الموضع الذى ٱجتمعوا فيه وتفرّقوا منه ، مقدار درجة واحدة . وكانوا قد ذرعوا الطريق فى ذهابهم، فنصبوا السهام، ووتدوا الأوتاد، وشدّوا الحبال . ثم رجعوا وٱمتحنوا الذرع ثانية ، فوجدوا مقدار درجة واحدة من السماء سامتت وجه بسيط الأرض ستة وخمسين ميلا وثلثى ميل . (والميل أربعة آلاف ذراع ؛ والذراع ست قبضات ؛ والقبضة أربع أصابع ؛ والإصبع ست شعيرات ، بطون بعضها إلىٰ بعض ؛ والشعيرة

ست شعرات من شعر الخيل) . فضربت هذه الأميال فى جميع درجات الفلك، وهى ثلثمائة وستون درجة، فخرج من الضرب عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل .

فحكم بأن ذلك دور الأرض .

وقال أبو زيد أحمد بن سهل البلخىّ : مسافة طول الأرض من أقصىٰ المشرق إلىٰ أقصىٰ المَغْرِب نحو من أربعمائة مَرْحَلة، ومسافة عرضها من حيث العُمْران الذى من جهة الشمال (وهو مساكن يأجوج ومأجوج) إلىٰ حيث العمران الذى من جهة الجنوب (وهو مساكن السودان) مائتان وعشرون مرحلة؛ وما بين برارى يأجوج ومأجوج والبحر المحيط فى الجنوب خراب ليس فيه عمارة .

ويقال إن مسافة ذلك خمسة آلاف فرسخ .

حكى هذه الأقوال صاحب كتاب "مباهج الفكر ومناهج العبر" رحمه الله .

الباب الرابع

من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ — فى الأقاليم السبعة

ذهب أصحاب الزيجات إلىٰ أن كل إقليم منها كأنه بساط ممدود، طوله من المغرب إلىٰ المشرق، وعرضه من الجنوب إلىٰ الشمال .

١ — فأما الإقليم الأوّل . فمبدؤه من مشرق أرض الصين إلىٰ مدائن أبوابها . وهى الأنهار التى تدخل السفن فيها من البحر إلىٰ المدائن الجليلة، مثل خانقو وخانفور.[1]

(١) كذا بالأصل والصواب : خانجو عن كتاب "تقويم البلدان" لأبى الفدا .

وفيه جزيرة سرنديب . ومن أرض اليمن ما كان جنوبيا من صنعاء، مثل ظَفَار وحضرموت وعَدَن . وفيه من بلد النوبة دُنْقُلَة؛ ومن بلد السودان غَانَة . ثم ينتهى إلى البحر المحيط . وعرضه من خط الأستواء إلى مقدار ما يبعد عنه عشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة .

وذهب بعض الناس إلى أن أول المعمور من حيث يكون العرض وخط الأستواء آثنتى عشرة درجة ونصف وربع درجة، وفيما بين هذا العرض وخط الأستواء مسكون بطوائف من السودان فى عِداد الوحوش والبهائم . وعدّ فيه بَطْلَيْمُوس من البلاد ذوات العروض ستين مدينة . وأهل هذا الإقليم سود، وهو قليل الساكن لإفراط حرّه .

٢ — وأما الإقليم الثانى . فيبتدئ من بلاد الصين، ويمر على بعض بلاد الهند الساحلية، مثل تانَة[(١)]، وصَيْمُور، وسَنْدَان؛ ومن بلاد السند على المَنْصُورة ودَيْبُل، ثم يبلغ عُمَان . ويكون فيه من أرض العرب: نَجْران، وهَجَر، وجَنَّابة[(٢)]، ومَهَرَة، وسَبَأ، وتَبَالَة، والطائف، وجُدَّة، ومَكَّة، والمدينة، ومملكة الحبشة، وأرض البُجة، وأُسْوان، وقوص، والصعيد الأعلى، وجنوب بلاد المغرب حتّى ينتهى إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الإقليم الأوّل إلى سبع وعشرين درجة وآثنتى عشرة دقيقة .

وزعم بَطْلَيْمُوس أن فيه أربعمائة وخمسين مدينة . وأهله بين السمرة والسواد، وهو كثير الذهب .

---

(١) آسم لمدينة ببلاد الهند . قال البيرونى : هى على الساحل . والنسبة اليها "تانَشى" ومنها الثياب التانشية (أنظر تقويم البلدان) .

(٢) فى معجم ياقوت : جنابة بلدة صغيرة من سواحل فارس، وهى فى الاقليم الثالث . وفى "تقويم البلدان" (جنابة بلدة قد خرب غالبها، وهى فرضة لفارس، وضبطها ابن خلكان بفتح الجيم والمشهور الضم) .

٣ — وأما الإقليم الثالث . فمبدؤه من شرق أرض الصين ، وفيه مدينة مملكتها ، حمدان[١] ، وفيه من بلاد الهند تانش والقُنْدُهار ، ومن بلاد السند المُولْتَان وقُزْدار[٢] . ثم يمرّ ببلاد سِجِسْتَان ، وكَرْمان ، وفارس ، وأصْبَهان ، والأهواز ، والبصرة ، والكوفة ، وأرض بابل ، وبلاد الجزيرة ، والشام ، وفِلَسْطِين ، وبيت المقدس ، والقُلْزُم ، والتِّيه ، وأرض مصر ، والإسكندرية ، وبلاد بَرْقَة ، وإفْرِيقِيَّة ، وتَاهَرْت ، وبلاد طَنْجَة ، والسُّوس ، وينتهى إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية الإقليم الثانى فى العرض إلى تمام ثلاث وثلاثين درجة وتسع وأربعين دقيقة .

وزعم بطليموس أن فيه تسعا وخمسين مدينة ، وأهله سمر .

٤ — وأما الإقليم الرابع . فمبدؤه من أرض الصين ، ويمرّ على التُّبَّت والختن[٣] ، ثم على جبال قِشْمير ، ووخان[٤] ، وتل حسان ، وكَابُل ، والغُور ، وهَرَاة ، وبَلْخ ، وطَخَارِسْتَان ، ويمتدّ إلى الرىّ ، وقُمّ ، وهَمَذان ، وحُلوان[٥] ، وبغداد ، والموصل ، وأذَرْبِيجان ، ويمتدّ على مَنْبِج ، وطَرَسُوس ، والثغور ، وأنْطاكِيَة ، وجزيرة قُبْرُس ، وصِقِلِّيَة ، ثم على الزُّقاق إلى البحر المحيط ، وعرضه من غاية الإقليم الثالث فى العرض إلى تتمة تسع وثلاثين درجة وعشرين دقيقة .

---

(١) هكذا بالأصل . ولعل المراد مدينة واقعة على النهر المشهور باسم خمدان ببلاد الصين .

(٢) فى الأصول : "كورا" وليس بالسند بلد بهذا الاسم . ويترجح أن الناسخين حرفوه عن "كزدار" . ويقال فيه "قُصدار" (أنظر معجم ياقوت) .

(٣) فى ياقوت : والخُتَن . . . . وبُرْجان ، وبَذَخْشَان . وهو الصواب .

(٤) لم نعثر على بلدة بهذا الاسم ولعلها محرفة عن "وخش" وهى كما فى معجم ياقوت : بلدة من نواحى بلخ . وفى "تقويم البلدان" : انها بلدة بما وراء النهر فى الاقليم الرابع .

(٥) أى حلوان العراق ، لا حلوان مصر .

وزعم بطليموس أن فيه مائة وثلاثين مدينة . وأهله بين السمرة والبياض .

٥ – وأما الإقليم الخامس . فبدؤه من أرض الترك المشرفين على يأجوج ومأجوج إلى كاشغر، وبلاساغون، وفرغانة، وإسبيجاب[1]، والشاش، وأشروسنة، وسمرقند، وبخارى،وخوارزم،وبحر الخزر إلى باب الأبواب،وبرذعة،وميافارقين، ودروب الروم، وبلادهم. ثم يمر على رومية الكبرى، وأرض الجلالقة[2]،وبلاد الأندلس؛ وينتهى إلى البحر المحيط. وعرضه من غاية الإقليم الرابع إلى تمام ثلاث وأربعين درجة وثمانى عشرة دقيقة .

وذكر بطليموس أن فيه سبعا وتسعين مدينة . وأكثر أهله بيض .

٦ – وأما الإقليم السادس . فبدؤه من مساكن ترك المشرق،وهم الخرخيز، والكيماك،والتغزغز، ثم على بلاد الخزر من شمال تخومها، واللان،والسرير، وأرض برجان، ثم على قسطنطينية، وأفرنجة[3]،وشمال الأندلس؛ وينتهى إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الإقليم الخامس إلى تمام سبع وأربعين درجة وخمس عشرة دقيقة .

وزعم بطلميوس أن فيه ثلاثا وثلاثين مدينة،وهو كثير الإمداد والثلوج . وأهله بيض الأبدان، شقر الشعور .

٧ – وأما الإقليم السابع . فليس فيه كبير عمارة،وإنما هو فى المشرق غياض وجبال يأوى إليها طوائف من الترك كالمتوحشين . ويمر على بلاد البجناك،ثم على بلاد البلغار، ثم على الروس والصقالبة، وينتهى إلى البحر المحيط . وعرضه من غاية

---

(١) هى المشهورة أيضا باسم : إسفيجاب .

(٢) أهل جليقية بشمال الأندلس .

(٣) أى فرنسا .

الإقليم السادس إلىٰ تتمة خمسين درجة ونصف . وفيه الأرض المحفورة، وهى وَهْدة لا يقدر أحد أن ينزل إليها، ولا أن يصعد منها من هو فيها لبعد قعرها . يسكنها أُمّة من الناس لا يُدرىٰ مَن هم . وإنما علم أنها معمورة برؤية الدخان فيها نهارا، والنار ليلا . يشقها نهر يجرى، والعمارة محيطة به .

٥ وزعم بطليموس أن فيها ثلاثا وعشرين مدينة . وأهل هذا الإقليم بيض صهب الشعور .

وما بقى من المعمور إلىٰ نهايته إلىٰ ثلاث وستين درجة مضاف إلىٰ هذا الإقليم ومحسوب فيه . يسكنه طوائف من الناس، هم بالبهائم فى الخَلْق والخُلُق أشبه منهم ببنى آدم .

---

١٠ ٢ — ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الأرض

يقال :

أحملُ من الأرض . أكتَمُ من الأرض . أصبر من الأرض . آمن من الأرض . أوثق من الأرض . أوطأ من الأرض . أحفظ من الأرض . أكثر من الرمل . أظلم من الرمل . أعطش من الرمل . أوجد من التراب .

١٥ ويقال :

قتل أرضا عالِمُها، وقتلت أرضٌ جاهلَها . رماه بين سَمْع الأرض وبَصَرها . أخذت الأرض زخارفها . أَفِقْ قبل أن يُحفَر ثَرَاك . ابتغوا الرزق فى خَبَايَا الأرض .

ومن أنصاف الأبيات[١] :

* الأرضُ من تُربةٍ والناسُ من رجُلِ * * وأنّى تُمْطِـرُ الأرضُ السماءَ *

ومن الأبيات :

والأرضُ لا تُطعِمُ مَنْ فوقَها * إلا لِكَيْ تُطْعَمَ مَنْ تُطْعِمُهْ

وقال آخر :

إذا الأرضُ أدّتْ رَيْعَ ما أنتَ زارِعٌ * من البَذْرِ، فهى الأرضُ، ناهيكَ من أرضِ!

وقال آخر :

ولا تَمْشِ فوقَ الأرضِ إلا تَوَاضُعًا، * فكَمْ تحتَهَا قومٌ هُمُو منكَ أرْفَعُ!

وقال آخر :

يا أرضُ كَمْ وافِدٍ أتاكِ فلَمْ * يَرْجِعْ إلى أهلِهِ ولم يؤُبِ!

٣ — ذكر شيء مما قيل في وصف الأرض وتشبيهها

قال الأخطل :

وتَيْهاءَ مِحْلالٍ كأنَّ نَعَامَها * بأرجائها القُصْوى أباعِرُ هُمَّلُ.

تَرى لامِعَاتِ الآلِ فيها كأنَّها * رجالٌ تَعَرَّى تارةً وتَسَرْبَلُ.

وجَوْزَ فَلاةٍ لا يُغَمِّضُ رَكْبُها * ولا عينُ هاديها من الخوفِ تَغْفُلُ.

وكلِّ بعيدِ الغَوْرِ لا يُهتدَى لَهُ * بعِرْفانِ أعلامٍ ولا فيه مَنْهَلُ.

مَلاعبِ جِنّانٍ كأنَّ تُرابَها * إذا اطَّرَدَتْ فيها الرِّياحُ تُغَرْبَلُ.

تَرى الثعلبَ الحَوْليَّ فيها كأنَّهُ * إذا ما عَلا نَشْزًا حِصَانٌ مُجَلَّلُ.

وقال ذو الرمة :

ودَوِّيَّةٍ جَرْداءَ جَدّاءَ خَيَّمتْ * بها هَبَواتُ الصَّيفِ من كلِّ جانبِ.

سَباريتَ يَخْلُو سَمْعُ مُجتازِها بِهَا * من الصَّوتِ، إلا من صياحِ الثَّعالبِ.

وقال ذو الرمّة :

وهاجرةِ السَّرابِ من المَوَامِى * تَرَقَّصُ فى عَسَاقلها الأُرُومُ.
تموتُ قَطَا الفَـلَاةِ بِهَا أُوَامًا * ويَهْلِكُ فى جَوَانِبها النَّسِيمُ.
مَلِلْتُ بهـا المُقَـامَ فأَرَّقَتْنِى * هُمُـومٌ لا تَنَـامُ ولا تُنِيمُ.

٥ وقال ضابئ البرجمىّ :

ودَاوِيَّةٍ تِيــهٍ يَحَـارُ بِهـا القَطَـا * عَلَىٰ مَنْ عَلاهَا مِنْ ضَلُولٍ ومُهْتَدِى.
مُسَافِهَـــةٍ لِلْعِيسِ نَاءٍ نِيَـاطُهَا، * إذا سَارَ فِيها رَاكِـبٌ، لَمْ يُغَرِّدِ.

وقال مسلم بن الوليد :

وقَاطِعَةٍ رِجْلَ السَّبِيلِ مَخُوفَةٍ * كأنَّ علىٰ أرجائها حَدَّ مِبْرَدِ.
١٠ مُؤَزَّرَةٍ بالآلِ فيها كأَنَّها * رِجالٌ قُعُودٌ فى مُلَاءٍ مُعَمَّدِ.

وقال الصاحب بن عباد :

وتَيْهَـاءَ لم تُطْمَثْ بخُفٍّ وحَافِـرٍ * ولم يَدْرِ فِيهَا النَّجْمُ كيفَ يَغُــورُ.
مَعَالِمُهَــا أَنْ لَا مَعَالِمَ بينهَـا، * وآياتُهَـا أَنَّ المَسِـيرَ غُرُورُ.
ولو قيلَ للغيثِ، ٱسقِهَا: ماٱهتدَىٰ لها * ولو ظَلَّ مِلْءَ الأرضِ وهو جَزُورُ.
١٥ تَجَشَّمْتُهَا، واللَّيْـلُ وَحْفٌ جَنَاحُه * كأَنِّىَ سِرٌّ والظَّـلامُ ضَمِـيرُ.

وقال الشريف الرضى :

وتَنُــوفَةٍ حَصْبَـاؤُهـا * خُلِقَتْ لنارِ القَيْظِ جَمْـرَا.
تُبْــدِى جَنَـادِبُهـا الأنِـينَ أَسًى علىٰ المُجْتَـازِ ظُهْرَا.
وترىٰ بها العُصْـفُور مُتَّـ * ـخِذًا وِجَارَ الضَّبِّ وَكْرَا.

وقال المتنبي :

مَهَالِكُ لم يَصْحَبْ بِهَا الذِّئْبُ نَفْسَه * ولا حَمَلَتْ فِيها الغُرَابَ قَوادِمُــهْ.

وقال ابراهيم بن خفاجة الاندلسى :

ومفــازةٍ لا نَجْـــمَ فى ظَلْمــائها * يَسْرى ولا فَلَكٌ بِهــا دَوّارُ.

تَتَلَهَّب الشِّــعْرىٰ بِهـا فكأنَّهـا * فى كَفِّ زِنْجِىِّ الدُّجىٰ دينـارُ. ٥

تُرْمَى بهـا الغيطانُ فيها والرُّبىٰ * آلٌ كما يَتَمَــوَّجُ التَّيَّــارُ.

والقُطْبُ مُلْــتَزِمٌ لمــركَزِه بِهَـا * فكأنَّه فى سَاجِــهِ مِسْمَار.

قد لَفَّنى فيهـا الظَّلامُ وطَافَ بِى * ذِئْبٌ يُــلِمُّ مع الدُّجىٰ زَوَّارُ.

طَرَّاقُ سَــاحَاتِ الدِّيَارِ مُغَـاوِرٌ * خَبِثٌ لأبنـاء السُّرىٰ غَــدَّارُ.

يَسْرى ،وقدفَضَحَالدّجىٰوجْهُالضِّيا ، * فى فَرْوةٍ قَــدْ مَسَّها اقْشِـعْرار. ١٠

فَعَشَوْت فى ظَلْمــاءَ لم يُقْدَحْ بها * إلا لمُقْلتِــــــه ، وبأسِى نارُ.

ورَفَلْتُ فى خِلَعٍ عَلَىَّ منَ الدُّجىٰ * عُقِــدَتْ بهـا من أَنْجُمٍ أزْرَارُ.

واللَّيْــلُ يَقْصِر خَطْوَه ، ولَرُبَّمَـا * طالَتْ لَيالِى الرَّكْبِ وهى قِصَارُ.

وقال آخر :

ومَجْهولةِ الأَعْلَامِ طامسـةِ الصُّوىٰ * إذاعَسَفَتْهاالعِيسُ بالرَّكْبِ،ضَلَّتِ. ١٥

إذا ما تَهَادىٰ الرَّكْبُ فى فَلَوَاتِها ، * أجابَتْ نِداءَ الرَّكْبِ فيها فأصْدَ تِ.

وقال مسعود، أخو ذى الرمّة يصف بُعْدَ فلاة :

ومَهْمَهٍ فيهـا السَّرَابُ يَلْمَــحُ * يَدْأَبُ فيهـا القَوْمُ حتّى يَطْلَحُوا. (٧٩)

ثُمَّ يَظَــلُّون كأنْ لم يَبْرَحُوا * كأنَّمـا أمْسَوْا بحيثُ أصْبَحُوا.

وقال مسلم :

تجرى الرِّيَاحُ بهـا مَرْضىٰ مُوَلَّهَةً * حَسْرىٰ تَلُوذُ بأطراف الجلاميد.

وقال آخر :

ودَوِّيَّةٍ مِثْـلِ السَّماءِ قَطَعْتُها * مُطَـوَّقَةٍ آفاقُها بسَمائهـا.

وقال بعض الاعراب في الآل[1] :

كَفَى حَزَنًا أَنِّي تَطَاَلَلْتُ كَيْ أَرىٰ * ذُرىٰ عَلَمَىْ دَمْخٍ فَمَا يُرَيَانِ!

كأنَّهما، والآلُ يَنجابُ عنهما، * من البُعْـدِ عَيْنَا بُرْقُعٍ خَلَقَـانِ.

قال أبو هلال : وهذا من أغرب ماروى من تشبيهات القدماء .

وقال آخر :

والآلُ تَنْزُو بالصُّـوىٰ أمواجُه * نَزْوَالقَطَا الكُدْرِيِّ فى الأشْرَاكِ.

والظِّـلُّ مَقْرُونٌ بِكُلِّ مَطِيَّـةٍ * مَشْيَ المِهَارِ الدُّهْمِ بين رِمَاكِ.

وقال ابن المعتز :

وما راعَنِي بالبَيْنِ إلا ظَعَـائِنٌ * دَعَوْنَ بُكائِي،فاستجابَ سَوَاكِبُه.

بَدَتْ فى بياض الآلِ والبُعْدُ دُونَهُ * كأسْطُرِ رَقٍّ أمْرَضَ الخطَّ كاتبُه.

---

(١) هو طهمان بن عمرو الدارمى ، كما فى ياقوت . وأورد القصيدة بتمامها ، وهى ١٥ بيتا . (معجم البلدان ، مادة دمخ) .

الباب الخامس

من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ — فى الجبـال

قال الله تعالىٰ : " وأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ " .

قال المفسرون : خلق الله عز وجل الأرض علىٰ المـاء فمـادت وتكفّأت، كما تتكفّأ السفينة، فأثبتها بالجبال . ولولا ذلك ما أقرت عليها خلقا . ٥

و روىٰ أبوحاتم فى كتاب العظمة، أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن الله تعالىٰ لـما خلق الأرض، جعلَتْ تميد. فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت . فعجبت الملائكة من خلق الجبال، وقالت : يارب هل خلقت خلقا أشدّ من الجبال؟ قال : الحديد، قالت : فهل من خلق أشـدّ من الحديد؟ قال : النار، قالت : فهل من خلق أشدّ من النار؟ قال : المـاء، قالت : فهل من خلق أشدّ من المـاء؟ قال : الريح، قالت : فهل من خلق أشـدّ من الريح؟ قال : آبن آدم، يتصدّق بيمينه فيخفيها عن شماله" . ١٠

وعن آبن عبـاس (رضى الله عنهـما) أنه قال : " كان العرش علىٰ المـاء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض . فبعث الله ريحا فعصفت المـاء فأبرز عن حشفة فى موضع البيت . فدحا الأرض من تحتها فمادت فأوتدها بالجبال" . ١٥

فكان أوّل جبل وُضِعَ، جبلُ أبى قُبَيْس . وهو الجبل المطلّ علىٰ الكعبة .

وفى كنيته بأبى قبيس قولان :

أحدهمـا — أن آدم كناه بذلك حين آقتبس منـه النـار التى بين أيدى الناس (وقد تقدّم بيان ذلك فى الباب الرابع من القسم الثانى من هذا الفنّ فى ذكر النّيران) . ٢٠

الثـانى — أنه أضيف إلىٰ رجل من جُرْهُم كان يتعبد فيه، اسمه أبو قبيس . ويقال فيه أبو قابوس، وشيخ الجبال . وكان من قبل يسمّى بالأمين .

وقال محمد بن السائب الكلبىّ : "إن الله عز وجل لمـا خلق الأرض، مادت بأهلها . فضربها بجبل السَّراة فاطمأنت" .

٥ وهو أعظم جبال العرب وأكثرها خيرا، ويسمّى الحجـاز . وهو الذى حجز بين تهامة ونجد . فتهامة من جهته الغربية ممـا يلى البحر، ونجد من جهتـه الشرقية . وهو آخذ من قعر عدن إلىٰ أطرار الشأم[1] . ويسمّى هناك جبل لُبْنان . فإذا تجاوز اللاذقية ومرّ بالثغور، سُمِّىَ جبل اللُّكَّام . ثم يمتدّ فى بلاد الروم إلىٰ بلاد أرمينية، فيسمّى هناك حارثا وحويرثا . ثم يمتدّ إلىٰ بحر الخزر، وفيه "الباب والأبواب" .

١٠ وقال بعض المفسرين فى قوله تعالىٰ : "قۤ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ" إنه جبل محيط بالعالَم من زمرّدة خضراء، وإن جبال الدّنيا متفرّعة عنه .

وقال قوم : إن السماء مطبقة عليه والشمس تغرب فيه، وهو الحجاب الساتر لهـا عن أعين الناس، فى أحد الوجوه المفسَّر بها قوله تعالىٰ: "حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ".

وقال قوم : إنـ منه إلىٰ السماء مقدار ميل، وإن الذى يُرىٰ من خضرة السماء ١٥ مكتسب من لونه .

وقال ابن حوقل : جميع الجبال الموجودة فى الدّنيـا متفرّعه عن الجبل الخارج من بلاد الصين، مشرقا ذاهبا علىٰ خط مستقيم إلىٰ بلاد السودان مغرّبا .

(١) فى الاصـل أطبران، وهو تحريف . والتصحيح عن البكرى : أطرار الشام وفيه فى موضع آخر "أطراف بوادى الشام" ومثل هـذا فى ياقوت . وأطرار الوادى نواحيه وكذلك أطرار البلاد ٢٠ والطريق واحدها طر . وأطرار البلاد أطرافها . (عن تاج العروس) .

(٨٠) وقال أبو الفـرج قُدامة بن جعفر فى "كتاب الخَرَاج" : وجدت خلف خط الاستواء فى الجنوب وقبل الإقليم الأول جبالا تسعة : خمسةٌ منها متقاربة المقادير، أطوالهـا ما بين أربعمائة ميل إلىٰ خمسمائة ميل؛ وجبلا طوله سبُعمائة ميل؛ وجبل القَمَر، وطوله ألف ميل؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضـه فى الإقليم الأول؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه فى الإقليم الثانى . ٥

قال : ومجموع ما عُرف فى الأقاليم السبعة من الجبال مائةٌ وثمانيةٌ وتسعون جبلا . منها فى الإقليم الأول سـبعةَ عشرَ جبلا، وفى الإقليم الثانى تسـعةٌ وعشرون جبلا، وفى الإقليم الثالث أحدٌ وثلاثون جبلا، وفى الإقليم الرابع أربعـةٌ وعشرون جبلا، وفى الإقليم الخامس تسعة وعشرون جبلا، وفى الإقليم السادس أربعة وعشرون جبلا، وفى الإقليم السابع أربعة وأربعون جبلا . ١٠

٢ — ذكر أسماء ما ٱرتفع من الأرض إلىٰ أن يبلُغ الجبيل

ثم ما ٱرتفع عن ذلك إلىٰ أن يبلغ الجبل العظيم، وترتيب ذلك

قال الثعالبى فى كتابه المترجم "بفقه اللغة" وأسنده إلىٰ أئمتها :

أصغرُ ما ٱرتَفَع من الأرض النَّبَكة، ثم الرابِيَـة أعلىٰ منها، ثم الأَكَمة، ثم الزُّبْية، ثم النَّجْوة، ثم الرَّبعُ، ثم القُفّ، ثم الهَضْبة (وهى الجبـل المنبسط علىٰ الأرض)؛ ١٥ ثم القَرْن (وهو الجبل الصغير)، ثم الدَّكُّ[1] (وهو الجبل الذليل)، ثم الضِّلَع (وهو الجبل الذى ليس بالطويل)، ثم النِّيقُ (وهو الجبل الطويل)، ثم الطَّوْد، ثم الباذِخُ والشّامِخُ، ثم الشّاهق، ثم المُشْمَخِرّ، ثم الأَقْودُ والأَخْشَب، ثم الأَيْهَم، ثم القَهْب (وهو العظيم)، ثم الخُشَام .

(١) فى الأصل : الجبل الدكيك . وقد ٱعتمدنا ما فى القاموس وفقه اللغة أيضا . ٢٠

٣ — ذكر ترتيب أبعاض الجبل

قال الثعالبى :

أوّل الجَبَل الحَضِيض، وهو القَرَار من الأرض عند أصْل الجبل .

ثم السَّفْح، وهو ذيله .

ثم السَّنَد، وهو المرتفع فى أصله .

ثم الكِيحُ، وهو عَرْضه .

ثم الحُضْن، وهو ما أطاف به .

ثم الرَّيْد، وهو ناحيته المشرفة على الهواء .

ثم العُرْعُرَة، وهى غلظه ومعظمه .

ثم الخَيْد، وهو جَنَاحه .

ثم الرَّعْن، وهو أنفه .

ثم الشَّعَفة، وهى رأسه .

وقال صاحب كتاب "الفاخر" : يقال من أسمـاء الجبال : العظيم منها الطَّور، والطَّوْد، والكَفِرُ، والقَهْب، والعَمُود، والعَلَم، والأرْعَن[(١)]، والمُشْمَخِرّ .

والأَيْهم الطويل، وهو الشامِخُ، والشاهِقُ، والباذِخُ، والباسِقُ، والأَقْوَدُ .

والأَخْشَب، الخَشِن .

والعِقَابُ، الصِّعاب .

والثَّنَايَا، التى ليست بصَعْبة .

---

(١) كذا بالأصل . والذى فى القاموس واللسان والمخصص (الرَّعْن أنف الجبل المتقدّم أو الجبل الطويل) فما هنا من تحريف النساخ .

والهِرْشَمّ، النّخِر .

والحُشَام، جبل طويل ذو أنْف .

والوَزَر، والمَلْجأ، والقَلْعة، ما يُحَصّن فيه .

والقَرْن، جبل صغير .

والضِّلَعُ والدَّكُّ، فيه دِقّة وٱنحناء .

والنِّيق، الذى لا يُستطاع أن يُرْتَقىٰ إليه .

وأعلىٰ الجبل قُلّته وقُنّته وذُؤابتُه .

وعُرْعُرَتُه، غِلَظه .

والفِنْد، القِطْعة منه .

وشَعَفُه ومَصَادُه، أعلاه .

والكِيحُ والْكَاح، عُرْضه .

والرُّخُّ(١)، ناحيته المُشْرِفة علىٰ الهواء .

والحَضِيض، أسفله .

قال : وصغار الجبال، اليَفَع، والضِّرْس، والضَّرب والعنتيبة(٢)، والعُنْتُوتُ، والأَكَمة، والهَضْبة .

والذَّرِيحة، ما ٱنبسَط علىٰ وجه الأرض .

واللَّوْذ، حِضْن الجبل وما يُطِيف به .

---

(١) فى الأصل : الوخ بالواو . وهو تصحيف من الناسخ . وقد صححناه ٱعتمادا علىٰ ما فى القاموس والمخصص .

(٢) كذا بالأصل ولم نعثر عليها فى القاموس واللسان والمخصص .

والرِّيد والرُّيود، نَوَاحيه المحدّدة .

والحَيْدُ، شاخصٌ يتقدّم كالجَنَاح . ومثله الشُّنْعُوف .

والصَّدْع والشَّقْب، شَقٌّ فيه .

والغارُ والكَهْف، مثل البُيُوت فيه .

٥ والقُرْدُوعة، الزاوية فيه .

واللِّهْب والنَّفْنَف والغارُ، مَهْوَاة بين جبلين .

والشُّؤون، خُطُوط فيه .

والمَخْرِم، مُنقَطَع أنفه .

والقُرْناس، شِبْه الأنف .

١٠ والإِرَم، العَلَم فيه .

٤ — ذكر ترتيب مقادير الحجارة

قال الثعالبي :

إذا كانت صغيرة، فهي حَصَاة .

فإذا كانتْ مثل الجَوْزة وصلحت للاستنجاء بها، فهي نَبَلة . وفي الحديث :

١٥ "اتَّقُوا المَلاَعِنَ وأَعِدّوا النُّبَل" . يعني عند إتيان الغائط .

فإذا كانت أعظم من الجَوْزة، فهي قُنْزُعَة .

فإذا كانت أعظم منها وصَلَحت للقَذْف، فهي مِقْذاف ورُجْمَة ومِرْداة . ويقال : إن المِرْداة، حَجَر الضبِّ الذي ينصبه علامة لجحره .

فإذا كانت مِلءَ الكفِّ، فهي يَهْيَرٌ .

فإذا كانت أعظم منها، فهى: فِهْر، ثم جَنْدل، ثم جَلْمَد، ثم صَخْرة، ثم قَلَعة . وهى التى تنقلِع من عُرْض الجبل. وبها سميت القَلَعة التى هى الحِصْن .

وقال صاحب كتاب "الفاخر" : من أسمائها ، الحِجَارة ، والجُلْمود والجَلْمَد الحجر الصُّلب .

والبِرْطِيلُ ، الصَّخْرة العظيمة .

والصَّفْوانُ ، الأملسُ .

والرُّضْمة ، الحجر العظيم .

والأُثَان ، صخرة فى مَسِيل ماء أو حافة نهر .

والإزَاء ، التى عند مهراق الدلو .

والرُّجمة ، ما تطوى به البئر .

والكَذَّانُ ، الرِّخْو .

والبَرْمَع ، الأبيضُ الرِّخو .

والمُدُقّ والمَدَاك والصَّلاَيَة ، حجر العطار الذى يسحق عليه العِطر .

والفِهْر ، ما يملأ الكَفّ ويُسْحَق به العِطْر .

والمِرْداة ، ما يكسر به الحجر .

والمِرْداس ، ما يُرْمىٰ به فى البئر لينظر أفيها ماء أم لا . قال الشاعر :

مَنْ جَعَل العِدّ القَديمَ الّذِى * أنت له عِـدّةُ أحراسِ

إلىٰ ظَنُونٍ أنتَ من مائِهِ * منتَظِرٌ رَجْعـةَ مِرْداسِ

والنَّشَف ، حجر تُدْلَك به الرِّجْل فى الحَمّام .

والنَّقَلُ ، ما كان فى طرق الجبال .

والأُثْفِيَّة ، ما يُنْصَب عليه القدر .

والقُلَاعة ، ما يُرمىٰ به فى المِقْلاع .

والظُّرَّان ، حِجارة محدّدة يذبَحُ بها .

والصَّفيح ، مارَقّ منه وعَرُض .

واللِّخاف ، حِجارة عِرَاض .

والفَلَك ، قِطْعة مستديرة وترتفع عما حولها .

والمُدَمْلَك ، المدوّر .

والكَليت ، حَجَر مستدير يسدّ به وِجَار الضَّبُع .

والبِلِّيت[1] ، التام .

وقال ابن الأعرابى : القَبِيلة ، صخرة على رأس البئر ، والعُقَابان من جنبتيها يعضدانها .

ومنها المَرْو ، وهى البيض كالحصىٰ .

والحَصْباء ، الصغار .

والرَّضْراض ، نحوها .

والقَضِيض ، أصغر منها .

والزَّنَانير ، واحدها زُنَّيْر ، أصغر ما يكون .

---

(١) كذا بالأصل وعبارة القاموس (والبليت كسِكِّيت لفظا ومعنى) واللسان (والبِلِّيت الرجل الزِّمِّيت) وهو الحليم الساكن القليل الكلام .

٥ — ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر الجبال والحجارة

ما جاء من ذلك على لفظ أفعل . يقال :

أثقلُ من ثَهْلانَ . أثقل من نَضادِ . أثقلُ من أُحُد . أصلَبُ من الحَجَر . أصلب من الجَنْدل . أقسى من الحجر . أصبَرُ من حجر . أيْبَسُ من صَخْر . أبقى من النقش في الحجر .

ويقال :

رُمِي فلان بحجره . رُدَّ الحجرَ من حيثُ جاءك . وَجِّهِ الحجرَ وِجْهةً مّا ، أى دَبِّر الأمر على وَجْهه . ألقمْه الحجر ، أى جاوِبْه بجوابٍ مُسْكِت . رماه بثالثة الأثافي . أنجدَ مَن رأى حَضَنا (وحَضَنٌ جبل بنجد) أى من رآه لم يحتج أن يسأل هل بلغ نجدا أم لا . الليل يُوارِى حَضَنا ، أى يُخفِي كل شىء حتى الجبل . ١٠

ومن أنصاف الأبيات :

* كأنّه عَلَمٌ فى رأسه نارُ *   * إذا قطَعْنا عَلَما بَدا عَلَمْ *

* قُومُوا انْظُروا كَيْفَ تَزُول الجِبالْ *

(يضرب لموت الرؤساء) .

* جَنْـدلتانِ اصْطَكّتا اصْطِكاكا * ١٥

(يضرب لقرنين يتصاولان) .

ومن الأبيات :

ولو بغَى جَبَلٌ يوما على جَبَلٍ * لاَنْهَدَّ منه أعاليه وأسْفَلُهُ !

تَتَناثَرُ الأطْوادُ وهى شَوامِخٌ * حتَّى تَصيرَ مَداوِسَ الأقْدامِ .

جُدْ فَقَدْ تَنْفَجِرُ الصَّخْـ * ـرةُ بالماءِ الزُّلالِ . ٢٠

٦ — ذكر شيء مما قيل في وصف الجبال وتشبيهها

قال السموءل بن عاديا :

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّه مَنْ نُجِيرُه * مَنِيعٌ يَرُدّ الطَّرْفَ وهْوَ كَلِيلُ!
رَسَا أَصْلُه تحت الثَّرىٰ وَسَمَا بِهِ * إلىٰ النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُرامُ طَوِيلُ!

٥ وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسيّ :

وأَرْعَنَ طَمَّاحِ الذُّؤابة باذخٍ * يطاوِل أعنانَ السَّماء بغارب.
يَصُدُّ مَهَبَّ الرِّيح من كُلّ وجْهةٍ * ويَزْحَمُ لَيْلا شُهْبَهُ بالمَناكب.
وَقُورٍ علىٰ ظهر الفَلاَة كأنَّه * طِوَالَ اللّيالي ناظِرٌ في العَوَاقِب.
يَلُوثُ عليه الغَيْمُ سُودَ عَمَائمٍ * لَهَا مِنْ وَمِيضِ البَرْقِ حُمْرُ ذَوائِب.
١٠ أَصَخْتُ إليه وهْوَ أَخْرَسُ صامتٌ * فَحَدَّثَنِي لَيْلَ السُّرىٰ بالعَجائب.
وقال : أَلَا كَمْ كُنْتُ مَلْجأَ فاتِكٍ * ومَوْطِنَ أَوّاهٍ ومَوْئِلَ تائِب!
وكَمْ مَرّ بِي مِنْ مُدْلِجٍ ومُؤَوِّبٍ * وقالَ بِسَفْحِي مِنْ مَطِيٍّ وراكِب!
ولاطَمَ مِنْ نُكْبِ الرِّياحِ مَعَاطِفِي * وزاحَمَ من خُضْرِ البِحارِ جَوَانِبِي!
فَمَا كانَ إلّا أَنْ طَوَتْهُم يَدُ الرَّدىٰ * فطارَتْ بهم رِيحُ النّوىٰ والنَّوائِب.
١٥ وما غَيْضُ السُّلْوانُ دَمْعِي وإنّما * نَزَفْتُ دُمُوعِي من فِراقِ الأَصاحِب.
وأَسْمَعَنِي من وَعْظِهِ كُلَّ عِبْرةٍ * يُتَرْجِمُها عنه لِسانُ التَّجارِب.
فسَلَّى بما أَبْكىٰ، وسَرَّ بما شَجىٰ، * وكانَ علىٰ ليل السُّرىٰ خَيْرَ صاحِب.
وقُلْتُ وقد نَكَّبْتُ عنه مَطِيَّتِي : * سَلَامٌ فإنّا من مُقِيمٍ وذاهِب!

(٨٢) وقال أيضا عفا الله عنه :

وأشرفَ طَمّاح الذُّؤابة شامخ * تَمَنْطَقَ بالجَوْزاء لَيْلاً، له خَصْرُ.

وَقُورٍ على مَرّ اللّيالى كأنّما * يُصيخُ إلى نجوى وفى أُذْنِه وَقْرُ.

تَمَهَّدَ منه كُلُّ رُكْنٍ زَكَا به * فقطّب إطْراقًا وقد ضَحِكَ البَدْرُ.

ولاذَ به نَسْرُ السَّماءِ كأنّما * يُجَرّ إلى وَكْرٍ به ذلك النَّسْرُ.

فلم أدرِ من صَمْتٍ له وسَكِينةٍ * أَكَبْرَةُ سِنٍّ وَقَّرتْ منه أم كِبْرُ.

وقال أيضا يصفه نثرا من رسالة كتبها إلى بعض الرؤساء :

وكيف لى بقُرْبك ودونك كل عَلَم باذخ، يَجُّ الليلُ عليه رُضابَه، وصافحت النجومُ هِضابه، قد ناء بطَرْفه، وشمخ بأنفه، وسال الوَقار على عِطْفه، قد لاثَ من غَمامه عِمامه، وأرسل من رَبابه ذُؤابه، تُطرِّزها البُروق الخواطف، وتهفو بها الرياح العواصف، بحيث مدّه البسيطُ بِساطا، وضُربت السماء فُسْطاطا .

الباب السادس

من القسم الرابع من الفن الأوّل

١ — فى ذكر البحار والجزائر

روى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنه قال: "لما أراد الله عز وجل أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء ووصف من طولها وعرضها وسمكها، ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء يترقرق لايثبت فى ضحضاح . فما يرى من التموّج والاضطراب إنما هو ارتعاده من خشية الله تعالى؛ ثم خلق الريح فوضع الماء على متنه؛ ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء". وفسر بهذا قوله عز وجل: "وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ".

٢ — ذكر بحار المعمور من الأرض

وبحار المعمور ثلاثة: أعظمها البحر المحيط، ثم بحر ما نيطش[1]، ثم بحر الخزر.

فأما البحر المحيط وجزائره، ويسمّى باليونانية أوقيانوس، ويسمّى بحر الظلمات، سمّى بذلك لأن ما يتصاعد من البخار عنه لا تحلله الشمس لأنها لا تطلع عليه. فيغلظ ويتكاثف فلا يدرك البصر هيئته. ولعظم أمواجه، وتكاثف ظلمته، وغلظ مائه، وكثرة أهوائه، لم يَعلَم العالَمُ من حاله إلا بعض سواحله وجزائره القريبة من المعمور. والذى عُلم به من الجزائر ستةٌ من جهة المغرب، تسمّى جزائر السعادات، والجزائر الخالدات.

قال أبو عبيد البكرىّ فى كتابه المترجم "بالمسالك والممالك": وبإزاء طنجة الجزائر المسماة باليونانية، فُرطناتُس أى السعيدة. وسميت بذلك لأن فى شَعْرائها[2] وغياضها كلّها أصنافَ الفواكه الطيبة من غير غراسة ولا فلاحة، وأن أرضها تحمل الزرع مكان العشب، وأصناف الرياض بدل الشوك. وهى متفرقة متقاربة.

ويقال إن بعض المراكب عصفت عليها الريح فألقتها إلى جزيرة من هذه الجزائر، فنزل مَنْ فيها من الركاب إليها، فوجدوا فيها من أنواع أشجار الفواكه وأشجار الأفاويه وأنواع اليواقيت كل مستحسن. فحملوا منه ما أطاقوا ودخلوا به بلاد الأندلس. فسألهم ملكها من أين لهم هذا. فأخبروه بأمرهم، فجهز مراكب وسيرها، فلم يقفوا على جزيرة منها. وعدمت المراكب لعظم البحر وشدّة عصف الريح فلم يرجع منها شىء.

---

(١) كذا فى الأصل، وفى كثير من كتب الجغرافية العربية: وهو المعروف فى كتب الجغرافية العربية مثل أبى الفدا بحر أزَق، وعند الأتراك بحر آزوف.

(٢) الشعراء: الأرض ذات الشجر.

ويقال إن هذه الجزائر مسكونة بقوم هم بالوحوش أشبه منهم بالنـاس. وبينها وبين ساحل البحر عشرة أجزاء .

ويقال إن فى جهة المشرق ممـا يلى بلاد الصين ستة جزائر أخرى، تسمّى جزائر السيلى. يقال إن ساكنيها قوم من العلويين، وقعوا إليها لمـا هربوا من بنى أمية.

ويقال إن جزائر السيلى لم يدخلها أحد من الغرباء وطاوعته نفسه على الخروج منها لصحة هوائها ورقة مائها، وإن كان منها فى عيش قشيف .

وفى هذا البحر من الجزائر العامرة جزيرة برطانية، وهى تحاذى جزيرة الأندلس، وأهلها صُهْب الشعور، زُرْق العيون .

ومما يلى بلاد إفرانسية جزائر يغْمُرها خلق من الفرنج ، لا ينقادون لبلد ، ولا يدينون بدين .

وفيما يلى الأرض الكبيرة جزيرة ذات أبرجة، يحيط بها سبعمائة ميل وخمسون ميلا، وفيها أربع مدائن، فى كل مدينة ملك .

وجزيرة برفاغة . يحيط بها أربعة آلاف ميل، وفيهـا ثلاث مدائن عامرة . والداخل إليها قليل . وهى كثيرة الأنواء والأمطار . وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة طلوع الشمس عنـدهم ، ويجعلونه فى بيت ويوقدون النار حوله حتّى يجف .

وجزيرة أنقلطرة . فيها مدائن عامرة، وجبال شاهقة، وأودية، وأرض سهلة. والشتاء بها دائم . وبين هذه الجزيرة والبر مجاز سعته آثنا عشر ميلا .

وفيه مما يلى الصقالبة جزيرتان : إحداهما جزيرة أمرنانيوس النساء، لايسكنها غير النساء فقط . وتسمَّى الأخرىٰ أمرنانيوس الرجال، لايسكنها غير الرجال. وهم فى كل عام يجتمعون زمان الربيع، ويتناكحون نحوا من شهر ثم يفترقون .

ويقال إن هاتين الجزيرتين لا يكاد يقع طرف أحد عليهما لكثرة الغمام ، وظلمة البحر، وعظم الأمواج . ٥

---

٣ — ذكر ما يتفرّع من البحر المحيط

يتفرّع من البحر المحيط خليجان : أحدهما من جهة المغرب، ويسمى البحر الرومىّ . والآخر من جهة المشرق، ويسمَّى البحر الصينىّ، والهندىّ، والفارسىّ، واليمنىّ، والحبشىّ، بحسب ما يمرّ عليه من البلاد .

١٠ وهما المرادان بقوله تعالى : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ . أى لايبغى هذا علىٰ هذا .

والبرزخ أرض بين الفَرَما التى هى علىٰ بحر الروم، وبين مدينة القُلْزُم التى هى علىٰ بحر الحبش[(١)]، مسافتها ثلاثة أيام. وقيل : البرزخ إرسال ماء البحر الحلو علىٰ ماء البحر الملح، لأنه مَغِيض له . فلا سبيل لأحدهما علىٰ الآخر، بل جعل الله بينهما حاجزا ١٥ وهو البرزخ .

فأما البحر الرومىّ وجزائره، فإن المؤرّخين قالوا إن الإسكندر حفره وأجراه من البحر المحيط . ويقولون إن جزيرة الاندلس وبلاد البربر كانت أرضا واحدة يسكنها الإشبان والبربر. وكان بعضهم يُغير علىٰ بعض، والحرب بينهم سجال . فلما

---

(١) فى الأصل بحر فارس . وكان الأصوب أن يعبر باللفظ الذى اختاره لهذا المقام ، وهو البحر الحبشى

ملك الإسكندر، رغب إليه الإشبان فيما يحول بينهم وبين البربر. فرأى ان يجعل بينهما خليجا من البحر يمكن به آحتراس كل طائفة من الأخرى. فحفر زُقاقا طوله ثمانية عشر ميلا، وعرضه آثنا عشر ميلا. وبنى بجانبيه سكرين[1]، وعقد بينهما قنطرة يجاز عليها، وجعل عليها حرّاسا يمنعون الجواز عليها من جهة البربر إلا بإذن من جعله نائبا عنه فى بلاد الإشبان. وكان قاموس البحر أعلى من أرض الزقاق، فطما وغطّى السِّكْرين والقنطرة، وساق بين يديه بلادا وطغا على أخرى. حتّى إن المسافرين فيه يخبرون أن المراكب فى بعض الأوقات يتوقف سيرها فيه مع وجود الريح. فيسبرون أمرها، فيجدون المانع لها سلوكها بين شرفات السور أو بين حائطين. فعظم طولا وعرضا، وصار بحرا[2].

قال صاحب كتاب "مباهج الفكر ومناهج العبر": وقد زاد عرضه ستة أميال عما كان عليه فى زمن الإسكندر. فصار ثمانية عشر ميلا.

قال: وزعم السالكون فيه أنّ البحر ربما جزر فى بعض الأوقات، فترى القنطرة.

قالوا: وهذا الزقاق صنعب شديد متلاطم الأمواج مهول، شبيه بما جاوره من البحر المحيط.

وأهل الأندلس يقولون إن بين هذا البحر وبين البحر المحيط بحرا يسمونه بحر الأيلاية بتفخيم اللام[3]. وهو بحر عظيم الموج صعب السلوك.

(١) السكر (بكسر السين) هو ما سُدَّ به النهر.

(٢) هو المسمى بحر الزقاق واسمه الآن مجاز جبل طارق.

(٣) لعل المؤلف يشير الى خليج ليون فهو مشهور بشدة التيار وبصعوبة السلوك.

ومبدأ جريه من البحر الرومىّ من الإقليم الرابع . فإذا خرج من الزقاق يمرّ مشرّقا فى جهــة بلاد البربر وشمــال المغرب الأقصىٰ إلىٰ أن يمرّ بالمغرب الأوســط ، إلىٰ إفريقية ، إلىٰ برقة ، إلىٰ الإ[illegible]رية ، إلىٰ شمــال أرض التيه وأرض فِلَسْطِين ، فيمرّ بسواحل الشام إلىٰ أن يصل إلىٰ السويدية التى هى فرضة أنطاكية ، وعنــدها حجز البحر . ومنهــا يعطف فيمرّ علىٰ العلايا وأنطاليــة (وهما فرضتان لبــلاد الروم) ، ثم علىٰ ظهر بلاد قسطنطينية إلىٰ أن ينتهى إلىٰ المكان الذى منــه خرج . وطوله خمسة آلاف ميل ، وقيل ستة آلاف . وعرضه مختلف : ففى موضع ثلثمائة ميل ، وفى موضع ستمائة ميل ، وفى موضع سبعمائة .

ويقال إنــ فيه ما يزيد علىٰ مائة وسبعين جزيرة . كانت عامرة بطوائف من الفرنج ، أخرب المسلمون أكثرها بالمغازى فى صدر الإسلام .

وأجلّ ما ملك المسلمون منها ، ثم ٱنْتُزِع أكثره من أيديهم :

١ — جزيرة الأندلس .

٢ — وجزيرة يابسة . وهى حيال جزيرة الأندلس ، ومسافتها يومان فى يوم ، وفيها مدينة صغيرة مسوّرة .

٣ — وجزيرة منرقة ، ومسافتها يومان فى نصف يوم . وفيها مدينة عامرة .

٤ — وجزيرة ميورقة . ويقال فيها مايورقة . ومسافتها يومان فى يومين ، وبها مدينة .

٥ — وجزيرة رودس[1] . وهى حيال بلاد أفرنجة[1] . ويحيط بها ثلثمائة ميل . وفيها حصنان .

(١) هــذا الوصف لا ينطبق علىٰ جزيرة رودس ، بل علىٰ جزيرة قورسقة التى هى حيال بلاد أفرنجة أى فرنسا ، وهى تابعة لها .

(٨٤) ٦ — وجزيرة سردانية . وطولها مائتان وثمانون ميلا ، وعرضها مائة وثمانون ميلا . وفيها ثلاث مدائن كبار . وسكانها قوم من الفرنج متوحشون . وبها معدن فضة .

٧ — وجزيرة صقلية . وهى حيال إفريقية مضاهية لجزيرة الأندلس . وشكلها مثلث . يحيط بها خمسمائة ميل . كثيرة الجبال ، والحصون ، والأمصار ، والأنهار، والأشجار .

ومما فيها من المدن المشهورة علىٰ ساحل البحر :

بلرمو . وبها يكون الملك ، وكانت قصبة الجزيرة بعد أن فتحها المسلمون ثم آنتقل الناس منها إلىٰ الخالصة . وهى محدثة . بنيت فى أيام القائم آبن المهدى العبيدى فى سنة خمس وعشرين وثلثمائة . ثم صارت بلرمو وبقيت الخالصة ربضا لها ؛

وقطانية . وكانت عظيمة فأحرقها البركان الذى فى الجزيرة . فبنىٰ الأمبرطور مدينة عوضها ، وسماها غشطارة .

ومسينى . وهى علىٰ أحد أركان الجزيرة .

وسرقوسة . وهى علىٰ الركن الآخر، والبحر محيط بها من ثلاث جهاتها .

وطرابنش . وهى علىٰ الركن الثالث، والبحر محيط بها . ولها مجاز .

ومن بلاد هذه الجزيرة البرية : والشاقة ، ومازر، وكركنت ، ونوطس، وطبرمين، وقصريانة ، والنور، ورغوص، وغيطة، وغير ذلك .

وبهذه الجزيرة . (ويقال بجزيرة ملاصقة لها) بركان، وهو أطمة يخرج منها أجسام كأجسام الناس بغير رؤوس من النار، فتعلو فى الهواء ليلا ثم تسقط فى البحر، فتطفو علىٰ وجه الماء . ومنها يكون حجر المرو الذى تحكّ به الأرجل .

٧ — وجزيرة بلونس . ودورها ألف ميل . ولها مجاز إلى البر الطويل ، عرضه ستة أميال . فيها ما يزيد على خمسين مدينة ، القواعد منها خمس عشرة مدينة ، وهي مشهورة عند الفرنج .

٨ — وجزيرة مالطة . وطولها أربعة وعشرون ميلا ، وعرضها آثنا عشر . وفي وسطها مدينة واحدة .

٩ — وجزيرة قوسرة . وفيها مواضع متوحشة .

١٠ — وجزيرة أقريطش . وهي حيال برقة . طولها ثلثمائة ميل ، وعرضها مائة وثلاثون ميلا . وبها مدينتان : إحداهما تسمّى الخندق ، والأخرى تسمّى ربض الجبن . وفيها معدن ذهب .

١١ — وجزيرة قُبْرُس . وهو آسم النحاس ، لأن بها معدن نحاس . يحيط بها ألف ميل وخمسمائة ميل . وفيها من المدن الجليلة : ليمسون ، والباف بباء مفخمة ، والماغوصة . وكلها في البحر . وفي وسط الجزيرة مدينة الأفقسية ، وهي القصبة . وبها يكون متولي الجزيرة .

---

٤ — ويخرج من هذا البحر خليجان

أحدهما يسمى جون البنادقة ، والآخر يسمى خليج القسطنطينية .

١ — فأما خليج البنادقة . فإنه خليج كبير متسع ليس له فُوَّهة . وإنما هو جونٌ له ركنان ، سعة ما بينهما سبعون ميلا . يحيط بهذا الجون مدن جليلة لطائفة من الفرنج تسمى البنادقة . وهي ذوات حصون وقلاع ممتنعة .

ومبدؤه من شرقى بلاد قلورية عند مدينة تسمى أذرنت[١]،ومنتهاه بلاد إيكلاية[٢].
ومن هناك يعطف، وطوله ألف ميل ومائة ميل . وفيه ست جزائر، ثلاثة منها
فى ضفة ، وثلاثة فى أخرى ، بها مدن عامرة . وثلاثة معترضة بين ركنيه مهملة
لا ساكن بها .

٢ — وأما خليج القسطنطينية . ويسمى بحر نيطش فإن فوهته مقابلة ٥
لجزيرة رودس ، وسعتها غلوة سهم . ويقال إنه كان بين الشطين سلسلة طرفاها
فى برجين تمنع المراكب من العبور إلا بإذن الموكل بها .

ويمر هذا الخليج نحو مائتى ميل وخمسين ميلا الى أن ينتهى الى القسطنطينية
فتكون فى غربيه، يحيط بجهتين منها .

وهى مدينة عظيمة مشهورة . وعرض البحر عندها أربعة أميال . ١٠

ثم يمر ستين ميلا حتى ينصب فى بحر ما نيطش . وهو بحر سوداق . وعرض
فوهته هناك عشرة أميال . وفى موضع أقل، وفى موضع أكثر .

فهذا البحر الرومى وجزائره وما تفرع منه .

والله أعلم .

---

(١) فى الأصل أكدنت وهو تحريف لمدينة أذرنت قال فى نزهة المشتاق : خليج البنادقيين ومبدؤه من شرق ١٥
بلاد قلوريه . . . من عند أذرنت . . . وينتهى طرفه الى بلاد إيكلاية .

(٢) فى الأصل آنكلاية، وهو تحريف ظاهر عن إيكلاية التى ذكرها الإدريسى فى هذا الموضع .

٥ — وأما بحر الهند وجزائره

فمبدؤه من مشرق الصين فوق خط الاستواء . ويجرى إلىٰ جهة الغرب، فيجتاز ببلاد الواق[(١)]، وبلاد سُفالة الزنج، ثم ببلاد الزنج حتّى يصل إلىٰ بلاد بربرا، وهناك حجزه .

وأما الشرقىّ : فمبدؤه من لوقين ، وهى أوّل مرافىء الصين ثم بخانقو فُرْضة الصين العظمىٰ، ثم إلىٰ سَمَنْدُور من بلاد الهند، ثم إلىٰ حارتين ، إلىٰ قندرينه[(٢)]، إلىٰ تانة ، إلىٰ سندابور، إلىٰ بَرْوَص (ويقال بَرْوَج، وإليها ينسب القماش البَرْوَجى)، إلىٰ صَيْمُور[(٣)]، إلىٰ سَنْدَان، إلىٰ سوتارة، إلىٰ كنباية . (وإليها ينسب القماش الكنبايتى)، إلىٰ دَيْبُل (وهى أوّل مرافئ السند) ؛ ثم إلىٰ سرون ، ثم إلىٰ التِّيز[(٤)] من بلاد مُكْرَان، وهى أحد ركنى الخليج الفارسىّ . والركن الآخر يسمى رأس الجُمْجُمَة : وهو جبل خارج فى البحر، ومن هناك يسمى بحر اليمن، ثم يمتدّ علىٰ ظَفَار، ثم علىٰ الشِّحْر ساحل بلاد مَهَرَة، ثم علىٰ شُرْمَة ولَسْعا (ساحلى بلاد حضر موت)، ثم علىٰ أَبْيَن، ثم علىٰ عَدَن، ثم المَخْنَق، ثم العارة، ثم يمتدّ إلىٰ باب المندب .

---

(١) قال البيرونى مانصه : (فى كتاب تحقيق ما للهند ص ١٠٣ سطر ٧) جزيرة الوقواق من جملة قمير . وهو اسم لا كما تظنه العوام من أنه شجرة حملها كر.وس الناس تصيح ولكن قمير قوم ألوانهم الى البياض قصار القدود على صور الأتراك ودين الهنود مخرمى الآذان وأهل جزيرة الوقواق منهم سود الألوان والناس فيهم أرغب ويجلب منهم الآبنوس الأسود وهو لب شجرة تلق حواشيها فأما الملمع والشوحط والصندل الأصفر فمن الزنج . ا هـ

(٢) لعل المقصود : قندابيل (وقد ذكرها ياقوت) .

(٣) ويقال صيمون (أُنظر ياقوت) .

(٤) هى قصبة بلاد مكران بالسند.

ومن هناك يخرج خليج القُلْزُم، وطوله ثمـانية آلاف ميل، وعرضه يختلف . فى موضع ألف ميل وسبعمائة ميل، وفى موضع ألفان، وفى موضع دون ذلك .

ويقال : إن بينه وبين البحر المحيط بحرا آخر يسـمى البحر الزفتى، سمى بذلك لظلمته وسواده، وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل .

وهذا البحر — أعنى الهندى — بجملته قسمه السالكون له ستّ قطع، وضعوا لها أسمـاء مختلفة .

١ — فالذى يمرّ بأرض الصين يسمى بحر صنجى[1]، ينسب لمدينة فى جزيرة من جزائره . وهو بحر كثير الأمواج مهول . فإذا كان فى أول هيـاجه ظهر فيه بالليـل أشخاص سود، طول الواحد منهم خمسة أشبار وأقلّ من ذلك . يصعدون إلى المراكب ولا يضرون أحدا . فإذا عاينهـم السَّفّار، أيقنوا بالدّمار . وإذا قدّر الله تعالى نجاتهم من هذه الشدّة، أراهم على رأس الدَّقَل طائرا أبيض كأنمـا خلق من النور، فيتباشرون به . فإذا ذهب عنهم الروع، فقدوه .

وفيه من الجزائر المعمورة :

جزيرة شريرة[2] . يحيط بها ألف ميـل ومائتا ميل . فيها مدائن كثيرة، أجلها المدينة التى تنسب إليها، ومنها يجلب الكافور .

وجزيرة صنجى . وإليها تنسب هذه القطعة . وطولها مائتا ميل، وعرضها أقلّ من ذلك . وفيها جواميس وبقر بغير أذناب .

(١) لعل هـذا الاسم هو و"شنجو" لمسمى واحد . وهى المعروفة عند العرب باسم مدينـة "زيتون" وهى فُرْضَة الصين (راجع أبا الفدا) .

(٢) سماها أبو الفدا : سريرة .

وجزيرة أنفوجة . يحيط بها أربعمائة ميل . عمارتها متصلة .

٢ — ويلى هذه القطعة قطعة تسمّى بحر الصَّنْف . فى جزيرة من جزائره مدينة . وهو بحر خبيث كثير الأمطار والرياح الشديدة . وفى جباله معادن الذهب والرصاص ، وفيه مغاص اللؤلؤ ، وفى غياضه الخيزران . وفيه مملكة المهراج . ويشتمل على جزائر لاتحصى ، ولا يمكن المراكب أن تطوف بها فى سنة . وفيها أنواع الطيب من الكافور ، والقَرَنْفُل ، والعود ، والصَّنْدل ، والجَوْزبَوَّى ، والبَسْبَاسَة ، والكَبَابَة .

ومن جزائره المشهورة :

جزيرة الزانج . وتكسيرها سبعمائة فرسخ ، وبها يكون المهراج ، وهو اسم يطلق على كل من ملكها .

وجزيرة البركان . وهى جزيرة فيها جبل يرمى بالشرر ليلا ، وبالرعود القواصف نهارا ، وهى أحد آطام الدنيا المشهورة .

وجزيرة قُمار . وإليها ينسب العود القمارىّ . وبها شجر الصندل . دورها أربعة أشهر . وهى مأوى عُبّاد الهند وعلمائهم . يسمّى ملكها قامرون .

وجزائر الرامى (١) . وهى نحو ألف جزيرة معمورة . بها الملوك . وفيها معادن الذهب ، وشجر الكافور .

وجزائر لنجبالوس . ويقال لنكبالوس . وهى كثيرة ، وأهلها سود ، مشوهو الصور لقربها من خط الاستواء . وبها معادن الحديد .

٣ — ويلى هذه القطعة قطعة تسمّى بحر لاروى ، وبحر كَلَه ، وبحر الجاوه ، وبحر فنصور . وإنما ترادفت عليه هذه الأسماء بحسب ما يمرّ عليه من البلاد والجزائر .

(١) فى الأصل الراق وفى نزهة المشتاق "الرامى" .

وهو بحر لايدرك قعره . وفيه نحو ألف جزيرة تسمّى جزائر النارجيل، لكثرته بها .
وكلها عامرة بالناس . وبين الجزيرة والجزيرة الفرسخ والفرسخان . وليس يوجد فى سائر
جزائر البحر ألطف صنعة من أهل جزائره فى سائر المهن . وبيوت أمواله الوَدَعُ .

ومن جزائره المشهورة مما يلى أوائل بلاد الهند :

جزيرة المـانِد . وهى جزيرة يحيط بها ألف ميل . وفيها ثلاث مدن كبار .

وجزيرة كرموه . يحيط بها ثلثمائة ميل .

وجزيرة بلى . منسوبة لمدينة من الهند على ساحله . يأتيها التجار لاجل الفلفل .

وجزائر الذئاب . وهى كثيرة . وأكبرها جزيرة ديبى . وسكانها قبائل من
العرب . يحيط بها أربعمائة ميل . وفيها الموز، وقصب السكر .

وجزيرة السيلان . وطولها ستمائة ميل، وعرضها قريب من ذلك . وفيها
مدن كثيرة . وإليها ينسب العود السيلى .

وجزيرة كَلَه . وإليها ينسب البحر . وهى جزيرة خطيرة، طولها ثمانمائة ميل .
وعرضها ثلثمائة ميل وخمسون ميلا . وبها من المدن فنصور . فيها شجر الكافور (وفيها
العود الفاخر) وملاير، ولاروى، وكله (وإليها ينسب الدّهن) . ولكل مدينة من هذه
المدن خَوْر تعبره المراكب من البحر .

وجزيرة صندابولات . وطولها نحو من مائتى ميل، وعرضها نحو مائة ميل .
تنسب إلى مدينة هى فيها .

وجزائر بداميان . فيها أمم سود، قِبَاح الوجوه . قامة الرجل منهم أقلّ من
ذراع . ليس لهم مراكب . فإذا وقع اليهم غريق أو من يَتِيه من التجّار، أكلوه .

(٨٦) ٤ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر هَرْكَنْد، وفيه جزائر كثيرة. ويقال إن عدتها ألف جزيرة وتسعمائة جزيرة. ويقع فيها العنبر الذي تكون القطعة منه مثل البيت. وسكانها أحذق الناس في الحياكة، ينسجون القميص بكميه ودخاريزه قطعة واحدة.

٥ وفيه من الجزائر المشهورة:

جزيرة سرنديب[1]. وهي مدوّرة الشكل، يحيط بها ألف فرسخ. يشقها جبل الراهون، وهو الجبل الذي هبط عليه آدم (عليه السلام) من الجنة. وفي أوديتها الياقوت والماس والسُّنْبَاذَج. وطولها مائتان وستون ميلا. ومدينة هذه الجزائر العظمى تسمى أَغْنا، يسكنها مسلمون، ونصارى، ويهود، ومجوس. ولكل أهل ملة من ١٠ هذه الملل حاكم. لا يبغى بعضهم على بعض. وكلهم يرجع إلى ملك يسوسهم ويجمع كلمتهم. ولهذا البحر أربعة أودية تصب في البحر تسمى الأغباب[2].

٥ — ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر اليمن. وأوله بحر الجُمْجُمة، وهو بلاد مَهَرَة. معترض في البحر فيمتر بحاسك (وهو أول مرافئ اليمن)، ثم يمتر بمِرْباط[3] (ساحل بلاد ظَفَار)، ثم يمتر بالشِّحْر (ساحل بلاد مَهَرَة)، ثم بشُرْمَة ولَسْعَا (ساحلي بلاد ١٥ حضرموت)، ثم بأَبْيَن، ثم بعدن، ثم بالمخنق، ثم بالعارة، ثم الباب بالمندب.

(١) قال البيروني في كتابه على الهند: سنكلديب وهي جزيرة سرنديب (ص ١٠٢) وفي أبي الفدا سنكاديب.

(٢) الأغباب واحدها غُبّ. وهو — على ما قال البيروني — كالزاوية والعطفة يدخل من البحر إلى البر ويكون للسفن فيه مخاوف وخاصة من جهة المد والجزر. والخَوْر هو شبه الغُبّ ولكنه ليس من جهة دخول البحر وإنما هو من مجيء المياه الجارية واتصاله بالبحر ساكنا ومخاوف السفن فيه من جهة ٢٠ العذوبة التي لا تستقلّ بالأثقال استقلال المملوحة بها (تحقيق ما للهند ص ١٠٢).

(٣) مدينة بين حضرموت وعمان وهي الفُرضة لمدينة ظفار الواقعة على خمسة فراسخ منها.

وفيه من الجزائر المشهورة :

جزيرة سقوطرة . وطولها نحو من مائة وثمانين ميلا ، وعرضها فى الوسط نحو خمسة عشر ميلا . وبها الصبر . يسكنها قوم من اليونان، تغلبوا على من كان فيها من الهند فى زمن الإسكندر . وبها عيون يقال إن الشرب منها يزيد فى العقل . ولهذا سميت فى الكتب القديمة جزيرة العقل .

ويلى هذه القطعة قطعة تسمى بحر الزنج، وبحر بربرا، ويسمى ساحله الزنجبار .

وفيه مما يلى بلاد اليمن جزائر . منها :

جزيرة دعون[1]، وهى مدورة .

وجزيرة السود .

وجزيرة حورتان .

وجزيرة مروان . وفيها مدن يسكنها الشّرّاق ،وهى مقابلة لبلاد مهرة .

وجزائر الديبجات . وهى كثيرة . وأهلها مفرطون فى السواد . وجميع ماعندهم أسود . حتى قصب السكر والكافور .

وجزيرة القُمْر . وتسمى جزيرة ملاى . وطولها أربعة أشهر، وعرض الواسع منها يزيد على عشرين يوما . وهى تحاذى جزيرة سرنديب . وفيها بلاد كثيرة أجلها كيدانة، وملاى (وإليها تنسب الجزيرة) ودهمى ، وبليق ، وخافورا . ودعلى . وقُمْرية (وإليها ينسب القُمْر) . ويقال : إن بهذه الجزيرة خشبا، ينحت من الخشبة

(١) من المعلوم أن العرب يسمون شبه الجزيرة بالجزيرة . ولم أجد لهذا الاسم أثرا فيما بين يدىّ من كتب المراجعة فلعلها هى التى ذكرها ياقوت باسم "دغوث" وقال إنها بلد بنواحى الشحر من أرض عمان أو لعلها "دغوطة" التى قال أبو الفدا انها آخر مدن سفالة وآخر العمارة فى البر المتصل .

منه شانٍ[1] يكون طوله ستين ذراعا ، يجذف على ظهره مائة وستون رجلا .
ولما ضاقت هذه الجزيرة بأهلها بنوا على الساحل محلات يسكنونها فى سفح جبل يعرف بهم . ومنها[2] يخرج نهر النيل .

---

٦ — ويخرج من هذا البحر الذى يجمع هذه القطع خليجان
٥ أحدهما بحر القلزم، والآخر بحر فارس .

١ — فأما خليج القلزم. فخروجه من باب المَنْدَب. وهو جبل طوله اثنا عشر ميلا ، وسَعَة فوهته بمقدار أن الرجل يرى صاحبه من البرّ الآخر . فاذا قارب المَنْدَب يمرّ فى جهة الشمال، بغلافقة، والأهواب (وهما ساحلا زبيد) ثم الجَرَدَة، ثم الشَّرْجَة، ثم عَثَّر (وكانت مقرّ ملك قديم) ثم بالسِّرَّيْن، وحَلْى، وعُسْفَان، والجَار
١٠ (وهى فرضة المدينة) والجُحْفة ، والصَّفراء، والحَوْراء ، ومَدْيَن، وأَيْلَة، والطُّور ، وفاران، ثم القُلْزُم (وكانت مدينة مسكونة، وكذلك أيلة) . ومن القلزم ينعطف من جهة الجنوب فيمرّ بالقُصَير (وهى فرضة لقوص) ثم إلى عَيْذَاب (وهى فُرْضة لبلاد البُجَّة)، ثم يمتدّ إلى زَيْلع (وهى ساحل بلاد الحبشة) ويتصل ببربرا .

وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل . وعرضه فى مواضع أربعمائة ميل، ودون ذلك
١٥ إلى مائتى ميل إلى ما دون ذلك .

وهو بحر كريه المنظر والرائحة .

---

(١) أى من السفن المعروفة بأسم الشوانى .
(٢) يخلط الجغرافيون العرب كثيرا بين هذه الجزائر المعروفة بالقُمْر (بضم فسكون) وبين الجبل المعروف بالقَمَر (بفتح فسكون) فيجعلونهما شيئا واحدا و يقولون بخروج منابع النيل من تلك الجزائر . وهذا
٢٠ أمر غير معقول .

وفيه فيما بين القلزم وأيلة المكان المعروف بتاران، وهو مكان يشبه دُرْدُورَ عُمَان. لأنه فى سفح جبل إذا وقفت الريح على دُرْدُورَته انقطعت بنصفين على شُعْبَتَيْن متقابلتين ؛ ثم يخرج من كُلّىْ هاتين الشعبتين ، فيثير البحر فتتبلَّد السفن باختلاف الريح فلا تكاد تسلم . وهاتان الشعبتان تسميان الجبيلين ، ومقدار هذا الموضع ستة أميال، ويسمى بركة الغُرُنْدُل(١) . ويقال : إنها التى أغرق الله فرعون وقومه فيها . فإذا كان للجنوب أدنى مهب، فلا يمكن سلوكه . (٨٧)

وفيه من الجزائر خمس عشرة جزيرة، العامر منها أربعة، وهى :

جزيرة دَهْلَك. يحيط بها نحو مائتى ميل ؛ يسكنها قوم من الحبوش . مسلمون .

وجزيرة سواكن . وهى أقل من ميل فى ميل . و بينها و بين البحر الحبشى بحر قصير يخاض . وأهلها طائفة من البُجَّة تسمى الخاسد وهم مسلمون ، ولهم بها ملك .

وجزيرة النعمان . وبها نويس(٢) تعيش من لحوم السلاحف .

وجزيرة السامرىّ . يسكنها قوم من اليهود، سامرةٌ ، فى عيش قَشِيف .

٢ — وأما خليج فارس . فإنه مثلث الشكل على هيئة القِلْع .

أحد أضلاعه من تيز مُكْرَان . فيمرّ فى بلاد كَرْمان على هُرْمُز ، ومن بلاد فارس على سِيرَاف ، وتوح(٣) ، ونَجَيْرَم ، وجَنّابة ، ودَارِين ، وسِينِيز ، ومَهْرُوبان ؛ ومنها يُفضى

(١) الذى فى تقويم أبى الفداء : الغرندل باللام .

(٢) تصغير ناس .

(٣) هكذا فى الأصل وفى أبى الفداء . وأما ياقوت فقال إنها توج . (وضبطها أبو الفداء بضم التاء، وسكون الواو) واتفق أبو الفداء وياقوت على أنها هى التى تسمى أيضا توز (ولكن ياقوت يضبطها بفتح فتشديد) . والذى فى ياقوت هو الصواب كما يؤخذ من "لب اللباب" للسيوطى ، ومن "لطائف المعارف" للثعالبى .

البحر إلىٰ عَبَّادان ، ومن عبادان ينعطف الضلع الآخر فيمرّ بالخط ، وهو ساحل بلاد عُمَان إلىٰ صور ، وهى ساحل بلاد عمان مما يلى بلاد اليمن ، ثم يمتدّ إلىٰ رأس الجُمْجُمَة من بلاد مَهَرَة .

والضلع الآخر يمتدّ علىٰ سطح البحر من تِيزِ مُكْرَان إلىٰ رأس الجُمْجُمَة .

٥ وهذه الأضلاع غير متفاوتة فى الطول ؛ فإن الضلع الذى يمتدّ علىٰ سطح البحر طوله خمسمائة ميل ، وطول الضلع الآخر من حيث يبتدئ من تِيزِ مُكْرَان إلىٰ أن ينتهى إلىٰ عَبَّادان ثم ينعطف إلىٰ أن يصل إلىٰ رأس الجُمْجُمَة ، تسعمائة ميل .

وفيه مما يلى عَبَّادان مكان يعرف بالدُّرْدُور . وهو بين جبلين ، أحدهما يسمى كُسَير ، والآخر عُوَير . ويضاف إليهما جبل آخر بالقرب منهما يقال فيه "وآخر ما فيه

١٠ خير" لشدّة ما يرىٰ بها من الأهوال . وهى جبال سود ذاهبة فى الهواء يتكسر الماء علىٰ شُعَبها . ولا بدّ للراكب أن تمرّ بينها ، وقلّما تسلم .

وفى هذا البحر من الجزائر المشهورة علىٰ ألسنة التجار تسع ، منها أربعة عامرة ، وهى :

جزيرة خارَك . يحيط بها آثنا عشر ميلا . وهى عامرة آهلة كثيرة البساتين .

١٥ وبها مغاص اللؤلؤ .

وجزيرة كِيش . وبها مغاص اللؤلؤ أيضا . وهى آهلة . وتسمى هذه الجزيرة فى عصرنا هذا "قِيس" .

وجزيرة أُوال . وهى تجاه ساحل البحرَيْن ، وبينهما يوم . وبها مدينة . وأوال مدينة من مدائن البحرين .

و جزيرة لافت . وتعرف بجزيرة بنى كاوان[1] . وطولها اثنان وخمسون ميلا ، وعرضها تسعة أميال . وهى آهلة .

وهاتان الجزيرتان معدودتان فى بلاد جُور من أعمال فارس .

ويقال أيضا إنه يخرج من البحر المحيط خليج ثالث فى شمال الصقالبة ، و يمتد قرب بلد بلغار المسلمين ، ويسمى بحر أدريك ، منسوب إلى أمة على ساحله فى جهة الشمال ، ثم ينحرف نحو المشرق ، وبين ساحله وبين أقصى بلاد الترك أرضون وجبال مجهولة خربة .

فهذا البحر المحيط وما يتفرع منه .

٧ — وأما بحر مانيطش[2]

ويسمى البحر الأسود وبحر سوداق . وهى مدينة على ساحله ، هى فرضة لبلاد القفجاق مما يلى القسطنطينية . وعليه أيضا للقفجاق مدينة عظيمة تسمى قِرِم[3] ،

(١) و يسميها الإدريسى : ابن كاوان ، وغيره يسميها : بركاوان .

(٢) جرى المؤلف على تعريف هذا البحر بأنه المعروف بالبحر الاسود . والحقيقة أن بحر نيطش هو المعروف الآن بالبحر الأسود ، وأما بحر مانيطش فهو المعروف ببحر آزاق وبحر آزوف . ومما يجب التنبيه عليه أن كثيرا من كتاب العرب يخلطون بين هذين البحرين . ولذلك قال المسعودى : "فبحر نيطش وبحر مانطش يجب أن يكونا بحرا واحدا ، و إن تضايق البحر فى بعض المواضع بينهما أو صار بين الماءين كالخليج . وليست تسمية ما اتسع منه وكثر ماؤه بمانطش . وما ضاق منه وقل ماؤه بنيطش ينبغى أن تجمعهما فى اسم مانطش أو نيطش . فإذا عبّرنا فى بعض المواضع فى مبسوط هذا الكتاب فقلنا "مانطش" أو "نيطش" فإنما نريد به هذا المعنى فيما اتسع من البحر وضاق". (من مروج الذهب ، ص ٥٨) .

(٣) وبها سميت شبه الجزيرة الموجودة فى البحر الأسود وهى شبه جزيرة القرم .

مقصودة من كل الجهات . وبها علماء، وفقهاء، ورؤساء . وهى محدثة . مُصِّرَتْ فيما بين الثلاثين والأربعين وستمائة للهجرة النبوية . ويسمى هـذا البحر أيضا بحر الروس، لجزائر فيه يسكنها أمة تسمى الروس، نصارىٰ . وهو بحر ضخم كثير الأخوار والتروش[(١)] والجبال الجرش . وطوله من الشمال إلىٰ الجنوب ألف ميل وثلثمائة، وعرضه مختلف . ففى موضع ستمائة ميل، وفى موضع ثلثمائة ميل . والناس مختلفون فيه . فمنهم من يقول إنه بحر مستقل بنفسه، يخرج منه خليج القسطنطينية ويصب فى بحر الروم أو هو مغيض لخليج القسطنطينية . وأكثرهم علىٰ أنه بحر مستقل بنفسه لطوله وعرضه وكثرة جزائره . وبعضهم يقول إنه خليج يخرج من البحر المحيط علىٰ ظهر بلاد الصقالبة، ويحيط به بلاد البطلمية، وبلاد الغامانية، وبلاد الأزكشية، وبلاد الشركسية، وبلاد العلان[(٢)] والعنكر والناشقرد .

وفيه ست جزائر عامرة، وهى كثيرة المدن والقرىٰ، يسكنها الروس .

---

٨ — وأما بحر الخزر

وهو بحر جرجان وطبرستان والديلم . وذلك بحسب ما يمر عليه من البلاد . وهو — علىٰ ماحكاه ٱبن حوقل — مدوّر الشكل، ليس له ٱتصال ببحر آخر .

---

(١) فى الاصل التروس . ولكن الإدريسى يستعمل لفظة "التروش" بالشين المعجمة . ومعناها الشُّعَب أى صخور التى تكون تحت سطح الماء قليلا فتكسر السفن وتتحطم إذا ٱصطدمت بها .

(٢) العلان ترك تنصروا وهم خلق كثير وقلعتهم إحدى قلاع العالم تتعمم بالسحاب (عن أبى الفدا) وبلادهم فى أرض قفجاق أو قفقاسية وهم المشهورون فى كتب العرب أيضا بأمم اللان .

قال : ولو أن إنسانا طاف به، لأنتهى إلى الموضع الذى آبتدأ منه، لا يقطعه عن ذلك إلّا نهرٌ يصب فيه[(١)] .

وفى شرقىّ هـذا البحر بعض بلاد الديلم، و بلاد طبرستان، وجُرجان، و بعض المسافة التى بين جرجان وخوارزم؛ وغربيه بلاد أرّان، و بلاد الخزر، وبعض مفازة الغزية[(٢)]؛ وشماليه مفازة الطُّغُزْغُزية؛ وجنوبيه الجيل[(٣)]، والديلم . وطوله ثمانمائة ميل، وعرضه ستمائة ميل .

وقال صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى آختراق الآفاق": طوله من جهة الخزر إلى عين الهم ألف ميل[(٤)]، وعرضه من ناحية جرجان إلى مصب نهر إتل ستمائة ميل[(٥)]، وخمسون ميلا وهو يقطع عرضا من طبرستان إلى مدينة باب الأبواب فى أسبوع بالريح الطيبة، وفيه أربع جزائر، وهى :

جزيرة سياكوه[(٦)] . وهى تجاه آبسكون، فرضة جرجان . يسكنها طائفة من الترك . يصاد بها البزاة البيض .

وجزيرة سهلان . وطولها نحو مائة ميل، وعرضها نحو خمسين ميلا .

---

(١) هذا ملخص العبارة التى أوردها آبن حوقل (وآنظر كتابه ص ١٣) .

(٢) فى الأصل : الغرنة . والتصحيح عن أبى الفدا .

(٣) فى الأصل : الختل (وهو تحريف ظاهر من النساخ) .

(٤) هكذا فى مقدمة الإدريسى (فى جميع النسخ) ولكنه عند كلامه على الجزء السابع من الإقليم الخامس نص على أن طول هذا البحر ٨٠٠ ميل وأن عرضه ٦٠٠ ميل (وهذا هو الذى نقله عنه أبو الفدا)، ثم عاد الادريسى فقال ان طوله ٩٠٠ ميل .

(٥) فى الأصل مائه ميل [والتصحيح عن الإدريسى] .

(٦) فى الاصل : بساه كوه . (والتصحيح عن أبى الفدا) .

وجزيرة البركان(١). وهى أطمة عظيمة تظهر منها نار فى الهواء، كأشمخ ما يكون من الجبال . ترىٰ من نحو مائه فرسخ من البر .

وجزيرة تجاه باب الأبواب . كثيرة المروج والأنهار . وهـذا البحر يقال إنه كثير التنانين .

وقد ٱختلف فيها . فمن الناس من يقول إنهـا دواب تعظم فى قعر البحر فتؤذى ما به من دواب، فيبعث الله عز وجل عليها السحاب والملائكة فتخرجها من البحر وتقلبها فى أرض يأجوج ومأجوج، فتكون طعاما لهم . وهذا ممـا يحكى عن ٱبن عباس رضى الله عنهما . ومنهم من رأىٰ أنهـا ريح سوداء تكون فى قعر البحر فتظهر إلىٰ النسيم وتلحق بالسحاب، كالزَّوْبعة التى تثور من الأرض وتستدير ثم تطول فى الهواء . فيتوهم الناس أنها حيّات سود .

وسائر البحار تَمُـدّ وتَجْزُر، خلا هذا البحر .

ويقـال إن علة المدّ والجزر تكون عن وضع المَلَك الموكل بقاموس البحر عقبه فى أقصىٰ بحر الصين، فيفور فيكون منـه المدّ، ثم يرفعه فيكون من رفعه الجزر . (ومنهم من روىٰ مكان العقب الإبهام) .

ومنهم من قال إن العلة فيه غير هذا كله .

والله أعلم !

(١) هى شـبه الجزيرة المعروفة الآن باسم أبشرون . وفيها مدينة باكو المشهورة وهـذه المدينة سمـاها أبوالفدا "باكوى" وسمـاها المسعودى "باكه" وقال ان بها معدن النفط الأبيض (أى البترول) ثم قال وفى هذه النفاطة أَطَمَة، وهى عين من عيون النار لاتهدأ علىٰ سائر الأوقات تتضرم الصعداء . فهذا هو الذى عناه النويرى باسم "البركان" .

ذكر ما فى المعمور من البحيرات المالحة المشهورة وما بها من العجائب

وفى المعمور بحيرات مالحة :

فالذى آشتهر منها :

§ بحيرة خُوَارَزْم . وشكلها مثلث كالقِلْع . وليس فى المعمور بحيرة أعظم منها . يحيط بها أربعمائة فرسخ . يصبّ فيها نهرا سيحون وجيحون ، اللذان فى أرض الهياطلة ، وغيرُهما من الأنهار العظيمة الجارية فى بلاد الترك . وهى مع ذلك لا تزيد ولا تعذُب .

وزعم صاحب كتاب " نزهة المشتاق إلى آختراق الآفاق " أن فى هذه البحيرة حيوانا يظهر على سطحها فى صورة الإنسان يتكلم ثلاث كلمات أو أربعا ، بلغة لا تُفهَم ثم يغوص . وظهوره عندهم يدل على موت مَلِك من ملوك ذلك الحين .

§ ومنها بحيرة الطِّرِّيخ[1] : لسمك صغير يصاد منها ويحمل إلى سائر بلاد أرمينيَة وأذْرَبيجان . وطولها أربع مراحلَ ، وعرضها مرحلة . يُجْمَع من أطرافها البُورَق . والسمكُ يوجد بها فى زمان مخصوص ، يأتيها فى نهر يصبّ إليها ، ويكثر حتّى يصاد بالأيدى . فإذا آنقضى ذلك الزمان ، لا يوجد منه شىء آلبتة .

(١) وآسمها فى كتب الجغرافية العربية بحيرة أَرْجيش ، وهذا السمك الذى سميت به ، كما فى "القاموس" سمك صغار تعالج بالملح وتؤكل . وقد عرّفنا آبن حوقل أنه صغير مقدار الشبر يملح ويحمل الى الجزيرة والموصل والرقة وحران وحلب وسائر الثغور .

§ وفى بلاد أذربيجان بحيرة كَبُوذَان[١] . وكَبُوذان قرية فى جزيرة، يسكنها ملّاحو المراكب التى يُرْكَب فيها من هذه البحيرة . وطول هذه البحيرة نحو ثلاثة أيام، وعرضها كذلك . وفيها جزائر : منها جزيرة فيها قلعة حصينة تسمّى تلا . ولا يكون بهذه البحيرة حيوان ألبتةَ ، لأن ماءها منتن ردىء .

٥ § وفى بلاد البَحرينِ بُحَيرة . وبها وبالبحر الكبير سميت أرض هَجَر: "البحرين".

§ وفى الشام بأرض الغَوْر بحيرة زُغَر، وتسمّى المُنتِنةَ والميتة . لأنها لا يعيش بها حيوانٌ ولا يتكوّن فيها شيء ممّا يتكوّن فى المياه الجارية والراكدة من الحيوانات. وطولها ستون ميلا، وعرضها آثنا عشر ميلا .

ويقال إنها ديار قوم لوط التى خَسَفهم الله بها . ويقال إنها كانت خمس مُدُن، ١٠ أسماؤها : "ضيعه"، و"ضعوه"، و"عمره"، و"دوما"، و"سذوم" . وكانت سذوم أكبرها وأعظمها .

ويُصَبُّ فى هذه البحيرة نهر الأُرْدُنّ وغيرُه من الأنهار الصغار والسيول من بلاد الكَرَك وغيرها، فلا تزيد . ويقال إن لها مَنْفَذا إلى بحر القُلْزم . وبساحلها الشرقىّ إلى حدّ أَرِيحا معدِنُ الكبريت الأبيض، يُحفَر عليه ويُخْرَج . ويتكوّن فى هذه البحيرة ١٥ شىء على شكل البقر، ويطفو على وجهها ويتفقع، فيجمع منه شىء أسود يسمونه "الحُمَّر" وينقل إلى قلعة الكَرَك يدّخر بها، يدخل فى النِّفط .

(١) هى التى ذكرها أبو الفدا باسم "بحيرة تلا" وياقوت بآسم "بحيرة أُرْمِيَة" . وقد ذكر أن فى وسطها جبلا يقال له "كبوذان" وجزيرة فيها أربع قرى أو نحو ذلك يسكنها ملّاحو سفن هذا البحر (معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨) .

§وفى أعمال مصر بحيرة تِنِّيس، مقدارها إقلاع يوم فى [عرض][(١)] نصف يوم. يكون ماؤها فى أكثر السنة ملْحا من دخول ماء البحر الرومىّ إليها ، فإذا مَدّ النيلُ صبّ فيها فتحلو فإذا جَزَرَ مَلُحت .

(٨٩) ويقال : إنه كان فى مكانها بَرٌّ مسلوك تغَلَّب عليه البحر فى ليلة واحدة، فما كانت أرضه مستفِلة غرِق، وما كانت أرضه عالية مثل تِنِّيس وتُونَة بقى .

٥

وفى وسط هذه البحيرة جزيرة صغيرة تسمى سِنْجار، يسكنها قوم صيادون .

وقال إبراهيم بن وصيف شاه فى "كتاب العجائب الكبير": إن بحيرة تِنِّيس كانت أجِنَّة وكروما ومنازلَ ومنتَزَهات ، وكانت مقسومة بين مَلِكين من ولد أَتْرِيبَ بن مصر، وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا ، فأنفق المؤمن ماله فى وجوه البِرّ حتّى باع حصته من أخيه وفرّق مالها أيضا، فأصلحها أخوه وزاد فيها غُرُوسا وفَجّر فيها أنهارا

١٠

وبنى فيها بنيانا ، واحتاج أخوه إلى مافى يده فكان يمنَعُه ويفتخِر عليه بما فى يده من المال والأجِنَّة ، فخاطبه أخوه فى بعض الأيام فسطا عليه، وقال : أنا أَكْثَرُ منْك مالا وولدا وخيرا ، فقال له أخوه : فما أراك شاكرا لله تعالى على ما رزقك ، ويوشك أن ينزِع ذلك منك . ويقال : إنه دعا عليه فغرّق ماء البحر ما كان له فى ليلة واحدة .

١٥

وقيل : إن هذين اللذان ذكرهما الله تعالى فى كتابه العزيز، فقال : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ الآيات، والله تعالى أعلم .

وبالقرب من الإسكندرية بحيرة، طولها إقلاع يوم وعرضها كذلك، يدخل إليها الماء من بحر الروم من مكان الأُشْتُوم ، ويخرج منها إلى بحيرة أخرى دونها

(١) الزيادة من "معجم ياقوت" .

٢٠

فى خليج عليه مدينتان، إحداهما تسمّى الجديدة، والأخرى تسمّى أتلو[1] كثيرة المقات والنخل، وكلها فى الرمل. ويصب فى البحيرة خليج من النيل يسمّى "الحافر" طوله نصف يوم إقلاعا، وهو كثير الطير والسمك والعُشْب.

§ وفى بلاد إفريقية بحيرة بَنْزَرْت ماؤها مِلْح، وطولها ستة عشر ميلا، وعرضها ثمانية أميال. وعلى عشرة أميال منها بحيرة ماؤها عذب تسمّى بحيرة متّيجة[1]. فإذا جاء الشتاء وكثُرت السيول، غاضت بحيرة بنزرت، وفاضت بحيرة متّيجة حتّى تمدّها ستة شهور فلا يحلو ماؤها؛ فإذا انقضى زمن الشتاء وجاء الصيف، غاضت بحيرة متّيجة، وفاضت بحيرة بنْزَرْت فلا يملُح ماؤها. ويصاد فى هذه البحيرة فى كل شهرين من شهور السنة نوعٌ من السمك لا يخالطه غيره؛ وأهل الناحية يعرفون دخول الشهور بتغيّر السمك فيها.

§ وحكى صاحب كتاب "مَبَاهِج الفِكَر ومَنَاهِج العبر": أن بتخوم بلاد أرمينيَةَ بحيرة يكون فيها الماء والسمك والطير ستةَ أشهر كواملَ، ثم تجف فلا يرى فيها ماء ولا سمك ولا طير سبع سنين، فإذا كانت السنة الثامنة ظهر ذلك فيها ستة أشهر ثم ينقطع. وهذا دأبها مدى الزمان.

§ وبخِلاط بحيرة لا يرى فيها سمك ولا ضِفْدَع ولا سَرَطان عشرةَ أشهر من السنة، ثم يظهر ذلك كله فى الشهرين الباقيين.

(١) كذا بالأصل وفى معجم ياقوت "أتكو" بليدة قرية من نواحى مصر قرب رشيد.

(١) وزنها فى القاموس بسِكّينة.

§ وبقرية من ناحية يَنْجِهير[1] من بلاد خراسان بحيرةٌ، ما غُمِس فيها شيءٌ إلا ذاب: حديدًا كان أو خشبا .

§ وكذلك بركة النَّطْرون التي بأرض مصر ما وقع فيهـا شيء إلا صار نَطْرونا حتّى العظم والحجارة .

٥

ذكر ما يتمثل به ممـا فيه ذكر البحر

(ما جاء من ذلك على لفظ أفعل)

يقـال : أعْمَقُ من البحر . أندىٰ من البحر .

ويقال : حدِّث عن البَحْر ولا حَرَجَ .

ويقال : جاء بالطِّمِّ والرِّمِّ . والطِّم البحر، والرِّم البر .

١٠ ومن أنصاف الأبيات :

* وهل يملِكُ البحرُ أن لا يَفيضَا؟ * * ومَنْ وردَ البحرَ آستقَلَّ السَّواقِيَا! *

* أنا الغريق، فما خوفى من البلل؟ *

ومن الأبيات :

هو البحرُ إلا أنَّه عَذْبُ مَوْرِدٍ، * وذا عَجَبٌ أنَّ العُذُوبةَ في البَحْرِ!

١٥ وقال آبن الرومىّ :

كالبَحْرِ يَرْسُبُ فيـــه لُؤْلُؤُه * سُفْلًا، وتَعْلُو فوقَهُ جِيَفُهْ .

(١) فى الأصل "يجهير" وهى على ما قال ياقوت مدينـة بنواحى بلخ . فلذلك أظن أن ذلك الاسم محرف عن "يَنْجِديه" التى قال ياقوت إنها من نواحى خراسان وهو الصقع الذى أشار إليه المؤلف . نعم إن ياقوت لم يذكر هذه البحيرة عند كلامه على كل من المدينتين ولكن المسعودىّ نص على أن ينجهير من أرض خراسان (ج ٢ ص ١٥ طبع أوروبا) .

٢٠

ومثله قول الآخر:

كَمثلِ البَحْرِ يَغْرَقُ فيه حَىٌّ، * ولا ينفَكُّ تطفُو فيه جيفَهْ.

وقال ابن الرومىّ:

ألا فَارْجُهُ واخْشَـــهُ إنه * هو البحرُ: فيه الغنىٰ والغَرَق!

٥ وقال أبو نُوَاس:

مَنْ قاسَ غيرَكُمُ بكُمْ، * قاس الثِّمَادَ إلىٰ البُحُور!

وقال آخر:

إذا كنتُ قُرْبَ البَحْرِ مالِىَ مَخْلَصٌ * إليه، فما يُغْنِى اقترابِى من البحر!

وقال آخر:

١٠ كالبحرِ يَقْذِفُ للقَرِيبِ جَواهِرًا * منه، ويُرْسِـــلُ للبَعيد سَحائبا.

ذكر شىء مما قيل فى وصف البحر وتشبيهه

قال ابن رشيق عفا الله عنه:

البحرُ مُرُّ المَذَاقِ صَعْبٌ * لاجُعِلَتْ حاجتِى إليْـه.

أليس ماءً ونحنُ طِينٌ؟ * فمـا عسىٰ صَبْرُنا عليه؟

١٥ وقال ابن حمديس:

لا أركبُ البحرَ، أخشىٰ * عَلَىَّ منـــه المَعَاطِبْ!

طِينٌ أنا وهو ماءٌ، * والطِّينُ فى المـاء ذائبْ.

وقال آخر:

وزاخِرٍ ليس له صَـــوْلَةٌ * إلّا إذا ما هَبَّتِ الرِّيحُ.

٢٠ فهُو إذا ما سكَنَتْ ساكِنٌ * كأنمـا الرِّيحُ له رُوحُ.

وقال أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت :

تناهى البحرُ فى عَرْضٍ وطُولٍ، * وليس له على التحقيق كُنْهُ.
وأعْجَبُ كلّما شاهدتُ فيــه * سلامَتَنا على الأهوال مِنْــهُ.
لحسبي أنْ أراهُ من بَعيــدٍ * وأهرُبُ فوق ظَهْرِ الأرض عنْهُ.

ومما وصف به البحر والسفن

قول بشر بن أبي خازم :

أطاعنَ صَـفَّهم ولقد أرانِي * على زَوْرَاء تسجُد للرِّياحِ.
إذا آعترضَتْ براكبها خليجا، * تذَكَّر ما عليه من جُنَاحِ.
ونحنُ على جوانِبها قعودٌ، * نغُضُّ الطَّرْف كالإبل القِماحِ.

وقال آبن تولو من أبيات :

تحثُّ بِنَا فيــه قِلَاصٌ كأنها * وعَالٌ، تبدّتْ من جبالٍ شـواهِقِ.
لهـا كافلَا ماءٍ وريح كِلَاهُما * يعلِّمُها فى الجَرْي سبْقَ السَّوابِقِ.
إذا آنحدَرَتْ، فالمـاءُ ألطفُ قائدٍ، * وإن صَعِدتْ، فالريحُ أعسَفُ سائقِ.

وقال السلامىّ :

ومَيْدانٍ تَجُـول به خُيُولٌ * تقــودُ الدَّارِعينَ ولا تُقَـاد.
رِكبتُ به إلى اللَّذَّات طِرْفا * له جِسْمٌ، وليس له فُــؤادُ!
جرى فظنَنْتُ أنّ الأرض وَجْهٌ، * ودِجلَةَ ناظِـرٌ، وهو السَّـوَاد.

وقال محمد بن هانئ :

مُعَطَّفةُ الأعنــاقِ نَحْـوَ مُتُونِها * كما نَبَّهتْ أيْدى الحُـواةِ الأفَاعِيَا.

إذا أعملوا فيها المجاذيف سُرعةً، * ترى عقربا منها على الماء ماشيا.

إذا ما وردن الماء شوقا لبرده، * صدرن ـ ولم يشربن ـ غرثى صواديا.

وقال الرستمىّ :

لم تزل مُشفقين مُذْ قيل: سارت * بك دُهْمٌ قليلةُ الأوضاحِ.

٥ أصلها البرُّ وهى ساكنةٌ فى الـ * ـبحر سُكنى إقامةٍ لا براحِ.

هىَ فى الماءِ وهى صِفْرٌ من الما * ءِ سوى نضحِ موجها النضّاحِ.

فإذا أُوقِرت، فذاتُ وقارٍ، * وإذا أُخليت، فذاتُ جِماحِ.

وتراها فى اللُّجِّ ذاتَ جناحيـ * ـنِ وإن لم تكن بذاتِ جناحِ.

من مطايا لا يغتذين ولا يسـ * ـأمن سيرَ البكورِ بعدَ الرواحِ.

١٠ مُنشآتٌ من الجوارى اللواتى * لسن من صنعة الجوارى الملاحِ.

والداتٌ مُولَّداتٌ بلا حِـ * ـلِّ نكاحٍ ولا حرامِ سفاحِ.

لا من البيض بل من السود ألوا * نًا وذاتِ الألواحِ والأرواحِ.

طائراتٌ مع الرياحِ، وطورًا * كاسراتٌ بالجرى حدَّ الرياحِ.

سائراتٌ لا يشتكين سُرى الليـ * ـلِ ولا يرتقبن ضوءَ الصباحِ.

١٥ ساكناتٌ بلا خضوعِ سكونٍ، * جامحاتٌ بلا غرامِ جماحِ.

لا يخفن الغمارَ يُقذفن فيها، * ويخفن المرورَ بالضحضاحِ.

إن صدمن الحصى عطبن ولا يعطـ * ـبن إمّا صدمن حدَّ الرماحِ.

ما رأى الناسُ من قصورٍ على الما * ءِ سواها يسيرُ سيرَ القداحِ.

يتسبسبن كالأساودِ فى الخفـ * ـةِ لا فى معادةِ الأشباحِ.

٢٠ فإذا ما تقابلت، قلت : ذودٌ * من كباشٍ تقابلت للنطاحِ.

شُرْعُها البيضُ كالغمامات فى الصَّيْـ * ـف صِحَاحًا منها وغيرَ صِحَاحِ .
كم مُدِلٍّ بالجاه والمال فيها، * وبه حاجةٌ إلىٰ المَلّاحِ!
قائدٍ جُنْدَه لهم أدواتٌ * نَفْعُها ثَمَّ فوقَ نفعِ السِّلَاحِ .
فإذا البحرُ صالَ، صالُوا عليها * بِمَوَاضٍ تَمْضى بغيرِ جِراحِ .
يُكْثِرُون الصِّياحَ حتّى كأنّ السُّـ * ـفْنَ تَجْرى من خَوْف ذاكَ الصِّياحِ . ٥

* * *

وممّا وصفت به البحار والسفن نثرا

قال أبو عمرو صاحب الصلاة القرطبىّ يصف شانِيًا(١) سافر فيه :

"فارقتُ مولاىَ حين أخذتُ للسَّفَر عُدَّةَ الحَزْم، وشَدَدتُ عُقدة العزم، وآنتظمتُ مع السَّفْر فى سلك، وركبنا على آسم الله ظهرَ الفُلْك، فى شانٍ عظيم الشان، أحدقَتْ ١٠ به النُّطُقُ إحداقَ الحَيَازِم، وأمسكَتْه إمساكَ الأَبَازِمْ، ثم تُتُبِّع خَلَلُه فسُدّ، ورِخْوه فشُدّ، حذرًا على ألواحه من الإنخاع، وآتصلتْ بعَرَانِيسه آتصالَ الجلود بالأضْلاع، ثم جُلْبِبتْ جِلْبابا من القار، وضُمِّخ فى المَتنَيْنِ والفَقَار، فامتاز بأغرب مِيسَم، وعاد كالغُراب الأَعْصم(٢)، قد حَسُن منه المَخْبر، وكأنّ الكافور قد قُرِن فيه بالعَنْبر. له من التماسيح أجنابُها، ومن الخَطَاطيف أذنابُها، وآستقلّت رجله بفراشها، آستِقلالَ ١٥ السِّهام برِيَاشها، وقد مدّ قِلْعيه ذِراعيه متلقيا من وَفْد الرياح مصافحه، ومستهديا منها منافحه. تقلّد الحكم عليها إشْتِيَامٌ(٣) ذو تيقظ وآستبصار، وآستدلالٍ على الأعماق

(١) الشانى آسم لنوع من السفن التجارية والحربية عند المسلمين وجمعه شوانى .
(٢) أى الأبيض الجناحين (عن تاج العروس) .
(٣) الإشتيام هو رئيس الملّاحين، لفظ أعجمىّ أخذه العرب (راجع الجواليقىّ) ٢٠

والأقصار، يستدلّ باختلاف المياه إذا جرى، ويهتدى بالنجوم إذا سرى؛ قد جعل
السماء مرآة ينظر فيها، ويحذر من دجن يوافيها؛ فإذا أصدأها الظلام بحنادسه،
وصقلها الضياء بمداوسه، يسبّح الله في مصبحه وممساه، ويبسمل في مجراه ومرساه،
ويذكر ربّاً يحفظه ولا ينساه. قد اتخذ فيه مواتيه، من أنجد النواتيه؛ مشمّرين
٥ الأثواب، مدبّرين بالصواب؛ يفهمون عنه بالإيماء، ويتصرّفون له تصرّف الأفعال
للأسماء؛ ويترنّمون عند الجذب والدفع، والحطّ والرفع: بهينمة تبعثهم على النشاط.
والجمام[1]، وتؤدّيهم في عملهم بالتمام. فخرجنا ونفح الريح نسيم، ووجه البحر وسيم؛
وراحة الريح تصافح عبابه مصافحة الخلّ، وتطوى جناحه طىّ السجلّ؛ وتجول
من لججه أبرادا، وتصوغ من حبكه أزرادا: كأنما ترسم في أديم رقشا، أو تفتح
١٠ في فصوص نقشا. فلما توسطنا ثبج البحر، وصرنا منه بين السّحر والنحر، صحت الريح
من سكرها، وطارت من وكرها؛ فسمعنا من دوىّ البحر زئيرا، ومن حبال الشانى
صفيرا؛ ورأيناه يزبد ويضطرب، كأنه بكأس الجنوب قد شرب؛ واستقبلنا منه
وجه باسر، وطارت من أمواجه عقبان كواسر؛ يضطرب ويصطفق، ويختلف
ولا يتّفق؛ كأن الجوّ يأخذ بنواصيها، ويجذبها من أقاصيها؛ والشانى تلعب به أكفّ
١٥ الموج، وتفحص منها بكلكله فوجا بعد فوج؛ ويجوب منها ما بين أنجاد وأغوار،
وخنادق وأسوار؛ والبحر تحتنا كأرض تميد بأهلها، وتتزلزل بوعرها وسهلها؛ ونحن
قعود، دود على عود؛ قد نبت بنا من القلق أمكنتنا، وخرست من الفرق ألسنتنا؛
والرشّ يكتنفنا من كل جانب، ويسيل من أثوابنا سيل المذانب. فشممنا ريح
الموت، وظننّا التلف والفوت؛ وبقينا في همّ ناصب، وعذاب واصب؛ حتى انتهينا

٢٠ (١) ذهاب الإعياء والتعب.

إلى كَنَف الجَوْن، وصرنا منه فى كنّ وصَوْن ؛ وهدأ من البحر ما آستشرى، وتنادَيْنا بالبُشرى ؛ ووطِئْنا من الأرض جدَدًا ، ولبسنا أثواب الحياة جُدُدا ! ... ... "

✦✦✦

(٩٢) ومن رسالة لأبى عامر بن عقال الأندلسىّ عفا الله عنه

جاء منها :

"... وكان جَوَازه، أيده الله على بحر ساكن، قد ذل بعد آستصعابه، وسَهل بعد أن رأى الشامخ من هضَابه ؛ وصار حيُّه مَيْتا ، وهديره صَمْتا ؛ وجبالُه لا ترى بها عوَجًا ولا أَمْتا ، وضَعُف بعد تعاطيه ، وعَقَدَ السِّلْمَ بين موجه وشاطيه . فعبرَ آمِناً من لهَوَاته ، متملِّكا لصَهواته ، على جواد يقطَع البحر سَبْحا ، ويكاد يسبِق الريحَ لَمْحا ؛ لا يحمل لجاما ولا سَرْجا ، ولا يعرف غير اللُّجّة سَرْجا ؛ فلله هو من جواد ، له جسمٌ وليس له فُؤاد ؛ يخترِق الهواء ولا يَرْهَبُه ، ويركض فى المـاء ولا يَشْربُه ! ... ... "

✦✦✦

ومن رسالة للأستاذ آبن العميد فى مثل ذلك

جاء منها :

"... وكأن العشاريات وقد رُدِّيتْ بالقار، وحُلِّيت باللُّجَين والنُّضار، عرائسُ منشورةُ الذوائب ، مخضوبة الحواجب ؛ موشحةُ المَناكب ، مقلَّدة الترائب ؛ متوَّجة المَفَارق ، مكلَّلة العواتِق ، مفضَّضة الحُلَل والقَراطق ؛ أو طواويس أَبْرَزَتْ رقابهـا ، ونشرت أجنحتها وأذنابَها ؛ وكأنها إذا جدّتْ فى اللَّحاق ، وتنافست فى السِّباق ؛ نوافرُ نَعام ، أو حوافِلُ أنعام ؛ أو عقاربُ شالت بالإبَر ، أودُهْمُ الخيل واضحة الحجول والغُرَر ؛ وكأن المجاديف طير تنفُض خوافيها ، أو حبائبُ تعانِقُ حبائب بأيديها ... ... "

الباب السابع

من القسم الرابع من الفن الأوّل

فى العيون والأنهار والغُدْران

وما وُصِفت به البرك والدواليبُ والنَّواعير والجَداول

قال الله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ﴾.

قال المفسرون : هو المطر . ومعنىٰ سَلَكه أدخله فى الأرض ، وجعله عيونا ومسالك ومجارِىَ كالعُروق فى الجسَد .

قال أبو الفرج،قدامةُ بن جعفر: مجموع ما فى المعمور من الأنهار فى الأقاليم السبعة مائة نهر وأربعة وثمانون نهرا، منها :

فى الإقليم الأول ثلاثة وعشرون نهرا، وفى الإقليم الثانى تسعة وعشرون نهرا، وفى الإقليم الثالث ستة وعشرون نهرا ، وفى الاقليم الرابع أربعة وعشرون نهرا ، وفى الإقليم الخامس ثمانية وعشرون نهرا، وفى الإقليم السادس ستة وعشرون نهرا، وفى الإقليم السابع ثمانية وعشرون نهرا .

ثم قال : وفى هذه الأنهار ماجَرَيانه من المشرق إلىٰ المغرب، كنهر نَهاوَنْد ونهر سِجِسْتان ، وماجَرَيانه من الشمال إلىٰ الجنوب كدُجْلة ، وماجَرَيانه من الجنوب إلىٰ الشمال ، كنهر النِّيل ونهر مِهْران، وماجَرَيانه مركَّب من هذه الجهات ، كنهر الفراتُ وجَيْحُون ونهر الكُرِّ .

وسنذكر المشهور منها .

*
* *

فأما نهـــر النيـــل

§ فزعم قدامة بن جعفر أن آنبعاثه من جبل القمر وراء خطّ الآستواء، من عين تجرى منها عشرة أنهار، كلّ خمسة منها تنصب إلى بَطيحة . ثم يخرج من كل بطيحة نهران ، وتجرى الأنهـار الأربعة إلى بَطيحة كبيرة فى الإقليم الأول . ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل .

§ وقال صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى آختراق الآفاق" : « إن هذه البحيرة تسمّى بحيرة كُورَى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها، متوحّشون: يأكلون من وقع إليهم من الناس . ومن هذه البحيرة يخرج نهر غانَةَ، ونهر الحبشة ؛ فإذا خرج النيـل منها يشق بلاد كُورَى ثم بلاد ننه (طائفة من السودان أيضا، وهم بين كانم والنوبة)، فإذا بلغ دُنْقُلة (مدينة النوبة) عَطَف من غربيها إلى المغرب، وآنحدر الى الإقليم الثانى، فيكون على شطّيه عمارة النوبة . وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرى . ثم يشرّق إلى الجنَادل، وإليها تنتهى مراكب النوبة آنحدارا، ومراكب الصعيد إقلاعا . وهناك أحجار مضرسة لا مُرورَ للمراكب عليها إلا فى إبّان زيادة النيل . ثم يأخذ على الشَّمال فيكون على شرقيه مدينة أُسْوان من بلاد الصعيد الأعلى؛ ثم يمر بين جبلين هما يكتنفان لأعمال مصرَ، أحدهما شرقىّ والآخر غربىّ حتى يأتى مدينة مصر[1] فتكون فى شرقيه . فإذا تجاوزها بمسافة يوم، آنقسم قسمين : أحدهما يمر حتى يصب فى بحر الروم عند مدينة دمْياط، ويسمّى بحر الشرق؛ والآخر — وهو عمود النيل ومعظمه — يمر إلى أن يصب فى بحر الروم أيضا عند مدينة رَشيد، ويسمّى بحر الغرب .

(١) يشير إلى الفسطاط، أى مصر العتيقة فى عرفنا الآن .

§ قالوا : وتكون مسافة النيل من منبعه إلى أن يصب فى رشيد سبعمائة فرسخ وثمانية وأربعين فرسخا . وقيل إنه يجرى فى الخراب أربعة أشهر، وفى بلاد السودان شهرين، وفى بلاد الإسلام شهرا . »

§ وروى البخارى فى "صحيحه" عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فى حديث المعراج، قال: "ثم رُفعتُ إلى سِدْرة المنتهى، وإذا نَبْقُها مثل قلال هَجَر، وإذا ورقُها مثلُ آذانِ الفِيَلة . (قال : هذه سدرة المنتهى) وإذا أربعةُ أنهار نهرانِ باطنانِ، ونهرانِ ظاهرانِ، فقلتُ : ما هذا يا جبريلُ؟ قال: أمّا الباطنانِ، فنهران فى الجنة؛ وأمّا الظاهران، فالنيلُ والفُراتُ" . وليس فى الأرض نهر يزيد حين تنقص الأنهار وتغيض، غيره . وذلك أن زيادته تكون فى القيظ الشديد فى شمس السَّرطان والأسد والسنبلة .

§ وقد حكى فى فضائل مصر أن الأنهار تمدّه بمائها، وذلك عن أمر الله تعالى .

وقال قوم : إن زيادته من ثلوج يُذيبها الصيفُ على حسب مَدَدها، كثيرة كانت أو قليلة؛ وفى مَدَده آختلاف كثير .

§ وكان منتهى زيادته قديما ستة عشر ذراعا، والذراع أربعة وعشرون إصبعا، بمقياس مصر . فان زاد عن ذلك ذراعا واحدا، زاد فى الخراج مائة ألف دينار : لما يُروى من الأراضى العالية .

والغاية القصوى فى الزيادة ثمانية عشر ذراعا فى مقياس مصر (1) . فإذا انتهى إلى هذا الحد، كان فى الصعيد الأعلى آثنين وعشرين ذراعا : لآرتفاع البقاع التى يمرّ عليها .

فإذا ٱنتهت زيادتُه، فتحت خُلْجانات وترع تتخرّق المياه فيها يمينًا وشمالا إلىٰ البلاد البعيدة عن مجرىٰ النيل .

§ وللنيل ثمان خُلْجانات . وهى : خليج الإسكندرية، وخليج دِمياط، وخَليج مَنْف، وخليج المَنْهىٰ (حفره يوسفُ الصدّيق عليه السلام)، وخليج أُشْموم طَنَّاح، وخليج سَرْدُوس (حفره هامانُ لفرعونَ)، وخليج سَخَا، وخليجٌ حفره عَمْرو بن العاص، يجرى إلىٰ أن يصُبَّ فى السِّباخ .

§ ويحصل لأهل مصر إذا وفىٰ النيلُ ستة عشر ذراعا — وهى قانون الرى — فَرَحٌ عظيم : بحيث إن السلطان يركَبُ فى خواصّ دولته وأكابر الأمراء فى الحَراريق إلىٰ المِقْياس، ويمدّ فيه سماطا يأكل منه الخواصّ والعوامّ، ويَخْلَع علىٰ القَيَّاس، ويَصله بصلة مقرّرةٍ له فى كلّ سنة .

§ وقد ذكر بعض المفسرين "للكتاب العزيز" أن يوم "وفاء النيل" هو اليوم الذى وَعَدفيه فرعون موسىٰ بالاجتماع، وهو قوله تعالى إخبارا عن فرعون ﴿ قالَ مَوْعِدُكُمْ يومُ الزِّينَةِ وأنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ . والعادة جارية أن ٱجتماع الناس للتخليق فى هذا الوقت .

ومتىٰ قصَّر النيل عن هذا المقدار، غلَتِ الأسعارُ .

وهو إذا ٱبتدأ فى زيادته يكون مخْضَرًّا، ثم محمرًا، ثم كَدِرا .

وإذا ٱنتهى فى الزيادة غشّى الأرض، وتصير القرىٰ فوقَ الرَّوابى فلا يُتوصَّل إليها إلا فى المراكب أو علىٰ الجسور الممتدّة التى تُنفَق عليها الأموال الكثيرة وتتخذ لحفظ الماء .

فإذا انتهى رىّ مكان وأخذ حدّه ، قُطع جَسْر ذلك المكان من مكان معروف (يعرفه خَوَلة البلاد ومشايخها) تروىٰ منه الجهة التى تليها مع ما تجمع فيها من الماء المختص بها . ولولا إتقان هذه الجسور وحفر الترع لقلّ الانتفاع بالنيل .

§ وقد حكى أنه كان يُرْصَد لعمارة الجسور فى كل سنة ثلثُ الخَرَاج لعنايتهم بها : لما يترتب عليها من المصالح ، ويحصُل بها من النفع فى رىّ البلاد . ٥

§ وقد وصف بعض الشعراء النيل فى طلوعه وهُبُوطه ، فقال :

واهًا لهذا النيلِ ، أىُّ عَجيبةٍ * بِكْرٍ بمثـــل حديثِها لا يُسْمَعُ !
يَلْقَىٰ الثرىٰ فى العامِ وهو مسَلّمٌ * حتى إذا ما مُـــلَّ عادَ يُوَدِّعُ .
مستَقْبَلٌ مثلَ الهلال ، فدهْرُه * أبدا يَزِيد كما يَزيد ويَرْجِـــعُ .

١٠ وللشعراء فيه أوصاف وتشبيهات ، نذكرها بعدُ إن شاء الله تعالىٰ فى موضعها .

§ وهذا النهر مخالف فى جريه لسائر الأنهار ، لأنه يجرى مما يلى الجنوب مستقبل الشمال . وكذلك نهر مِهْرانَ بالسِّند ، ونهر الأُرُنْط ، وهو نهر حِمْص وحَمَاة ، ويسمّى العاصىَ لمخالفته للأنهار فى جريها . وما عداها من الأنهار جريُها من الشمال إلىٰ الجَنُوب : لارتفاع الشمال عن الجنوب وكثرة مياهه . (٩٤)

١٥ وهو أخفُّ المياه وأحلاها وأعمُّها نفعا وأكثرُها خراجا .

§ وقد حُكى أنه جُبِى فى أيام كيقاوش (أحد ملوك القبط الأُوَل) مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار ، وجباه عزيز مصر مائةَ ألف ألف دينار ، وجباه عمرو بن العاص آثنَىْ عشرَ ألف ألف دينار ، ثم رَذُل إلىٰ أن جُبِىَ أيام القائد جوهر (مَوْلىٰ المعزّ العُبيدىّ) ثلاثةَ آلاف ألف ومائتَىْ ألف دينار .

وسبب تقهقره أن الملوك لم تسمح نفوسهم بمـا كان يُنْفَق فى حفر تُرعه وإتقان جسوره وإزالة ماهو شاغل للأرض عن الزراعة كالقَصَب والحَلْفاء .

وحكى ٱبن لَهِيعة أن المرتَّبين لذلك كانوا مائة ألف وعشرين ألف رجل : سبعُون ألفا للصعيد، وخمسون ألفا للوجه البحرىّ .

٥ وحكى ٱبنُ زولاق أن أحمد بن المدبر لمـا وَلِىَ الخراج بمصر، كشَف أرضها فوجد غامرها أكثَرَ من عامرها، فقال : والله لو عَمَرها السلطان، لوفَتْ له بخراج الدنيا .

§ وقيل إنها مُسِحَتْ أيامَ هشام بن عبد الملك، فكان ما يركبه المـاء العامر والغامر مائةَ ألف ألف فدان. والفدان أربعمائة قصبة، والقصبة عشرة أذرع .

وٱعتبر أحمد بن المدبر مايصلح للزراعة بمصر فى وقت ولايته، فوجده أربعة وعشرينَ ألف ألف فدان. والباقى ٱستَبْحَر وتَلِف . ١٠

وٱعتبر مدّة الحَرْث فوجدها ستين يوما. والحراث يحرُث خمسين فدانا، فكانت محتاجة إلى أربعمائة ألف وثمانين ألف حرّاث .

*
* *

وأما الفـــرات

١٥ فهو أحد الرّافدين، ويقال الوافِدين، والآخر دجلة ، سميا بذلك لأنهما يجريان فى جانبى بغــداد : دجلة من شرقيها ، والفرات من غربيها : يأتى إليها من دجلة من واسط، والبصرة ، والأُبُلّة، والأهواز، وفارس، وعُمَان، واليمامة، والبحرين، وسائر بلاد الهند، والسند، والصين؛ ويأتى إليها من الفرات من المَوْصِل، وأَذْرَبِيجان، وأرْمِينِيَة، والجزيرة، والثغور، والشام، ومصر، والمغرب؛ وقد تقدّم ذكرنا لحديث البخارى أنه يجرى من تحت سدرة المنتهى . ٢٠

وأما مبتدأ جريه الذى يعرفه الناس، فمن مدينة قاليقلا من نهر يسمّى أودَخش، ويجرى مقدار أربعمائة وخمسين ميلا مغرّبا، ثم يخرج من جهة الجنوب حتّى يمرّ بين ثغرَىْ مَلَطْية، وسُمَيساط، ثم إلى جَسْر مَنْبِج، ثم يعطف ويأخذ جهةَ الجنوب حتّى يصل إلى بالِس ويمر بصِفّين، والرَّقة، وقَرْقيسيا، والرَّحْبة، فيلْتحف على عانات، ثم يمتدّ حتّى يمر بهيت والأنبار . فإذا جاوزها انقسم قسمين : قسم يأخذ نحو الجنوب قليلا وهو المسمّى بالعَلْقم، ينتهى إلى بلاد سورا وقصر ابن هبيرة والكوفة والحِلّة، إلى البَطيحة التى بين البصرة وواسط ؛ والقسم الآخر يسمّى نهر عيسى، منسوب لعيسى بن علىّ بن عبد الله بن عباس، وهو ينتهى إلى بغداد، ويمرّ حتّى يصبّ فى دجلة .

قال المسعودىّ : وقد كان الأكثر من ماء الفُرات ينتهى إلى بلاد الحيرة؛ ثم يتجاوزُها ويصب فى البحر الفارسىّ ، وكان البحر يوم ذاك فى الموضع المعروف بالنَّجَف فى هذا الوقت ، وكانت مراكب الهند والصين ترد على ملوك الحِيرة فيه .

قال : والموضع الذى كان يجرى فيه بيّن إلى زمَن وضعى هذا الكتاب، يعنى "كتاب مروج الذهب" وهو فى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، ويعرف بالعتيق، وعليه كانت وقعة القادسية .

وطول الفُرات من حيث يخرُج عند ملَطْية إلى أن يأتى ما يأتى منه إلى بغداد ستّمائةِ فرسخ وثلاثةٌ وعشرون فرسخا، وفى شطّه مُدُن فى جزائر تعدّ من أعمال الفُرات، وهى الرِّيسة، والناوُوسة، والقَصْر، والحَديثة، وعانات، والدّاليةُ .

وأما نهر دجلة

ويسمى السلامة ، وبه سميت بغداد دار السلام على أحد القولين ، والثانى السلام على الخلفاء فيها .

وهذا النهر فارز بين العراق والجزيرة، وآنبعاثه من أعين بجبال آمد ، ويصب إليه نهران يخرجان من أَرْزَن الروم ومَيَّا فَارِقين وعيون أخرى من جبال السلسلة ، فيمرّ ببلد ، ثم بالموصل فيصب فيه نهر الخابور الخارج من بلاد أرمينية بين بلاد سورا وقبر سابور ؛ ويصب فيه الزاب الأكبر الخارج من بلاد أذربيجان على فرسخ من الحديثة . ويسمى المجنون لحدّته وشدّة جريه ، ثم تمرّ دجلة فيصب فيها الزاب الأوسط، ومخرجه من الفرات ويجرى بين إِرْبِل ودَقُوقاء، ويصب فى دجلة أيضا الزاب الأصغر، ومخرجه أيضا من الفرات .

وهذه الزوابى الثلاثة أنبطها زاب بن طهماسب : أحد ملوك الفرس الأول، ثم تمرّ دجلة بتَكْرِيتَ إلى أن تجاوز سامَرَّا قليلا فيقع فيها نهر عيسى ويمرّ حتّى يشقّ بغداد . فاذا تجاوزها صب فيه نهرٌ يخرُج من بلاد أرمينيَةَ يسمّى تامَرًّا بعد أن يمرّ بناصلو ثم بَباجِسْرَا فيسمّى النهروان، ويشق مدينةً تعرف به، ثم تمرّ دجلة بجَرْجَرَايَا والنُّعمانية ثم بواسط، ثم إلى البطائح، ثم تخرج منها فتمرّ بالبصرة وتجرى حتّى تنتهى إلى عَبَّادان، وعندها تصبّ فى البحر الفارسىّ .

وما يمرّ من دجلة بالبصرة يملُح إذا مدّ البحرُ فلا يُشرب منه آلبتة ، ويحلو إذا جَزَر . فأهل البصرة ينتظرون بالآستقاء منه الجَزْر، وهو يمدّ بكرةً ويجْزِر عشاء .

وكانت المراكب التي ترد من الهند والصين تدخل في دِجلة من بحر فارس إلىٰ
مدينة المَدَاين ، فاتفق أن آنبثق في أسافل كَسْكر بَثْقٌ عظيم علىٰ عهد قُباذ بن فيروز
فأهمل حتّى طغىٰ ماؤه وغرّق عماراتٍ وضياعا فصارتْ بطائح .

ويسمّى هذا البَثْق دِجلة العَوْراء لتحوّل الماء عنه . وصار بين دِجلة الآن ودِجلة
٥ العوراء مسافة بعيدة تسمّى بطن جُوخىٰ ، وهو من حدّ فارس من أعمال واسط إلىٰ
نحو السُّوس من أعمال خُوزِستان .

ويقال إن كسرىٰ أنفق أموالا عظيمة علىٰ أن يحوّل الماء إليها فأعياه ذلك .
ورامه خالد بن عبد الله القَسْرى فعجز عنه .

§ ومقدار مسافة جَرْيِ نهر دِجلة إلىٰ أن يصب في البحر الفارسي ثلثمائة فرسخ ؛
١٠ ومقدار البطائح ثلاثون فرسخا طولا وعرضا . وهي تفيض في كثير من الأوقات
حتى يخشىٰ علىٰ بغداد الغرق .

* * *

وأما نهر سِجِسْتان

§ ويسمّى الهِنْدِمَنْد[1] ، فيقال إن منوچهر بن أَيراج[2] بن أفريدون أنبطه .

١٥ § وهو يجرى من عيون في بلاد الهند و يمرّ ببلد الغُور ، فإذا تجاوزها ، مرّ من أعالى
سِجِستان علىٰ برُخّج ، ثم علىٰ بُسْط[3] ، ثم علىٰ دونج[4] فتتفرّع منه أنهار تجرى
في شوارعها ، ثم يمرّ عمود النهر حتّى يصب في بحيرة زَرَة .

(١) وسماه المسعودي "الهرمند" في كتاب "التنبيه والإشراف" .
(٢) في المسعودي "أيران" وقال : إن أيران تسميه الفرس أيراج .
٢٠ (٣) هي المشهورة بأسم "بست" . ومنها أبو الفتح البستّي الشاعر المعروف .
(٤) لم أعثر على هذا الأسم فيما بيدى من كتب الجغرافية العربية ، ولعلها هي نفس المدينة التي ذكرها ياقوت وغيره بأسم "زرنج" وقال إنها قصبة سجستان .

§ وطول هذا النهر من حيث يبتدئ إلىٰ نهايته مائة فرسخ .

وزعم قوم أنه يخرج من نهر الكَنْك .

* * *

وأما نهر مِهْران

§ وهو نهر السند[1]، فهو يشبه نِيلَ مصر فى زيادته ونَقْصه واصناف حيوانه وما يتفرّع منه من الخُلْجان .

§ وهو يستمدّ من أربعة أنهر : نهران يجريان من السند، ونهر من ناحية كابُل، ونهر من بلاد قِشْمير . وتجتمع فتكون نهرا واحدا، ويجرى حتّى ينتهى إلىٰ الدور فيمرّ بها، ومن ثم يسمّى نهر مِهْران ، ثم يمرّ بالمُولْتان، ثم بالمنصورة، ثم يجرى إلىٰ دَيْبُل . فإذا تجاوزها صب فى بحر الهند علىٰ ستة أميال منها .

§ وطوله ألف فرسخ .

* * *

وأما نهر جَيْحون[2]

ويسمّى بالفارسية "به روذ" وهو "نهر بلخ"[3] .

§ وآنبعاثه من بحيرة فى بلاد التُّبّت، مقدارها طولا وعرضا أربعون ميلا، تجتمع من أنهار الخُتَّل .

---

(١) لا يزال آسم "مهران" علما يطلقه بعض الهنود إلىٰ الآن علىٰ القسم الأسفل من نهر السند .

(٢) فى الأصل "جيحان" . وهو خطأ لأن جيحان نهر آخر فى آسيا الصغرى و يعرف بنهر المصيصة و يصب فى بحر الشام . أنظر ياقوت وآبن رسته فى "التنبيه والإشراف" .

(٣) ويسمى أيضا نهر كالف علىٰ مارواه المسعودى بآسم قلعة حصينة ، قال ياقوت إنها قائمة علىٰ طرفه شبيهة بالمدينة بينها و بين بلخ ثمانية عشر فرسخا .

فإذا خرج منها من بَوخَّان فيسمّى نهر جرياب (١) ، ويجرى من المشرق إلى المغرب إلىٰ أعلىٰ حدود بَلْخ . ثم يعطف إلىٰ ناحية الشمال إلىٰ أن يصير إلىٰ التِّرْمِذ، ثم منها إلىٰ زَمّ وآمُل من بلاد خُراسان . ثم يجرى إلىٰ أن يمرّ ببلاد خُوارَزْم فيشُق قصَبَتها .

فإذا تجاوزها تشعَّب منه أنهار وخُلجان يمينا وشمالا، تصُب إلىٰ مستنقَعات وبطائحَ يصاد فيها السمك .

ثم تخرج منها مياه تجتمع وتصير عمودا واحدا ، تجرى مقدارَ أربعة وعشرين فرسخا، ثم تصب فى بحيرة خوارزم .

§ ويكون مقدار جريه من مبدئه إلىٰ نهايته ثلثمائة وخمسين فرسخا. وقيل: أربعمائة. وساحله يسمّى الرُّوذَبار (٢) .

ويقال إنه يخرج منه خليج يأخذ سَمْتَ المغرب حتّى يقرب من كَرْمان، ثم يمضى حتّى يصبَّ فى بحر فارس .

§ ونهر جَيْحون ربما جَمَد فى الشتاء حتّى تعبر عليه القفول . قالوا : ويبتدئ جموده من ناحية خوارزم .

* * *

وأما نهر سَيْحُون

ويسمّى نهر الشَّاش، وهو فارزٌ بين بلاد الهياطلة وبلاد تُرْكُستان .

§ قال ابن حوقل : مبتدؤه من أنهار تجتمع فى حدود بلاد التُّرك [والإسلام] ، فتصير عمودا واحدا وتجرى حتّى تظهر فى حدود أُوزْكَنْد من بلاد فَرْغانة فتصب فيه

(١) فى الأصول "جواب" والتصحيح عن الاصطخرى وابن حوقل .

(٢) قال ياقوت : كأن معناه بالفارسية "موضع النهر" . ثم نقل عن السمعانىّ أن الروذبار لفظة لمواضع عند الأنهار الكبيرة فى بلاد متفرّقة . ثم ذكر روذبار بلخ ثم قال وبالشاش أيضا قرية يقال لها روذبار من وراء جيحون . [ولعل المراد هنا بلاد النهر أى نهر جيحون كما قالوا زنجبار أى بلاد الزنج] .

فيعظم ويكثر ماؤه، ثم يمتد إلىٰ فاراب. فإذا تجاوزها يجرى فى برّية فيكون علىٰ جانبيه الأتراك الغُزِّيّة ، ويمرّ إلىٰ أن يصب فى نهر جَيْحون[1] .

وبين موقعه فى النهر وبين بُحيرة خوارزم عشرة أيام .

* * *

وأما نهر الكَنْك[2]

وهو نهر تعظِّمه الهند، فينبعث من بلاد قِشْمير ويجرى فى أعالى بلاد الهند .

§ وهم يزعمون أنه من الجنة فيعظِّمونه غاية التعظيم .

(٩٦) § ومن عجائبه أنه إذا ألقى فيه شىء من القاذورات ، أظلم جَوُّه ورجَفَتْ أرجاؤه وكثُرت الأمطارُ والرياحُ والصواعقُ .

§ وقد وصفه العُتْبىّ فى "التاريخ اليمينى" فقال :

"وهذا النهر الذى يتواصف الهنود قدرَه وشرفَه، فيرون من عين الخلد التى فى السماء مُغترفه، إذا أُحرق منهم ميت ذَرّوه فيه بعظامه ، فيظنون أنّ ذلك طُهْر لآثامه ؛ وربما أتاه الناسك من المكان البعيد فيُغْرِق نفسه فيه، يرىٰ أنَّ هذا الفعل يُنْجيه. والهنود يُفْرِطون فى تعظيمه حتّى إنّ الرجل منهم إذا أراد الفوز، أحرق نفْسَه وألقى رماده فيه، أو يأتى إلىٰ النهر (وهناك شجر القَنَا فى غاية الآرتفاع، وقوم هناك بأيديهم سيوف مسلولة وخناجر) فيرْبِط نفسه فى طَرَف قناة، ثم يحزّ رأسه بيده

(١) آختصر المؤلف كلام آبن حوقل آختصارا خفيفا (وانظر كلام آبن حوقل فى كتابه "المسالك والممالك" ص ٣٩٢ — ٣٩٣) .

(٢) قال أبو الفدا إن آسمه الهندى : كانكو وسماه المسعودى "جَنْجَسْ" فى كتاب "التنبيه والإشراف" .

فيبقى الرأس معلقا فى طَرَف القنـاة وتسقط الجثةُ، أو يلقى نفسَه من شاهق علىٰ تلك السيوف والخناجر فيتقطع، ومنهم منَ يلقِى نفسه فى النهر فيَغْرق" .

*
* *

وأما نهـــر الكُر

فهو نهر بأرض أرمينِيَة .

§ وآنبعاثه من بلاد اللّان، فيمرّ ببلاد الأبخاز[1] حتّى يأتى ثغر تَفْليس فيشقُّه ويجرى فى بلاد الساوَرْدية[2]. ثم يخرج بأرض بَرْذَعَة، ويجرى إلىٰ بَرْزَنج فيصب فيه نهر الرَّسّ .

§ وهذا النهر هو المذكور فى القرآن العزيز فى قوله تعالىٰ ﴿ وأصحابُ الرس[3] ﴾ علىٰ ما ذهب إليــه بعض المفسرين . فإذا صب فيه هذا النهر، صارا نهرا واحدا يصب فى بحر الخَزَر .

§ ونهر الرَّسّ يخرج من أقاصى بلاد الروم، علىٰ ما زعم المسعودى .

*
* *

وأما نهـــر إتِل

§ وهو نهر عظيم، فهو نهر الخَزَر .

§ ويمرّ جانبه الشرقىّ علىٰ ناحية خَرْخِيز، ويجرى ما بين الكيماكية والغُزِّية . ثم يمتدّ غربيًا علىٰ ظهر بُلغار[4] وبُرْطاس والخَزَر . ثم ينقسم قسمين : أحدهما إلىٰ مدينة إتل

(١) فى الأصل "الأبجار" . والأصوب "الابخاز" وهو اسم لجهة من بلاد أرمينيه (وقد ذكر الابخاز كل من الإصطخرى وآبن حوقل والمقدسى وآبن خرداذبة والمسعودى) .

(٢) جيل من الأرمن يسميهم العرب أيضا "السياوردية" ويصفونهم بأنهم "أهل العبث والفساد والتلصص (عن حاشية فى ص ١٩٢ من "مسالك الممالك" للإصطخرى) .

(٣) فى الاصل "كذب أصحاب الرس المرسلين" وهو غير نظم القرآن، فتنبه .

(٤) مدينة كانت على نهر الإتل ببلاد الروسيا . ومنها خرج البلغار الى البلاد المعروفة الآن باسمهم .

يشقُّها بنصفين ويجرى إلىٰ أن يصب فى بحر الخَزَر، ويجرى الآخر فيمرّ ببلد الرُّوس حتّى يصب فى بحرهم وهو بحر سُوداق .

§ ويقال إنه يتشعب منه نَيِّف وتسعون نهرا، وإذا وقع فى البحر، يجرى فيه مسيرة يومين ثم يغلب عليه .

§ وقيل إنه يجمُدُ فى الشتاء، ويتبين لونه فى لون البحر . ٥

والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ما فى المعمور
من الأنهار والعيون التى يُتَعجَّب منهـا

قال صاحب " مباهج الفكر ومناهج العبر " فى كتابه :

١٠ «وذكر المعتَنُون بتدوين العجائب فى كتبهم التى وضعوها لذلك أن فى المعمور أنهارا وعيونا يُتعجَّب منها إذا أُخبِرعنها . فذكروا منها نهر الـكَنْك (وقد تقدّم ذكره) وأن بأرض الهند مكانا يعرف بعقبة عَوْرك فيه عين ماء لا تقبل نَجَسا ولا قَذَرا ؛ وإن أُلقى فيهـا شىء من ذلك، اكفهرّت السماء وهبّت الريح وكثر الرعد والـبرق والمطر . فلا تزال كذلك إلىٰ أن يُخْرَج منها ما طُرِح فيها .

١٥ «وذكروا أن فى ناحيـة البامِيَان عينا تسمّى دِيوَاش تفور من الأرض كغَلَيان القدر؛ متىٰ بصق فيها إنسان أو رمىٰ فيها شيئا من القاذورات، ازداد غَلَيانها وفورانها وفاضت. فربمـا أدركَتْ من جعل ذلك فيها فغرّقته .

«وبناحية البامِيان أيضا عين تجرى من جبل فى بعض الأحيان . فإذا خرج ماؤها، صار حجرا أبيض .

«وبقرية من أعمال فارس كَهْف بين جبال شاهقة فيه حُفْرة بقدر الصَّحْفة، يقطُر فيها من أعلىٰ الكهف ماء: إن شرب منه واحد لا يفضل عنه منه شيء، وإن شرب منه ألف عَمَّهم وأرواهم .

«وبناحية أردشيرجرد (١) عين يجرى منها ماء حلو يُشرَب لشَفْية الجوف . فمن شرب منه قَدَحا أقامه مرة، وإن زاد فعلى قدر الزيادة .

«وبدارِينَ من أعمال فارس نهر ماؤه شَرُوب. إذا غُطَّت فيه الثياب خَضَّرها .

«وفى بعض رساتيق هَمَذان عيون متىٰ خرج منها الماء تحجَّر .

«وبنواحيها أيضا ماء يخرُج من تحت قلعة ويجرى فى جَداوِلَ إلىٰ بعض الرساتيق . فما تشبَّث منه فى صَدْع أو شقّ صار حجرا صَلْدا ، وإذا صُبَّ فى خَزَفة وأقام فيها ثلاثة أيام ثم كُسِرت، وجد فى جوفها أخرىٰ قد تحجرت من الماء .

«وبناحية تَفْليس عين تنبعُ، فإذا خرج منها الماء صار حَيَّات .

«وبأرض القُدْموس من حصون الدَّعْوة برَبَضها حَمَّام يجرى إليها الماء من عين هناك . فإذا كان فى أوّل شهر تَمُّوز ينبُع فى الحمَّام حَيَّات فى طول شبرين أوَّلا، ثم فى طول شبر، وتكثر. ولا توجد فى غير الحمام . فإذا انقضىٰ شهر تَمُّوز، عُدمت تلك الحيَّات، فلا توجد إلىٰ العام القابل .

«وبأرض أرْمِينِيَة واد لا يقدر أحد ينظر إليه ولا يقف عليه ولا يُدْرىٰ ما هو . إذا وضعت القدر علىٰ ضَفَّته غلتْ ونَضِج ما فيها . وفيها واد عليه الأَرْحَاء والبساتينُ، ماؤه حامض؛ فإذا نزل فى الإناء، عَذُب وحَلَا .

(١) فى معجم ياقوت "أَرْدَشِيرخُرَّه" مضبوطاً بالعبارة .

«وبالمَرَاغة عيون اذا خرج ماؤها لم يلبثْ إلا قليلا حتى يتحجّر . فمنه تُفْرَش دورهم .

«وبنواحى أَرْزَن الروم ماء يستقى فيستحجر و يصير مِلْحا .

«وأكثرُ مياه بلاد اليمن تستحيل شَبًّا .

«وبنواحى واحات من أعمال مصر عيون مياهها ألوانٌ مختلفة : من الحُمْرة والصُّفْرة والخُضْرة . تسيل إلى مستنقَعات ، فتكون مِلْحا بحسب ألوانها . ٥

«وفى هذه الناحية عيون يطبخ بمائها بدلًا عن الخَلّ .

«وبنواحى أُسْوان من الصعيد الأعلى مستنقعاتٌ منها النِّفط .

«وكذلك بتَكْرِيت من أرض العراق .

«و بأرض كَامة(١) من بلد إفريقيّة عين تسمّى عينَ الأوْقاتِ . تجرى فى أوقات الصلوات الخمس . فإذا حضَرَ جُنُبٌ أو امرأة حائضٌ، لا تَبِضُّ بشىء من المـاء . و إذا اتُّهِم رجلان، أتتْ بالمـاء للصادق وشحّتْ على الكاذب . ١٠

«وببلد إفريقية أيضا عين تنبعُ بالمِداد، يكتُب به أهل تلك الناحية .

«وبطَرْطُوشَة من بلاد الأَنْدَلُس واد يجرى رملا .

قال : وذكر بعض أصحـاب المجاميع أنه كان بمدينـة طَحَا من كُورة الأُشْمونين من صـعيد مصر بئر فيها ماء مَعِين يُشْرب منها طولَ أيام السنة فيكون المـاء كسائر المياه، حتّى إذا كان أوّلُ يوم من برمودة من شهور القبط فن شَرِب من ذلك المـاء ١٥

(١) فى الأصل : "كامة" وهو غلط من الناسخ، لأن "كَتَامة" قبيلة من البربر منتشرة فيا بين برقة الى أرض الجزائر .

يومئذ خدمته الطبيعة مقدار ما شرب . فاذا كان وقتُ الزوال عاد المـاء إلىٰ حالته الاولىٰ، ثم لا يفعل كذلك إلا فى مثل ذلك اليوم من العام القابل .

وقال : إنه كان بمدينـة الأُشمونين كنيسة تعرف ببوجرج إلىٰ جانبها بئر لاندادوة فيها ولا بلل فى سائر أيام السـنة، فاذا كان اليوم العاشر من طوبة من شهور القبط
٥ تمتلئ تلك البئر ماءً شَرُوبا . فلا يبقىٰ أحد من نصارىٰ ذلك البلد إلا ويأخذ من ذلك المـاء للتبرّك به . حتّى إذا كان عند الزوال، غاض المـاء فلا يبقىٰ فى البئر منه شىء ويجفّ لوقته .

«وبأرض مَرْمَنيثا من عمل حصن الأكراد عين تسمّى الفَوّارة . تكون فى غالب الأوقات بينها وبين وجه الأرض تقديرُ ثلاثة أذرع . وتفور فى بعض الأيام ويخرج
١٠ منها ماءٌ يدير أرحيةَ الطواحين ويسقى البساتينَ فيستمر كذلك بعض يوم ثم يغور ، ويتكرر ذلك فى الاسبوع مرتين وثلاثة .

«وبقلعة بعْلَبك من الشام بئر تعرف ببئر الرحمة لا يُرىٰ فيها الماء إلا إذا حُوصرت . فإنها عند ذلك تمتلئ حتّى تفيض . فإذا زال الحصار جَفّتْ » .

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر المـاء

١٥ (ما جاء من ذلك علىٰ لفظ افعل)

الأمثـال :

يقـال :

أسْرَعُ من المـاء إلىٰ قَرَاره .

أرَقُّ من المـاء .

٢٠ أحمقُ من لاعِقِ المـاء .

أحمقُ من القابض على الماء .

أصفى من ماء المَفَاصِل .

أعذَبُ من ماء المَفَاصل .

أجْرى من الماء .

أعذَبُ من ماء الحَشْرَج .

أعذَبُ من ماء البارِق .

ألطفُ من الماء .

أوجدُ من الماء .

ويقال :

أنْ تَرِدِ الماءَ بماء أكْيَسُ .

ماءٌ ولا كَصَدّاء .

قد بَلَغ الماء الزُّبى .

ويقال :

فلان يرقُم على الماء . (إذا كان حاذقا) .

تَأْطَةٌ مُدَّتْ بماء . (للأمر يزداد فسادا) .

ليس الرِّىُّ فى التَّشَافّ . (فى ذم الاستقصاء) .

الماءُ إذا طال مكثُه ، ظهر خَبثُه ، وإذا سكَنَ مَتْنه ، تحرّك نَتْنه .

الكَدَر من رأس العَيْن .

إذا عَذُبت العُيون ، طابَت الأنهار .

هذا غَيْض من فَيْض ، وبَرْضٌ من عِدّ . (أى قليل من كثير) .

ومن أنصاف الابيات :

* والمرءُ يَشْرَق بالزُّلَال البـارِد! * * كذلك غَمْرُ الماءِ يُروِى ويُغْرِق! *

* والمَشْرَبُ العَذْبُ كَثِير الزِّحام! * * مَوَاقِع الماءِ من ذى الغُلَّةِ الصادِى! *

* وكيف يَعَافُ الرَّنْقَ مَنْ كان صادِيا؟ *

٥ ومن الابيـات :

يا سَرْحةَ الماءِ قد سُدّتْ مَوَارِدُه * أمَا إليك سَبِيلٌ غيرُ مسـدود؟

لحـائِمٍ حامَ حتّى لا حِيَـام به * مُحَلَّإٍ عن طريق المـاء مَصْدُود!

وقال آخر :

أيَجُوزُ أخْذُ المـاءِ من * متَلَهِّبِ الأحشاءِ صادِى؟

١٠ وقال آخر :

أرىٰ ماءً وبِى عطَشٌ شديدٌ، * ولكن لا سـبِيلَ إلىٰ الوُرُود!

وقال آخر :

مَنْ غُصّ داوىٰ بشُرْب الماء غُصَّتَه، * فكيف يَصْنَعُ من قد غُصّ بالماءِ؟

وقال آخر :

١٥ وما كُنْتَ إلّا المـاءَ جئنا لشُرْبه، * فلَمّـا ورِدْناه إذا المـاءُ جامد!

وقال آخر :

وفى نَظْرة الصادى إلىٰ الماء حَسْرةٌ، * إذا كان ممنوعًا سَبِيلَ المَـوارِد!

وقال آخر :

وإنّى للمـاءِ المخالِط للقَـذىٰ * إذا كثُرتْ وُرّادُه، لَعَيُوفُ!

وقال آخر :

سأقْنَع بالثِّمادِ، لَعَلَّ دهْرًا * يَسُوقُ المـاءَ من حُرٍّ كَرِيم!

وقال آخر :

وَمَنْ يَأْمَنِ الدنيا يَكُنْ مِثْلَ قابِضٍ * علىٰ المـاء، خانَتْه فُروجُ الأصابِـعِ.

وقال آخر : ٥

وإنّى وإشْرافى عليـك بِهمَّتى * لَكَالمبتغى زُبْدًا من المـاء بالمَخْض.

وقال آخر :

فَقُلْ فى مَكْرَع عَذْب، * وقـد وافَاهُ عَطْشانُ!

وقال آخر :

وكيف الصَّبْرُ عنك، وأىُّ صَبْرٍ * لظمآنٍ عن المـاءِ الزُّلَالِ؟ ١٠

وقال آخر :

وإنَّ المـاءَ فى العِيدانِ يَجْرِى، * ورُبَّمَـا تغَــيَّر فى الحُلُوق!

وقال آخر :

إذا أنا عاتَبْتُ المَلُولَ فإنَّمـا * أَخُطُّ بأقلامٍ علىٰ المـاءِ أَحْرُفا!

وقال آخر : ١٥

والمـاء ليس عجيبًـا أنّ أعذَبَهُ * يفنىٰ، ويمتدّ عُمْر الآجِنِ الأَسِن.

وقال آخر :

المالُ يُكْسِب أهلَه، مالم يفضْ * فى الراغبين إليـه، سُوءَ ثناء.

كالمـاء تأْسِنُ بِئْرُه إلا إذا * خَبط السُّــقاةُ جِمامَه بِدِلاء.

ذكر شىء مما قيل فى وصف الماء وتشبيهه

§ فأما ما آختص به نهر النيل من الوصف .

فمن ذلك قول آبن النَّقِيب :

كأنَّ النِّيلَ ذُو فَهْمٍ ولُبٍّ * لما يَبْدُو لعَيْنِ الناس مِنْه .
فيأْتِى حِينَ حاجَتِهم إليه، * ويَمْضِى حِينَ يَسْتَغْنُون عنه !

وقال تميم بن المعزّ العُبَيدىّ :

يَوْمٌ لنا بالنِّيلِ مُخْتَصَرُ * ولكُلِّ يومِ مَسَرَّةٍ قِصَرُ .
والسُّفْن تَجْرِى كالخُيُول بنا * صُعُدًا، وجيشُ الماءِ مُنْحَدِرُ .
فكأنَّما أمواجُه عُكَنٌ * وكأنَّما داراتُه سُرَرُ .

§ ومن رسالة للقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى قال :

وأما النيل فقد ملأ البِقَاع ، وآنتقل من الإصبع إلى الذِّراع . فكأنما غار على الأرض فغَطَّاها ، وغارَ عليها فاستَقْعدها وما تخَطَّاها . فما يوجد بمصر قاطِعُ طريق سواه ، ولا مرغوبٌ مرهوبٌ إلا إيَّاه .

وأما ما آختصت به دجلة من الوصف .

قال التنوخىّ :

وكأنَّ دِجْلَةَ إذ تَغَمَّض موجُها * مَلِكٌ يُعَظَّم ، خِيفةً ويُبَجَّلُ .
عذُبَتْ ، فما أَدْرِى أماءٌ ماؤُها * عند المَذَاقة أم رَحِيقٌ سَلْسَلُ ؟
وكأنَّها ياقوتةٌ أو أَعْيُنٌ * زُرْقٌ يُلاءَم بَيْنَها ويُوصَّلُ .
ولها بمَدٍّ بعد جَزْرٍ ذاهِبٍ * جَيْشانِ : يُدْبِرُ ذا ، وهذا يُقْبِلُ .

وقال محمد بن عبد الله السلامىّ ، شاعر "اليتيمة" :

وميدانٍ تَجُولُ به خُيولٌ * تَقُود الدّارِعين[1] ولا تُقادُ.
رَكِبْتُ به إلى اللّذات طِرفًا * له جِسْمٌ وليس له فُؤادُ.
جرى فظنَنْتُ أن الأرضَ وجهٌ * ودجلةَ ناظرٌ وهو السَّوادُ.

٥

وقال الصنوبرىّ :

فلمّا تعالى البدرُ وٱشتدّ ضَوْءُه * بدِجْلةَ فى تَشْرِين بالطُّول والعَرض
وقد قابل المَاءَ المفضَّض نُورُه * وبعضُ نجوم الليل يُطْفِى سَنا بَعْض،
تَوهَّمَ ذُو العين البَصِيرة أنه * يَرَى ظاهِرَ الأفلاك فى باطِن الأرض.

ومما وصفت به الأنهار

١٠

قال الصنوبرى :

والعَوجانُ الذى كَلِفتُ به * قد سُوِّى الحُسْنُ فيه مُذْ عَوِجْ.
ما أخطأ الأَيْمَ فى تَعَوُّجِه * شيئًا إذا ما ٱستقام أو عَرَّجْ.
تُدرِّجُ الريحُ مَتْنَه فترَى * جَوْشَنَ ماء عليه قد دَرَّج.
إن أعنقتْ بالجَنُوب أعْنَقَ فى * لُطْف، وإن هَمْلَجتْ به هَمْلَج.
من أينَ طافَتْ شمسُ النهارِ به * حَسِبْتَ شَمْسًا من جَوْفِه تَخْرُج.

١٥

وقال أبو فراس :

(٩٩)

والماءُ يَفْصِل بين زَهـ * ـر الرَّوض فى الشَّطَّين فَصْلا.
كبِسَاطِ وَشْىٍ جَرَّدتْ * أيدِى القِيَان عليه نَصْلا.

(١) أنظر قبل هذا ص ٢٥٦ فى وصف البحر والسفن . وكتب فى بعض الأصول عند هذا الموضع لفظة "مكرر" .

٢٠

وقال الناجم :

أُنظُرْ إلى الرّوض الذّكى * فحُسْنُه للعين قُرّهْ !

فكأنّ خُضرتَه السما * ءُ، ونَهْرُه فيه المجَرّهْ.

وقال عبد الله بن المعتزّ :

وترى الرِّياحَ إذا مسَحْنَ غَديرَه * وصَفَيْنَه ونَقَيْنَ كُلَّ قذاةِ،

ما إنْ يزالُ عليه ظَبْيٌ كارعٌ * كتَطَلُّعِ الحَسْناءِ في المِرْآةِ.

ومثله قول الآخر :

وغَديرٍ رقّتْ حواشيه حتى * بانَ في قَعْره الذي كان ساخَا.

وكأنّ الطُّيورَ إذ ورَدَتْه * من صَفاءٍ به، تَزُقُّ فِراخَا.

وقال آخر :

والنَّهرُ مكْسُوٌّ غِلالةَ فضّةٍ، * فإذا جرى سَيْلٌ، فثوبُ نُضَارِ.

وإذا استقام، رأيتَ صَفْحةَ مُنْصُلٍ(١)، * وإذا استدار، رأيتَ عطْفَ سِوارِ.

وقال أبو مَرْوان بن أبي الخصال :

النَّهْرُ قد رَقّتْ غلالةُ خَصْرِه * وعليه من صِبْغ الأصيلِ طِرازُ.

تترقرقُ الأمواجُ فيه كأنّها * عُكَنُ الخُصُورِ تهُزُّها الأعجازُ.

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي :

لله نَهْرٌ سالَ في بَطْحاءِ * أشهى وُرُودًا من لَمَى الحَسْناءِ!

وغدَتْ تَحُفُّ به الغُصونُ كأنّها * هُدُبٌ تحُفُّ بمُقْلةٍ زَرْقاءِ.

والرِّيح تعْبَثُ بالغُصُون وقد جرى * ذهَبُ الأصيلِ على لُجَيْنِ الماءِ!

(١) المنصل (بضم فسكون فضم) هو السيف.

وقال أبو القاسم بن العطار :

مَرَرْنا بشاطِى النهرينِ حدائقٍ * بها حَدَقُ الأزهار تستَوقفُ الحَدَقْ .
وقد نَسَجتْ كَفُّ النَّسيم مُفاضةً * عليه ، وما غيرُ الحُبَابِ لها حَلَقْ !

وقال محمد بن سهل البلخى ، شاعر «الذخيرة» :

راقَنَا النهرُ صَفَاءً * بعدَ تَكْديرِ صَفائِهْ .
كان مثْلَ السيفِ مُدْمًى * فجَلَوْهُ من دِمائِهْ .
أو كمِثْلِ الوَرْدِ غَضًّا * فهو اليومَ كمائِهْ .

وقال القاضى التَّنوخى ، شاعر «اليتيمة» :

أحْبِبْ إلىّ بنهرِ مَعْقِلٍ الذى * فيه لقَلْبِى من هُمومى مَعْقِلُ !
عَذْبٌ إذا ما عَبَّ فيه ناهِلٌ * فكأنَّه من رِيقِ حِبٍّ يَنهَلُ .
متسَلْسِلٌ فكأنَّه لصَفائِه * دمعٌ بخَدَّىْ كاعِبٍ يتَسَلْسَلُ .
فإذا الرِّياحُ جَرَيْن فوقَ متُونِه * فكأنَّها دِرعٌ جلاه الصَّيْقَلُ !

وقال مؤيد الدين الطُّغْرائىّ فى الغدير :

عُجْنا إلى الجَزْع الذى مدّ فى * أرجائِه الغَيمُ بِسَاطَ الزَّهَرْ .
حَوْلَ غَديرٍ ماؤُه المنتمِى * إلى بنَاتِ المُزْنِ يَشْكو الحَصَرْ .
لو لاذَهُ[(١)] الرِّيحُ سَمُومًا به * لانْقلبَتْ وهى نَسِيمُ السَّحَرْ .
حَصْباؤُه دُرٌّ ورَضْراضُه * سُحالةُ العَسْجدِ حَوْلَ الدُّرَرْ .
وقد كَسَتْه الرِّيحُ من نَسْجِها * دِرْعا به يلْقَى نِبَالَ المَطَرْ .

(١) كذا بالأصل . وفى ديوانه : "لو لاذت الريح الخ"، وهو الصواب .

وألبستهُ الشمسُ من صِبْغِها * نُورًا به يَخْطَفُ نُورَ البصَرْ.
كأنّها المِرْآة مَجْلُوّةٌ * على بِساطٍ أخْضَرٍ قد نُشِرْ.

وقال أيضا :

مِلْنا إلى النَّشْرِ الذى تَرْتَقِى * إليه أنْفاسُ الصبا عاطِرَهْ.
٥ حولَ غديرٍ ماؤه دارِعٌ * والأرضُ من رِقّتِه حاسِرَهْ.
والشمسُ إن حاذَته رأْدَ الضُّحى * حسْناءُ فى مِرْآتها ناظِرَهْ.
والشُّهْب إن حاذته جُنْحَ الدُّجى * تَسْبَحُ فى لُجّتِه الزاخِرَهْ.
قد رُكِّبَ الخضْراءُ فيه، فمِنْ * حَصْبائِه أنجُمُها زاهِرَهْ.
يَخْضَرُّ (١) إن مرت بأرجائِه * لَفْحُ سَمُومٍ فى لَظى هاجِرَهْ.
١٠ أُنْمُوذَجُ الماءِ الذى جاءنا الـ * ـوعدُ بأن نُسْقاه فى الآخِرَهْ!

ومما وصفت به البرك

قال البحترىّ عفا الله عنه :

يامَنْ رأى البِرْكةَ الحَسْناءَ رؤيتَها * والآنساتِ التى لاحتْ مَغانيها!
ما بالُ دِجْلةَ كالغَيْرَى تُنافسُها * فى الحُسْنِ طَوْرا، وأطْوارا تُباهيها؟
١٥ كأنَّ جِنّ سُلَيْمانَ الذين وَلُوا * إبْداعَها فأدَقُّوا فى مَعانيها.
فلو تَمُرُّ بها بِلْقِيسُ عن عُرُضٍ، * قالتْ: هى الصَّرْحُ تمثيلًا وتشبيها.
تَنْصَبُّ فيها وُفُودُ الماءِ مُعْجِلَةً * كالخَيْلِ خارجةً من حَبْلِ مُجْرِيها.
كأنّما الفِضّةُ البيضاءُ سائلةً * من السبائكِ تَجْرِى فى مَجارِيها.

(١) فى الأصل "يخضر" وفى ديوانه (الموجود منه نسخة مخطوطة «بدار الكتب المصرية») "يحضر"
٢٠ ولا معنى لهما . ولعل الصواب "يخصر" من الخَصَر، وهو شدّة البرد كما يرتضيه السياق .

إذا علتها الصبا أبدت لها حُبُكاً * مثل الجواشن مصقولاً حواشيها.
إذا النجوم تراءت في جوانبها * ليلاً، حسبت سماءً رُكِّبت فيها.
لا يبلغ السمك المحصور غايتها * لبُعد ما بين قاصيها ودانيها.
يعُمن فيها بأوساط مجنحة * كالطير تنقض في جو خوافيها.
كأنها حين لجت في تدفقها * يد الخليفة لما سال واديها! ٥

وقال ابن طباطبا :

كم ليلة ساهرت أنجمها لدى * عرصات أرض ماؤها كسمائها.
قد سُيِّرت فيها النجوم كأنما * فلك السماء يدور في أرجائها.
أحسن بها بحرًا إذا التبس الدجى، * كانت نجوم الليل من حصبائها!
ترنو إلى الجوزاء وهي غريقة * تبغي النجاء، ولات حين نجائها! ١٠
تطفو وترسب في اصطفاق مياهها * لا مستعان لها سوى أسمائها.
والبدر يخفق وسطها فكأنه * قلبٌ لها قد ريع في أحشائها.

وقال عبد الجبار بن حمديس، يصف بركة يجرى إليها الماء من شاذروان من أفواه طيور وزرافات وأسود، من أبيات :

والماء منه سبائك من فضة * ذابت على دولاب شاذروان! ١٥
فكأنما سيفٌ هناك مشطب * ألقته يوم الروع كف جبان!
كم شاخص فيه يطيل تعجبًا * من دوحة نبتت من العقيان!
عجبًا لها تسقى هناك ينائعًا * يَنَعت من الثمرات والأغصان!
خصت بطائرة على فنن لها * حسُنت، فأُفرِد حسنها من ثاني!

قُسُّ الطيورِ الساجعاتِ بلاغةً * وفصاحةً من مَنطِقٍ وبَيَان .
فإذا أُتيحَ لها الكلامُ تكلَّمتْ * بمُحَرِّرٍ ماءٍ دائمِ الهَمَلان .
وكأنَّ صانعَها استبدَّ بصنعةٍ * نَفَرَ الجمادُ بها على الحيوان !
أوفَتْ على حَوضٍ لها فكأنَّها * منها إلى العَجَبِ العُجابِ رَوَان .
٥ وكأنَّها ظَنَّتْ حلاوةَ مائِها * شَهْدًا ، فذاقتْه بكلِّ لِسان .
وزَرافةٍ في الجوِّ من أُنبوبِها * ماءٌ يُرِيكَ الجَرْيَ في الطَّيَران .
مَرْكُوزةٍ كالرُّمحِ حيثُ ترى له * من طَعْنِه الحَلَقَ انعطافَ سِنَان .
وكأنَّما تَرمِي السماءَ بِبُنْدُقٍ * مُستنبَطٍ من لؤلؤٍ وجُمَان !
لو عادَ ذاك الماءُ نِفْطًا ، أحرقَتْ * في الجوِّ منه قميصَ كلِّ عَنان .
١٠ في بِركةٍ قامتْ على حافاتِها * أُسْدٌ تَذِلُّ لعِزَّةِ السُّلطان !
نَزَعتْ إلى ظُلْمِ النفوسِ نُفُوسُها ، * فلذلك انتُزِعتْ من الأبدان .
وكأنَّما الحيَّاتُ من أفواهِها * يَطْرَحْنَ أنفسَهنَّ في غُدْران .
وكأنَّما الحِيتانُ إذ لم تَخْشَها ، * أخذَتْ من المنصورِ عَهْدَ أمان !

وقال آخر :

١٥ ولقد رأيتُ ، وما رأيتُ كبِرْكةٍ * في الحُسْنِ ذاتِ تدفُّقٍ وخَرِيرِ !
عَقَدَتْ لها أيدي المياهِ قناطرًا * من جوهرٍ في لُجَّةٍ من نُورِ !

وقال عليّ بن الجهم ، يصف فوّارة :

وفَوَّارةٍ ثارُها في السَّماءِ ، * فليستْ تُقَصِّرُ عن ثارِها !
تَرَاها اذا صَعِدتْ في السَّماءِ * تَعودُ الينا بأخبارِها .
٢٠ تَرُدُّ على المُزْنِ ما أنزلَتْ * على الأرضِ من صَوْبِ مِدْرارِها !

وقال ابن حجاج فيها :

عَلِمْتُ فى دارِكَ فَوّارةً ، * غرّقتِ الأفْقَ بها الأنجُما!
فاضَ على نَجْم السما ماؤُها ، * فأصبحَتْ أرضُكَ تَسْقِى السما!

وقال تميم بن المعزّ العبيدىّ :

وقاذفةٍ بالماء فى وَسْطِ بِرْكةٍ * قد التحفَتْ ظِلاًّ من الأيْكِ سَجْسَجا. ٥
إذا أنبَعثْ بالماء سَلَّتْه مُنْصُلا * وعاد عليها ذلك النَّصْلُ هَوْدَجا.
تُحاوِلُ إدْراكَ النجُومِ بقَذْفِها ، * كأنَّ لها قَلْبا على الجَوِّ مُحْرَجا!

ومما وصفت به الدواليب والنواعير

قال أبو حفص بن وَضَّاح :

لله دُولابٌ يَطُوفُ بسَلْسَلٍ * فى رَوْضةٍ قد أينعتْ أفنانا! ١٠
قَدْ طارحَتْ فيه الحَمائمُ شَجْوَها * بَحنِينِها ، وتُرَجِّعُ الألحانَا.
فكأنَّه دَنِفٌ يطُوفُ بمَعْهَدٍ ، * يَبْكِى ويسأل فيه عمَّنْ بانَا.
ضاقَتْ مَجارِى طَرْفِه عن دَمْعِه ، * فتفتّحَتْ أضْلاعُه أجْفانَا!

وقال الموفقىّ ، رحمه الله :

ناعورةٌ تُحسَبُ من صَوْتِها * مُتَيَّما يَشْكُو إلى زائِرِ. ١٥
كأنّما كيزانُها عُصْبةٌ * رُمُوا بصَرْف الزّمَنِ الواتِرِ.
قد مُنِعُوا أن يلتقُوا فاْغتَدَوْا * أوّلُهم يَبْكِى على الآخِرِ!

وقال آخر :

وناعورةٍ قد ضاعفَتْ بنُواحِها * نُواحِى ، وأجْرتْ مُقْلَتَىَّ دُمُوعُها!
وقد ضَعُفتْ مما تَئِنّ ، وقد غدَتْ * من الضَّعْفِ والشَّكْوَى تُعَدُّ ضُلوعُها! ٢٠

وقال ابن مُنير الطرابلسي :

لِنَواعيرِها على الماءِ ألحا * نٌ تَهيجُ الشَّجا لقَلْب المَشُوق.
فهْي مِثْلُ الأفلاكِ شَكْلًا وفعْلًا ، * قُسِمَتْ قَسْم جاهلٍ بالحُقُوق:
بينَ عالٍ، سامٍ ، يُنَكِّسُه الحَظ ويَعْلو بسافلٍ مَرْزُوق.

وقال أبو الفرج الوأواء :

وكريمةٍ سقَت الرياضَ بدَرِّها، * فغدَتْ تَنُوبُ عن السَّحاب الهامِع.
بأنينِ محزونٍ ، ودَمْعة عاشقٍ ، * وحَنينِ مُشْتاقٍ، وأنَّة جازع.
فكأنَّها فَلَكٌ يَدُورُ ، وعُلْوهُ * يَرْمِى القَرار بكلِّ نَجْم طالع.

وقال الصنوبرى :

فلكٌ من الدُّولابِ فيه كَوَاكبٌ * من مائه تَنْقضُّ ساعة تَطْلُع.
متلوِّنُ الأصْوات: يَخْفضُ صَوْتَه * بغِنائِه، طَوْرًا وطَوْرًا يَرْفَع.

وممـا وصفت به نثرا

من رسالة للشيخ ضياء الدين القرطبي إلى بعض إخوانه يستدعي منه ثلاثة أسهم ومَلِّيات . جاء منها :

"...والحاجةُ داعيةٌ إلى ثلاثةِ أسهمٍ، كأنها هَقْعةُ الأنجم ، ممتدّةِ امتداد الرُّمح ، مقوَّمةٍ تقويم القِدْح ، غيرِ مشعَّثةِ الأطراف ، ولا معقَّدة الأعطاف ، ولا مسوّسة الأجْواف ، تُحاسِن الغُصُون بقَوامها ، والقُدودَ بتمامها ، وتخالِف هيفها امتلاء خُصُورِها، وتُساوِي [بين] هَوادِيها وصُدُورِها ، معتدلة القُدود ، ناعمة الخدود،

مع مَلِيّات أخذَت النارُ منها مأخَذها فاسودّت ، وتطاولَتْ عليها مُدّةُ الجَفاف فاشتدّتْ ، وترامَتْ بها مدّةُ القِدَم ، كأنها فى حيّز العَدَم ، صِلابِ المَكاسر ، غلاظ المآزر ، تُشْبِه أخلاقَه(١) فى هيجاء السِّلم ، وتحكى صَلابةَ آرائه فى نَفاذ الرأى ومَضاء العزْم ، تَكْظِم على الماء بغَيْظها ، تجود على الأرض بفَيْضها ، تمدّ يد أيدها فى اقتضاء إرادتها ، وتطلُع طلوعَ الأنجم فى فَلَك إدارتها ، وتُعانق أخواتها معانقة التشييع ، فآخرُ التسليم أوّلُ التوديع ، على أنها تُؤْذن بحقائق الاعتبار ، وتجرى جَرْى الفلك المُدار فى قناة الأعمار :

تَمُرُّ كأنفاس الفتى فى حَياتِه * وتَسْعى كسَعْىِ المرء أثناءَ عُمْرِه
يُفارِقُ خلٌّ خلَّه ، وهو سائرٌ * على مثل حال الخلّ فى إثْرِ سَيْرِه
ويُعْلِمُه التَّدوارُ ، لو يَعْقل الفتى * بأن مُرورَ العُمْر فيه كَمَرِّه
فمَنْ أدركَتْ أفكارُه سِرَّ أمْرِها ، * فقد أدْركَتْ أفكارُه سِرَّ أمْرِه
ومَنْ فاته الإدْراكُ أدْركَه الرَّدى : * إذا جُرِّعَتْ أنفاسُه كأسَ مُرِّه »

ومما وصفت به الجداول

قال ابنُ المعتزّ ، عفا الله عنه :

على جَدْولٍ رَيّانَ ، لا يقبَلُ القَذى : * كأنّ سواقيه مُتونُ المَبارِد

وقال الناجم :

أحاطَتْ أزاهيرُ الرَّبيع سويّةً * سماطَيْنِ مُصْطَفَّيْنِ ، تستَنْبِتُ المَرْعى
على جَدْولٍ ريّانَ كالسَّهْم مُرْسَلا ، * أو الصارِمِ المسْلُولِ ، أو حيّةٍ تَسْعى

(١) أى أخلاق المرسل إليه .

وقال المفجّع :

عليٰ جَدْولٍ رَيّانَ ينْسابُ مَتْنُـه * صَقيلًا، كمَتْنِ السيف وافىٰ مجرَّدا.

إذا الرِّيح ناغتْه، تحلَّقَ وجْهُـه * دُرُوعا وِضَاءً، أو تحزَّز مِبْرَدا.

وقال ٱبن الرومىّ :

٥ عليٰ حِفَافَىْ جَدْولٍ مَسْجُورِ * أبيضَ مِثْلِ المُهْرَق المَنْشُورِ.

أو مثْل متْنِ المُنْصُل المَشْهُور * يَنْسابُ مثلَ الحيَّة المَذْعُور.

وقال ذو الرمّة :

فما ٱنْشَقَّ ضَوءُ الصُّبْح حتّىٰ تبيَّنَتْ * جَدَاوِلُ: أمثالُ السُّيُوفِ القَوَاطِعِ.

وحيث ٱنتهينا من ذكر المياه إلىٰ هذه الغاية فلنذكر عباد المـاء .

١٠ ذكر عُبَّاد المـاء[1]

وعُبَّاد المـاء طائفةٌ من الهند يُسمَّوْن الجَلْهَكيَّة[2]، يزعُمون أن المـاء مَلَك ، ومعه ملائكة، وأنه أصلُ كل شيء، وبه كلُّ ولادة ونموّ ونُشُوء وبقاء وطَهارة وعمارة، وما من عمل فى الدنيا إلا ويحتاج إلىٰ المـاء .

§ فإذا أراد الرجل منهم عبادتَه، تجرّد وستَر عورتَه . ثم دخل المـاء حتى يصل ١٥ إلىٰ وسـطه، فيقيم ساعتين وأكثرَ. ويأخذ ما أمكنه من الرَّياحين فَيُقَطِّعها صغارا ويُلْقِى فى المـاء بعضَها بعد بعض، وهو يُسبّح ويقرأ. وإذا أراد الانصراف، حرّك المـاء بيـده . ثم أخذ منـه فنقّط علىٰ رأسـه ووجهه وسائر جسده . ثم يسـجُدُ وينصرف .

(١) هذه العبارة كلها منقولة عن كتاب "الملل والنحل" للشهرستانى .

٢٠ (٢) فى الأصل : المهكنية . [وهو تصحيف وصوابه من الشهرستانى] .

القسم الخامس من الفن الأوّل

فى طبائع البلاد، وأخلاق سكانها، وخصائصها، والمَبانى القديمة، والمَعَاقل، وما وُصِفت به القصورُ والمنازل

وفيه خمســـة أبواب

البـاب الأوّل

من هذا القسم

(فى طبائع البلاد، وأخلاق سُكّانهـا)

§ رُوِى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل كعبَ الأحبار عن طبائع البلاد وأخلاق سُكّانها ، فقال : إن الله تعالىٰ لمـا خلق الأشياءَ، جعل كل شىء لشىء . فقال العقل : أنا لاحقٌ بالشأم، فقالت الفِتنةُ : وأنا معك . وقال الخِصْب : أنا لاحق بمصر، فقال الذُّلُّ : وأنا معك . وقال الشقاء : أنا لاحقٌ بالبادية، فقالت الصِّحّة : وأنا معك .

§ وقال محمد بن حبيب : لمّا خلق الله تعالىٰ الخلق، خلق معهم عشرة أخلاق : الايمـان، والحياء، والنجدة، والفتنة، والكبر، والنفاق، والغنى، والفقر، والذل، والشقاء . فقال الإيمان : أنا لاحق باليمن، فقال الحياء : وأنا معك . وقالت النجدة : أنا لاحقة بالشأم، فقالت الفتنة : وأنا معك . وقال الكبر : أنا لاحق بالعِراق، فقال النِّفاق : وأنا معك . وقال الغِنىٰ : أنا لاحق بمصر، فقال الذلُّ : وأنا معك . وقال الفقر : أنا لاحق بالبادية، فقال الشقاء : وأنا معك .

§ وحكى عن الحجاج انه قال : لما تبوّأتِ الأشياءُ منازلَها، قال الطاعون : أنا نازلٌ بالشأم،فقالت الطاعة : وأنا معك . وقال النِّفاق : أنا نازلٌ بالعراق،فقالت النعمة : وأنا معك . وقال الشقاء : أنا نازل بالبادية، فقال الصبْر : وأنا معك .



نوع آخر منـــــه

٥

§ رُوِىَ عن عبد الله بن عباس (رضى الله تعالىٰ عنهما) أنه قال : إن الله تعالىٰ خلق البَرَكة عشرة أجزاء : فتسعةٌ منها فى قريش، وواحد فى سائر الناس . وجعل الكرم عشرة أجزاء : فتســعة منها فى العَرَب، وواحد فى سائر الناس . وجعل الغَيْرة عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الأكراد، وواحدٌ فى سائر الناس . وجعل المكر عشرة أجزاء : فتسعة منها فى القِبْط، وواحد فى سائر الناس . وجعل الجفاء عشرةَ أجزاء : فتسعة منها فى البَرْبَرِ، وواحد فى سائر الناس . وجعل النَّجابة عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الرُّوم، وواحد فى سائر النـاس . وجعل الصناعة عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الصين، وواحد فى سائر النـاس . وجعل الشهوةَ عشرة أجزاء : فتسعة منها فى النِّساء، وواحد فى سائر النـاس . وجعل العمل عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الأنبيـاء، وواحد فى سائر النـاس . وجعل الحسَدَ عشرة أجزاء : فتسعة منها فى اليهود، وواحد فى سائر الناس .

(١٠٣) ١٠ ١٥

§ ويقـال : قُسِم الحقد عشرة أجزاء : فتســعة منها فى العرب، وواحد فى سـائر الناس . وقُسِم البخل عشرة أجزاء : فتسعة منها فى الفرس، وواحد فى سائر الناس . وقسم الكِبْر عشرة أجزاء : فتســعة منها فى الروم، وواحد فى سائر النـاس . وقسم

الطَّرَب عشرة أجزاء : فتسـعة منها فى السُّودان ، وواحد فى سائر النـاس . وقسم الشَّبَق عشرة أجزاء : فتسعة منها فى اليهود ، وواحد فى سائر الناس .

§ ويقال : أربعة لا تعرف فى أربعة : السَّخاء فى الروم ، والوَفَاء فى التُّرك ، والشجاعة فى القِبْط ، والغَمُّ فى الزِّنْج .

٥

نوع آخر منـــــه

§ حُكى عن الحجاج أنه سأل أيوب بن القِرِّيَّة عن طبائع أهـل البلاد ، فقـال : أهل الحجاز أسرعُ الناس إلى فتنة وأعجزُهم عنها ؛ رجالها جُفاة ، ونساؤها كُساة عراةٌ . وأهل اليمن أهلُ سَمْع وطاعه ، ولزومِ الجماعه . وأهل عُمَان عرب استَنْبَطُوا . وأهل البحرين نَبَطٌ ٱستعْرَبوا . وأهل اليمامة أهلُ جَفاء ، وٱختلافِ آراء . وأهل فارس أهلُ بأسٍ شـديد ، وعِزٍّ عَتِيد . وأهل العراق أبحثُ الناس عن صغيره ، وأضيَعُهم لكبيره . وأهـل الجزيرة أشجع فُرْسان ، وأقتـلُ للأقران . وأهـل الشام أطوعُهم لمخلوق وأعصاهم لخالق . وأهل مصر عبيـدٌ لمن غَلَب ؛ أكيسُ الناس صـغارا ، وأجهلُهم كِبارا .

١٠

وحكى عن أبى عثمان "عمرو بن بحر الجاحظ" أنه قال : كنا نُعلَّم فى المكْتب كما نُعلَّم القرآن : احذروا حماقةَ أهل بُخارى ، وغلَّ أهل مَرْو ، وشَغَب أهل نَيْسابور ، وحسد أهل هَرَاةَ ، وحِقْد أهل سِجِسْتان .

§ وقال أبو حامد القاضى : أعيانى أن أرى خُراسانيًّا ذكيًّا ، وطبريا رَزِينا ، وهمذانيا لبيبا ، وبَصْريًّا ركيكا ، وكُوفيًّا رئيسا ، وبغداديًّا سخِيًّا ، ومَوْصليًّا لَطيفا ، وشاميًّا خَفيفا ، وحجازيا منافقا ، وبَدَويًّا ظريفا .

١٥

§ وقال بختيشوع : تسعة لا تخلو من تسعة : قُمِّىٌّ من رُعونة، ويمانى من جنون، وواسطىّ من غفلة، وبصرىّ من جَدَل، وكوفىّ من كَذب، وسَوَادىّ من جَهْل، وبغدادىّ من مَخْرَقة، وخوزىّ من لؤم، وطبرىّ (١) من زَرَق .

§ وقيل : جاوَرَ أهلُ الشام الرومَ، فأخذوا عنهم اللؤم وقلةَ الغيرة . وجاور أهلُ الكوفة أهلَ السواد، فأخذوا عنهم السَّخاء والغيرة . وجاور أهلُ البصرة الخُوزَ، فأخذوا عنهم الزنا وقلة الوفاء .

§ ويقال : إن القدماء اعتبروا البلاد وما امتاز به بعضُها عن بعض من الطبائع، فوجدوا أخصبَ بقاع الدنيا ثمانيةَ مواضع : أَرْمِينِيَة، وأَذْرِبيجان، ومَاهْ دينَوَر، وماهْ نَهَاوند، وكَرْمان، وأَصْبهَان، وقُومَس، وطَبَرِسْتَان .

§ ووجدوا أخف بقاع الدنيا ماءً، ماءَ ثمانية مواضع : دجلة، والفرات، وزَنْدَرُود أصبهَان، وماء سوران، وماء هَفيجَان، وماء جُندَيْسابُور، وماء بَلْخ، وماء سَمَرْقَنْد. (وغفلوا عن نيل مصر، ولعله أحقُّها بهذه الخصوصية من سائر المياه) .

§ ووجدوا أوبأ بقاع الدنيا ستة مواضع : النُّوبَنْدَجان، وسابُورخُواسْت، وجُرْجان، وحُلْوان (٢)، وبَرْذَعه، وزَنْجان . (وغفلوا عن شَيْزَر) .

§ ووجدوا أعقل أهل البلاد تسعة : أهل أصبهان، والحِيرة، والمداين، وماهْ دِينَوَر، وإِصْطَخْر، ونَيْسابور، والرَّىّ، وطَبَرِسْتان، ونَشَوَىٰ (وهى نَقْجَوان) .

§ ووجدوا أسرىٰ أهلِ بقاع الدنيا أهلَ سبعة مواضع : طوسفنون (وهى المداين)، وبلاشون (وهى حُلْوان (٢))، وماسَبَذان، ونَهاوند، والرَّىّ، وأصبهَان، ونَيْسابور .

---

(١) من أهل طبرستان . وأما النسبة الى طبرية الشام فطَبَرانىّ .

(٢) أى حلوان العراق، لا حلوان مصر .

§ ووجدوا أهل بقاع الدنيا أهل[1] عشرة مواضع : ماسَبَذان ، ومِهْرِجانقَذَق[2] ، وسُورَسْتان ، والرَّيّ ، والرُّويان ، وأذْرَبيجان ، والمَوْصل ، وأرمينِيَة ، وشَهْرزُور ، والصَّامَغان .

§ ووجدوا البخل فى أهل ثمانِ بقاع : مَرْو ، وإصطَخْر ، ودارَابْجِرد ، وخُوزستان ، وماسَبَذان ، ودَيْبُل ، وماه دينور ، وحُلْوان . ٥

§ ووجدوا أسفل أهل بقاع الأرض أربعة : أهل السِّدجان[3] ، وبادَرايا ، وماكَسَايَا ، وخُوزستان .

§ ووجدوا أقل أهل الأرض نظرا فى العواقب أهلَ سبعة مواضع : طَبَرِسْتان ، وأرمينِيَة ، وقُومس ، وكِرْمان ، وكُوسان ، ومُكْران ، وشَهْرزُور .

✦ ✦ ✦ ١٠

§ ويقال : إنه وفد رجل من عجم خُراسان على كِسْرى ، فقال له : أخبرنى مَنْ أحسنُ أهل خُراسان لقاءً ؟ قال : أهل بُخارى . قال : فمن أوسَعُهم بَذْلا للخُبْز والمِلْح ؟ قال : أهل جُوزْجان . قال : فمن أحسنُهم ضِيافةً ؟ قال : أهل سَمَرْقند . قال : فمن أدقُّهم نظرا وتقديرا ؟ قال : أهل مَرْو . قال : فمن أسوأُهم طاعة ؟ قال :

(١) فى بعض النسخ "آهل" بالمد . ١٥

(٢) هذا الاسم يتركب من ثلاث كلمات : مهر (أى الشمس ، المحبة ، الشفقة) ؛ جان (أى النفس ، الروح) ؛ قذق (وقد يضم أوله ولعله اسم رجل) . فيكون معناه : محبة أو شمس نفس قذق . وهى كورة حسنة من نواحى بلاد الجبل (عن ياقوت) .

(٣) كذا فى الأصل ولم يذكرها ياقوت . وإنما ذكر "السيرجان" ، مدينة بين كرمان وفارس . فلعلها مصحفة عنها . ٢٠

أهل خُوارَزْم . قال : فمن أخبثهم طَوِيَّة ؟ قال : أهل مَرْو الروذ، إن رضى بذلك
أهل أَبِيورد . قال : فمن أسقطهم عقلا ؟ قال : أهل طُوس، إن رضىَ بذلك أهل
نَسَا . قال : فمن أكثرهم شَغبا وجَدَلا ؟ قال : أهل سَرَخْس، إن رضى بذلك أهل
قُوهِسْتان . قال : فمن أضعفهم وأخبثهم ؟ قال : أهل نَيْسابور . قال : فمن أقلّهم
٥ غيرةً على النساء؟ قال : أهل هَراةَ .

الباب الثانى
من القسم الخامس من الفن الأوّل
فى خصائص البلاد

ولنبدأ من ذلك بمكةَ ويثرب، وأُغْرِب عما أنقله من فضلهما ولا أُغْرِب ؛
١٠ وأَصِلُه بذكر البيت المقدّس والمسجد الأقصى، ولا أشترط الاستيعابَ لأن فضائلها
لا تحصى .

فأما مكة (شرّفها الله تعالى وعظمها)

ففضائلها مشهورة بَيِّنة . قال الله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ
مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ . وقال
١٥ الله تعالى : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ .

قال بعض المفسرين : "أَمْنا" من النار . وقيل : كان يأمَنُ من الطلب مَنْ أحدث
حَدَثا ولجأ إليه فى الجاهلية .

وحكى القاضى عياض فى "كتاب الشفا" أنه حُدِّث أن قوما أتوا سَعْدون
الخَوْلانى بالمُنَسْتِير، وأعلموه أن كُتَامَةَ قتلوا رجلا وأضرموا عليه النارَ طولَ الليل، فلم

تعمل فيه وبقِيَ أبيضَ البَدن، فقال : لعله حَجَّ ثلاثَ حِجَج ؟ قالوا : نعم . قال : حُدِّثْتُ أن "من حَجَّ حَجَّة أدّىٰ فرضَه، ومن حَجَّ ثانية دايَنَ ربَّه، ومن حَجَّ ثلاثَ حِجَجٍ حَرَّم اللهُ شَعَرَه وبَشَره علىٰ النار" .

ولمـا نظر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ الكعبة قال: "مَرْحبًا بِكِ من بَيْتٍ، ماأعْظَمَكِ وأعْظَمَ حُرْمَتَكِ ! ". وجاء فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : "ما مِنْ أحدٍ يَدْعو اللهَ عند الرُّكْن الأسْودِ(١) إلا آستجَابَ له" . وكذلك عند الركن .

وعنه صلى الله عليه وسلم : "مَنْ صَلَّى خَلْفَ المَقَامِ ركعتيْنِ، غُفر له ماتَقَدَّم من ذَنْبه وما تأخَّر وحُشِر يومَ القيامة مع الآمِنِينَ" .

ذكر ما كانت الكعبة عليـه فوق المـاء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض

قال أبو الوليد الأزرقىّ بسـند يرفعه إلىٰ كعب الأحبار أنه قال : كانت الكعبة غُثَاء علىٰ المـاء قبل أن يخلُق الله عز وجل السماوات والأرضينَ بأربعين سنةً . ومنها دُحِيَتِ الأرضُ .

وقال يرفعه إلىٰ مجاهد : خلق الله تعالىٰ هذا البيتَ قبل أن يخلُق شيئا من الأرضينَ .

وعنه يرفعه إلىٰ آبن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لمـا كان العَرْش علىٰ المـاء قبل أن يخلُق الله السماوات والأرضَ بعث الله ريحًا فصفَّقت المَاء فأبرزَتْ عن حَشَفة فى موضع البيت كأنها قُبَّة . فدحا الله عز وجل الأرضَ من تحتها فمادَتْ ثم مادَتْ . فأوْتَدها الله تعالىٰ بالجبال، فكان أوّلَ جبل وضع فيها أبُو قُبَيْس، فلذلك سميت مكةُ أمَّ القُرىٰ

(١) كذا فى جميع النسخ ولعله "الركن اليمانى" .

وعنه يرفعه إلىٰ مجاهد أنه قال : لقد خلق الله عز وجل موضعَ هذا البيت قبل أن يخلُق شيئا من الأرض بألفَىْ سنة، وإن قواعده لفى الأرض السابعة السُّفْلىٰ .

ذكر بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم عليه السلام، ومبـــدإ الطواف

قال أبو الوليد الأزرقىّ ، يرفعه إلىٰ علىّ بن الحسين رضى الله عنهما إنه أتاه سائل يسأله ، فقال له : عَمَّ تسأَلُ ؟ فقال : أسألك عن بَدْء الطواف بهذا البيت لِمَ كان؟ وأنَّى كان ؟ وحيث كان ؟ وكيف كان بالحجر؟ فقال له : نعم، من أينَ أنتَ ؟ فقال : من أهل الشام . فقال : أين مَسْكَنُك ؟ قال : فى بيت المقدس . قال : فهل قرأت الكتابَين ؟ (يعنى التوراة والإنجيل) . قال له الرجل : نعم . فقال له : ياأخا أهل الشام آحفَظْ، ولا تروِينَّ عَنِّى إلا حقا :

أمّا بَدْء هــذا الطواف بهــذا البيت ، فإنّ الله تعالىٰ قال للملائكة : ﴿ إنِّى جاعِل فى الأرْضِ خَلِيفةً ﴾ ، قالت الملائكة : أى رَبِّ، أخَليفة من غيرنا : ممن يُفْسِد فيها ويَسْفِك الدماء، ويتحاسدُون، ويتباغَضُون، ويتنــازَعُون؟ أىْ رَبِّ، آجعل ذلك الخليفةَ منا، فنحن لا نُفْسِــد فيها، ولا نَسْــفِك الدماء، ولا نتباغَضُ، ولا نتحاسَدُ، ولا نتباغىٰ؛ ونحن نُسَبِّح بحمدك ونقدّس لك، ونُطيعك ولا نَعْصِيك . قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ إنّى أعلم مالا تَعْلَمُون ﴾ . قال : فظنَّت الملائكة أن ماقالوه ردٌّ علىٰ ربهم عز وجل وأنه قد غَضِب من قولهم ، فلاذُوا بالعرش، ورفعُوا رءُوسهم، وأشاروا بالأصابع يتضرّعون ويبكُون إشفاقا لغَضَبه. فطافوا بالعرش ثلاثَ ساعاتٍ. فنظر الله عز وجل إليهم، فنزلت الرحمةُ عليهم، فوضع اللهُ سبحانه تحت العرش بيتًا علىٰ أربع

أساطينَ من زَبَرْجَد، وغشَّاه بياقوتة حمراءَ وسمَّى البيت الضُّرَاحَ . ثم قال للملائكة : طُوفُوا بهذا البيت، ودَعُوا العرش، فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش، وصار أهونَ عليهم، وهو البيتُ المعمور الذى ذكره الله عز وجل : يدخُلُه كلَّ يوم وليلة سبعُون ألفَ ملَك لا يعُودون فيه أبدا . ثم إن الله سبحانه بعث ملائكة فقال : ابْنُوا لى بيتًا فى الأرض بمثاله وقَدْره . فأمر الله سبحانه مَنْ فى الأرض من خلقه ٥ أن يطُوفوا بهذا البيت، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

فقال الرجل : صَدَقْتَ يا آبنَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، هكذا كان .

ذكر زيارة الملائكة البيت الحرام

قال الأزرقى ، يرفعه إلى آبن عباس رضى الله عنهما : إن جبريل عليه السلام وقَفَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه عِصابةٌ حمراءُ قد علاها الغُبارُ، ١٠ فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : ماهذا الغبارُ الذى أرى على عِصابتك، أيُّها الرُّوح الأمينُ ؟ قال : إنى زرتُ البيتَ فازدحمت الملائكةُ على الركن، وهذا الغبار الذى ترى مما تُثير بأجْنِحَتها .

وقال، ورفعه إلى لَيث بن معاذ رضى الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هذا البيتُ خامسُ خمسةَ عشر بيتا، سبعةٌ منها فى السماء إلى العرش ، وسبعةٌ ١٥ منها إلى تخوم الأرض السُّفْلى، وأعلاها الذى يلى العرشَ : البيتُ المعمور. لكل بيت منها حَرَم كحَرَم هذا البيت . لو سقط منها بيتٌ، لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السُّفْلى، ولكل بيتٍ من أهل السماء ومن أهل الأرض من يَعْمُره، كما يُعْمَر هذا البيتُ .

ذكر هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض، وبنيانه الكعبة المشرفة وحجه وطوافه بالبيت

قال الأزرقي، يرفعه إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام إلى الأرض من الجنة، كان رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض، وهو مثل الفلك من رعدته، قال: فطأطأ الله عز وجل منه إلى الأرض ستين ذراعا، فقال: يارب مالى لا أسمع أصوات الملائكة ولا حسهم؟ قال: خطيئتك يا آدم، ولكن اذهب فابن لى بيتا تطف به واذكرنى حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى، قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطى، فطويت له الأرض وقبضت له المفاوز، فصارت كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض له ما كان فيها من مخاض أو بحر فجعله خطوة، ولم يقع قدمه فى شيء من الأرض إلا صار عمرانا وبركة حتى انتهى إلى مكة. فبنى البيت الحرام. وإن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أس ثابت فى الأرض السفلى فقذفت الملائكة فيه الصخر ما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلا. وإنه بناه من خمسة أجبل: من لبنان، وطور زيتا، وطور سينا، والجودى، وحراء[1]، حتى استوى على وجه الأرض.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به، آدم عليه السلام. حتى بعث الله سبحانه الطوفان، فدرس موضع البيت فى الطوفان. حتى بعث الله تبارك وتعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فرفعا قواعده وأعلامه. ثم بنته قريش بعد ذلك. وهو بحذاء البيت المعمور، لو سقط، ما سقط إلا عليه.

(١) فى النسخ "حبرى". والتصحيح من حاشية الجمل على الجلالين، فقد نقل أثر ابن عباس.

وقال أبوالوليد أيضا، ورفعه إلى وهب بن منبّه : إن الله تبارك وتعالى لما تاب على آدم عليه السلام، أمره أن يسيرَ إلى مكة. فطوى له الأرضَ وقبضَ له المفاوزَ، فصارت كلُّ مفازة يمرّ بها خَطْوة ، وقبض له ما كان فيها من مَخاض ماء أو بحر فجعله له خَطْوة. فلم يضع قدمه فى شىء من الأرض إلا صار عُمْرانا وبَرَكةً حتّى آنتهى إلى مكة . وكان قبل ذلك قد آشتدّ بكاؤه وحُزْنه لما كان فيه من عظم المصيبة ، حتّى إن كانت الملائكة لَتَحْزَن لحُزْنه ولَتَبْكى لبُكائه. فعزّاه الله عز وجل بخيمة من خيام الجنة، ووضعها له بمكة فى موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة . وتلك الخيمةُ ياقوتة حمراءُ من ياقوت الجنة : فيها ثلاثة قناديلَ من ذهبٍ من تِبْر الجنة ، فيها نُور يتلهّب من نُور الجنة. ونزّل معها الرُّكْنَ، وهو يومئذ ياقوتةٌ بيضاء من رَبَض الجنة. وكان كُرْسيًّا لآدم عليه السلام، يجلس عليه. فلما صار آدم بمكة، حرسها الله تعالى، حرسه الله تعالى وحرس تلك الخيمة بالملائكة. كانوا يحرُسُونها ويَذُودون عنها ساكنَ الأرض، وساكنوها يومئذ الجنُّ والشياطين، فلا ينبغى لهم أن ينظُروا إلى شىء من الجنة ، لأنه مَنْ نظر إلى شىء من الجنة وجبت له . والأرض يومئذ طاهرة نَقيّة لم تَنْجُس ولم يُسْفك فيها الدمُ، ولم تُعْمل فيها الخطايا . فلذلك جعلها الله عز وجل مسكن الملائكة، وجعلهم فيها كما كانوا فى السماء يُسَبّحُون اللّيْلَ والنّهارَ، لَا يَفْتُرُونَ . وكان وقوفهم على أعلام الحَرَم صَفًّا واحدا مستديرين بالحرم كلّه : الحِلُّ من خلفهم، والحَرَمُ كله من أمامهم . ولا يجوزهم جنىٌّ ولا شيطان . ومن أجل مُقام الملائكة، حُرّم الحرم حتّى اليوم . ووضعت أعلامٌ حيث كان مقامُ الملائكة . وحرم الله على حوّاء دخولَ الحرمِ والنظرَ إلى خيمة آدم من أجل خطيئتها التى أخطأتْ فى الجنة. فلم تنظر إلى شىء من ذلك حتّى قُبضت . وإن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها ليُلِمّ بها

للولد، خرج من الحرم كله حتّى يلقاها. فلم تزل خيمةُ آدمَ مكانها حتّى قبض الله آدم عليه السلام ورفعها اللهُ. وبنىٰ بنو آدم بها من بعدها مكانا: بيتا بالطّين والحجارة. فلم يزل معمورا، يَعْمرُونه ومَنْ بعدهم حتّى كان زمنُ نوح عليه السلام. فنَسَفه الغَرَق وخَفِى مكانهُ. فلما بعث الله تعالىٰ إبراهيم عليه السلام طلب الأساسَ، فلما وصل إليه ظلَّل الله مكان البيت بغمامة. فكانت حِفَافَ البيت الأوّل، ثم لم تزل راكزة علىٰ حِفَافه تُظِل إبراهيم عليه السلام وتَهْدِيه مكانَ القواعد حتّى رفع الله القواعد قامةً. ثم ٱنكشفت الغمامة، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وإذ بَوَّأْنا لإبْراهِيمَ مَكانَ البَيْتِ﴾ أى الغمامةَ التى ركزت علىٰ الحِفَاف لتَهْدِيَهُ مكانَ القواعد.

وعن وهب بن منبه أنه قال: قرأتُ فى كتاب من الكتب الأُوَل، ذُكر فيه أمرُ الكعبة، فوجدتُ فيه أن ليس من مَلَك من الملائكة بعثه الله تعالىٰ إلىٰ الأرض إلا أمَرَه بزيارة البيت. فينقَضُّ من عند العرش مُحْرِما ملبّيا، حتّى يستلِمَ الحجر. ثم يطوفُ بالبيت سبعا ويركَعُ فى جوفه ركعتين، ثم يَصعَد.

وقال الأزرقىّ، يرفعه إلىٰ ٱبن عباس رضى الله عنهما أنه قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض، أهبطه إلىٰ موضع البيت الحرام. وهو مثل الفَلَك من رِعْدته. ثم أنزل عليه الحجرَ الأسودَ يعنى الركنَ، وهو يتلألأ من شدّة بياضه. فأخذه آدم صلى الله عليه وسلم فضمَّه إليه أُنْسًا به. ثم أنزلَتْ عليه العصىٰ فقيل له: تخَطَّ يا آدم، فتخطّى، فإذا هو بأرض الهند والسند. فمكَثَ هنالك ما شاء الله، ثم ٱستوحش إلىٰ الركن فقيل له: ٱحْجُجْ، قال فحج فلقِيَتْه الملائكة فقالوا: بَرّ حجُّك يا آدمُ، لقد حَجَجْنا هذا البيت قبلك بألفَىْ عام.

قال : وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه كعب الأحبار فقال : اخبرنى عن البيت الحرام . فقال كعب : أنزله الله من السماء ياقوتةً مجوّفةً مع آدم ، فقال له : يا آدم إن هذا بيتى أنزلتُه معك ، يُطَاف حوله كما يُطَاف حولَ عَرْشى ، ويصلَّى حوله كما يصلَّى حول عرشى . ونزلتْ معه الملائكة فرفعوا قواعِدَه من حجارة ثم وضع البيت عليه . فكان آدم يطوف حوله كما يُطاف حول العرش ، ويصلِّى عنده كما يصلَّى عند العرش . فلما أغرق الله تعالىٰ قومَ نوح ، رفعه إلى السماء وبقيت قواعدُه .

وقال وهب بن منبه : كان البيت الذى بوّأه الله تعالىٰ لآدم عليه السلام يومئذ من ياقوت الجنة ، وكان من ياقوتةٍ حمراء تلتهِب ، لها بابان : أحدُهما شرقىّ والآخر غربىّ . وكان فيه قناديلُ من نُور آنيتها ذهبٌ من تِبْر الجنة . وهو منظوم بنجوم من ياقوت أبيض . والركن يومئذ نجم من نجومه وهو يومئذ ياقوتة بيضاء .

والله أعلم .

ذكر فضل البيت الحرام ، والحَرَم

قال أبو الوليد ، يرفعه عن وهب بن منبه أنه قال : إن آدم لما أُهْبِط إلى الأرض آستوْحش فيها لِما رأىٰ من سَعَتِها ولم ير فيها أحدا غيره ، فقال : يارب ، أما لأرضك هذه من عامر يسبِّحك فيها ويقدّس لك غيرى ؟ قال : إنى سأجعلُ فيها من ذُرِّيتك مَنْ يسبِّح بحمدى ويقدّس لى ، وسأجعل فيها بيوتا تُرفَع لذكرى ويسبِّحُنى فيها خلق ، وسأُبوِّئك فيها بيتا أختاره لنفسى ، وأخصُّه بكرامتى ، وأوثِره علىٰ بيوت الأرض كلها بآسمى ، فأسمِّيه بيتى ، وأُنطِعُه(١) بعظمتى ، وأحوزه بحرماتى ، وأجعله أحق بيوت الأرض

(١) أنطعه : بسط له النطع بالكسر ، بساط من أديم (تفسير بهامش الأصل) . وفى بعض النسخ "وأظلفه" بالظاء ".

(١٠٧) كلها وأولاها بذكرى، وأضعه فى البقعة التى آخترت لنسى، فإنى آخترت مكانه يوم خلقتُ السماوات والأرض، وقبل ذلك قد كان بعينى: فهو صفوتى من البيوت، ولستُ أسكُنه، وليس ينبغى لى أن أسكُنَ البيوتَ، ولا ينبغى لها أن تَسَعَنى، ولكن علىٰ كرسى الكبرياء والجبروت، وهو الذى استقَلَّ بعزتى، وعليه وضعتُ عظمتى وجَلَالى، وهنالك آستقر قَرَارى، ثم هو بعدُ ضعيف عنِّى لولا قُوّتى، ثم أنا بعد ذلك ملْءُ كل شىء، وفوق كلِّ شىء، ومحيط بكلِّ شىء، وأمامَ كلِّ شىء، وخلف كلِّ شىء، وليس ينبغى لشىء أن يعلم علمى ولا يقْدُر قدرتى، ولا يبلُغ كُنْه شانى. أجعل ذلك البيت لك ولمن بعدك حَرَما وأمْنا، أُحَرِّم بحرماته ما فوقه وما تحته وماحوله. فمن حرّمه بحرمتى فقد عظَّم حُرُماتى، ومن أحلّه فقد أباح حُرُماتى، ومن أمَّن أهلَه فقد آستوجب بذلك أمانى، ومَنْ أخافهم أخفرنى فى ذمتى، ومن عظَّم شأنَه عَظُم فى عينى، ومن تهاوَنَ به صَغُر فى عينى، ولكل مَلِك حيازَةُ ما حواليه مما حواليه. وبطنُ مكة خِيرتى وحيازتى، وجِيرانُ بيتى وعُمَّارها وزوّارها، وفْدى وأضيافى فى كَنَفى وأفْنيتى، ضامنون علىٰ ذمتى وجِوارى، فأجعله أوّل بيتٍ وُضِع للناس، وأعمُره بأهل السماء وأهل الأرض: يأتُونه أفواجا شُعْثا غُبْرا علىٰ كل ضامر يأتين من كلِّ فجٍّ عميق، يَعُجُّون بالتكبير عَجِيجا، ويَرُجُّون بالتلبية رَجِيجا، وينتحبون بالبكاء نَحِيبا. فمن آعتمره لا يريد غيره، فقد زارنى ووَفَد إلىّ ونزل بى، ومَنْ نزل بى، فحقيق علىّ أن أُتحفه بكرامتى، وحقٌّ على الكريم أن يُكْرِم وفده وأضيافه، وأن يُسْعِف كل واحد منهم بحاجته. تَعْمُره يا آدم ما كنتَ حيا، ثم تعمُره من بعدك الأممُ والقرونُ والأنبياء: أمةٌ بعد أمة، وقرنٌ بعد قرن، ونبىٌّ بعد نبىّ، حتّى ينتهى ذلك إلىٰ نبىٍّ من ولدك وهو خاتمُ النبيين. فأجعلَه من عُمَّاره وسُكَّانه وحُمَاته، ووُلاته وسُقاته. يكون أمينى عليه ما كان حيا. فإذا آنقلب إلىّ،

وجدنى قد ذَخَرت له من أجره وفضـيلته ما يتمكن به القربةَ منى والوسـيلةَ إلىّ ، وأفضلَ المنازل فى دار المقام . وأجعل ٱسمَ ذلك البيت وذكْره وشرفَه ومجدَه وثناءه ومَكْرُمته لنبيٍّ من ولدك يكون قبل هذا النبي وهو أبوه يقال له إبراهيم ، أرفع له قواعده ، وأقضى على يديه عمارتَه ، وأُنْبِط له سِـقايته ، وأريه حِلَّه وحَرَمه ومَوَاقفه ، وأُعْلِمه مشاعره ومناسكه ، وأجعله أُمَّةً واحدة قانتا لى ، قائما بأمرى ، داعيا إلىٰ سبيلى ؛ أَجْتبيه وأَهْديه إلىٰ صراط مسـتقيم ؛ أبتليه فيَصْبِر ، وأُعافيه فيشكر ، وينذر لى فيفى ؛ ويَعِدنى فيُنْجِز ؛ أستجيب له فى ولده وذرّيته من بعده وأُشَفِّعه فيهم ، وأجعلهم أهل ذلك البيت ووُلَاتَه وحُمَاتَه وسُقَاتَه وخُدّامَه وخُزّانَه وحُجّابَه حتّى يبتدعوا ويغيروا ؛ فإذا فعلوا ذلك فأنا الله أقدر القادرين علىٰ أن أستبدل مَنْ أشاء بمن أشاء . أجعل إبراهيم إمام أهل ذلك البيت وأهل تلك الشريعة ، يأتمُّ به مَنْ حضر تلك المواطن من جميع الإنس والجن ؛ يطئون فيها آثاره ، ويتبعون فيها سُنَّته ، ويقتدون فيها بهَدْيه . فمن فعل ذلك منهم أوفىٰ نذره ، وٱستكمل نُسُكه ؛ ومن لم يفعل ذلك منهم ضيَّع نسكه ، وأخطأ بُغْيته . فمن سأل عنى يومئذ فى تلك المواطن : أين أنا؟ فأنا مع الشُّعْث الغُبْر المُوفين بنذورهم ، المستكملين مناسكهم ، المبتهلين إلىٰ ربهم الذى يعلم ما يبدون وما يكتمون . وليس هذا الخلق ولا هذا الأمر الذى قصصت عليك شأنه ؛ يا آدم ، بزائدى فى ملكى ولا عَظَمتى ولا سلطانى ولا شيءٍ مما عندى إلا كما زادتْ قطرةٌ من رَشَاش وقعتْ فى سبعة أبحر تمدّها من بعدها سبعةُ أبحر لا تحصىٰ ، بل القطرة أزيد فى البحر من هذا الأمر فى شيء مما عندى . ولو لم أخلُقْه لم ينتقص شيء من مُلْكى ولا عظمتى ولا مما عندى من الغَناء والسَّعة ، إلا كما نقصت الأرضَ ذرّةٌ وقعت من جميع ترابها وجبالها وحصاها ورمالها وأشجارها ، بل الذرّة أنقص للأرض من هذا الأمر لو لم أخلقه . ليس مما عندى ويعدّ هذا مثلا للعزيز الحكيم .

ذكر ما جاء فى طواف سفينة نوح عليه السلام بالبيت

قال أبو الوليد الأزرقىّ، ورفعه إلى آبن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كان مع نوح عليه السلام فى السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم، وإنهم كانوا فى السفينة مائةً (١٠٨) وخمسين يوما، وإن الله جل ثناؤه وجّه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما، ثم وجهها إلى الجُودىّ فاستقرّت عليه . ٥

وقال عن مجاهد : كان موضع الكعبة قد خَفِىَ ودَرَس زمنَ الغرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام . فكان موضعه أكمةً حمراءَ مدوّرة، لا تعلوها السيول . غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعُه . وكان يأتيه المظلوم والمبعود من أقطار الأرض، ويدعو عِنْده المكروب . فقلَّ مَنْ دعا هنالك، إلا آستجيب له . وكان الناس يحجّون إلى مكة ، إلى موضع البيت، حتّى بوّأ الله ١٠ تعالى مكانه لإبراهيم عليه السلام . فلم يزل منذ أُهْبط الله تعالى آدم إلى الأرض معظما محرّما تتناسخه الأمم والملل أمّةٌ بعد أمّة، وملّةٌ بعد ملة، قال : وكانت الملائكة تحجّه قبل آدم عليه السلام .

ذكر ما جاء من تخير إبراهيم عليه السلام موضع البيت

قال عثمان بن ساج : بلغنا (والله أعلم) أن إبراهيم خليل الله عليه السلام عُرِج به ١٥ إلى السماء فنظر إلى الأرض، مشارِقها ومغارِبها، فاختار موضع الكعبة . فقالت له الملائكة : ياخليل الرحمن آخترتَ حرمَ الله فى الأرض، قال : فبناه من حجارةِ سبعة أجبُل (ويقولون خمسة) . وكانت الملائكة تأتى بالحجارة إلى إبراهيم عليه السلام من تلك الجبال .

ذكر حج إبراهيم عليه السلام وإذنه بالحج

وحج الأنبياء بعده وطوافهم

قال أبو الوليد عن محمد بن إسحاق : لما فرغ إبراهيمُ خليلُ الرحمن من بناء البيت الحرام، جاءه جبريل عليه السلام فقال : طُفْ به سبعا، فطاف به سَبْعا، هو وإسماعيل. يستلمان الأركانَ كلَّها فى كل طواف، فلما أكملا سبعا، صلّيا خلف المقام ركعتين . ٥

قال : فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها : الصَّفا والمَرْوة ومِنًى ومُزْدلِفة وعرفةَ. فلما دخل منًى وهبط من العقبة، مُثِّل له إبليس عند جَمْرة العقبة، فقال له جبريل : ٱرمه، فرماه بسبع حصيات. فغاب عنه، ثم برَز له عند الجمرة الوسطىٰ، فقال له جبريل : ٱرمه، فرماه إبراهيم بسبع حصيات، فغاب عنه، ثم برز له عند الجمرة السفلىٰ، فقال له جبريل : ٱرمه، فرماه بسبع حصيات مثل حصىٰ الخَذْف، فغاب عنه إبليس، ثم مضىٰ ١٠ إبراهيم فى حجه وجبريل يوقفه على المواقف ويعلمه المناسك حتّى ٱنتهىٰ إلىٰ عرفة. فلما ٱنتهىٰ إليها، قال له جبريل : أعَرَفْتَ مناسِكَكَ؟ قال : نعم، قال : فسميت عرفات بذلك . قال : ثم أُمِر إبراهيم عليه السلام أن يؤذِّن فى الناس بالحج، فقال إبراهيم : يا ربِّ وما يبلُغُ صوتِى؟ قال الله جل ثناؤه : أذِّن، وعلىّ البلاغُ، قال : فعَلَا إبراهيم على المقام فأشرف به حتّى صار أرفع الجبال وأطولها فجُمعت له الأرض ١٥ يومئذ : سهلُها، وجبلُها، وبَرُّها، وبحرُها، وإنسها، وجِنُّها حتّى أسمعهم جميعا. فأدخل إصبعيه فى أذنيه وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وبدأ بشق اليمين فقال : "أيها الناس كُتب عليكم الحجُّ إلىٰ البيت العتيق، فأجيبوا ربكم" فأجابوه من تحت التخوم السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلىٰ منقَطَع التراب من أقطار الأرض كلها :

(لَبَّيكَ، اللهمَّ لَبَّيْك) . قال : وكانت الحجارة على ماهى اليوم، إلا أن الله عز وجل أراد أن يجعل المقام آية . فكان أثرُ قدميه فى المقام آيةً إلى اليوم . قال : أفلا تراهم اليوم يقولون : (لبيك، اللهم لبيك) . فكل من حج إلى اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم . وأثر قدمَىْ إبراهيم فى المقام آية . وذلك قوله تعالى : ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ .

٥

قال ابن إسحاق : وبلغنى أن آدم عليه السلام كان استلم الأركان كلها قبل إبراهيم، وحجّه إسحاقُ وسارةُ من الشام . قال : وكان إبراهيم يحجُّه كل سنة على البُرَاق . قال : وحَجّتْ بعد ذلك الأنبياء والأمم .

وعن مجاهد، قال : حج إبراهيم وإسماعيل، ماشيين .

١٠ وعن عبد الله بن ضمرة السلولى : مابين الركن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة وتسعين نبيا، جاءوا حُجّاجا فقُبِروا هنالك .

وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان النبىُّ من الأنبياءِ إذا هلكَتْ أمّتُه لحق بمكة فتعبّد بها النبىُّ ومن معهُ حتّى يموت . فمات بها : نوح، وهود، وصالح، وشعيب . وقبورهم بين زمزم والحِجْر .

١٥ وعن مجاهد : حج موسى النبىّ عليه السلام على جمل أحْمرَ . فمرّ بالرَّوْحاء عليه عباءتان قَطَوانيّتان متّزِرٌ بإحداهما، مرتدٍ بالأخرى . فطاف بالبيت ثم سعى بين الصفا والمروة . فبينما هو يلبِّى بين الصفا والمروة، إذ سمع صوتا من السماء يقول : (لَبَّيك عبدى، أنا مَعَك) قال : فخرّ موسى ساجدا .

(١٠٩)

وعن عُرْوة بن الزبير رضى الله عنهما قال : بلغنى أن البيتَ وُضع لآدم يطوف به ويعبد الله عنده ، وأنّ نوحا قد حجّه وجاءه وعظمه قبل الغرق . فلما أصاب البيتَ ما أصاب الأرض من الغرق فكان ربوةً حمراء معروفا مكانه ، فبعث الله هودا إلىٰ عاد ، فتشاغل بأمر قومه حتّى هلك ، ولم يحجّه . ثم بعث الله تعالىٰ صالحا إلىٰ ثمود ، فتشاغل بهم حتّى هلك ، ولم يحجّه . ثم بوّأه الله تعالىٰ لإبراهيم عليه السلام فحجّه وأعلم مناسكه ودعا إلىٰ زيارته . ثم لم يبعث الله نبيا بعد إبراهيم ، إلا حجه .

وعن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لقد سَلَكَ فَجَّ الرَّوْحاء سبعون نبيا ، مُحْرِمِين ... ، عليهم لباسُ الصُّوف ، مخطِّمِى إبلهم بحبال اللِّيف . ولقد صلّى فى مسجد الخَيْف سبعون نبيًّا .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لقد مَرَّ بفَجِّ الرَّوْحاء (أو لقد مَرَّ بهــذا الفَجِّ) سبعون نبيا علىٰ نُوقٍ حُمْرٍ خُطُمها الليفُ ، لَبُوسُهم العباء وتلبيتهم شتّى . فمنهم يونس بن متّى . فكان يونس يقول : (لَبَّيْك فرّاجَ الكُرب ، لبَّيْك) ؛ وكان موسىٰ يقول : (لبَّيْك ، أنا عبدُك لديْك ، لبَّيْك) قال : وتلبية عيسىٰ : (لبَّيْك ، أنا عبدك ابن أمَتِك بنتِ عبديك ، لبَّيْك)» .

وعن عطاء بن السائب أن إبراهيم رأىٰ رجلا يطوف بالبيت فأنكره ، فسأله : ممن أنْتَ ؟ فقال : من أصحاب ذى القَرْنَيْنِ ، قال : وأيْنَ هو ؟ قال : هو بالأبطح . فتلقّاه إبراهيم عليه السلام فاعتنقه ، فقال لذى القرنين : ألا تركب ؟ قال : ما كنتُ لأركبَ ، وهذا يمشى ، فحجّ ماشيا .

ذكر ماجاء من مسئلة إبراهيم عليه السلام الأمْنَ والرزقَ لأهل مكة والكتب التي وجد فيها تعظيم الحرم

قال أبو الوليد الأزرقيّ، يرفعه إلى محمد بن كعب القُرَظي أنه قال : دعا إبراهيم عليه السلام للؤمنين، وترك الكُفّار لم يدعُ لهم بشيء، فقال الله تعالى : ﴿ومَنْ كَفَرَ فأُمَتِّعُه قَلِيلًا ثُمّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النّارِ وبِئْسَ المَصِيرُ﴾ . ٥

وقال عثمان بن ساج : وأخبرني محمد بن السائب الكلبيّ قال : قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ . فاستجاب الله عز وجل له فجعله بلدا آمنا وآمن فيه الخائفَ ورزقَ أهلَه من الثمرات، تُحمَل إليهم من الآفاق .

١٠ وقال مجاهد : جعل الله هذا البلد آمنا، لا يخاف فيه مَنْ دخله .

وقال سعيد بن السائب بن يَسَار: لما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة أن يرزق أهلها من الثمرات، نقل الله أرضَ الطائف من الشام فوضعها هنالك : رزقا للحرم .

وروى عن محمد بن المنكدر، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: لما وضع الله الحرم نقل له الطائفَ من الشام .

١٥ وعن الزُّهْريّ أنّ الله نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف، لدعوة إبراهيم خليل الله : ﴿وٱرزُقْ أَهْلَه من الثمرات﴾ .

وعن آبن عباس رضى الله عنهما، قال: جاء إبراهيم يطالع إسماعيل عليهما السلام فوجده غائبا، ووجد آمرأته الآخرة، وهي السيدة بنتُ مُضاض بن عمرو الجُرْهُمي. فوقف وسلم فردّت عليه السلام وآستنزلته وعَرَضت عليه الطعامَ والشراب،

فقـال : ما طعامُكم وشرابُكم ؟ قالت : اللحم والمـاءُ ، قال : هل من حَبٍّ أو غيره من الطعام ؟ قالت : لا ، قال : بارك الله لكم فى اللحم والمـاء .

قال آبن عباس رضى الله عنهما : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ولو وَجَدَ عندها يومئذ حَبًّا لدعا لهم بالبَرَكة فيه ، فكانت تكون أرضا ذاتَ زرعٍ" .

وعن سعيد بن جُبَيرٍ مثله ، وزاد فيه : "ولا يخلُو أحدٌ على اللحم والمـاء فى غير مكةَ إلا وَجِع بَطْنُه ، وإن خلا عليهما بمكة لم يجد لذلك أذى" . ٥

وعن آبن عباس رضى الله عنهما قال : "وُجِد فى المقام كتاب فيه "هذا بيت الله الحرامُ بمكة ، توكَّل اللهُ برزق أهـله من ثلاث سُبُل ، مباركٌ لأهـله فى اللحم واللَّبَن" .

ووجد فى حَجَرٍ فى الحِجْر كتابٌ من خِلْقة الحجرِ "أنا الله ذو بَكَّة الحرام صُغْتها يوم صُغْت الشمس والقمرَ وحَفَفتها بسبعة أملاك حُنَفاء لا تزول حتّى يزول أخْشَباها مبارك لأهلها فى اللحم والمـاء" . ١٠

وعن آبن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما هدموا البيت وبلَغوا أساس إبراهيم عليه السلام وجدوا فى حجر من الأساس كتابًا ، فدعَوْا له رجلا من أهل اليمن ، وآخَرَ من الرُّهبان ، فإذا فيـه : " أنا الله ذو بكة حرَّمتها يوم خلقت السمواتِ والأرضَ والشمسَ والقمرَ ويوم صُغْت هذين الجبلين وحفَفْتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها فى المـاء واللبن" . ١٥

وعن مجاهد رضى الله عنه قال : وجد فى بعض الزبور "أنا الله ذو بَكَّة جعلتُها بين هذين الجبلين وصـغتها يوم صغت الشمس والقمر وحَفَفْتها بسبعة أملاك حنفاء

وجعلت رزق أهلها من ثلاث سُبُل فليس يوتا[(١)] أهل مكة إلا من ثلاثة طرق أعلى الوادى وأسفله وكُدًى وباركت لأهلها فى اللحم والماء".

ذكر أسماء الكعبة ومكة

عن ٱبن أبى نَجِيح قال : إنما سُمِّيت "الكعبةَ" لأنها مُكَعَّبة علىٰ خِلْقة الكَعْب .

قال : وكان الناس يبنُون بيوتهم مدوّرة تعظيما للكعبة . فأوّل من بنىٰ بيتا مربّعا حُمَيد بن زُهَير، فقالت قريش : "رَبَّع حميدُ بنُ زُهَير بيتا، إمّا حياةً وإمّا موتا" .

وعن ٱبن عباس رضى الله عنهما ، قال : إنما سُمِّيت "بكة" لأنه يجتمع فيها الرجالُ والنساء جميعا . وقالوا : "بَكَّةُ" موضع البيت، ومكّة القرية .

وقال ٱبن أبى أُنيسة : "بَكَّةُ" موضع البيت، ومكة هو الحرمُ كلُّه .

وكان ٱبن جريج يقول : إنما سميت "بكة" لتَبَاكِّ الناس بأقدامهم قدّامَ الكعبة .

ويقال : إنما سميت "بكة" لأنها تَبُكُّ أعناقَ الجبابرة .

وعن الزهرى : أنه بلغه إنما سمّى "البيتَ العتيقَ" من أن الله تعالىٰ أعتقه من الجبابرة .

وعن مجاهد والسدّى : إنما سمى "البيت العتيقَ" الكعبةُ، أعتقها الله من الجبابرة، فلا يَتجبَّرون فيه إذا طافوا . وكان البيت يدعىٰ "قادسا" ويدعىٰ "بادرا" ويدعى "القرية القديمة" ويدعى "البيت العتيق" .

وعن مجاهد قال : من أسمائها "مكّة" و "بكّة" و "أمّ رُحْم" و "أمّ القُرىٰ" و "صَلَاح" و "كُوثىٰ" و "الباسَّة" .

---

(١) فى الأصل "بيوت" . وفى بعض النسخ كما فى الصلب بدون نقط . ولعل الصواب يؤتى .

وعن آبن أبى نجيح قال : بلغنى أن أسماء مكة "مكةُ" ، و "بكةُ" ، و "أم رُحْم" ، و"أم القُرىٰ" : و"الباسَّةُ"، و"البيتُ العتيقُ"، و"الحاطمةُ": (تحْطِم من يستخفُّ بها) ؛ و"الناسَّة" (تنُسّهم ، أى تخرجهم إخراجا إذا غَشَموا وظلموا) .

ذكر ما جاء فى فضل الركن الأسود ٥

عن آبن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ليس فى الأرض من الجنة إلا الرُّكْن الأسود والمقام، فإنهما جوهرتانِ من جواهر الجنة؛ ولولا ما مَسَّهما من أهل الشِّرك ما مسَّهما ذُو عاهة إلا شفاه الله عز وجل .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه قال فى الرُّكْن الأسود: لولا ما مَسَّه من أنجاس الجاهلية وأرجاسهم، ما مَسَّه ذو عاهة إلا بَرَأ . وقال : نزل ١٠ الركن، وإنه لأشدّ بياضا من الفِضّة .

وعن آبن عباس رضى الله عنهما أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها، وهى تطوف معه بالكعبة حين آستَلَم الركنَ: "لولا ما طُبع علىٰ هذا الحجر، يا عائشةُ، من أرجاس الجاهلية وأنجاسها، إذَنْ لآستُشْفِىَ به من كل عاهة، وإذن لأُلفِى كهيئته يوم أنزله الله، وليعيدنه الله إلىٰ ما خلقه أوّل مرة، وإنه لياقوتة ١٥ بيضاءُ من يواقيت الجنة، ولكنَّ الله غيره بمعصية العاصين، وستر زِينتَه عن الظَّلَمة والأَثَمة لأنهم لا ينبغى لهم أن ينظروا إلىٰ شىء كان بدؤه من الجنة" .

وعنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله يبعثُ الركنَ الأسودَ، وله عينان يبصر بهما، ولِسان ينطق به : يشهد لمن آستلمه بحق" .

وعنه رضى الله عنه : الركن يمينُ الله فى الأرض : يصافِحُ بها عباده كما يصافح أحدُكُم أخاه .

وعن أبى سعيد الخُدرىّ رضى الله عنه قال : خرجْنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلىٰ مكة . فلما دخلْنا الطوافَ، قام عند الحجر وقال : والله إنى لأعلم أنك حَجَرٌ لا تضرُّ ولا تنفَع، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبِّلك، ماقبَّلتك. ثم قبَّله ومضىٰ فى الطواف فقال له علىّ رضى الله عنه : بل يا أمير المؤمنين هو يضرّ وينفع، قال : وبم قلتَ ذلك؟ قال : بكتاب الله، قال : وأين ذلك من كتاب الله؟ قال : قال الله عز وجل : ﴿ وإذْ أخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأشْهَدَهُمْ علىٰ أنْفُسِهِمْ ألَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بَلىٰ شَهِدْنا ﴾ . فلما خلق الله تعالىٰ آدم مسح ظهرَه وأخرج ذرّيته من صلبه فقرّرهم أنه الربُّ وهم العبيد، ثم كتب ميثاقهم فى رَقٍّ، وكان هذا الحجر له عينانِ ولسانٌ، فقال له : آفتح فاك ، فألقمه ذلك الرَّقَّ وجعله فى هذا الموضع ، وقال : تشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة، فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيشَ فى قوم لستَ فيهم، يا أبا الحسن .

وعن عِكْرِمة : أنّ الحجر الأسود يمينُ الله فى الأرض، فن لم يدرك بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح الركنَ فقد بايع اللهَ ورسولَه .

وعن مجاهد : يأتى الركنُ والمَقَام يوم القيامة، كلُّ واحد منهما مثل أبى قُبَيس : يشهدان لمن وافاهما بالموافاة .

والله أعلم .

ذكر ما جاء فى فضل آستلام الركن الأسود ، واليمانى

(١١١) عن عطاء بن السائب أن عبيد بن عمير قال لأبن عمر رضى الله عنهما : إنى أراك تُزاحم علىٰ هذين الركنين ، فقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنَّ آستلامَهُما يحُطُّ الخطايا حَطًّا ".

وسئل رضى الله عنه ، فقيل له : إنا نراك تفعل خِصالا أربعا لا يفعلُها الناسُ : نراك لا تستلم من الأركان إلا الحجرَ والركن اليمانِيَ ، ونراك لا تلْبَس من النِّعال إلا السِّبْتية ، ونراك تصَفِّر شعرك وقد يصبُغ الناس بالحنَّاء ، ونراك لا تُحْرم حتّى تستوى بك راحلتك وتَوَجَّهَ . فقال عبد الله : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلُ ذلك .

وعن آبن عمر رضى الله تعالىٰ عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يَدَعُ الركنَ الأسود والركن اليمانِيَ أن يستلمهما فى كل طواف أتىٰ عليهما . قال : كان لا يَدَعُهما فى كل طواف طاف بهما حتّى يستلمَهما ، لقد زاحم علىٰ الركن مرةً فى شدّة الزحام حتّى رُعِف ، فخرج فغسل عنه ثم رجع . فعاد يزاحم فلم يصل إليه حتّى رُعِف الثانية ، فخرج فغسل عنه ثم رجع . فما تركه حتّى آستلم .

وعن نافع قال : لقد رأيت آبن عمر رضى الله عنهما ، زاحم مرةً على الركن اليَمَانى حتّى انبهر فتنحّى فجلس فى ناحية الطواف حتّى آستراح ، ثم عاد فلم يدَعْهُ حتّى آستلمه . قالوا : وليس هذا واجبا على الناس ، ولكنه كان يحب أن يصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر ما جاء في فضل الطواف بالكعبة

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ طافَ بالبَيْتِ، كَتَبَ اللهُ له بكُلِّ خَطْوة حسنةً ومحا عنه سيِّئةً".

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا خَرجَ المرءُ يُرِيدُ الطَّوافَ بالبيْتِ، أقبلَ يُرِيد الرحمةَ . فإذا دَخَله غَمَرْته . ثم لا يرفَعُ قدَما ولا يَضَعُ قدَماً إلا كَتَبَ اللهُ له بكلِّ قَدَم خَمْسَمِائة حسنةٍ، وحَطَّ عنه خَمْسَمِائةِ سيئةٍ (أو قال خطيئةٍ) ، ورُفِعت له خَمْسُمِائة درجةٍ . فإذا فَرَغ من طوافه فصلّى ركعتين دُبُرَ المَقامِ، خرج من ذنوبه كيومَ ولَدَتْه أمّه، وكُتِب له أجْرُ عِتْق عشرِ رقابٍ من ولد إسماعيل، وآستقبله مَلَكٌ على الركن فقال له : آستأنِف العمل فيما بقىَ فقد كُفِيت ما مضىٰ، وشُفِّع فى سبعين من أهل بيته".

وعن حَسّان بن عطية : أن الله خلق لهذا البيت عشرين ومائة رحمة يُنزِلُها فى كل يوم، فستُّون منها للطائفين، وأربعون للمصلّين، وعشرُون للناظرين. قال حسان : فنظَرْنا فإذا هى كلها للطائفين هو يطوف ويصلى وينْظُر .

ذكر ما جاء فى فضل زمزم

عن وهب بن منبِّه أنه قال فى زمزم : والذى نفسى بيده، إنها لفى كتاب الله مَضْنُونة، وإنها لفى كتاب الله بَرَّة، وإنها لفى كتاب الله شَرابُ الأبرار، وإنها لفى كتاب الله طعامُ طُعْم وشفاءُ سُقْم .

وعن آبن خُثَيم قال : قَدِم علينا وهب بن منبه مكةَ فاشتكىٰ، فجئناه نعوده، فإذا عنده من ماء زمزمَ . قال : فقلنا له : لوآستعذبْتَ، فإن هذا ماء فيه غِلَظ؟ قال : ما أريد

أن أشرب حتّى أخرج منها غيْرَه، والذى نفس وهب بيده ، إنها لفى كتاب الله زمزم لا تُنْزَف ولا تُذَم ، وإنهـا لفى كتاب الله بَرَّة شراب الأبرار ، وإنها لفى كتاب الله مَضْنونة ، وإنها لفى كتاب الله طَعامٌ من طُعْمٍ وشفاءٌ من سُقْمٍ ،والذى نفس وهب بيده لايعمدُ أحد إليها فيشربُ منها حتّى يتضلع إلا نزعَتْ منه داءً أو أحدَثَتْ له شفاءً .

٥ وعن كعب أنه قال لزمزم : إنا نجدها مضنونةً ضَنَّ بها لكم،وإن أول مَنْ سُقِىَ ماءَها إسماعيلُ عليه السلام، طعامٌ من طُعْمٍ، وشفاءٌ من سُقْمٍ .

وعن مجاهد قال : ماءُ زمزمَ لمـا شُرِب له ،إن شربته تريد به شفاءً شفاكَ الله، وإن شربته لظمإٍ أرواكَ الله، وإن شربته لجُوع أشبعكَ الله ، وهى هَزْمةُ جبريل عليه السلام بعَقِبه .

١٠ وعن آبن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "التضَلُّع من ماءِ زمزمَ براءةٌ من النِّفاق".

وعن الضحاك بن مزاحِم أنه قال : بلغنى أنَّ التضلع من ماء زمزم براءةٌ من النفاق، وأن ماءها يَذْهَبُ بالصُّدَاع ،وأن التطلُّع فيها يجلو البصَر، وأنه سـيأتى عليها زمان تكون أعذبَ من النيـل والفرات . قال : قال لنا الخزاعىّ : وقد رأينا ذلك

١٥ فى سـنة إحدىٰ أو آثنتين وثمـانين ومائتين، وذلك أنه أصاب مكةَ أمطارٌ كثـيرة وسال واديها فى سـنة تسع وسبعين، وسنة ثمـانين ومائتين ، فكثُر ماء زمزم وآرتفع حتّى قارب رأسَها، فلم يكن بينه وبين شَفتها العليا إلا سبعُ أذرع أونحوها، وعذُبت حتّى كان ماؤها أعذبَ ميـاه مكة التى يشربها أهلها . وإنا رأيناها أعذبَ من مياه العيون . (١١٢)

وعن الضحاك بن مزاحم أيضا أن الله عز وجل يرفع المياه العِذَابَ قبل يوم القيامة غير زمزم، وتغور المياه العَذْبة غيرَ زمزم .

ذكر ما جاء من اتساع مِنًى أيام الحج ولِمَ سميت مِنًى

§ عن أبى الطُّفَيل، قال : سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يُسْأَلُ عن منًى، ويقال له : عجبًا لضيقه فى غير أيام الحج ! فقال ابن عباس : إن منًى يتسع بأهله كما يتسع الرحم للولد .

§ وعن ابن عباس، قال : إنما سميت منًى منًى لأن جبريل حين أراد أن يفارق آدم، قال له . تمنَّ ، قال : أتمنَّى الجنة ، فسميت منًى لتمنى آدم .

وقيل : إنما سميت منًى لِمَنْىِ(1) الدماء بها .

ذكر ما جاء فى فضائل مقبرة مكة

§ عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال : "نِعْمَ المقْبُرةُ هذه !" (لمقبرة أهل مكة) .

وعن محمد بن عبد الله بن صيفىّ أنه قال : من قُبِر فى هذه المقبرة، بُعِث آمنا يوم القيامة (يعنى مقبرة مكة) .

ذكر شىء من خصائص مكة

§ من خصائصها أن الذئب فيها يروع الظبى ويعارضه ويصيده . فإذا دخل الحَرَم، كَفَّ عنه .

(1) المَنْىُ هو إراقة الدماء .

§ومنها أنه لا يسقط على الكعبة حمامٌ إلا إن كان عليلا ؛ وأن عادة الطير إذا حاذت الكعبة أن تفترق فرقتين ولا تعلُوَها . والله أعلم .

وأما المدينة المشرفة

على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

§ففضائلها أوسعُ من أن أحصرَها ،وأعظم من أن أسبُرَها . ناهيك بها من بلد آختاره الله تعالىٰ لرسوله ،ونص علىٰ فضله فى محكم تنزيله ، قال الله عز وجل : ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوىٰ مِنْ أَوَّلِ يومٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ .

§وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه سُئل : أىّ مسجد هو ؟ فقال : مسجدى هذا ، وهو قول آبن المسيَّب وزيد بن ثابت وآبن عمر رضى الله تعالىٰ عنهم ، وبه أخذ مالك رحمه الله . وقال آبن عباس : هو مسجد قباءٍ .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "صلاةٌ فى مسجِدِى هذا خيْرٌ من ألِف صلاةٍ فيما سِواه، إلا المسجدَ الحَرَامَ".

قال القاضى عياض رحمه الله : إختلف الناس فى معنىٰ هذا الآستثناء على اختلافهم فى المفاضلة بين مكة والمدينة . فذهب مالك أن الصلاة فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم أفضلُ من الصلاة فى سائر المساجد بألف صلاة إلا المسجد الحرام،فان الصلاة فى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم أفضلُ من الصلاة فيه بدون الألف . وآحتج مالك وأشهبُ وآبن نافع وجماعةُ أصحابه بما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه "صلاة فى المسجد الحرام خيرٌ من مائة صلاة فيما سواه" فتأتى

فضيلة مسجد الرسول عليه بتسعمائة وعلىٰ غيره بألف . وهذا مبنيّ علىٰ تفضيل المدينة علىٰ مكة ، وهو قول عمر بن الخطاب ومالك وأكثر المدنيين .

§ وذهب أهل مكة والكوفة إلىٰ تفضيل مكة . وهو قول عطاء وآبن وهب وآبن حبيب ، من أصحاب مالك . وحكاه الباجى عن الشافعى .

٥ § قال القاضى أبو الوليد الباجى : الذى يقتضيه الحديث مخالفة حكم مكة لسائر المساجد ، ولا يعلم منه حكمها مع المدينة .

§ قال القاضى عياض : ولا خلاف أن موضع قبر النبي صلى الله عليه وسلم أفضل بقاع الأرض .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما بين بَيتِي ومِنْبَرِي روضةٌ من رِيَاض الجنة" .

١٠ قالوا : هذا يحتمل معنيين ، (أحدهما) ، أنه موجب لذلك وأن الدعاء والصلاة فيه تستحق ذلك من الثواب كما قيل : "الجنةُ تحتَ ظِلال السُّيوف" . (والثانى) أن تلك البقعة قد ينقلها الله فتكون فى الجنة بعينها . قاله الداودىّ .

§ وروىٰ آبن عمر وجماعةٌ من الصحابة رضى الله عنهم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال فى المدينة : "لا يَصْبِر علىٰ لَأْوائها وشدّتها أحدٌ ، إلا كنتُ له شهيدا أو شفيعا

١٥ يوم القيامة" .

§ وقال صلى الله عليه وسلم فيمن تحمّل عن المدينة : "والمدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يعلَمُون" . وقال : "إنما المَدِينةُ كالكِير : تَنْفِى خَبَثَها وتَنْصَع طِيبَها" .

§ وقال : "لا يخرجُ أحدٌ من المدينة رغبةً عنها إلا أبدلها اللهُ خيرًا منه" .

§ وعنه صلى الله عليه وسلم: "مَنْ مات فى أحد الحرمين حاجًّا أو معتمرا، بعثه اللهُ يومَ القيامة لا حِسابَ عليه ولا عَذَاب". وفى طريق آخر: "بُعث من الآمنين يومَ القيامة".

§ وعن آبن عمر رضى الله عنهما: "مَنِ آستطاع أن يموتَ بالمدينة، فليمُتْ بها فإنِّى أشفَعُ لمن يموتُ بها". ٥

§ وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم طَلَع له أُحُدٌ فقال: "هذا جَبَلٌ يحبُّنا ونحبُّه. اللهم إنَّ إبراهيم حَرَّم مكة، وأنا أُحَرِّم ما بين لابَتَيْها". (١١٣)

§ وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ كما حَبَّبتَ إلينا مكةَ أو أشدَّ، وآنقل حُمَّاها إلى الجُحْفة، اللهم بارِكْ لنا فى صاعنا ومُدِّنا". ودعا النبىّ صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة فقال: "اللهم بارِكْ لهم فى مكيالهم، وبارك لهم فى صاعهم ومُدِّهم". ١٠

§ وقال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ زار قَبْرِى، وجبَتْ له شفاعَتِى".

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ زارنِى فى المدينةِ مُحْتَسِبا، كان فى جِوَارِى وكنتُ له شَفِيعا يومَ القيامة".

§ وكان مالك رحمه الله لا يركب فى المدينة دابّةً، ويقول: أستحْيِى من اللهِ أنْ أطأَ تُربةً فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافِرِ دابّة. ١٥

وروى أنه وَهَب للشافعىّ كُرَاعا كثيرا، فقال له الشافعىّ: أَمْسِك منها دابّة. فأجابه بمثل هذا الجواب.

§ وحكى القاضى عياض فى "كتاب الشفاء" قال: حُدِّث أن أبا الفضل الجوهرىّ لمّا ورد المدينة زائرا وقَرُب منها، ترجّل ومشى باكيا منشدا: ٢٠

ولَمَّا رأينا رَسْمَ مَنْ لم يَدَعْ لنا * فُؤاداً لعِرْفانِ الرُّسُوم ولا لُبّا،
نَزَلْنا عنِ الأكوارِ نَمْشى، كرامةً * لِمَنْ بانَ عنــه أن نُلِمَّ به رَكْبا.

قال : وحكى بعض المريدين أنه لمـا أشرف علىٰ مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنشأ يقول متمثلا :

٥ رُفِع الحِجـابُ لنا فَلاحَ لناظِرٍ * قَمَـرٌ تَقَطَّعُ دونَه الأوهامُ.
وإذا المَطِىُّ بنا بلَغْنَ محمّدًا، * فظُهورُهُنّ علىٰ الرِّجال حَرامُ.
قَرَّبْننا من خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الثَّرىٰ، * فلهـا علَيْنا حُرمـةٌ وذِمامُ.

§ وأفتىٰ مالك رحمه الله فيمن قال "تربة المدينة رديّة" بضرب ثلاثين دِرّة، وأمر بحبسه، وكان له قَدْر. وقال : "ما أحْوجَه إلىٰ ضَرْب عُنُقه، تربةٌ دفن فيها النبىّ صلى الله عليه وسلم، يزعُم أنها غير طَيِّبة !". ١٠

وفى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى المدينة : "مَنْ أحدَثَ فيها حَدَثا أو آوىٰ مُحْدِثا، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبَلُ الله منه صَرْفا ولا عَدْلا".

ذكر شىء من خصائص المدينة المشرفة وأسمائها
علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام ١٥

§ من خصائصها، أن العِطْر والبَخُور يوجد لها فيها من الضَّوْع والرائحةِ الطيِّبة أضعافُ ما يوجَد فى سائر البلاد، ولهـا فى قصبتها فَغْمة طيِّبة ورائحة عَطِرة، وإن لم يكن فيها شىء من الطيب ألبتّةَ. ولهذا سميت "طَيْبة" و"طابَة".

قال الشاعر :

ماذا علىٰ مَنْ شَمَّ تُربةَ أحْمَـــدٍ * أن لا يَشَمَّ مَدىٰ الزمان غَوَالِيَا؟

وهذا البيت ينسب لفاطمةَ الزهراء رضى الله عنها .

§ ومن أسمائها "طَيْبة" "وطابةُ" و"يَثْرِب" و"المدينةُ" و"الدارُ" .

§ قال القاضى عياض رحمه الله : وجَديرٌ بمواطن عَمَرت بالوحْى والتنزيل، وتردَّدَ بها جبريلُ وميكائيل، وعَرَجت منها الملائكةُ والرُّوح، وضَجَّت عَرَصاتها بالتقديس والتسبيح، وٱشتملَتْ تربتُها علىٰ جَسَــد سيد البَشَر، وٱنتَشَر عنها من دين الله وسـنة رســوله ما ٱنتَشَرْ، مَدَارسُ آيات، ومَسَاجدُ جماعاتٍ وصلوات، ومشاهدُ الفضل والخيرات، ومعاهدُ البراهين والمعْجزات، ومناسكُ الدين، ومَشَاعر المسلمين، ومواقفُ سيد المرسلين، ومتبوأُ خاتَم النبيين، حيث ٱنفجرت النبوّة، وأين فاض عبابُها، ومواطن مَهْبَط الرسالة، وأوّلُ أرضٍ مسَّ جلدَ المصطفى ترابُهـا : أن تُعَظَّم عَرَصاتها، وتُتَنَسَّم نفحاتها، وتُقَبَّل ربوعُها وجدرانُها .

وقال :

يا دارَ خَيْرِ المرسَلينَ ومَنْ به * هُــدِىَ الأنامُ وخُصَّ بالآياتِ .

عِنْدى لاجْلِك لَوْعةٌ وصَــبابَةٌ * وتَشَــوُّقٌ متوقِّدُ الجَمَــراتِ .

وعَلَىَّ عهدٌ إن ملأتُ مَحَاجِرى * من تِلْكُمُ الجُدُراتِ والعَرَصاتِ،

لأُعَفِّرَنَّ مَصُونَ شَـيْبى بيْنَهــا * من كَثْرة التقْبِيلِ والرَّشَــفَاتِ .

لولا العَوَادِى والأَعَادى، زُرْتُها * أبدًا ولو سَحْبًا علىٰ الوَجَنـاتِ .

لكن سَأُهْدى من حَفيل تَحِيَّتِى * لِقَطينِ تِلْكَ الدارِ والحُجُراتِ .

(١١٤)

أذكى من المسك المفتّق نفحةً * تغشاه بالاصال والبُكُرات.
وتخصُّه بزواكي الصّلوات * ونوامي التسليم والبركات.

وأما البيت المقدّس، والمسجد الأقصى

فالبيت المقدّس أحدُ القبلتين، والمسجد الأقصى ثالثُ الحرمين . إليه تُشَدّ الرِّحال، ويكثُر النزولُ والارتحال؛ وفى الأرض المقدّسة تُحشَر الخلائق ليوم العَرض، ويبسُط الله تعالى الصخرةَ الشريفة حتّى تكونَ كعرض السماء والأرض؛ وتجتمع الناس هناك لفصل الحساب، ويُضْرب بينهم بسورٍ له باب، باطنُه فيه الرحمةُ وظاهرُه من قِبَله العذاب.

ولنبدأ بذكر الأرض المقدّسة

§ قال الله عز وجل إخبارا عن موسى عليه السلام: ﴿يَاقَوْمِ ٱدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. قال الزجاج: والمقدّسة المطهّرة.

وقيل للسَّطْل "القَدَس" لأنه يتطهَّر منه. وسمى بيت المقْدس لأنه يتطهَّر فيه من الذنوب. وقيل: سماها مقدّسة لأنها طُهِّرت من الشرك وجعلت مسكنا للأنبياء والمؤمنين.

§ وقد ٱختلف فى الأرض المقدّسة ما هى ؟

فذهب ٱبن عباس رضي الله عنهما إلى أنها أريحا.

وقال السُّدّى: أَرِيحا هى أرض بيت المَقدِس. وقال مجاهد: هى الطُّور وما حوله. وقال الضحاك: هى إيلياء وبيت المَقْدس. وقال الكلبى: دِمَشْق وفِلَسطين وبعض الأُرْدُنّ. وقال قتادة: هى الشام كلها.

وقال عبد الله بن عمر : والحرم محرّمٌ مقـداره من السماوات والأرض ، و بيت المقدس مقدّسٌ مقداره من السماوات والأرض .

§ وقال ابن قتيبة . وقرأت فى مناجاة موسىٰ عليـه السلام أنه قال : اللهمّ إنك اخترتَ من الأنعـام الضائنةَ ، ومن الطير الحمامةَ ، ومن البيوت مكةَ و إيلياءَ ، ومن إيلياءَ بيتَ المقدس . ٥

§ وقال الله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الحَـرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصىٰ الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَه ﴾ .

والمسجد الأقصىٰ بيتُ المقـدس : سمّى أقصىٰ لأنه أبعـد المساجد التى تزار ؛ وقيل : لبعد المسافة بين المسجدين . وقوله عز وجل "الذى باركنا حوله" قيل : بالمـاء والأنهار والأشجار والثمـار . وقال مجاهد : سماه مباركا لأنه مقرّ الأنبياء ، وفيه مَهْبَط الملائكة والوحى ، وهو الصخرة ، ومنه يُحشَر الناس يوم القيامة . ١٠

§ وقال تعالىٰ : ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ .

قال الثعلبىّ فى تفسـيره : قال كعب الأحبـار وقتادةُ وابنُ زيد وعبدُ الرحمن بن غنم : «التِّين مسجدُ دمشقَ ، والزيتونُ بيتُ المقدس» . وقال الضحاك : «هما مسجدان بالشام» . وقال محمد بن كعب : «التينُ مسجد أصحابِ الكهف ، والزيتون مسجدُ إيلياءَ» . ومجازه علىٰ هذا التأويل : مَنَابِت التينِ والزيتونِ . ١٥

وروىٰ عطية عن ابن عباس : « التينُ مسجدُ نوح عليه السـلام الذى بنى على الجُودى ، والزيتون بيت المَقْدس» .

وروى نهشل عن الضحاك : "التين المسجد الحرامُ، والزيتونُ المسجدُ الأقصى" قال : "وطورِ سينينَ، يعني جبل موسى عليه السلام" .

قال عكرمة : "السِّينينُ الحسن بلغة الحبشة" . وعنه : كل جبل يُنْبِتُ فهو سِينِينُ .

٥ وقال مجاهد : "الطُّور الجبل، وسينين المبارك" .

وقال قتادة : "المُبارك الحَسَنُ" .

وقال مقاتل : "كل جبل فيه شجر فهو سينين، وسيناءُ وهو بلغة النَّبَط" .

وقال الكلبي : "يعنى الجبل المُشْجِر" .

§ وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : "أربعة أجبال مقدّسة بين يدَيِ الله تعالى :

١٠ طُور تِينَا ، وطور زَيْتا ، وطور سِينَا ، وطور تيمانا .

فاما طور تينا : فدمشق .

وأما طور زَيْتا : فبيت المقدس .

وأما طور سِينا : فهو الذى كان عليه موسى عليه السلام .

وأما طور تيمانا : فمكّةُ .

١٥ § والبلد الأمين مكة بلا خلاف" .

§ ومسجد بيت المقدس أحدُ المساجد الثلاثة التى لا تشدّ الرحال إلا إليها ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما ورد فى الصحيح : "لا تُشَدّ الرِّحالُ إلّا إلى ثلاثةِ مساجِدَ : المسجدُ الحرام، ومسجدى هذا، والمسجدُ الأقصى" .

وفى الصحيح أيضا "أن موسى عليه السلام ، لما حضرتْه الوفاةُ سأل اللهَ تعالى

٢٠ أن يدنيه من الأرض المقدّسة رميةً بحَجَر" .

وكانت عمارة مسجد البيت المقدس بأمر الله عز وجل لنبيه داود عليه السلام أن يعْمُره ثم لم يقدر له عمارتُه وقدر الله تعالىٰ ذلك علىٰ يدى سليمان بن داود عليهما السلام ، فهو الذى عمره . وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالىٰ مبينا فى الفن الخامس فى التاريخ .

§ وقد وردت آثارٌ وأحاديثُ فى فضل بيت المقدس ، وفضل زيارته ، وثوابِ الصلاة فيه ، ومضاعفةِ الحسنات والسيئات فيه ، وفضلِ السكنىٰ فيه ، والإقامةِ به ، والوفاة فيه ، وما به من قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومحراب داود ، وعين سُلْوانَ ، وما ورد فى أن الحشر منه ، وما ورد فى فضل الصخرة والصلاة إلىٰ جانبها ، وما ورد من أن الله عز وجل عَرَج بنبيه من بيت المقدس إلىٰ السماء ، وثواب الإهلال من بيت المقدس ، وما ورد من أن الكعبة تزور الصخرةَ يوم القيامة .

وسنذكر من ذلك طرفا تقف عليه إن شاء الله تعالىٰ ونحذف أسانيد الأحاديث الواردة فيه رغبةً فى الاختصار فنقول ، وبالله التوفيق :

أما فضل بيت المقدس

§ فقد ورد عن الزهرىّ أنه قال : لم يبعثِ اللهُ عز وجل نبيا ، إلا جعل قبلته صخرةَ بيت المقدس . وقد صلّى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته سبعة عشر شهرا ، كما روى فى الصحيحين ، حتّى أنزل الله عز وجل علىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ .

وتحويلُ القبلة أوّلُ ما نُسِخ من أمور الشرع . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلّون بمكة إلى الكعبة . فلما هاجر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، أمره الله تعالى أن يصلّي نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقربَ إلى تصديق اليهود إيّاه إذا صلّى إلى قبلتهم مع ما يجدون من تعيينه فى التوراة .

٥ هذا قول عامّة المفسرين، على ما حكاه الثعلبيّ عنهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد : قال الله تعالى لنبيه صلّى الله عليه وسلم : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هؤلاءِ يهودُ يستقبِلونَ بيتًا من بيوتِ اللهِ". فاستقبله النبيّ صلى الله عليه وسلم . قالوا جميعا : فصلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه نحو بيت المقدس سبعةَ عشرَ شهرا، وكانت الأنصار قد صلّتْ

١٠ قِبَل بيت المقدس ستين يوما ، قبل قدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وكانت الكعبة أحب القبلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

§ واختلفوا فى السبب الذى كان عليه الصلاة والسلام من أجله يكره قبلة بيت المقدس ويهوى قبلةَ الكعبة .

فقال ابن عباس رضى الله عنهما : لأنها كانت قبلةَ أبيه إبراهيم عليهما السلام .

١٥ وقال مجاهد : من أجل أن اليهود قالوا : يخالفنا محمد فى ديننا، ويتّبع قبلتنا !

وقال مقاتل بن حَيّان : لما أُمِر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلى نحوَ بيت المقدس ، قالت اليهود : يزعم محمد أنه نبى ، وما نراه أحدَثَ فى نبوّته شيئا ! أليس يصلى إلى قبلتنا ويستنّ بسنتنا ؟ فإن كانت هذه نبوّةً . فنحن أقدمُ وأوفرُ نصيبا .

فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فشق عليه وزاده شوقا إلىٰ الكعبة .

وقال آبن زيد : لمـا آستقبل النبيّ صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس، بلغه أن اليهود تقول : والله ما درىٰ محمد وأصحابُه أين قبلتهم حتّى هديناهم ، قالوا جميعا : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : وَدِدتُ أن الله صَرَفنى عن قبلة اليهود إلىٰ غيرها، فإنى أبغضهم وأبغض موافقتهم ، فقال جبريل : إنمـا أناعبدٌ مثلُك ، ليس لى من الأمر شىءٌ، فسَلْ ربّك، فعرج جبريل . وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلىٰ السماء رجاء أن يَنْزِلَ جبريل بمـا يُحِبُّ من أمر القبلة . فأنزل الله عز وجل : ﴿قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ الآية .

فلما صُرِفَتِ القبلة إلىٰ الكعبة قال مشركو مكة : قد تردّد علىٰ محمد أمره، وآشتاق إلىٰ مولده ومولد آبائه ، وقد توجه نحو قبلتهم وهو راجع إلىٰ دينكم عاجلا ، وتكلم اليهود والمنافقون فى تحويلها . فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

§ وروى عن كعب أنه قال : إن الله عز وجل ينظر إلىٰ بيت المقدس كل يوم مرتين .

وأما فضل زيارته، وفضل الصلاة فيه

§ فقد روى عن مكحول أنه قال : مَنْ زار بيت المقدس شوقًا إليه، دخل الجنة وزاره جميع الأنبياء فى الجنة وغَبَطُوه بمنزلته من الله تعالىٰ، وأيُّما رُفْقة خرجوا يريدون بيت المقدس، شيَّعهم عشرةُ آلاف من الملائكة : يستغفرون لهم ويصلُّون عليهم،

ولهم مثل أعمالهم اذا آنتهوا إلىٰ بيت المقدس ، ولهم بكل يوم يقيمون فيه صلاةُ سبعين مَلَكا ؛ ومَن دخل بيت المقدِس طاهرا من الكبائر، تلقاه الله بمائة رحمة ، ما منها رحمة إلا ولو قسمت علىٰ جميع الخلائق لوَسِعتهم ؛ ومن صلّى فى بيت المقدس ركعتين يقرأ فيهما بـ"فاتحة الكتاب" و"قل هو الله أحد" خرج من ذنوبه كيومَ ولدَتْه أمه ، وكان له بكل شعرة علىٰ جسده حسنةٌ ؛ ومَن صلى فى بيت المقدس أربعَ ركعات ، مرّ علىٰ الصراط كالبَرْق وأُعْطِىَ أمانا من الفزع الأكبر يوم القيامة ؛ ومَن صلى فى بيت المقدس ستّ ركعات ، أُعْطِىَ مائةَ دعوة مستجابة ، أدناها براءةٌ من النار ، ووجبت له الجنةُ ؛ ومَن صلّى فى بيت المقدس ثمانَ ركعات ، كان رفيق إبراهيم خليل الرحمن ؛ ومَنْ صلّى فى بيت المقدس عشرَ ركعات ، كان رفيق داود وسليمان فى الجنة ؛ ومَن آستغفر للمؤمنين والمؤمناتِ فى بيت المقدس ثلاثَ مرات ، كان له مثلُ حسناتهم ، ودخل علىٰ كل مؤمن ومؤمنة من دعائه سبعون مغفرةً ، وغُفِر له ذنوبُه كلُّها .

§ وروى عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ صلّى ببيتِ المَقدِس خمسَ صلوات نافلةً ، كلُّ صلاة أربعُ ركعات يقرأ فى الخمس صلوات عشرةَ آلافِ مرةٍ (قل هو الله أحدٌ) ، فقد آشترىٰ نفسَه من الله عز وجلّ ؛ ليس للنار عليه سلطانٌ" .

وعنه أيضا ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاةُ الرجلِ فى بيتِه بصلاةٍ واحدةٍ ، وصلاتُه فى مسجدِ القبائل بستٍّ وعشرين ، وصلاتُه فى المسجد الذى يُجمع فيه بخمسمائةِ صلاةٍ ، وصلاتُه فى المسجد الأقصىٰ بخمسينَ ألفَ صلاةٍ ، وصلاتُه فى المسجد الحرام بمائة ألفِ صلاةٍ" .

وعن مكحول أن ميمونة رضى الله عنهـا سألتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم عن بيتِ المقـدس قال : "نِعمَ المَسْكَنُ بيتُ المقدِس ! ومَنْ صلى فيه صلاةً بألف صلاة فيما سواه . قالت : فمن لم يُطِق ذلك؟ قال : يُهدِى له زَيْتا"(١)

§ وعن مكحول عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال : لا يسمَع أهلُ السماء من كلام بنى آدمَ شيئًا غير أذانِ مؤذِّنِ بيت المقدِس .

وأما ما ورد

فى بيت المقدس من مضاعفة الحسنات والسيئات فيه

فقد روى عن نافع، قال : قال ٱبن عمر رضى الله عنهما ، ونحن فى بيت المقدس : يا نافعُ، ٱخرُج بنا من هذا البيت، فإن السيئاتِ تُضاعف فيه كما تُضاعف الحسناتُ .

وقال جرير بن عثمان وصفوان بن عمرو : الحسنة فى بيت المقدس بألف ، والسيئة بألف .

وأما فضل السكنى فيه والإقامة والوفاة به

§ فقد روى عن ذى الأصابع أنه قال لرسول الله صـلى الله عليه وسـلم : أرأيتَ يارسـولَ الله إن ٱبتُلينا بالبقاء بعدكَ، فأين تأمرنا؟ قال : "عليكَ ببيت المقْدِس، لعلَّ الله يرزقُك ذرّية تغدُو إليه وتَرُوح" .

(١) يظهر أن بعض الكلمات قد سقطت فى هـذا الموضع . ولذلك رأيت إيراد الحديث بلفظ آخر عن ٱبن الفقيه الهمذانى فى كتابه "مختصر كتاب البلدان" المطبوع فى ليدن سنة ١٣٠٢ هـ (سنة ١٨٨٥ م) وهذا نصه : "قالت ميمونة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : قلتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أفْتِنا عن بيت المقدس ، قال : نعم المصلى هو أرض المحشر وأرض المنشر ، إيتوه فصلوا فيـه فإن الصلاة فيه كألف صلاة . قلت بأبى وأمى أنت من لم يطق أن يأتيه . قال فليهدِ إليه زيتا يسرج فيه ، فإنه من أهدى إليه ، كان كمن صلى فيه" .

§ وعن أبي أُمامة الباهليّ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تزالُ طائفةٌ من أُمتي ظاهرين على الحقّ، لعدوّهم قاهرين، لا يضرُّهم مَنْ خالفهم، حتّى يأتيهم أمر الله عز وجل وهم كذلك. قالوا: يا رسول الله، وأينَ هُمْ؟ قال: ببيت المقدِس وأكناف بيت المقدس".

٥ § وعن عطاء، قال: لا تقوم الساعةُ حتّى يسوق الله عز وجل خيارَ عباده إلى بيت المقدس وإلى الأرض المقدّسة، فيُسكِنَهم إيَّاها.

§ وعن كعب، قال: قال الله عز وجل لبيت المقدس: أنتَ جنتي وقُدْسي وصفوتي من بلادي، مَنْ سكنَكَ فبرحمة مني، ومَنْ خرج منك فبسخط مني عليه.

§ وعن وهب بن منبه، قال: أهل بيت المقدس جيرانُ الله، وحقٌّ على الله عز

١٠ وجل أن لا يعذّب جيرانَه؛ ومن دُفِن في بيت المقدس نجا من فتنة القبر وضِيقه.

§ وعن كعب، قال: اليومُ في بيت المقدس كألفِ يومٍ، والشهر فيه كألفِ شهرٍ، والسنةُ فيه كألف سنة؛ ومَنْ مات فيه فكأنما مات في السماء، ومَنْ مات حوله فكأنما مات فيه.

وعن خالد بن مَعْدان قال: سمعت كعبا يقول: مقبورُ بيتِ المقدس لا يعذَّب.

---

١٥ وأما ما به من قبور الأنبياء ومحراب داود وعين سُلْوان

§ ففي الأرض المقدّسة قبرُ إبراهيم الخليل، وإسحاقَ، ويعقوبَ، ويوسفَ عليهم السلام.

§ وفي الصحيح أن موسى عليه السلام لما حضرَتْه الوفاةُ سأل الله عز وجل أن يُدْنيه من الأرض المقدّسة، رميةَ حجرٍ.

§ وروى الحافظ أبو بكر الخطيب بسنده عن بشر بن بكر عن أمّ عبد الله عن ابنها أنه قال : من أتى بيت المقدس، فليأت محراب داود، فليصلّ فيه، ويَسْبَح فى عين سلوان فإنها من الجنة .

§ وبسنده إلى سعيد بن عبد العزيز، قال : كان فى زمان بنى إسرائيل فى بيت المقدس عند عَيْن سُلْوان عينٌ . وكانت المرأة إذا قُذفت، أتَوْا بها فشربت منها فإن كانت بريئة لم تضرّها، وإن كانت نَطِفةً ماتت. فلما حملَتْ مريمُ حملوها، فشربتْ منها فلم تزدَدْ إلا خيرا . فدعت الله أن لايفضَح بها امرأةً مؤمنة . فغارت العينُ .

وأما ما ورد
فى أن الحشر من البيت المقدس

§ فقد روى عن أبى ذرّ رضى الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله "أخبِرْنا عن بيتِ المقدس . قال : أرضُ المحشَر والمنْشَر. إيتوه فصلُّوا فيه وليأتِينَّ علىٰ بيت المقدس (١) ! ولبَسْطةُ قوس أو مَسْحةُ قوس فى بيت المقدس أو من حيثُ يُرىٰ بيت المقدس خيرٌ من كذا وكذا" .

§ وعن كعب قال : العَرْض والحساب من بيت المقدس .

(١) بياض فى الأصل بمقدار كلمة . وقد روى ابن فضل الله العمرى فى "مسالك الأبصار" المطبوع بدار الكتب المصرية (ج ١ ص ١٣٦) حديثا تقرب ألفاظه جدا من هذا الحديث ان لم يكونا حديثا واحدا . فلأجل تكملة النقص الموجود فى نسخ النويرى فى هذا الموضع نورد ما رواه ابن فضل الله وهو : وعن أبى ذر قال : قيل يا رسول الله صلاة فى البيت المقدس أفضل، أم صلاة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : صلاة فى مسجدى هذا أفضل من أربع صلوات فيه . ولنعم المصلى هو أرض المحشر والمنشر! وليأتين على الناس زمان، وَلَبَسْطَةُ قَوْسٍ من حيث يُرى بيت المقدس، أفضلُ وخيرٌ من الدنيا جميعا .

§ وعن قتادة في قوله تعالىٰ ﴿ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ قال: من صخرة بيت المقدس .

§ وعن يزيد بن جابر " يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ " قال : يقف إسرافيل علىٰ صخرة بيت المقدس فينفُخ في الصُّور فيقول : أيَّتها العظامُ النَّخِرة ، والجلود المتمزِّقة ، والأشعار المتقطِّعة ، إن الله تعالىٰ أمرك أن تجتمعي للحساب .

§ وقال المفسرون في قوله تعالىٰ ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ هو أن إسرافيل يقف علىٰ صخرة بيت المقدس فينادي : " يأيها الناس ، هَلُمُّوا إلىٰ الحساب ، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء ، وهذه هي النفخة الأخيرة . "

والمكان القريب صخرة بيت المقدس .

§ قال كعب ومقاتل : هي أقرب إلىٰ السماء بثمانيةَ عشرَ ميلا . وقال ابن السائب : باثنَيْ عشرَ ميلا .

§ وعن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ قال : هو حائط بيت المقدس الشرقيُّ الذي من ورائه وادٍ يقال له وادي جهنم ، ومن دونه بابٌ يقال له باب الرحمة .

وأما ما ورد
في فضل الصخرة، والصلاة إلى جانبها

§ فقد روى عن أنس بن مالك ، قال : إن الجنة لَتَحِنّ شوقًا إلىٰ بيت المقدس ، وإن بيت المقدس من جنة الفردوس ، وهي سُرَّةُ[1] الأرض .

(١) أي الصخرة .

§ وعن أبى إدريس الخَوْلانىّ : قال : يحوّل الله صخرةَ بيت المقدس مَرْجانةً بيضاء كعرض السماء والأرض، ثم يَنْصِبُ عليها عرشَه، ثم يقضِى بين عباده : يصيرون منها إلىٰ الجنة و إلىٰ النار .

§ وعن أبى العالية فى قوله تعالىٰ ﴿ إلىٰ الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ قال : من بركتها أن كلّ ماءٍ عَذْبٍ يخرج من أصل صخرة بيت المقدس . ٥

§ وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال : "الأنهارُ كلُّها والسَّحابُ والبِحارُ والرياحُ من تحتِ صخرةِ بيتِ المقْدِس" .

§ وقال آبن عباس رضى الله عنهما : صخرةُ بيت المقدس من صخور الجنة .

§ قال الزجاج : يقال إنها فى وَسَط الأرض .

§ وعن كعب قال : مَنْ أتىٰ بيتَ المقدس فصلّى عن يمين الصخرة وشمالها، ودعا عند موضع السِّلْسِلة ، وتصدّق بما قلّ أو كثُر، آستُجيب دعاؤه، وكشف الله حُزْنه ، وخرج من ذنوبه كيوم ولدتْه أمه ، و إن سأل الله الزيادة أعطاه إياها . ١٠

وأما ما ورد

فى أن الله عز وجل عرج من بيت المقدس إلى السماء

فقد روى الشيخ الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد الواسطى الخطيب رحمه الله بسنده إلىٰ سوادة بن عطاء الحضرمىّ ، قال : نجد فى الكتاب مكتوبا أن الله عز وجل لمَّا أن خلق الأرضَ وشاء أن يعرُج إلى السماء وهى دُخَانٌ ، آستشرف لذلك الجبالُ أيُّها يكون ذلك عليه؟ وخشَعتْ صخرةُ بيت المقدس تواضُعًا لله عز وجل ، فشكر اللهُ لها ذلك وجعل المعراج عنها . وكان عليها ما شاء الله أن ١٥

يكون . قال : فمدّ الجبار يديه حتَّى كانتا حيث يشاء أن تكونا ، ثم قال : «هذه جنتى غربًا ، وهذه نارى شرقا ، وهـذا موضع ميزانى طَرَف الجبـل ، وأنا الله ديَّانُ يوم الدِّين» وكان معراجه إلى السماء عن الصخرة .

وروى أيضا بسنده إلى هانئ بن عبـد الرحمن ، ورُدَيح بن عطية عن إبراهيم ٥ ابن أبى عبلة أحسبه كذا قال : وسئل عبادةُ بن الصامت ورافع بن خَديج وكانا عقَبِيَّين بدريَّين ، فقيل لهما : أرأيتمـا ما يقول الناسُ فى هذه الصخرة أحقًّا هو فنأخذ به ، أم هو شيء أصله من أهل الكتاب فندَعُه؟ فقال كلاهما : سبحانَ الله! ومَنْ يشكُّ (١١٨) فى أمرها ، إن الله عز وجل لمـا آستوى إلى السماء ، قال لصخرة بيت المقدس : «هذا مَقامى وموضعُ عرشى يوم القيامة ، ومَحْشَرُ عبادى ، وهـذا موضع نارى عن ١٠ يسارِها وفيه أنصبُ ميزانى أمامَها ، وأنا الله ديَّانُ يوم الدِّين» ثم آستوى إلىٰ عِلِّيِّين .

وروى أيضا بسنده عن كعب ، قال : إن فى التوراة أنه يقول لصخرة بيت المقدس «أنت عرشى الأدنى ومنكِ آرتفعتُ إلى السماء ، ومن تحتك بسطتُ الأرضَ وكلُّ ما يسيل من ذِرْوة الجبال من تحتِك ، مَن مات فيك فكأنمـا مات فى السماء ، ومن مات حولك فكأنما مات فيك ، لا تنقضى الأيامُ والليالى حتَّى أرسل عليك نارا ١٥ من السماء فتأكلَ آثارَ أكُفِّ بنى آدم وأقدامِهم منك ، وأُرْسِلَ عليك ماءً من تحت العرش فأغسلَك حتَّى أتركك كالمرآة ، وأضربَ عليك سُورا من غمامٍ غِلَظُهُ آثنا عشر ميلا ، وسياجًا من نار ، وأجعل عليكِ قبةً جَبَلْتُها بيدى ، وأُنْزِل فيك روحِى وملائكتى يُسبِّحون لى فيك ، لا يدخلكِ أحد من ولد آدم إلى يوم القيامة ، فمَنْ يَرَ ضوءَ تلك القبة من بعيد ، يقول : طوبى لوجه يَخِرّ فيك لله ساجدا ، وأضرب عليك حائطا من نار ،

وسياجا من الغَمَامَ، وخمسةَ حيطان من ياقوت ودرّ وزبَرْجَد، أنت البَيْدَر، وإليك المحشَر، ومنك المَنْشَر» .

وروى أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن محمد بن الجوزىّ رحمه الله فى ذلك حديثين، ثم تكلم عليهما وضعَّف رُواتهما .

أما أحدهما، فقال : أخبرنا المبارك بن أحمد، قال : أخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد، قال : أنبأنا أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن عمر النَّصيبى، قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن صالح بن عمر المقرى، قال : حدثنا عيسى بن عبيد الله، قال: حدّثنا على ابن جعفر الرازى، قال : حدّثنا العباس بن أحمد بن عبد الله، قال :حدّثنا عبد الله ابن عمر المقدسى، قال : حدّثنا بكر بن زياد الباهلىّ، عن عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة، عن زرارة بن أَوْفى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما أُسْرِى بى إلى بيت المقدس مَرّ بى جبريلُ عليه السلام إلى قبر إبراهيم، فقال : آنزل، فصلِّ هاهنا ركعتين، هاهنا قبر أبيك إبراهيم . ثم مَرّ بى ببيتِ لحم، فقال : آنزل، صلِّ هاهنا ركعتين، فإن هاهنا وُلِد أخوك عيسى . ثم أتى بى إلى الصخرة فقال : من هاهنا عَرَج ربك إلى السماء" .

قال الحافظ أبو حاتم بن حِبَّان : هـذا حديث لا يشك عوامُّ أصحاب الحديث أنه موضوع . وكان بكر بن زياد يضع الحديث على الثقات .

وأما الحديث الثانى، فرواه بسند إلى إبراهيم بن أعين عن رَدِيح بن عطية بن النعمان، عن عبدالله بن بسر الحمصىّ، عن كعب الأحبار: قال : يقول الله عز وجل

لبيت المقدس : أنت عرشى الذى منك آرتفعت إلى السماء، ومنك بسطْتُ الأرضَ، ومن تحتك جعلت كل ماءٍ عذبٍ يطلُع فى رءوس الجبال .

قال أبو حاتم الرازىّ : إبراهيم بن أعين مُنْكَرُ الحديث .

هذا ما ورد فى هذا الفصل وقد نبهنا على ما فيه من المآخذ والله أعلم .

وأما ثواب الإهلال من بيت المقدس

٥ فقد روى عن أم سلمة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ورضى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ أهَلَّ مِن بيتِ المقدسِ، غُفِر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر".

قال سالم : وأهلَّ آبن عمر رضى الله عنهما من بيت المقدس بعُمْرة .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٠ "مَنْ أحرَمَ منْ بَيْتِ المَقْدِسِ، قَدِم مكةَ مغفوراً له" .

وأما ما ورد من أن الكعبة تزور الصخرة يوم القيامة

فقد روى عن كعب الأحبار قال : لا تقوم الساعة حتّى يزور البيتُ الحرامُ بيتَ المقدس، فينقادان جميعا إلى الجنة وفيهما أهلوهما .

وروى عن خالد بن مَعْدان قال : يحشر الله الكعبةَ إلى الصخرة زَفّاً إليها زَفّاً، متعلقين

١٥ بجميع من حج إليهما، تقول الصخرة مرحبا : بالزائرة والمزور إليها .

هــذا ما آتفق إيراده فى فضائل البيت المقدّس، وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخباره طرفا آخر وهو فى الباب الثانى، من القسم الثالث، من الفن الخامس فى التاريخ عند ذكرنا لأخبار سليمان بن داود عليهما السلام . فنذكر خلاف ذلك .

وأما اليمن وما يختص به

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الإيمانُ يمانٍ، والحكمة يمانيةٌ".

وقال الجاحظ : من خصائص اليمن السيوفُ، والبرودُ، والقُرود .

ويقال : ان السيف متى قُلِع بالهند وطبع باليمن، فناهيكَ به ! ٥

وقال الأصمعيّ : أربعة ملأتِ الدنيا ولا تكون إلا باليمن ، وهي الوَرْس، والكُنْدُر، والخَضَض، والعَقِيق .

وأما الشام وما يختص به

فمن ذلك أن الشام موطِن الأنبياء عليهم السلام، ومعدِن الزُّهّاد والعُبّاد .

وحُكى أن الابدالَ السبعين بأرض الشام، بجبل لُكَام وجبل لُبْنان . ١٠

ومن خصائص الشام :

مسجد دمشقَ

الذى ما عُمِر على وجه الأرض مثلُه وكانت عمارته فى سنة ست وثمانين، عمّره الوليد بن عبد الملك . ووقع الحريق فيه فى سنة إحدى وستين وأربعمائة، فدَثرت محاسنُه وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة . ١٥

وعن قتادة، قال : أقسم الله تعالى بمساجدَ أربعة، قال : "والتِّين" وهو مسجد دمشق، "والزَّيتون" وهو بيت المقدس، "وطُورِ سِينينَ" وهو حيث كلم الله موسى، "وهذا البَلَدِ الأمِينِ" وهو مكة .

وقال محمد بن شعيب : سمعتُ غير واحد من قدمائنا يذكرون أن التينَ مسجدُ دمشق، وأنهم قد أدركوا فيه شجرا من تينٍ قبل أن يَبْنيَهُ الوليد .

وعن هشام بن عبد الملك قال : لما أَمَرَ الوليد ببناء مسجد دمشق ، وجدوا فى الحائط القبلىّ من المسجد لَوْحا فيه نقش فأتوا به الوليد، فبعث إلى الروم والعبرانيين وغيرهم ، فلم يستخرجوه. فدُلَّ على وهب بن منَبِّه فبعث إليه ، فلما قدم أخبره بموضع ذلك اللوح فإذا الحائط الذى وجد فيه بناء هودٍ عليه السلام .

وعن زيد بن واقد قال : وكَّلنى الوليد على العمال فى بناء جامع دمشق، فوجدنا فيه مَغَارةً فعرَّفْنا الوليد ذلك . فلما كان الليل وافى، و بين يديه الشَّمَع، فنزل فإذا هى كنيسة لطيفة: ثلاثة أذرع فى ثلاثة أذرع ،وإذا فيها صُندوق، ففُتح فإذا فيه سَفَطٌ، وفى السَّفَط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، مكتوب عليه: "هذا رأس يحيى بن زكريا". فأمر الوليد، فرُدَّ إلى مكانه، وقال : اجعلوا العمود الذى فوقه مغيَّرا من الاعمدة ، فجعلوا عليه عمودا مُسَفَّط الرأس . وكانت البشرة والشعر على رأسه لم يتغير .

وقال أبو زُرعة : مسجد دمشق خَطَّه أبو عبيدة بنُ الجرّاح، وكذلك مسجد حِمْص . وقيل : لما قدم المهدىّ يريد بيت المقدس، دخل مسجد دمشق ومعه أبو عبد الله الأشعرىّ كاتبه، فقال : يا أبا عبد الله سبَقَنا بنو أمية بثلاثٍ، قال : وما هنّ يا أمير المؤمنين ؟ قال : بهذا البيت (يعنى المسجد) لا أعلم على وجه الأرض مثلَه ، و بنُبْل الموالى فإن لهم مواليَ ليس لنا مثلهم، وبعُمَر بن عبدالعزيز، لا يكون والله فينا مثله أبدا ! ثم أتى بيت المقدس فدخل الصخرة ، فقال : يا أبا عبد الله وهذه رابعة .

وحكى عمرو بن مهاجر الأنصارىّ قال : حَسَبوا ما أُنْفق على الكرمة التى فى قبلة مسجد دمشق ، فإذا هو سبعون ألف دينار .

وقال أبو قصىّ : أُنْفق فى عمارة مسجد دمشق أربعمائة صُندوق، كل صُندوق أربعةَ عشر ألفَ دينار .

وقال بعض شعراء المُحْدَثين فى وصفه :

دمَشْقُ قد شاع ذِكْرُ جامعها * وما حَوَتْه رُبى مَرابِعِها .
بديعةُ المُدْن فى الكمال لِمَا * يُدْرِكه الطَّرْفُ من بَدائعِها .
طَيِّبةٌ أرضُها مبارَكةٌ * باليُمْن والسَّعد أَخْذُ طالعِها .
جامعُها جامعُ المحاسن قَدْ * فاقتْ به المُدْنَ فى جَوامعِها .
تُذْكَر فى فَضْلِه ورِفْعتِه * أخبارُ صِدقٍ راقت لسامعِها .
قد كان قبلَ الحريق مَدْهشةً * فغَيَّرته نارُ بلاقعِها .
فأذهبَتْ بالحريق بهجَتَه * فليس يُرْجى إيابُ راجعِها .
إذا تفكَّرتَ فى الفُصوص وما * فيها ، تيقَّنْتَ حذْقَ واضعِها .
أشجارُها لا تزالُ مثمرةً * لا تَرْهَبُ الريحَ فى مَدافعِها .
كأنَّها من زُمُرُّدٍ غُرِستْ * فى أرض تِبْرٍ يُغْشى بفاقعِها .
فيها ثِمارٌ تَخالُها يَنَعَتْ * وليس يُخْشى فسادُ يانِعِها .
تُقْطَف باللحظ لا بجارحة الأيْدى ولا تُجْتَنى لبائعِها .
وتحتَها من رُخَامه قِطعٌ * لا قطَع اللهُ كَفَّ قاطِعِها .
أحكَمَ ترخيمَها المرخِّمُ قد * بانَ عليها إحكامُ صانِعِها .

وإن تفكّرت فى قناطره * وسقفه، بان حذق رافعها.
وإن تبيّنت حسن قبّته * تحيّر اللبّ فى أضالعها.
تخترق الريح فى مخارمها * عصفا فتقوى على زعازعها.
وأرضه بالرخام قد فرشت * ينفسح الطرف فى مواضعها.
٥ مجالس العلم فيه مونقة * ينشرح الصدر فى مجامعها.
وكلّ باب عليه مطهرة * قد أمن الناس دفع مانعها.
يرتفق الخلق من مرافقها * ولا يصدّون عن منافعها.
ولا تزال المياه جارية * فيها لما شقّ من مشارعها.
وسوقها لا تزال آهلة * يزدحم الناس فى شوارعها.
١٠ لما يشاءون من فواكهها * وما يريدون من بضائعها.
كأنّها جنّة معجّلة * فى الأرض، لولا سرى بجائعها.
دامت برغم العدا مسلّمة * وحاطها الله من قوارعها.

وقال عبد الله بن سلام: بالشام من قبور الأنبياء ألفا قبر وسبعمائة قبر، وقبر موسى بدمشق، ودمشق معقل الناس فى آخر الزمان.

١٥ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: من أراد أن ينظر إلى الموضع الذى قال الله عز وجل فيه ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ فليأت النّيرب الأعلى بدمشق بين النهرين، وليصعد الغار فى جبل قاسيون، فليصلّ فيه فإنه بيت عيسى وأمّه. ومن أراد أن ينظر إلى إرم، فليأت نهرا فى دمشق يقال له بردى. ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التى فيها مريم بنت عمران والحواريّون. فليأت مقبرة
٢٠ الفراديس.

ومن خصائصها التُّفّاح الذى يضرَبُ به المثل فى الحسن والطِّيب . وكان يحمل منه إلى الخلفاء فى كل سنة ثلاثون ألف تفاحة .

وبها الغُوطةُ ، وهى أحد متنزَّهات الدنيا الأربعة . وهى أجَلُّها .

وسنذكر وصفها فى باب الرياض إن شاء الله تعالى .

وأما مصرُ وما يختصّ بها من الفضائل

فمن فضلها أن الله عز وجل ذكرها فى كتابه العزيز فى أربعة وعشرين موضعا . منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلّت عليه القرائن والتفاسير .

فأما صريح اللفظ ، فقوله تعالى : ﴿ اِهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن يوسف عليه السلام : ﴿ اُدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ .

وأما ما دلت عليه القرائن ، فمنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ . قال ابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، ووهب بن منبه وغيرهم : هى مصر .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ . يعني مصر .

وقوله تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ . يعني قوم فرعون ، وأن بني إسرائيل ورثوا أرض مصر .

وقوله عز وجل : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن فرعون : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن قوم فرعون : ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ . يعني أرض مصر .

وقوله عز وجل مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ .

وقوله عز وجل مخبرا عن بنى إسرائيل : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ . يعنى أرض مصر . ٥

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ .

وقوله تعالى مخبرا عن ابن يعقوب : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ . يعنى أرض مصر .

وقوله تعالى : ﴿ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ ﴾ .

وذكر ابن عباس مصر، فقال : سميت مصر بالأرض كلها فى عشرة مواضع ١٠ من القرآن . والله تعالى أعلم .

§ وأما ما ورد فيها من الحديث النبوى صلوات الله وسلامه على قائله

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ بَعْدِى مِصْرُ، فاسْتَوْصُوا بِقِبْطِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا"

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا فتح اللهُ عليكم مصرَ فاتَّخِذُوا بها جُنْدًا ١٥ كَثِيفًا، فذلك الجندُ خَيْرُ أجنادِ الأرضِ" فقال أبو بكر رضى الله عنه : ولِمَ يا رسولَ الله ؟ فقال : "لأنهم وأزواجَهُم فى رِبَاطٍ إلى يوم القيامة" .

وعنه صلى الله عليه وسلم، وذكر مصر : "ما كادَهُمْ أحدٌ إلا كَفَاهُمُ اللهُ مَؤُونَتَه" .

وتكررت الأحاديث فى فضلها .

وقال عبد الله بن عمرو : وأهلُ مصرَ أكرمُ الأعاجم كلّها، وأسمحُهم يدا، وأفضَلُهم عُنْصرا، وأقربُهم رَحِمًا بالعرب عامةً وبقريش خاصّةً .

وقال أيضا : لما خلق الله عز وجل آدم، مثّل له الدنيا : شرقَها، وغَرْبها، وسَهْلَها، وجبلها، وأنهارها، وبِحارها، وبناءها، وخرابها، ومَن يسكنها من الأمم، ومَن يملكها من الملوك . فلما رأى مصر، رآها أرضًا سهلةً ذات نهر جار، مادّتُه من الجنة، تنحدر فيه البركة، ورأى جبلا من جبالها مكسوًا نورا لا يخلو من نظر الربّ عز وجل إليه بالرحمة . في سفحه أشجار مثمرة، فروعها في الجنة تُسقى بماء الرحمة . فدعا آدمُ في النيل بالبركة، ودعا في أرض مصرَ بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجَبَلها سبع مرات . وقال : «يا أيها الجبل المرحوم، سفحُك جنة وتربتك مسْكةٌ تدفن فيها عرائس الجنة، أرض حافظة مطبقة رحيمة . لا خَلَتْك يا مصر بركةٌ، ولا زال بك حفظ، ولا زال منك مُلْك وعزٌّ، يا أرضَ مصر فيك الخباء والكُنوز، ولك البر والثَّروة، سال نهرُكِ عَسَلا . كثَّر الله زرعَك، ودَرّ ضرعُك، وزكا نباتُك، وعظُمت بركتُك وخَصُبت، ولا زال فيك يامصر خيرٌ ما لم تتجبَّرى وتتكبَّرى أو تخونى، فاذا فعلت ذلك، عراك شرٌّ، ثم تَغُور خيرك» .

فكان آدم أوّلَ من دعا لها بالخِصْب والرحمة والرأفة والبركة .

وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : دعا نوح عليه السلام لآبن آبنه بيصر آبن حام وهو أبو مصر، فقال : اللهم إنه قد أجاب دَعْوتى، فبارِكْ فيه وفى ذرّيته وأسكِنْه الأرضَ الطيبةَ المباركَةَ التى هى أمُّ البلاد .

قال عبد الله بن عمرو : لما قَسَم نوح عليه السلام الأرضَ بين ولده، جعل لحام مصر وسواحلَها والمغربَ وشاطئَ النيل . فلما دخل بيصر بن حام وبلغ العريشَ،

قال : «اللهم إن كانت هذه الارضُ التى وعدتّنا على لسان نبيك نوح عليه السـلام وجعلتها لنا منزلا فاصرف عنا وباها، وطَيِّب لنا ثَرَاها، وأجمع ماها، وأنبت كلاها، وبارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك، إنك على كل شىء قدير، وإنك لا تخلف الميعاد» وجعلها بيصر لابنـه مصر وسمـاها به . والقبط ولد مصر بن بيصر بن حام ابن نوح . ٥

وسنذكر إن شاء الله تعالى أخبار مصر و بنيه عند ذكرنا لملوك مصر، وهو فى الفن الخامس فى التاريخ .

وعن كعب الأحبار : لولا رَغْبتِى فى بيت المقدِس لمـا سكنْتُ إلا مصر. فقيل له : ولم؟ فقال : لأنها معافاةٌ من الفِتَن ومن أرادها بسوء كَبَّه الله على وجهه، وهو بلد مبارَكٌ لأهله فيه . ١٠

وقال أبو بَصْرة الغفارى : سلطان مصر سلطان الأرض كلِّها .

قال : وفى التوراة مكتوب: مصرُ خزائنُ الأرض كلِّها، فمن أرادها بسوء قصمه الله تعالى .

وقال عمرو بن العاص : ولايةُ مصر جامعةٌ، تعدِل الخلافةَ .

وقال أبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز، قاضى العراق : سألت أحمد بن المدبِّر عن مصر فقال : كشفتها فوجدتُ غامرَها أضعاف عامرِها . ولو عَمَرَها السلطان ، لوفَتْ له بخراج الدنيا . ١٥

ذكر مَن وُلد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن كان بها منهم

ولد بمصر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جماعةٌ ، منهم : موسى ، وهرونُ ، ويُوشَعُ بن نون ، ودانيالُ ، وأرْمِيَا ، ولُقمانُ ، وعيسى بن مريم . ولدته أمّه بأهناس ، وبها النخلة التى ذكرها الله تعالى لمريم على أحد الأقوال .

ولما سار عيسى إلى الشأم أخذ على سَفْح المقطم ماشيا ، عليه جبةُ صوف مربوط الوسط بشَرِيط ، وأمه تمشى خَلْفَه ، فالتفت إليها وقال : يا أمّاه ، هذه مقبرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما مَن كان بها منهم ، فكان : إبراهيم الخليلُ ، وإسماعيلُ ، ويعقوبُ ، ويوسفُ عليهم السلام ، وآثنا عشر سِبْطا .

ذكر مَن كان بها من الصدّيقين والصدّيقات رضى الله عنهم

كان بها من الصدّيقين مؤمِن آل فرعون الذى ذكره الله عز وجل فى القرآن .

وقيل : إنه آبن لفرعون لصُلْبه . آمن بموسى ولحِق به وجعله الله نبيا وآيةً .

وكان بها وزراءُ فرعونَ الذين وصفهم الله تعالى وفضّلهم على قوم نمرود حين قالوا : "أرجئه وأخاه" وقال وزراء النمرود : "آقتلوه أو حرّقوه" .

وأخرجتْ مصر السحرةَ الذين أحضرهم فرعونُ لموسى . وكانت عدّتهم مائتى ألف وآثنين وثلاثين ألفا وقيل أكثر من ذلك ، آمنوا كلُّهم فى ساعة واحدة .

ولم نعلم ممن آمن فى ساعة واحدة مثلَ هذا العدد .

ومن فضائل مصر ونُبْل أهلها أنهم لم يُفْتَنوا بعبادة العجل .

وكان بها من الصدّيقات آسيةُ بنتُ مزاحم آمرأة فرعون، وأم إسحاقَ، ومريمُ آبنةُ عمران، وماشطةُ بنتُ فرعون، التي مشطها فرعون بأمشاط الكتّان لمـا آمنت بموسى .

٥ وقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "شَمِمتُ ليلة أُسْرِى بى فى الجنة رائحةً ما شَمَمْت أطيبَ منها، فقلت : يا جبريل ما هـذا ؟ فقال : هـذا رائحة ماشطة بنتِ فِرْعون" .

ذكر مَن صاهر أهل مصر من الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام

١٠ منهـم :

إبراهيم الخليل عليه السلام، تزوج بهاجرَ أمّ إسماعيل .

ويوسف الصدّيق، تزوج بنت صـاحب عين شمس، وتزوج زليخا بعد أن عجزت وعميت . دعا الله لهـا فردّها الله إلى حالتها الأولى، ورُزِق منها الولد .

وتسرّى سـيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمـارِيَةَ القِبْطية التى أهداها

١٥ له المقوقِس، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى السيرة النبوية .

ذكر مَن أظهرته مصر من الحكماء
(الذين عَمَروا الدنيا بكلامهم وحكَمِهم وتدبيرهم، وأظهروا ماخفِىَ من العلوم)[1]

قال الحسن بن إبراهيم، صاحب تاريخ مصر :

(١) بعض الحكماء المذكورين فى هـذا الفصل ليسوا من أهل مصر بل وفدوا عليها وأقاموا بها مدّة قليلة أو كثيرة .

٢٠

منهم : ذو القَرْنَيْنِ ، وهو الإسكندر[1] من قرية يقال لها لُوبِيَةُ[2] . وهو الذى قتل دَارَا بْنَ دَارَا . وسيأتى خبره إن شاء الله تعالى فى التاريخ فى ذكر ملوك اليونان .

ومنهم : هُرمس ، وهو المثلث بالنعمة : نبىّ ، وحكيم ، ومَلِك : وهو الذى صير الرَّصاص ذهبا ، وبنى الهرمين الكبيرين على أحد الأقوال . وقيل : هو إدريس عليه السلام .

ومنهم تلميذاه : أغاثاذيمون و فيثاغورس ، ولهما من العلوم الموروثة صناعةُ الكيمياء ، والنُّجوم ، والسِّحر ، وعلم النارنجيات ، والطلسمات ، والبرابى ، وأسرار الطبيعة .

ومنهم أوسلا و سيزوارس و بندقليس ، أصحاب الكَهَانة والزَّجْر .

ومنهم سقراط ، صاحب الحِكمة ، والكلام على البارئ جل ذكره ، وهو صاحب البلاغة .

ومنهم أفلاطون ، صاحب السِّياسة ، والنواميس ، والكلامِ على المُدُن والملوك .

ومنهم بطليموس ، صاحب الرَّصَد ، والمِساحة ، والحِساب ؛ وهو صاحب كتاب المجَسْطِى من كتب الأفلاك ، وحركة الشمس ، والقمر ، والكواكب المتحيرة والثابتة ، وصورة فَلَك البروج . وله صفة الأمم الذين يَعْمُرُون الأرض ، وكتاب الثمرة فى علم النجوم وتسطيح الكُرَة .

(١) هو الاسكندر الأكبر ، ابن فيلبوس وهو ليس من مصر وإنما غزاها بجيوشه وأسس فيها مدينة الاسكندرية التى صارت بعده مدينة العلم والحكمة .

(٢) هذا اللفظ محرف عن "پيلا" وهى احدى مدائن اغريقية ، وفيها كانت ولادة الاسكندر الاكبر .

ومنهم أرسطاطاليس، صاحب المنطق، والآثار العلوية، والحس والمحسوس، والكون والفساد، والسماء والعالم، وسمع الكيان والسمع الطبيعى، ورسالة تبث الذهب، قالوا : وليعقوب بن إسحاق الكندىّ نحو ألف كتاب مستخرجة من كتب أرسطاطاليس .

ومنهم أراطُس، صاحب البيضة ذات الثمانية والأربعين صورة فى تشكيل صورة الفلك، والألف كوكب، وآثنان وعشرون كوكبا من الكواكب الثابتة، والزيج .

ومنهم أنطوليوس(١)، صاحب الفلاحة .

ومنهم إبّرخس، صاحب الرصد والآلة المعروفة بذات الحلق .

ومنهم ثاون، صاحب الزيج المنسوب إليه .

ومنهم أُسْطَنِس، و دُرُوثْيُوس، و والنس، أصحاب كتب أحكام النجوم، وعنهم آنتشر ذلك .

ومنهم إيرُن، صاحب الهندسة والمقادير، وكتاب جر الأثقال، والحيل الروحانية، وعمل البنَاكِيم والآلات لقياس الساعات .

ومنهم فيلون البزَنْطِى، وله عمل الدواليب والأرحية والحركات بالحيل اللطيفة .

ومنهم أرشميدس، صاحب الحيل والهندسة والمَرَايا المحرقة وعمل المَجَانيق ورمى الحصون، والحيل على الجيوش والعساكر برًّا وبحرًا .

(١) ورد هذا الاسم فى الاصل هكذا : "أفطيونس" وليس هناك رجل بهذا الاسم . وإنما المشهور بكتابه فى الفلاحة هو "انطوليوس الأفريقى" . وقد ذكره آبن العوام فى كتاب الفلاحة الأندلسية، ونقل عنه .

ومنهم ماريه و قلبطره، أصحاب الطِّلَّسْمات، والخواص للطبائع .

ومنهم أبلونيوس، وله كتاب المخروطات وقطع الخطوط .

ومنهم ثيودوسيُس، وهو صاحب كتاب الأكر .

ومنهم ذيوفنطس، وله كتاب الحساب .

٥ ومنهم أوطوقيُس، وله كتاب الكرة والأسطوانة .

ومنهم المشاءون(١)، أصحاب الرواق .

و بمصر من العلوم التى عَمَرت بها الدنيا علمُ الطب اليونانى، وعلمُ النجوم، وعلمُ المساحة، وعلم الهندسة، وعلمُ الكيمياء، وغير ذلك و بها الطلسمات العشرة .

و بادى(٢) الاسكندرانى صاحب الزيج .

١٠ والذين نشروا الطب وشرحوه جالينوس، صاحب الطب، تعلمه بمصر، ومن كتبها أَخَذ .

ومنهم ديسقريد : صاحب الحشائش، و ديوچانس ، و اركاغانس ، و أُرِبَاسيوس، و فريقونوس، وروفس، هؤلاء أصحاب الطب اليونانى .

فهؤلاء حكماء الأرض وعلماؤهم الذين ورثوا الحكمة ، من مصر خرجوا ، وبها

١٥ وُلدوا، ومنها آنتشرت علومُهم فى الأرض .

قال الحسن بن إبراهيم : وكانت مصر يسير إليها فى الزمن الأول طلبةُ العلم وأصحابُ العلم الدقيق لتكون أذهانهم على الزيادة وقوّة الذكاء ودقة الفطنة . والله تعالى أعلم .

---

(١) فى الأصل : "المساتير" . ولعله يشير إلى أتباع ارسطو الذين يسميهم العرب "المشائين" .

(٢) لعل هذا الاسم محرف عن "ثاون" الذى سبقت الاشارة اليه .

ومن فضائل مصر

أنها تَمير الحرمين الشريفين ، ولولا مصرُ لما أمكن أهلَ الحرمين وأعمالها المقامُ بهما ، ولَمَا توصل إليهما من يَرِد من أقطار الأرض .

ومنها أنها فُرْضة الدنيا ، يحمل من خيرها إلى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين ، وإلى جُدّة ، وإلى عُمَان ، وإلى الهند ، وإلى الصين ، وصنعاء ، وعَدَن ، والشِّحْر ، والسِّند ، وجزائر البحر .

ومن جهة تِنِّيس ، ودِمْياط ، والفَرَما فُرْضة بلد الروم ، وأقاصى الأفرنجه ، وقبرس ، وسائر سواحل الشام ، والثغور إلى حدود العراق .

ومن جهة الإسكندرية فُرضة أقْرِيطش ، وصِقِلِّيَّة ، وبلد الروم ، والمغرب كلّه إلى طَنْجة ، ومغرب الشمس .

ومن جهة الصعيد فرضة بلد النُّوبة ، والبُجة ، والحَبَشة ، والحجاز ، واليمن .

وفيها من ثغور الرِّباط : البَرَلُّس ، ورَشيد ، والإسكندريةُ ، ورباط ذات الحمام ، ورباط البُحَيرة ، ورباط إخْنا ، ورباط دمْياط ، وشَطَا ، وتِنِّيس ، والأُشْتوم ، والفرَمَا ، والورّاده ، والعَرِيش ، والشَّجَرتين ، ورباط الحَرَس . وجهة الحَبَشة ، والبُجة . ورباط أُسْوان على النُّوبة . ورباط الواحات على البَرْبر والسُّودان . ورباط قُوص .

وبها من المساجد والمشاهد والآثار الصالحة ، مالم يكن فى غيرها . ولو آستقصينا ذلك ، لطال به الشرح وآنبسط القول .

وقال سعيد بن عقبة : كنتُ بحضرة المأمون حتَّى قال ، وهو فى قبة الهواء : لعن الله فِرعونَ حين يقول ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ فلو رأى العراقَ ! . فقلت :

يا أمير المؤمنين لا تقل هـذا فإن الله عز وجل قال ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ . فما ظنُّك ياأمير المؤمنين بشيء دمره الله، هذا بقيّتُه؟ .

قال : ثم قلت : لقد بلغنى أن أرضًا لم تكن أعظم من مصر، وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها . وكانت الأنهار بقناطرَ وجسورٍ وتقديرٍ حتَّى إن المـاء يجرى تحت منازلهم وأفْنِيتهم : يحبسونه متى شاءوا، و يرسلونه متى شاءوا . وكانت البساتين بحافَتَيِ النيل من أوّله إلى آخره، ما بين أُسوان إلى رشـيد إلى الشام متصلةً لا تنقطع . ولقد كانت الأَمَة تضع المِكْتَل على رأسها فيمتلئُ ممـا يسقُط من الشجَر. وكانت المرأة تخرج حاسرةً لا تحتاج إلى خِمَار لكثرة الشجر .

ومن فضائلها النيل، وقد تقدّم ذكره فى باب الأنهار .

ومن عجائبها الهرمان وسيأتى ذكرهما فى باب المبانى القديمة إن شاء الله تعالى .

ومن عجائبها أنـ أهلها مستغنون عن كل بلد، حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور، استغنى أهلها بمـا فيها عن سائر بلاد الدنيا .

وفيها ماليس فى غيرها، وهو حيوان السَّقَنْقُور، والنِّمْس . ولولاه لأكلت الثعابين أهلَها، وهو لها كقنافذ سِجِسْتانَ لأهلها .

وفيها سمك يسمَّى الرَّعَّاد . وهو سمك إذا أمْسَكه إنسان أو أمسَك ما يتصـل به من خيط الصِّنارة أو الشبكة التى يقع فيها، ٱرتعدَتْ يدُه .

والحَطَبُ السَّنْط الذى لو وُقِد منه يوما وجُمِـع ماوُجِد مِن رَماده كان ملْءَ كفّ . وهو صُلْب العُود، سريعُ الوُقُود، بطيءُ الخُمود . ويقال : إنه الآبنوسُ، وإنمـا البُقْعة قَصَّرت عن الكيَان لجاء أحمرَ شديدَ الحمرة .

ودُهْنُ البَلَسان . والأَفْيُون، وهو عُصارة الخَشْخاش . وكان بها اللَّبَخ، وهو ثمر فى قَدْر اللوز الأخضر إلا أن المأكول منه الظاهرُ . ورأيته أنا بها وأكلْت منه سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

وبها الأُتْرُجّ الأبلق .

وبها من المعادن : مَعْدِن الزُّمُرُّذ، ومعدِن النِّفْط، والشَّبّ، والبِرَام، والرُّخَام . ٥

وقيل : إن بها سائر المعادن كلّها .

وأهلها يأكلون صَيْد بحر الرُّوم وبحر فارس[1] طريًّا .

وفى كل شهر من شهور القبط صِنْف من المأكول والمَشْروب والمَشْموم، يوجد فيه دون غيره . فيقال : رُطَب توت، ورُمّان بابه، ومَوْز هاتُور، وسَمَك كيهك، وماء طُوبة، وخُروف أمشير، ولَبَن برمهات، ووَرْد برموده، ونَبِق بشنس، وتين بئونة، وعسل أبيب، وعنب مسرى .

ومنها أن صيفها خَرِيف، وشتاءها ربيع، وما يقطَعُه الحرّ والبرد فى سائر البلاد من الفواكه يوجد فيها فى الحرّ والبرد : لأنها فى الإقليم الثالث والرابع، فسلمت من حرّ الأوّل والثانى، وبَرْد[2] السادس والسابع .

ويقال : لو لم يكن من فضل مصر إلا أنها تغنى فى الصيف عن الخيش والثلج وبطون الأرض، وفى الشتاء عن الوَقود والفراء . ١٥

(١) يشير إلى البحر الأحمر المتصل بالخليج الفارسى بواسطة بحر الهند .

(٢) قارن ذلك بما ورد فى المقريزى (طبع بولاق ج ١ ص ٢٨) .

ومما وصفت به

أن صعيدها حجازيّ . شجره كشجر الحجاز ينبت النخلَ والدَّوم (وهو شجر المُقْل)، والعُشَر، والقَرَظ، والإهْلِيلَج، والفُلْفل، والخِيارَ شَنْبَر. وأسفل أرضها شاميٌّ: يمطر كمطر الشام، وتقع فيه الثلوج، ويُنْبت التينَ والزيتونَ والعنبَ والجوزَ واللّوز والفستُق وسائر الفواكه، والبقول والرياحين .

وهي ما بين أربع صفات: فضة بَيْضاء، أو مِسْكة سوداء، أو زَبَرْجَدة خضراء، أو ذَهَبة صفراء . وذلك أن النيل يعمُّ أرضها فتصير كالفضة البيضاء، ثم ينصَبُّ عنها فتصير مِسكة سَوْداء، ثم تُزْرَع فتصير زبرجدةً خضراء، ثم تَسْتَحْصِد فتصير ذهبة صفراء[1] .

وحكى ابن زولاق في "فضائل مصر" أن أميرها موسى بن عيسى [الهاشمي][2] وقف بالمَيْدان عند بِرْكة الحبش، فالتفت يمينا وشمالا، وقال لمن كان معه : أتَرَوْن ما أَرى؟ قالوا: وما يَرى الأمير؟ قال : أَرى عجبا ما في الدنيا مثله ! فقالوا : يقول الأميرُ! فقال: أرى مَيْدان رِهان، وحِيطان نخلٍ، وبُستانَ شجر، ومنازلَ سكنى، وذروة جبل، وجَبَّانةَ أموات، ونهرا عَجّاجا، وأرضَ زرعٍ، ومراعِيَ ماشية، ومَرَاتع خيل، وساحل بحر، [وصائد نهر] وقانصَ وحش، وصائدَ سمكٍ، ومَلّاح سفينة، وحادِيَ إبل، ومفازَةَ رمل، وسَهْلا، وجَبَلا ! فهذه ثمانية عشر متنزَّها في أقل من ميل في ميل .

(١) قارن ذلك بما ورد في المقريزي (طبع بولاق ج ١ ص ٢٦) .

(٢) هو والي مصر في أيام الرشيد سنة ١٧٥ هجرية . والزيادة عن المقريزي (طبع بولاق ج٢ ص١٥٣) .

وأين هذه الأوصاف من وصف الواصف لقصر أنَس بالبصرة حيث يقول :

زُرْ وادِىَ القَصْرِ نِعْمَ القَصْرُ والوادِى ! * لا بُدّ من زَوْرةٍ من غير ميعـاد.

زُرْهُ فليس لهُ شىءٌ يشاكله * من مَنْزِلٍ حاضِرٍ إن شئتَ أو بادِى.

تَرى به السُّـفْن والظُّلْمانَ حاضرةً * والضبَّ والنونَ والمَلَّاح والحادِى.

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسىّ، يصف جبل الرَّصد مثل ما وُصِف به قصر أنَس :

يا نُزْهةَ الرَّصَدِ المصرىّ قدجمعت (١) * من كلِّ شىءٍ حَلاَ فى جانب الوادى.

فذا غَدِيرٌ،وذا رَوْضٌ،وذا جَبَلٌ: * فالضَّبُّ والنُّون والمَلَّاح والحادى.

فهذه نبذة من فضائل مصر. ولولا الرغبة فى الاختصار، لكانت فضائلها تكون كتابا مفردا.

وأما جزيرة الأَنْدَلُس

فقد اقتصرتُ فى وصفها على رسالة وصفها ابن حزم فيها، فقال :

"...أرضها شاميَّة فى طِيبها، تِهاميَّة فى اعتدالها واستوائها، أهْوازية فى عِظَم خَراجها وجِبايتها، عَدَنيَّة فى منافع سواحلها، صِينيَّة فى مَعادِنها، هِنْدية فى عطْرها وطِيبها وذَكائها . وأهْلها عرَب فى الأنساب والعِزَّة والأَنَفة، وفصاحة الألْسُن، وطِيب النُّفوس، وإباءِ الضيم. وقلَّة احتمال الذل والإهانة، والنَّزاهة عن الخُضوع؛ هِنْديُّون فى فرط عنايتهم بالعلوم وحُبِّهم لها؛ بغداديُّون فى ظَرْفهم ونظافتِهم، ورِقَّة أخلاقهم

---

(١) هـذه رواية المقريزىّ . أما الاصل فقد ورد فيه الشطر الأول غير موافق فى الوزن للبقية هكذا :

يا نزهة الرصد التى قد نزهت * عن كل شىء الخ

ونَبَاهتهم ، ولطافة أذهانهم ، وحدّة أفكارهم ؛ نَبَطِيُّون فى آستنباط المياه ، ومُعَاناتهم للغِراسة ، وتركيب الشجر والفِلاحة ؛ صِينيُّون فى إتقان الصنائع العلمية ، وإحكام المِهَن الصورية ؛ تُركِيُّون فى معاناة الحروب ومعالجة آلاتها ، والنظر فى مهمَّاتها » .

قال إبراهيم بن خفاجة ، يصفها :

إنّ للجنّةِ بالأنْدَلُس * مجتَلى عينٍ وريَّا نَفَسِ !

فَسَنا صُبْحتها من شَنَبٍ * ودُجى ليلتها من لَعَسِ .

وقد أظهرت الأندلس جماعةً من الفضلاء والأعيان والأكابر ، ذكرهم ابن بسّام فى كتابه المترجم "بالذخيرة ، فى محاسن أهل الجزيرة". وذكرهم الفتح بن خاقان فى كتابه "المطمح" و "قلائد العقيان" وغيرهما .

وسنذكر إن شاء الله تعالى حال الأندلس وآبتداء عمارتها وملوكها عند ذكرنا فتحها ، وهو فى الباب الخامس من القسم الأول من الفن الخامس فى التاريخ من اخبار الدولة الأموية فى خلافة الوليد بن عبد الملك بن مَرْوان فى سنة ٩٢ من الهجرة .

وأما البَصْرة وما آختصت به

فمن خصائصها أن للغِرْبان بها ضربا من العَجَب . وذلك أنها تقَع إليها بالخريف حتّى تكون الأرض بها سوداء ، وتقع على كل نخلة أُصْرِم ثمرها ، ولا تقع على ما لم تُصرَم ، ولو بقى عليها عِذْق واحد .

ومن عجائبها أيضا ، أن التمر يكون مصبوبا فى بيادره ، فلا يقع عليه شىءٌ من الذُّباب لا فى الليل ولا فى النهار .

وأهل البصرة يتخذون المِظَلَّات على التمر والعجوة خوفًا عليها من الخُفَّاش . ومن عادة الذباب الفِرار من الشمس إلى الظلّ ، فلا يوجد فى تلك الظلال شىء منه آلبتة . فيتوهمُ المتوهِّم أن هاتين الحالتين من طِلَّسْم ، له من الخاصية ما يمنع الغِرْبان والذباب . وليس كذلك ، وإنما هو من حماية الله ووقايته .

ووصف خالد بن صفوان البصرة ، فقال : منابِتها قَصَب ، وأنهارها عَجَب ، وسماؤها رُطَب ، وأرضها ذَهَب .

وفى الكوفة عدم الوفاء .

وأما بغداد وما آختصت به

فإنه يقال : إنها جنةُ الأرض ، ومجتَمَع الوافدَيْن : دجلةَ والفُراتِ ، وواسطةُ الدنيا ، ومدينةُ السلام ، وقبة الإسلام ، لأنها غُرَّة البلاد ، ودارُ السلام والخلافة ، ومجمع الطَّرائف والطيبات ، ومعدِن المحاسن واللطائف ، وبها أرباب النِّهايات فى كل فن ، وآحاد الدهر فى كل نوع .

وكان أبو إسحاق الزجَّاج يقول : بغدادُ حاضرةُ الدنيا ، وما عداها باديةٌ .

وكان أبو الفضل بن العميد اذا طرأ عليه أحد وأراد آمتحانَ عقلِه سأله عن بغداد . فان فَطِن لفضائلها وخواصِّها ، جعل ذلك مقدّمةَ فضله وعنوانَ عقله .

وقال آبن زُرَيق الكوفىّ ، الكاتب :

سَافَرْتُ أبغِى لبَغْدادٍ وساكِنِها * مِثْلا ، فحاوَلْت شيْئًا دُونَه الياسُ .
هيهاتَ ! بغدادُ الدنيا بأجمعها * عندى ، وسُكَّانُ بغدادٍ همُ الناسُ .

وقال آخر :

سقى اللهُ بَغْدادَ من جنة * غدَتْ للوَرى نُزْهةَ الأنفُس .

على أنّها مُنْيةُ المُوسِرين، * ولكنّها حَسْرةُ المُقْلِس.

وأما الأهواز وما آختصت به

فقال أبو عثمان " عمرو بن بحر الجاحظ " : إن قَصَبة الأهواز مخصوصة بالحمّى الدائمة اللازمة، حتّى إنها ليست إلى الغريب بأسرَعَ منها إلى القريب .

وقال إبراهيم بن العباس عن مَشْيَخة من أهلها عن القوابل بها : إنهن ربما قَبِلن الطِّفْل المولود بها فيجِدْنَه محموما؛ ولا تكاد تُوجَد بها وجنةٌ حمراء لصبيّ ولا صبية، ولا دمٌ ظاهر .

ومن عجائب خصائصها : أن جميع أصناف الطِّيب تستحيلُ رائحتُه فيها جدّا، حتّى لا تكاد توجد له رائحةٌ . وذلك من كثرة الرُّطوبات، وغلَظ الهواء، والأبخرة الفاسدة . (وهذا موجود بأنطاكِيَة والقُسْطنطينيّة) . ويقال : إن الخيل لا تنْزُو بها ولا تصْهَل، وإنها تعتلف الحشيش دون التبن؛ لما يلحقها من الرَّبْو، لنداوة البلد وعفونته .

وأما فارس وما آختصت به

فمن خصائصها : ماء الورد الذى لا يُوجَد مثله فى سائر البلاد طيبا، والجُورِىّ الموصوف من أحد بلادها يُجْلَبَ إلى أقاصى البلاد، ويُضرَب به المثل .

ولشيرازَ من بلاد فارس فَغْمة طيبة ليست فيما عداها من بلاد فارس .

وأما أصفَهَان وما آختصت به

فهى موصوفة بصحة الهواء، وجَوْدة التُّربة، وعُذُوبة المـاء .

وحُكى أن الحجاجَ ولّى بعض خواصّه أصفهَان، فقال له : قد وَلَّيتك بلدةً حَجَرُها الكُحْل، وذُبابُها النَّحل، وحشيشُها الزَّعْفَران .

ومن خصائص الرَّىّ : بُرودُها موصوفة كبُرود اليَمَن، وتسمَّى العَدَنيَّات تشبيها ٥ لهـا ببرودِ عَدَن . وفيها الثياب المنيرَّة .

قالوا : واللص الحاذق ينسب إلى الرَّىّ .

وأما جُرْجان وما آختصت به

فهى سُهْلِيَّة جَبلية ، برِّية بحرِيَّة . وأهلها يَعُدّون زيادةً على مائة نوع من أنواع الرياحين، والبُقُول، والحشائش الصَّحْراوية، والثمـارِ والحبوب السُّهْليـة التى هى ١٠ مبذولة بها للفُقراء والغُرباء .

ومن خصائصها : العُنَّاب الذى لا يكون فى سائر البلاد مثلُه ، ويقال : هى بغداد الصُّغرى، إلا أنها وبِيَّةٌ، مختلفة الهواء فى اليوم الواحد، قَتَّالة للغرباء، كثيرة الأنداء.

ويقال : جُرْجان مقْبُرة أهل خُرَاسان .

وفى بعض الكتب القديمة أن بخراسان بلدة يقال لها جرجان، يُسَاق إليها قصار ١٥ الأعمار من الناس.

وكان أبو تراب النيسابورىّ يقول : لمـا قُسمت البـلادُ بين الملائكة، وقعَتْ جُرجانُ فى قسم أبى يحيى (يعنى مَلَك الموت) .

وأما نيسابور وما آختصت به

فحكى عن عمرو بن الليث الصَّفَّار أنه كان يقول : كيف لا أقاتِلُ عن بَلْدة حشيشها الرِّيباس، وتُرابها النُّقْل، وحَجَرها الفيروزج. أراد بقوله : "تُرابها النُّقْل" طينَ الأكل الذى لا يوجَد مثله فى الأرض، ويحمل منها إلى أقاصى البلاد وأدانيها، ويُتْحف به الملُوك. قالوا : وربما بيع الرِّطل منه بدينار. قال المأمون يصفه :

جُدْ لى من النُّقْل، فذاكَ الذى * منه خُلِقْنا وإليه نَصِيرْ.
ذاكَ الذى يُحْسَب فى مثله * أحجارَ كافورٍ عليها عبيرْ.

قالوا : والفَيْروزَج لا يكون إلا فى نَيْسابور، وربما بلغت قيمة الفَصّ منه — الذى إذا أربى وزنه على مثقال، وجمع الخضرة والآستدارة، وصَبَرَ على النار، وآمتنع على المِبْرد، ولم يتغير بالماء الحارّ — مائتى دينار.

ويقال إن له خاصية فى تقوية القلب بالنظر إليه، كما أنَّ للياقوت خاصَّة فى مَسَرَّة النفس.

ولما دخلها إسماعيل بن أحمد السامَانىُّ، ملكُ ماوراءَ النهر وخُراسان، آستحسنها وآستطابها، وقال : يالها من بلدة جليلة، لو لم يكن لها عيبان! كان ينبغى أن تكون مياهها[1] التى فى باطن الأرض على ظاهرها، وأن تكون مسالحها التى على ظهرها فى بطنها.

ومن خصائصها الثياب النيسابورية الرِّقاق.

وأهلها لا يكرِمون الغريب. قال المرادىّ :

لا تنزلَنَّ بنَيْسابُورَ مغتَرِبًا * إلّا وحَبْلُك موصولٌ بسُلْطانِ.
أوْلا، فلا أدبٌ يُغْنى ولا حَسَبٌ * يُجْدى ولا حُرمةٌ تُرْعى لإنسانِ.

---

(١) فى الاصل "مشايخها".

وقال أيضا فيها :

قالَ المُرادِىّ قولًا غيرَ متَّهَمٍ، * والنُّصحُ ما كان من ذى اللُّبِّ مقبولُ :
لا تنزلَنَّ بنَيْسابورَ مُغْتَرِبًا، * إن الغريبَ بنَيْسابُورَ مخذولُ.

وأما طُوس وما آختصت به

(١٣٧)

فمن خصائصها السَّبَج الذى لا يكون إلا بها ، ومنها يُنْقَل إلى الآفاق ، والحجر الأبيض الذى تتخذ منه القُدُور . ٥

ويقال : إن الله عز وجل ألَانَ لأهلها الحجارةَ كما ألَان لداود الحديدَ، حتّى إنهم يتخذُون منها ما يتخذ غيرُهم من الزُّجاج من سائر الأوانى .

وأما بَلْخ وما آختصت به

فيقال : هى من أقدم البلاد وأخصّها بالملوك، وهى شبيهة بالعِراق، وخُراسان، والهند . وإليها ينسَبُ جَيْحون، فيقال : نهر بلخ . ١٠

وكان سعيد بن الحسن يقول : العَيْش فى الصيف ببَلْخ كتَصْحِيفها [١] .

ومن خصائصها البخاتّى [٢] والنَّيْلُوفر .

(١) أى مثل ثلج .

(٢) فى الأصل : النجادى . [وهو تحريف لاشك فيه] . "والبخاتى" هى نوع من النياق آشتهرت بها هذه المدينة . قال آبن حوقل الرحالة البغدادىّ الشهير فى كتابه "المسالك والممالك" (ص٣٢٨، ٣٢٩) ما نصـه : ١٥

"ويرتفع من بلخ وأعمالها فى نفسها النوق المتقدمة على ما فى جنسها وتعرف بالبخاتى ولا نظير لها من جنسها فى جميع الأرض . وبها الأترج والنيلوفر وقصب السكر وما لا يكون الا بالبلدان الحارة الا أنه لانخيل بها" . ٢٠

وأما بُسْت وما آختصت به

فيقال : إن هواءها كهواء العراق، وماءها كماء الفُرات، ومن خصائصها الإجَّاص الذى لا يوجد مثله فى غيرها . ويقال : إن مَنْ مات بُسْت مغفورًا له فقد آنتقل من جَنَّة إلى جَنَّة .

وأما غَزْنة وما آختصت به

فهى موصوفة بصحة الهواء، وجودة التُّربة، وعُذوبة الماء، وهى جَبَلية شَمَالية، ومن خصائصها أن الأعمار بها طويلة، والأمراضَ قليلة. قالوا : وهى أرضٌ تنبت الذهبَ، ولا تولد الحياتِ والعقاربَ والحشرات المؤذية . ومنها خرج الأجِلَّاء الأنجاد من الرجال .

وقال أبو سعيد منصور زعيم جرجان : لم أر بلدة فى الصيف أطيب، وفى الربيع أشبه، ومن الحشرات أنظف من غزنةَ . ثم قال : إن قلَّة ثِمَارها من منافعها، لأن كثرة الثمار مقترِنةٌ بكثرة الأمراض . وقد وصفها صاحب كتاب "لطائف المعارف" فقال :

واهًا لغَــزْنةَ إذ غَدَتْ * لِلْمُلْكِ والإســـلامِ دَارَا
من كَعْبةٍ قد أصبحَتْ * لِلْمَجْدِ والعَلْيَــا مَــدَارا
فى صَدْرِها الملكُ الّذى * قُطْبُ السُّعود عليه دَارَا

وقال أيضا فيها :

يا دارَ مُلْك نرى كُلَّ الجمال بها * وأسعد الدهر تَبْدُو من جَوانِبها
كأنما جَنَّة الفِرْدوس قد نزلَتْ * بأرض غَزْنةَ تعجيلًا لصاحِبِها

وأما سِجِستان وما آختصت به

فيقال فيها : ماؤها وَشَل، وثَمَرُهَا دَقَل، ولِصُّها بَطَل.

ومما تختص به الطاسات وجلاجل البُزَاة، والطبولُ المَوْكبية، والفُرُش الدَّيباج .

وأما الهند وما آختصت به

فيقال : الهند بحرها دُرّ ، وجبلُها ياقوت ، وشجرُها عُود، وورَقُها عطْر . ٥

وعُود الهند يذكر مع أمّهات الطيب .

وفى الهند الفِيل ، والكَرْكَدَّن، والبَبْر، والطاوُوس، والبَبْغاء .

وفيــه الياقوتُ الأحمر، والصَّنْدل الأبيضُ، والعاجُ، وأصناف العِطر، والثياب المُخْمَلة وغيرها، واللَّانِس(١)، والأقمشة .

وأما الصين وما آختصّ به ١٠

فإن العرب تقول لكل طُرْفة من الأوانى : صينِيَّة كائنةً ما كانت : لآختصاص الصين بالطَّرائف.

وأهلُ الصــين خُصُّوا بصناعة الطُّرَف ، والمُلَح ، ونَحْط التمــاثيل ، والإبداع فى عمــل النُّقُوش والتصاوير، حتّى إنــ مصوّرهم يصوّر الإنسان فلا يغادر شيئا إلا الرُّوح، ثم لا يرضى بذلك حتّى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخَجِل، وبين المتبسِّم والمستغرب، وبين ضَحِك المسرور والهازئ، ويركِّب صُورة فى صورة . ١٥

وفيه مناديل الغَمَر التى إذا آتّسخت وأُلقيت فى النار، نَقِيت ولم تحترق .

---

(١) كذا بالأصل ولعلها محرفة عن القلانس .

وفيه الحديد . وربما آشترى بأضعاف وزنه فضةً .

وفيه السِّنجاب الفارحانىّ الذى هو من أنفَس الأوبار . وفيه اللُّبود الجياد .

قال الجاحظ فى كتاب "النظر فى التجارة" : إن خير اللُّبود الصينية، ثم المغربية الحُمْر، ثم الطالَقَانيَّة البِيض .

وأما سَمَرْقَنْد وما آختصت به

قال قُتَيبة بن مسلم، لما أشرف على سمرقند لأصحابه : شَبِّهوها ، فلم يأتوا فيها بشىء، فقال : كأنها السماء فى الخُضْرة، وكأن قصورَها النجومُ الزاهرة، وكأن أنهارَها المَجرّة . فاستحسنوا هذا التشبيه .

ومن خصائصها : الكَوَاغدُ التى عطَّلتْ قراطيس مصر، والجلودَ التى كان الأوائل يكتبُون عليها، لأنها أحسَنُ وأنعمُ وأرفَقُ وأرقُّ . ولا تكون إلا بها وبالصين .

ومن خصائصها : الثياب الوَذَارية، والنشادر، والزِّئبَق، والبُنْدُق .

وأما بلاد التُّرك وما آختصت به

فانه يقال . إنها توازن بلاد الهند فى كثرة الخصائص .

وفيها المِسْك والسِّنجاب والسَّمُّور والقاقُم والفَنَك والثَّعالب السُّود والأرانب البيض وغير ذلك . وفيها البُزاة البيضُ والخيل .

وتَثَبَّتُّ من بلاد الترك خاصيةً : أنه من أقام بها آعتراه سُرور لايدرِى ما سبَبُه، ولا يزال متبسما ضاحكا ؛ وأن الميت إذا مات فيها لا يدخُل على أهله كبيرُ حزن كما يلحق غيرهم عند موت محبوب .

وأما خُوَارَزم وما آختصَّتْ به

(١٢٨)

فانها تقارب بلاد الترك، بل تنافسها فى الخصائص والمتاجر.

ومن خصائصها البِطيخ الذى يقال له "النارَنْج" يقال إنه أحْلى البطاطيخ وأطيبُها. وكان يحمل منها إلى المأمون وإلى الواثق فى قوالب الرصاص، معبَّأة فى الثلج. فكانت تُقوَّم الواحدة منه — إذا سلمت ووصلت — بسبعمائة درهم. والله أعلم. ٥

ذكر الخصائص التى تجرى مجرى الطِّلَّسْمات

منها :

مدينــة "خَبِيص" من مُدُن كَرْمان. لا يُمطِر المطر فيها داخلَ الســور أبدا حتَّى إن الرجل يُخْرِج يده من سورها إلى خارجها، فتبتلُّ يدُه ولا يبتلُّ ساعده.

وبقرية من قُرى كَرْمان أيضا "حصن عادى" ليس فيه فأر. وإذا دخل إليه فأر، مات. ١٠

ومدينة "حمص" لا يُوجَدُ فيها عَقرب. وإذا نُثِر ترابُها على ظهر عَقْرب، ماتت.

وكذلك قلعة أعزاز[1] من أعمال حلب. ويقال إنه لا يدخل مدينتها حيَّــة. ومتى نُثِر عليها من ترابها، ماتت لوقتها. ولا يوجد فيها بَعُوضٌ ألبتةَ. وإن الرجل متى أخرج يده من السور، وقع عليها؛ فإذا أدخل يده، طار عنها. ١٥

و "بمصر"[2] أن التماسيح إذا ساقها الماءُ إليها وحاذَتْها، آنقلبت على ظهرها. فإذا بَعُدت عنها، لا تضر أحدا. بخلاف ماهى فى بلاد الصعيد، فإنها تفترس جميع ماتظفَر به من الحيوان حتَّى الخيل. ولا يقوى على قتالها إلا الجاموس.

ومدينة "سجِلْماسة" لا يوجد فيها ذُباب ألبتةَ.

---

(١) كذا ذكرها أيضا فى التقويم بالهمزة. وفى المعجم "عزاز" بدونها. ٢٠

(٢) يعنى مصر العتيقة أى الفسطاط.

ذكر خصائص البلاد فى أشياء مختلفة

(وهى العلم، والعمل، والجواهر، والملابس، والأوبار، والفُرُش، والمراكب، والحيواناتُ ذواتُ السموم، والحَلْوى، والثمار، والرياحين، والخَلْق، والأخلاق، والأمراض، والآثار العُلْوية)

أما خصائصها العلميــة والعملية، فيقال: حُكماء اليونان، وأطباء جُنْدَيْسابور، وصاغة حَرَّان، وحاكَةُ اليمن، وكُتَّاب السَّواد.

ومن خصائصها فى الجواهر، يقــال: فَيْروزَج نَيْسابورَ، وياقوت سَرَنْديب، ولؤلؤ عُمَان، وزبَرجَد مِصر، وعَقِيق اليمن، وجَزْع ظَفَار، وبجادىّ بلخ، ومَرْجانُ إفريقيَّــة.

ومن خصائصها فى الملابس، يقال: بُرُود اليمن، ووَشْىُ صنعاء، ورَيْط الشام، وقَصَب مصر، ودِيباج الرُّوم، وقَزُّ السُّوس، وحَرِير الصين، وأكْسِية فارس، وحُلَل أصْبَهان، وسَقْلاطُون بغداد، وعَمَــائم الأُبُلَّة، ومُنَيَّر الرىّ، ومُلْحَم مَرْو، وتِكَك أرمينيَة، ومَناديل الدَّامَغان، وجَوَارِب قَزْوِين.

ومن خصائصها فى الأوبار، يقــال: سنجاب خِرْخِيز، وسَمُّور بُلْغار، وثعالب الخَزَر، وفَنَك كاشْغر، وحَوَاصل هَرَاة[(1)]، وقاقُم تغزغز.

(1) ورد هــذا اللفظ فى كثير من كتب العرب بمعنى الجلود السنية التى يتدفأ بها أهــل الترف والنعيم فقد ذكر الهمذانى (ص ٢٣٥) الفنك والسمور والقاقم والحواصل والوَشَق والدَّلَق الخ. وذكره ابن البيطار فقال: «أنه طائر يكون بمصر كثيرا يعرف بالكُىّ (بضم الكاف وإسكان الياء المنقوطة باثنتين من أسفل) ... ... ولباسه يصلح للشباب وذوى الأمزاج الحارة ومن يغلب عليه الصفراء». وذكر السيوطى فى الجزء الثانى من "حسن المحاضرة" لطائف مصر وأورد من جملتها الحوصل (بغير ألف فى النسخة المطبوعة طبع حجر بمصر، ص ١٧٦) حيث قال ما نصه: «وطير الحوصل يعمل من جلده الخفاف الناعمة والفرا الأبيض الذى يقوم مقام الفنك فى لينه ورقته».

ومن خصائصها فى الفرش، يقال : بُسُط أرمينية، وزَلَالىّ قاليقلا، ومَطَارِحُ مَيْسان، وحُصُر بغداد[1] .

ومن خصائصها فى المراكب ، يقال : عِتَاق البادية ، ونجَائب الحجاز ، وبَراذين طَخَارستان، وحَمير مصر، وبِغَال بَرْذعة .

ومن خصائصها فى الحيوانات ذوات السموم، يقال : أفاعى سجِسْتان، وحَيَّات اصْفَهان ، وثَعابِينُ مصر ، وعَقَارب شَهْرَزُور ، وجرّارات الأهواز ، وبَراغيث أرمِينِيَة ، وفأر أرْزَن ، ونمل مَيَّا فارقِينَ ، وذبابُ تل فَافَانَ ، واقداح[2] نلد[3] .

ومن خصائصها فى الحلواء، يقال : سُكَّر الأهواز، وعَسَل أصفَهَان ، وفانيذ ماكسان[4] ودِبْسُ أَرَّجان .

---

(١) لعله مصحف عن "حصرعبادان" لأن المقريزى طالما يتكلم عن الحصر العبدانية فى مواضع كثيرة جدا من خططه . وكذلك السيوطى قال فى لطائف مصر: «وبها من الحصر العبدانى ومن سائر أصناف الحصر ما لا يوجد فى غيرها» . وقال المقدسى ص ١١٨ «ان أكثر أهل عبادان صناع الحصر من الحلفاء» وكانت هذه الحصر فى غاية من الجمال حتى كان أهل مصر يقلدونها كما رأينا من عبارة السيوطى .

(٢) مفرده "قدح" وقال فى القاموس : «والقدح والقادح أكال يقع فى الشجر والاسنان...والقادحة الدودة» . وقال ابن البيطار فى كلامه على "التربد" نوع من النبات مانصه : «والتربد اذا طال به الزمان عمل فيه القادح كما يعمل فى الخشب ... ... تراه مثقبا كأنه ثقب برأس ابرة» . ثم قال فى بقية الكلام ما نصه : «لا يجب أن يستعمل منه (أى التربد) إلا ... ... السليم من السوس» .

(٣) هكذا فى الأصل . وربما كان محرفا عن "بَلَد" المدينة المشهورة فى العراق .

(٤) كذا بالاصل وصوابه "ماسَكَان" وقد أوردها ياقوت فقال «انها بلد مشهور بالنواحى المجاورة لمُكْران وراء سجستان» ثم قال «ولا يوجد الفانيذ بغير مكان إلا بهذا الموضع ... واليه ينسب الفانيذ الماسكانى» .

ومن خصائصها فى الثمار ، يقال : رُطَب العراق ، وتَمْر كَرْمان ، وعُنَّاب جُرْجان ، وإجّاص بُسْت ، وسَفَرْجَل نيسابور ، وتُفّاح الشام ، ومِشْمِش طوس ، وكُمَّثْرى نَهاوَنْد ، وأُتْرُجّ طبرستان ، ونارَنْج البصرة ، وتِين حُلْوان ، وعنَب بغداد ، وقِشْمِش هراة ، ومَوْز اليمن ، وجَوْز الهند ، وبِطِّيخ خُوارَزْم ، وباقِلاء الكوفة .

٥ ومن خصائصها فى الرياحين ، يقال : نَرْجِس جُرْجان ، ووَرْد جُور ، ونَيْلُوفر السِّيَروان ، ومنثُور بَغداد ، وزَعْفران قُمّ ، وشاهسْفَرم سمرقند .

ومن خصائصها فى الخَلْق والأخلاق ، يقال : شُقْرة الروم ، وسَوَاد الزَّنْج ، وغِلَظ الترك ، وجَفَاء الجِيل ، ودَمَامة الصِّين ، وقِصَر يأجُوج .

ومن خصائصها فى الأمراض ، يقال : طواعينُ الشام ، وطِحَال البحرين ، ١٠ ودَمَاميل الجزيرة ، وحُمَّى خيبَر ، وجُنُون حمص ، وعَرَق اليمن ، ووَبَاء مصر ، وبِرْسام العراق ، والنارُ الفارسية ، وقُرُوح بَلْخ .

ومن خصائصها فى الآثار العلوية ، يقال : شِتَاء أرمينِيَة ، ومَصيف عُمَان ، وصواعق تِهَامه ، وزَلازِلُ دَبِيل . (١٢٩)

وقال الجاحظ فى "كتاب الأمصار" : الصناعة بالبصرة ، والفَصَاحة بالكوفة ، ١٥ والتَّخْنِيث ببغداد ، والطَّرْمذَة بسمرقند ، والغَيّ بالرَّيّ ، والجَفَاء بنَيْسابور ، والحُسْن بهَراة ، والمُروءة ببلخ ، والبُخْل بمرو ، والعجائب بمِصْر .

وحكى عن عمرو بن عامر مُزَيْقِيَا ، أنه قال لقومه لما تحقق كونَ سيلِ العَرِم : من كان ذا شاءٍ وبَعيرٍ وجملٍ غير شَرُود ، فليلحق بالشِّعب من كُوفان ، فلحقتْ به

هَمْدان ؛ ومَن كان ذا سياسة وصَبْر على أزَمات الدهر فليلحَق ببطن مَرّ ، فلحقت به خُزاعة . ومَن كان يريد الراسخات فى الوَحْل ، المُطعِمات فى المَحْل ، فليلحَقْ بيَثْرِب ذاتِ النخل ، فلحقت بها بنو قَيْلَةَ ، وهم الأوس والخَزْرَج ؛ ومن كان يريد الخَمر والخَمِير والأمر والتأمير فليلحق بِبُصْرى وسَدِير (وهى من أرض الشام) ، فلحقَتْ به غَسّان ؛ ومَن كان يريد الثياب الرِّقاق ، والخُيول العِتاق ، والذَّهَب والأوراق ، فليلحَقْ بالعراق ، فلحقت به لَخْم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

الباب الثالث

من القسم الخامس من الفن الأوّل

(فى المبانى القديمة)

والمبانى القديمة كثيرة ، فلنذكر منها ما عَظُم خَطَره ، وشاع فى الآفاق ذِكْره .

ذكر أوّل بناء وضع على وجه الأرض

قيل : أوّل مابنى على وجه الأرض "الصَّرْح" ويسمَّى "المِجْدل" بناه النُّمرود الأكبَرُ آبن كُوش بن حام بن نوح ، بكُوثَى رَبَّى من أرض بابل . قيل : وبها إلى هذا العصر من أثره كالجبال . وكان طوله فى الهواء خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع . وكان مبنيا بالحجارة والرَّصاص والكِلْس والشَّمَع واللِّبان . بناه ليمنعه وقومَه من بأس الله عز وجل . وكان قد كفر وطغى وادّعى الألوهية ، فأرسل الله تعالى

إليه جبريل، فضربه بخافقة جناحه فهدمه ، وهام مَن كان حوله على وجهه ، وقد تبلبلت ألسنتهم من الدَّهَش والذُّعْر، فكانت عنه هـذه اللغاتُ التى يتكلم بها سائرُ الأمم. وهى آثنتان وسبعون لغةً، وسميت تلك الأرض التى كان بها بابِلَ .

ذكر خبر إرَمَ ذاتِ العماد

وهى التى ذكرها الله عز وجل فى كتابه العزيز، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ .

وكان سبب عمارتها أن شدّادَ بن عاد بن إرَم لما سَمِع وصفَ الجنة سوّلتْ له نفسه أن يبنى مثلها . فبنى مدينة بين حَضْرَمَوْتَ وصنعاءَ، طُولها آثنا عشر فرسخا، وعرضُها مثلُ ذلك . وأحاط بها سورا آرتفاعه خمسمائة ذراع، غشّاه بصفائح الفضة المموّهة بالذهب، فلا يُدركه البصر إذا أشرقتْ عليه الشمسُ. وبنى داخلها مائةَ ألف قصر (بعَدَد رؤساء أهل مملكته) من الذهب والفضّـة، وكذلك جُذُوع سُقُوفها وأعمدتُها . وأجرى فى وسطها نهرا صَفَّح أرضه بالذهب ، وجعل على حافتيه أنواعَ الجواهر واليواقيت بدلًا من الحصباء وألقى فيه المِسْك والعنبرَ بدلا من الحَمْأة . وفرّع منه جداول إلى تلك القُصور والمنازل ، وغَرَس على شُـطوطها من الأشجار ما كان لزَهَره عَرْفٌ طيّبٌ ورائحةٌ ذكيّة .

زعموا أنه أقام فى بنائها ثلثمائة سـنة ، فلما تمّ بناؤها، زاد فى طغيانه وخرج من حضرموت إليها ليسكُنَها . فلما أشرف عليها جاءته صَيْحة من السماء فأهلكَتْه هو وجنوده .

ويروى أن عبد الله بن قلابة خرج فى طلب إبل له ندّتْ فوقع عليها، فحمل ماقدر عليه، فبلغ معاويةَ خبرُه، فاستحضره وسأله فقصّ عليه قصته. فبعث معاويةُ إلى كعب الأحبار، فقال: هى إرمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك: أحمرُ قصير، على حاجبه خالٌ، وعلى عقِبه خال، يخرج فى طلب إبل له ندّتْ. ثم ٱلتفت فرأى ٱبن قلابة فقال: هذا والله ذاك الرجُلُ.

وزعم الأخباريون أنه كان بها أربعمائة ألف وأربعون ألف عمود، ولهذا سميت ذات العماد. وقد ذهب قوم إلى أنها دمشق.

وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر إرم ذات العماد بما هو أبسط من هذا عند ذكرنا لخبر شَديد وشَدّاد، ٱبنى عاد؛ وهو فى الباب الخامس من القسم الأوّل، من الفن الخامس فى التاريخ، وذلك فى السِّفر الحادى عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك. والله تعالى أعلم.

ذكر خبر سدّ يأجوج ومأجوج

هو فى الإقليم السادس فى آخر الجزء التاسع من تجزئة عشرة أجزاء.

(١٣٠) قال[(١)] صاحب كتاب "نزهة المشتاق إلى ٱختراق الآفاق" إن الواثق بالله لما رأى فى المنام كأنّ السّدّ الذى بناه ذو القرنين مفتوح، أحضر سَلّاما الترجمان وقال له:

(١) ان ابن خرداذبة هو أوّل من روى خبر هذه البعثة العلمية عن نفس رئيسها ثم ٱستملاه منه من الكتاب الذى كان كتبه فى هذا المعنى للخليفة الواثق بالله (انظر المسالك والممالك طبع ليدن سنة ١٣٠٦ هـ — سنة ١٨٨٩ م من صفحة ١٦٢ — ١٧٠). وعن ٱبن خرداذبة نقل جميع المؤلفين الذين جاءوا بعده مثل الإدريسى وٱبن رسته وٱبن الفقيه الهمذانى والمقدسى. وقد نقل النويرى عن الإدريسى. وكلهم قد يزيد و ينقص بعض الكلمات أو يبدلها بغيرها.

ٱذهب فانظر إلى هذا السد وجئنى بخبره وحاله وما هو عليه ، ثم أمر له بأصحاب يسيرون معه ، عددهم خمسون رجلا ، ووصله بخمسة آلاف دينار ، وأعطاه ديته عشرة آلاف درهم ، وأمر أن يعطى كل واحد من أصحابه الخمسين ألف درهم ورزق سنة ، وأمر لهم بمائة بغل تحمل الماء والزاد . قال سلام الترجمان : فشخصنا من سامرّا بكتاب الواثق إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية بالنظر إلى تنفيذنا من هنالك ؛ فكتب لنا كتابا إلى ملك السّرير وأنفذنا إليه . فلما وردنا عليه ، أشخصنا إلى ملك اللّان . فلما وصلنا إليه ، أشخصنا إلى صاحب فيلان شاه[1] . فلما وردنا عليه [أرسلنا الى ملك الخزر وهو] ٱختار لنا خمسة أدلّاء يدلّون على الطريق . فسرنا من عنده سبعة وعشرين يوما فى تخوم بلاد بسجرت إلى أن وصلنا إلى أرض سوداء طويلة ممتدّة كريهة الرائحة ، فشققناها فى عشرة أيام . وكنا قد تزودنا لقطعها أشياء نشمها خوفًا من أذى روائحها الكريهة . ثم ٱنفصلنا عنها . فسرنا مدّة شهر فى بلاد خراب قد دَرَست ابنيتُها ولم يبقَ منها إلا رسوم يُستدل بها عليها . فسألنا من معنا عن تلك المُدُن ، فاخبرونا أنها المدن التى كان يأجوج ومأجوج يغزونها ويخرّبونها . ثم سرنا إلى حصون بالقرب من الجبل الذى فى شُعبة السدّ وذلك فى ستة أيام . وفى تلك الحصون قوم يتكلمون بالعربية والفارسية . وهنالك مدينة يدعى ملكها خاقان بن أدكش ، وأهلها مسلمون لهم مساجد ومكاتب . فسألونا من أينَ أقبلنا ، فأخبرناهم أنّا رُسُل أمير المؤمنين الواثق بالله ، فعجبوا منا ومن قولنا "أمير المؤمنين" ثم سألونا عن أمير المؤمنين : أشيخ هو أم شابّ ؟ فقلنا : شابّ ، فعجبوا أيضا . ثم قالوا : وأين يكون ؟ قلنا : هو بالعراق بمدينة سُرَّ مَنْ رأى . فعجبوا أيضا

(١) فى الأصل : "فيلاه شاه" . والتصويب عن ٱبن خرداذبة .

من ذلك، وقالوا : ما سمعنا هذا قطُّ . فسألناهم عن إسلامهم من أين وصلهم ومَنْ علّمه لهم ؟ فقالوا : وصل إلينا منذ أعوام كثيرة رجل راكب على دابة طويلة العُنق طويلة اليديْن والرجلين ، لها فى موضع صلبها حَدَبة ، (فعلمنا أنهم يصفون الجمل) قالوا : فنزل بنا وكلمنا بكلام فهمناه ، ثم علّمَنا شرائع الإسلام فقبلناها ، وعلمنا أيضا القرآن ومعانيَه فتعلمناه وحفظناه . قال سلام : ثم خرجنا بعد هـذا إلى السدّ ٥ لنُبصره ، فسرنا عن المدينة نحوا من فرسخين ، فوصلنا السدّ . فإذا جبل مقطوع بوادٍ عرضه مائة وخمسون ذراعا ، وله فى وسط هذا الفِناء باب من حديد طوله خمسون ذراعا قداً كتنفه عِضادتان ، عرض كل عِضادة منهما خمسة وعشرون ذراعا . والظاهر من تحتها عشرة أذرع خارج الباب . وكله مبنىّ بلَبِن الحديد مغيب بالنُّحاس . وآرتفاع العضادتين خمسون ذراعا ، وعلى أعْلى العضادتين دَرَوَنْد حديد ، طوله مائة وعشرون ١٠ ذراعا . والدَّرَوَنْد للعتبة العليا ، وقد ركب منها على كل واحدة من العضادتين مقدار عشرة أذرع . ومن فوق الدَّرَوَنْد بنيانٌ متصل بلبن الحديد المغيب بالنحاس إلى رأس الجبل ، وآرتفاعه مدّ البصر . وفوقه شُرّافات حديد ، فى طَرَف كل شُرّافة قرنتان تَنْثَنِى أطراف كل واحدة منهما على الأخرى[(١)]، وللباب مصراعان مُغْلَقان ، عرض كل مِصْراع خمسون ذراعا فى ثِخَن خمسة أذرع ، وقائمتاهما فى دوّارة على قدر الدروند . وعلى ١٥ الباب قفل طوله سبعة أذرع فى غِلَظ ذراع فى الآستدارة ، وآرتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعا . وفوق القفل بخمسة أذرع غَلَقٌ طوله أكثر من طول القُفْل ،

(١) هـذه رواية ابن خرداذبة . وفى الأصل « قرنان مثنى الأطراف بعضها الى بعض » . ورواية المقدسى : «قرنان ينثنى كل واحد الى صاحبه» .

وعلى الغَلَق مِفْتاح طوله ذراع ونصف ، وله اثنتا عشرة دنداجة[(١)] ، كل دنداجة منهـا كأغلظ ما يكون من دساتج[(٢)] الهواوين ، مُعلَّق كل واحد منها بسلسلة على قدر حلقة المنجنيق[(٣)]. وعتبة الباب السفلى عشرة أذرع بسط مائة ذراع سوى ماتحت العضادتين ، الظاهر منها خمسة أذرع . وكلها مكيالة بالذراع السوادي . ورئيس ذلك الحصن يركب

٥ في كل جمعة مع عشرة فوارس ، مع كل فارس إرزبّة حديد ، كل إرزبّة خمسةُ أمنان . فيضرب القفل بتلك الإرزبّات في كل يوم ثلاث مرات ليسمع من خلف الباب . فيعلم أنّ هناك حفظةً ، وليعلم هؤلاء أن يأجوج ومأجوج لم يحدثوا في الباب حَدَثا . و إذا ضرب أصحابُ الإرزبّات القفل ، وضعوا آذانهـم ليسمعوا ما وراء الباب ، فيسمعون من ورائه دويًّا يَدلّ على أن خلفه بشرا . و بالقرب من هذا الموضع حصن

١٠ يكون عشرة [فراسخ] في عشرة [فراسخ] . ومع الباب حصنان يكون كل واحد منهما مائتي ذراع في مائتي ذراع ، وبين هذين الحصنين عينُ ماء عذبةٌ ، في أحد الحصنين آلةُ البناء التي بُنِي بها السدّ من قُدور الحديد ومَغَارف الحديد ، والقدور فوق دِيكْدانات[(٤)] على كل دِيكْدان أربع قدور مثل قدور الصابون ، وهناك أيضا بقايا من لَبِن الحديد

(١) هـذه رواية الإدريسى . والذى فى ابن خرداذبة "دندانكة" وهى كلمة فارسية معناها "سن" والمراد أسنان المفتاح .

(٢) الدستج كلمة فارسية معناها "يد الهاون" أى المِدَقّ الذى تُدَق به الأشياء فى الهاون .

(٣) فى ابن خرداذبة ما يفيـد أن المفتاح وحده هو المعلق فى السلسلة وهـذا نص روايته : « معلق فى سلسلة ملحومة بالباب طولها ثمـانى أذرع فى استدارة أربعة أشبار والحلقة التى فيها السلسلة مثل حلقة المنجنيق» وهى رواية معقولة أكثر ممـا ورد فى المتن لان المفتاح فقط هو الذى يصح تعليقه دون القفل والغلق .

(٤) كلمة فارسية يقابلها عند العرب "الأثافى" .

التى بُنى بها السدّ وقد ٱلتصق بعضها ببعض من الصدإ، وطول اللَّبِنة ذراع ونصفٌ فى ٱرتفاع شبر .

قال سلام الترجمان : وقد سألْنا من خاطبناه من أهل تلك الجهات هل رَأَوا أحدا من يأجوج ومأجوج قطُّ، فأخبرونا أنهم رأَوْا منهم [مرّة] عددا فوق شُرُفات الردم، فهبّتْ عليهم ريح عاصفة، فرمت منهم ثلاثة إلى ناحيتنا (١) . وكان مقدار الرجل منهم شبرين ونصفا .

قال سلام : فكتبت هذه الصفاتِ كلَّها، ثم ٱنصرفنا مع الأدِلَّاء من تلك الحصون، فأخذوا بنا على ناحيــة خُراسان . فسرنا إلى مدينة بختان، إلى غُرْيان، إلى مدينة برساخان، إلى انطرار، إلى سمرقند، فوصلنا إلى عبــد الله بن طاهر، ثم وصلنا إلى الرىّ، ثم رجعنا إلى سرّ من رأى بعد خروجنا عنها . فكان مغيبنا فى سفرنا ثمانية وعشرين شهرا .

قال : فهذا جميع ما حدّث به سلام .

وقال الشيخ أبو عبــد الله محمد بن أحمد القرطبىّ فى تفسيره : إن ٱرتفاع الســدّ مائتا ذراع وخمسون ذراعا . قال : وروى فى طوله ما بين طرفى الجبلين مائةُ فرسخ، وفى عرضه خمسون ذراعا . نقله عن وهب بن منبه .

وسنذكر إن شاء الله تعالى من أخبار الســدّ وكيفية بنائه وطوله وعرضه، وغير ذلك مما هو متعلق به عند ذكرنا لأخبار ذى القرنين . فتأمّله هناك، وهو فى الباب

(١) فى ٱبن خرداذبه : «فهبت ريح سوداء فألقتهم الى جانبهم» أى الى الجهة التى ظهر منها أولئك الناس، وهو المعقول، لانه عقب بأن طول الرجل كان شبرين ونصفا، ومعنى ذلك فى رأى العين من هذا العلو فتنبه .

الأوّل من القسم الرابع من الفن الخامس فى التاريخ، وهو فى السفر الثانى عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا .

ذكر مبانى الفُرْس المشهورة

ومبانى الفرس كثيرة : قديمة وحديثة .

٥ فمن قديمها "سَدُّ اللِّبِن" . بناه قُبَاذ بن فيروز ، وقيل إن الذى بناه آبنه كسرى آبن قباذ بن فيروز . كذا ورد فى التاريخ .

وهذا السدّ من أرض شَرْوانَ إلى بلاد الّلان ، و بينهما مائة فرسخ ، بين شعاب جبل القَبْق . وهو جبل عظيم قد آشتمل على آثنتين وسبعين أمّة ، لكل أمّة لسان وملك ، لا يعرف بعضهم بعضا لكثرة غياضه وأشجاره ؛ وفيه عيون وأنهار ؛ وتقدير
١٠ مسافته طولا وعرضا نحوُ شهرين .

ومبدأ السُّور من جوف بحر الخَزَر على مقدار مسافة ميل مارّا إلى البرّ، ثم يمرّ إلى أن يتصل بقلعة طبرشروان . وهو مبنىّ بالصخر والحديد والرَّصاص . بناه على زِقَاق البقر المنفوخة ، فكان كلما آرتفع البناء نزلت تلك الزِّقاقُ إلى أن آستقرّتْ فى قعر البحر، فغاصتِ الرجالُ بالخناجر فشقُّوها فتمكن البناء . وجعل بين كل ثلاثة أميال من السور
١٥ وأقل وأكثر بابا من الحديد على حسب الطريق التى تجعل من أجله ، وبنى عليه حصنا وأسكن فيه مَنْ يحفظ ذلك الباب ويحرسه .

وزعم المؤرّخون أن سبب بنائه لهذا السور أن الخَزَر كانت تُغير على بلد فارس إلى أن تبلغ هَمَذان والموصل، فحجزهم بهذا السور .

ومن مبانى الفرس إيوان كسرى

زعم المسعودىّ أن سابُورَ ذا الأكتاف بناه فى نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع فى عرض خمسين ذراعا فى آرتفاع مائة ذراع ، وطول كل شُرْفة منه خمسة عشر ذراعا .

ولما ملك المسلمون المداين ، أحرق ستر هـذا الإيوان فأخرجوا منه مائة ألف دينار ذهبا .

ولما بنى المنصور بغداد، أحب أن ينقُضَه ويبنيها به، فاستشار خالد بن برمَك فى ذلك فنهاه، وقال : "هو آية للإسلام، ومن رآه علم أن الذى بناه لا يُزيل ملكه إلا نبىّ والمؤُونة على نقضه أكثر من الآرتفاق به". فقال له : "أبيتَ إلا ميلا إلى العجم" فهُدِمت منه ثلمةٌ . فبلغت النفقةُ عليها مالا كثيرا ، فأمسك المنصور عن هدمه، فقال له خالد : "أنا الآن، يا أمير المؤمنين، أشير بهدْمه لئلا يتحدّث الناس بعجزك عن هَدْم ما بناه غيرك" فلم يفعل .

وحكى مثل هـذه القصة أنها وقعتْ ليحى بن خالد مع الرشيد ، وهو إذ ذاك فى آعتقاله . وكان الرشيد بلغه أن تحته كنزا فأراد هَدْمه وآستشار يحيى فأشار عليه بمثل هذا .

ومن عجيب ما يحكى من تقلب الأحوال أن بعض شُرُفاته هُدمت وجُعِلت فى أساس سور بغداد .

وقال آبن الأثير فى تاريخه إن الإيوان باقٍ إلى الآن . (وكان يوم ذاك فى سنة خمس وعشرين وستمائة)، والله أعلم .

ومن المباني القديمة الحَضْر

وكان حِصْنا حصينا مبنيًّا بالرُّخام، يسكنه ملوك الضَّيَازن. وهو بين دِجْلة والفرات، بحيال تكريت.

ويقال إن بانيه الساطِرُون. وذُكر أن قصر ملكه قائمٌ إلى وقتنا هذا في وسط المدينة، وفي وسطه هيكلٌ مربّعٌ مبنيٌّ بالصخر، وفيه صور دقيقة المعاني.

حكى أن سابورَ الجنودِ حاصره أربع سنين فلم يقدر عليه. واتفق أن بنت ملكه وهي النضرة[1] بنت الضَّيْزَن حاضت، فأُخْرِجت من القصر إلى رَبَضه لأجل ذلك. فرأت سابورَ، وكان جميل الصورة، فعشقته. فأرسلت إليه تقول: إن ملَّكْتُك الحصن فما تجعل لي؟ قال: حَكَّمْتك. قالت: تتزوجُ بي. فأجابها إلى ذلك، فقالت له: خُذْ حمامة ورقاء مطوّقةً، فاخضِب رجليها بدم حيض جاريةٍ بكر زرقاءَ، وأرسِلْها. فإنها تقع على سور البلد فيقع لوقته. وكان ذلك حلَّ طِلَّسْمٍ له. ففعل ذلك، فوقع السُّور ودخل سابور الحصن وقتل مِلكَه وأصحابَه واصطفى ابنته لنفسه. فلما كانت ليلةُ دخولها عليه، لم تزل متململة قَلِقة طول ليلتها، فالتمس سابورُ ما الذي قلِقَتْ من أجله، فاذا ورقةُ آسٍ قد لصقتْ بعُكْنة من عُكَنها، فقال لها: ما كان أبُوكِ يغْذُوكِ؟ فقالت: الزُّبد والمُخ وشُهد أبكار النحل والخمر، فقال لها: أنا أحقُّ منكِ بثار أبيكِ، ثم أمر رجلا أن يركب فرسا جَمُوحا وأن يربِطَ غدائرها في ذَنَبه ويركُضَ به. ففعل ذلك، فتقطَّعت.

---

(١) في ياقوت: "النضيرة".

وهذا الحصن قد ٱختُلف فى موضعه. فقيل: بجبال تَكْرِيت بين دَجْلة والفرات. وقيل: بالجزيرة. ويقال إنه كان حاجزا بين الرُّوم والفُرس، وملكَتْه الزَّبَّاء بنت مليح[1] وٱسمها فارعة.

وفيه يقول عدىّ بن زيد العِبَادىّ من قصيدة:

وأخو الحَضْر إذ بَنَاه وإذ دِجْـ * ـلةُ تُجْبَى إليـه والخـابُورُ ٥

شادَهُ مَرْمراً وجَلَّلَه كِلْـ * ـساً فللطَّيرِ فى ذُراه وُكُورُ

لم يَهَبْه ريب المنون فبـاد الـ * ـمُلْكُ عنـه فبـابُه مهجُورُ

ومن المبانى القديمة القَلِيس

وهى كنيسة كانت باليمن بناها أبرهة بن الصباح، ملك اليمن بصنعاء. ونقل إليها الرخام المجزّع والملوّن، والحجـارة المنقوشة بالذهب من قصر بِلْقِيس. وكان أراد أن يرفع ١٠ بناءها حتّى يشرِف منها على بحر عدن. فلما أهلكه الله تعـالى وفرّق ملكه، أقفر ما حول هـذه الكنيسة، وكثُرت حولهـا السِّباع والحَشَرات. وبقيت إلى زمن السَّـفّاح فذُكر له أمرها، فبعث إليها من خَرّبها وأخذ ما كان فيها. حكى ذلك السهيلى فى "الروض الأنف".

وحكى أن كيفية بنـاء هذه الكنيسة أنه كان لهـا بابٌ من نحاس طولُه عشرة ١٥ أذرع وعَرْضه أربعـة أذرع، يدخل منه إلى بيتٍ طوله ثمـانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا، مسقّف بالساج المنقوش، مسمَّر بمسامير الذهب والفِضّة. ثم يُدْخَل من البيت إلى إيوانٍ معقود طوله أربعون ذراعا، عن يمينه ويساره عُقود مزخرفة.

(١) كذا فى الأصل "بنت فريع". وذكر فى تاج العروس فى مادة زبب أنها بنت عمرو بن الظارب وأن ٱسمها بارعة أو ميسون أو نابلة. فتنبه. ٢٠

ثم يُدخَل من الإيوان إلى قبّة، ثلاثون ذراعا فى ثلاثين ذراعا، جُدُرها مموّهة بالذهب والفضة. وفى صدر القُبَّة مِنْبر من الآبنوس المرصَّع بالعاج، المصفَّح بالذهب والفضة. ولما تم بناؤها، خرج رجلٌ من بنى كنانة فقعد فيها ليْلا (أى أحدث). فأغضب أبرهةَ ذلك، فحلف ليهدمنّ الكعبةَ، فخرج بجيشٍ كثيفٍ من الحبشة، فكان من أمره ما قصه الله تعالى فى كتابه العزيز فى سورة النمل: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

وذُكر لى أن الذى خرّبها العباسُ بن الربيع بن عبد الله العامرىّ، عامل المنصور على اليمن.

ومن المبانى المشهورة قنطرة صَنْجَة

وهى من مبانى الروم على نهر عظيم يسمَّى بهذا الاسم. يصُبُّ فى الفُرات، لا يمكن خوضه: لأن قراره رمل سائل متى وطئه الإنسان برجله سال. وهو ما بين حِصن منصور وكَيْسوم من ديار بكر.

وهذه القنطرة طاقٌ واحد، ما بين جُدْرانها مائةُ خطوة. وهى مبنية بحجارة مهندَمة، طول الحجر منها عشرة أذرع فى ارتفاع خمسة أذرع.

ومن المبانى القديمة مَلْعبا بعلبك

وهما كبير وصغير.

فالكبير، يُحكى أنه من بناء سُلَيْمان بن داود عليهما السلام. وهو مبنىّ على عَمَد شاهقة. وحجارتُه منها ما هو عشرة أذرع وأكثر.

(١٣٣) والمَلْعَب الصغير تهدّم أكثره، وبقى منه حائط طوله عشرون ذراعا وآرتفاعه كذلك، ليس فيه إلا سبعة أحجار: واحد من أسفله، وحجران فوقه، وأربعة أحجار فوقهما.
ويقال إنه البيت الذى كان فيه الصنم الذى كان يدعى "بعلا".

ذكر مبانى العرب المشهورة

٥ وهى غُمْدان، وحصن تَيْما، والخوَرْنَق، والسَّدِير، والغَرِيَّان.

قال الجاحظ: أحبَّت العرب أن تشارك الفرس فى البناء وتنفرد بالشعر، فبنَوْا: غُمْدان، وكعبة نَجْران، وحِصن مارِد، والأبْلَقَ الفردَ.

فأما غُمْدان

فكان بصنعاء. زعم بعض المؤرّخين أن بانيه حام بن نوح. وزعم آخرون أن بيوراسب بناه على آسم الزُّهَرة. ١٠

وقال آبن هشام إن الذى أسسه يَعْرُب بن قَحْطان، وأكمله بعده وائلُ بنُ حِمْير آبن سبإ بن يعرب. وخرّبه عثمانُ بن عَفّان، رضى الله عنه.

وقيل فى صفته إنه كان مُرَبَّعا، أحدُ أركانه مبنىّ بالرخام الأبيض، والثانى بالرُّخام الأصفر، والثالث بالرخام الأخضر، والرابع بالرُّخام الأحمر. وفيه سبعة سُقُوف طِباقًا، ما بين السَّقْف والآخر خمسون ذراعا. وعلى كل ركن تِمْثالُ أسدٍ من نُحاس، ١٥ إذا هبَّت الريح دخلت من دُبُره وخرجت مِنْ فيه، فيسمعُ لها صوت كزَئير الأسد.

وقال آبن الكلبىّ: كان على كل ركن من أركان غُمْدان مكتوب "اسلَمْ غُمْدانُ، مُعاديك مقتولٌ بسيف العُدْوانْ".

ويقـال : إن سليمان بن داود عليهما السـلام أمر الشياطينَ أن يبنُوا لِبلْقِيس أربعة قصور : غُمْدان ، وصِرْواح ، وبَيْنِين ، وسَلْحِين . وكلُّها باليمن .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : لا يستقيمُ أمر العرب ما دام فيها غُمْدانها . وهذا القول هو الذى حضّ عثمان على هدمه .

٥ ويقال إن آثاره باقية إلى عصرنا هذا ، وإنه تلٌّ عالٍ مطلٌّ على صنعاء .

وأما حصن تَيْمـاءَ

فهو الأبلَقُ الفَرْد . سُمّى بالأبلق الفرد لأنه كان مبنيا بحجارة مختلفة الألوان وهو بأرض تَيْمـاء .

بناه السَمَوْءل بن عاديا اليهودىّ . ويقال إنه من بناء سليمان بن داود عليه السلام .

١٠ وبه تضرب العربُ المَثَل فى المَنَعة والحَصَانة . وفيه يقول الشاعر :

طَلَبَ الأبْلَقَ العَقُوقَ فلمَّا ﴿ لم يَنَلْهُ فرام بَيْضَ الأَنُوقِ .

وقصدت الزَّبَّاءُ هذا الحصن وحِصْنَ مارِدٍ فلم تقدر عليهما ، فقالت : "تمرّدَ ماردٌ وعَزَّ الأبْلَقُ" .

ومارد حصن كان بدُومَة الجَنْدل ، مبنىّ بحجارةٍ سود . ويقال إنه أيضا من بناء السموءل بن عاديا ، اليهودىّ .

وأما الخَوَرْنَق والسَّدِير

فكان الخورنق على ثلاثة أميال من الحِيرة ، والسَّدِير فى برّيةٍ بالقُرْب منها .

بناهما النعمان بن آمرئ القيس ، وهو النعمان الأكبر . ويقال فى سبب بنائه لهما : ن يَزْدَجُرْد بن سابور كان لا يَعيش له ولد ، فسأل عن مكانٍ صحيح الهواء ، فذُكر له

ظَهْرُ الحيرة . فدفع ٱبنــه بَهْرام جُور إلى النعمان وأمره ببناء الخورنق . فبناه على نهر سنداد في عشرين سنة . بناه له رجل يسمَّى سِنِمَّار .

فلما فرغ من بنائه، عَجِب النُّعمانُ من حسن بنائه وإتقانه، فأمر أن يلقى سِنِمّار من أعلاه حتّى لا يبنِيَ مثله لأحد . ويقال إنه إنمـا فعل ذلك به لأنه لمـا أعجبه، شَكَره على عمله ووَصَله . فقال : لو علمتُ أن الملك يحسن إلىّ هـذا الإحسان، لبنيتُ له بناء يَدُور مع الشمس كيفما دارت . فقـال له النعمان : وإنك لتقدر على أن تبنِيَ أفضل منه، ولم تبنه ؟ فأمر به، فطُرِح من أعلاه .

وقيل : بل قال : أنا أعرف فيه حجرا متى أُخذ من موضعه، تداعى البناء . فخاف النعمان إن هو لم يُنْصفه في أجرته فعل ذلك، فقتله .

والعرب تضرب المثل بفعل النُّعمان مع سِنِمَّار في المكافأة على الفعل الحَسَن بالقبيح، فيقال : جازاه مُجَازاة سِنِمَّار .

وفيه يقول بعض الشعراء :

جَزانِى جَزَاه اللهُ شَــرَّ جَزَائه * جَزَاءَ سِنِمَّارٍ، وما كانَ ذَا ذَنْب .

سوى رفعِه البُنْيانَ عِشْرِينَ حِجَّةً * يُعَلِّ عليـه بالقَرَامِيدِ والسَّكْب .

والخَوَرْنق تعريب خُورَنْقاه(1)، وهو الموضع الذى يؤكل فيه ويشرب . والسَّـدِير تعريب سادل أى قُبَّة في ثلاث قِباب متداخلة .

وفي هذه الأبنية يقول الأسود ٱبن يَعْفُر :

ماذا أُؤَمِّلُ بَعْـــدَ آلِ مُحَـــرِّقٍ * تَرَكُوا منازِلَهُمْ، وبَعْـــدَ إيادِ؟

أهلِ الخَوَرْنَقِ والسَّـدِيرِ وبارِقٍ * والقَصْرِ ذِى الشُّرُفاتِ من سِنْداد .

(1) والأصح خانقاه . (من هامش الأصل) .

وقال عديّ بن زيد العِبَاديّ :

وتفكَّرْ ربُّ الخوَرْنقِ إذ أشْـــرفَ يَوْماً ، وَلِلهُدى تَفْكيرُ.
سَرّه مُلْكُه وكثرةُ ما يَحْـــوِيهِ والبحرُ مُعْرِضاً والسَّديرُ.
فَارْعَوى قلبُه ، فقال : فما غِبْـــطةُ حَيٍّ إلى المَمَات يَصيرُ؟

وأما الغَرِيَّان

فهما أسطوانتان كانتا بظاهر الكوفة .

بناهما النعمان بن المنذر بن ماء السماء، على جاريتين كانتا قَيْنَتَين تغنّيان بين يديه، فماتتا، فأمر بدفنهما وبنى عليهما الغريَّيْن .

ويقال إن المنذر غزا الحارث بن أبي شَمِر الغسّانيّ، وكان بينهما وقعة على عين أُبَاغ، وهي من أيام العرب المشهورة . فقُتِل للحارث ولدان، وقُتِل المنذر وآنهزمت جيوشه. فأخذ الحارث ولَدَيْه وجعلهما عِدْلين على بعير، وجعل المنـذر فوقهما، وقال : "ما العِلَاوة بدُون العِدْلين!" فذهبت مثلا. ثم رحل إلى الحيرة فآنتهبها وحرّقها ودفن آبنيه بها، وبنى الغَرِيَّين عليهما . حكاه آبن الأثير في تاريخه "الكامل" .

وأمر المنصور بهدم أحدهما، لكنز توهّم أنه تحتهما . فلم يجد شيئا .

وقيل في سبب بنائهما غير ذلك . والله أعلم .

ذكر الأبنية القديمة التي بالديار المصرية

وهي الأهرام، وحائط العَجُوز، ومَلْعب أَنْصِنا، ومدينة عَيْنِ شَمْس، والبَرابي، وحَنِيَّة اللازَوَرد، ومنارة الإسكندرية، ورُواق الإسكندرانيين .

فأما الأهرام

التى بأرض مصر فهى كثيرة . وأعظمها الهَرَمان اللذان بالجيزة غَربىّ مصر . وقد آختلف فى بانيهما .

فقال قوم : بانيهما سُوريد بن سهلوق بن سرناق . بناهما قبل الطوفان لرؤيا رآها، فقصّها على الكَهَنة، فنظروا فيما تدل عليه الكواكب النيرة من أحداث تحدث فى العالم، فأقاموا مراكزها فى وقت المسألة . فدلت على أنها نازلة من السماء تحيط بوجه الأرض . فأمر حينئذ ببناء البَرَابى والأهرام، وصوّر فيها صُور الكواكب ودَرَجها وما لها من الأعمال وأسرار الطبائع والنواميس وعمل الصنعة .

ويقال إن هرمس المثلث بالحكمة (وهو الذى يسميه العبرانيون أَخْنُخ، وهو إدريس عليه السلام) آستدلّ من أحوال الكواكب على كَوْن الطوفان . فأمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائفَ العلوم وما يُخاف عليه الذهابُ والدُّثور .

وكل هَرَم منها مربع القاعدة، مخروط الشكل، آرتفاع عموده ثلثمائة ذراع وسبعة عشر ذراعا، يحيط به أربعة سطوح متساوياتُ الأضلاع، كل ضِلَع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعا، ويرتفع إلى أن يكون سطحُه مقدارَ ستة أذرع فى مثلها .

ويقال إنه كان عليه حجر شبه المِكَبَّة فرمته الرياح العواصف .

وهو مع هذا العظم من إحكام الصنعة وإتقان الهندسة وحسن التقدير بحيث إنه لم يتأثر إلى يومنا هذا بعصف الرياح وهطل الأمطار وزَعْزَعة الزلازل ؛ وطولُ الحجر منه خمسة أذرع فى سَمْك ذراعين .

و يقال إن بانيهما جعل لهما أبوابا على آزاجٍ مبنيةٍ بالحجارة فى الأرض ، طول كل أَزَجٍ منها عشرون ذراعا . وكل باب من حجر واحد يدور بلولب ، إذا أطبق لم يعلم أحد أنه باب . فأَزَجُ الشرقىّ منها فى ناحية الجنوب ، وأَزَجُ الغربىّ فى ناحية الغرب . يُدْخَل من كل باب منها إلى سبعة بيوت ، كل بيت منها على آسم كوكب من الكواكب السبعة ؛ وكلها مُقْفَلة بأقفال . وحِذاءَ كل بيت منها صنم من ذهب مجوف ، إحدى يديه على فيه ، وفى جبهته كتابةٌ بالمُسْنَد إذا قرئت آنفتح فوه فتوجد فيه مفاتيح ذلك القفل فيفتح بها .

والقبط يزعمون أنها والهرمَ الصغير الملوّن قبورٌ : فالهرم الشرقىّ فيه سوريد الملك ، وفى الهرم الغربىّ أخوه هوجيت(١) .

والصابئة تزعم أن أحدها قبر أغاثُذِيمُون ، والآخر قبر هرمس ، والملوّن قبر صاب ابن هرمس ؛ و إليه تنسب الصابئة على قول من زعم ذلك منهم ؛ وهم يحجُّون إليها و يذبحون عندها الدِّيَكة والعجول السُّودَ ، ويُبَخِّرون بدُخَن ؛ و يزعمون أنهـم يعرفون عند آضطراب ما يذبحون حالةَ الذبح ما يريدن عمله من الأمور الطبيعية .

وقَصُرت هممُ الملوك والخلفاء عن معرفة ما فى هـذين الهرمين ، إلى أن وَلى عبد الله المأمون الخلافةَ وورد مصر ، أمر بفتح واحد منها . ففتح بعد عناء طويل ، وآتفق لسـعادته أنه وقع النَّقْب على مكان يسلك منـه إلى الغرض المطلوب ، وهو زَلَّاقة ضيقة من الحجر الصوّان المـانع الذى لا يعمل فيه الحديد ، بين حاجزين ملتصقين بالحائط قد نُقِر فى الزَّلَّاقة حُفَر ، يتمسك السالك بتلك الحفر ، و يستعين بها

(١) كذا بالأصل وكذلك فى خطط المقريزى . وفى ياقوت "هوجيب" .

على المشى فى الزُّلَّاقة لئلا يَزْلَق ، وأسفل الزلاقة بئر عظيمة بعيدة القعر . ويقال إن أسفل البئر أبواب يُدْخَل منها إلى مواضع كثيرة وبيوت ومخادع وعجائب . وٱنتهت بهم الزُّلَّاقة إلى موضع مربَّع فى وسَطه خوض من حجر صَلْد مغطًّى. فلما كُشِف عنه غطاؤه، لم يوجَد فيه إلا رِمّة بالية. فأمر المأمون بالكف عما سواه.

(١٣٥) وهذا الموضع يدخله الناس إلى وقتنا هذا . ٥

وسنذكر إن شاء الله تعالى خبر الأهرام عند ذكرنا لأخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده، وذلك فى الباب الثانى من القسم الرابع من الفن الخامس، وهو فى السفر الثانى عشر من هذه النسخة من كتابنا هذا فتأمله هناك .

وقال بعض أهل النظر، وقد عاين الأهرام : "كلُّ بناءٍ يُخاف عليه من الدهر، إلا هذا البناء فإنى أخاف على الدهر منه" . ١٠

ونظم عمارة اليمنىّ هذا القول، فقال :

خَليلَىَّ، ماتحتَ السماءِ بَنِيَّةٌ * تُماثِلُ فى إتقانِها هَرَمَىْ مِصْرِ!
بِناءٌ يَخافُ الدهرُ منه، وكلُّ ما * على ظاهرِ الدنيا يَخَاف من الدهْرِ !
تَنَزَّه طَرْفِى فى بَدِيع بنائها، * ولم يتنزَّهْ فى المُراد بها فكرى.

وقال بعض الشعراء : ١٥

حَسَرتْ عقُولَ ذَوِى النُّهىِ الأهْرامُ، * وٱستصغرتْ لعظيمها الأعْلامُ.
مُلْسٌ مُنَيَّفَةُ البِناءِ شَواهِقٌ، * قَصُرت لعالٍ دُونَهنّ سِهامُ!
لم أدْرِ حين كَبَا التفكُّرُ دُونَها * وٱستبْهَمَتْ لعَجِيبها الأوهامُ،
أقُبورُ أمْلاكِ الأعاجم هنّ، أمْ * طِلَّسْمُ رَمْلٍ هُنّ، أم أعلامُ؟

وقال أبو الطيّب المتنبي :

أيْنَ الذى الهرمان من بُنيانه؟ ما قومُه؟ ما يومُه؟ ما المَصْرَعُ؟
تتخلّفُ الآثارُ عن أصحابها حِيناً، ويُدركها الفناءُ فتتبعُ.

وقال أُميّة بن عبد العزيز الأندلسيّ :

٥ بعَيشك هل أبصرتَ أحسنَ منظرًا على طُولِ ما عاينتَ من هَرَمَىْ مِصر؟
أنافا بأعنان السّماءِ وأشرفا على الجوّ إشرافَ السِّماكِ أو النّسر.
وقد وافيا نَشزًا من الأرض عاليًا كأنّهما ثَديانِ قاما على صَدْر.

وقال آخر :

أُنظُرْ إلى الهرمَين إذ بَرَزا للعَيْنِ في عُلوٍ وفي صَعَد!
١٠ وكأنما الأرضُ العَريضةُ إذ ظَمِئتْ لفَرْطِ الحرِّ والوَمَد.
حَسَرتْ عن الثَّدْيين بارزةً تَدْعُو الإلٰهَ لفُرْقةِ الوَلَد.
فأجابها: أَبَّيْكِ! بُوسعها رِيًّا ويَشفِيها من الكَمَد.

وقال ابن الساعاتيّ :

ومن العجائبِ، والعجائبُ جَمّةٌ دقّتْ عن الإكثارِ والإسهاب.
١٥ هَرَمانِ قد هَرِمَ الزمانُ وأدبرتْ أيّامُه، وتَزِيدُ حُسْنَ شَباب.
لله! أيُّ بَنِيّةٍ أزليّةٍ تَبغِي السَّماءَ بأطولِ الأسباب؟
ولرُبّما وقفتْ وُقُوفَ تَبلُّدٍ أسَفًا على الأيّامِ والأحقاب.
كتمتْ عن الأسماعِ فَصْلَ خِطابِها وغدتْ تُشيرُ به إلى الألباب.

وقال سيف الدين بن جُبارة :

لله! أىّ غريبـــةٍ وعجيبـــةٍ * فى صَـــنْعة الأَهْرام للألباب؟
أخفَتْ عن الأسماع قِصّةَ أهلها، * ونَضَتْ عن الإبْداع كلَّ نِقَاب.
فكأنّمــا هى كالخيام مُقامــةٌ * من غير ما عَمَـــدٍ ولا أَطْناب.

ومن رسالة لضياء الدين بن الأثير الجزرىّ فى ذكر مصر ووصف الأهرام، جاء منها:

«بلدٌ أشهَدُ بفضله على البلاد، ووجدتُه هو المصرَ وما عداه فهو السَّواد . فما رآه راءٍ إلا ملأ عينَه وصدرَه، ولا وصفه واصف إلا علم أنه لم يقدُرْه قَدْره . وبه عجائبُ من الآثار، لا يضْبطها العِيَانِ ولا الإخبار . فمن ذلك الهَرَمان، اللذان هَرِم الدهرُ وهما لا يَهْرَمان؛ قد آختص كل منهما بعظم البِناء، وسَعةِ الفِناء، وبلغ من الآرتفاع غايةً لا يبلغها الطيرُ على بُعْد تحليقه، ولا يُدرِكها الطَّرْف على مدّة تحديقه؛ فإذا أُضْرِم برأسه قَبَسٌ ظنه المتأمل نجْما، وإذا آستدارت عليه قوسُ السماء كان لها سَهْما» .

وبالقرب من الأهرام صنم على صورة إنسان، تسميه العامة "أبو الهول" لعظمه . والقبط يزعمون أنه طِلَّسم للرمل الذى هناك، لئلا يغلب على أرض الجيزة .

وأما حائط العجوز

والعجوز هى دَلُوكا ملكة مصر .

وهذا الحائط من العريش (وهو حدّ مصر من جهة الشام) إلى أسوان (وهى حدّ مصر من جهة النوبة)، شاملا للديار المصرية من الجانب الشرقىّ .

وزعمت القبط أنّ سبب بنائها أن الله عز وجل لمــا أغرق فرعونَ وقومه، خافت دَلُوكا على مصر أن يطمع الملوكُ فيها . فبنَتْه، وزوّجت النساءَ بالعبيد حتّى يكثرَ النَّسل والذرية .

وقيل فى سبب بنائه : إن دَلُوكا ولدت ولدا فأخذت لمولده رصدا ، فرأت أن التمساح يقتُله ، فبنت هــذا الحائط وقايةً له من التّمساح . فلمــا شبّ الغلام رأى فى مولده ذلك ، فأحب أن يراه . فصُوِّر له من خشب . فلمــا رآه ، هاله منْظَرُه وآستولى على نفسه الوهم والفزع ، فمات[1] .

وأما ملعب أنْصِنا

فإنه كان مقياسا للنيل .

و يقال : إنه من بناء دَلُوكا . وكان بناؤه كالطَّيْلسان ، وعليه أعمدةٌ بعدد أيام السنة من الصوّان الأحمر المــاتع ، بين العمود والعمود خَطْوة . وكان النيل يدخل إليــه من فُوهَةٍ فيه عند زيادة النيل . فاذا بلغ الحدّ الذى يحصُل به الرِّىّ ، جلس الملك فى مُشْترف له ، و يصعد قوم إلى رءوس الأعمدة فيتعادَوْن عليها مابين ذاهب وآت . فمن زلّت به قدمه منهم ، سقط إلى البِرْكة .

وأما مدينة عين شمس

فهى من المبانى التى دَرَسَتْ .

وكانت مصرَ فرعونِ موسى ، ومنها خرج بجنوده فى طلب موسى و بنى إسرائيل ؛ وكانت عدّتهم ستمائة ألف ، ليس فيهم آبن عشرين سنة ولا آبن ستين سنة . وآستقلّ فرعون هــذا العدد وقال كما أخبر الله تعــالى عنه : (إنَّ هؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) . وكان بها هيكل الشمس نخرِب .

(١) لم يرض آبن فضل الله بذكر هذه الخرافة فى كتابه . وقد وصف لنا جزءا من هذا السور (أنظر مسالك الأبصار المطبوع ، ج ١ ص ٢٣٩) .

والقُرس تزعم أن هرسيك بناها .

ويقال : إنه كان قد بقى منها عمودان من حجر صلد، فلكاتُ طولِ كل عمود منهما أربعة وثمانون ذراعا ، على رأس كل عمود صورةُ إنسان على دابة ، وعلى رأسيهما شبهُ الصومعتين من نحاس . فإذا كان (اللَّيْلُ)، قَطَر من رأس كل واحد منهما ماء لا يتجاوز نصف العمود الذى هو مركب عليه . والموضع الذى يصل إليه الماء ٥ لا يزال أخضر رطبا .

وقد وقع العمودان بعد الخمسين وستمائة .

وأما البرابى

وهى بيوت حكمة القبط . ويقال : إنه كان لكل كُورة من كُوَر مصر بِرْباةٌ، يجلس فيها كاهن على كرسىّ من ذهب . ١٠

ومن أعجب البرابى وأعظمها (برباةُ إخميم) . وهى مبنية بحجر المَرْمر، طول كل حجر خمسة أذرع فى سَمك ذراعين . وهى سبعة دهاليز، سقوفها حجارة، طول كل حجر منها ثمانية عشر ذراعا فى عرض خمسة أذرع، مدهونة باللَّازَوَرد وسائر الاصباغ، يخالها الناظر إليها كأنما فَرغ الدهَّان منها . يقال إن كل دهليز منها على آسم كوكب من الكواكب السبعة . وجُدْران هذه الدهاليز منقوشة بصُور مختلفة الهيئات ١٥ والمقادير، يقال إنها رموز على علوم القبط، وهى : الكيمياء، والسِّيمياء، والطِّلَّسْمات، والطب . أودعوها هذه الصور .

ويقال إن ذا النون المصرىّ العابد فكَّ منها علم الكيمياء .

وأما حَنِيَّة اللازورد

وهي بأرض مَنْف، ومَنْف هذه هي التي تسمّى مصر القديمة .

يقال إن عَقْد الحَنِيَّة أحسنُ من عَقْد قنطرة صَـنْجة التي تقدّم ذكرها. والحَنِيَّة معقودة من حجارة مهندمة ، طولُ كل حجر منها أكثر من خمسة عشرَ ذراعا . وفيها نقوش وكتابة وطِلَّسْمَات مموّهة باللّازورد . وهي من الشرق إلى الغرب، وفي صدرها فَضَاء فيه بناء مرتفع، عليه بَلَاطةٌ من الصوّان الأسود، مكتوب فيها بالقلم البِرْباوى ثلاثون سطرا . يقال إنه قبر الذى بنى الحَنِيَّة ، وأنه دِيساره : ملك كان بمصر ، حكيمٌ .

وللقبط عيد يسمّى ديساره : وهو عيد هذا الملك، ويسمّى عيد العنب .

وأما منارة الإسكندرية

فهي مبنية بحجارة مهندمة مضَبَّبة بالرصاص، على قناطر من زجاج، والقناطر على ظهر سَرَطان من نحاس . وفيها نحو ثلثمائة بيت بعضُها فوق بعض، تصعَدُ الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها . وللبيوت طاقات يُنْظر منها إلى البحر .

وبين أهلِ التاريخ خلافٌ فيمَن بناها .

فزعم بعضُهم أنها من بناء الإسكندر بن فيلبّس المَقْدونىّ . وزعم آخرون أنها من بناء دَلُوكا ، ملكة مصر . ويقال إن على جانبها الشرقىّ كتابةً ، وإنها نقلت إلى اللسان العربىّ فوجدت "بَنَتْ هـذه القنطرة فرتنا بنت مرتيوس اليونانية لرصد الكواكب" .

ويقال : إن طولها كان ألف ذراع .

وكان فى أعلاها تماثيل من نحاس .

منهـا تِمْثال قد أشار بسبابته اليمنى نحو الشمس : أينما كانت من الفلك ، يدور معها حيثما دارت .

ومنها تِمْثال وجهه فى البحر متى صار العدوّ منهم على نحو من ليلة ، سُمِـعَ له صوت هائل يعْلَم به أهل المدينة طُروقَ العدوّ . ٥

ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة ، صوّت صوتا مطربا .

ويقال : إنه كان بأعلاها مرآة تُرى منها قُسْطنطينيَّة ، وبينهما عرض البحر . وكلما جهز الروم جيشا رؤى فى المرْآة .

وحكى المسعودىّ فى "مروج الذهب" أن هـذه المنـارة كانت فى وسـط الإسكندرية ، وأنها تعدّ من بنـاء العالَم العجيب ، بناها بعض البَطالسة من ملوك اليونان يقال له الإسكندر ، لـمّا كان بينهم وبين الروم من الحروب فى البرّ والبحر . فجعلوا هذه المنارة مَرْقَبا ، وجعلوا فى أعلاها مِرْآة من الأحجار المُشِفَّة ، تشاهَد فيها مراكب البحر إذا أقبلت من رُومِيَة على مسافة تعجِز الأبصار عن إدراكها . ١٠

ولم تزل كذلك إلى أن ملكها المسلمون ، فآحتال ملك الروم على الوليد بن عبدالملك بأن أنفذ أحد خَواصِّه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام على أنه راغب فى الإسلام . فوصل إلى الوليد وأظهر الإسـلام ، وأخرج كنوزا ودفائن كانت فى الشام حملت الوليد على تصديقه فيما يدّعيه . ثم قال له : إن تحت المنارة أموالا ودفائنَ وأسلحة ، دفنها الإسكندر . فصدّقه وجَهّزه مع جماعة من ثقاته إلى الإسكندرية ، فهدم ثلث ١٥

المنارة وأزال المِرْآة ، ثم فطن الناس أنها مكيدة ، فآستشعر ذلك فهرب فى مركب كانت معدّة له . ثم بُنِي ما هُدِم بالجص والآجُرّ .

ثم قال المسعودىّ : وطول المنارة فى هذا الوقت (يعنى الوقت الذى وضع فية كتابه ، وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة) مائتان وثلاثون ذراعا . وكان طولها قديما نحوا من أربعمائة ذراع .

وهى فى عصرنا هذا ثلاثة أشكال : فمنها تقدير الثلث مربع مبنىّ بالحجارة ، ثم بعد ذلك بناء مُثَمَّنُ الشكل بالآجُرّ والجص نحو ستين ذراعا ، وأعلاها مدوّر الشكل .

ويقال إن أحمد بن طولون بنى فى أعلاها قبة من الخشب فهدمتْها الرياح . فبنى فى مكانها مسجدا فى الدولة الظاهرية الركنية بيبرس صاحب مصر رحمه الله تعالى . ثم هُدِم فى ذى الحجة سنة آثنتين وسبعمائة بسبب الزَّلْزلة الحادثة . ثم بنى فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة فى دولة السلطان الملك الناصر ولد السلطان الملك المنصور، ثبت الله دولته ، وكان المندوب لذلك الأميرَ ركنَ الدين بيبرس الدَّوَادار المنصورىّ ، نائب السلطنة الشريفة فى الغيبة .

وقد وصف الشعراء منارة الإسكندرية .

فمن ذلك ما قاله الوجيه الدروىّ :

وساميةِ الأرجاءِ تُهدى أخا السُّرى * ضياءً، إذا ما حِنْدِسُ الليلِ أظْلَما .
لبِسْتُ لها بُرْدا من الأُنْسِ ضافيا * فكانَ بتَذْكار الأحِبَّةِ مُعْلَمَا .
وقد ظلّلتْنِي من ذُرَاها بقُبَّةٍ * أُلاحِظُ فيها من صِحَابِيَ أنْجُما .
تُخَيِّلْتُ أنَّ البحْرَ تحْتِي غمامةٌ * وأنِّيَ قد خَيَّمْتُ فى كَبِد السَّما !

وقال أبو الفتح الأغر بن قلاقس :

وَمَنْزِلٍ جاوَزَ الجَوْزاءَ مُرْتَقِيًا * كأنَّما فيه للنَّسْرَيْنِ أَوْكارُ

راسِي القَرارةِ سامِي الفَرْعِ في يَدِه * للنُّور والنُّونِ أَخْبَارٌ وأَخْبَارُ(1)

أَطْلَقْتُ فيه عِنانَ القولِ فاطَّرَدَتْ * خيلٌ لها في بَدِيعِ الشِّعْرِ مِضْمارُ

وأما رواق الإسكندرانيين ٥

فهو مَلْعَب كان بالإسكندرية .

كانوا حكماءَ يجتمعون فيه فلا يرى أحد منهم شيئا دون الآخر، ووجهُ كل واحد منهم — وإن اختلفت جهاتُهم — تلقاء وجه الآخرِ . وإن عمل أحد منهم شيئا أو تكلم ، سمعه الآخَرُ. ونظرُ القريبِ والبعيدِ فيه سواءٌ .

١٠ وقد بقيت منه بقايا عَمَد تكسرت ، غير عمود منها يسمَّى عمود السَّوارى فى غاية الطول والغلظ من الحجر الصوّان الأحمر .

ذكر شيء من عجائب المبانى

قال صاحب كتاب "مباهج الفكر ومناهج العبر" :

(١٣٨) ذكر بعض المصنفين لكتب العجائب ، أن الفرس تزعم أن أوشهنج بنى بأرض بابل سبع مدائن، جعل فى كل مدينة منها أعجوبة ليست فى الأخرى . ١٥

(١) هكذا فى الأصل . وفى بدائع البداءه "أخبار وآثار" و فى مسالك الأبصار "إخبار وأخبار" وهذا الوجه الأخير أولى و يكون المعنى أن هذه المنارة تخبر عن المراكب المضيئة القادمة الى الإسكندرية وأن فيها أخبارا عن السمك السابح فى البحر حولها .

فكان فى الأولى — التى يكون فيها الملك — مثالُ أنهار الدنيا كلِّها . فإذا ٱلتوى عليه أحد من أهل مملكته بخراجهم ، خَرَّج نهرا من تلك الأنهار الشبيهة بنهر تلك الناحية فغَرِقوا . فإذا أدَّوا الخراجَ ، سدّ عليهم من عنده فٱنسدّ عنهم .

وفى الثانية حوض . فإذا أراد الملك أن يجمع الناس لشراب ، أتى من أحبَّ منهم بشراب له خاص فيصبه فى الحوض . يفعل ذلك كل إنسان منهم ، فيختلط الجميع . ثم تقوم السُّقاة فتأخذ الأوانى ويُسْقى كلُّ واحد من شرابه الذى جاء به .

وفى الثالثة طبل . فإذا غاب من البلد أحد وأراد أهله أن يعلموا خبره ، أحىّ هو أو ميت ، ضربوا الطبلَ : فإن كان حيا صوّت ، وإن كان ميتا لم يصوّت .

وفى الرابعة المِرْآة . فإذا غاب الرجل عن أهله وأرادوا أن يعلموا حالَه ، نظروا فى المرْآة فرأَوْه فى الحالة التى هو عليها .

وفى الخامسة إوَزَّةُ نُحاس . فإذا دخل المدينة غريب ، صَفَّرت . فيعلمون أن غريبا دخلها .

وفى السادسة قاضيان جالسان على الماء . فيجىء المُحِقّ والمُبْطِل ليجلسا معهما . فيجلس المحق ، ويرسب المبطل .

وفى السابعة شجرة . لا تظل إلا ساقها . فإذا جلس تحتها واحد أظلته إلى ألف . فإن زاد على الألف واحد ، قعدوا كلهم فى الشمس .

وكنتُ قد أنكرت هذه الحكاية وقصدت حذفها وإلقاءها والإضراب عنها ، فرأيت ٱبن الجوزىّ وضعها فى كتابه الذى سماه "سلوة الأحزان" فأوردتُها .

وحكى أنه كان بمدينة قَيْسَارِيَّة — لما كانت فى أيدى الروم — كنيسةٌ بها مِرْآة، إذا آتهم الرجلُ آمرأته بزنًا ، نظر فى تلك المرآة، فيرى وجه المتَّهم فيها . وأن بعض الناس آتُّهم فرأوه فيها فقتله الملك ، فجاء أهله إلى المرآة حَمِيَّةً فكسروها .

وحكى الواقدىّ فى فتوح السند : أن عبد الله العبدىّ عامل معاوية على السند غزا بلد القِيقَان، فأصابَ منهم غنائمَ كثيرةً، وأن ملك القيقان بعث إليه يطلب منه الفداء وحمل إليه هَدايَا كان فيها قطعة من مِرْآة، يذكر أهل العلم أن الله تعالى أنزلها على آدم عليه السلام ، لما كَثُر ولده وآنتشروا فى الأرض ، فكان ينظر فيها فيرى من بَعُدَ منهم على الحالة التى هو عليها من خير أو شر، فحملها عبد الله إلى معاوية ، فبقيت فى ذخائر بنى أمية إلى أن آنتقل الملك عنهم إلى بنى العباس ، فضاعت فيما فُقِد من الذخائر.(1)

وقيل : إن بِنَهَاوَنْد حجرا يسمَّى الكيلان ، بالقرب منه صخرة ، من أراد أن يتعرّف حال غائب أو آبق أو سارق ، أتى إلى تلك الصخرة فنام تحتها ، فيرى فى النوم حال ما تَعرّف به على ما هو عليه . وعجائب المبانى كثيرة ، سنذكر إن شاء الله تعالى منها جملة فى أخبار ملوك مصر الذين كانوا قبل الطوفان وبعده، فتأمّله هناك تجده .

---

(1) بهامش الأصل ما نصه : " قد ذكر أبو جعفر الطبرى فى تاريخه أن هذه المرآة كانت عند أبى جعفر المنصور فالله أعلم أين صارت بعده" .

الباب الرابع

من القسم الخامس من الفن الأوّل

(فيما وصفت به المعاقل والحصون)

وهذا الباب قد ترجمتُ عليه في الفن الثاني الذي يلي هـذا الفن فيما يحتاج إليه الملك . وإنما ضممتُه إلى هذا الفن لمناسبته له وشَبَهه به ، وآستثنيته من الفن الثاني وآقتصرت فيه على مجرّد الترجمة . وبالله التوفيق .

وقد أوسع الفضلاء والأدباء والكتّاب والبلغاء القولَ في هذا المعنى وتواردُوا فيه ، فاقتصرنا على مانورده من ذلك ، وهو قليل من كثير .

فمن ذلك ما قاله بعض الأندلسيين يصف قلعة فتحت من غير حصار :

« ... وهـذه القلعةُ التي آنتهينا إلى قرارها ، وآستولَيْنا على أقطارها ، أرحبُ المدن أمدا للعيون ، وأخصبها بَلَدا إذا أمحلَت السِّنون ، فُرُوعها فوق الثُّريَّا شامخه ، وعروقها تحت الثَّرى راسخه ، تباهي بأزهارها نجوم السماء ، وتُناجي بأسرارها أُذُنَ الجوزاء ، وكانت في الزمن الغابر ، عتَتْ على عظيم القياصر ، فنازلَهَا بأكثر من النجوم عددا ، وطاولها بأوفى من البحر مَدَدا ، فأبتْ على طاعته كلَّ الإباء ، وآستعصَتْ على مقارعته أشدَّ آستعصاء ، ومَرَدتْ مرود ماردٍ على الزَّبّاء ، فأمكننا الله من ذِروتها ، وأنزل رُكّابَها لنا عن صهْوتها » .

وقال القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني رحمه الله ، يصف آمِدَ من رسالة جاء منها :

«... وآمدُ ذِكْرها بين العالَم متعالَم ، وطالما صادَمَ جانبُها مَنْ تَقادَم ، فرجع عنها مَقْدوعا أنفُه وإن كان لحلا ، وفرّ عَنْها فَريدا بِهمّه وإن آستصحب خيلا ورَجْلا ،

(١٣٩) ورأى حجرها فقدر أنه لايُفَكّ له حَجْر، وسوادها فظن أنه لاينسخه بَخْر، وحَمِيّةَ أنف أنفها فاعتقد أنه لا يستجيبُ لزَجْر، من ملوك كانهم قد طوى صدْرَه على الغليل إلى مَوْردها، ووقف وقفة المحب السائل فلم يَفُزْ بما أمّل من سؤال مَعْهدها» .

وقال من أخرى يصفها :

«... وهى العقيلة التى صَدَرُ الصُّدورِ الأوَلِ ظِمَاءً عن وِرْدها، والطريدة التى حصل منها على راحة يأسه وتعب طَرْدها، والمحتجبة التى كشفت ستورُها، ودار لعصْمتها كسوار مِعْصَمِها سُورُها، وغلَتْ على أنها السوداء على خطّابها لأن المُهَج مُهورُها، ولربما نأى بجانبها الإعراض، ونبا جوهرُها عن الأَعْراض. وطاشَتْ دون أوصافها سِهام الأغراض، ودرَجَتِ الملوك على حسْرتها فلم تحْسَر لها لِثاما، وما آستطاعت لثغرها تَلْما ولا له الْتِثاما» .

وقال من أخرى يصف قلعة نَجْم، وهى من عيون الرسائل. جاء منها :

«... هى نَجْم فى سَحَاب، وعُقَاب فى عِقَاب، وهامةٌ لها الغمامة عِمَامه، وأنملة إذا خَضَبها الأَصِيلُ كان الهلال لها قُلَامه، عاقدةٌ حُبْوةً صالحَها الدهرُ أن لا يَحُلَّها بقَرْعه، بادية عصمة صالحها الزمن على أن لا يروِّعها بخُلْعه، فاكتنفَتْ بها عقاربُ منجنيقات لم تُطْبع طَبْع حِمْص فى العقارب، وضربتها بحجارة أظهرتْ فيها العَدَاوة المعلومة فى الأقارب، فلم يكن غير ثلاثة إلا وقد أثَّرتْ فيها الحجارةُ جُدَرِيًّا بضربها، ولم يصل إلى السابعة إلا والبحرُ مؤذن بنَقْبها، فاتسعَ الخرقُ على الراقع، وسقط سعده عن الطالع، إلى مولد من هو إليها طالع، وفُتِحت الأبراج فكانت أبوابا، وسُيِّرت الجبال فكانت سَرَابا» .

وقال من أخرى في فتح بيت المقدس، جاء منها :

« ... زاوَلَ المدينـةَ من جانب ، فاذا هو أودِيَةٌ عميقة ، ولُجَجُ وَعْرٍ غريقة ؛ وسور قد انعطف عَطْفَ السِّوار ، وأَبْرِجة قد نَزَلَت مكانَ الواسطةِ من عُقْر الدار؛ وقدّم المَنْجنيقات التي تتولّى عقابَ الحصون عِصيُّها وحبَالُهـا ، وأوتر لهم قِسيَّها التي تَضْرِب ولا تفارق سهامَها ولا سهامُها نِصالَها ؛ فصافحت السُّور فإذا سهامُها في ثَنَايا شُرُفاتها سِوَاك ، وقَدَّم النصر بشرى من المنجنيق تُخْـلِد إخلاده إلى الأرض وتعلو عُلُوَّه إلى السِّماك ؛ فشَـجَّ مَرَابع أبراجها ، وأَسْمَعَ صـوتَ عجيجها ، ورفع مَثَـار عَجَاجِها ؛ وأســفَرَ النُّقَّاب عن الخَرَاب النِّقَاب ، وأعاد الحجر إلى خِلْقته الأولى من التُّراب ؛ ومَضَـغ سَرْد حجارته بأنيابِ مِعْوله ، وأظهر من صناعته الكثيفةِ ما يدلّ على لَطَافة أنمله ، وأسمع الصخرةَ الشريفة أنِينَه إلى أن كادت ترقُّ لمقتله » .

وقال أيضا من أخرى :

« ... فنصبْنا عليهـا المَنْجنيقاتِ تمطر سمـاؤُها نَبْلَ الوَبَال ، وتملأ ارضَها بالنِّكاية والنَّكال ، وتهدّ بسارِيَات حجارتها راسِيَاتِ الجبال ، وتُنْزِل نوازلَ الأَسْواء بالأسوار ، وتُوسِع مجالَ الدَّوائر في الدِّيار ، وتَخْطَف بخُطَّافاتها أعمارَ الأغْمار ، وتُطير حَمَامَها بكُتُب الحِمام ، وتديم إغراء سِهامها في أهلها بتوفير سهام الإرغام ، وكَشَفَ النَّقَّابون نِقابَ السُّور المحجوج المحجوب ، فتهدّم بنيانُه ، وتداعت أركانه ، بتظاهر المنجنيقات عليها والنُّقُوب » .

ووصف القاضي الفاضل المنجنيق من رسالة فقال :

« فَسَلَّمتْ كأنَّها بَنَان ، ونضْنَضَت كأنها لسان ، وأطَّت كأنها مِرْنان ، واهتزَّتْ كأنها جانّ ، وتقوّمت كأنها سِنَان ، وانعطفَتْ كأنها عِنَان ، وأقدمت كأنها شُجَاع وأحجمت

كأنها جبان . ورمَتْ رءوسَهم الموقَّرة من أحجارها بأمثال الرءوس المحلَّقه، فأعادَتْهم إلى الخلقة الأولى مخلَّقة وغير مخلَّقه » .

ووصف النامى المنجنيق فقال :

وحِصْنِ زيادٍ غُدوةَ السَّبْت نافثاً * سِمَاما، أراكَ ابْنَ الأراقِم أرقَما .

نصبْتُ له فى الأرض بَيْتَ حَدَيقةٍ * تَمُدُّ لها فى الجو كَفًّا ومِعْصَما . ٥

لها أخَواتٌ للمَنَايَا كَوَامِنٌ * وإنْ لم يكن ما أضمَرَتْه مُكَتَّما .

عَذَارى، ولكن قد وُجِدْن حواملاً * بعُرْس تَرَاه للجَنَادل مَأْتَما .

ترى الصَّخْر فيه الصَّخْرُ وهو نَسِيبه * عَدُوًّا بيوم أرضُه تُمْطِر السَّما .

إذا أقْعَدَتْ جُذْرا قياما، رأيتَهَا * تُنَبِّه قِيعاناً من التُّرب نُوَّما !

ومما وصفت به المعاقل والحصون نظما . ١٠

فمن ذلك قول كعب الأشقرى، يصف قلعة :

مُحَلِّقَةٌ دُونَ السَّماء كأنَّها * غمامةُ صَيْفٍ زالَ عنها سَحَابُها .

ولا يَبْلُغُ الأرْوى شماريخَهَا العُلى، * ولا الطَّيْرُ إلا نَسْرُها وعُقابُها .

ولا خُوِّفَتْ بالذِّئب وِلْدانُ أهلِها، * ولا نَبَحَتْ إلا النُّجُومَ كِلَابُها .

وقال أبو تمام، يصف عَمُّورية : ١٥

وبَرْزَةُ الوجه قد أعيَتْ رِياضَتُها * كِسرى وصَدَّت صُدُودا عن أبى كَرِب .

بِكْرٌ، فما افْتَرعَتْها كَفُّ حادثةٍ * ولا ترَقَّتْ إليها هِمَّةُ النُّوَبِ .

من عَهْد إسكَنْدرٍ أو قَبْل ذاكَ، فقد * شابَتْ نَواصِى اللَّيالِى وهي لم تَشِب !

وقال الخالديان :

وخَلْقاءَ قد تاهَتْ على من يَرُومُها * بمَرْقَبِها العالى وجانِبها الصَّعْب . ٢٠

يَزُرُّ عليها الجَوُّ جَيْبَ غَمَامِهِ * ويُلْبِسُها عِقْداً بأنجُمِهِ الشُّهْبِ.
إذا ما سَرى بَرْقٌ، بَدتْ من خِلالِهِ * كما لاحتِ العَذْراءُ من خلَلِ الحُجْبِ.
سَمَوتَ لها بالرأيِ: يُشْرِق في الدُّجى، * ويَقْطَعُ في الجُلِّ، ويَصْدَعُ في المَضْبِ.
فأبْرَزْتَها مهتوكةَ الجيب بالقَنا * وغادَرْتَها ملصوقةَ الخَدِّ بالتُّرْبِ!

٥ وقالا أيضاً في قلعة:

وقَلْعةٍ عانَقَ العَيُّوقُ سافِلَها، * وجاز منطقةَ الجَوْزا أعاليها.
لا تَعْرِفُ القَطْرَ، إذ كانَ الغَمامُ لها * أرضاً تَوَطَّأُ قُطْرَيْهِ مَواشيها.
إذا الغَمامةُ لاحتْ، خاضَ ساكِنُها * حِياضَها قبلَ أنْ تَهْمي عَزاليها.
يُعَدُّ من أنْجُمِ الأفلاكِ مَرْقَبُها، * لَوْ أنَّه كانَ يَجْري في مَجاريها.
١٠ على ذُرى شامِخٍ وَعْرٍ: قد امتلأتْ * كِبْرًا بِهِ، وهو مَمْلُوءٌ بها تِيهًا.
له عِقابٌ: عُقابُ الجَوِّ حائمةٌ * من دُونِها، فَهْيَ تَخْفَى في خَوافيها.

وقال أبو بكر الخوارزميّ:

وبِكْرٍ تحامَتْها البُعُولُ مَخافةً، * فقد تُرِكَتْ من كَثْرةِ المَهْرِ أيِّما.
مُمَنَّعةٌ لم يَغْلَطِ الدَّهرُ بِاسْمِها، * ولم يَرَها في النَّوْمِ إلا تَوَهُّما.
١٥ تَزِلُّ عُقابُ الجَوِّ عن شُرُفاتِها، * وتَبْغي إلَيْها الرِّيحُ مَرْقًى وسُلَّما!
ويُسْمَعُ في الأفلاكِ صَيْحةُ دِيكِها، * فتَحْسَبُ ديكَ العَرْشِ صاحَ تَرَنُّما.
عَجُوزٌ، تُرى في صِحَّةِ الجِسْمِ كاعِباً، * ولو أُرِّخَتْ، كانَتْ مِنَ الدَّهْرِ أقْدَما!
تُوازِي أَساسًا بالتُّخُومِ مُؤَزَّرا، * وتُبْرِزُ رأسًا بالنُّجُومِ مُعَمَّما.
تُنازِعُها الأرضَ السَّماءُ وتَدَّعِي * لَدَيْها بها حَقًّا لها مُتَهَضَّما.
٢٠ وتَحْسَبُها زُهْرُ الكَواكبِ كَوْكَبًا * هَوى خَلْفَ شَيْطانٍ رَجيمٍ، فَخَيَّما!

الباب الخامس
من القسم الخامس من الفن الأول
(فيما وصفت به القصور والمنازل)

ولنبدأ بذكر ما بناه المتوكل من القُصور وما أُنفق عليها، ثم نذكُر ما قيل فى وصفها، وما وُصفت به المنازل الخالية، وما قيل فى حُبِّ الوطن .

فأما قصور المتوكل،فهى : الكامِلُ، والجَعْفَرِىّ ، وبَركوانا[1]،والعَرُوس،والبِرْكة، والجَوْسَق ، والمُخْتار، والغَرِيب ، والبَدِيع ، والصَّبِيح ، والمَليح ، والقَصْر ، والبُرْج ، والمتوكِّلِيَّة ، والقُلَّاية .

حكى المؤرّخون أنه أنفق فى بنائها مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار عينا، ومائتا ألف ألف وثمانيةٌ وخمسون ألف ألف وخمسمائة ألف درهم .

قالوا : وكان "البرج" من أحسنها . كان فيه صُوَر عظيمةٌ من الذهب والفضة، وبِركةٌ عظيمة غُشِّى ظاهرُها وباطنها بصفَائح الفضة، وجعل عليها شجرةٌ من الذهب فيها طُيُور تصوت وتَصَفِّر سماها "طُوبى" بلغت النفقة على هذا القصر ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار .

وقد وصفه الشعراء، فمن ذلك قول السرىّ :

مَجْلِسٌ فى فِناء دِجْلةَ ، يَرْتا * حُ إليه الخَلِيع والمَسْتُورُ.
طائرٌ فى الهواء، فالبَرْق يَسْرى * دُونَ أعلاهُ والحَمَامُ يَطِيرُ.
فإذا الغَيْمُ سدّ، أُسْبِل منه * حُلَلٌ دون جُدْرِه وسُتُورُ.
وإذا غارتِ الكواكبُ صُبْحا ، * فهو الكَوْكَبُ الذى لا يَغُورُ!

---

[1] كذا بالأصل . وفى معجم ياقوت "بَرْكُوار" .

وقال أيضا :

مَنْزِلٌ كالرَّبيع حلّت عليه * حالياتُ السَّحاب عقدَ النِّطاق.

يُمتِع العَيْنَ فى طرائف حُسْنٍ * تتحامى بها عن الإطْراق.

بيْن ساجٍ كأنَّهُ ذائبُ التِّبرِ على مِثْلِ ذائبِ الأَوْراق.

وقال أيضا :

والقصرُ يَبْسِم عن وجْه الضُّحى ، فترى * وجْهَ الضُّحى عِنْد ما أبدى له عجبا.

يَبيتُ أعْلاهُ بالجَوْزاء منْتَطِقا ، * ويَغْتَدِى بِرِداء الغَيْم محتجِبا !

وقال أبو سعيد الرستمىّ ، يصف دارا بناها الصاحب بن عبَّاد :

وسامِيَةِ الأعْلامِ تلْحَظُ دُونَها * سَنَا النَّجْمِ فى آفاقِها مُتضائِلا .

نسَخْتَ بها إيوانَ كِسْرى بنِ هُرْمُزٍ ، * فأصبحَ فى أرض المدائِن عاطِلا .

فلو أبصَرتْ ذاتُ العِمادِ عِمادَها ، * لأمسَتْ أعاليها حَياءً أسافلا .

ولو لحَظَتْ جنَّاتُ تَدْمُرَ حُسْنَها ، * درَتْ كيف تَبْنى بعدَهُنَّ الجنادِلا .

متى تَرَها خِلْتَ السماءَ سُرادِقًا * عليها وأعْلامَ النُّجومِ تَماثِلا .

وقال علىّ بن يوسف الإيادىّ ، يذكر دارا بناها المعز الفاطمى بمصر وسماها

"العروسين" :

بَنى مَنْظَرًا يُسْمى "العَرُوسَيْنِ" رِفعةً ، * كأنَّ الثُّريَّا عَرَّسَتْ فى قِبابِه .

إذا الليلُ أخفاهُ بحُلْكةِ لَوْنِه ، * بَدا نورُه كالبَدْرِ تحت نِقابِه .

تمكَّنَ من سَعْدِ السُّعُودِ محلُّه ، * فأضحى ومِفْتاحُ الغِنى فتْحُ بابِه .

ولو شادَهُ عَزْمُ المُعِزِّ ورأيُهُ * على قَدْره فى مُلْكه ونِصابِه ،

لكان حَصى الياقُوت والتِّبرِ مُفْرَغًا * على المِسْك من آجُرِّه وتُرابِه .

وقال عبد الجبار بن حمديس الصقلى، يصف دارا بناها المعتمد بن عبّاد من أبيات :

ويا حبّـذا دارٌ قضى الله أنّهـا * يُجـدّد فيهـا كُلُّ عِزٍّ ولا يَبْلَى !

وما هِىَ إلا خِطَّـةُ المَلِك الّتِى * يُحَطُّ إليهـا كُلُّ ذِى أمَلٍ رَحْلا .

إذا فُتِحَتْ أبوابُها ، خِلْتَ أنّهـا * تقولُ بتَرْحيبٍ لداخِلِها : أهْـلا .

وقد نقلتْ صُنّاعُها من صِفَاتِه * إليها أفانِيناً ، فأحسَنَتِ النَّقْـلا . ٥

فمن صَدْرِه رُحْبا ، ومن نُورِه سَنًا ، * ومن صِيتِه فَرْعا ، ومن حِلْمِه أصْلا !

فأعلَتْ به فى رُتْبَـةِ المُلْكِ ناديًا ، * وقَلَّ له فَوْقَ السَّماكَيْنِ أن يُعْلَى .

نَسِيت بِهِ إيوانَ كِسْرى ، لأنّنِى * أراهُ له مَوْلًى من الحُسن لا مِثْلا .

تَرى الشَّمْسَ فيـه لِيقَـةً تستَمِدُّها * أكُفٌّ ، أقامتْ من تصاويرِها شَكْلا .

لها حَرَكاتٌ أُودِعتْ فى سُكُونِها ، * فما تَبِعتْ من نَقْلِهِنّ يَدٌ رِجْلا . ١٠

ولمـا عَشِينَا من توَقُّد نُورِها ، * تخِـذْنا سَناهُ فى نواظِرِنا كُحْلا .

وقال أيضا من قصيدة يصف فيها دارا بناها المنصور ببِجاية ، جاء منها :

وٱعْمُـرْ بقَصْرِ المُلْكِ ناديكَ الّذِى * أضْحى بمَجْـدِك بَيْتُـه مَعْمورًا !

قَصْرٌ لو ٱنّكَ قـد كَحَلْتَ بنُورِه * أعمى ، لعادَ على المقامِ بصِيـرا .

وٱشْـتُقَّ من مَعْنَى الحياةِ نَسِيمُه ، * فيكادُ يُحْـدِث للعِظام نُشُـورا . ١٥

فَلَو ٱنّ بالإيوانِ قُوبِلَ حُسْـنُه ، * ما كان شيئًا عِنده مَذْكُـورا .

نُسِىَ "الصَّبِيحُ" مع "المَلِيح" بذِكْرِه ، * وسَمَا فَفَاقَ "خَوَرْنَقًا" و"سَدِيرَا" .

أعْيَتْ مطالِعُـه على الفُرْسِ الأُلى * رَفَعُوا البِنـاءَ وأحكَمُوا التـدْبِيرا .

ومضتْ على القَوْمِ الدُّهُورُ وما بَنَوْا * لمُلُوكِهِمْ شَبَهًا له ونَظِـيرا .

أذْكَرْتَنا الفِرْدَوْسَ حين أرَيْتَنا * غُرَفًا رَفَعْتَ بِناءَها ، وقُصُورا . ٢٠

فلكٌ من الأفلاك، إلّا أنه * حقر البدور فأطلع "المنصورا".
أبصرتُه فرأيتُ أبدعَ منظرا * ثم انثنيتُ بناظري محسورا.
وظننتُ أنّي حالمٌ في جنّةٍ * لمّا رأيتُ المُلْكَ فيه كبيرا.
وإذا الولائدُ فتّحتْ أبوابَها * جعلتْ ترحّب بالعفاة صريرا.
٥ عضّتْ على حلقاتهنّ ضراغمٌ * فغرتْ بها أفواهَها تكشيرا.
فكأنّها لبدتْ لتهصر عندها * مَنْ لم يكنْ بدخولِه مأمورا.
تجري الخواطرُ مُطلَقاتِ أعنّةٍ * فيه، فتكبو عن مداه قُصورا.
بمرخّم الساحاتِ تحسب أنّه * فرشَ المها وتوشّح الكافورا.
ومحصّبٍ بالدرّ تحسَبُ تُربه * مسكًا تضوّع نشرُه وعبيرا.
١٠ يستخلفُ الإصباحُ منه إذا انقضى * صُبحا على غَسَقِ الظلامِ مُنيرا.
ضحِكتْ محاسنُه إليكَ كأنّما * جُعلتْ له زُهرُ النجومِ ثُغورا.
ومُصفَّحِ الأبوابِ تِبرًا نظّروا * بالنقشِ بين شُكولِه تنظيرا.
تبدو مساميرُ النُضارِ كما علتْ * فلَكُ النهودِ من الحسانِ صُدورا.
خلعتْ عليه غلائلًا ورسيّةً * شمسٌ تردُّ الطرْفَ عنه حسيرا.
١٥ فإذا نظرتَ إلى غرائبِ حُسْنِه، * أبصرتَ روضًا في السماءِ نضيرا.
وعجِبْتَ من خُطّافِ عسجدِه التي * حامتْ لتبني في ذُراه وُكورا.
وضعتْ به صُنّاعُه أقلامَها، * فأرتْكَ كلَّ طريدةٍ تصويرا.
فكأنّما للشمسِ فيه لِيقةٌ * مشقوا بها التزويقَ والتشجيرا.
وكأنّما فرشوا عليه مُلاءةً * تركوا مكانَ وشاحِها مقصورا.
٢٠ يا ما لكَ المُلْكِ الذي أضحى له * مُلكُ السماءِ على العُداةِ نَصيرا.

كَمْ من قُصُورٍ للْمُلوكِ تقدَّمَتْ * فاستوْجَبتْ بقُصورِك التأخيرا .
فعَمَرْتَها وملَكْتَ كلَّ رياسةٍ * منْها ، ودَمَّرتَ العِدا تدْميرا .

وقال عمارة اليمنيّ ، يصف دارا بناها فارس الإسلام من أبيات :

فَتَمَلَّ دارًا شيَّدتَها هِمّةٌ ، * يَغْدُو العَسيرُ بأمْرِها متيسِّرا .
فاقَتْ على الإطْلاقِ كُلَّ بَنِيَّةٍ ، * وسَمَتْ بسَعْدِكَ عِزَّةً وتكَبُّرا .
أنشأْتَ فيها للعُيُونِ بدائعًا * دَقَّتْ ، فأذهَلَ حُسْنُها مَنْ أبصَرا .
فمِنَ الرُّخَامِ : مُسَيَّرًا ، ومسَهَّما ، * ومُنَمْنَمًا ، ومُدَرْهَمًا ، ومُدَنَّرا .
وسقَيْتَ من ذَوْبِ النُّضارِ سُقُوفَها * حتّى يكادَ نُضارُها أن يقطُرا .
لم يبْقَ نَوْعٌ صامِتٌ أو ناطِقٌ * إلا غَدَا فيها الجَميعُ مُصوَّرا .
فيها حدائقُ لم تَجُدْها دِيمَةٌ ، * كلّا ولا نَبَتَتْ على وَجْهِ الثَّرى .
لم يَبْدُ فيها الروضُ إلا مُزْهِرا ، * والنخْلُ والرمّانُ إلا مُثْمِرا .
والطَّيْرُ مُذْ وقعَتْ على أغصانِها * وثمارِها ، لم تَستَطِعْ أن تَنفرا .
وبها مِنَ الحيوانِ كُلُّ مُشبَّهٍ[1] * لَبِسَ الحريرَ العَبْقَرِيَّ مُصَوَّرا .
لا تَعْدَمُ الأبصارُ بين مُرُوجِها * لَيْثًا ولا ظَبْيًا بوجْرَةَ أعْفَرا .
أنِسَتْ نوافِرُ وَحْشِها بِسباعِها : * فظِباؤُها لا تَتَّقِي أُسْدَ الشَّرى .
وكأنَّ صولَتَكَ المُخِيفَةَ أمَّنَتْ * أسْرابَها أن لا تَخافَ فتُذْعَرا .
وبها زَرَافاتٌ كأنَّ رِقابَها * في الطُّولِ ألْوِيَةٌ تَؤُمُّ العَسْكَرا .
نُوبِيَّةُ المَنْشَا تُرِيكَ مِنَ المَها * رَوْقًا ، ومن بُزْلِ المَهارِي مِشْفَرا .
جُبِلَتْ على الإقْعاءِ من أعْجازِها ، * فتَخالُها في التِّيهِ تَمْشي القَهْقَرى !

(١) في الأصول "مسبهن" . ولعلها تصحيف .

وقال أبو الصلت أُميّة بن عبد العزيز، يصف قصرا بناه عليّ بن تميم بن المعزّ بمصر:

لله، مَجْلِسُكَ المُنِيفُ ! قِبَابُهُ * بمُوطَّدٍ فَوْقَ السِّماكِ مُؤَسَّسِ.
مُوفٍ على حُبُكِ المَجَرَّةِ تَلْتَقِي * فيه الجَوارِى بالجَوارِ الكُنَّسِ.
تتقابَلُ الأنوارُ فى جَنَباتِهِ * فاللَّيلُ فيه كالنَّهارِ المُشْمِسِ.
٥ عُطِفَتْ حَنَاياه دُوَيْنَ سَمائِهِ * عَطْفَ الأهلَّةِ والحَواجِبِ والقِسِي.
وٱسْتَشْرَفَتْ عَمَدُ الرُّخامِ وظُوهِرَتْ * بأجَلَّ من زَهْرِ الرَّبيعِ وأنْفَسِ.
فهَواؤُه من كُلِّ قَدٍّ أهْيَفٍ، * وقَرارُه من كُلِّ خَدٍّ أمْلَسِ.
فَلَكٌ تَحَيَّرَ فيه كُلُّ مُنَجِّمٍ، * وأقَرَّ بالتقصيرِ كُلُّ مُهَنْدِسِ.
فَبَدا لِلَحْظِ العَيْنِ أحْسَنَ مَنْظَرا، * وغَدَا لِطِيبِ العَيْشِ خَيْرَ مُعَرَّسِ.
١٠ فٱطْلُعْ به قَمَرا، إذا ما أَطْلَعَتْ * شَمْسُ الخُدورِ عليك شَمْسَ الأكْؤُسِ.
فالناسُ أجْمَعُ دُونَ قَدْرِك رُتْبَةً، * والأرضُ أجمعُ دُونَ هذا المَجْلِسِ!

وقال الوزير أبو سليمان بن أبى أُميّة :

يا دارُ، آمَنَكِ الزَّما * نُ خُطوبَه ونَوائِبَهْ.
وجَرَتْ سُعُودُكِ بالّذِى * يَهْوى نَزِيلُكِ دَائِبَهْ.
١٥ فلَنِعْمَ مَأْوى الضَّيْفِ أنْـ * ـتِ، إذا تَحامَوْا جانِبَهْ.
خَطَرٌ شَأَوْتِ به الدِّيَا * رَ، فأذْعَنَتْ لَكِ قاطِبَهْ.

وقال أبو صخر القرطبيّ :

دِيارٌ عليها من بَشَاشَةِ أهلِها * بَقَايَا، تَسُرّ النَّفْسَ أُنْسًا ومَنْظَرا.
رُبُوعٌ كَساها المُزْنُ من خِلَعِ الحَيَا * بُرُودًا، وحَلَّاها من النَّوْرِ جَوْهَرا.

(١٤٤٢) وقال الشريف الرضيّ :

مازلْتُ أطَّرقُ المَنَازِلَ باللِّـوى * حتّى نزَلْتُ منَازِلَ النُّعمانِ .
بالحِيرةِ البَيْضاءِ حيثُ تقابَلَتْ * شُمُّ العِمادِ، عَرِيضَةُ الأعْطانِ .
شهِدَتْ بفضْلِ الرّافعينَ قِبابها . * ويَبِين بالبُنْيانِ فَضْلُ البانِي!
ماينْفَع الماضِينَ أنْ بَقِيَتْ لهم * خِطَطٌ مُعَمَّرَةٌ بعُمْرٍ فانِي! ٥

وأما ما وُصفت به المنازل الخالية

فن ذلك ماقاله البحتريّ يشير إلى "الكِرْمان" الذى بناه كسرى أنو شروان من أبيات :

فَكأنّ الكِرْمانَ من عَدَمِ الأُنْـ * ـسِ وإخْلائه بَنِيَّةُ رَمْسِ .
لو تَراه، عَلِمْتَ أنّ اللّيالى * خلَعَتْ فيه مَأْتَمًا بعد عُرْسِ .
وهْوَ يُنْبِيك عن عَجَائبِ قومٍ، * لايُشَابُ البَيانُ فيها بلَبْسِ . ١٠
وإذَا ما رأيْتَ صُورَةَ أنْطَـا * كِيَةَ، ارتَعْتَ بيْنَ رُومٍ وفُرْسِ .
والمَنَايا مَواثِلٌ وأنُو شَـرْ * وانُ يُزْجِى الصُّفُوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ!

وقال أيضا من قصيدة يرثى فيها المتوكل، ويذكر قصره "الجعفرىّ" :

تَحَلَّ على القَاطُولِ[1] أخْلَقَ دارُهُ، * وعادَتْ صُروفُ الدّهْرِ جَيْشًا تُغاوِرُهْ .
كأنّ الصَّبَا تُوفِي نُذُورا، إذا انبَرَتْ * تَجُرُّ به أذْيالَهَا وتُبَاكِرُهْ . ١٥
ورُبَّ زَمانٍ ناعِمٍ تَمَّ عَهْدُه، * تَرِقُّ حَوَاشِيهِ ويُونِقُ ناظِرُهْ .
تغيّرَ حُسْنُ "الجَعْفَرِيّ" وأُنْسُه، * وقُوِّضَ بادِي "الجَعْفَرِيّ" وحاضِرُهْ .
تَحَمَّل عنه ساكِنُوه فُجَاءَةً، * فعادَتْ سَواءً دُورُه ومَقَابِرُهْ .
إذا نَحْنُ زُرْناه، أجَدّ لنا الأسى؛ * وقَدْ كان قَبْلَ اليَوْمِ يُبْهِجُ زائِرُهْ .

(١) نهر مشهور معروف . ٢٠

ولم أنسَ وَحْشَ القصرِ إذ رِيعَ سِرْبُهُ، * وإذْ ذُعِرَتْ أطْلاؤه وجآذِرُهْ.
وإذْ صِيحَ فيه بالرَّحيلِ فهُتِّكَتْ * على عَجَلٍ أستارُه وسَرائرُهْ.
وأوْحَشَه حتّى كأنْ لم يَكُنْ به * أنِيسٌ، ولم تَحْسُنْ لعينٍ مناظِرُهْ.
كأنْ لم تَبِتْ فيه الخلافةُ طَلْقةً * بشَاشَتُها، والمُلْكُ يُشْرِق زاهِرُهْ.
٥ ولم تَجْمَعِ الدُّنيا إليْهِ بَهاءَها * وبَهْجَتَها، والعَيْشُ غَضٌّ مَكاسِرُهْ.
فأيْنَ الحِجابُ الصَّعْبُ حيث تَمنَّعتْ * بهيْبتِها أبْوابُهُ وسَتائِرُهْ؟
وأيْنَ عَمُودُ المُلْكِ في كُلِّ نَوْبةٍ * تَنُوبُ، وناهِي الدَّهرِ فيه وآمِرُهْ؟

وقال عمر بن أبي ربيعة:

يا دارُ، أمْسى دارِسًا رَسْمُها * وَحْشًا قِفارًا ما بها آهِل.
١٠ قد جَرَتِ الرِّيحُ بها ذَيْلَها، * وآسْتَنَّ في أطْلالِها الوابِلُ.

وقال شاعر أندلسيّ:

قُلْتُ يومًا لدارِ قومٍ تفانَوْا: * أيْنَ سُكّانُكِ الكِرامُ لَدَيْنا؟
فأجابَتْ: هنا أقامُوا قليلًا * ثم سارُوا، ولَسْتُ أعلمُ أيْنا!

وقال عبد الله بن الخياط الأندلسيّ:

١٥ يا دارَ عَلْوةَ، قد هيَّجتِ لي شَجَنًا * وزِدْتِني حَزَنًا! حُيِّيتِ من دارِ!
كَمْ بِتُّ فيكِ على اللَّذّاتِ مُعْتَكِفًا، * والليلُ مُدَّرِعٌ ثَوْبًا من القارِ!
كأنّهُ راهِبٌ في المِسْحِ مُلْتَحِفٌ، * شَدَّ المَجَرَّ له وَسْطًا بزُنّارِ!

وقال أبو حامد أحمد الأنطاكيّ:

إنَّ رَبْعًا عرَفْتُه مألُوفا * كان للبِيضِ مَرْبَعًا ومَصيفًا.
٢٠ غَيَّرتْ آيَهُ صُروفُ اللّيالي، * وغَدَا عنه حُسْنُهُ مَصْروفًا.

مامرَرْنا عليه ، إلّا وَقَفْنا * وأطلْنا شَوْقًا إليه الوُقُوفا.
آلِفًا للبُكاءِ فيه ، كأنّى * لم أكُنْ فيه للغَوانِى أليفًا.
حاسِدًا للجُفُونِ لمّا أذالَتْ * فى مَغَانيهِ دَمْعها المَذْرُوفا!

وقال الشريف الرضىّ من أبيات :

ولقد رَأيْتُ بِدَيْرِ هِنْدٍ مَنْزِلًا * أَلمًا من الضَّرَّاءِ والحَدَثان!
بالِى المَعالِمِ، أطْرَقَتْ شُرُفاتُه * إطْراقَ مُنْجذِب القَرِينة عانِى.
أمَقاصِرَ الغِزْلانِ ، غَيَّرَكِ البِلَى * حتَّى غَدَوْتِ مَرَاتِعَ الغِزْلان!
ومَلاعِبَ الْأُنْسِ الجَميعِ طوى الرَّدى * مِنْهم ، فَصِرْتِ مَلاعِبَ الجِنَّان!

وقال أبو الحسن علىّ القابوسىّ نثرا :

«قد كان منزِلُه مَألَف الأضياف، ومَأْنَس الأشراف، ومُنتَجع الرَّكْب، ومقصد الوَفْد ؛ فاستبْدَل بالأُنْس وَحْشه ، وبالنَّضارة غُبْره، وبالضِّياء ظُلْمه ؛ واعتاض من تزاحم المواكب، بالأُدْم النَّوادِب ؛ ومن ضجيج النِّداء والصَّهيل ، عجيجَ البكاء والعويل» .

ومن رسالة لضياء الدين بن الأثير الجزرىّ ، جاء منها :

« ... دارٌ لَعِبت بها أيدى الزمن ، وفرّقت بين الساكن والسَّكَن . كانت مقاصيرَ جَنّه ، فأضحت وهى ملاعب جِنّه . ولقد عَمِيَتْ أخبار قُطّانها ، وعفَّت آثارُها آثارَ وُطّانها ، حتى شابهت إحداهما فى الجفا ، الأخرى فى العفا . وكنت أظن أنها لا تُسْقى بعدهم بغمام، ولا يُرفَع عنها جِلْبابُ ظلام؛ غير أن السحاب بكاهم وأجرى بها سوافِحَ دموعه ، والليل شقّ عليهم جُيوبَه فظهر الصَّباح من خلال صُدُوعه» .

ومما قيل فى حب الأوطان

قال ابن الرومى (وهو أول من بيّن السبب فى حب الوطن) :

ولى منزلٌ ، آليتُ أن لا أبيعَه * وأن لا أرى غيرى له الدهرَ مالكا!
عهدتُ به شرخَ الشباب ونعمةً * كنعمة قوم أصبحوا فى ظلالكا.
فقد ألِفَتْه النفسُ حتى كأنه * لها جسدٌ، إن غاب غُودرتُ هالكا.
وحبّب أوطانَ الرجالِ إليهم * مآربُ قضّاها الشبابُ هنالكا.
إذا ذكَروا أوطانَهم ، ذكّرتْهم * عهودَ الصبا فيها فحنّوا لذلكا!

ذكر شىء مما قيل فى الحمّام

قال إبراهيم بن خفاجة الأندلسىّ :

أهلًا ببيتِ النارِ من منزلٍ * شيدَ لأبرارٍ وفجّارِ!
يدخُلُه ملتمسٌ لذّةً ، فيدخُلُ الجنةَ فى النار!

وقال أبو عامر بن شهيد الأندلسىّ :

نعم ، أبا عامرٍ بلذّته ، واعجبْ لأمرينِ فيه قد جُمعا!
نيرانُه من زنادِكم قدِحتْ ، * وماؤه من بنانِكم نبعا!

وقال علىّ بن عطية البلنسىّ : ١٥

رُبّ حمّامٍ تلظّى * كتلظّى كلِّ وامقْ.
ثم أذرتْ عبراتٍ * صوبُها بالوجدِ ناطقْ.
فغدا منّى ومنه * عاشقٌ فى جوفِ عاشقْ!

وقال أبو طالب المأمونىّ ، شاعر اليتيمة :

وبيتٍ كأحشاءِ المحبِّ دخلتُه * ومالى ثيابٌ فيه غيرُ إهابى. ٢٠

أرى مُحْرِماً فيه وليس بكَعْبةٍ، * فما ساغ إلا فيه خَلْعُ ثيابي.
بماءٍ كدَمْعِ الصَّبِّ فى حرِّ قلبه * إذا آذنتْ أحشاؤه بذَهابِ.
توهَّمْتُ فيه قِطعةً من جهنّمٍ * ولكنّها من غير مَسِّ عقابِ.
يُشيرُ ضبابا بالبُخار مُجَدِّلا * بُدورَ زُجاجٍ فى سَماءِ قِبابِ!

٥

وقال آخر:

إنَّ حمّامَك هذا * غيرُ مَذْمُومِ الجوارِ.
ما رأينا قَبْل هذا * جَنَّةً فى وَسْطِ نارِ!

وأنشدنى جمال الدين محمد بن الحكم لنفسه:

قالوا: نَراكَ دخَلْتَ حَمّاما، وما * حِلْفُ الهوَى يلتذ بالأهواءِ.
فأجبتُهم: لم تَكفِ أدْمعُ مُقْلتي * حتّى بكَيْتُ بجُملة الأعضاءِ.

١٠

تم السفر الأوّل

(نسخة ما هو مكتوب فى آخر الأصل بخط المؤلف)

نجز السِّفْر الأوّل من "كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب" على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبدالوهاب بن محمد بن عبدالدائم البكرى التيمى القرشى، عرف بالنويرى عفا الله عنه؛ ووافق الفراغ من كتابته فى يوم السبت المبارك لعشر بقين من ذى القعدة عام إحدى وعشرين وسبعمائة أحسن الله تقضيه؛ وذلك بالقاهرة المعزية عمرها الله تعالى يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل السِّفْر الثانى "الفنّ الثانى فى الإنسان وما يتعلق به" والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه، وآله وصحبه وسلم آمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل!

١٥

فهرس

السّفر الأوّل

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب

للنـــويرى

صحيفة

الفن الأوّل

القسم الأوّل

فى السماء وما فيها، وفيه خمسة أبواب

الباب الأوّل :

الباب الثانى :

صحيفة

الباب الثالث :

الباب الرابع :

صحيفة

الباب الخامس :

القسم الثانى

فى الآثار العلوية، وفيه أربعة أبواب

الباب الأول :

الباب الثانى :

صحيفة

الباب الثالث :

الباب الرابع :

صحيفة

القسم الثالث من الفن الأوّل

في الليالى والأيام، والشهور والأعوام، والفصول والمواسم والأعياد،

وفيه أربعة أبواب

البـاب الأوّل :

صحيفة

البـاب الثـانى :

البـاب الثـالث :

البـاب الرابع :

صحيفة

القسم الرابع من الفن الأوّل

فى الأرض، والجبال، والبحار، والجزائر، والأنهار، والعيون، والغدران، وفيه سبعة أبواب

صحيفة

الباب الخامس :

الباب السادس :

صحيفة

البـاب السابع :

صحيفة

القسم الخامس من الفن الأوّل

في طبائع البلاد ، وأخلاق سكانها ، وخصائصها ، والمبانى القديمة ، والمعاقل ، وما وصفت به القصور والمنازل ، وفيه خمسة أبواب

الباب الأوّل :

الباب الثانى :

صحيفة

صحيفة

تمّ فهرس السفر الأوّل

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر – ٤٤١١٨

القاهرة

تراثنا



في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرىّ

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

السِّفر الثانى

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والارشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٤ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر — ٩٠١١٨
القاهرة

فهرس

السّفر الثانى

من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب

للنويرى

الفن الثانى

صحيفة

القسم الأوّل

فى اشتقاقه، وتسميته، وتنقلاته، وطبائعه، ووصفه، وتشبيهه، والغزل، والنسيب، والهوى، والمحبة، والعشق، والأسباب؛

وفيه أربعة أبواب

الباب الأوّل :

صحيفة

الباب الثانى :

صحيفة

صحيفة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفن الثانى

فى الإنسان وما يتعلق به

وهذا الفن قد اشتمل على معانٍ مؤنسة للسامع، مشنِّفة للسامع؛ مرصِّعة لصدور الطروس والدفاتر، جاذبةٍ لنوافر القلوب والخواطر؛ واضحةِ البيان، معربة عن وصف الإنسان. ٥

فمن تشبيهاتٍ فائقه، وغَزَلِيَّات رائقه؛ وأنسابٍ طاهره، ووقائعَ ظاهره؛ وأمثالٍ امتدّت أطنابها، وتبينَتْ أسبابُها؛ وأوابِدَ جعلتها العرب لها عادةً ودليلا، واتخذتها ضَلَالة وتبديلا؛ ونصبتها أحكاما ونُسُكا، وصيرتها عبادة ومُداواة فتبوأت بها من النار دَرَكا؛ وشيءٍ من أخبار الكُهّان، وزَجْر عَبَدة الأوثان؛ وكناياتٍ نَقَلت الألفاظ إلى معانٍ أبهى من معانيها، وبلَغَت النفوسُ بعُذُوبتها غاية أمانيها؛ وألغازٍ ١٠ غوّرَتْ بالمعانى وأنْجدَتْ، وأشارتْ إليها بالتأويل حتّى إذا قربتها من الأفهام أبعدَتْ؛ ومدائحَ رفعتْ للممدوح من الفضل مَنَارا، وأهاجِىَ صيَّرت المهجُوَّ من القوم يتوارى؛ ومُجُون ترتاح إليها عند خلوتها النفوس، ويبتسم عند سماعها ذو الوجهِ العَبُوس؛ وشىءٍ مما قيل فى الخمر والمُعاقَره، وأربابِ الطَّرب وذوِى المسامره؛ وتَهانٍ نَشَرتْ من البشائر مُلاَءً، ورفعتْ من المَحَامد لِوَاءً؛ وتعازٍ حسرَتْ نِقاب الحَسَرات، وأبرزتْ ١٥ مَصُون العَبَرات .

وأوردتُ فيه نبذةً من الزهد والإنابه، وجملةً من الدعَوات المستجابه .

وطرّزتُهُ بذكر ملِك ، مدّ رِوَاق العدل، ونشر لواء الفضل؛ وقام بفُروض الجهاد وسُنَنه، وأراع العدُوّ فى حالتى يقظته ووَسَــنه؛ وعمّ الأولياء بمواصـلة بِرّه وموالاة نَواله ، وقهر الأعداء بمراسلة سِهامه ومناضلة نِصاله؛ وشَمِل رعاياه بعدله وجُوده، واردف سَرايأه بجيوشه وجُنُوده، فهو الملك الذى جَمَع بين شِدّة البأس، ولين النَّدى، وأزال مَرَارة الإياس، بحلاوة العطا .

وما يحتاج إليه لإقامة المملكة : من نائبٍ ناهيك به من نائب ! ، يكُفُّ بعزمه كَفّ الحوادث و يفُلُّ بحَزْمه ناب النوائب؛ ويُنْصِف الضعيف من القوىّ، و يفرّق ببديهته بين المُريب والبرىّ؛ و يتفقد أحوال الجيوش و يصْرِف همته إليهم، و يجعل آهتمامه بهم وفكرَتَهُ فيهم وتعويلَهُ عليهم؛ إلى غير ذلك من آستكمال عَدَدها، والمطالبة بعَرْض خيولهـا وإصلاح عُدَدها ؛ وسَدّ ثغور المـالك ، وضبط الطرق وتسهيل المسالك؛ وقَمْع المفسدين، و إرغام المُلْحدين؛ وبث السَّرَايا، وتيسير الأرزاق والعطايا . ووزيرٍ يشـيِّد قواعد ملكه بحسن تدبيره وجميل سَدَاده ، ويُعْمِل فكره فيما يستقرّ بسببه نِظامُ الملك على مِهاده ؛ و يأمر بتحصـيل الأموال من جهـات حِلّها ، و يقرّ مناصب الدّولة الشريفة فى الكُفَاة من أهلها ؛ و يتصـفّح الأقاليم والمعاملاتِ والأعمـال، ويستكفِى لمباشرتها أمناءَ النظّار ومحقِّقِى المستوفين وكُفَاةَ العمال .

وقائد جيوش إن آنتدبه للقاء عدوّ بَدَر الكتائب ، وأنهل من دمائهم السُّمْر العوالى وعلا هامهم بالبيض القواضب؛ تتبعه عساكرُ تَنْفِرُ قلوبهم عن الفِرار، ويُحِلُّوا مَنْ قاتلهم من أعداء الله دارَ البَوَار؛ يدَّرِعون السابِريَّة(١) الذوائل، و يعتقلون السَّمْهرية الذَّوابل؛

(١) هى دروع دقيقة النسج فى إحكام، والذوائل جمع ذائلة وهى الطويلة " قاموس " .

ويتقلدون المَشْرَفية البواتر، ويتنكّبون القِسِيّ النواتر[1]، ويمتطون من كل جواد صَفَا منـه أديمُه وعيناه وحوافره، واتسع منه جوفُه وجبهته ومَناخره؛ وطال منـه أنفه وعنقه وذراعه، وقَصُر منـه ظهره وساقه وعَسِيبه وامتدّ عند الحُضْر باعه : فهو من أكرم الأصائل،والمعنيّ بقول القائل :

وَقَدْ أغْتدِى قَبْلَ ضَوْءِ الصّباحِ * ووِرْدِ القَطَا فى الغُطَاطِ الحَثَاث .

بصافِى الثّلاث عريضِ الثلاث * قصيرِ الثلاث طويلِ الثّلاث .

وذكرتُ ماورد فى فضـل الرباط والجهـاد، وما أعدّ اللهُ تعالى من الثواب لمن أنفق فيه الطّوارف والتّلاد؛ وبذل الكريمين : (النفسَ والمـال) لحسن المآل؛ وهجر الحبيبين : (الوطنَ والعيال) لبلوغ الآمال .

ومِن قاضٍ يحكُم بين الناس بالعدل ، ويقدّم ذوى النباهة والفضل .

ومتولِّى مظالمَ يردّها على أهلها بقهره وسلطانه، وسطوته وأعوانه .

وناظرِ حِسْـبة يُجرِى الأمور على قواعدها الشرعيـة ، وأوضاعها العُرفية وقوانينها المَرْضية .

إلى غير ذلك :

من كاتب ، ذى رأى صائب ، وفهم ثاقب؛ انقادت له المعـانى بأسهل زمام، وأغنت صحائفه عن صفَحات الحُسَام :

لَوْ لاحظَتْ عينُ ابن أوْسٍ كُتْبَهُ * ماقال: "إن السيف منها أصْدقُ".

(١) فى القاموس " قوس ناترة تقطع وترها لصلابتها " .

وكاتبِ خراج ضَبَط بقلمه الأموال، وحرّر بنَبَاهتـه الغِلال؛ وبسط الموازين، ووضع القوانين؛ وفصل بين الخراجىّ والهلالى، وميز ما بين الأعمـال والتوالى .

وما لا بدّ للملك منه من خواصّ جُبلتْ على محبته قلوبُهم، وتجافت عن المضاجع فى خدمته جُنُوبُهم .

ومن معقِلٍ شَمَخ على الجوزاء بأنْفه ، وآتخذ الثريّا وِشاحا لِعطْفه؛ تَوَارى فى قَرار التخوم أساسُـه ، ولاح للسارى ككوكب الظلماء مِقْباسُـه . فالأرض تدّعيه : لأنه ثبتَ على مناكبها، والسماء تنازعها فيه : لأنه تَمَنْطَق بكواكبها؛ والجبال تقول منى آتُّخِذت أحجارُه، والمياه تقول علىّ آستقرّ قرارُه؛ وجفن السحاب يَهْمَع لآنحطاطه عن هذه الرتبة، والطير تقول إن لم أبلغه فقد آتّخَذَ به مَنْ بينى وبينه نِسْبَه .

وضَّمنتُ هـذا الفن من المنقول ما يسهُل تعاطيه على الأفهام، ووضعتُه على خمسة أقسـام .

القســـم الأوّل

في آشـــتقاقه، وتسميته، وتنقلاته، وطبائعه، ووصفه، وتشبيهه.
والغَزَل، والنَّسيب، والهوى، والمحبة، والعشق، والأسباب
وفيــه أربعـــة أبواب

البـاب الأوّل

من القسم الأوّل من الفن الثـانى

(في آشتقاقه، وتسميته، وتنقلاته، وطبائعه، وما يتصل بذلك)

فأما آشتقاقه وتسميته، فقد آختلف الناس في ذلك: هل هو من الأُنْس الذي هو نقيض الوحشة، أو النَّوْس الذي هو نقيض السكون، أو الإيناس الذي هو بمعنى الإبصار، أو النِّسيان الذي هو نقيض الذِّكْر.

قال الشريف السيد ضياء الدّين أبو السعادات هبـة الله المعروف بابن الشجرى في "أماليه" (في المجلس التاسع عشر وهو يوم السبت سابعَ عشرَ رجب سنة أربع وعشرين وخمسمائة) في شرح قول أعشى تَغْلِب:

وكانُوا أُناسًا يَنْفَحُون فأصبَحُوا، * وأكثرُ ما يُعْطُونَك النظَرُ الشَّزْرُ.

قوله: "وكانوا أناسا ينفَحون" وزن أناس فُعال، وناس منقوص منه عند أكثر النحويين: فوزنه عالٌ. والنقص والإتمـام فيه متساويان في كثرة الآستعمال ما دام منكورا. فإذا دخلت عليه الألف واللام، آلتزموا فيه الحذفَ، فقالوا "النـاس" ولا يكادون يقولون "الأُناس" إلا في الشعر. كقوله:

إنَّ المَنَـايَا يَطَّلِعْـ * ـنَ على الأُنَاسِ الآمنينَا.

وحجة هـذا المذهب وقوع الأُنس على الناس . فاشتقاقه من الأُنس نقيض الوحشة : لأن بعضهم يأنس إلى بعض . [وبه[1] أخذ بعض الشعراء فى قوله :

وما سُمِّىَ الإنسانُ إلا لأُنْسِه * ولا القلبُ إلا أنه يتقلَّبُ] .

قال : وذهب الكسائىّ إلى أن "الناس" لغة مفردة، وهو آسم تامّ وألفه منقلبة عن واو، وآستدلّ بقول العرب فى تحقيره نُوَيْس .

قال : ولو كان منقوصا من أناس لردّه التحقير إلى أصله ، فقيل "أُنَيْس" .

وقال بعضُ مَنْ وافق الكسائىّ فى هذا القول : إنه مأخوذ من النَّوس، مصدر ناس يَنُوس إذا تحرّك . ومنه قيـل لملك من ملوك حمير ذو نُوَاس : لضفيرتين كانتا تَنُوسان على عاتقه .

قال الفرّاء : والمذهب الأوّل أشبه، وهو مذهب المشيخة .

وقال أبو علىّ الفارسىّ : أصـل الناس الأناس . فحذفت الهمزة التى هى فاء ويدلك على ذلك الإنْسُ والأَنَاسِىّ . فأما قولهم فى تحقيره نُوَيس فإن الألف لمـا صارت ثانية وهى زائدة أشبهت ألف فاعل . يعنى أنها أشبهت بكونها ثانية وهى زائدة ألِفَ "ضارِب" فقيل نويس، كما قيل ضويرب .

وقال سَلَمَة بن عاصم، وكان من أصحاب الفراء : الأشبه فى القياس أن يكون كلٌّ واحد منهما أصـلا بنفسه فأناس من الأنس ، وناس من النوس لقولهم فى تحقـيره نويس كبويب فى تحقير باب .

هذا ما قاله آبن الشجرىّ فى أماليه .

(١) لم نجد هذه الزيادة فى أمالى آبن الشجرى الموجود منها نسخة مخطوطة "بدار الكتب المصرية" .

وذهب أبو عمرو الشَّيبانيّ : أنه مشتق من الإيناس، الذى هو بمعنى الإبصار، وحجته قوله تعالى : "إنِّى آنَسْتُ نارًا" أى أبصرت نارا .

وذهب الكوفيون إلى أنه مشتق من النِّسْيان، وحجتهم أن أصله إنسِيَان. فحذفت الياء تخفيفا وفتحت السين لأن الألف تطلب فتح ماقبلها. ولأن العرب حين صغرته قالت فيه أُنَيْسِيان، فزادت الياء . والتصغير يردّ الأشياء إلى أصولها، ولو لم تكن في المكبر لما رُدَّت في المصغَّر . و به أخذ أبو تمام في قوله :

لا تَنْسَيَنْ تلكَ العُهودَ فإنما * سُمِّيتَ إنسانًا لأنك ناسى .

وأنكر البصريون ذلك، وقالوا : لا حجة فيه، لأن العرب قد صغرت أشياء على غير قياس كما قالوا في تصغير رجل بمعنى راجل رُوَيْجل ، وفي تصغير ليلة لُيَيْلَة . وفي تصغير عَشِيّة عُشَيْشة .

وقال ابن عباس : إنما سمى الإنسان إنسانا لأنه عُهِد إليه فَنسِى .

وهذا هو الأرجح والله تعالى أعلم .

فصل

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد في كتابه يرفعه إلى وهب بن منبِّه إنه قال : قرأت في "التوراة" أن الله عز وجل حين خلق آدم ركَّب جسده من أربعة أشياء، ثم جعلها وِراثة في ولده، تنمى في أجسادهم وينمون عليها إلى يوم القيامة . رَطْب، ويابس، وسُخْن، وبارد . قال : وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلقه من تراب وماء، وجعل فيه يُبْسا ورطوبة، فيبوسة كل جسد من قِبَل التراب، ورطوبته

من قِبَل المـاء، وحرارتُه من قِبَل النفس، وبرودته من قِبَل الروح . ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الأوّل أربعةَ أنواع أُخَر وهى مِلَاك الجسد وقِوَامه، لا يقوم الجسد إلا بهنّ، ولا تقوم واحدة منهنّ إلا بالأخرى : المِرّة السوداء، والمِرّة الصفراء، والدم الرطب الحارّ، والبلغم البارد . ثم أسكن بعضَ هـذا الخلق فى بعض، فجعل مَسْكن اليبوسة فى المِرّة السوداء، ومسكن الرطوبة فى الدّم، ومسكن البرودة فى البلغم، ومسكن الحرارة فى المِرّة الصفراء. فأيمـا جسدٍ آعتدلت فيه هـذه الفطَر الأربع وكانت كلُّ واحدة فيه وفقا لا تزيد ولا تنقص، كملت صحته وآعتدل بناؤه . فإن زادت واحدة منهنّ عليهنّ وقهَرتْهنّ ومالت بهنّ، دخل على أخواتها السُّقْم من ناحيتها بقدر ما زادت ؛ وإن كانت ناقصة عنهنّ، مِلْن بها وعلونها وأدخلن عليها السُّقْم من نواحيهنّ، لغلبتهنّ عليها حتّى تضعُف عن طاقتهنّ وتعجزَ عن مقاومتهنّ .

قال وهب : وجعل عقله فى دماغه، وشَرَهه فى كُلْيتيه، وغضبه فى كبده، وصَرَامته فى قلبه، ورغبته فى رئته، وضحكه فى طحاله، وحزنه وفرحه فى وجهه . وجعل فيـه ثلثمائة وستين مَفْصِلا .

ويقال : إنمـا لُقِّب الإنسان بالعالم الصغير، لأنهم مَثَّلُوا رأسـه بالفلك، ووجهه بالشمس إذ لا قِوام للعالَم إلا بها كما لا قوام للجسد إلا بالرُّوح، وعقلَه بالقمر لأنه يزيد وينقص ويذهب ويعود، ومثلوا حواسَّه الخمسَ ببقية الكواكب السـيَّارة، وآراءه بالنجوم الثابتة، ودمعه بالمطر، وصوته بالرعد، وضحكه بالبرق، وظهره بالبَرّ، وبطنه بالبحر، ولحمه بالأرض، وعظامه بالجبال، وشعره بالنبات، وأعضاءه بالأقاليم، وعروقه بالأنهار، ومغارَ عروقه بالعيون .

ومنها : أن فيه مايشاكل الجمعة، والشهر، والأيام، والسنة .

أما أيام الجمعة، فإن بدنه سبعة أجزاء، وهى اللحم، والعظام، والعروق، والأعصاب، والدّم، والجلد، والشعر .

وأما الشهور، فإن لبدنه اثنى عشر جزءا مدبرًّا : ستة منها باطنة؛ وهى الدماغ، والقلب، والكَبِد، والطِّحال، والمعدة، والكُلْيتان؛ وستة ظاهرة، وهى العقل، والحواسّ الخمس؛ فهذه الاثنا عشر مقابلة لشهور السنة .

وأما الأيام، فإن فيه ثلثمائة وستين عظما؛ منها ما هو لبِنْية الجسد مائتان وثمانية وأربعون عظما . والإنسان ينقسم إلى أربعة أنواع : الرأس، واليدان، والبدن، والرِّجلان؛ ففى الرأس اثنان وأربعون عظما؛ وفى اليدين اثنان وثمانون عظما؛ وفى البدن أربعون عظما؛ وفى الرجلين أربعة وثمانون عظما؛ والباقى سُمْسُمانية لسدّ الفروج التى تكون بين العظام . وفيه ثلثمائة وستون عِرْقا .

وأما فصول السنة : فإن فيه أربعة أخلاط طبْعُها طبعُ الفصول الأربعة، فالدّم كالربيع فى حرارته ورطوبته، والمِرّة الصفراء كالصيف فى حرّه ويبسه، والمرّة السوداء كالخَريف فى برده ويبسه، والبلغم كالشتاء فى برده ورطوبته . وهذه الأخلاط من أوّل مزاج الأركان التى هى العناصر الأربعة، وهى : النار، والهواء، والماء، والأرض .

فصـــل

وأما ترتيب أحواله وتنقل السنّ به إلى أن يتناهى :

[قال الله تبارك وتعالى : ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ .[1]

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ .

وقال عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

وفى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يكون عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يبعثُ اللهُ تعالى مَلَكًا فيؤمَرُ بأربع : برزقه وأجله وشقىّ أو سعيد " ، الحديث .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وَكَّلَ اللهُ بالرحم مَلَكا : فيقولُ أىْ رب نطفةٌ ! أى ربِّ علقةٌ ! أى ربِّ مضغةٌ ! فإذا أراد اللهُ أن يقضىَ خَلْقَها قال : أىْ ربِّ ذَكَرٌ

(١) هذه الزيادة المحصورة بين قوسين مربعين منقولة كما هى عن إحدى النسخ .

أم أنثى ؟ أشقىّ أم سعيد؟ فما الرزقُ؟ فما الأجلُ؟ فيُكتَبُ كذلك فى بطن أمّه".

خرّج ذلك البخارىّ فى "صحيحه" فى باب القَدَر .

وقال الثعلبىّ فى تفسير قوله تعالى ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ :

" قالت الحكماء : يشتمل الإنسانُ من كونه نطفة إلى أن يهرَمَ ويموت على سبعة وثلاثين حالا ، وسبعة وثلاثين اسما[1] : نُطْفة ، ثم عَلَقة ، ثم مُضْغة ، ثم عَظْما ، ثم خَلْقا آخر ، ثم جَنينا ، ثم وَلِيدًا ، ثم رَضيعا ، ثم فَطيما ، ثم يافعًا ، ثم ناشئًا ، ثم مُتَرَعْرِعا ، ثم حَزَوَّرا ، ثم مُرَاهقا ، ثم مُحْتَلِما ، ثم بالغًـا ، ثم أمْرَدَ ، ثم طارًّا ، ثم باقِلًا ، ثم مُسَيْطِرا ، ثم مُصْرخا ، ثم مُخْتَطًّا ، ثم صُمُلًّا ، ثم مُلْحيا ، ثم مستريما ، ثم مصعدا ، ثم مُجْتَمِعا .

وقال غيره] :

مادام الولد فى الرَّحِم ، فهو جَنِين ؛ فإذا وُلِد ، فهو وَليد ، وما دام لم يَسْتَتِمّ سبعةَ أيام ، فهو صَدِيغ : لأنه لم يشتدّ صُدْغُه إلى تمام السبعة ؛ ثم مادام يَرْضَع ، فهو رَضِيع ؛ فإذا قُطِع عنه اللبن ، فهو فَطِيم ؛ ثم إذا غلُظ وذهبت عنه تَرارة الرَّضاعة ، فهو جَحْوَش .

قال الهذلىّ :

قَتَلْنَا مَخْـلدًا وٱبْنَىْ حُرَاق * وآخَرَ جَحْوَشًا فوقَ الفَطِيمِ .

ثم إذا دَبَّ ونمـا ، فهو دارِج .

فإذا بلغ طُولُه خمسةَ أشبار ، فهو خُمَاسىّ .

فإذا سقطت رواضعُه ، فهو مَثْغُور .

فإذا نبتت أسنانه بعد السُّقُوط ، فهو مُثَّغِر ومتَّغِر معا .

---

(١) البيانات التالية بعده سبعة وعشرون فلعلها محرفة عنها .

فإذا تجاوز عشر سنين أو جاوزَها[1]، فهو مترعْرِع وناشئ .

فإذا كاد أن يبلُغَ الحُلُم أو بلغه، فهو يافِعٌ ومراهِق .

فإذا آحتلم وآجتمعَتْ قوّتُه، فهو حَزَوّر؛ وآسمه فى جميع هذه الأحوال التى تقدّم ذكرها غُلَام .

فإذا آخضَرّ شاربه وأخذ عِذارُه يَسِيل، قيل فيه قد بَقَل وجهُه . ٥

فإذا صار ذا فَتَاء، فهو فتًى وشارخ .

فإذا آجتمعت لحيته وبلغ غايةَ شبابه، فهو مجتمِع .

ثم مادام بين الثلاثين والأربعين، فهو شابٌّ، ثم هو كَهْل إلى أن يستوفِىَ الستين .

فصــــل

فى ظهـــور الشيب وعمومه ١٠

يقال للرجل أوّلَ مايظهر به الشيبُ، قد وَخَطَه الشيب .

فإذا زاد، قيل خَصَّفه وخَوَّصه .

فإذا ابيضَّ بعضُ رأسه، قيل قد أخْلَس رأسُه، فهو مُخْلِس .

فإذا غلب بياضُه سوادَه، فهو أغثَمُ .

فإذا شَمِطت مواضعُ من لحيته، قيل وخَزَه القَتِير ولَهَزه . ١٥

فإذا كثر فيه الشيبُ وآنتشر، قيل فيه قد تقشّع[2] فيه الشيبُ .

---

(١) وردت هذه الجملة هكذا بالأصل . وفى فقه الثعالبى (فاذا كاد يجاوز العشر السنين، أو جاوزها فهو مترعرع وناشئ) وهو الصواب .

(٢) كذا بالأصل وفقه اللغة وهو محرف عن "تَفَشَّغ" قال فى القاموس (وتَفَشَّغ فيه الشيب أو الدم : آنتشر وكثر) . ٢٠

ويقال أيضا : شابَ الرجل، ثم شَمِط، ثم شاخَ، ثم كَبِر، ثم توجَّه، ثم دَلَف، ثم دَبَّ، ثم مَجَّ، ثم هَدَج، ثم ثَلَّب، ثم الموت .

وقيل : ما السرور؟ قال : إدراك الحقيقه، وآستنباط الدّقيقه .



وأما النفس الغضبية، فهمُّ صاحبها منافَسَة الأكْفاء ومغالبة الأقْران ومكاثرة العشيرة .

ومن ذلك ما أجاب به حصين بن المنذر، وقد قيل له : ما السُّرور؟ قال: لواءٌ منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليكَ أيها الأمير.

وقيل للحسن بن سهل : ما السرور؟ قال : توقيعٌ جائز،وأمرٌ نافذ .

وقيل لعبد الله بن الأهتم : ما السرو ؟ قال : رفْعُ الأولياء، ووَضْع الأعداء، وطول البقاء،مع الصحّة والنماء .

وقيل لزياد : ما السرور؟ قال: من طال عُمُره،ورأى فى عدوّه ما يسُرُّه .

وقيل لأبى مسلم، صاحب الدعوة : ما السُّرور ؟ قال : ركوب الهَمَاجة،وقتل الجبابرة . وقيل له : ما اللذة ؟ قال : إقبال الزمان، وعِزُّ السلطان .

* * *

وأما النفس البهيمية، فهمُّ صاحبها طلبُ الراحة.وآنهماك النفْس على الشهوة من الطعام والشراب والنكاح .

وعلى هذه الطبيعة البهيمية قسمت الفُرْس دهرها كلَّه، فقالوا :

يوم المَطَر للشرب ؛ ويوم الريح للنوم ؛ ويوم الدَّجْن للصيد ؛ ويوم الصَّحْو للجلوس .

قيل : ولما بلغ ابن خالويه ما قسمته الفرس من أيامها قال : ما كان أعْرَفَهم بسياسة دنياهم ! ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

ولكنّ نبينا صلى الله عليه وسلم جَزَّأ نهارَه ثلاثةَ أجزاء : جزءا لله ، وجزءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جَزَّأ جزأه بينه وبين الناس ، فكان يستعين بالخاصة على العامة ، ويقول : "أبْلِغُوا حاجةَ مَنْ لا يَسْتطِيعُ إبلاغى . فإنه مَنْ أبلغ حاجةَ مَنْ لا يستطيع ، آمنه الله يوم الفَزَع الأكبر" .

قالوا : والطبيعة البهيمية هى أغلبُ الطبائع على الإنسان : لأخذها بِمَجَامع هواه ، وإيثار الراحة وقلة العمل .

ومن ذلك قولهم : الرأى نائم ، والهوى يقظانُ ؛ وقولهم : الهوى إلٰهٌ معبودٌ .

ومن ذلك ما أجاب به امرؤ القيس ، وقد قيل له : ما السرور ؟ فقال : بيضاء رُعْبُوبه ، بالطيب مَشْبوبه ، باللحم مَكْروبه . "وكان مفتونا بالنساء" .

وقيل لأعشى بكر : ما السرور ؟ قال : صَهْباءُ صافيه ، تَمْزُجُها ساقيه ، من صَوْب غاديه . "وكان مغرما بالشراب" .

وقيل لطَرَفة بن العبد : ما السرور ؟ قال مَطْعَم هَنِيّ ، ومَشْرَب رَوِيّ ، ومَلْبَس دَفِيّ ، ومَرْكَب وَطِيّ . "وكان يؤثر الخفض والدَّعة" . وهو القائل :

فلولا ثَلاثٌ هنّ من عِيشةِ الفتى ، * وعَيْشِك ! لم أحْفِلْ متى قام عُوَّدى .

فمنهنّ سبق العاذلات بشَرْبة * كُمَيت متى ما تُعْلَ بالماء تزبِد ،

وكَرّى إذا نادى المُضافُ مُجَنَّبا * كسيدِ الغَضا نبّهته المتورِّدِ.
وتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ، والدَّجْنُ مُعْجِبٌ، * ببهكنةٍ تحت الخِباءِ المُعَمَّدِ.

وسمع هذه الأبياتَ عمر بن عبد العزيز فقال : وأنا لولا ثلاث لم أحفل متى قام عُوَّدى : لولا أن أعدِل فى الرعيه، وأقسِم بالسويَّه، وأنفِرَ فى السَّرِيَّه .

٥ وقال عبد الله بن نَهِيك، عفا الله تعالى عنه :

فلولا ثلاثٌ هنّ من عِيشة الفتى، * وعَيْشِك، لم أحْفِل متى قام رامسُ.
فمنهن سَبْقُ العاذلات بشربة * كأنَّ أخاها مطلَعَ الشمس ناعِسُ.
ومنهنّ تجريدُ الكَواعب كالدُّمى * إذا ٱبتُزَّ عن أكفالهنّ المَلابِسُ.
ومنهن تقريطُ الجَوَادِ عِنانَه * إذا ٱبتدر الشخصَ الخفيّ الفوارسُ.

١٠ وقيل ليزيد بن مزيد : ما السرور ؟ فقال : قُبْلة على غفلة .

وقيل لحُرَقة بنت النعمان : ما كانت لذةُ أبيك ؟ قالت : شربُ الجِرْيال، ومحادثة الرجال .

وقيل للحسن بن هانئ : ما السرور ؟ فقال : مجالسة الفِتْيان، فى بيوت القِيَان، ومنادمة الإخوان، على قُضُب الرَّيْحان، ثم أنشد :

١٥ قلتُ بالقُفْص لموسى، * ونَدَامايَ نِيَامُ:
يا رضيعى ثدى أمٍّ * ليس لى عنه فِطَامُ!
إنما العَيْشُ سَمَاعٌ * ومُدَام ونِدامُ.
فإذا فَاتَك هذا، * فعلى الدنيا السلامُ!

... ...

(٧)

الباب الثانى

من القسم الأوّل من الفن الثانى

(فى وصف أعضاء الإنسان وتشبيهها)

وما وصف به طِيب الريق والنَّكهة، وحسن الحديث، والنَّغْمة، واعتدال القدود، ووصف مشْى النساء. وهو مرتب على ترتيب بِنْية الإنسان فى المذكر والمؤنث . ٥

***

فأما الشَّعَر وما قيل فيه، قال الثعالبىّ عن أئمة اللغة :

العَقيقة ، الشعر الذى يولَدُ به الإنسان .

الفَرْوة ، شعر معظم الرأس .

الناصِيَة ، شعر مقدّم الرأس . ١٠

الذُّؤابة ، شعر مؤخَّر الرأس .

الفَرْع ، شعر رأس المرأة .

الغَدِيرة ، شعر ذُؤابتها .

الغَفَر ، شعر ساقها .

الدَّبَب ، شعر وجهها . ١٥

الوَفْرة ، ما بلغ شحمَة الأذن من الشعر .

اللِّمَّة ، ما ألَمَّ بالمَنْكب منه .

الطُّرَّة ، ما غشَّى الجَبهة منه .

الجُمَّة والغَفْرة ، ما غطَّى الرأس منه .

الهُدْب، شعر أشفار العين .

الشارب، شعر الشَّفَة العليا .

العَنْفَقَة، شعر الشفة السُّفلى .

المَسْرَبة، شعر الصدر. وفي الحديث أنه كان عليه الصلاة والسلام دقيق المَسْرَبة .

٥ الشِّعْرة، العانة .

الإِسْب، شعر الأست .

الزَّبَب، شعر بدن الرجل . ويقال بل هو كثرة الشعر في الاذنين .

فصل
في تفصيل أوصافه

١٠ يقال : شعر جُفَال، إذا كان كثيرا .

ووَحْفٌ، إذا كان متصلا .

وكَثٌّ، إذا كان كثيرا كثيفا مجتمعا .

ومُعْلَنْكِس، ومُعْلَنْكِك، إذا زادت كثافته .

ومُنْسَدِر، إذا كان منبسطا .

١٥ وسَبِط، إذا كان مسترْسِلا .

ورَجْل، إذا كان غير جَعْد ولا سبط .

وقَطَطٌ، إذا كان شديد الجُعُودة .

ومُقْلَعِطٌّ، إذا زاد على القَطَط .

ومُفَلْفَل، إذا كان نهايةً في الجُعُودة كشعر الزَّنج .

وسُخَام، إذا كان حسنا لَيِّنا .

ومُغْدَوْدِن، إذا كان طويلا ناعما .

وقال الأصمعىّ : من لم يَخِفَّ شعره قبل الثلاثين لم يَصْلَع أبدا، ومن لم يحمل اللحمَ قبل الثلاثين لم يحمله أبدا .

٥

* * *

ومما وُصف به الشَّعْر، قال نصر بن أحمد، عفا الله تعالى عنه :

سَلْسَل الشَّعْر فوقَ وجهٍ، فحاكى * ظُلْمَةَ الليل فوقَ ضَوْءِ الصَّباحِ .

وقال آبن الرومىّ :

وفاحــم واردٍ يُقَبِّــلُ مَمْـشاه إذا آختالَ مُرْسِلا غُدُرَهْ .

١٠

أقبَلَ كاللَّيْــل من مَفارِقه * منحدِرًا لا يُذَمُّ منحَــدَرَهْ .

حتَّى تناهى إلى مَوَاطِئِــه * يَلْثِمُ من كلِّ مَوْطِئٍ عَفَــرَهْ .

كأنَّهُ عاشِــقٌ دنَا شَــغَفًا * حتَّى قضى من حَبِيبه وَطَرَهْ .

وقال فتح الدّين بن عبد الظاهر :

خَــلَّ ثلاثًا يوم حَمَّامِــه * ذوائبًــا يَعْبَقُ منهــا الغَوالْ .

١٥

فقلتُ، والقَصْدُ ذُؤاباتُه : * يا سَهَرِى فى ذى اللَّيالِ الطِّوالْ !

وقال آخر :

قد عُلِّق القلبُ بدَبُّوقَةٍ * وجُنّ منها فهو مَفْتونُ ؟

واعَجَبًا للعِشْق فى حُكْمِه * بشَعْرة قُيِّــد مجنونُ !

وقال آخر:

رأيتُ على قَــدِّ الحَبيبِ ذُؤابةً * فعَيْنِي على تلك الذُّؤابة تَهْمَعُ.

يقول لِيَ الواشُونَ: مالكَ باكيًا؟ * فقلت: بعَيْنِي شَعْرةٌ فهي تَدْمَعُ.

وقال آخر:

وشَــعْرةٍ عايَنَهــا ناظِرى * على قَوَامٍ مائسِ الخَطْرَه.

فسالَ دَمْعًا وهْىَ جَفْنُه، * والدَّمْعُ لاشَكَّ من الشَّعْرَه.

وقال آخر:

ولَرُبَّ مَشْوقِ القَوَامِ تَضُــمُّه * ممشُوقةٌ، فتعانَقَــا غُصْنَيْنِ.

أرْخَتْ ذوائبَها وأسبلَ شَعْرَه، * فتقابَلَا قمَرَيْنِ في لَيْلَيْنِ!

* * *

ومِمَّــا وُصِفت به شعورُ النساء، قال بكر بن النطَّاح:

بَيْضاءُ تَسْحَبُ من قِيامٍ فَرْعَها * وتَغِيبُ فيه فهْو جَثْلٌ أسْحَمُ.

فكأنَّهــا فيــه نهــارٌ ساطِــعٌ، * وكأنّه لَيْــلٌ عليهــا مُظْلِمُ.

وقال آخر:

نشَرَتْ عَلَيَّ ذوائبًا من شَعْرِها، * حذَرَ الكَواشِحِ والعَدُوِّ المُحْنَقِ.

فكــأنَّنِي وكأنَّهــا وكأنَّهُ * صُبْحانِ باتَا تحت ليلٍ مُطْبِقِ.

وقال عمرُ بن أبي ربيعة:

سَبَتْهُ بوَحْفٍ في العِقَاصِ كأنَّهُ * عَنَاقِيدُ، دَلَّاها من الكَرْمِ قاطِفُ.

أسِيلاتُ أبدانٍ، دِقاقٌ خُصُورُها، * وَثِيراتُ ما الْتَفَّتْ عليه المَلَاحِفُ.

وقال المتنبي :

ومَنْ كُلَّما جَرَّدْتُها من ثِيابِها ، * كَساها ثِياباً غيرَها الشَّعَرُ الوَحْفُ.

وقال أيضا :

دعَتْ خَلاخيلُها ذوائِبَها ، * فجئْنَ مِن فَرْقِها إلى القَدَمِ.

وقال فى أخرى : ٥

نشَرَتْ ثَلاثَ ذوائبٍ من شَعْرِها * فى ليْلةٍ ، فأرَتْ لَيالِىَ أربَعا.

وآستقْبَلَتْ قَمَرَ السماءِ بوجْهِها ، * فأرَتْنِىَ القَمرَيْنِ فى وَقْتٍ معا.

وقد ألَمَّ فى ذلك بقول آبن المعتز :

سَقَتْنِى فى لَيْلٍ شَبِيهٍ بشَعْرِها * شَبِيهةَ خَدَّيْها بغَيْرِ رَقِيبِ.

فأمْسَيْتُ فى ليْلَيْنِ بالشَّعْرِ والدُّجى ، * وشَمْسيْنِ من خَمْرٍ وخَدِّ حَبِيبِ. ١٠

وقال آبن المعتز :

فلَمَّا أنْقَضتْ وَطَرا وهَمَّتْ * على عَجَلٍ بأخْذٍ للرِّداءِ ،

رأتْ شَخصَ الرَّقيبِ على تَدانٍ * فأسبَلَتِ الظَّلامَ على الضِّياءِ.

وغاب الصبحُ منها تحتَ ليلٍ ، * وظَلَّ الماءُ يَقْطُر فوقَ ماءِ.

وقال آبن لَنْكَك : ١٥

هَلْ طالبٌ ثأْرَ مَنْ قد أهدَرَتْ دَمَهُ * بِيضٌ ، عليهنّ نَذْرٌ قتلُ مَنْ عَشِقا ؟

من العَقائل ما يَخْطِرْنَ عن عُرُضٍ * إلَّا أرَيْنَكَ فى قَدٍّ قَنًا ونَقا.

رَوَاعِفٌ بخُدودٍ زانها سَبَجٌ * قد زَرَّفَنَ(١) الحسنُ فى أصداغِها حَلَقا.

---

(١) زرفن صدغيه جعلهما كالزُّرفِين وهو حلقة الباب .

نَوَاشِرٌ في الضُّحى من فَرْعِها غَسَقًا، * وفي ظَلام الدُّجى من وَجْهِها فَلَقا.
أَعَرْنَ غِيدَ ظِباءٍ رُوِّعتْ غَيَـدًا، * والوَرْدَ تَوْرِيدَ خدٍّ، والمَهَا حَدَقَا.

وقال آبن دُريد الأزديّ :

غَرَّاء لو جَلَتِ الخُـدودُ شُعاعَها * للشَّمْس عند طُلُوعِها، لم تُشْرِقِ.
غُصْن على دِعْصٍ تأَوَّدَ فَوْقَـهُ * قمـرٌ تأَلَّق تحتَ ليـل مُطْبِقِ.
لو قِيل للحُسْن : آحتكِمْ لم يَعْدُها . * أو قيل: خاطِبْ غيرَها! لم يَنْطِقِ.
فكأنَّنا مِن فرعهـا في مَغْرِبٍ، * وكأنّنـا من وَجْهِها في مَشْرِقِ.

وقال آخر :

جُعودةُ شعرِها تَحْكِي غَدِيرا * يُصَفِّقه الجَنوبُ مع الشَّمالِ.

***

ذكر ما قيل في الشيب والخضاب من المدح والذم

فأما مدح الشيب، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ شابَ شَيْبةً في الإسلام كانتْ له نُورا يومَ القِيامةِ".

وقال آبن أبي شيبة : "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نَتْف الشيب وقال : هو نور المؤمن".

وفي الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ان أوّلَ مَنْ رأى الشيب إبراهيمُ الخليل عليه السلام، فقال : يا ربِّ ما هـذا ؟ فقال له : الوقارُ، فقال : رب زِدْني وقارا".

وتأمل حكيمٌ شيبَه فقال : مرحبا بزهرة الحُنْكة ويُمْن الهدى ومقدّمة العفّة ولباس التقوى .

وقيل : دخل أبو دُلَف على المأمون وعنده جارية له ، وكان أبو دُلَف قد ترك الخضاب ، فأشار المأمون إلى الجارية فقالت له : شِبْتَ ياأبا دُلَف . إنا لله و إنا اليه راجعون . فسكتَ عنها أبو دلف ، فقال له المأمون : أجبها ، فقال :

تهزّأتْ إذ رأتْ شَيْبِي فقلتُ لها : * لا تَهْزَئِي مَنْ يطُلْ عمرٌ به يَشِبِ !
شَيْبُ الرجالِ لهم زَيْنٌ ومَكْرُمةٌ ، * وشَيْبُكن لكُنَّ الويلُ فاكتئبي !
فينا لكُنَّ و إن شَيْبٌ بَدَا أَرَبٌ ، * وليس فيكُنَّ بعد الشَّيْب من أَرَب !

وقال آخر :

أهْلا وسَهْلا بالمشيب ومرحبا ، * أهْلًا به من وافدٍ ونَزِيلِ !
أَهْدى الوقارَ وذادَ كلَّ جهالة * كانتْ ، وساقَ إلىَّ كلَّ جميلِ .
فصَحبتُ فى أهل التقى أهلَ النهى * ولُقِيتُ بالتعظيم والتبجيلِ .
ورأى لىَ الشُّبّانُ فضلَ جلالةٍ * لما اكتَهَلْتُ ، وكنتُ غير جليلِ .
فإذا رأَوْنى مقبلًا ، نهضُوا معًا : * فِعْلُ المقرِّ لهيبة التفضيلِ .
إن قلتُ ، كنتُ مصدَّقًا فى مَنْطِقى ، * ماضى المَقَالة حاضرَ التعديلِ .

وقال مُسْلم بن الوليد :

الشَّيْبُ كُرْهٌ ، وكُرْهٌ أن يُفارِقَنى * أعجِبْ لشىءٍ على البغضاءِ مودُود .

وقال علىّ بن محمد الكوفىّ :

بكَى للشَّيْب ، ثم بكَى عليه * وكان أعزَّ من فقد الشَّباب .
فقُلْ للشَّيْب : لا تبرحْ حميدًا * إذا نادى شبابُك بالذَّهاب .

وقال العسكري :

يَوَدُّ أنَّ شَيْبَهُ * إذ جاءَ لا يَنْصَرِفُ،
يَخْلُفُ رَيْعانَ الصِّبا * والمَوتُ منه خَلَفُ،

وقال ابن المعتز :

قد يَشِيبُ الفَتى ، وليس عَجِيباً * أن يُرى النَّوْرُ في القضيب الرَّطيب،

وقال أبو تمام :

ولا يُؤَرِّقْكَ إيماضُ القَتيرِ بِهِ * فإنَّ ذاكَ ابتسامُ الرأيِ والأدَبِ،

وقال أبو الفتح البستي :

يا شَيْبَتي دُومِي ولا تَتَرَحَّلِي * وتيقَّني أنِّي بوصْلِكِ مُولَعُ!
قدكنتُ أجْزَعُ من حُلولِكِ مرةً، * فالآن من خوفِ ارْتحالِكِ أجْزَعُ!

وقال آخر :

فأمَّا المَشِيبُ فصُبْحٌ بدا * وأما الشَّباب فليلٌ أفَلْ،
سَقى الله هـذا وهذا معًا * فنِعْمَ المُوَلَّى ونعم البَدَلْ!.

وقال أبو الفتح كشاجم :

تفكَّرتُ في شَيْبِ الفتى وشبابِهِ * فأيقنتُ أن الحقَّ للشَّيْبِ واجبُ،
يصاحبُني شَرْخُ الشبابِ فينقَضِي، * وشَيْبِيَ لي حتَّى المَمات مصاحبُ،

وقال أبو العلاء السروي ، شاعر اليتيمة :

حيِّ شَيْبًا أتى لغير رحيل ، * وشبابًا مضى لغيرِ إيابِ!
أيُّ شيءٍ يكونُ أحسَنَ من عا * جِ مَشِيبٍ في آبنوسِ شَبابِ؟

وقال أبو عَوانة الكاتب :

هَزِئتْ إذ رأتْ مَشيبى، وهل غَيْ * رُ المَصابيح زينــةٌ للسماء؟

وتولَّتْ فقلتُ قولًا بإفصا * حٍ لها، لا بالرَّمْز والإيمــاء:

إنمــا الشيبُ فى المَفَارِق كالنُّو * رِ بَدَا والسَّــوادُ كالظلماء.

لا مَحِيصٌ عن المَشِيب أو المو * تِ، فكُنْ للحَوْباء أو للنَّماء!

إن عُمْرا عُوِّضتَ فيه عن المو * ت بشَيْبٍ من أعظَم النَّعماء!

وقال ابن عبد ربه :

كأنَّ سوادَ لِمتــهِ ظلام * يُطِلُّ من المَشِيب عليه نُورُ.

وقال أبو عبد الله الاسباطى :

لا يَرُعْكِ المَشيبُ، يا ابنةَ عبد اللّ * هِ، فالشيبُ زينــةٌ ووَقارُ!

إنمــا تحسُنُ الرِّياضُ إذا ما * ضَحِكتْ فى ظلالها الأنْوار.

* * *

وأما ما ورد فى ذم الشيب، قال قيس بن عاصم رحمة الله عليه: الشيبُ خِطامُ المنيَّة .

وقال غيره : الشيبُ نذير الموت .

وقد ورد فى بعض التفاسير فى قوله تبارك وتعالى ﴿وجاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ . قيل : هو الشيب .

وقال أعرابىٌّ : كنتُ أُنكر البيضاءَ ، فصرت أُنكر السوداء ؛ فيا خَيْرَ مبــدول ويا شرَّ بَدَل .

وقيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : عَجّل عليك الشيبُ يا رسول الله، قال : "شيَّبتني هودٌ وأخَواتُها" . قيل : هي عَبَس، والمرسلات، والنازعات .

وقيل لعبد الملك بن مَرْوان : عَجّل عليك الشيب يا أمير المؤمنين، قال : شيبني ٱرتقاءُ المنابِر وتوقُّع اللحْن .

٥ وقال بعضهم: خرجت إلى ناحية الطُّفَاوة، فإذا أنا بامرأة لم أر أجمل منها، فقلت: أيتها المرأةُ ، إن كان لك زوج فبارك الله له فيكِ ، وإلا فأعلميني . قال فقالت : وما تصنعُ بي؟ وفيّ شيء لاأراك ترتضيه . قلتُ: وما هو؟ قالت: شيبٌ في رأسي . قال : فثنيتُ عِنَان دابتي راجعا، فصاحتْ بي: على رِسْلك، أخبرك بشيء، فوقفتُ وقلت: وما هو، يرحمكِ الله ؟ قالت : والله مابلغت العشرين بعدُ، وهـذا رأسي

١٠ فكشفَتْ عن عناقيد كالحُمَم ، وقالت : والله مارأيتُ برأسي بياضا قطُّ، ولكن أحببت أن تعلم أنّا نكره منك ماتكره منا ، وأنشدت :

أرى شيبَ الرِّجال من الغَوَانِي * بموضع شيبهنّ من الرجال!

قال : فرجعتُ خَجِلا ، كاسف البال .

قال أبو تمام :

١٥ غَدَا الشيبُ مختطا بفَوْدَيّ خِطَّةً * سبيلُ الرَّدى منها إلى النفس مَهْيَعُ .

هو الزُّور يُجْفَى، والمُعاشِر يُجْتوى، * وذو الإلف يُقْلى، والجديد يرقَّعُ .

له مَنظَرٌ في العين أبيضُ ناصعٌ، * ولكنه في القلب أسودُ أسفَعُ .

وقال آخر :

تقول لَمَّا رأتْ مشيبي * بدَا، وعندي له ٱنقباضُ:

٢٠ لاترجُ عَطْفا عليكَ منّي، * سوّدَ ما بيننا البياضُ!

وقال آخر :

وقالوا : مَشِيبُ المرْءِ فيه وقارُه، * وما علموا أن المَشيب هو العيْبُ.
وأىُّ وقارٍ لأمرئ عُرِّى الصِّبا، * ومن خَلْفه شيبٌ وقدّامه شيبُ؟

وقال آخر :

مَنْ شابَ، قد مات وهْو حَىٌّ، * يمشِى على الأرض مشى هالكْ!
لو كان عُمْرُ الفتى حسابًا * كان له شيبُه فذالِكْ.(١)

وقال محمود الورّاق :

بَكَيْتُ لقُرْب الأجَلْ، * وبُعْد فوات الأمَلْ!
ووافق شَيْبٌ طَرَا * بعَقْب شبابٍ رحَلْ.
شَبَابٌ كأن لم يَكُنْ * وشيبٌ كأن لم يَزَلْ.
طوى صاحبٌ صاحبًا * كذاك آختلافُ الدُّوَلْ!

وقال عَبِيد بن الأبرص :

والشيبُ شيْنٌ لمن أمسى بساحته! * لله درُّ شَبَاب الّلمة الخالى.

وقال البحترىّ :

ودِدْتُ بياضَ السيف يوم لقيننى * مكانَ بياض الشيب حلَّ بمَفْرِقى.

وقال أبو العتاهية :

عَرِيتُ عن الشباب، وكان غضًّا، * كما يَعرى من الورق القَضيبُ.
ألَا ليتَ الشبابَ يعودُ يومًا * فأُخْبِرَهُ بما فعل المَشيبُ!

---

(١) الفذالك جمع الفذلكة أى نتائج الحساب التى يقال عندها : فذلك يكون كذا . (أنظر : شفاء الغليل للخفاجى) .

وقال آخر :

يَاحَسْرتَا أين الشبابُ الذى * على تَعدِّيه المشيبُ ٱعتدى؟
شِبْتُ، فما أنفكُّ من حسرةٍ * والشيبُ فى الرأس رسولُ الرَّدى!
إنَّ مدى العُمْر قريبٌ فما * بقاءُ نَفْسى بعد قُرْب المَدَى؟

٥ وقال آخر :

هـذا عِذارُك بالمَشيبِ مُطرَّزٌ * فقبولُ عُذْرك فى التصابِى مُعْوِزُ!
ولقدعلمتُ ـ وماعلمتُ توهُّمًا ـ * أن المَشيبَ لهَدْم عمرك يرْمُزُ.

وقال أيضا :

أَلَسْتَ ترى نُجومَ الشَّيْب لاحَتْ * وشَيْبُ المرْء عنوانُ الفساد!

١٠ وقال أيضا :

أبلى جَديدِىَ هـذان الجديدانِ * والشأن فى أن هذا الشَّيْبَ يَنْعانِى!
كأنما ٱعتَمَّ رأسِى منه بالجَبَل الر * اسى، فأوهننى ثِقْلا وأوهانِى.

وقال آخر :

لما رأتْ وَضَح المَشيب بعارِضى * صدّتْ صُدودَ مُجانِب متحمِّل.
١٥ فجعلتُ أطلُب وصلَها بتلطُّف، * والشيبُ يغمِزُها بأن لا تَفْعلِى!

وقال كُشاجم :

ضَحِكتْ! من شَيْبةٍ ضَحِكتْ * لسَواد اللِّمَّة الرجِلَهْ
ثم قالتْ وهى هازئةٌ : * جاء هـذا الشيبُ بالعَجَلَهْ!
قُلت: من حُبِّيك،لا كِبَرٌ، * شاب رأسى فانثنت خَجِلَهْ.

وثَنَتْ جَفْنا على كَحَلٍ * هى منه الدَّهرَ مكتَحِلَهْ.
أكثَرَتْ منه تعجُّبَها! * فهى تَجْنِيه وتَعجَبُ لَهْ.

وقال أبو تمام :

دِقَّةٌ فى الحياة تُدْعى جَلَالا، * مثلَ ما سُمِّى اللَّدِيغ سليما.
غُرَّةٌ مُرَّة ألَا إنّما كنـ * ـتُ أغرًّا أيامَ كنت بَهِيما.

وقال ابن المعتز :

لقد أبغضتُ نفسى فى مَشيبى * فكيف تُحِبُّنى الخُودُ الكعَابُ؟

وقال أبو هلال العسكرىّ :

فلا تعجَبَا أن يَعِبْن المَشِيبا * فما عِبْنَ من ذاك إلا مَعِيبا!
إذا كان شَيْبِى بَغيضًا إلىّ * فكيف يكونُ إليها حَبِيبا؟

وقال محمد بن أُميّة :

رأينَ الغَوانِى الشيبَ لاحَ بعارضِى، * فأعرَضْنَ عنّى بالخُدود النّواضِر.
وكُنّ إذا أبصرْنَنِى أو سمِعْنَ بِى، * دَنَوْنَ فَرقَّعْنَ الكُوَى بالمَحَاجِر.

وقال آخر :

قالت، وقد راعها مَشِيبى : * كنتَ ابنَ عمٍّ فصرتَ عَمًّا.
واستهزأتْ بِى، فقلتُ أيضا : * قد كنتِ بنتًا فصِرتِ أُمًّا.

وقال آخر :

تضاحكتْ لَمّا رأتْ * شَيْبا تلألا غُرَرُهْ.
قلتُ لها : لا تعجَبى * أُنبِيكِ، عندى خَبَرُهْ.
هذا غَمَامٌ للردَّى، * ودمعُ عينى مَطَرُهْ.

⁂

ومما قيل فى الخضاب من المدح، ما رُوِىَ عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: "غَيِّروا هذا الشيبَ، وجَنِّبُوه السوادَ".

وكان أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه يَخْضِب بالحناء وبالكَتَم.

٥ وقد مدح الشعراء الخضابَ.

فمن ذلك قول عبد الله بن المعتزّ:

وقالُوا: النُّصُولُ مشيبٌ جَدِيدْ! * فقلتُ: الخضاب شباب جَدِيدْ!

إساءةُ هـذا بإحسانِ ذَا * فإن عاد هـذا فهـذا يعودْ.

وقال أبو الطيب المتنبى:

١٠ وما خَضَب الناسُ البياضَ لأنّهُ * قَبِيحٌ، ولكن أحسنُ الشَّعْر فاحِمُه.

وقال محمود الورّاق:

لِلضَّيْف أن يُقْرى ويُعْرَف حقُّه! * والشيبُ ضيفُك، فاَقْرِه بِخضاب.

وقال عبدان الأصبهانى:

فى مَشِيبى شَمَاتةٌ لِعداتِى، * وهو ناعٍ منغِّصٌ لحياتِى.

١٥ ويعيبُ الخضابَ قومٌ، وفيه * أىّ أُنْسٍ إلى حُضُور وفاتى.

لا ومَنْ يعلَمُ السرائرَ منِّى * ما به رُمْتُ خُلَّةَ الغانياتِ.

إنما رمتُ أن يُغَيَّبَ عنى * ما تُرِينيهِ كلَّ يومٍ مِراتِى.

وهوَ ناعٍ إلىّ نفسِى، ومَنْ ذا * سَرَّه أن يرى وجوهَ النُّعَاتِ؟

وقال ابن الرومىّ :

يا بياضَ المَشيبِ سوّدتَ وجْهى * عند بِيضِ الوجوه سُودِ القرون!

فلَعَمْرى ، لأُخفِينّكَ جُهْدى * عن عِيانى وعن عِيان العُيُون!

ولعمْرى ، لأمْنعنّكَ أن تضـ * ـحك فى رأسِ آسِفٍ محزونِ!

بخضابٍ فيه ابيضاضٌ لوَجْهى * وسوادٌ لوجهك الملْعون!

وقال آخر :

نَهى الشيبُ الغوانِىَ عن وِصالِى * وأوْقعَ بين أحبابى وبَيْنى .

فلستُ بتاركٍ تدبيرَ ذَقْنى * إلى أن ينقضى أمَدى لِحَيْنى .

أُدَبِّرُ لِحْيتى ما دمتُ حيًّا * وأعتِقُها ولكن بَعْدَ عَيْنى .

وقال آخر :

قالوا : فلانٌ لم يَشِبْ ، * وأرى المَشيبَ عليه أبْطا .

فأجبتُهُمْ : لولا حديـ * ـثُ الصِّبْغ لانكشَفَ المُغَطّى .

* * *

ومما قيل فى ذم الخضاب : قال محمود الورّاق ، رحمه الله :

ياخاضِبَ الشيبِ الّذِى * فى كُلِّ ثالثةٍ يَعُودْ .

إن النُّصُولَ إذا بدَا * فكأنه شَيْبٌ جَدِيدْ .

وله بَدِيهةُ رَوْعةٍ * مكروهُها أبدا عَتِيدْ .

فَدَعِ المَشِيبَ لِمَا أرا * د فلنْ يعودَ لما تُرِيدْ .

وقال آخر :

تَسَتَّرَ بالخِضاب ، وأىّ شىءٍ * أدلُّ على المشيب من الخِضَابِ؟

وقال ابن الرومي :

قُلْ للسوِّدِ حينَ سوّدَ : هكذا * غِشُّ الغواني في الهوى إياكا!
كذَبَ الغوانيَ في سَواد عِذارِه ، * فكذَبْنَه في وُدِّهنّ كذاكا!

وقال المتنبي :

ومِنْ هوى كلِّ مَنْ ليست مموِّهة * تركتُ لونَ مشيبي غيرَ مخضوب.
ومِنْ هوى الصدقِ في قولي وعادتِه * رغبتُ عن شَعَرٍ في الوجه مكذوبِ.

وقال الأمير شهاب الدين بن يغمور عفا الله عنه :

ياصابغَ الشَّيبِ ، والأيامُ تُظْهِره: * هذا الشبابُ ، وحَقِّ الله مصنوعُ!
إن الجديد إذا ما كان في خَلَقٍ * يَبِينُ للناس أن الثوبَ مرقوعُ.

١٠

* * *

وأما ما وصف به الوجه ، فمن ذلك ما قيل في المذكر

قال الوجيهي :

مستقبَلٌ بالذي يهوى ، وإن كثرت * منه الإساءة ، معذورٌ بما صَنَعا .
في وجهه شافعٌ يمحو إساءتَهُ * مِن القلوب ، وجيها حيثما شَفَعا .

١٥ وقال الآخر :

رأيتُ الهلالَ على وجْهِهِ * فلم أدْرِ أيُّهما أنورُ؟
سوى أنَّ ذاكَ قريبُ المَزَارِ * وهذا بعيد لمن ينْظُر.
وذاكَ يَغيبُ وذا حاضرٌ * فما مَنْ يغيبُ كمن يحْضُر.
ونَفْع الهلالِ كثيرٌ لنا * ونَفْع الحبيبِ لنا أكْثَرُ.

وقال ابن لنكك :

البَـدْرُ والشمس المُنِـيرةُ* والدُّمى والكَوْكَبُ :

أضحتْ ضرائرَ وجهه * من حيثُ يَطْلُعُ تغرُبُ .

وكأنّ جَمْـرَ جوانِحي * في خَـدِّه يتلهَّبُ .

وكأنّ غُصْنَ قَوامِـه * من ماءِ دمعِي يشرَبُ .

وصَوالِجٍ في صُـدْغه * بسـواد قلـبي تَلْعَبُ .

وقال ابن المعذل :

نَظرتُ إلى مَنْ زيَّنَ الله وجْهَه ، * فيانظرةً كادتْ على عاشقٍ تقضِي !

وكبَّرتُ عشرا، ثم قلتُ لصاحِبي : * متى نَزَلَ البدرُ المنيرُ إلى الأرضِ ؟

وقال الخُبْزأَرُزِّي :

رأيتُ الهلالَ ووجهَ الحبيبْ * فكانا هلالَيْنِ عنـد النَّظَـرْ .

فـلَمْ أدر من حَيْرَتِي فيهـما * هلالَ الدُّجى من هلال البَشَرْ !

فلولا التورّدُ في الوجنتيْن * وما راعَنِي من سَواد الشَّعَرْ ،

لكنتُ أظنُّ الهلالَ الحبيبْ * وكنتُ أظنُّ الحبيبَ القمَرْ !

وقال أبو الشيص :

تَخْشَعُ شمسُ النهارِ طالعةً * حينَ تراه ، ويخشع القَمَرُ .

تَعْـرِفُه أنه يفوقُهُـما * بالحسن ، في عينِ مَنْ له بَصَر .

وقال أبو هلال العسكريّ :

ووَجْه تَشرَّب ماء النعيمْ ، * فلو عُصِرَ الحسنُ منه انعصَر .

يمُــرّ فأمنحُه ناظـرِى * فينثُرُ ورْدا عليـه الخفَرْ.

تمتّعت العينُ فى حُسْنه، * فما حَفَلَتْ بطلوع القَمَرْ.

وقال ابن المعتز :

يامُفــرَدًا بالحسن والشَّكْلِ، * مَنْ دلّ عينيــك على قَتْــلِى؟

البدرُ من شمس الضُّحى نُورُهُ، * والشمسُ من وجهك تستَمْلِى.

٥

وقال ابن المعذّل يصف عُتْبَةَ :

لعُتبَــةَ صفحتا قمــرٍ * يفوق سَناهما القَمَرا،

يَزيدُكَ وجهُه حسنا * إذا ما زدتَه نَظَـــرا.

وقال السرىّ الرفاء :

قمــرٌ تفــرّد بالمحــاسن كلِّهــا، * فإليه يُنْسَب كلُّ حسنٍ يوصَف.

١٠

بجبينــه صُبْحٌ، وطُرّته دُجًى، * وقَــوامُه غصنٌ رطيب أهيف.

لله ذاك الوجهُ! كيف تألّفتْ * فيــه محاسنُ لم تكن تتألّف؟

وقال آخر :

وفى أربع منّى حلّتْ منــك أربعٌ، * فــا أنا أدرى أيُّهــا هــاجَ لى كَرْبى؟

أوَجْهُك فى عينى، أم الرِّيقُ فى فمى، * أم النطقُ فى سمعى، أم الحُبُّ فى قلبى؟

١٥

ومثله قول يعقوب الكندىّ :

وفى خمسةٍ منّى حلّتْ منك خمسةٌ: * فريقُك منها فى فَمى طيّب الرَّشْف،

ووجهُك فى عينى، ولَمْسُك فى يدى، * ونُطْقُك فى سمعى، وعَرْفُك فى أنفى.

وقال أبو نُوَاس :

كأنمـا الوجهُ إذ بَدَا قمـرٌ * مُرَكَّب فوق قامة الغُصُن .

ياذا الذى أصبح العِبـادُ به * فى فتنةٍ من عظائم الفِتَن !

أقبِلْ بوجه الهَوى إلىّ، فقد * أطلْتَ بالصدّ مُعرِضًا حَزَنِى !

٥

وقال محمد بن وهب :

نَمْ فقد وَكَّلْتَ بى الأرَقَا * لاهَنَـا بَعْـدُ لمن عَشِقَا .

إنمـا أبقيتَ من جَسَدِى * شَبَحًا غير الذى خُلِقَـا .

ما لمن تَمَّتْ محاسِنهُ * أن يُعادِى طَرْفَ مَن رَمَقَا .

لك أن تُبْدِى لنا حَسَنًا * ولنا أن نُعْمِل الحَـدَقا .

١٠

* * *

(١٣) ومن ذلك ماقيل فى المؤنث، قال ٱبن سكرة :

فى وجْه إنسانةٍ كَلِفتُ بهـا * أربعةٌ ما ٱجتمعْنَ فى أحد .

فالخـدُّ وَرْدٌ والصُّدغ غاليةٌ * والرِّيق خمـرٌ والثغرُ من بَرَدِ .

لكلِّ جُزء من حُسنِها بِدَعٌ * تُودِعُ قلبى ودائـعَ الكَمَـد !

١٥

وكان مكتوبا على عِصابةِ وَرْد جارية الماهانىّ :

تمّتْ !وتمّ الحسنُ فى وجهها ! * فكلُّ شىءٍ ما سواها مُحَالْ .

للناس فى الشهرِ هلالٌ، ولى * فى وجْهها كلَّ صباحٍ هلالْ !

وقال آخر :

وإذا الدُّرّ زانَ حُسْنَ وجُوهٍ، * كان للدُّرّ حسنُ وجهكِ زَيْنا .

٢٠

وتَزِيدين طَيِّبَ الطيب طِيبًا * إن تَمسِّيه ! أينَ مثلُك أينـا ؟

وقال آخر :

ليس فيها أن يُقال لها: * كَمَلتْ، لو أن ذا كَمُلا.
كلُّ جزءٍ من محاسنها * صائرٌ من حسنها مَثَلا.

وقال عمر بن أبي ربيعة :

٥ وفتاةٍ إن يغبْ بدرُ الدُّجى، * فلنا في وجْهها عنه خَلَفْ.
أجمع الناسُ على تفضيلها، * وهواهُمْ في سواها مختلِفْ.

وقال الجماني من أبيات :

نرى الشمسَ والبدرَ معناهما * بها واحدًا، وهما مَعْنيانْ.
إذا طلَعتْ وجهها، أشرقا * بطلعتها، وهما آفلانْ.

١٠ ⁂

ومما وُصف به صفاء الوجه ورقّة البشرة، فمن ذلك ماقيل مذكرا .

قال أبو نُوَاس :

نظرتُ إلى وجهه نظرةً * فأبصرتُ وجهيَ في وجهه.

وقال آخر .

١٥ أعِدْ نظرًا! فما في الخدّ نبتٌ، * حماهُ الله من رَيْب المَنُونِ!
ولكنْ رَقّ ماءُ الوجه حتّى * أراك مثالَ أهداب الجُفُونِ!

ومثله قول الآخر :

ولما استدارتْ أعينُ الناسِ حولَهُ * تُلاحظُه كيف استقلّ وسارا،
تمثّلتِ الأهدابُ في ماء وجهه، * فظَنّوا خيالَ الشَّعْر فيه عِذارا.

وقال الأُرَّجانىّ :

ما أنْسَ، لا أنْسَى له مَوْقِفًا، * والعِيسُ قد ثَوَّرَهُنّ الحُـدَاهْ.
لَمَّا تجـلَّى وجهُـه طالعًا، * وقـد ترامَتْ نَظَراتُ الوُشاهْ.
قابلَنِى حين بدتْ أدمُعِى * فى خَدِّه المصقولِ مثل المِراهْ.
يُوهِم صَحْبِى أنه مُسْعِدِى * بأدمعٍ لم تُذْرِهـا مقلتـاهْ.
وإنمـا قـلَّدنِى مِنّـةً * بدمعِ عينٍ من جُفونِى آمتَراهْ.
ولم تقـعْ فى خـدِّه قطـرةٌ * إلا خَيـالاتِ دمُوعِ البُكَاهْ.

وقال أيضا :

وأغيـدَ رقَّ ماءُ الوجهِ منه، * فلو أرخى لِثَـاما عنـه، سالا.
تُبِين سوادَها الأبصارُ فيه، * فحيثُ لحظتَ منه، حَسِبْتَ خالا.

٭٭٭

ومن ذلك ما قيل فى المؤنث، قال بشار :

وما ظَفِرتْ عينى غَداةَ لقيتُها * بشىءٍ، سوى أطرافها والمَحَاجِرِ.
بحَوْراءَ من حُورِ الجنانِ عزيزةٍ، * يَرَى وجهَهُ فى وجهها كلُّ ناظِرِ.

وقال السرىّ الرفاء :

بيضاءُ تنظُر من طَرْفٍ تقلِّبُهُ: * مفرِّقٍ بين أجسادٍ وأرواحِ.
ماءُ النعيم على دِيباجِ وَجْنتِهـا * يجولُ بين جَنَى وَرْدٍ وتُفّـاحِ.
رَقَّتْ: فلو مُزِجَ الماءُ القَراحُ بها * والراحُ، لآمتزجَتْ بالماءِ والراحِ!

وقال الأرّجانيّ من أبيات :

ولمّا تلاقينا، وللعين عادةٌ * تثير وُشاةً عنــد كلّ لقاءِ،
بدتْ أدمُعي في خدّها من صقاله، * فغارُوا وظنوا أن بكتْ لبكائي!

* * *

ومما قيل في صفرة الوجه، فمن ذلك ما قيل مذكرا .

قال أبو عبادة البحتريّ :

بَدتْ صُفرةٌ في وجهه، إنّ حَمْدَهُمْ * من الدُّرّ ما اصفرّتْ نواحيه في العِقْدِ.

وقال آخر :

لم تَشِنْ وجهَه المليحَ، ولكن * جعلتْ وَرْد وجنتيه بَهَارا.

وقال الأرّجانيّ وأجاد :

راقَ ماءُ الحياةِ من وجنتيه، * فهو مِرآةُ أوجهِ العُشّاقِ!

* * *

ومن ذلك ما قيل في المؤنث، قال سَلْم الخاسر :

تبدّتْ فقلتُ : الشمسُ عِند طلوعها * بوجهٍ غنيٍّ اللون عن أثر الوَرْسِ!
فقلتُ لأصحابي، وبي مثلُ ما بِهم، * على مِرْيَةٍ : ما هاهنا مطلَعُ الشمسِ!

وقال أبو تمــام :

صفراءُ — صفرةَ صحة — قد رُكّبتْ * جُثمانُها في ثوب سُــقم أصــفَر.

وقال مسعود الأصبهانيّ، شاعر الخريدة :

وقَينــةٍ قال لهــا نَاقصٌ : * كَمُلْتِ، لولا صُـفرة اللونِ.
قلتُ : اتّئِد! فالشمسُ مصفرّةٌ، * وهْيَ صــلاحُ الأرض في الكَوْنِ!

*
* *

ومما قيل فى السُّمْرة، قال شاعر :

كيفَ لا أعْشَقُ ظَبْيا * سارحًا فى ظِلِّ ملك.
إنما السُّمْرة فيـه * مَزْجُ كافور بِمِسْـكِ.

وقال آخر : ٥

ياذا الذى يُذْهِبُ أمـوالَهُ * فى حُبِّ هذا الأسمر الفائِق!
ماالذهبُ الصامتُ مستكْثَرا * إذهابُه فى الذهَب الناطِق!

وقال آخر :

ذَهبيُّ اللون تحسَبُ مِن * وجنتيه النـارَ تُقْتَـدَحُ.
خوّفُونى مِن فضيحتِه! * ليتَــهُ وافى، وأفتضِحُ! ١٠

*
* *

ومما قيل فى السَّواد (وهو يختص بالمؤنث) :

قال الزركشىّ فى "دنانيرَ" البرمكية :

أشْبَهَكِ المسكُ، وأشبهتِه: * قائمــةً فى لونه قاعــدَهْ.
لا شكَّ، إذ لونُكما واحدٌ، * أنكما من طينةٍ واحده. ١٥

وقال آبن الرومىّ :

أكْسَبها الحُبَّ أنها صُبِغتْ * صبغةَ حَبِّ القلوب والحَدَقِ.
فأقبلتْ نحوَهـا الضمائرُ والأبصارُ، يعبَقْن أيَّمـا عَبَــقِ!
يفترُّ ذاكَ السـوادُ عن يَقَقٍ * فى ثغـرها كاللآلِئِ النَّسَــقِ.
كأنّهـا، والمِزاحُ يُضْحِكها، * ليلٌ تفرّى دُجاه عن غَسَقِ. ٢٠

وقال الصنوبرىّ :

يا غُصُنا من سَبَج رَطْبِ، * أصبح منك الدرّ فى كَرْبِ!
حُبّك من قلبي مكانَ الذى * أشبهته من حَبَّة القلب.

وقال محمد بن عبد الله السلامىّ، شاعر اليتيمة عفا الله عنه :

٥ يارُبَّ غانيةٍ بيضاءَ تَصْبَحُنى * من العتاب كُؤوسا ليس تنْساغُ.
أشتاقُ طُرّتَها أو صُدْغَها ومعى * من كلّها طررٌ سُود وأصداغ!
كأننا، لا أتاح الله فُرْقَتنا! * يا كعبةَ المِسْك، يازَنْجيَّةً، زاغُ.

وقال آخر :

أُحبُّ النساءَ السُّودَ من أجل تُكْتَم، * ومن أجلها أحببتُ مَنْ كان أسودَا!
١٠ فجئنى بمثل المسك أطيبَ نفحةً! * وجئنى بمثل الليل أطيبَ مَرْقَدا!

وقال العسكرىّ :

صرفتُ وُدّى إلى السُّودان من هَجَرٍ، * ولا التفتُّ إلى رُومٍ ولا خَزَرِ!
أصبحتُ أعشَقُ من وجهٍ ومن بدَنٍ * ما يعشَقُ الناسُ من عينٍ ومن شَعَرِ.
فإن حسبْتَ سَوادَ الخدّ منقصةً، * فانظرْ إلى سُفعة فى وجْنة القَمَر!

١٥ وقال بشار وأجاد :

يكونُ الخالُ فى خدّ نقىّ * فيُكسبُه المَلاحة والجمالا،
ويُوهِمُه لأعيُنِ مُبْصِريه، * فكيف إذا رأيتَ اللون خالا؟

وقال أبو علىّ بن رشيق :

دعَا بِك الحسنُ فاستجيبى * باسمك فى صِبغة وطِيب.
٢٠ تيهى على البيض واستطيلى، * تيهَ شَبابٍ على مَشيب!

ولا يَرُعْك ٱسودادُ لونٍ * كَنُقْطة الشادِن الرَّبيب،
فإنما النُّور عن سَوَاد * فى أعيُن الناس والقُلُوبِ!

وقال آخر :

إن أزهَرَتْ لَيلًا نجومُ السما * بِيضًا على أسودَ مُرْخى الإزارْ،
وأوجب العكسُ مثالًا لها ، * فالسُّود فى الأرض نجومُ النهارْ.

* * *

ومما وصف به أثر الجُدَرىّ فى الوجه، فن ذلك قول الناجم :

ياقمرًا جَدّر لما ٱستوى * وٱكتسب الملحَ بتلك الكُلُومْ!
أظنُّه غنَّى لشمس الضُّحى * فنقَّطته فَرَحا بالنُّجومْ.

وقال آخر :

وقالوا : شانَه الجُدَرِىُّ، فانظُرْ * إلى وجهٍ به أثَرُ الكُلومِ!
فقلتُ : ملاحةٌ نُثِرت عليه ! * وما حُسْنُ السماء بلا نُجُوم؟

ومثله قول الآخر :

أيُّها العائبونَ وجها مَلِيحا * نَثر الحُسْنُ فيه نَبْذَ خُدُوشِ!
أىُّ أُفْقٍ بَهَا بغير نُجوم؟ * أىُّ ثوب زَهَا بغير نُقُوشِ؟

وقال أبو زيد القاضى :

غايةُ الحاسدِ الذى لامَ فيه * أنْ رأى فوقَ خدِّه جُدَرِيَّا،
إنما وجهُه هلالُ تَمامٍ، * جعلُوا بُرْقُعا عليه الثريَّا!

وقال أبو تمام بن رباح :

خَدُّك مرآةُ كلِّ حُسْنٍ ، * تحسُنُ من حُسْنها الصِّفاتُ!

مالى أرى فوقَهُ نُجُوما ، * قد كُسِفتْ وهى نَيِّراتُ؟

* * *

٥ ومما قيل فى الحواجب ، فمن محاسنها : الزَّجَجُ ، والبَلَج .

فأما الزَّجج ، فدقة الحاجبين وامتدادُهما .

وأما البَلَج ، فهو أن يكون بينهما فُرْجة . والعرب تستحب ذلك .

ومن معايبها : القَرَن ، والزَّبَب ، والمَعَط .

فالقرن ، اتصال الحاجبين . والعرب تكرهه .

١٠ والزَّبب ، كثرةَ شعرهما .

والمَعَط ، تساقط الشعر عن بعض أجزائهما .

* * *

ومما وُصِفت به الحواجب ، قال الزاهى :

وأغيدَ مجدولِ القَوامِ جبينُه * سَنا القمرِ البدْرىّ فى الغُصُنِ الرَّطْب .

١٥ تنكَّب قوسَ الحاجبَين فسهمه * لواحظُه المَرْضى . وبرجاسُه قلبى!

وقال عبد الله بن أبى الشيص :

حَذِرتُ الهوى حتَّى رُميتُ من الهوى * بأصْرِدِ سهمٍ من قِسِىّ الحواجبِ .

وقال محمد بن عبد الرحمن الكوفىّ :

ومستلِبٍ عينَ الغزال وقد تُرى * بجبهته عينُ الغزالة ماثلا .

٢٠ تناول قوسَ الحاجبين مُفَوِّقا * بأسهم ألحاظٍ تَشُكُّ المَقاتلا .

وقال آخر :

غَزَانِى الهوى فى جيشه وجُنوده * وعبَّى علىّ الخيلَ من كلِّ جانبِ .
بميمنــةٍ أعلامُها أعينُ المَهَــا * وميسرةٍ تقضى بِزُجِّ الحــواجبِ .

وقال آخر :

لها حاجبان ،الحُسْن والغُنْج منهما * كأنهــما نونان من خطِّ ماشق . ٥

* * *

وممــا قيل فى العيون ووصفها، فمن محاسنها :

الدَّعَج ، وهو شدّة السّواد مع سَعَة المُقْلة .

البَرَج، وهو شدّة سوادها وشدّة بياضها .

النَّجَل، سَعَتها . ١٠

الكَحَل، سواد جُفُونها من غير كُحْل .

الحَوَر، آتساع سوادها كأعيُنِ الظباء . وقيل: هو سواد العين وشدّةُ بياضها .

الوطَف، طول أشفارها؛ وفى الحديث أنه كان عليه الصلاة والسلام فى أشفاره وَطَفٌ .

الشُّهْلة، حمرة فى سوادها . ١٥

ومن معايبها :

الحَوَص، ضيق العين .

الخَوَص، غُؤُورها مع الضيق .

الشَّــتَر، آنقلاب الجفن .

العَمَش، هو أن العين لاتزال سائلةً رامصةً . ٢٠

الكَمَش ، أنْ لا تكاد تبصر .

الغَطَش ، شبه العَمَش .

الجَهَــر ، أن لا تبصر نهارا .

العَشَـا ، أن لا تبصر ليلا .

الخَــزَر ، أن ينظر بمؤْخر عينه .

الغضَنُ ، أن يكسر عينه حتّى تتَغضَّنَ جُفونُه .

القَبَــل ، أن يكون كأنه ينظر إلى أنْفه . وهو أهون من الحول .

الشُّطور ، أن تراه ينظرُ إليك وهو ينظر إلى غيرك . وهو قريب من صفة الأحول .

وفيه يقول الشاعر :

حَمِــدْتُ إلهى إذ بَلانِى بحبِّــه ﴿ وبى حَولٌ أغنى عن النظَر الشَّزْرِ

نظـرتُ إليــه ــ والرقيبُ يظنُّنى ﴿ نظرت إليه ــ فاسترحتُ من العذرِ

الشَّوَص ، أن ينظر بإحدى عينيه ويُميلَ وجهه فى شق العين التى ينظر بها .

الخَفَش ، صِغَر العين وضَعْف البصرِ . ويقال إنه فساد فى العين يضيق له الجَفنُ من غير وجع .

الدَّوَش ، ضيق العين وفساد البصر .

الإطْراق ، آسترخاءُ الجفن .

الجُحُــوظ ، خروج المُقْلة وظهورها من الحِجَاج .

البَخَــق ، أن يذهب البصر ، والعين منفتحةٌ .

الكَمَــه ، أن يولد الإنسان وهو أعمى .

البَخَص ، أن يكون فوق العين أو تحتها لحم ناتئ .

فصـــل
فى عـــوارض العيـــن

يقـال :

حَسِرتْ عينُه ، إذا ٱعتراها كَلَال من طول النظر .

زَرّتْ عينُــه ، إذا توقّدت من خوف .

مَدِرتْ عينه ، إذا لم تكد تبصر .

اسْمَدَرّت عينه ، إذا لاحت لها سمادِيرُ ، وهى مايتراءى لها من أشباه الذُّباب وغيره .

قَدِعت عينُه ، إذا ضعُفتْ من الإكباب على النظر .

حَرِجتْ عينه ، إذا حارت .

قال ذو الرمّة :

* وتَحْرَجُ العينُ فيها حِينَ تَنْتقِبُ *

هَجَمتْ ، إذا غارت .

ونقْنقتْ ، إذا زاد غؤورها ؛ وكذلك حَجَلتْ وهَجّجتْ .

ذَهِبت ، إذا رأتْ ذَهَبا كثيرا فحارتْ فيه .

شَخَصت ، إذا لم تكد تَطْرف من الحَيْرة .

فصـــل
فى كيفية النظر وهيئتــه

إذا نظر الإنسانُ إلى الشىء بمجامع عينيه ، قيل : قد رَمَقه .

فإذا نظر من جانب أذنه ، قيل : لحَظه .

فإذا نظر إليه بعَجَلة، قيل : لَمَحه .

فإذا رماه ببصره مع حِدّة، قيل : حَدَجه بطَرْفه .

(وفى حديث ٱبن مسعود «حَدِّث القومَ ما حَدَجُوك بأبصارهم») .

فإن نظر إليه بشدّة وحِدّة، قيل : أَرْشَقه وأَسَفَّ النظرَ إليه .

(وفى حديث الشعبيّ أنه كَرِه أن يُسِفَّ الرجلُ إلى أمّه وأخته وٱبنته) .

فإن نظَر إليه نظرِ المتعجِّب أو الكاره المبغض، قيل : شَفَنه وشَفَن إليه شُفُونا وشَفْنا .

فإن أعاره لَحْظَ العداوةِ، قيل : نظر إليه شَزْرا .

فإن نظر إليه بعينِ المَحَبة، قيل : نظر إليه نَظْرةَ ذى عَلَق .

فإن نظر إليه نظرة المستَثْبت، قيل : تَوضَّحه .

١٠ فإن نظر إليه واضعًا يده على حاجبه مستظلًّا بها من الشمس ليستبين المنظورَ إليه : قيل ٱستكَفَّه وٱستوْضَحه وٱستَشْرفَه .

فإن نشر الثوبَ ورفعه لينظر إلى صَفَاقته : قيل ٱستَشَفَّه .

فإن نظر إلى الشيء كاللَّمْحة ثم خفِيَ عنه، قيل : لاحه لوحةً . قال الشاعر :

* وهَلْ تَنْفَعَنِّى لوحةٌ لو أَلُوحُها *

١٥ فإن نظر إلى جميع ما فى المكان حتّى يعرفه، قيل : نَفَضه نَفْضا .

فإن نظر فى كتاب أو حساب، قيل : تَصَفَّحه .

فإن فتح عينيه لشدّة النظر، قيل : حَدَّق .

فإن لألأهما، قيل : بَرَّق .

فإن ٱنقلب حُملاقُ عينيه، قيل : حَمْلَق .

٢٠ فإن غاب سواد عينيه من الفزع، قيل : بَرِّق بصرُه .

فإن فتح عين مُفَزَّع أومهدَّد، قيل : حَمَّج .

فإن بالغ فى فتحها وأحدَّ النظرَ عند الخوف، قيل : حَدَّج .

فإن كسر عينه عند النظر، قيل : دَنْقَش وطَرْفَش .

فإن فتح عينه وجعل لايَطْرِف، قيل : شَخَص . وفى القرآن العزيز: ﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَارُهُمْ﴾ .

فإن أدام النظر مع سكون، قيل : أَسْجَدَ .

فإن نظر إلى أُفُق الهلال ليراه، قيل : تَبَصَّره .

فإن أتبع الشىءَ بصرَه ، قيل : أَتْأَرَه بصَرَه .

وقد أوسع الشعراء فى وصف العيون ووصفوها بالمَرَض والسُّقْم، وإن كانت صحيحةً . فمن ذلك قول الشاعر :

بَرَّحَ السُّقْمُ بى وليس صَحِيحًا * مَنْ رأَتْ عينه عُيونًا مِرَاضًا .
إنَّ للأَعْيُنِ المِرَاضِ سِهامًا * صيَّرتْ أنفُسَ الورى أغْراضًا .
جَوْهرُ الحُسْنِ منذُ أعرضَ للقلـ * ـب فَنِى الجسمَ كلَّه أعْراضًا .

وقال جرير :

إنَّ العيونَ التِى فى طَرْفِها مَرَضٌ * قتَلْنَنا ثُمَّ لم يُحْيِينَ قَتْـلانَا .
يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتَّى لاحَراكَ به * وهُنَّ أضعفُ خَلْقِ الله أرْكانَا .

وقال ذو الرمّة :

وعينانِ قال اللهُ كُونا فكانَتَـا * فَعُولَين(1) بالألباب ماتفْعَل الخمرُ .

(1) المشهور فعولان . بالرفع وصف للعينين .

ومما وصفت به العيون على لفظ التذكير، فمن ذلك قول عبد الله بن المعتز:

عليمٌ بما تحتَ الصُّدورِ من الهَوى * سريعٌ بكَرِّ اللَّحظِ والقلبُ جازعُ.
ويَجْرح أحشائي بعينٍ مَريضةٍ * كما لانَ مسُّ السيفِ والسيفُ قاطعُ.

وقال خالد:

٥ عينُه سَفَّاكةُ المُهَج * من دَمِي في أعظمِ الحَرَج.
أسْهَرَتْني وهي لاهيةٌ * باحْوِرارِ العينِ والدَّعَج.

وقال الهَمْدانيّ:

تَعْمَل الأجفانُ بالدَّعَج * عَمَلَ الصَّهباءِ بالمُهَج.
قُلْ لظَبْيٍ تُسْتَرقُّ له * مُهَجُ الأحرارِ بالدَّعَج:
١٠ أنتَ والأجفانُ ما لَحَظَتْ * من فُتورِ العينِ في حَرَج.
كيفَ أدْعُو اللهَ أسألُهُ * فَرَجاً ممَّنْ به فَرَجِي؟

وقال خالد:

ومَريضِ طَرْفٍ ليس يَصْرِف طَرْفَه * نحوَ امْرِئٍ، إلا رماه بحَتْفِه.
قد قلتُ إذ أبصَرْته متمايلاً، * والرِّدفُ يجْذب خصْرَه من خَلْفه:
١٥ يا مَنْ يُسَلِّم خصْرَه من رِدْفه، * سَلِّمْ فُؤادَ محبِّه مِنْ طَرْفه!

وقال أبو هفّان:

أخُو دَنَفٍ رمَتْه فاقصَدَتْهُ * سِهامٌ من جُفُونك لا تَطِيشُ.
قواتِلُ لا قِداحَ سوى احْوِرارٍ * بهنَّ، ولا سوى الأهدابِ رِيشُ.

وقال أبو تمام :

يا سَقَمَ الجفنِ من حَبِيبى، * ألبستنى حُلَّة السَّقَامِ!

كَمْ قتلَتْ مُقْلتاكَ ظُلْما * مِنْ عاشقِ القلب مُسْتهامِ.

يا مَنْ بعينيه لى غَرامٌ * قَرَّبَ من مُهْجتى حِمامى !

قد رَوِيَتْ من دمى، فحَسْبى * صوائبُ النَّبْلِ والسِّهامِ!

وقال العسكرى :

فأرعى تحتَ حاشيةِ الدَّيَاجى * شَقائقَ وَجْنةٍ سُقِيَتْ مُداما.

إذا كَرَّتْ لواحظُ مقلتيْه، * حَسِبْتَ قُلوبَنا مُطِرت سِهاما.

وقال ابن المعلم :

سَلْ مَنْ بعينَيْه يَصُولْ: * أهِىَ اللحاظُ أم النُّصُولْ؟

ما جُرِّدت يومَ النَّوى، * إلا لتختَلِسَ العُقُولْ!

شَهَرت عيونُهمُ سُيُو * فا، ما بمَضْربها فُلُولْ.

تُضمِى بغيرِ جِراحةٍ، * تَفْرِى بغير دمٍ يَسِيلْ.

ولها بأفئدةِ الهوى * فَتْكٌ، وليس لها صَليلْ.

وقال آخر:

رُوحى الفداءُ لمَنْ أدار بلَحْظه * صهباءَ فى عَقْلِى لها تأثيرُ!

ومن العجائب أن يُديرَ بلحظه * مشمولَةً، وإناؤها مَكْسُورُ!

وقال آخر :

القَلْب بك المسْلوب والمسلوب * والصب بك المعْتوب والمتعوب.

يا مَنْ طَلَبَتْ لحاظُه سفْكَ دمى: * مهلا، ضعُف الطالبُ والمطلوبُ!

وقال أبو تمام :

مُتَطَلِّبٌ بصُدُودِه قَتْلى * فردُ المَحَاسِن وجْهُه شُغْلى .
ألحاظُه في الخَلْقِ مُسْرِعةٌ * فيما تُرِيدُ كسُرْعة النَّبْـل .

وقال آخر :

ألحاظُكُمْ تجرَحُنا في الحَشَا ، * ولحظنا يجرحكم في الخُدُودْ .
جَرْح بجَرْح ، فاجعلُوا ذا بِذَا ! * فما الَّذِى أوجبَ هذا الصُّدُودْ ؟

وقال آخر :

ومُقْلةِ شادنٍ أوْدتْ بقلبي ، * كأنَّ السُّقْمَ لي ولها لِباسُ .
يَسُلُّ اللحظَ منها مَشْرَفِيًّا * لِقَتْلى ، ثم يُغْمِدُه النُّعاسُ .

١٠ وقال ابن الرومى :

ياعَلِيلًا ، جعلَ العِلَّةَ مِفْتاحا لظُلْمِى !
ليس في الأرض عَلِيلٌ * غيرِ جَفْنَيْكَ وجِسْمِى .
لك سُقْمٌ في جُفُونٍ ، * سُقْمُها أكَّد سُقْمِى .

وقال تاج الدين بن أيوب :

١٥ أسْقَمَنِي طَرْفُك السَّقيمُ ، وقد * حكاه مِنِّي في سُقْمِه الجَسَدُ !
هَبَّ نسيمٌ من نحوِ أرضِك لِي * فزادنِي في هَواكَ ما أجِدُ .
وهاج شَوْقِي ، والنارُ ما بَرِحتْ * عندهُبُوب الرِّياح تتَّقِدُ .

وقال ابن المعتز :

ضعيفةٌ أجفانُهُ ، * والقَلْبُ منه حَجَرُ !
٢٠ كأنما ألحاظُه * من فعْله تعْتَذِرُ .

***

ومما وصفت به العيون على لفظ التأنيث، فمن ذلك ما قاله عدىّ بن الرقاع :

وكأنّها بينَ النّساءِ أعارَها * عينيه أحْورُ من جآذرِ جاسِم .
وَسْنانُ أقْصدهُ النُّعاسُ فرنَّقَتْ * فى عينـه سِـنَةٌ وليس بنائم .

وقال الناجم : ٥

كادالغزالُ يَكُونُها، * لكنّما هـو دُونَهـا .
والنَّرجِسُ الغَضُّ الجنىّ * أغضُّ منـه جُفُونُهـا .
مَنْ كان يعرف فضلَها * فعن القِيَاس يَصُونُها .

وقال أبو دلف :

تَقتنِصُ الآسادَ مِنْ غِيلِها، * وأعيُن العِـين لنـا صائِدَهْ ! ١٠
يَنْبُو الحُسامُ العَضْبُ عنا وقد * تَكْلِمُ فينـا النظرةُ القاصِـدَهْ !
تهـابُنا الأُسْدُ، ونَخْشى المَهَا : * آبِـدةٌ ما مِثْـلُها آبِـدهْ !

وقال آخر :

لِلّهِ ما صـنَعَتْ بنـا * تلك المَحَاجِرُ فى المَعَاجِرْ !
أمضى وأنفـذُ فى القلو * ب من الخَنَاجرِ فى الحَنَاجِرْ ! ١٥

وقال آخر :

يَنْظُرْنَ من خَلَلِ السُّجُوف كأنّما * يُمْطِرنَ أحشاءَ الكريمِ نِبَالا !

وقال أبو فراس الحمدانىّ عفا الله تعالى عنه ورحمه :

وبِيضٍ بألحاظ العُيونِ كأنّما * هَزَزْنَ سُـيوفًا أوسَلَلْنَ خَناجِرا .
تَصَدّيْنَ لى يومًا بمُنعَرج اللِّوى * فغـادَرْنَ قلبى بالتصـبّرِ غادرا . ٢٠

سَفَرْن بُدورا، وانتقبْن أهلَّةً، * ومِسْن غصُونا، والْتفتْن جآذِرا.
وأطْلَعْنَ في الأجياد للدُّرّ أنجُمًا * جُعِلْن لحبَّات القلوب ضَرائِرَا.

وقال ابن الرومي:

نظَرَتْ، فأقصدتِ الفُؤادَ بطَرْفِها، * ثم انثنَتْ عنِّي، فكِدتُ أهِيمُ!
ويْلاى! إن نظَرَتْ و إن هي أعرضَتْ: * وقعُ السِّهامِ ونزعُهنّ أليمُ!

٥

وقال أيضا:

لطَرْفِها وهو مصروفٌ كموْقِعه * في القلب حين يروعُ القلبَ مَوْقعُه.
تصُدّ بالطَّرْف لا كالسَّهم تَصْرِفهُ * عنِّي، ولكنّه كالسَّهْم تَنْزِعُه.

وقال الأرّجاني:

نَقَبُوهُنّ خَشْيةَ العُشّاق! * أوَ لم تكْفِ فِتنةُ الأحْداق؟

١٠

إنّ في الأعينِ المِراضِ لَشُغْلا * للمُعَنَّى عن الخُدود الرِّقاق!
كلُّ مافاتَ في الليالِي المواضِي * فهو في ذمّة اللَّيالِي البَواقِي.

وقال أيضا:

سَتَرْنَ المحاسِنَ إلا العيُونَا * كما يَشْهَد المَعْرَكَ الدّارِعُونا.
سَلَلْنَ سُيوفا ولاقَيْنَنَا! * فلا تَسْأل اليومَ ماذا لَقِينا.

١٥

كَسَرْنَا الجفُونَ ولولا الرِّضا، * بحكْمِ الغَرامِ كَسَرْنا الجُفُونا.
وحَسْبُ الشهيدِ سُرورًا بأن * يُعايِنَ حُورًا مع القَتْل عِينَا.

وقال أبو نُوَاس:

ضعيفةُ كَرِّ الطَّرْف تَحْسَبُ أنها * قريبةُ عَهْدٍ بالإفاقةِ من سُقْم.

وقال آخر :

يامَنْ تَكَحَّل طَرْفُها * بالسِّحْر لا بالإثْمِد!
نَفْسى كما عَذَّبتِها * وقتَلْتِها بالإثْم، دِى! (١)

* * *

٥ ومما قيل فى أدواء العين ، فمن ذلك :

الغَمَص ، أن لا تزال العين تَرْمَص .

اللَّحَح ، أسوأ الغَمَص .

اللَّخَص ، التصاق الجُفُون .

العائر ، الرَّمد الشديد . وفيه يقول النابغة :

١٠ وباتَ وباتَتْ له ليلةٌ كليلة ذى العائرِ الأرْمَد .

وكذلك الساهكُ .

الغَرَب ، ورَم فى المآقى .

السَّبَل ، أن يكون على بياضها وسوادها شِبْه غِشَاء .

السَّخَا (٢) ، أن يعسُر على الإنسان فتحُ عينيه إذا آنتبه من النوم .

١٥ الظَّفَر ، ظهور ظَفَرة (وهى جُلَيدة تغشى العين من تلقاء المآقى) .

الطَّرْفة ، أن يحدُث فى العين نقطةٌ حمراء .

الأنتِشَار ، أن يتسع ثقب الناظر حتَّى يلتحق البياضَ من كل جانب .

الحَثَر ، أن يخرُج فى العين حَبٌّ وهو الجَرَب .

القَمَر ، أن يعرض للعين فَتْرة وفساد . يقال : قَمِرت عينه .

٢٠ (١) فعل أمر للؤنث من "ودى" بمعنى دفع الدية بسبب الإثم الذى وقع منها .
(٢) فى "فقه اللغة" الجسأة [بتقديم الجيم على السين ولعله الصواب] .

*
* *

ومما قيل فى أرمد، فمن ذلك قول عبد الله بن المعتز (وقيل إنها لابن الرومى، وقيل للناجم):

قالوا: اشتكت عينه! فقلت لهم: * من كثرة القتل نالها الوصب!
حمرتها من دماء من قتلت، * والدم فى النصل شاهد عجب.

وقال ابن منير الطرابلسى:

رنا وفى طرفه احمرار، * يغض من سحر مقلتيه.
وفاض من نرجسيه ماء، * ضرجه ورد وجنتيه.
فقلت يا ممرضى بوجه، * أظن دائى سرى إليه!
هيهات، لا تجحدن قتلى! * هذا دمى شاهد عليه!

وقال الواثق بالله:

لى حبيب قد طال شوقى إليه، * لا أسميه من حذارى عليه.
لم تكن عينه لتجحد قتلى، * ودمى شاهد على وجنتيه!

وقال الصولى:

يكسر لى طرفا به حمرة، * قد خلط النرجس فى ورده.
ما احمرت العين، ولكنه * يكحلها من وردتى خده!

وقال آخر:

قالوا: بدت فى عينه حمرة * قد حازها من وردة الخد.
فقلت: لم يرمد ولكنه * يصافح النرجس بالورد!

وقال أبو عبد الله بن الحدّاد الوزير :

يا شاكى الرَّمَد الذى بشَكاته ، * قد صار دهرى فيه ليلةَ أرمدَا !
اللهُ والإشفاق يعلم أنّنى * لو أستطيعُ فدًا ، لكنتُ لك الفدَا !
كَمْ من دمٍ سفكَتْ جُفونُكَ لم تزلْ * تُخفِى وتكتُم سَفْكَه حتّى بدا .
لم يَشتَمِلْ بدمٍ غِرارُ مهنّدٍ * إلا وقد أهدَى النفوسَ إلى الرّدى .

وقال أبو الفرج الببغاء :

بنفسِيَ مايشكوه مَنْ راحَ طَرْفُهُ * ونَرْجِسُه ممّا دهى حسنَهُ وَرْدُ !
أراقتْ دمِى ظُلْما محاسنُ وجهه ، * فأضحتْ وفى عينيه آثارُه تبدُو !
غدَتْ عينُه كالخَمْر حتّى كأنما * سقى عينَهُ من ماء تَوْرِيده الخَدُّ .
لئن أصبحتْ رمداءَ مُقْلةُ مالكى ، * لقد طال ما آستَشْفتْ به مُقَل رُمْدُ !

وقال آخر :

قُضُب الهند والقَنا أخدانُكْ ! * والمَقاديرُ فى الورى أعوانُكْ !
أيُّها ذا الأميرُ مارَمِدت عَيْـ * ـنك ! حاشَا لها ، ولا أجفانُكْ !
بل حكَتْ فعلَكَ الكريمَ ليضحى * شأنُها فى العُلى سواءً وشانُكْ .
فهى تَحْمَرُّ مثل سيفك فى الرَّو * ع ، وتصفُو كما صَفَا إحسانُكْ .

وقال آخر وأجاد :

لقد جارَ ماتشكوه فى الحُكْمِ وآعتدى * وأسْرفَ فى أفعاله وتَمَرّدا !
فمَنْ لى بأنْ لو كنتُ أعرِفُ حيلةً * تُصَيِّرُ أجفانِى لأجفانِكَ الفِدا ؟
دهَتْ عينَك العينُ التى قدقضى القَضا * بأنك فيها سوف تُصْبِح أرمدا .

فمذ بُدِّلَتْ من نرجسٍ بشقائقٍ، * أعادتْ لُجَيْنَ الدمعِ منّيَ عَسْجدا.
سَلَلْتَ حُسامَ اللحظِ منها على الورى، * وقد كان أحْرى أن يُصانَ ويُغْمَدا!
فأنتَ الذى أبلَيْتَهَا بالذى بها، * إذا السيفُ لم يُغْمَدْ تراكبه الصَّدا.

* * *

ومما قيل فى أرمد غطى عينيه بشَعْريَّة(١)، قول السراج الورّاق :
شَعْريّتي، مُذْ رَمِدتُ قد حَجَبَتْ * طرْفِي عنكمْ، فصرْتُ محبوسَا.
الحمـدُ لله! زادنِي شَرَفا: * كنتُ سِراجا فصرْتُ فانوسا.

وقال آخر :
غَطّى على عينيه شَعْرِيَّةً، * تُشْعِل فى القلب لَهِيبَ الغَرامْ.
كأنّه البدرُ بدا نِصْفُه، * ونصفُه الآخَرُ تحتَ الغَمام!

وقال آخر :
لا تَحْسَبُوا شَعْرِيَّةً أصبَحَتْ * من رَمَدٍ فى وجهه مُرْسَلَهْ.
وإنما وجنتُه كعبة، * أستارها من فوقها مُسْبَلَهْ.

ومن رقعة كتبها أرمد (وهو عبد الله بن عثمان الواثق) عفا الله عنه . قال :

صادف وُرُودُ كتابه رمدا فى عينى قد حصرنى فى الظُّلمه . وحبسنى بين الغم والغُمَّه ، وتركنى أُدْرِك بيدى ما كنت أدرك بعينى : كليلَ سِلاحِ البصر . قصير خَطْو النظر . قد ثَكِلْتُ مِصباح وجهى . وعَدِمت بعضى . الذى هو آثَرُ عندى

(١) لم نعثر على هذه الكلمة فى اللسان ولا فى القاموس . وفى شفاء الغليل للخفاجى : أن "شعريّة نسبة الى الشعر : غشاء أسود رقيق يكون على وجه النساء والأرمد ، وأصله أنه ينسج من الشعر ثم يطلق على كل ما شابهه ، وهى مولّدة" .

من كُلِّى . فالبيض عندى سُود، والقريب منِّى بعيد! قد أحاط الوجعُ أجفانى، وقبض عن التصرُّف بَنَانى، ففراغى شُغْل، ونهارى ليل، وطوال الخُطا قصار، وقصار أوقاتى طِوال . وأنا ضرير وإن عُددتُ فى البصراء، وأمّىّ وإن كنت من جملة الكُتّاب والقرّاء، قد قصرت العلة خطوتَىْ قلمى وبَنَانى، وقامت بين يدى ولسانى .

وقد كانت العرب تزاوج بين كلمات، فيقولون : ٥

القلّة ذلّة، والوَحْدة وَحْشة، والهَوى هَوان، والأقارب عَقارب، والمَرَض حَرَض، والرَّمد كمد، والعلة قِلّة، والقاعد مُقْعد .

والله تعالى أعلم .

فصـــل

فى ترتيب البـــكاء ١٠

إذا تَهَيّأ الرجل للبكاء، قيـل : أَجْهَشَ .

فإذا آمتلأتْ عينه دُموعًا، قيل : آغرَوْرَقت عينهُ، وتَرَقْرقتْ .

فإذا سالَتْ، قيل : دَمَعَتْ، وهَمَعت .

فإذا كثُرتْ دموعه، قيل : هَمَتْ .

فإن كان لبكائه صوت، قيل نَحَب ونَشَج . ١٥

فإذا صاح مع بكائه، قيل : أعول .

قال سَلْم الخاسر :

أَتَتْنِى تُؤَنِّبُــنِى فى البُــكاء ... فأَهْــلًا بهـا، وبتَأْنِيبِهـا!

تقول، وفى قولهـا حِشْـمَةٌ : ... أَتَبْكِى بعيـن تَرانِى بهـا؟

فقلتُ : إذا آستحسنَتْ غيرَكُم، ... أمرتُ الدُّمـوعَ بتأدِيبِهـا . ٢٠

فصـــل

فيما قيـــل فى الأنف

الشَّمَم، ٱرتفاعُ قصبة الأنف مع ٱستواء أعلاها .

القَنَـا، طُول الأنف، ودِقَّة أرنبته، وحَدَبٌ فى وَسَطه .

٥ الفَطَس، تطامُن قصبتِه مع ضِخَم الأرنبة .

الخَنَس، تأخُّر الأنف عن الوجه .

الذَّلَف، شُخوص طَرْفه مع صغر أرنبته .

الخَشَم، فِقْدان حاسَّة الشمّ .

الخَرَم، شَقٌّ فى المَنْخرين .

١٠ الخَنَم، عِرَض الأنف . (يقال ثور أخْنَمُ) .

القَعَن، ٱعوجاج فى الأنف . (قال الشاعر :

لَيِّن المَنْخرين معتدلُ المـا * رن لاسائلٌ ولا جَعْـدُ .)

* * *

ومما قيل فى الشِّفاه والفَمِ ، الشَّدَق ، سَعة الشِّدقين .

١٥ الضَّجَم ، مَيَل فى الفم وفيما يليه .

الضَّرَز ، لُصوق الحَنك الأعلى بالأسفل .

الهَدَل ، ٱسترخاء الشفتين وغلظُهما .

اللَّطَـع ، بياضٌ يعتريهما .

القَلَب ، ٱنقلابهما .

٢٠ الجَلَـع ، قصَرهما عن الآنضمام .

فصل

في تقسيم ماء الفم

ما دام فيه، فهو رِيق، ورُضَاب .

فإذا عَلِك ، فهو عَصِيب .

فإذا سال ، فهو لُعَاب .

فإذا رمى به ، فهو بُزَاق ، وبُصَاق .

فصل

في ترتيب الضحك [1]

التبسّم أوّل مراتبه ، ثم الإهلاس وهو إخفاؤه ، ثم الافترار ، ثم الانكلال وهما الضحك الحَسَن ، ثم الكَتْكَتة أشدّ منهما ، ثم القَهْقَهة والقَرْقَرة والكَرْكَرة ، ثم الاستِغراب ، ثم الطَّخْطَخَة ، ثم الإهزاق والزَّهْزَقة ، وهو أن يذهب الضحك به كلّ مذهب .

قال كُشاجِم :

عَذُبَتْ في الرَّشْفِ منه شَفَةٌ ❊ مَصُّها أطيبُ من نَيْلِ الأَمَلْ !

وعليها حُمْرَةٌ في لَعَسٍ ❊ تَستعيرُ اللونَ من صِبْغِ الخَجَلْ !

هِيَ فيما خِلْتُ آثارُ دَمٍ ❊ من فؤادي ، عَلَّ فيه ونَهَلْ !

(1) في الأصل : في تقسيم ماء الوجه وترتيب الضحك . ولعدم وجود كلام على تقسيم ماء الوجه حذفناه من العنوان .

وقال ابن سُكَّرَة الهاشميّ :

ياضاحكاً، يستهلُّ مَضْحَكُه ٭ عن بَرَدٍ واضحٍ وعَنْ شَنَبِ!
أعطيتَنِي قُبْلةً رشفتُ بها الشَّهدَ مَشُوبا بعَنبرةِ العنَبِ،
كأنَّني إذ لثمتُ فاكَ بها ٭ لثمتُ تُفَّاحةً من الذهَبِ.

٥ وقال كشاجم :

كأنَّ الشفاه اللعْسَ منها خَواتِمٌ ٭ من التِّبْر مختومٌ بهنَّ على دُرِّ.

وقال سيف الدولة بن حمدان، في صباه :

أُقَبِّلُه على عَجَلٍ ٭ كشُرْب الطائر الفَزِعِ.
رأى ماءً فأطْمَعه ٭ فخاف عَواقِبَ الطَّمعِ.
١٠ فصادف فُرْصةً فدَنَا ٭ ولم يَلْتذَّ بالجَرعِ.

٭
٭ ٭

ومما قيل في طيب الريق والنَّكْهة على لفظ التذكير، فمن ذلك قول ابن الروميّ :

أهيفُ الغُصْن، أهيلُ الدِّعْص لما ٭ يَقْتسِمْ قدَّه وِشاحٌ ومِرْطُ.
١٥ طَيِّب طعمُه إذا ذُقتَ فاه، ٭ والثُّريَّا في جانب الغَرْب قُرْطُ.

وقال آخر :

يا مانِعِي طيبَ المَنامِ، ومانِحِي ٭ ثَوْبَ السَّقامِ، وتارِكِي كالآلِ!
عمَّن أخذتَ جَوازَ مَنعِي رِيقَكَ الـ ٭ ـمعسول، ياذا المَعْطف العَسَّالِ؟
عن ثَغْرِكَ النظَّامِ، أم عن شَعْرِك الـ ٭ ـفَحَّامِ، أم عن طَرْفك الغَزَّالِ؟

وقال آخر

أتدْرون شَمْعتنا لِمْ هَوَتْ؟ * لتقبيلِ ذا الرَّشإ الأكحلِ!

درَتْ أن ريقتَه شُـهْدةٌ * فحنَّتْ إلى إلْفها الأوّل.

وقال بشار بن بُرْد :

يا أطيبَ النـاس ثغْرًا غير مختَبَر * إلّا شهادة أطرافِ المَساويكِ!

وقال ابن وكيع البستىّ :

ريقٌ إذا ما ٱزْددْتُ من شُرْبه * رِيًّا، ثنـانِى الرِّىُّ ظمآنا.

كالخمر أروى ما يكون الفتى * من شُرْبها أعطَشُ ما كانا.

وقال ابن الرومىّ :

يارُبَّ ريقٍ باتَ بدرُ الدّجى * يمجُّـه بين ثناياكـا.

يُرْوى ولا ينهاك عن شُرْبه * والمـاءُ يُرويكَ ويَنْهاكـا.

وقال أبو الفتح كشاجم :

بَلَغَتْـهُ الكأْسُ فارتعدَتْ * طَرَبًا منهـا إلى فَمِــه.

منَعتْــه أن يؤخّرها * فى يديه من تَحَشُّمه.

فحَسَــاهـا ثم أعقـبَها * أرَجًا من طِيبِ مَبْسِمه.

وقال آخر :

بقَـدْر الصَّـبابة عند المَغيبِ، * تكونُ المَسرّةُ عند الحُضُور.

وأطيبُ ما كانَ بردُ الثُّغُـورِ * إذا هُوَ صادفَ حَرَّ الصُّـدور.

* * *

ومما وصف به على لفظ التأنيث، فمن ذلك قول ٱبن ميّادة :

كأنّ على أنيابها المِسْكَ شابَهُ * بُعَيْدَ الكَرى من آخر الليل عابِقُ.
وما ذُقْتُه إلا بعينِي تَفَرّسا * كما شِيمَ فى أعلى السحابة بارِقُ.
٥ يضم إلىّ الليلُ أذيالَ حُبِّها * كما ضمّ أردانَ القميص البنائقُ.

وقال البحترىّ :

كأنّ على أنيابها بعد هَجْعةٍ، * إذا ما نُجومُ الليل حانَ ٱنحدارُها،
مُجاجةَ مِسْك صُفِّقَتْ بمُدامةٍ * معتَّقة صَهباءَ، حان ٱعتِصارُها.

وقال ذو الرمة :

١٠ أَسِيلةُ مَجْرى الدّمع هَيفاءُ طَفْلة * عَرُوبٌ، كإيماض الغمام ٱبتسامُها.
كأنّ على فيها، وما ذُقْت طَعْمَه، * زُجَاجةَ خمر طابَ فيها مُدامُها.

وقال كشاجم :

البدرُ لا يُغْنِيكَ عنها إذا * غابَتْ وتُغْنِيك عنِ البَدْر.
فى فَمِها مِسْك ومشمولةٌ * صِرْفٌ ومنظومٌ من الدُّرّ.
١٥ فالمِسْك للنَّكْهة، والخمْر للرِّيقة، واللُّؤلُؤ للثَّغْر.

وقال الهذلىّ :

وما صَهباءُ صافِيَةٌ شَمولٌ، * كعين الدّيك مُنجابٌ قَذَاها،
تُشَجُّ بماءِ سارِيةٍ عَرِيض * على ظَمإٍ به رصف صَفَاها،
بأطيبَ نَكْهةً من طَعْمِ فيها * إذا ما طار عن سِنَةٍ كَرَاها.

وقال ابن الرومىّ :

وما تعتريها آفةٌ بشريّةٌ * من النّوم إلا أنها تتخثّر.
كذلك أنفاس الرياض بسُحرةٍ * تطيب وأنفاس الأنام تغيّر.
وما ذُقته إلا بشَمّ ابتسامها * وكم مُخبرٍ يُدنيه للعين منظَر.
وغيرُ عجيبٍ طيبُ أنفاسِ روضة * منوّرة باتت تُراح وتُمطر.

وقال جميل :

وكأنّ طارقَها على علَل الكَرى، * والنجمُ وهْنًا قد دَنَا لتغوّر،
يَسْتاف ريحَ مُدامةٍ مَعْلولة * بذكىّ مِسْكٍ أو سَحيق العنبر.

وقال الشريف الموسوىّ، شاعر اليتيمة :

يا عذبةَ المَبْسِم! بُلّى الجَوى * بنَهْلةٍ من ريقِك البارِد!
أرى غديرًا سيِّحا ماؤُه، * فهل لذاك الماء من وارد؟
مَنْ لى بذاك العسلِ الذائب الـ * جارى خلال البَرَد الجامد؟

*
* *

ومما قيل فى طيب عَرْف النساء، قالوا : من أجود ما قيل فى ذلك من قديم الشعر قول الأعشى :

ما روضةٌ من رياض الحَزْن مُعشبةٌ * خضراءُ جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ،
يُضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ * مؤزّرٌ بعَميم النبت مكتَهِلُ،
يومًا بأطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ * ولا بأحسنَ منها إذ دَنَا الأُصُلُ.

وقول القطامىّ :

وما رِيحُ قاعٍ ذى خُزامى وحـــولَهُ * شَذًا أرِجٌ من طيِّب النَّبْت غاربِ،

بأطْيَب مر ـــــ مَىَّ إذا ما تقلّبَتْ * من الليل وَسْنَى جانبًا بعد جانِبِ.

أخذه آبن المعتز ببعض لفظه وزاد زيادة حسنة، فقال :

٥ وما رِيحُ قاعٍ زاهرٍ مَسَّت النَّدى * وروضٍ من الرَّيحان سَحّت سحائبُه،

بجاء سُحَـــيْرا بين يومٍ وليـــلةٍ * كما جَرَّ من ذيل الغلالة ساحبُــه،

بأطيَبَ من أنيـــابِ سَرَّةَ مَوْهِنًا * إذا الليلُ أدجى وٱرجَحنَّت كتائبه.

إذا رَغِبتْ عن جانبٍ من فِراشِها * تَضوّعَ مِسْكًا أين مالَتْ جوانبُه.

وقال آبن الرومىّ :

١٠ والعَرْفُ نَدٌ ذكىٌّ، وهى ذاكِيَةٌ * إذا أساء جِوارَ العِطْـر أبدانُ.

نعــــيمُ كلِّ بهــارٍ من مَجامِرِها * ويُشْمِسُ الليلُ منها فهو ضَحْيانُ.

كأنها، وعُثانُ النَّـــدِ يشمَلُها، * شمسٌ عليها ضَباباتٌ وأدْجانُ.

وقال آبن الأحنف :

ذَكَرْتُكِ بالرَّيحان لَمَّا شَمِمْتُـــه * وبالراح لما قابلَتْ أوجُهَ الشَّرْب.

١٥ تذكّرتُ بالريحانِ منـــكِ روائحا * وبالراح طَعْمًا من مُقَبَّلكِ العَذْبِ.

ومن البليغ قول سحيم :

فمـــا زالَ بُرْدِى طَيِّبًا من ثيـــابها * إلى الحول، حتّى أنْهجَ البُرْدُ باليا.

وأبلغ منه قول الأحنف :

وجَدَ الناسُ ساطِعَ المِسْك من دِجْـــــلةَ قد أوسـع المَشَــارِعَ طيبـــا.

٢٠ فهُمُ يُنكِـــرُونَـــ ذاك وما يَدْ * رونَ أنْ قد حَلَلْتِ منها قريبـــا.

(٣٢) وقال آخر، وأحسن :

جاريةٌ أطيبُ من طيبها * والطّيبُ فيها المسْكُ والعنبرْ.
و وجْهُها أحسنُ من حَلْيِها * والحَلْىُ فيها الدّرّ والجوهرْ.

وقال آمرؤ القيس :

ألم تَرَأنى كُلّما جئتُ طارقًا، * وجدْتُ بها طيبًا، وإن لم تَطَيَّب. ٥

وقال آخر :

أتاها بعطْر أهلُها فتضاحَكَتْ * وقالت: وهل يَحتاجُ عِطْر إلى عِطْر؟

وقد بالغوا حتّى وصفوا طيب المواضع التى وَطِئها المحبوبُ .

وأوّل من قال ذلك النميرى الشاعر فى زينبَ بنت يوسف أخت الحجاج فقال:

تَضوّعَ مِسْكا بطنُ نَعْمانَ أن مشَتْ * به زينبٌ فى نِسْوة خَفِرات. ١٠

وقال جميل :

ألَا أيُّها الربعُ الذى غيّر البِلى! * عَفَا وخَلَا، من بعدما كان لا يخلُو.
تَداعبَ ريحُ المِسك فيه وإنما * به المسكُ أن جَرّتْ به ذيلَها جُمْلُ.

وقول الآخر :

أرى كلّ أرض دُسْتِ فيها، وإن مضت * لها حِجَجٌ، يزدادُ طيبًا تُرابُها! ١٥

* * *

ومما قيل فى الأسنان، فمن محاسنها :

الشَّنَب، وهو رِقّة الأسنان وآستواؤها وحُسْنها .

الرَّتَل، حُسْن تنضيدها وآتساقها .

التَّفليج، تفرُّج ما بينها . ٢٠

الشَّتَت ، تفرقها من غير تباعد بل فى ٱستواء وحسن . (يقال : ثغر شَتِيت ، إذا كان مُفَلَّجا حسنا أبيض) .

الأَشَرُ ، تحزيز فى أطراف الثنايا يدل على حَدَاثة السن .

الظَّلْم ، الماء الذى يجرى على الأسنان من البَريق لا من الرِّيق .

٥

فصـــــل

فى مقابحها

السَّرَوق ، طولها .

الكَسَس ، صِغَرها .

الثَّعَل ، تراكُبها وزيادة سِنٍّ فيها .

١٠ الشَّغا ، ٱختلاف منابتها .

اللَّصَص ، شدّة تقاربها وٱنضمامها .

اليَلَل ، إقبالها على باطن الفم .

الدَّفَق ، ٱنصبابها إلى قدّام .

القَقَم ، تقدّم سُفْلاها على العليا .

١٥ القَلَح ، صُفْرتها .

الطُّرَامة ، خُضْرتها .

الحَفَر ، مايلزق بها .

الدَّرَد ، ذهابها .

الهَتَم ، ٱنكسارها .

٢٠ الأَطَط ، سقوطها .

فصـــــل
فى ترتيب الأســـنان

وهى : أربعُ ثنايَا ، وأربعُ رَبَاعِيات ، وأربعُ أنياب، وأربعُ ضَوَاحِك، وثنْتـا عَشْرَةَ رَحًا ، وأربعةُ نواجذَ .

قال أبو الفتح كُشاجم :

عَرَضْن ! فعرَّضْنَ القُلوبَ من الجوى * لأَسْرَع فى كَىٍّ القُلوبِ من الجَمْـر !
كأن الشِّـفاهَ اللُّعْسَ فيهـا خواتِمٌ * من المِسْك، مختومٌ بهنَّ على دُرّ .

وقال أيضا :

كالغُصْن فى روضة تميسُ : * تصْبُو إلى حسنها النُّفوسُ .
ما شَهِدَتْ والنِّساءَ عُرْسا ، * فشُــكٌّ فى أنهـا عَرُوسُ !
تَبْسِمُ عن باسِم بَرُودٍ * تَعْبَقُ من طِيبه الكُؤوسُ .
يجمَــعُ فيـــه لمجتنيـــه : * مسكٌ، ووَرْد، وخَنْدرِيسُ .

وقال المتنبى :

ويَبْسِمْنَ عن دُرٍّ تقلَّدْنَ مثلَهُ * كأنَّ التَّراقِى وُشِّحتْ بالمَباسِم .

وقال الصنوبرىّ :

تلك الثَّنايَا من عقْدِها نُظِمتْ ، * بل نُظِم العِـقدُ من ثنَـايَاها .

وقال البحترىّ :

ويَرْجِعُ الليـلُ مُبيَضًّا إذا ضَحِكتْ * عن أبيضٍ خَصِلِ السِّمْطَيْنِ وَضَّاحِ .

وقال ابن الرومىّ :

كأنِّى لم أبِتْ أُسْقَى رُضاباً : * يموتُ به ويحيَا المُسْـتَهامُ !

تُعَلِّلُنيه واضحةُ الثَّنايَا، * كأنّ لِقاءَها حَوْلًا لمَامُ.
تَنَفّسُ كالشَّمُول ضُحًى شَمالٌ * إذا ما فُضّ عن فَمِها الختامُ.

وقال النابغة :

تجلو بقادمتَيْ حمامة أيكةٍ   بَرَدًا، أُسِفَّ لِثاتُه بالإثْمِدِ.
كالأُقْحُوان غداةَ غِبِّ سَمائه   جَفَّتْ أعاليه، وأسفَلُه نَدِى.

وقال شقيق بن سليل :

وتَبْسِم عن ألْمَى اللِّثاتِ، مفَلَّج: * خَلِيقِ الثَّنايا بالعُذوبة والبَرْدِ.

وقال جميل :

بِذِى أُشُرٍ كالأُقْحُوان يَزِينُه * نَدَى الطَّلِّ، إلا أنه هو أمْلَحُ.

وقال السمهريّ :

كأنّ وميضَ البرق بيني وبينها،   إذا حانَ من بعض البُيوت، ٱبْتسامُها.

وقال آخر :

أُحاذِرُ في الظلماء أن تستَشِفّني   عيونُ العَبارَى في وميض المَضاحِك!

* * *

ومما قيل في السِّواك، قول بعض الشعراء :

أقولُ لِمسْواكِ الحبيب: لكَ الهَنا، * بلَثْمِ فَمٍ ما ناله ثَغْرُ عاشقِ!
فقال، وفي أحشائه حُرَقُ الجوى * مقالَةَ صبٍّ للديار مُفارِقِ:
تذكَّرتُ أوطاني فقلْبي كما ترى، * أُعَلِّلُه بين العُذَيْب وبارِقِ!

وقال آخر :

نقـلَ الأراكُ بأنـ ريقـةَ ثَغْرِه * من قهوةٍ، مُزِجت بمـاءِ الكَوْثَرِ.

قـد صَحَّ ما نقـل الأراكُ لأنه * قدجاءيروىعن "صِحاح الجوهرى".

وقال آخر :

باللهِ ، إن جُزتَ بوادِى الأراكْ * وقَبَّلَتْ أغصانُه الُّلدْنُ فاكْ ،

فابعث إلى المملوكِ من بعضِها * فإنَّنى والله مالِى سِـــوَاكْ!

* * *

ومما قيل فى اللسان، فمن محاسنه :

إذا كان الرجلُ حاذّ اللسان قادرا على الكلام، فهو ذَرِب اللسان، وفَتِيقُ اللسان .

فإذا كان جَيِّده، فهو لَسِن .

فإذا كان يضعه حيثُ أراد، فهو ذليق .

فإذا كان فصيحا بَيِّن اللَّهْجة ، فهو حُذَاقىّ .

فإذا كان مع حِدّة اللسان بليغا، فهو مِسْلاق .

فإذا كان لا يعترِضُ لسانَه عُقْدة، ولا يتحيَّفُ بيانَهُ عُجْمة، فهو مِصْقَع .

فإذا كان المتكلمَ عن القوم، فهو مِدْرَهٌ .

فصـــــل

فى عيوبه

الرُّتَّة ، حُبْسةٌ فى لسان الرجل، وعَجَلة فى كلامه .

اللُّكنة والحُكْلَة، عُقْدة فى اللسان وعُجْمة فى البيان .

الهَتْهتة (بالتاء والثاء)، حكايةُ التواء اللسان عند الكلام .

التَّعتعة (بالتاء والثاء)، حكايةُ صوت الألكنِ والعَيّ .

اللُّثْغــة ، أن يُصيِّر الراءَ لامًا من كلامه .

الفَأْفأة ، أن يتردّد في الفاء .

التَّمتمة ، أن يتردّد في التاء .

اللَّفف ، أن يكون في اللسان ثِقَل وانعقاد .

اللَّيَغ ، أن لا يُبَيِّن الكلام .

الجَلجلةُ ، أن يكون فيه عيّ وإدخال بعض كلامه في بعض .

الخُنخنة ، أن يتكلم من لَدُنْ أنفه . ويقال : هي أن لا يُبيِّن الرجل كلامه فيُخَنْخن في خياشيمه .

المَقمَقة ، أن يتكلم من أقصى حلقه .

فصـــل

في ترتيب العِيّ

يقال : رجل عَيٌّ ، ثم حَصِر ، ثم فَهٌّ ، ثم مُفْحَم ، ثم لَجْلاج ، ثم أَبْكَمُ .

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : المرءُ مَخْبُوٌّ تحت لسانه .

وقال شاعر :

وما المَرْء إلّا الأصغَرانِ : لسانُه * ومعقولُه . والجسم خَلْقٌ مصوَّر .

وقال امرؤ القيس :

وذلكَ من نَبَإٍ جاءني * وخُبِّرتُه عن أبي الأَسْوَدِ .

ولو عن نَثَا غيره جاءَني * وجُرح اللسان كجُرح اليَد .

(النَّثا القبيح من الكلام) .

وقال جرير :

لسانِى وسيْفِى : صارِمانِ كلاهُما ! * وللسَّيفُ أشوى وقعةً من لسانيا !

(قوله أشوى إذا أخطأ المَقْتَل) .

وقال آخر :

وجُرْحُ السيفِ تَدْمُلُه فيَبْرى ، * وجُرْحُ الدّهرِ ما جَرح اللسانُ ! ٥

ومما وصف به حسن الحديث والنغمة ، فمن ذلك قول ذى الرمّة :

ولَمَّا تلاقَيْنا ، جَرَتْ من عُيونِنا * دموعٌ كفَفْنا غَرْبَها بالأصابِـعِ .

ونِلْنا سُـقاطا من حديثٍ كأنهُ * جَنَى النحلِ ممزوجًا بمـاء الوقائـعِ .

وقال أيضـا : ١٠

و إنا ليَجرى بينَنَا حينَ نَلْتـقِى * حديثٌ له وَشْىٌ كوشْىِ المَطَـارِفِ !

حديثٌ كوَقْعِ القَطْرِ فى المَحْلِ يُشْتفَى * به من جَوًى فى داخلِ القَلب ، لاطف .

وقال ابن الرومىّ :

ولقد سئِمْتُ مآرِبِى ، * فكأنَّ طَيِّبَها خَبِيثْ .

إلّا الحـــديثَ فإنّهُ * مثلُ اسمِه أبدًا حَديثْ . ١٥

وقال بشّـار :

وكـأنَّ رجْعَ حديثِها * قِطَعُ الرياضِ كُسِينَ زَهْرا .

وكأنَّ تحتَ لسانِهَـا * هارُوتَ يَنْفُثُ فيه سِحْرا .

وتَخالُ ما اشتَمَلَتْ عليــــه ثِيابُها : ذَهَبا وعِطْرا .

وقال البحتريّ :

فلمّا آلتقينا — وآلنّقا موعدٌ لنا — * تعجّب رائى الدّرّ حُسْنا ولاقِطُه.

فمن لؤلؤٍ تجلوه عند آبتسامِها، * ومن لؤلؤ عند الحديث تُساقِطُهْ!

وقال آخر :

ظَلِلْنا نَشَاوى عند أمّ محمّدٍ * بنَوْمٍ، ولم نشرب شرابا ولا خَمْرا!

إذا صمتتْ عنّا، صَحَوْنا بصَمْتها، * وإن نطقتْ، هاجتْ لألبابنا سُكْرا.

وقال آبن الروميّ عفا الله عنه :

وحديثُها السِّحرُ الحلالُ، لو آنّه * لم يَجْنِ قتلَ العاشق المتحرِّزِ.

إنْ طال لم يُمْلَل، وإن هى أوجزتْ * ودّ المحدَّثُ أنها لم تُوجِزِ.

شَرَكُ القلوب، وفتنةٌ ما مثلُها * للمطمئنّ، وعُقْلةُ المستوفِزِ.

وقال القطاميّ :

فهنّ يَنْبِذْن من قولٍ يُصِبْنَ به * مواقعَ الماءِ من ذى الغُلّة الصادِى.

وقال علىّ بن عطية البلنسيّ :

كلّمتْنِى فخِلْتُ دُرّا نثيرا، * وتأمّلتُ عِقْدها هل تناثَرْ.

فازدهاها جمالُها، فأرتْنِى * عِقْدَ دُرٍّ من التبسّم آخَرْ!

وقال الوأواء الدّمشقىّ :

وحديثٍ كأنّه * أوبةٌ من مُسافِرِ.

كانَ أحْلى من الرُّقا * د لدى طَرْفِ ساهِرِ.

بِتُّ ألهو بطيبه * فى رياضٍ زواهِرْ.
بين ساقٍ وسامرٍ * ومغنٍّ وزامرِ.

وقال الطائىّ :

مَدَّتْ إليك بنانةٌ أُسْرُوعًا، * تشكو الفراقَ، ومُقْلةٌ ينبوعا.

كادت لعِرفانِ النَّوى ألفاظُها * من رِقّة الشَّكْوى تكون دُمُوعا. ٥

وقال آبن المعتزّ :

وسِرّ أحاديثٍ عِذابٍ لو آنّها * جَنى النحل، لم تمجُجْ حلاوتَها النحلُ.

* * *

ومما قيل فى الأذن، الصَّمَعُ، صِغرها .

السَّكَكُ، كونها فى نهاية الصِّغر . ١٠

القَنَفُ ، آسترخاؤهما وإقبالها إلى الوجه .

الخَطَلُ ، غلظهما .

فصل
فى ترتيب الصَّمَم

يقال : ١٥

بأذنه وَقْرٌ .

فإذا زاد ، فهو صَمَمٌ .

فإذا زاد ، فهو طَرَشٌ .

فإذا زاد حتّى لا يسمع الرعدَ ، فهو صَلَخٌ .

***

ومما وصف به الصُّدْغ، فمن ذلك قول عبد الله بن المعتزّ :

رِيمٌ ! يَتِيـهُ بحُسْن صُورتِهِ ، * عبَثَ الفتورُ بلحظ مُقْلتِـهِ .
فكأن عَقْربَ صُدْغه وقفَتْ ، * لمـا دَنَتْ من نارِ وجْنَتِهِ .

وقال ابن الروميّ :

أبدًا نحنُ في خِلاف : فمنّي * فرطُ حُبٍّ ومنك لي فرطُ بُغْض .
فبصـــدْغَيْكَ فوقَ خطِّ عذارٍ * ظُلُماتٌ ، وبعضُها فَوقَ بعض .

وقال الصاحب بن عبّاد :

وعهدي بالعَقارِبِ حينَ تَشْتُو * تُخَفِّف لَدْغهـا وتَقِـلُّ ضُرّا .
فما بالُ الشـتاء أتى، وهـذا * عقاربُ صُـدْغِه يزدَدْنَ شَرّا؟

وقال ابن المعتزّ :

أمن سَبَجٍ في عارِضَـيْه صَوالِجٌ * مُعطَّفَـةٌ تُفّاحَ خدّيه تضربُ؟
وما ضَرّه نارٌ بخـدّيه أُلْهِبتْ ، * ولكنْ بها قلب المُحبِّ يعذَّبُ؟
عناقيدُ صُدْغَيْه بخـدَّيْه تلتوي * وأمواجُ ردْفَيْه بخصْرَيْه تَقْلَبُ .
شَرِبْتُ الهوى صِرْفا زُلالا، وإنما * لواحظُه تَسْقِي وقلبِيَ يَشْرَبُ .

وقال الثعالبيّ :

وصَوْلجَانٍ في يدَيْ شادنٍ * لا يسمَحُ العاشـقُ أن يذْكُرَهْ .
وصولجـانُ المِسْـك في خدّه * متَّخَـذٌ حبّةَ قلبي كُرَهْ .

وقال الناشئ الأصغر :

لك صُدْغٌ كأنه . نُونُه نونُ كاتِبْ .
يلدَغُ الناسَ إذْ تَعَقْرَبَ لَدْغَ العقارِبْ .

وقال الصاحب بن عبّاد :

ياشادناً فى وجْهه عَقْرَبٌ . ما يَستجيبُ الدّهرَ للراقِى .
يَسْلَمُ خدّاه على لدغها ، ولَدْغها فى كَبِدى باقِى !

٥

وقال عمر المطوعىّ :

بنفسِىَ مَن تمّتْ محاسنُ وجهه ! فما هُو إلا البدرُ عند تَمامِ .
وأرسلَ صُدْغا فوقَ خدٍّ كأنه . جَناحُ غرابٍ فوق طوقِ حَمامِ .

وقال آخر :

١٠

حَلّتْ عقاربُ صُدغه فى خَدّه * قَمَرا ، فجَلّ بها عن التشبيه !
ولقد عَهِدناه يحُلّ ببُرْجها * فمن العجائب كيفَ حَلّتْ فيه ؟

وقال العماد الأصبهانىّ :

وإذا بَدَا لك صُدْغُه فى وجهه ، * أبصرتَه قمرًا بدَا فى العَقْرب !

وقال ابو الفتح كُشاجم :

١٥

ومَنعْن وَرْدَ خدودهنّ فلم نُطِق * قَطْفًا لها لعَقارب الأصْداغ !

* * *

ومما وصفت به الخدود والوجَنَات ، فمن ذلك ماورد على لفظ التذكير .

قال أبو الفتح كُشاجم :

غَدا ، وغَدا تورُّدُ وجنَتَيه * لعينِ محبه يصف الرِّياضا .

٢٠

على خدّيهِ ماءٌ عَسْجَديٌّ، * فلو نظَر الرقيبُ إليه، غَاصَا.

وقال آخر :

دعوتُ بماء في زُجاج، فجاءني * حبيبي به خَمرًا نَظَرتُ له شَزْرا.

فقال : هو الماءُ القَراح وإنما * تجلَّى له خدّى فأوهمكَ الخمرَا!

٥ وقال أبو القاسم عبد الغفار المصري، شاعر اليتيمة :

وَرْدُ الخدودِ أرقُّ من * وَرْد الرِّياضِ وأنعمُ.

هــذا تَنشَّـقُهُ الأنو * فُ، وذا يقبِّـلُهُ الفَمُ.

فإذا عدَلْتَ، فأفضلُ الـ * ـوَرْدَينِ وَرْدٌ يُلْـثَمُ.

وقال أيضا (ويروى للوأواء الدمشقي) :

١٠ لا تظلمُوا الناسَ ولا تطْلبُوا * بثارِيَ اليوم أذَى مُسْـلِمِ!

ويا لَقَـومِي دونَكُم شادنًا * معتـدِلَ القـامة والمَبْسِمِ!

فإنْ أبى إلا جحودَ الهـوى * وآكتتم الأمرَ ولم يُعْلِـمِ،

قولوا له يكشِفُ عن خدِّه؛ * فإن فيه نُقَطًا مِن دمِي.

وقال آبن الرومي :

١٥ وغـزالٍ ترى على وجنتيـه * قَطْرَ سهميه من دماء القُلوبِ.

لَهْفَ نفسي لتلكَ من وجَنَاتٍ * وَرْدُها وَرْدُ شارقٍ مهضُوبِ!

أُنْهِلَتْ صِـبْغَ نفسِها ثم عُلَّتْ * من دماء القَتْلى بغـيرِ ذُنُوبِ.

جرحتْه العيونُ فآقتصَّ منها * بجوًى في القلوب دامِي النُّدوبِ.

وقال أيضا :

يا وجنتيه اللتين من بهج * فى صدغيه اللذين من دعج!
ما حمرة فيكما : أمن خجل، * أم صبغة الله، أم دم المهج؟

وقال أبو الفتح البستى :

ومهفهف غنج الشمائل أزعجت * قلبى محاسن وجهه إزعاجا.
درت الطبيعة أن فاحم شعره * ليل فأذكت وجنتيه سراجا.

وقال عبد الله بن المعتز :

يا من يجود بموعد من لحظه * ويصد حين أقول : أين الموعد؟
ويظل صباغ الحياء بخده * تعبا : يعصفر تارة ويورد.

وقال الراضى بالله :

يصفر وجهى إذا تأملنى * خوفا، ويحمر خده خجلا.
حتى كأن الذى بوجنته * من ماء وجهى إليه قد نقلا.

وقال الخبز أرزى :

صل بخدى خديك، تلق عجيبا * من معان يحار فيها الضمير.
فبخديك للربيع رياض، * وبخدى للدموع غدير.

وقال أيضا :

أظهر الكبرياء من فرط زهو، * فتلقيته بذل الخضوع.
وحبانى ربيع خديه بالور * د فأمطرته سحاب الدموع.

وقال الصنوبرى :

رق، فلو كلفته أعيننا * أن يرشح الخمر خده، رشحا.

وقال المفجّع :

ظَبْيٌ إذا عقربَ أصداغه ، رأيتَ مالا يُحسِن العقربُ .
تُفّاح خدّيه له نَضْرةٌ * كأنّه من دَمْعتي يَشْرَبُ .

وقال آخر :

٥ ومُبيحُ أسرارِ القُلو * ب بوجنتيه وحاجبيه .
جَمَع الإلهُ له المحا * سنَ ثم أفرغها عليه .
وكأنّ مرآتين عُلِّقتا بصفحة عارضيه .
وكأنّ وَرْدَ الجُلّنار مُضَعَّفٌ في وجنتيه .

وقال عليّ بن عطيّة البلنسيّ في غلام جُرِح خدّه :

١٠ وأحْوى رَمَى عن قِسِيّ الحَوَرْ * سِهامًا يُفوّقُهنّ النظَرْ .
يقولون : وجنتُه قُسِّمَتْ * ورسمُ محاسنه قد دَثَرْ .
وما شَقّ وجنتَه عابثًا * ولكنّها آيةٌ للبَشَرْ .
جَلَاها لنا اللهُ كما نَرى * بها كيفَ كان انْشقاقُ القمرْ .

* * *

١٥ وممّا وصفت به على لفظ التأنيث ، فمن ذلك قول عبد الله بن المعتزّ :

نُجْلُ العُيون ، سواحِرُ اللحظاتِ * هيّجْنَ منك سواكنَ الحَرَكاتِ .
أقبلْنَ يرمين الجِمارَ تنسُّكًا ، * فجعلْن قلْبَك موضعَ الجمَراتِ .
فكأنهنّ غُصونُ بانٍ ناعمٍ * يحمِلْنَ تُفّاحا على الوَجَناتِ .

وقال ابن الرومى :

تَشْرَعُ الألحاظ فى وجْنتها * فتلاقى الرِّىّ من مَشْرَبِها .
فَهِى حَسْبُ العين من نُزْهتها * وهى حَسْبُ الأذن من مطرَبِها .

وقال ديك الجن :

بأبى الثلاثُ الآنسا * تُ الرائقاتُ الغانياتُ !
أقبلْن ، والأصداغ فى * وجَناتهنّ مُعقربَاتْ !
ألفاظهنّ مؤنّثا * تٌ والجفون مُذكَّراتْ !
حتّى إذا عاينّهن * وللأمور مسبّبَاتْ ،
جَمْشتَهنّ ، وقلتَ : طيبُ عناقكُنّ هو الحياةْ !
فخجلْنَ حتّى خلتُ أنْ * خدودَهنّ معصفَراتْ . ١٠

* * *

(٤٩٦) ومما وصفت به الخيلان ، فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير .

قال بعض الشعراء :

فى الساعِدِ الأيمنِ خالٌ له * مثلُ السُّوَيْداءِ على القلب .
كأنه من سَبَجٍ فاحمٍ * مُرَكَّب من لُؤْلؤٍ رَطْب . ١٥

وقال ابن منير الطرابلسى :

لاحَ لنا عاطلًا ، فَصِيغ له * مَناطقٌ من مَرَاشِقِ المُقَلِ .
حياةُ رُوحى وفى لواحظه * حَتْفِىَ بين النّشاط والكسَلِ .
ما خالُه منْ فتيت عنبرِ صُدْ * غيه ولا قطرِ صبغة الكحَلِ .
لكنْ سُوَيداءُ قلبِ عاشقِه * طفَتْ على نارِ وَرْدةِ الخجَلِ . ٢٠

وقال أيضا :

أنكرتْ مُقْلَتُه سَفْكَ دمى، * وعلى وَجْنَتِه فاعترفتْ.

لا تَخالُوا خالَهُ فى خدِّه * قَطرةً من صِبْغ جَفْنٍ نطفتْ.

تلكَ من نار فُؤادى جَذْوةٌ * فيه ساختْ وانطفتْ ثم طفتْ!

٥ وقال آخر :

لاتَخالُ الخالَ يعلُو خدَّهُ * نَقْطَ مِسْك ذابَ من طُرَّتِه.

ذاكَ قلبى سُلِبتْ حبّتُهُ * فاستوتْ خالًا على وجْنتِه.

وقال ابن منير :

كأنَّ خدّيْه دينارانِ قد وُزِنا * وحرّرَ الصَّيْرَفىُّ الوزنَ واحتاطا.

١٠ خفَّ إحداهما عن وَزنْ صاحبه، * فحطَّ فوقَ الذى قد خَفَّ قيراطا.

وقال آخر :

أضحى ليوسُفَ فى الجمالِ خَليفةً، * يخشاهُ كلُّ العالمين إذا بَدَا.

عَرِّجْ معى وانظر إليه لِكَىْ تَرى * فى خدّه عَلَمَ الخلافةِ أسودَا.

وقال آخر :

١٥ كمْ قلتُ للنفس : إليه اذهَبى، * فحبُّه المشهورُ من مَذْهبى!

مُهفهفُ القَدِّ له شامَةٌ * من عَنْبرٍ فى خدّه المُذْهَبِ.

آيَسنِى التوبةَ من حُبّه * طلوعُه شمسًا من المَغْرِبِ!

وقال آخر :

ومُهفْهَفٍ من شعره وجبينِه * يغدُو الوَرَى فى ظُلمةٍ وضِيَاءِ،

٢٠ لاتنكروا الخالَ الذى فى خَدّه ، كلُّ الشقيقِ بنُقْطةٍ سوداءِ.

وقال آخر :

لَهيبُ الخدّ حينَ رأته عيني * هوى قلبي عليه كالفَرَاش.
فأحرقَهُ فصار عليه خالًا، * وها أثرُ الدُّخَان على الحَواشي!

وقال آخر :

بَدَا على خــدّه خالٌ يزيّنُــه، * فزادني شغفًا منــه إلى شَغَفي.
كأنّ حبّــةَ قلبي عنــد رُؤيته * طارتْ فقلتُ لها: في الخدّ منه قفي!

وقال آخر :

خيــلانُ خدّك ردّتْ * صحيــحَ قلــبي مَريضا.
في العينِ سُودٌ، ولكنْ * مازِلْنَ في القَلْب بِيضا.

وقال آخر :

خدُّك مِرآةُ كلِّ حُسْــنٍ * يحسُنُ من حسنها الصِّفاتُ.
مالي أرى فوقَــهُ نُجُــومًا * قد كُســفَتْ وهي نيّراتُ؟

وقال آخر :

حَجّتْ إلى وجْهك أبصارُنا * طائفــةً، يا كعبةَ الحسْنِ!
تَمسحُ خالًا منك في وجْنةٍ * كالحجَرِ الأسود في الركْنِ.

وقال الأسعد بن بليطة :

سكرانُ لا أدْري ــ وقد وافى بنا ــ * أمِن المَلاحةِ أم من الجِرْيالِ.
تتنفَّسُ الصّهباء في لَهَــواته * كتنفُّس الرَّيْحان في الآصالِ.
وكأنّمــا الخيــلانُ في وجَناته * ساعاتُ هَجْــرٍ في لَيَالِ وصالِ.

* * *

ومما وصفت به على لفظ التأنيث ، فمن ذلك قول أبى الفتح كُشاجم :

هَدِيتُ زائرةً فى العيد واصلةً * لمستهامٍ بها للوصل منتظِر.
فلم يزلْ خدُّها رُكْنًا ألوذُ به ، * والخالُ فى صَحْنه يُغنِى عن الحَجَر.

٥ وقال العباس بن الأحنف :

ومحجوبةٍ فى الخِدْر عن كلّ ناظرٍ ، * ولو برزَتْ ، ماضلَّ بالليل مَنْ يَسْرِى .
بخالٍ بذاك الخدّ أحسنَ مَنْظَرا * من النُّقطة السَّوْداء فى وَضَح البَدْر.

* * *

ومما قيل فى العِذار، فمن ذلك ماورد فيه على سبيل المدح .

١٠ قال مانى المَوَسوس عفا الله عنه ورحمه :

وماغاضتْ محاسنُه ، ولكنْ * بماء الحُسْن أورَقَ عارضاهُ .
سمعتَ به فهِمتَ إليه شوقًا ! * فكيفَ لك التصبُّرُ لو تراهُ ؟

وقال أبو فِرَاس :

مِن أينَ للرشإ الغَريرِ الأحْوَرِ * فى الخد مثلُ عذاره المتحدِّرِ ؟
١٥ يامَنْ يلومُ على هواه سَفاهةً ! * أُنْظُر إلى تلك السوالف ، تَعْذُر.
قمرٌ كأنَّ بعارضَيْه كلَيْهما * مِسكٌ تساقَطَ فوق وردٍ أحمر.

وقال ابن المعتز :

سالتْ مسايلُ عارضَيْــه بنَفْسجا فى وَرْده.
فكأنّه ،من حُسْنه * عَبثَ الربيعُ بخدّه.

وقال الخبّاز البلدى :

وعارضٍ مثل دارة البَدْرِ * دارَ بوجهٍ كليلةِ القَــدْرِ،
فلَوْ تراهُ وحسنَ منظَرِهِ، * شهدْتَ أنّ الجمال للشَّعْرِ.

وقال آبن المعتزّ :

وتكادُ الشمسُ تُشْبِهُهُ * ويكادُ البدرُ يَحْكِيه،
كيف لايخضَرُّ عارضُه، * ومياه الحُسْن تسقيه؟

وقال محمد بن وهب :

صُدُودُكَ فى الورى هَتَكَ آستتارى، * وساعده البــكاءُ على آشــتهارى.
ولم أخْلَعْ عِــذَارِى فيــك إلّا * لِمَــا عاينتُ من حُسْــن العِذارِ.
وكم أبصرتُ من حُسْــنٍ، ولٰكنْ * عليــك من الورى وقعَ آختيارى.

وقال أبو الفرج الوأواء :

وشمسٌ[1] بأعلاه ولَيــلانِ أُسْــبِلا * بخــدّيْه، إلا أنّهــا ليس تَغرُبُ،
ولَمّاحوى نصفَ الدّجى نصفُ خدّه * تحيّرَ حتّى مادرى أيــن يَذْهبُ.

وقال الخُبْزأرُزّى :

أُنظر إلى الغُنْج يجرى فى لَواحِظِهِ، * وآنظرْ إلى دَعَجٍ فى طَرْفه الساجى!
وآنظُر إلى شَعَراتٍ فوق عارِضِهِ * كأنهنّ نِمــالٌ سِرْنَ فى العاج!

وقال أيضــا :

وجهٌ تكاملَ حُسْـــنُهُ * لمــا تَطَرَّفَــه عِذارُهْ.
والسيفُ أحسنُ ما تَرَى * ماكان مُخْضَرًّا غِرارُهْ.

(١) فى الأصل : "ليل" . والتصويب عن اليتيمة .

وقال الأمير سيف الدين المشدّ :

ولائمٍ فى عِــذار بَــدْرٍ * لم أستطِعْ عن هواه مَيْلا .
فقلتُ ، والدمعُ فى جُفـونى * لفرطِ وجدى تسيل سَيْلا :
ضَلَلْتُ فى خَــدِّه نهارا ! * كيفَ رشادى ، وصار ليلا ؟

٥ وقال أيضا :

ولَمَّا أن بدا فى الخدّ شَــعْرٌ * توقَّف عند منتصَف العِـذارِ .
فقلتُ للائمى فيــه : تعجَّبْ * لنصف الليل فى نِصْف النهار !

وقال أيضا :

ومُهفهفٍ يَحْمى وُرُودَ رُضابِه * بصوارِمٍ سُلَّتْ من الأجفانِ .
١٠ كتب العِـذارُ بليقةٍ مِسْكيَّةٍ * فى خدّه سَطْرا من الرَّيْحان .

وقال أيضا :

يقــولُ العَــواذلُ لَمَّا بدا * على خــدِّه شــعَرٌ زائرُ :
ذَوَى وَرْدُ خدّيه ، قلت : اقْصروا * فنرجِسُ ألحاظِــهِ وافِـرُ !

وقال آخر :

١٥ وقالوا : تسلَّ فقد شانَهُ * عذارٌ أراحك من صَدِّه .
فقلت : وهِمْتم ، ولٰكنَّنى * خلَعْتُ العِذارَ على خدّه .

وقال آخر :

بروحى وقلبى ذلك العارضُ الذى * غدا مسْكُه فوق السَّوالف سائلا .
درَى خدُّه أنّى أُجَنُّ من الهوَى ، * فأظهرلى قبل الجُنون سَــلَاسلا !

وقال آخر :

أصبحتُ مأسورًا بغُنْج لِحاظه * ومقيَّدا من صُدْغه بسلاسِل.
حتَّى بدا سيفُ العذار مجرَّدا * فخشيتُ منه، فقلتُ هذا قاتِلي!

وقال آخر :

قالت: اسودَّ عارضاكَ بشَعْرٍ، * وبه تقْبُح الوجوهُ الحِسانُ!
قلتُ: أشعلْت في فؤادىَ نارًا، * فعلى عارضَيَّ منه دُخَان!

وقال آخر :

قلتُ، وقد أبصرتُه مُقْبِلًا * وقد بدا الشَّعْر على الخدِّ:
صُعودُ ذا النمل على خدّه * يشهد أن الرِّيق من شَهْدِ.

(٣٨)

ومثله قول الآخر :

قالوا: ٱلْتَحى، فٱصبُ إلى غيره! * قلتُ لهم : لستُ إذًا أسْلُو!
لو لم يكُنْ من عسلٍ رِيقُه، * ما دَبَّ في عارضه النَّمْلُ.

وقال آخر :

عِذَارُه أحسنُ ما فيه، * وتِيهُهُ من أحسنِ التِّيه.
في فَمِه الشَّهْد، فلا تَعْجَبُوا * إن دَبَّ نَمْلٌ بعِذاريه.

وقال آخر :

أصلَى بنار الخدِّ عَنْبر خاله * فغدا العذارُ دُخانَ ذاك العنبرِ.

وقال آخر (وقد تقدّم إيراده في صفة الخدّ) .

أعِدْ نظرًا، فما في الخدّ نبْتٌ * حماه اللهُ من رَيْب المَنُون!
ولكن رقّ ماءُ الوجه حتَّى * أراكَ مثالَ أهدابِ الجُفُون.

ومثاله قول الآخر (وقد تقدم إيراده) :

ولَمَّا ٱستدارَتْ أعينُ الناس حولَهُ * تُلاحظُه كيف ٱستقَلَّ وسارا،
تمثَّلت الأهدابُ فى ماءِ وجهِه * فظنُّوا خيالَ الشَّعْر فيه عِذارا.

وقال الحاجرىّ :

٥ وما ٱخضَرَّ ذاكَ الخدُّ نَبتًا، وإنما * لكثرة ما شُقَّت عليه المَرائرُ.

وقال آخر :

يالائمِى فى حُبِّ ذى عارضٍ، * ما البَلَدُ المُخصِبُ كالماحِلِ!
يَموجُ ماء الحسنِ فى وجهِه * فيَقْذِفُ العنبرَ فى الساحل.

وقال آخر :

١٠ ولَمَّا بدَا خطُّ العِذار بوجهِه * كظُلْمة ليل فى ضِياء نهار،
تغلْغَلَ فى قلبى هواه فلم أزَلْ * خليعَ عِذار فى جَديدِ عِذار.

وقال آخر :

قالوا: ٱلتحَى، فامتحَتْ بالشَّعر بهجَتُه! * فقلت: لولا الدُّجَى لم يحسُنِ القمرُ.
مَن كان منتظِرا للصبر عنه بِهِ، * فإنَّنى لغَرامى كنتُ أنتَظِرُ.
١٥ خَطَّتْ يدُ الحسنِ منه فوق وجنَتِه: * هذى محاسنُ، يا أهلَ الهوَى، أُخَرُ!

وقال آخر :

وقلتُ: الشَّعْر يُسْلينى هواه! * ولم اعلم بأنَّ الشَّعْر حَيْنِى.
فَظَلْتُ لِشقْوتِى أفْدِى وأحمِى * سوادَ عِذاره بسَوادِ عينِى.

وقال محمد بن عبد الله السلامى، شاعر اليتيمة :

٢٠ عذارُكَ جادتْ عليه الرِّيا * ضُ بأجْفانها وبآماقها.

وطال غرامُ الغَواني به * فقد طَرَّزَتْهُ بأحداقها.

وقال آبن سُكَّرَةَ الهاشميّ :

وغزالٍ لولا نميمةُ شَعْر * ذكَّرتْه، لقلتُ: إحدى الجَوارى.
شاربٌ أشْرَبَ الصَّبابةَ قلبى، * وعذارٌ خلعتُ فيه عِذارى.

وقال آخر : ٥

قالوا: آلتحَى وستَسْلُوعنه، قلتُ لهم: * هل يحسُن الروضُ مالم يطْلُعِ الزَّهَرُ؟
هَلِ آلتحَى طَرْفُهُ الساجى، فأهْجُرَه؟ * وهل تزحْزَح عن ألحاظه الحَوَرُ؟

وقال أبو الفتح كُشاجم :

مَنْ عَذِيرى من عِذارَىْ قمرٍ، * عرّض القلْبَ لأسبابِ التلَفْ؟
زِيدَ حُسْنًا وضياءً بهما، * فَهُو الآنَ كَبَدْرٍ فى سَدَفْ. ١٠
خَمَّشا خدَّيْه ثم آنعطَفا، * آه ما أحسنَ ذاك المنعطَفْ!
علِمَ الشَّعْرُ الذى عاجَلَهُ * أنه جارَ عليه، فوقَفْ.
فهو فى وقْفته معترِفٌ * بالتناهِى فى التعدّى والسَّرَفْ.

وقال آخر :

لاتعتقِدُوا ما لاح فى وجْنَتِهِ * شَعرا، غَلَطًا! ماذاك من شِيمته! ١٥
بل ساكِنُ ماءِ الحسن قد حَرَّكه * مَوْجٌ قذف العنبرَ فى حافَتِه.

وقال عبد الله بن سارة الإشبيليّ :

ومُعذَّرٍ رقَّت حواشى حُسنِه، * فقلوبُنا حَذَرًا عليه رِقاقُ.
لم يُكسَ عارضُه السوادَ، وإنما * نفضَتْ عليه صباغَها الأحداقُ.

وقال أبو بكر الدانيّ، شاعر الذخيرة :

بدا على خدّه عِــذارٌ * فى مثله يُعذَر الكئيبُ.
وليس ذاك العذارُ شَعْرًا، * لكنَّما سِــرُّه غريبُ.
لَمَّا أراق الدماء ظُلْما، * بدتْ على خدّه الذُّنوبُ.

٥ وقال عبد الجليل الأندلسيّ :

ومُعذَّرِين كأنما بخُدودِهِمْ * طُرُقُ العيون ومَنْهَجُ الأوداجِ.
وكأنما صقَلُوا الجمالَ فأظهرُوا * مَشْىَ النِّمال على مُتُون العاجِ.

⁂

ومما وصف به العِذار على طريق الذمّ، فمن ذلك ما قاله الوزير أبو المغيرة
١٠ ابن حَزْم، عند ما عُرِضت عليه رسالة بديع الزمان فى الغلام الذى خطب إليه وُدّه
بعد أن عَذَّر، قال :

« ورد كتابك يَنْشُد ضالَّةَ وُدِّنا ، ويَرْقَع خَلَقَ عهدنا ، ويطلُب ما أفاءته جريرتك
« إلينا ، وذهبتْ به جنايتُك علينا ، أيامَ غصنُك ناضر ، وبدرُك زاهر ، لانجد رسولا
« إليك ، غير لحظة تَخْرِق حجاب الدموع ، أو زفرةٍ تُقيم مُنْآدَ الضُّلوع ، فإن رُمْنا شكوى
١٥ « يَنْفُث بها مَصْدُورنا ، ويستريح إليها مَهْجورنا ، لقينا دُونَها أمنع سدّ ، وأقبح كفّ
« وصدّ ، وأقدح ردّ .

وفى فصل منها :

« حتَّى إذا طَفِئتْ تلك النِّيران ، وآنتصف لنا منك الزمان ، بشَــعَراتٍ أغشَتْ
« هلالَكَ كُسوفا ، وقلبتْ ديباجكَ صُوفا ، وأعادت نهارَكَ ليلا ، وناحتْ عليك تلهُّفا

«وويلا ، وأطار حمامك غرابك ، وحجب ضياءك ضبابك ، فصار عرسك مأتمـا ،
«وعاد وصلك محرّما ، قال القائل :

«وبتّ مـداما تُسـرّ النزيف * فأصـبحت تُجـرع خلّا ثقيفا .
«وصرت مجـازًا جديب المحـلّ ، * وقد كنت للطالب الخصب ريفا .

«أقبلت تتسلّل إلينا لواذا ، وتطلب منا عياذا ، قد أنساك ذلّ العزل عزّ الولايه ، ٥
«وأولاك طمعا نسياننا تلك الجنايه ، أيام ترشقنا سهام ألحاظك رشقا ، وتقتلنا سيوف
«ألفاظك عشقا ، وتميس غصنا ، فتثير حزنا ، وتطلع شمسا ، فتفتّت نفسا .

«فالآن نلقاك بدمع قد جفّ ، ووجد قد كفّ ، وعزاء قد أبدّ ، وصبر قد أغار
«وأنجد ، وننظر منك إلى روض قد صوّح ، وسار قد أصبح ، وأعجم قد أفصح ،
«ومبهم قد صرّح . فلا شكّ قد رفع الغطاء ، ولا إفك قد برح الخفاء ، ولا لوم قد وقع ١٠
«الجزاء . وهلّا ذكرت المثل الممتهن " الصّيف ضيّعت اللبن ! " ونسيت من أحرقت
«قلبه صـدّا ، وأقلقت جنبه ردّا ، وملأت جوانحـه نارا ، وتركت نومه غرارا ،
«أن يوفيك قرضا ، ويجازيك حتّى ترضى ، حين نكّس علمك ، وعثرت قدمك ،
«وضاقت طرقك ، وأظلم أفقك ، وهوى نجمك ، وخاب قدحك ، وفلّ سيفك ، وحطّ
«رمحك ، فاطو ثوب وصلك فلا حاجة لنا إلى لباسه ، وازو طارق شخصك فلا رغبة ١٥
«لنا فى إيناسه ، فما يشتهى اليوم زيارة رمس ، من زهد فيه أمس . قال :

«حانت منيته فاسودّ عارضه ، * كما تسودّ بعـد الميت الدار .
«يامن نعته إلى الإخوان لحيته ، * أدبرت ، والناس إقبال و إدبار !
«فيالدهر مضى ما كان أحسنه ! * إذ أنت ممتنـع والشرط دينار .
«أيام وجهك مصقول عوارضه ، * وللرياض على خدّيك أنوار ! ٢٠

وقال علىّ بن نصر الكاتب تعزيةً لمن طلعت لحيته :

«لكل حادثة يفجع بها الدهر — أحسن الله معونتك — حدّ من القلق والالتياع ، «ومَبْلغ من التحرّق والارتياع ؛ تستوجب فنًّا من التعزيه ، وتستحق نصيبا من العظة «والتسليه ؛ والاختصار فيها لما قرب خطبه وشانه ، والإكثار لما جلّ محلّه «ومكانه .

٥

«ومُصابُك هذا — أعانك الله — فى بياض بَيْضك لما آسودّ ، كمُصابك فى سواده «إذا آبيضّ ؛ والألم ببياض رَوْضه جميا ، نظير الألَم به يوم يعود هشيما .

«فليس أحد يدفع عظيمَ النازل بك ، ولا يستصغر جسيمَ الطارق لك ؛ وإن كان «ما يتعقبه من المشيب أقذى للعيون .

١٠ «التفتتْ عنك النواظر ، وكانت ملتفتة إليك ، ووقفت عنك الخواطر ، وكانت «موقوفة عليك ؛ وصيّرك قَذى الأجفان وكنت جِلَاها ، وجعلَكَ كُرْبة النفوس «وكنت هواها ؛ وأبدلك من أنس التقبل ، وحشة التنقل ؛ وعوّضك من رقة الترفرف ، «كلفة التأفُّف ؛ فتبارك الله الذى صرف عنك الابصار ، ونقّل فيك الأطوار ! ... ...

... ...

١٥ «فعويلًا دائما وبكاء ! وعزاء عن الذكر الجميل عزاء ! فلكل أجل كتاب ، وعلى كل «جائحة ثواب .

«ولقد آستوفيت أمد الصبا والصبابه ، وآستَنْبَت الحسرة عليها والكآبه ، فرزيّتُك «راسية والرزايا سوائر ، ومصيبتُك ثابتة والمصائب عوائر . ” إنا لله وإنا إليه «راجعون“ .

«ثم لا حيلة، فإنها الأيام التى لا تثبت على حاله، ولا تعرف غيرَ التنقل والاستحاله!
«فآجرك الله فى وجه نَضَب ماؤه، وذهب رُوَاؤه ومات حَياؤه! وفى ضيعة آستأجم
«بِرُّها، وآستدغل نَوْرها، وأسبع طريقُها، وآتسعت تَنُوفتُها! وفى جاه كان عامرا
«فخَرِب، ودَخْل كان وافرا فذهب، وتَذْكار كان واصلا إلى القلوب فحُجِب!
«فأصبحتَ مسبوق السكّيت، وظلِلْت حيا وأنت الميْت، فلا حول ولا قوّة إلا بالله ٥
«من مِحَنٍ دُفعتَ إليها، ولم تُعَنْ بحال عليها.

«وقد يشغل الإنسانَ عن نوائبه المشاركون فيها، ويسلّيه عنها المساهمون فى مَعْنَى
«معانيها، وأنت من بين هذه المنزلة لا شريك لك، فإنهم يعتاضون عنها ولستَ
«بمعتاض، ويركُضُون للعيش ولست بركّاض. والدهر يطوى محاسنَك طىَّ السجلّ
«كتابه، وينشر مَقابِحك نشر اليمانى أثوابه. ويَمَلُّ الطرف رؤيتك فلا يُفيق عليك ١٠
«جفنا، ويمجّ السمع ذكرك فلا يجد عنده أذنا.

ومنها:

وقد جعلتُ رُقعتى هذه جامعةً بين البكاء عليك والأنين، وناظمةً بين العزاء
والتأبين. لها حلاوةُ النثر، وعليها طَلاوة الشعر. تمجّها قريحةٌ عليك، ونسجتها خواطر
خاطرت إليك، تخفِّف غرامك والناس مشاغيلُ بتثقيله، وتكرم مكانك والإجماع ١٥
واقع على تهوينه. فإن عرفتَ لى ذاك، وإلا عرفه الصِّدق، وإن شكرته، وإلا
شكره الحق.

والسلام عليك من أسير لا يخلص بالفدية، وقتيل بسيف السِّبال واللحية.»

وقال الصنوبرىّ:

ما بدَتْ شَعْرةٌ بخدّك إلّا ... قلتُ فى ناظرَىَّ أو فى فؤادى. ٢٠

أنت بدرٌ جَنَى الخسوفُ عليه * ظلمةً، لا أرى لها من نَفَاد.

فاسوداد العِذارِ بعدَ ٱبيضاضٍ * كٱبيضاضِ العِذار بعد ٱسْوداد.

وقال آخر :

أصْبحَ نَحْسًا ــ وكان سَعْدا ــ * مَنْ كان مَوْلًى فصار عَبْدا.

٥ بكى على حُسْنِهِ زمانا، * لما رأى الشَّعْرَ قد تَبَدّى.

لو نَبت الشَّعْرُ فى وِصالٍ، * لعادَ ذاكَ الوِصالُ صَدّا!

وقال الخبزأرزى :

بَدا الشَّعرُ فى وَجْهِه، فٱنتقمْ * لعاشِقِه منه لَمَّا ظَلَمْ.

وما سلَّطَ اللهُ نَبْتَ اللِّحى * على المُرْدِ إلَّا زَوالَ النِّعَمْ.

١٠ تَوَحَّشتِ العينُ فى وجْهِه، * وحَقّ لها وحشَةٌ فى الظُّلَمَ.

إذا ٱسْودّ فاضلُ قِرْطاسِه، * فما ظَنُّه بمَجارِى القَلَمْ؟

ولم يَعْلُ فى خَدِّه كالدُّخَا * ن إلَّا وأسْفَلُه كالحُمَمْ.

وقال التَّنُوخىّ :

قلْتُ لأصحابى، وقد مَرّ بِى * مُنْتقبًا بعدَ الضّيَا بالظُّلَمِ:

١٥ بالله، ياأَهْلَ وِدادِى! قِفُوا * كَىْ تُبْصِرُوا كيْفَ زَوالُ النِّعَمِ!

وقال إبراهيم بن خَفاجة الأندلسىّ فى ملتحٍ :

ما للعِذارِ، وكانَ وَجْهُكَ قِبلةً، * قد خَطَّ فيه من الدُّجى مِحْرابا.

وإذاالشَّبابُ ــ وكانليس بخاشِعٍ ــ * قد خَرّ فيه رَاكعا ، وأنَابَا.

وقال أيضا :

وافى بأوّله صحيفــةُ صَفْحةٍ * جعلَ العِذارُ بها يَسِــيل مِدادَا.

متَجَهِّما نُكْلَ الشَّبابِ كأنمــا * لَبِس العِذارَ على الشَّباب حِدَادا.

وقال عمر المطوعىّ، من شعراء اليتيمة :

غَدَا — مُنْذُ ٱلْتحى — لَيْلًا بَهِيما، * وكان كأنَّه القَــمَرُ المُنِــيرُ. ٥

فقــد كتَبَ السَّوادُ بعارِضَيْهِ * لمن يقرا : "وجاءَكُمُ النَّذير".

وقال عبد الجليل الأندلسىّ، من شعراء الذخيرة :

وأمْرَدَ يَسْــتَهِيمُ بكل وادٍ * ويَنْصِب للحَشا خدّا صَلِيبا. (٣١)

دعوتُ دُعاءَ مظلومٍ عليه، * وكان الله مستمِعًا مُجِيبا

فطَــوّقه الزمانُ بمـا جَناه، * وعلّق من [illegible] ١٠

✤✤✤

وممـا قيل فى العُنُق، يقــال :

الجَيَـد، طولهـا — التَّلَع، إشرافها — الهَنَع، تطامُنُها — الغَلَب، غِلَظُها — البَتَع، شِدَّتُها — الصَّعَر، ميلُها — الوَقَص، قِصَرها — الخَضَع، خُضُوعها — الحَدَل، عوجها. ١٥

وقال دِعْبِل :

أتاحَ لكَ الهــوى بيض حسَانٌ * ســلَبْنَكَ بالعُيونِ وبالنُّحُــور.

نَظرْتَ إلى النُّحور فكِدْتَ تقضى * فأوْلى لو نظَـرتَ إلى الخُصُور.

وقال قيس بن الخطيم .

وجيدٍ بجيد الرِّيم صافٍ يزينُه * توقُّدُ ياقوتٍ وفَصْلُ زَبَرْجد .
كأنَّ الثريَّا فوقَ ثُغْرة نَحْرِها * تَوَقَّدُ في الظَّلْماء أيَّ توقُّد .

***

٥ ومما قيل في اليد إذا باشرَتْ ما يَعْلَق بها، يقال :

من اللحم غَمِرة؛ ومن الشحم زَهِمة، ومن السمن نَسِمة، ومن الزُّبد وَضِرَة، ومن الجُبْن نَسِمة، ومن اللبن مَذِقة ، ومن البَيْض زَهِكة، ومن السمك صَمِرة، ومن الزيت قَنِمة ـ ومن الخمر عَتِكة ، ومن الخل خَمِطة ، ومن العسل ونحوه لَزِجة، ومن الطِّيب عَطِرة ، ومن الغالية عَبِقة ، ومن الزعفران رَدِعة، ومن العنبر لَطِخة ، ومن ١٠ الخَلُوق ضَمِخة ، ومن الحنَّاء قَنِئة ، ومن الدم ضَرِجة ، ومن الماء بَلِلَة ، ومن الطين لَثِقة ورَدِغة ، ومن البرد صَرِدة، ومن التراب كَتِبة وغَضِرة، ومن القار حَلِكة، ومن الفحم حَمِمة ، ومن المداد طَرِسة ، ومن الحديد سَهِكة ، ومن الفضة سَبِكة، ومن الذهب نَضِرة ، ومن النار شَعِلة، ومن الرياحين فَوِحة ، ومن البقل زَهِرة ، ومن الفاكهة الرطبة لَزِقة، ومن اليابسة فَكِهة، ومن العمل مَجِلة ونَفِطة، ومن الخُشُونة ١٥ شَثِنة ونَفِنة، ومن الشوك مَشِطة وشَظِية ، ومن الحطب حزِمة، ومن الرمح كَعِبة، ومن الصولجان لَعِبة ، ومن الجود سَبِطة ، ومن العطية مَنِحة، ومن البخل جَعِدة، ومن المنع لَحِزة، ومن العدم تَرِبة، ومن الرزّ زَنِخة، ومن الصابون حَفِرة، ومن الفرصاد قانِية، ومن الرجيع قَثِمة، ومن كل القاذورات قَذِرة، ومن الوسخ دَرِنة . اهـ

وممـا مُدحت به اليدُ، قال مؤيد الدّين الطُّغرائى :

ويدٍ تُمدُّ المـالَ راحتُها * أبدًا، ويغمُرظهرَها القُبَلُ.
إن ضَنَّ غيثٌ أوخَبَا قمرٌ * فجبينُه ويمينُـه البـدَلُ.

وقال عبد المؤمن بن هبة الله الأصبهانىّ ٥

قالوا : بدَتْ عارضةٌ لابدَتْ ! ـ * فى كفِّ ذاكَ السـيِّد الأوحدِ.
راحتُه راحةُ من يجتدى، * وكفُّه كفُّ الذى يعتـدِى.
فـلا أصـابتْ يَدَه آفـةٌ ! * فكم يَدٍ عنـدى لتلك اليَـدِ !

وقال آبن دُرَيد :

يامَنْ يقبِّلُ كفَّ كُلِّ مُمَخْرِقٍ، * هذا آبن يحيى ليس بالمِخْراقِ ! ١٠
قَبِّـلْ أناملَه، فلَسْنَ أناملًا ، * لكنهنَّ مَفـاتحُ الأرْزاقِ !

وقال إبراهيم بن العباس بن محمد :

لفضـلِ بنِ سَهْلٍ يدٌ * تقاصَرَ عنها المَثَـلْ.
فباطنُهـا للنَّـدَى، * وظاهِـرُها للقُبَـلْ.
وبَسْـطتُها للغـنَى، * وسَـطْوتُها للأجَلْ. ١٥

وقال آبن الرومىّ :

فآمْـدُدْ إلىّ يدا تَعوّدَ بطْنُها * بذلَ النَّوالِ، وظَهْرها التقبيلا.

وقال أبو نُوَاس :

يا قَمَـرًا، أبـرزَهُ مأتَمٌ * يَنْـدُبُ شجْوا بين أتْراب !
يَبْكى فيُذْرِى الدُّرَّمن نَرْجِس، * ويَلْطِـمُ الوَرْدَ بعُنَّاب.

وقال الناشي :

مِنْ كفِّ جاريةٍ كأنَّ بَنانَها * من فِضَّـةٍ قد طُرِّفت عُنّابا.
وكأنّ يُمْناها إذا نَطَقَتْ بهـا * تُلْقِي على يدها الشِّمالِ حِسابَا.

وقال الراضي بالله :

قالوا: الرَّحيلَ! فأنْشبت أظفارَها * في خَدِّها، وقد ٱعتلَقْنَ خِضابا.
فاخضَرَّ تحتَ بَنانِهـا فكأنَّهـا * غرسَتْ بأرضٍ بَنَفْسَجٍ عُنَّابا.

وقال ٱبن كيغلغ :

لَمَّا ٱعتنَقْنَا للوَدَاع وأعربَتْ * عَبَرَاتُنَـا عنَّا بدَمْـع ناطقٍ،
فرَّقْن بينَ مَعَاجِرٍ ومحاجرٍ، * وجمعْنَ بين بَنَفْسَجٍ وشَقائِقٍ.

وقال كُشاجِمُ :

فمـا أنْسَها، لا أنْسَ منها إشارةً * بسَـبَّابةِ اليُمـنى إلى خاتَمِ الفَمِ!
وأعلنتُ بالشكوى إليها فأومَأَتْ * حِذاراً من الواشينَ أنْ لا تَكَلَّمِ.
فلم أرَ شَكْلا واقعًا فوقَ شَكْله * كَعُنَّابةٍ تُومِي بها فوق عَنْـدَمِ.

٭٭٭

ومـا قيل في النهود، يُقال :

ثُنْدُوَة الرَّجُل، ثَدْي المرأةِ، خِلْف الناقةِ، ضَرْع الشاةِ والبقرة، طُبْيُ الكَلْبَة .

قال ٱبن الرومي :

صُدورٌ فوقَهُنَّ حِقَاقُ عاجٍ، * وحَلْيٌ زانَهُ حُسْنُ ٱتِّساق!
يقولُ الناظِرُونَ إذا رأَوْها: * أهٰذا الحَلْيُ من هٰذي الحِقَاقِ؟
وما تِلْكَ الحِقَاقُ سِوَى ثُدِيٍّ * قُدِرْنَ من الحِقَاقِ على وِفَاقِ.

نَواهِدُ لايُعَدُّ لهنّ عيْبٌ * سِوى مَنْعِ المُحِبِّ من العِناقِ.

وهو مأخوذ من قول بعض الأعراب :

أبَتِ الرّوادِفُ والثُّدِىُّ لقُمْصِها * مَسَّ البُطون، وأن تَمَسَّ ظُهورا.

وقال محمد بن مبادر :

ولَها ثَدْيانِ ماعَدَوَا * من حِقَاقِ العاجِ أن كَعَبا.

قُسِمَتْ نِصفَيْنِ دِعْصَ نَقًا * وقَضيبًا لانَ، فاضْطربا.

وقال عبد الله بن أبى السِّمْط بن مَرْوان :

كأنَّ الثُّدِىَّ إذا ما بَدَتْ * وَزانَ العُقودُ بهنَّ النُّحورا،

حِقاقٌ من العاجِ مكنونةٌ * يَسَعْنَ من الدُّرِّ شيئًا كثيرا.

وقال علىّ بن الجهم :

كنتُ مُشْتاقًا وما يَحْجُزُنِى * عَنْكِ إلا حاجِزٌ يَمْنَعُنِى.

شاخِصٌ فى الصدر، غضبانٌ على * قَبَبِ البَطْنِ وطَىِّ العُكَنِ.

يمْلأُ الكَفَّ ولا يَفْضُلُه، * وإذا أثْنَيْتَه لا يَنْثَنِى.

وقال ابن الرومىّ :

مُلْقِماتٌ أطفالَهنّ ثُدِيًّا * ناهِداتٍ كأحسَنِ الرُّمّانِ.

مُفْعَماتٌ كأنها حافِلاتٌ * وهى صِفْرٌ من دِرَّة الألبانِ.

وقال ابن المعتز :

قَبيحٌ بمثلك أن تَهْجُرى، * وأقبحُ من ذاكَ أن تُهْجَرِى.

أقاتِلَتِى بفُتُور الجُفُون * ورُمّانتَيْنِ على مِنْبَرِ،

كحُقَّيْنِ من لُبِّ كافورةٍ * برأسَيْهما نُقطتا عَنْبَرِ!

* * *

وممـا قيل في البطن ، يقال :

الدَّحَل ، عِظَمُه — الحَبَن ، خروجه — الثَّجَل ، آسترخاؤه — القَمَل ، [illegible] — الضُّمُور ، لَطَافته — العَجَر والبَجَر ، شُخُوصه — التَّخَرْخُر ، آضطرابه .

٥ قال محمد بن مبادر :

والبَطْنُ ذُو عُكْنَةٍ لطيفٌ * صِفْرٌ وِشَاحاه جائلانِ .

أشرَفَ من فوقِهِ عليـه * ثَدْيانِ مِثْـلانِ ناهِـدانِ .

... ...

* * *

١٠ ومما قيل في الأرداف والخصور ، فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير .

فمنه قول عبد الله بن طاهر :

صبٌّ كئيبٌ يشتكيكَ الهوى * كما آشتكى خَصْرُكَ من رِدْفِكا .

لسانُه عن وصْفِ أسـقامِهِ * أكَلُّ منـه عن مَدى وصْفِكا .

وقال آبن أبي البغل :

١٥ كأنَّه في آعتـدالِه غُصُنٌ * وفي السَّراويل منه أمواجُ .

إذا مشى كالقَضِيب جاذَبَهُ * رِدْفٌ له كالكَثِيب رَجْراجُ .

ويعـلَمُ الله أنَّني رجـلٌ * إليه مد قد كَبِرتُ محتـاجُ .

وأنشد أبو بكر بن دُرَيْد عفا الله عنه ورحمه :

قد قلتُ لَمّا مَرّ يَخْطِرُ ماشِيًا * والرِّدفُ يجْذِب خَصْرَه من خَلْفه
يا مَنْ يُسَلِّم خَصْره من رِدْفِه * سَلِّمْ فُؤادَ محبِّه من طَرْفه

وقال السرىّ الرفّاء :

ضَعُفَتْ معاقِدُ خَصْره وعُهودُه * فكأَنَّ عَقْدَ الخَصْر عَقْدُ وفائه

وقال المتنبى :

وخَصْر تثبتُ الأبصارُ فيه * كأنَّ عليه من حَدَقٍ نِطاقا

وقال السرىّ الرفّاء :

أحاطَتْ عيونُ الناظرينَ بخَصْره * فهُنّ له دونَ النِّطاق نِطاقُ

وقال الأمير سيف الدّين المشدّ :

وأَهْيف القدّ بتُّ أشكو * له تَلافِى وما تَلاقَى
فلانَ عِطْفا ودقَّ خَصْرا * وإنما رِدْفُه تجافَى

وقال أبو نُوَاس :

لَيِّنُ القَدّ لَذِيذُ المُعْتَنَقْ * يُشْبِهُ البدرَ إذا البدرُ اتَّسَقْ
مثقَلُ الرِّدفِ إذا وَلَّى حكى * مُوثَقًا فى القيد يَمْشى فى زَلَقْ
وإذا أقبلَ كادتْ أعيُنٌ * نَحْوه تَجرَحُ فيه بالحَدَقْ

وقال آخر وأجاد :

أيامَنْ نِصْفُه غُصنٌ * يميلُ ونِصْفُه كَفَلُ
صِفاتُكَ فى تَبايُنِها * مُنْفَصِلٌ ومُتَّصِلُ
فنصفُكَ موجُ عاصفةٍ * ونصفُكَ شاربٌ ثَمِلُ

⁂

ومما وصفت به على المثال التأنيث، فيه قول أبى عبادة البحترى :

كأنهن وقد سارين فى تناسب ضامن فى الحسن تثقيلا وإخطافا .

ردفن ما خففت منه الخصور إلى ما فى المآزر فاستثقلن أردافا .

وقال آخر :

لها ردف تعلق فى لطيف فذاك الردف لى ولها ظلوم .

يعذبنى إذا فكرت فيه ويتعبها إذا قصدت تقوم .

وقال مؤمل وأفرط :

من رأى مثل حبتى تشبه البدر إذ بدا .

تدخل اليوم ثم تد خل أردافها غدا .

وقال أبو هلال :

تمشى بأرداف أبين قعودها بين النساء كما أبين قيامها .

وقال على بن عطية البلنسى :

وإنسية زارت من الليل مضجعى فعانقت غصن البان منها إلى الفجر .

أسائلها أين الوشاح؟ وقد سرت معطلة منه، معطرة النشر .

فقالت : وأومت للسوار نقلته إلى معصمى لما تقلقل فى خصرى .

وقال الطائى :

من الهيف لو أن الخلاخل صيرت لها وشحا جالت عليها الخلاخل .

وقال إسحاق الموصلىّ :

ظِباءٌ كاليَعافيرِ * كُئوسٌ فى المَقاصيرِ .
وأَدبرنَ بأَعجازٍ * كأَوساط الزَّنابيرِ .

وقال عمر بن أبى ربيعة :

يتقابلْنَ كالبُدور على الأغْـ * ـصانِ فى مُثْقَلٍ من الأرْدافِ .
بخُصُورٍ تَحْكِى خُصُورَ الزَّنابيـ * ـرِ ضعافٍ هَمَمْنَ بالانْقصاف .

وقال آخر :

عظُمَتْ روادِفُها فآذتْ خَصْرَها * ووشاحُها قَلِقٌ كقَلْب المُغْرَم .

وقال آخر :

آخِرُها مُتْعِبٌ لأوّلِها * فبعضُها جائرٌ على بَعْضِ .

وقال آخر :

تَمْشِى فتُثْقِلُها روادِفُها * فكأنَّها تمشى إلى خَلْف .

وقال البجلىّ :

إن العزيزَ علىّ خَصْرُكِ إنه * بالرِّدْفِ حُمِّلَ منك ما لا يُحْمَلُ .
فخُذِى له جِسْمِى مَكانَ وشاحه * إن العَليل بشَكْله يتعَلَّلُ .

* * *

ومما قيل فى السُّوق ، فمن ذلك قول الأمير سيف الدين المشدّ :

ساقٍ تجلَّى كأنَّه قمرٌ ، * يحملُ شمسًا ، أَفْدِيه من ساقِ !
شمَّر عن ساقِه غلائلَه ، * فقلتُ : مهلا ، وآكفُفْ عن الباقى !
لمَّا رآنى ، وقد فُتِنْتُ به * من فَرْط وَجْدِى وعُظْم أشواقى ،
غنَّى وكأسُ المُدامِ فى يَدِه : * قامتْ حروبُ الهوى على ساق .

وقال عُرْوة :

فقُمْنَ بطيئًا مَشْيُهنّ تأوُّدا * على قَصَبٍ قد ضاقَ عنه خَلاخلُهْ .
كما هزّتِ الميزانَ ريحٌ فحرّكتْ * أعاليه منه وارجحنّتْ أسافلُهْ .

وقال كُثَيِّر عَزّة :

٥ ويجعلْنَ الخلاخِلَ حين تَلْوِى * بأَسْوُقِهنَّ فى قَصَبٍ خِدَالِ .

وقال كُشاجم :

قلتُ : وقد أبصرتُها حاسِرًا * عن ساقها فاضلَ سِرْبالها :
لو لم تَكُنْ من بَرَدٍ ساقُها ، * لاحترقتْ من نارِ خَلْخالها .

وله أيضا :

١٠ وإذا لَبِسْنَ خَلاخلًا ، * كذّبْن أسماءَ الخلاخل .

* * *

(٣٦) ومما وصفت به القدود ، فمن ذلك قول أبى فِراس الحمدانىّ :

غُلامٌ فوقَ ما أصِفُ * كأنّ قَوامَهُ ألِفُ .
إذا ما مالَ يُرعِبُنى : * أخافُ عليه يَنْقَصِفُ .
١٥ وأشفَقُ من تأوُّده : * أخافُ يُذيبه التَّرَفُ .

وقال الخُبْزأرُزّىّ :

أهيفُ يحكى بقدِّه الألِفَا * يَخْسَرُ مَن لم يكُنْ به كَلِفَا .
أحسنُ من بهجة الخلافة والأمـ * ـنِ لمن قد يُحاذرُ التَّلَفا .
لو أبصرَ الوجهَ منه مُنْهزمٌ * يطلُبُه ألفُ فارسٍ ، وَقَفا .

وقال مانى :

أتمنّى الذى إذا أنا أومأتُ إليه بطرف عينى، تجنّى،
أهيفٌ كالقضيب لو أنّ ريحًا حرّكتْ هُدْبَ ثوبه، لتثنّى!

وقال آخر :

أيا سائلى عن قدّ محبوبىَ الّذى * كلفتُ به وجْدا وهمتُ غراما،
أبى قِصَرَ الأغصانِ ثُمّ رأى القنا * طوالا، فأضحى بين ذاك قواما.

وقال آخر، وهو محمد بن التلمسانى :

يا مُخْجِلاً بقوامه * أغصانَ بانات اللّوى!
ما أنتَ عندى والقضيـبُ اللّدْنُ فى حدّ سوى!
هذاك حرّكه الهوا * ءُ وأنتَ حرّكتَ الهوى!

وقال آخر :

يا غُصُنا راحَ الصَّبَا * يثْنيه، لا ريحُ الصَّبا!
ما إنْ بدا للعين إلاّ ارتاحَ قَلْبِى وصَبا،
ولا انثنى يخطر إلاّ ازدادَ قلبى وَصَبا.

وقال آخر، وهو كُشاجم :

مُعْتدِلٌ من كُلِّ أعطافه، * مُسْتحسَنُ القامة والمُلْتفَتْ.
لو قيست الدنيا ولذّاتُها * بساعةٍ من وَصْله، ما وفَتْ.
سُلّطت الألحاظُ منه على * قلبى، فلو أوْدَتْ به ما اشتفتْ.
واستعذبَتْ رُوحى هواه فلا * تَصْحُو ولا تسْلُو، ولو أتْلفتْ.

✤

ومما قيل فى العِناق، فمن ذلك ما ورد على لفظ التذكير .

فمنه قول الحسين بن الضحاك :

ومُوَشَّحٍ، نازعتُ فضلَ وِشَاحِه * وكسَوْتُهُ من ساعِدَىَّ وِشَاحا.

٥ بات الغَيُور يشُـقُّ جلدةَ خَدِّه * وأمالَ أعطـافًا علىّ مِـلَاحا.

وقال آخر :

بِتُّ وبدرُ الدُّجَى نديمِى * وهو مُوَاتٍ بلا ٱمْتِنـاعِ.

فقلتُ للحـاسـدِينَ لَمَّا * أشرقَتِ الشمسُ بالشُّعَاع :

القَلْبُ والطَّرْف مَـنْزِلاهُ * وَهْو إلى الآنَ فى الذِّراع.

١٠ وقال ٱبن المعتز :

ما أقْصَرَ الليـلَ على الراقدِ! * وأهْونَ السُّقْمَ على العـائدِ!

يَفْدِيكَ ما أبقيتَ من مُهْجتِى، * لستُ لِمَـا أوْليتَ بالجاحِد.

كأنَّنى عانَقْتُ رَيحـانةً * تَنَفَّستْ فى ليلِهـا البـارِد.

فلو ترانَا فى قَمِيص الدُّجَى، * حَسِبْتَنا فى جَسَـدٍ واحد.

١٥ وقال أبو هلال فى نحو ذلك :

ونحنُ فى نَظْمِ الهَوى واحدٌ * كأنَّنـا عِقْـدانِ فى نَحْـرِ.

وقال ٱبن الصولى :

طالَ عُمْرُ الليلِ عِنْدى * إذ تَولَّعْتَ بصَـدِّ.

يا ظَلُوما نقضَ العَهْـ * ـدَ ولم يُوفِ بعَهْدِ!

أنَسِيتَ الوصل إذ بِتْــ * ــنا على مَرْقــدِ وَرْدِ.
وآعتنقنا كوِشَــاحٍ * وآنتظمنا نظمَ عِقْدِ.
وتعطَّفنــا كغُصــنَيْنِ، فقَــدَّانا كقَــدِّ.

وقال آبن عبد كان الكاتب :

٥ وكلانا مُرْتَدٍ صــاحِبَــه * كارتداء السَّيْف فى يَوْم الوَغَى.
بخُدودٍ شافيــاتٍ من جَوًى * وشِفاهٍ مُرْوِياتٍ من ظَمَا.
نتســاقى الريقَ فيما بيننــا: * زَقَّ أُمَّاتِ القَطَا زُغْبَ القَطَا.

وقال على بن الجَهْم :

سَقَى اللهُ ليلا ضَمَّنا بعد فُرْقة، * وأدْنَى فؤادًا من فُؤادٍ مُعذَّبِ!
١٠ فبِتْنا جميعًا : لو تُراق زُجاجةٌ * من الخَمْر فيما بيْننا، لم تَسَرَّبِ.

وقال الخُبْزأَرُزِّىّ :

طوَّقْتُه طَوْقَ العِناقِ بساعِدِى، * وجعلتُ كفِّى للِّثام وِشاحا.
هــذا هو الفَوْزُ العظيمُ لخِلِّنا، * مُتعانقَيْن فمــا نُرِيدُ بَرَاحا!

وقال صالح بن يونس :

١٥ لِى سَــيِّدٌ ما مثلُه سَــيِّدٌ، * تَصَدَّتِ الحُمَّى له فاشــتَكَى.
عانقتُــه عِنْــدَ مُوافاته، * والأُفْقُ بالليل قد آحلَوْلَكا.
فجــاءتِ الحُمَّى كعاداتِهــا، * فلم تجِــدْ ما بيْننَــا مَسْلَكا!

وقال الحسين بن علىّ بن بِشْر الكاتب :

ضَمَمتُه ضَمَّ مُفْــرِط الضَّمِّ، * لا كأبٍ مُشْــفِقٍ ولا أُمِّ.
ولم نَزَلْ، والظلامُ حارِسُنا، * جسمَيْنِ مستودَعَيْنِ فى جسْمِ.

ألثمُه فى الدُّجى ، وبَرْقُ ثَنَا * يَاهُ يُرِيني مواضعَ اللَّثْمْ.
ثُمَّ افترقْنا عِنْد الصباحِ وقَدْ * أَثَّرت فيه كهَيْئةِ الختْمِ.

وقال أبو عبد الله الحامدىّ :

سَقَانى وحَيَّانِى وباتَ مُعانِقى ! * فياعَطْفَ مَعْشوقٍ على ذُلِّ عاشِقِ !
ويا ليلةً، باتتْ سَواعِدُنا بها * تَدُورُ على الأعناقِ دَوْرَ المَخانِقِ !
نَبُثُّ من الشَّكْوى حديثاً كأنَّهُ * قلائدُ درٍّ فى نُحورِ العَوَاتِقِ.

*
* *

ومما ورد على لفظ التأنيث، فمن ذلك قول أبى إسحاق الصابى :

هَيفاءُ تَحْكِى قَضِيبا * قد جَمَّشَتْه الرِّياحُ.
تَفْتَرُّ عن سِمْطِ دُرٍّ * عليه مِسْكٌ وراحُ.
جَرَّدتُها واعتنقْنا : * كلٌّ لِكُلٍّ وِشاحُ !
باتَتْ، وكلُّ مَصُونٍ * لِى من حِماها مُباحُ.
فى ليلةٍ لم يَعِبْها * فى الدَّهْرِ إلا الصَّباحُ.

وقال أيضا :

أقولُ وقد جَرَّدتُها من ثيابِها * وعانقْتُها كالبدْرِ فى ليلة التِّمِّ:
لَئِن آلَمَتْ صَدْرِى بشِدّة ضَمِّها، * لقد جَبَرتْ قلبى وإنْ أوهنَتْ عَظْمِى !

وقال أبو الفضل الأصبهانىّ :

ياليلةً قُرِنتْ لنا * فيها المآرِبُ بالنَّجاحْ.
بِتْنا بِرَغْمِ وُشاتِنَا * متعانِقَيْنِ إلى الصَّباحْ.

متمازِجينِ كأنَّنا * رُوحانِ من ماء وراحْ.
ظنَّ الوشاةُ لفَرْط ضَمِّى أنَّنِى بعضُ الوشَاحْ!

* * *

وممّا قيل فى وصف مَشْيِ النساء، يقال :

تَهَالَكتِ المرأةُ، إذا ٱنفتلَتْ فى مِشْيتها .

تأوَّدتْ ، إذا اختالتْ فى تَثَنٍّ وتكسُّر .

بَدَحتْ وتبدَّحتْ ، إذا أحسنت مِشْيتها .

تَهَزَّعتْ تهزُّعا، إذا ٱضطربت فى مِشْيتها .

قَرْصَعَتْ قَرْصعةً ، وهى المِشْية القبيحة، وكذلك مَثَعتْ مثْعا .

وقال الأعشى :

غَرّاءُ، فَرْعاءُ، مَصْقُولٌ عوارِضُها * تمشى الهُوَيْنَى كما يمشى الوجِى الوَحِلُ
كأنَّ مِشْيَتَها من بيت جارَتِها * مَرُّ السحابةِ : لا ريث ولا عَجَلُ.

وقال آخر :

يَمشِين مَشْىَ قَطا البِطاحِ تأوُّدًا، * قُب البطونِ، رواجِحِ الأكفالِ.

وقال ٱبن عائشة من أبيات :

فكأنَّهنّ إذا أردْنَ خُطًا * يَقْلَعْنَ أرجُلَهنَّ من وَحَلِ

وقال أبو الفتح كُشاجم :

وتهتزُّ فى مَشْيها مِثْلَ ما * تَهُزُّ الصَّبا غُصنًا ناعما.
وتأمُرُ بالأمْرِ فيه الذى * كَرِهتُ فأرضَى به راغما.

وقال آخر :

شبّهتُ مِشيتَها بِمشيةِ ظافرٍ * يختالُ بينَ أسـنّةٍ وسُيوفِ .

صَلِفٍ تباهَتْ نفسُه فى نَفْسِه ، * لما أنثنى بسِنانِه المَرْعُوفِ .

وقال آخر :

تمشِى الهُوينَى إذا مَشَتْ فُضُلا * مَشْىَ النّزِيفِ المخمُورِ فى صَعَد .

٥

تَظَـلُّ من زَوْرِ بَيْتِ جارتِها * واضـعةً كفَّها على الكَبِـد .

وقال المُنَخَّل اليَشْكُرِىّ :

ولقـد دَخَلْتُ على الفَتا * ةِ الخِدْرَ فى اليَوْمِ المَطِيرْ .

فدفعتُهـا فتـدافعتْ * مَشْىَ القَطاةِ إلى الغَدِيرْ .

ولَثمتُها فتنفَّسَـتْ * كتنفُّسِ الظَّبْيِ البَهِـيرْ .

١٠

وقال عمر بن أبى ربيعة :

أبصَرْتُها ليلةً ، ونِسوتُهـا * يمشِينَ بيـن المقامِ والحَجَرِ .

يرفُلْن فى الرَّيطِ والمُروطِ كما * تمشى الهُوينَى سواكنُ البَقَرِ .

وقال آبن مُقْبل :

يَهْزُزْنَ للمَشْيِ أوصالًا منعَّمـةً * هَزَّ الجَنُوبِ ضُحًى عَيْدانَ يَبْرِينا[1] .

١٥

أو كآهـتزازِ رُدَيْنِىٍّ تداوَلَهُ * أيْدِى التِّجارِ فزادُوا مَتْنَه لِينًا .

يَمْشِينَ هَيْلَ النَّقَا مالتْ جوانِبُه * يَنْهالُ حِينًا ويَنهالُ الثَّرَى حِينا .

---

(١) العيدان : النخل الطوال واحدته عيدانة ، ويبرين : اسم قرية كثيرة النخل والعيون العذبة بحذاء الأحساء .

وقال أشجعُ السلمىّ :

وماجَتْ كموْجِ المـاء بيْنَ ثِيابِهـا * يَميلُ بها شَطْرٌ ويَعْدِلُهـا شَطْرُ.

إذا وصَفَتْ مافوْقَ مجْرى وِشاحِها * غلائلُها ردَّتْ شهادتَهـا الأُزْرُ.

(٣٨) وقال العباس بن الأحنف :

شمسٌ مقـــدّرةٌ فى خَلْق جاريةٍ * كأنمـا كَشْحُها طَىُّ الطَّوامِـيرِ.

كأنها حيـنَ تمشى فى وَصائفها * تَخْطُو على البَيْض أو خُضْر القَوارِيرِ!

انتهى الغرض فى وصف الأعضاء، وما شاكلها واتصل بها .

فلنذكُرْ إن شاء الله تعالى ما جاء فيما قدّمناه من الأمثال .

فأما ما جاء منها فى الإنسان، يقال :

شديدٌ على الإنسان مالم يعوَّد .

وما عُلِّم الإنسانُ إلا ليَعْلما .

الناس من جهة التمثيل أكْفَاء .

الناس أخيافٌ وشَتَّى فى الشِّيَم .

الناس بزَمانهم اشبهُ منهم بآبائِهم .

وما الناس إلا هالكٌ وابنُ هالك .

والناسُ أولادُ عَلَّاتٍ فمن عَلِموا * أن قد أقَـلَّ فمهْجُورٌ ومحقُورُ.

وقال آخر :

الناسُ أكيَسُ من أن يحسُدُوا رجُلا * حتّى يَرَوْا عنـــده آثار إحْسَـان.

ويقال :

المرءُ أعلم بشأنِه .

المرءُ مَعَ من أَحَبّ .

دَعِ امرأً وما اختار .

٥ كلُّ امرئٍ في شأنِه ساعٍ .

كلُّ امرئٍ مُصبَّحٌ في أهله .

كلُّ امرئٍ من شَجْو صاحبه خلْو .

المرء يَعْجَزُ لا مَحَالة .

المرء تَوَّاقٌ إلى ما لَمْ يَنَلْ .

١٠ المرء يجمعُ، والزمانُ يفرِّقُ .

ويقال :

الرِّجالُ بالأموال .

تُقَطِّعُ أعناقَ الرجال المطامعُ .

ولكلِّ دهرٍ دولةٌ ورجالٌ .

١٥ * * *

ومما يتمثل به في ذكر النفس، يقال :

النفسُ مُولعَةٌ بحُبِّ العاجلِ .

النفس أعلَمُ مَنْ أخُوكَ النافعُ .

أكْذِبِ النفسَ إذا حدّثتها .

ما عاتبَ الرجلَ اللبيبَ كنَفْسه .
الجُودُ بالنفس أقصى غايةِ الجُود .
نَفْسُ عِصامٍ سَوّدتْ عصاما .

* * *

ومما يتمثل به من أعضاء الإنسان الظاهرة والباطنة

ما قيل فى الرأس والشعر

مَنْ نَجَا برأسه فقد رَبِح .
رماه بأقْحاف رأسه . أى بالدواهى .
اختلفتْ رُءوسها فرتَعَتْ .
كلُّ رأسٍ به صُدَاع .
ويقال :
ادقُّ من الشَّعر .
اهْونُ من الشَّعر الساقط .

ما يتمثل به من ذكر الوجه

وجهُ المحرِّش أقبحُ . أى وجه مبلِّغ القبيح أقبح من وجه قائله .
فى وَجْه مالكٍ تُعْرَف إمرتُه .
قَبْلَ البُكاء كان وجْهُك عابسا .
قال أبو تمام :
وما أُبالِى ، وخيرُ القولِ أصدقُه ، * حقَنْتَ لى ماءَ وجهى أم حقَنْتَ دَمِى .

وقال ابن الرومى :

وقَلَّ مَنْ ضَمِنتْ خَيْرًا طَوِيَّتُه * إلا وفى وَجْهِهِ لِلخَـيْرِ عُنْوانُ.

له مُحَيًّا جميـلٌ يُسـتَدَلُّ به * على جميلٍ، وللبُطْنان ظُهْرانُ.

وقال آخر :

٥ صَلَابةُ الوجْه صَلَاحُ الفتَى * ورِقَّة الوَجْه من الخُرْقـة.

ما يتمثل به من ذكر العين، يقال :

أسرَعُ من طَرْف العَيْنِ .

أسرَعُ من لَمْح البَصَر.

العَيْنُ تَرْجُمانُ القلب .

١٠ شاهِدُ البُغْض اللحظُ .

رُبَّ عَيْنٍ أَنَمُّ من لسان .

ليس لمَا قَرَّتْ به العينُ ثَمَن .

نظرةٌ من ذِى عَلَق .

عينٌ عَرَفَتْ فذَرَفتْ .

١٥ لحظةٌ أصدقُ من لفظه .

ليس لعينٍ ما رأتْ، ولٰكنْ لِكفٍّ ما أخذَتْ .

لا تطلُبْ أثرًا بعد عَيْنٍ .

مَنْ أطاع طَرْفَه، أصاب حَتْفَه.

وأىُّ عارٍ على عينٍ بلا حَوَر .

٢٠ والدمعُ قد يُعْلِنُ ما فى الصُّدُور .

ومن الأبيات :

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كَلِيلةٌ ، * ولكنَّ عين السُّخْط تُبْدِى المَسَاوِيا .

وقال الأمير أبو الفضل الميكالىّ :

كَمْ والدٍ يَحْـــرِمُ أولادَه * وخَيْرُه يَحْظَى به الابَـــعَدُ .

كالعين لاتنظُر ماحَوْلَهَا ، * ولَحْظُها يُدْرِك مايَبْعُــدُ .

٥

ما يتمثل به من ذكر الأنف

أَنْفُك مِنْك وإن كان أَجْدَعَ . يضرب فى القريب السَّوْء .

شَفَيْتُ نَفْسِى وجَدَعْتُ أنفى .

لأمرٍ مَّا جُدِعَ قَصِيرٌ أنفَه .

كُلُّ شيءٍ أخطأ الأنْفَ جَلَل .

١٠

لُدِغتُ حيثُ لا يضَعُ الراقِى أنْفَه . يضرب للأمر الذى لادواء له .

رُبَّ حامٍ لأنفه وهو جادِعُه . يضرب لمن أَنِفَ من الشيء فتُوقعه الأَنَفَةُ فى أشدّ منه .

مات حتْفَ أنفِه .

جَدَع الحلالُ أنْفَ الغيرَة . قاله رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

أَنْفٌ فى السَّماء، وَاسْتٌ فى المـاء !

١٥

ما يتمثل به من ذكر الفم ، واللسان ، والأسنان

كل جانٍ يدُه إلى فِيه .

حدّثنِى ، فاهُ إلى فِيَّ .

فلان خفيفُ الشَّفَة . أى قليل المسألة .

سكتَ ألفًا، ونطق خَلْفًا .

قَرَع سِنّ النادم .

كَدَمْتَ فى غير مَكْدَم . أى طلبت غير مَطْلَب .

وجُرْح الدهرِ ما جَرَح اللسانُ .

٥ وجُرْح اللسان كجُرْح اليد .

ما يتمثل به من ذكر الأُذُن

جاء فلانٌ ناشرًا أُذُنَيْه .

لَبِستُ على ذلك أُذُنَىّ .

أساء سَمْعًا فأساء إجابةً .

١٠ كلامُه يدخُل فى الأُذُن بلا إذْن .

جعلتُ ذلك دَبْرَ أُذُنِى .

ما يتمثل به من ذكر العُنُق

حَسْبُك من القِلادة ما أحاط بالعُنُق .

أذَلَّ الحرصُ أعناقَ الرجال .

١٥ وقال أبو الفتح البستىّ :

فكَمْ دَقَّتْ وشَقَّتْ واسترقَّتْ * فُضُولُ العيش أعناقَ الرِّجالِ .

ما يتمثل به من ذكر اليد

أَهْدى من اليدِ إلى الفم .

ألزمُ من اليمينِ للشمال .

يَدَاكَ أَوْكَتَا ، وفُوكَ نَفَخ .

اليَدُ العُلْيا خيرٌ من اليد السُّفْلَى .

آثَرُ لَدَيْه من يمين يَدَيْه .

ذَهَبُوا أَيْدِى سَبَا . أى متفرّقين .

بالساعِدِ تَبْطِشُ الكفُّ . ٥

على يَدِى دارَ الحديثُ . إذا كان خبيرا بالأمر .

هو على حَبْل ذراعِه . أى موافق له .

تَرِبَتْ يَدَاه . دعاء عليه بالفقر .

ما تَبُلُّ إحْدى يديْهِ الأُخْرى . للبخيل .

تَرَكَه على أنْقى من الراحة . ١٠

فلان يُقَلِّبُ كَفَّيه .

سُقِط فى يَدَيْه . للنـادم .

أعْطاهُ عن ظَهْرِ يدٍ . أى ابتداء لا عن مُكافأة .

ماسَدّ فَقْرَكَ مثلُ ذاتِ يَدِكَ .

إن الذَّلِيلَ الذى ليسَتْ له عَضُدُ . ١٥

يَدٌ تَشُجُّ ، وأُخْرى منك تَأْسُونِى .

على اليَدِ ردُّ ما أخذَتْ .

وما الكَفُّ إلا إصْبَعٌ ثم إصْبَع .

ومن الأبيات :

قدْ تَطْرِفُ الكَفُّ عيْنَ صاحِبِها ، * ولا يَرَى قَطْعَها من الرَّشَدِ .

وقال آخر :

فلَوْ أنَّها إحْدَى يَدَيَّ رُزِئْتُها ؛ * ولكنْ يَدِي بانتْ على إثْرِها يَدُ .

وقال أبو تمام :

وهل يَسْتَعِيضُ المرءُ من خَمْسِ كَفِّه ، * ولو صاغَ من حُرِّ اللُّجَيْنِ بنَانَها ؟

ما يتمثل به من ذكر الصدر والقلب

صَدْرُكَ أوسع لسِرِّك .

صُدُورُ الاحرار ، قُبورُ الاسْرار .

لا بدّ للصُّدُورِ من أن يَنْفُثَ .

أَلْزَمُ له من شعَراتِ صَدْرِه .

ماجَعَلَ اللهُ لرجُلٍ من قَلْبَيْنِ فى جَوْفِه .

القَلْبُ طَلِيعةٌ .

القلوبُ تتَقَلَّبُ .

قال بعض الشعراء :

مَتَى تجمعِ القلْبَ الذَّكِيَّ وصارماً * وأنْفاً حمِيًّا ، تجتَنِبْكَ المَظَالِمُ .

وقال آخر :

إنَّ التباعُدَ لا يضُرُّ * إذا تقارَبتِ القُلُوبُ .

ما يتمثل به من ذكر الظهر والبَطْن والجَنْب

اِستظْهِر على الدّهر بخِفَّة الظَّهْر .

قَلَبَ الأمْرَ ظهرًا لبَطْنٍ .

لا تجعل حاجتِي بظَهْرٍ . أى لا تُلقِها وراء ظهرِك .

اِنقطَع السَّلَى فى البَطْن . لتناهى الشّدة .

نَزَتْ به البِطْنة . لمن لا يحتمل النِّعمة .

لكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعٌ .

لِجَنْبه فلْتكُن الوَجْبَة ، فى الدعاء عليه .

دمِّثْ لجَنْبِك قبلَ النَّوم مُضْطَجعا .

ما يتمثل به من ذكر الكبد والدّم والعروق

يا بَرْدَها على الكَبِد !

فلانٌ بين الخِلْب والكَبِد .

ما ينفَعُ الكَبِدَ يَضُرّ الطِّحَال .

ويقال :

جَرَى منه مَجْرى الدّم فى العرُوق .

هو أعَزُّ من دَمِ الفُؤاد .

سِرُك مِنْ دَمِك .

لا تَكايَلَ بالدّم .

لا يَحْزُنْك دمٌ هَراقَهُ أهْـلُه . للجانى على نفسه .

فلانٌ لا يشرَبُ الماء إلا بدَمٍ .

العِرْق نزّاع .

ألَا إنّ عِرْقَ السُّوء لا بُدّ مُدْرِكُ !

ما يتمثل به من ذكر الساق والقدم، يقال :

٥ الْتفَّتِ الساقُ بالساق . في الشدة .

كشفَتِ الحربُ عن ساقِها، وكَشرتْ عن نابِها .

قَدَحَ في ساقه، إذا عمل في شيء يكرهه .

لا يُرسِلُ الساقَ إلا مُمْسكًا ساقا .

قد شمّرتْ عن ساقِها، فشمِّري ! في الحث على الجد .

١٠ ويقال :

له قَدَمٌ في الخير . أي سابقةٌ .

إنك لا تَسْعَى برِجْلَيْ مَنْ أتَى .

وقال الشاعر :

إنّ قُرَيشًا — وهي من خَيرِ الأُمَمْ — * لا يَضَعُونَ قَدَمًا على قَدَمْ .

---

١٥ من ضُرِب به المثلُ من الرجال على لفظ أفعل للتفضيل

يقولون :

أسْخَى من حاتِم .

أجودُ من كَعْب بنِ مامَةَ .

أجودُ من هَرِم . قال الميدانى : هو هَرِم بنُ سِنانِ بن أبى حارثة .

وفيه يقول زُهَيْر بن أبى سُلمى :

إن البخيلَ مَلُومٌ حيثُ كانَ ولـ * ـكِنَّ الجوادَ على علَّاته هرِمُ .

أقْرى من مَطاعِيم الرِّيح . ومطاعيم الريح أربعة : منهم أبو مِحْجَن الثقفىّ .

وكان لبيدُ بن ربيعة العامرىّ يُطعِم إذا هَبَّت الصَّبا .

أشْجَعُ من ربيعة بن مُكَدَّم .

أعزّ من كُلَيْب بن وائل .

أعزّ من مَرْوان القَرَظ .

أسْودُ من قَيْس بن عاصم .

أحْلَمُ من الاحنف بن قيس .

أزْكَنُ من إياس بن معاوية .

أفتَكُ من البَرَّاض بن قيس النمرىّ ، خليع بنى كنانة . فتك بعُرْوة الرحَّال ، والمُساوِر بن مالك الغَطَفانىّ ، وأسد بن خيثم الغنوىّ بسبب لَطِيمة النعمان . وبسبب ذلك كانت أيام الفجار الأخر ؛ وسنذكرها فى وقائع العرب إن شاء الله تعالى .

أوْفَى من الحارث بن عُبَاد . وخبره مشهور مع مهلهل اخى كُلَيب لما أمنه يوم تَحْلاق اللِّمَم .

أوْفَى من عَوْف بن مُحَلِّم .

أوْفَى من هانِئ بنِ قَبِيصة . وخبره مشهور فى أدرع النعمان ؛ وبسببها كانت وقعة ذى قار .

أوفَى من السَّمَوْءل بن عادياء .

أجملُ من ذِى العِمامة . وهو سعيدُ بنُ العاص بن أمية ، ويكنَى أبا أُحَيْحَةَ ؛ وهو المقول فيه :

أبو أُحَيحَةَ مَنْ يَعتَمّ عِمَّتَــه * يُضْرَبْ ولو كان ذا مال وذا وَلَد .

أمضَى من سُلَيْك المَقانِب .

أغلَى فِداءً من حاجب بنِ زُرارة؛ ومن بِسْطام بنِ قَيْس ؛ ومن الأشعث . أَسَرْته مَذْحِج ففدى نفسَه ثلاثة آلاف بعير .

أعْدَى من الشَّنْفَرَى ؛ ومن السُّلَيْك بن السُّلَكة .

أبطأُ من فِنْد . وهو مولىً لعائشة بنت طلحة ؛ وقال أبو هلال العسكرى : عائشة بنت سعد بن أبي وَقَّاص ، بعثت به مولاته ليقتبس نارا ، فأتى مصر، فأقام بها سنة ، ثم جاء يشتد ومعه نارٌ، فتبددت فقال : تَعِسَت العجلةُ !

أنْوَمُ من عبُّود . كان عبود عبدًا أسودَ ؛ وكان الله عز وجل قد بعث نبيا الى قومه . قال الميدانى : إن النبيّ هو خالدُ بن صفوانَ ، نبيُّ أهل الرَّس . فلم يؤمن به أحد منهم إلا ذلك العبدُ الأسودُ ، و إن قومه آحتفروا له بئرا فصيروه فيها وأطبقوا عليه صخرةً . فكان ذلك الأسود يخرج من القرية فيحتطب ، و يبيع الحطب فيشترى به طعاما وشرابا ، ثم يأتى به إليه فيُعينُه الله تعالى على الصخرة فيرفعها و يدلى إليه الطعامَ والشرابَ . فاحتطب يوما وجلس فنام على شِقِّه الأيسر سبعَ سنين . ثم هبَّ من نومه فانقلب على شقه الأيمن ، فنام سبع سنين ، وهو يظن أنه نام ساعة من نهار . ثم آحتمل حُزْمته وأتى القريةَ ، فباع الحطب وجاء الى الحفرة فلم يجد النبيّ وكان قد بدا للقوم فأخرجوه . فكان يسأل عن الأسود ، فيقولون : لا نَدْرى . فضُرب به المثل لمن ينامُ نوما طويلا . وقيل فيه غير ذلك . وذكره الميدانى فى أمثاله ولم يذكر السبعة الثانية ، و إنما ذكرها صاحب كتاب المفاخر (١) .

أنعَمُ من خُرَيم الناعم . هو رجل من ولد سنان بن أبى حارثة ، كان فى زمن الحجاج .

أبلَغُ من سَحْبان وائل . ويقال أخطَبُ من سَحْبان : وهو الذى يقول :

لقد عَلِمَ الحَيُّ اليَمانُون أنَّنى * إذا قلتُ : أمَّا بعدُ ، أنِّى خطيبُها .

أخطَبُ من قُسّ . هو قُسُّ بن ساعدة بن حُذَافة بن زُهَير بن إياد بن نزار . وكان من حكماء العرب وهو أول من كتب من فلان الى فلان ؛ وأوّل من أقرّ بالبَعْث من غير علم ؛ وأوّل من قال : "البيِّنةُ على من آدَّعى ، واليمين على مَنْ أنكر" . وقيل : إنه عُمِّر مائةً وثمانينَ سنةً .

(١) هو كتاب "الفاخر" وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية .

روى عن ٱبن عباس رضى الله عنهما أنه قال: وفَدَ وَفْد بكر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم! فلما فرغ من حوائجهم قال: أفيكم مَنْ يعرفُ قُسَّ بنَ ساعدة الإيادىّ؟ فقالوا: كلنا نعرفه! قال: مافعل؟ قالوا: هَلَكَ! فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: كأنّى به على جمل أحمرَ بعُكَاظ قائما، يقول: «أيها الناسُ ٱجتمعوا وٱسمعوا وعُوا! كلُّ مَنْ عاش ماتَ، وكلُّ مَنْ ماتَ فاتَ، وكل ما هو آتٍ آتٍ! إنّ فى السماء لخبرا، وإن فى الأرض لَعِبَرا: مهادٌ موضوع، وسَقْف مرفوع، وبحارٌ تَمُوج، وتجارةٌ لن تَبُور وليلٌ داجٍ، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ! أقسَم قُسٌّ حقّا: إن كان فى الأرض رضا ليكونَنّ بعده سخط! وإن لله عز وجل دينا هو أحبُّ إليه من دينكم الذى أنتم عليه! مالى أرى الناس يذهبونَ فلا يرجعُون؟ أرَضُوا فأقاموا؟ أم تُرِكوا فناموا!» ثم أنشد أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه شعرا حفظه له، وهو:

فى الذاهبينَ الأوّلــ * ــين من القُرون لنا بَصائرْ.

لمّا رأيتُ مَــوارِدًا * للوت ليس لهـا مَصَادرْ.

ورأيتُ قَــوْمى نَحْوَها * تسعى: الأصاغرُ والأكابرْ.

لا يَرْجــعُ المـاضى إلىّ * ولا من الباقينَ غابرْ.

أيقنتُ أنّى لامحَــا * لةَ حيثُ صار القومُ صائرْ!

ويقال: أعْيا من باقِلٍ. وهو رجل من ربيعة ٱبتاع ظَبْيا وخِشْيا بأحدَ عشرَ درهما، وجعل بقية الدراهم فى فيه. فسُئل عن ثمنه، ففعل بيديه تَجاه السائل (أى فتح أصابعَه وفغر فاه وأدلى لسانه يشير بذلك إلى ثمنه). فحصل من ذلك ٱنفلات الظبى، وسقوطُ الدراهم، والإساءة على السائل. فضُرِب به المثل.

أبَرُّ من العَمَلَّس. كان بَرًّا بأمه فكان يحملها على عاتقه.

أبَرُّ من فَلْحَسٍ. وهو رجل من شيبان. حمل أباه على ظهره وحجّ به.

وفيه أيضا يقال:

أسْأَلُ من فَلْحَسٍ كان سيدا عزيزا، يَسْأَلُ سهما فى الجيش وهو فى بيته فيُعطى لعزه؛ فإذا أُعطى سأل لامرأته؛ فإذا أُعطى سأل لبعيره، وكان له ولد يقال له زاهر، فكان مثله، فقيل فيه: "العَصَا من العُصَيّة".

ويقال :

أخيبُ صفقةً من شيخ مَهْو . وهو حيّ من عبد القيس اشتروا الفَسْوَ من إياد وكانوا يُعرفون به ، فعرفت به عبدالقيس . قال الميدانى : هذا الشيخ اسمه عبدالله بن بيدرة ، اشترى الفَسْوَ من إياد ببُرْدَىْ حِبَرَةٍ ، وقال لقومه : اشتريتُ لكم عار الدهر ، فقالت عبد القيس فى ذلك :

إن الفُساةَ قبلنا إيادُ ❊ ونحن لانَفْسُو ولانَكادُ .

٥

وفيهم يقول شاعر :

يامَنْ رأى كصَفْقَةِ ابن بيدَرَهْ ❊ من صفقةٍ خاسرة مُخَسَّرَهْ ؟

المشترى العارَ ببُرْدَىْ حِبَرَهْ ! ❊ شَلَّتْ يمينُ صافقٍ ماأخْسَرَهْ !

أخسرُ صَفْقةً من أبي غَبْشَانَ . فإنه باع مفاتيح الكعبة من قُصَىّ بزِقّ خمر .

١٠ أضَلُّ من سِنَانٍ . وهو ابن أبى حارثة المرّى ؛ وكان قومه عنفوه على الجود ، فركب ناقة له ورمى بها الفلاة ، فلم يُرَ بعد ذلك . وسمته العرب ضالّة غَطَفان ؛ وقالوا : إن الجانّ استفحلته تطلبُ كرم نجله .

أبطش من دَوْسَر . وهى كتيبة النعمان .

أهدى من قَيْس بن زُهير .

أفرغُ من حَجَّام ساباطَ . يقال إنه كان إذا أعوزه من يحجُمُه حجم أمّه . فلم يزل يحجُمُها حتى نَزَفَ دَمُها ، فماتت .

١٥

أندمُ من الكُسَعِيّ . واسمه مُحارب بن قيس ، وقيل غامد بن الحارث . وكان أرمى الناس ، لا يخطئ له سهم ، فخرج ومعه قوس وخمس سهام فرمى صيدا فى الليل فأصاب سهمُهُ ونَفَذ ، فوقع فى الحَجَر فقدح نارا . ثم رمى كذلك حتى استنفد السّهامَ . وهو يظن أنه أخطأ فى الجميع فكسر قوسه ، وخلع إبهامه . فلما أصبح رأى رميّته ، فندم على فعله .

٢٠ أمنعُ من الحارثِ بنِ ظالم . وسيأتى خبره فى وقائع العرب

أبخلُ من مَادِر . وسيأتى خبره فى باب الهجاء .

أكذبُ من مُسَيْلِمَة الحَنَفيّ ، (وخبره مشهور فى دعواه النبوّة) ومن المُهَلَّب ، (وكان يكذب لأصحابه فى حرب الأزارقة ، يَعِدُهم بالنَّجْدَة والإمداد) .

أحمقُ من راعى ضأنٍ ثمانينَ ، (وذلك أن أعرابيا بَشَّر كسرى ببشارة سُرّ بها ، فقال له كسرى : سلْنِى ماشئتَ ! فقال : أسألك ضأنا ثمانين) ؛ ومن هَبَنَّقَة ، وهوذو الوَدَعات ؛ وآسمه يزيد بن ثَرْوان أحد بنى قيس بن ثعلبة ؛ وبلغ من حُمْقه أنه ضلّ له بعير ، فنادى مَنْ وجد بعيرى فهو له ، فقيل له : فلِمَ تَنْشُدُه؟ قال : فأين حلاوة الوِجْدان . وفيه يقول الشاعر :

عِشْ بجَدّ وكُنْ هَبَنَّقَةَ القَيْـــسِيَّ نَوْكًا أو شيبةَ بنَ الوليدِ .
رُبَّ ذي إِرْبَةٍ مُقِلٌّ منَ الما * ل وذى عُنْجُهِيَّةٍ مجْـدودِ .

العنجهية الجهـل

أحمقُ من ربيعةَ البَكَّاء . هو ربيعةُ بن عامر بن ربيعةَ بن عامر بن صَعصَعة . ومن حُمْقه أن أمّه تزوّجتْ بعـد أبيه ، فدخل عليهـا الخِباءَ ، وكان قد آلتحى فوجد زوجها يباضِعُها ، فتوهَّم أنه يريد قتلَها ، فبكى وهتَك الخباء ، فآجتمع النـاس وسألوه عن شأنه ، فأخبرهم أنه وجده على بطنها يريد قتلها ، فقالوا : "أهون مقتول" فصار مثلا .

أتْيَهُ من أحمقِ ثَقِيف . وهو يوسف بن عمرو .

ألَصُّ من شِظَاظ . وهو رجل من بنى ضَبَّة .

أزْنَى من قِرْد . وهو قِرْد بن معاوية بن هُذَيل .

أمْطَلُ من عُرْقوب .

وقال كعب بن زهير :

كانتْ مَواعيدُ عُرْقوبٍ لهـا مَثَلًا * وما مَوَاعيدُها إلا الاباطيلُ .

أشْأَمُ من خَوْتَعةَ . وهو رجل من بنى غُفَيلَة بن قاسط أخى النمر بن قاسط .

أشْأَمُ من قُدَار (وهو عاقر الناقة) ؛ ومن أحمر ثمودَ (وهو عاقرها أيضا) .

أشأم من طُوَيْس . وهو مخنث ، كان يقول إنه ولد يوم مات النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وفُطِم يوم مات أبو بكر ؛ وبلغ يوم قُتل عُمَر ؛ وتزوّج يوم قُتل عثمان ؛ وولد له يوم قُتل عليّ .

أمكَرُ من قيس بن زُهَير .

وأمّا من ضرب بها المثل من النساء

يقال . أنجبُ من مارِيةَ . ولدت لزُرارة : حاجبا ، ولَقيطا ، وعَلْقمة .

أنجَبُ من بنت الخارِث[(1)] . ولدتْ لزِيَاد العبسيّ بَنيه الكَمَلة ، وهم : ربيعة الكامل ، وعمارة الوهاب ، وقيسٌ الحافظ ، وأنَسُ الفَوَارس .

أنجبُ من أمّ البنين[(2)] . ولدت لمالك بن جعفر بن كلاب ، مُلَاعبَ الأسنة عامرا ، فارسا .

أنجبُ من عاتِكةَ : ولدت لعبد مناف هاشما ، وعبدَ شمس ، والمطَّلبَ .

أسرَعُ من نِكاح أُمّ خارجةَ . وهي عُمَيرة بنتُ سعد بن عبدالله بن قُدار بن ثعلبة بن معاوية بن زيد ابن الغوث بن أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نَبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبإ بن يشجُب ابن يعرُب بن قحطان . ولدت في نَيِّف وعشرين حَيًّا من العرب . كان الرجل يقول لها : خِطْبٌ ! فتقول : نِكْحٌ !

قال أبو الفرج الأصبهاني : فمن ولدت ، الدِّيلُ ، وليث ، والحارث بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة ؛ وغاضرةُ بن مالك بن ثعلبة بن دُودان بن أسد بن خُزَيمة ؛ والعنبرُ ، وأُسيد ، والهُجَيم بنو عمرو بن تميم ؛ وخارجةُ ابن يشكر (وبه كانت تكنّى) ؛ وسعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن مُزيقيا (وهو أبو المُصْطَلق) .

---

(١) صوابه الخرشب وهي فاطمة بنت الخرشب الأنمارية أنظر "مجمع الأمثال" و "تاج العروس" .

(٢) هم كما في "أمثال الميداني" أبو براء ، وملاعب الأسنة عامر ، وطفيل فارس قرزل وربيعة ، ومعاوية ، وأم البنين هي ابنة عمرو بن عامر فارس الضحياء ، وبذلك تعلم ما في الأصول من السقط .

قال : وزعموا أن بعض أزواجها طلّقها فرحل بها آبن لها عن حيه إلى حيها فلقيها راكب ، فلما تبينته ، قالت لآبنها : هذا خاطب لى لاشكّ فيه ، أفتراه يعجلنى أن أنزل عن بعيرى ، فجعل آبنها يسبُّها .

أحمقُ من المَمْهورة إحدى خَدَمَتَيْها . وذلك أن زوجها طلقها ، فطالبته بمهرها ، فأخذ أحد خَلْخَالَيها من رجْلها وأعطاها إيّاه ، فرضيت به .

أحمقُ من دُغَةَ . هى ماريةُ بنت مَغْنج(١) بن ربيعة بن عجل ، وقيل بنت منعج ؛ تزوّجت وهى صغيرة فى بنى العَنْبر بن تميم ، فحملت . فلما أدركها المخاض ، ظنَّت أنها تريد الخلاء، فتبرزت فولدت فآستهلَّ الولدُ . فآنصرفت وهى تقدّر أنها إنما أحدثت . فقالت لضَرَّتها ياهَنْتاه ، هل يفغر الجَعْرُ فاه ؟ قالت : نعم ، ويدعو أباه ! فمضت ضَرَّتُها للولد فأخذته ، فبنو العنبر تسمّى بنى الجَعْراء .

أبْصَرُ من زَرْقاء اليمامة . وهى آمرأة من طَسْم ، كانت تُبصر الراكبَ على مسيرة ثلاث ليال . وسيأتى إن شاء الله تعالى خبرُها فى وقعة طَسْم وجَديس .

أزنى من هِرٍّ . وهى آمرأة يهودية ؛ وهى التى قطع المهاجرُ يدَها فيمن قطع من النساء حين شَمِتْن بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أشبَقُ من حُبَّى المَدَنيَّة .

أشأم من البَسُوس . وهى جارةُ جَسّاس بن مُرَّة ، صاحبةُ الناقة التى قتل بسببها كُلَيب ، وثارت الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة .

ويقال :

أمنعُ من أمّ قِرْفَةَ . وهى آمرأة مالك بن حُذَيفة بن بدر الفزارى . كان يُعلَّق فى بيتها سبعون سيفا ، كلُّ سيف لذى مَحْرَم منها . فضُرب بها المثل . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) فى الأصل "معج" وفى اللسان والقاموس وشرحه "مَغْنج" وفى بعض النسخ "مِنْعج" قال المفضل بن سلمة : من أعجم العين فتح الميم ومن أهملها كسر الميم . قاله البكرى فى شرح أمالى القالى .

الباب الثالث

من القسم الأوّل من الفن الثانى

(فى الغَزَل ، والنَّسِيب ، والهوى ، والمحبة ، والعِشْق)

ولْنبدأْ بذكر الهوى ، لأنه السبب الباعث على الغَزَل . وذلك أنه إذا حلّ فى الأجسام
٥ آرتاحت النفوس ، ورقّت القلوب ، وآنجذبت الخواطر ، وصَفَت الأذهان ، وسهُل (٤٣)
على القرائح فأبرزته الألسُن . والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم .

ذكر شىء مما قيل فى الهوى ، والمحبة ، والعشق ، وما قيل فى ماهية العشق ، وحقيقته
وسببه ، وما قيل فى مدحه ، وذمّه ، والممدوح منه ، والمذموم ، وضرر العشق فى الدّنيا ،
والآفات التى تجرى على العاشق : من المرض ، والجنون ، والضَّنا ، والمخاطرات
١٠ بالنفوس ، و إلقائها إلى الهلاك .

ثم نذكر أخبارَ ... ... ومن أخرجه عن دينه حتّى
كفر بربه ، ومن قَتل ، وقُتِل فيه ، ومن قتل نفسه .

ثم نذكر ما ورد فى التحذير من فتنة النساء ، وذمّ الزنا ، والنظر إلى المُرْدان ، والتحذير
من اللّواط ، وعقوبة اللائط ، وغير ذلك من أمر العشق ، على ما سنشرحه إن شاء
١٥ الله تعالى فنقول ، و بالله التوفيق .

أمّا ماهية العشق وحقيقته ، فقد تكلم عليه أوائل الحكماء والفلاسفة وغيرهم من
المسلمين ، على ما نشرحه إن شاء الله تعالى .

فأما كلام الحكماء والفلاسفة

فقال أفلاطون : العِشْق، حركة النفس الفارغة بغير فكرة .

وسئل ديوجانس عن العشق ، فقال : سوء آختيارٍ صادف نفسا فارغة .

وقال أرسطاطاليس : العشق، هو عمى الحِسّ عن إدراك عيوب المحبوب .

وقال فيثاغورس : العشق ، طبع يتولد فى القلب و يتحرك وينمى ثم يتربّى ، ويجتمع إليه موادّ من الحرص ، وكلما قَوِىَ آزداد صاحبه فى الآهتياج واللَّجاج ، والتمادى فى الطمع ، والفكر فى الأمانىّ ، والحرص على الطلب ، حتى يؤدّيه ذلك إلى الغم المقلق .

وإلى هذا المعنى أشار المتنبى بقوله :

وما العِشْقُ إلا غِرّةٌ وطَمَاعةٌ : * يعرّض قلبٌ نفسَه فيُصابُ .

وقال بعض الفلاسفة : لم أر حقًّا أشبهَ بباطلٍ ، ولا باطلا أشبه بحق من العشق : هَزْله جِدّ ، وجدّه هَزْل ، وأوّله لعب ، وآخره عَطَب .

وقد ذهب بعضهم إلى أنه مرضٌ وسْواسىٌّ شبيه بالماليخوليا .

وأما كلام الإسلاميين وما قالوه فيه

فقد حكى عن أبى العالية الشامىّ ، قال : سأل المأمون يحيى بن أكثم عن العشق ما هو؟ فقال : هو سوانحُ للمرء يَهِيم بها قلبه وتُؤْثِرها نفسه! قال فقال له ثمامة : اسكت يا يحيى ! إنما عليك أن تجيب فى مسئلة طلاقٍ أو مُحْرِمٍ صاد ظبيا، أو قتلَ نملة، فأما هذه فمسائلنا نحن ! فقال له المأمون : ما العشق؟ يا ثمامة، فقال : العشق جليسٌ مُمْتِع ، وأليف مؤنِس ، وصاحب مملّك ، ومالك قاهر ، مسالكه لطيفة ،

ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ، مَلَكَ الأبدانَ وأرواحها ، والقلوبَ وخواطرَها ، والعيونَ ونواظرَها ، والعقولَ وآراءَها ، وأُعطِى عنانَ طاعتها ، وقيودَ تصرفها ، توارى عن الأبصار مَدْخَله ، وغِيض فى القلوب مسلكه ! فقال له المأمون : أحسنتَ والله ، يا ثمامة ! وأمر له بألف دينار .

٥ وحكى عن الفضل بن يعقوب : قال لما اجتمع ثمامة بن أشرس ، ويحيى بن أكثم عند المأمون ، قال ليحيى : خبِّرنى عن العشق ماهو ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، سوانح تسنح للعاشق يؤثرها ، ويهيم بها تسمَّى عشقا ! فقال له ثمامة : يايحيى ، أنت بمسائل الفقه أبصر منك بهذا ، ونحن بهذا أحذقُ منك ! فقال المأمون : فهاتِ ما عندك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إذا امتزجتْ خواطرُ النفوس بوصل المشاكلة
١٠ نتجتْ لمح نور ساطع تستضىء به نواظر العقول ، ويتصور من ذلك اللمح نور خاص بالنفوس متصل بجواهرها يسمَّى عشقا ! فقال له المأمون : صدقت ، هذا وأبيك الجوابُ !

وحكى عن الأَصْمَعِىّ ، قال : دخلت على هرون الرشيد ، فقال : يا أَصْمَعِىّ ، إنى أرقت ليلتى هذه ، فقلت : مِمّ ؟ أنام الله عين أمير المؤمنين ، قال : فكَّرت
١٥ فى العشق مِمَّ هو ، فلم أقف عليه ، فصِفْه لى حتَّى إخاله جسما مجسما ! قال الأصمعىّ : لا والله ما كان عندى قبل ذلك فيه شىء فأطرقت مليًّا ، ثم قلت : نعم ياسيِّدى ، إذا تقاربت الأخلاق المشاكلة وتمازجت الأرواح المشابهة ، لمح نورٌ ساطع يستضىء به العقلُ ، وتهتز لإشراقه طِباع الحياة ، ويتصوّر من ذلك النورِ خُلُق خاص بالنفس متصل بجوهريتها يسمَّى العشق ! فقال : أحسنت والله ! يا غلام ، أعطه وأعطه وأعطه ! فأعطيت ثلاثين ألف درهم .

وحكى عن الأصمعى أنه قال : لقد أكثر الناسُ فى العشق، فما سمعت أوجز ولا أجمل من قول أعرابيّة (وقد سئلت عن العشق) فقالت : ذلٌّ وجنونٌ . قلت : هذه صفة ثمرة العشق ومآله .

والتحقيق أن العشقَ شدّةُ ميل النفس إلى صورة تلائم طبعها، فإذا قوى فكرها فيه تصوّرتْ حصولها وتمنّتْ ذلك، فيتجدّد من شدّة الفكر مرضٌ .

وقيل لبعضهم : ما العشقُ؟ فقال : ٱرتياح فى الخِلْقة، وفرح يجول فى الرُّوح، وسرور ينساب فى أجزاء القُوى .

وقال أبو العيناء : سألت أعرابيّا عن الهوى، فقال : هو أظهر من أن يخفى، وأخفى من أن يُرى، كامنٌ ككمون النار فى الحجر، إن قدحتَه أورى، وإن تركته توارى .

وسئل يحيى بن معاذ عن حقيقة المحبة، فقال : التى لا تزيد بالبر، ولا تنقص بالجفاء .

وسئل بعض الصوفيــة عن الهوى والمحبة فقال : الهوى يحلّ فى القلب، والمحبة يحلّ فيها القلب!

وللعشق مراتب من ٱبتدائه إلى ٱنتهائه .

ذكر مراتب العشق وضروبه

قالوا : أوّل ما يتجدّد الآستحسان للشخص تحدُث إرادةُ القرب منه، ثم المودّة، (وهو أن يودّ لو ملكه)، ثم يقوى الودّ فيصير محبة، ثم يصير هوًى (فيهوِى بصاحبه فى محابِّ المحبوب من غير تمالك)، ثم يصير عشقا، ثم يصير تَتَيُّمًا (والتتيّم حالة يصير بها المعشوق مالكا للعاشق لا يوجد فى قلبه سواه)، ثم يزيد التتيّم فيصير وَلَهًا (والوَلَه الخروج عن حدّ الترتيب، والتعطل عن أحوال التميز) .

وقال بعضهم : أوّل مراتب العشق الميل إلى المحبوب، ثم العلاقة، ثم الحب، ثم يستحكم الهوى فيصير مودّة تزيد بالمؤانسة، وتدْرُس بالجفاء والأذى، ثم الخُلّة، ثم الصَّبابة (وهى رقة الشوق) تولّدها الألفة، ويبعثها الإشفاق، ويهيجها الذكر، ثم تصير عشقا. وهو على أضرب. فمبدؤه يصفى الذهن، ويهذّب العقل. كما قال ذو الرياستين لأصحابه : «اعشقوا، ولا تعشقوا حراما! فإن عشق الحرام يطلق اللسان ويرفع التبلّد ويطلق كفّ البخيل ويبعث على النظافة ويدعو إلى الذكاء، فإذا زاد، مرض الجسد، فإذا زاد، أخرج العقل وأزال الرأى فاستهلك، ثم يترقّى فيصير وَلَهًا، ويسمّى ذو الوله مُدَلَّهًا، ومستهاما، ومستهترًا، وحيرانَ، ثم بعدها التتيّم فيدعى متيَّما، والتتيّم نهاية الهوى، وآخر العشق، ومن التتيّم يكون الداء الدَّوىّ، والجنون الشاغل» .

وقال بعض الحكماء : أوّل الحب العلاقة (وهو شيء يحدثه النظر أو السمع فيخطُر للبال، ويعرض للفكر، ويرتاح له القلب، ثم يَنمى بالطمع، واللَّجاج، وإدمان الذكر)، ثم يقوى فيصير حُبًّا، ثم يصير هوًى، ثم يصير خُلَّة، ثم عشقا، ثم وَلَهًا، فيسمّى صاحبه مُدَلَّهًا، ومستهاما، وهائما، وحيرانَ، ثم يصير متيّما، وهو أرفع منازل الحب، لأن التتيم التعبّد، والوجد ألم الحب، والهَيَمان الذهاب فى طلب غرض لا غاية له، والكَلَف والشَّغَف اللّهج بطلب الغرض .

وقال الفرّاء : اللَّوْعة، حُرقة القلب من الحب .

وقال أبو عُبَيد القاسم بن سلّام : العلاقة الحب اللازم للقلب، والجوى الهوى الباطن، واللَّوْعة حرقة الهوى، واللاعج الهوى المحرق، والشَّغَف أن يبلغ الحب شَغَاف القلب (وهو جلد دُونه)، والتّتيم أن يستعبده الهوى، والتَّبْل أن يُسقمه الهوى،

يقال : رجل متبول، والتَّدْلِيهُ ، ذَهاب العقل من الهوى، يقال : رجل مُدَلَّهٌ، والهُيوم أن يذهب على وجهه، والشَّغَف إحراق القلب مع لذة يجدها وهو شبيه باللَّوْعة .

وقال أبو عبد الله بن عرفة : الإرادة قبل المحبة، ثم المحبة، ثم الهوى، ثم العشق .

وقال ٱبن دُرَيْد : الصَّبابة رقّة الهوى . وٱشتقاق الحب من أحب البعير، إذا بَرَك من الإعياء . ٥

ذكر ما قيل فى الفرق بين المحبة والعشق

قالوا : المحبة جنس، والعشق نوع . فإن الرجل يحب أباه وأمه، ولا يبعثه ذلك على تَلَف نفسه، بخلاف العاشق .

وقد حكى أن بعض العشاق نظر إلى جارية كان يهواها، فارتعدت فرائصُه وغُشِيَ عليه، فقيل لبعض الحكماء : ما الذى أصابه؟ فقال : نظر من يحبُّه، فانفرج قلبه، ١٠ فتحرّك الجسم لٱنفراج القلب! فقيــل له : فنحن نحب أهالينـا ولا يصيبنا ذلك فقال : تلك محبة العقل، وهذه محبة الرُّوح !

وقالوا : كل عشق يسمّى حُبًّا، وليس كل حب يسمّى عشقا . لأن العشق ٱسم لمـا فَضَل عن المحبة، كما أن السَّرَف ٱسم لمـا جاوز الجُود، والبُخْل ٱسم لمـا نقص عن الٱقتصاد، والجبن ٱسم لمـا فَضَل عن شدّة الٱحتراس، والهَوَج ٱسم لمـا فَضَل ١٥ عن الشجاعة .

قال الشاعر :

ثلاثةُ أحبـابٍ : فحُبٌّ علاقةٌ، * وحُبٌّ تِمِلّاقٌ، وحُبٌّ هو القتلُ !

***

(٤٥) وأما سبب العشق وما قيل فيه، فقالوا : سبب العشق مصادفة النفس ما يلائم طبعَها فتستحسنه وتميل إليه . وأكثر أسباب المصادفة النظر . ولا يكون ذلك باللمح، بل بالتثبت في النظر ومعاودته بالنظر، فإذا غاب المحبوب عن العين طلبتْه ٥ النفسُ، ورامت التقرّبَ منه، وتمنّتْ الاستمتاعَ به . فيصير فكرها فيه، وتصويرها إياه في الغَيْبة حاضرا ، وشغلُها كله به ، فيتجدّد من ذلك أمراضٌ لانصراف الفكر إلى ذلك المعنى . وكلما قويت الشهوة البدنية، قويَ الفكر في ذلك . وقد أمر الله عز وجل بغَضِّ البصر فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ . فقرن غض البصر ١٠ بحفظ الفرج، لأنه يسببه ويؤول إليه .

وعن عليّ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قال : "لا تُتْبِعِ النظرة النظرةَ، فإن لك الأُولى ! وليستْ لك الآخِرةُ" .

وعن أبي هُرَيرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "العَيْنانِ تَزْنِيانِ، وزِناهُما النظَرُ".

١٥ وعن عليّ رضي الله عنه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ! "يا عليُّ، اتّقِ النظرَة بعد النَّظْرة ! فإنها سَهْم مَسْمومٌ، يُورِث الشَّهوةَ في القَلْبِ".

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نَظَرُ الرجُلِ إلى مَحَاسِن المرأةِ سَهْمٌ مسمومٌ من سِهام إبليسَ" .

وعن يحيى بن سعيد قال : كان عيسى بن مريم عليه السلام يقول : "النظرُ ٢٠ يَزْرعُ في القلب الشهوةَ، وكفى بها خَطِيئةً ! " .

وعن سفيان قال : قال عيسى عليه السلام : «إيّاكُم والنظرَ! فإنّه يزرعُ فى القلبِ الشهوة، وكفَى بها لصاحبها فتنةً ! » .

وقال الحسن البصرىّ : من أطلق طَرْفه، أطال أسَفَه .

وقال ذو النون : اللَّحَظاتُ تورث الحَسَرات : أوّلها أسَفٌ، وآخرها تَلَفٌ . فمن تابع طَرْفه، تابع حَتْفه .

وقال حكيم : أوّل العِشْق النظر، وأوّل الحريق الشَّرَر .

وقال أبو الفرج بن الجوزىّ : البصر صاحب خَبَر القلب . ينقل إليـه أخبـار المُبصَرات، وينقش فيه صُوَرها، فيجول الفكر فيها فيشـغَلُه ذلك عن الفكر فيما ينفَعُه من أمر الآخرة . فاحذَرْ من شر النظر! فكم أهلك من عابد، وفَسَخ عزمَ زاهد! وهو سبب الآفات، إلا أن علاجه فى بدايته قريب . فإذا كرر تمكن الشرّ فصعُب علاجه . فإن النظرة إذا أثّرت فى القلب، فإن أعجل الحازم بغضّها وحسم المـادّة من أوّلها سهُل علاجه، وإن كرر النظر نَقّب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلب متفرّغ ونقشها فيه . فكلما تواصلت النظرات كانت كالمياه تسقى بهـا الشجرة، فلا تزال تنمو فيفسُد القلب، ويُعْرِض عن الفكر فيما أُمِرَ به، ويخرج بصاحبه الى المِحَن، ويوجب آرتكاب المحظورات، ويلقى فى التلف .

وقد أكثر الشـعراء فى وصف ما يحدثه النظر من البلايا ، فمن ذلك ، قول الفرزدق :

تَزوّدَ منهـا نظرةً لم تَدَعْ لَهُ * فُؤادًا، ولم يَشْعُرْ بما قد تَزَوّدا .

فـلَمْ أر مقتولًا ولم أر قاتِلًا * بغَيرِ سلاحٍ مثْلَها حينَ أقصدَا .

وقال إبراهيم بن العباس بن صول الكاتب :

فمَن كانَ يُؤْتى من عدوٍّ وحاسِدٍ، * فإنّيَ من عينِي أُتيتُ ومن قَلْبِي!

هما اعتَوَرانى نظرةً ثم فِكْرَةً، * فما أبقَيَا لى من رُقَاد ولا لُبِّ!

وقال إسمعيل بن عمار الأعرابيّ :

٥ عَينانِ مشئومتانِ،وَيحُهُما ! * والقَلْبُ حَيْرانُ مُبتَلًى بهما.

عَرَّفتاه الهوى لظُلْمِهما، * ياليْتنِي قبله عَدمتُهما!

وقال أبو عبد الله المارستانيّ :

رَمَانِى بها طَرفِى فلم يُخْطِ مَقْتَلِى، * وما كُلُّ من يُرْمَى تُصابُ مقاتِلُهْ!

إذا مُتُّ ، فابكُونِى قَتِيلا لِطَرْفِه * قَتيلَ عدُوٍّ حاضر ما يُزايِلُهْ!

١٠ وقال ابن المعتز :

مَتيَّمٌ يَرْعَى نُجُومَ الدُّجى * يَبْكِى عليه رحمةً عاذِلُهْ!

عَيْنِى أشاطَتْ بدمِى فى الهوى، * فابكُوا قَتِيلًا بعضُه قاتِلُهْ!

وقال المتنبي :

وأنا الّذى اجتلَب المنِيّةَ طَرفُه * فمَنِ المطالَبُ؟ والقتيلُ القاتلُ!

١٥ وقال ابن المعتز :

وما أدرِى ،إذا ما جَنّ ليلٌ، * أشوقًا فى فُؤادِى أم حَرِيقا؟

ألَا يا مقلَتَيّ، دهَيْتُمانِى * بلحْظِكما فذُوقَا! ثم ذُوقَا!

وقال أبو عبد الله بن الحجاج :

يامَنْ رأى سُقْمى يَزِيـ * ـد وعِلّتى تُعْيِى طَبِيبِى.

٢٠ لا تَعْجَبَنّ فهكذا * تَجْنِى العيونُ على القُلُوبِ!

وقال أبو منصور بن الفضل :

لواحظُنا، تَجْنِي ولا عِلْمَ عِنـدَها * وأنفُسُـنا مأخوذةٌ بالجـرائِرِ.

ولم أرَ أغبى من نُفُوسٍ عفائفٍ * تُصـدِّقُ أخبار العُيونِ الفَواجِرِ.

ومَنْ كانتِ الأجفانُ حُجّاب قلبِه * أَذِنَّ على أحْشائِه بالفَواقِرِ!

وقال أبو محمد بن الخفاجيّ : ٥

رمَتْ عينُها عَيني، وراحتْ سليمةً! * فَمَنْ حاكمٌ بين الكَحِيلة والعَبْرا؟

فياطَرْفُ، قد حذَّرْتُكَ النظرةَ التي * خَلَسْتَ فما راقَبْتَ نهيا ولا زَجْرا!

ويا قلبُ، قد أرْداكَ من قبلُ مرةً! * فوَيْحَكَ! لِمْ طاوعْتَه مرّةً أُخْرى؟

وقال عبد المحسن بن غالب الصوريّ :

ما نَظْرةٌ إلا لهـا سَـكْرةٌ * كأنّما طَـرْفُك خَمّـارُ. ١٠

هذا هوًى يَصْدُرُ عنه جَوًى * يَتْـلُوه لَوْعاتٌ وأفْـكارُ.

وهـذه أفعالُهـا، هـذه! * ما بعد رأْي العينِ إخبارُ.

ولم يكُن أوّلَ مَنْ غرّنِي! * كلُّ غَرِيرِ الطَّرْفِ غرّارُ!

وقال أبو شجاع الوزير:

لأُعذِّبَنَّ العينَ غـيْرَ مفكِّرٍ * فيها، جَرَتْ بالدمعِ أم فاضَتْ دَمَا! ١٥

ولأَهْجُـرَنّ مِنَ الرُّقاد لذيذَهُ * حتّى يصيرَ على الجُفُونِ مُحرَّما!

سفَكَتْ دمِي، فلأَسْفِكَنّ دمُوعَها * وهي التي بَدَأَتْ فكانتْ أظلَما!

هيْ أوقعَتْنِي في حبائلِ فتنةٍ: * لولم تَكُنْ نظرَتْ، لكنتُ مسلَّما!

وقال آخر عفا الله عنه :

ياعينُ أنتِ قتلْتِـني، * وجعَلْتِ ذنبَكِ من ذُنوبِي! ٢٠

وأراكِ تَهْـوِينَ الدُّمو * عَ كأنّها وَفْق الحبيبِ،
تالله ، أحلِفُ صادقًا * والصِّدقُ من شِيَمِ الأريبِ!
لو مُيِّزَتْ نُوَبُ الزما * نِ من البعيد إلى القريبِ،
ما كُنَّ إلا دُونَ مَا * جنَتِ العيونُ على القُلوبِ!

وقال آخر، وأجاد :

أنا ما بَيْنَ عَدُوَّيْـ * ـنِ هما: قلبي وطَرْفِي.
ينظُر الطَّرْفُ ويهوى الـ * ـقَلْبُ، والمقصودُ حَتْفِي.

وقال ابن الحريريّ :

فتَصَبَّرْ، ولا تَشِمْ كلَّ بَرْقٍ! * رُبَّ برقٍ فيه صَوَاعِقُ حَيْنِ!
واغْضُضِ الطَّرْفَ، تَسْتَرِحْ من غَرَامٍ * تكتَسِي فيه ثوبَ ذُلٍّ وشَيْنِ.
فَقِيادُ الفتى موافقةُ النفـ * ـسِ، وبَدْءُ الهوى طُموحُ العَيْنِ.

فصل

قالوا : ومن أسباب العشق، سماع الغناء وإنشاد الغَزَل. فإن ذلك يصوّر في النفس نقوشَ صور فتخمّر خميرةَ صورة موصوفة ، ثم تصادف نظرا مستحسنا ، فتتعلق النفس بما كانت تطلبه حالةَ الوصف .

فصل

وذكر بعض الحكماء أنه لا يقع العشق إلا لمجانس، وأنه يضعف ويقوى على قدر التشاكل . واستدل بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم! "الأرواحُ جنودٌ مُجَنَّدة ماتعارَفَ منها ائتلفَ، وما تناكَرَ منها اختلفَ". قال: وقد كانت الأرواح موجودة

قبـل الأجسام ، فمال الجنسُ إلى الجنس . فلما آفترقت فى الأجساد ، بقى فى كل نفس حب ما كان مقارنا لها . فإذا شاهدت النفس من نفسٍ نوعَ موافقة ، مالت إليها ظانّة أنهـا هى التى كانت قرينَتَها . فإن كان التشاكل فى المعانى كانت صداقةً ومودّة ، و إن كانـ فى معنى يتعلق بالصـورة ، كان عشقا . وإنمـا يوجد الملل والإعراض من بعض الناس لأن التجربة أبانت آرتفاع المجانسة والمناسبة . ٥

وأنشدوا على ذلك :

وقائلٍ : كيْفَ تهاجَرْتُمـا؟ * فقلتُ قَوْلا فيه إنْصافُ:

لم يَكُ من شَكْلِى ففارَقْتُه ، * والناس أشْكال وألّافُ.

قال أبو الفرج بن الجوزىّ : فإن قيل إذا كان سبب العشق نوعَ موافقة بين شخصين فى الطباع ، فكيف يحب احدهما صاحبه والآخر لا يحبه؟ فالجواب أنه يتفق فى طبع المعشـوق ما يوافق طبع العـاشق ، ولا يتفق فى طبع العاشق ما يلائم طبع المعشوق . فإذا كان سبب العشق آتفاقا فى الطباع بطل قولُ من قال : إن العِشق لا يكون إلا للأشياء المستحسنة . إنمـا يكون العِشق لنوع مناسبة وملاءمة ، ثم قد يكون الشيء حسنا عند شخص غير حسن عند آخر . وحكى على ذلك حكاية رفعها بالسـند إلى علىّ بن الحسين القرشىّ ، عن رجل من أهل المدينـة كان أديبا ظريفا طَلّابا للأدب والمُلَح ، قال : كنت يوما فى مجلس رجل من قريش ومَعَنا قَيْنة ظريفة حَسَنة الصورة ، ومعنا فتًى من أقبح ما رأته العين ، والقَيْنة مقبلة عليه بحديثها وغنائها . فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا فتًى من أحسن الناس وجهًا ، وأثراهم ثوبا ، وأطيبهم ريحا ، فأقبل علىّ صاحب البيت ، فقال : إن فى أمر هذين لعجبا ! قلت : وما ذاك؟ قال : هذه الجارية تحب هذا (يعنى القبيحَ الوجهِ) وليس لهـا فى قلبه محبة ، وهـذا ٢٠

(٤٧) ١٠ ١٥

الحسن الوجه يحبها، وليس له فى قلبها محبةٌ. فبينا نحن على شرابنا إذ مرّ الفتى الحسن الوجه فتغنّى وقال :

بِيَدِ الذى شُغِف الفؤادُ بهم * فَـرَجُ الذى أَلقَى من السُّقْم!
فاستيقِنِى أنْ قَـد كَلِفتُ بكم * ثم آفعَـلِى ما شِئتِ عن عِلْم!

٥ فأقبلت عليه، وقالت: قد علمنا ذاك، فَمَهْ! ثم تركته، وأقبلت على القبيح الوجه، فلبثنا ساعة، ثم تغنى الفتى أيضا :

أَلَا ليتنى أعمى أصمُّ تقودُنِى * بُثَيْنَـةُ لا يخفَى علىَّ كلامُها!

فقالت : اللهم أعط عبدك ماسأل! فغاظتنى، فقلت لها : يافاجرة تختارين هذا، وهو أقبح من ذنوب المُصِرِّين، على هذا الذى هو أحسنُ من توبة التائبين، فقالت

١٠ لى : ليس الهوى بالآختيار! ثم أنشأت تغنى وتقول :

فلا تَـلُمِ المُحِبَّ على هَوَاه * فكلّ متـيَّمٍ كَلِفٍ عميـدِ
يَظُنُّ حبيبَه حَسَنا جميلاً، * وإن كان الحَبِيبُ من القُرودِ!

فقلت : أجل ! إنه لكما قلتِ، وليس فى هـذا حيلة، وذكرت قول عُمَر ابن أبى ربيعة :

١٥ فتَضاحَكْنَ، وقد قُلْن لنا: * حَسَنٌ فى كلِّ عينٍ ما تَودّ!

فصـــل

قالوا : ويتأكد العشق بإدمان النظر، وكثرة اللقاء، وطول الحديث . فإن آنضم إلى ذلك معانقة أو تقبيل فقد تمَّ آستحكامُه .

وقد ذكر حكماء الأوائل أنه إذا وقعتْ القُبَل بين المُتَحابَّيْن ووصلت بِلّة من

٢٠ ريق كل واحد منهما إلى مَعدة الآخر، آختلط ذلك بجميع البدن ووصل إلى جِرْم

نَبِدء، وهكذا إذا تنفس كل واحد منهما فى وجه صاحبه، فإنه يخرج مع ذلك النفس
شىءٌ من نسيم كل واحد منهما فيختلط بأجزاء الهواء، فإذا آستنشق من ذلك الهواء
دخل فى الخياشيم، فوصل بعضه إلى الدماغ فسرى فيه كسَرَيان النُّور فى جِرْم البِلّور،
ووصل بعضه إلى جِرْم الرئة، ثم إلى القلب فَيدِبُّ فى العروق الضوارب فى جميع البدن
فينعقد فى بَدَن هذا ما تحلل من بَدَن هـذا فيصير مزاجا، فيتولد به العشق وينْمى . ٥
هذا ما قيل فى سبب العشق والله أعلم .

*
* *

وأما ما قيل فى مدحه وذمّه والممدوح منه والمذموم، قال آبن الجوزى
فى كتابه المترجم بـ "ذَمّ الهوى" : آختلف النـاس فى العشق، هل هو ممـدوح
أو مذموم . فقال قوم : هو ممدوح، لأنه لا يكون إلا من لَطَافة الطبع، ولا يقع ١٠
عند جامد الطبع . ومن لم يجد منه شيئا فذلك من غِلَظ الطبيعة . فهو يجلو العقولَ،
ويصفِّى الأذهان، ما لم يُفْرِط . فإن أفرط عاد سُمًّـا قاتلا . وقال آخرون : هو
مذموم، لأنه يستأسر العاشق ويجعله فى مقام المستعبَد . قال : قلت : وفصل الحكم
فى هذا الفصل أن نقول : أما المحبة والودّ والميل إلى الأشـياء المستحسنة والملائمة
فلا يُذَم، وأما العشـق الذى يزيد على حدّ الميـل والمحبة فيملك العـقلَ ويُصرِّف ١٥
صاحبه على غير مقتضى الحكمة فذلك مذموم . ويتحاشى من مثله الحكماء .
هذا ما قيل فى مدحه وذمّه مجملا . والله تعالى أعلم .

*
* *

فأما الممدوح منه، وهو الذى قدّمنا ذكره، فقـد وقع فيه جماعة من الخلفاء
والأكابر فلم يُعَب عليهم ولا نَقَصهم . وقد تكلموا فى مدحه وتفضيله بمـا سنذكر ٢٠
منه إن شاء الله تعالى طَرَفا .

(٤٨) فقالوا : العشق يولِّد الأخلاقَ الحميدة! وقالوا : لو لم يكن في الهوى إلا أنه يشجِّع الجبانَ، ويصفِّي الأذهان، ويبعث حزم العاجز، لكفاه شرفا !

وقال أعرابيّ : من لم يُحِبَّ قط فهو رديء التركيب جافي الطبع كزُّ المعاطف .

وقد روى أن الشعبيّ كان ينشد :

٥ إذا أنتَ لم تَعْشَق ولم تَدْرِ ما الهوى، * فأنتَ وعَيْرٌ في الفَلاة سَواء!

وسمع ابنُ أبي مليكة غناء وهو يؤذِّن، فطَرِب . فقيل له في ذلك، فقال :

إذا أنت لم تَطْرَبْ ولم تَدْرِ ما الهوى * فكن حَجَرا من يابِس الصَّخر جَلْمَدا .

وسئل أبو نوفل : هل يسْلَم أحدٌ من العشق ؟ فقال : نعم الجِلْفُ الجافي الذي ليس فيه فضل ولا عنده فَهْم . فأما من في طبعه أدنى ظَرْف أو معه دَمَاثة أهل

١٠ الحجاز ورِقَّةُ أهل العراق، فهيهات !

وحكى أبو الفرج بن الجوزيّ بسند يرفعه إلى اليمان بن عمرو مولى ذي الرياستين، قال : كان ذو الرياستين يبعثني ويبعث أحداثا من أهله إلى شيخ عالم بخُراسانَ، له أدبٌ وحسنُ معرفة بالأمور، ويقول لنا : تعلَّموا منه الحكمة، فإنه حكيم! . وكنا نأتيه، فإذا انصرفنا من عنده، سألنا ذو الرياستين واعترض ما حَفظناه فنخبره به . فقصدناه

١٥ ذات يوم، فقال : أنتم أُدباءُ، وقد سمعتم الحكمة ولكم جِدَاتٌ ونِعَمٌ، فهل فيكم عاشق؟ فقلنا : لا . فقال : اعشَقُوا، فإن العشق يُطْلِق اللسانَ العَييّ، ويفتح جِبِلَّةَ البليد، ويبعث على التنظيف وتحسين اللباس وتطييب المَطْعَم، ويدعو إلى الحركة والذَّكاء، ويُشَرِّف الهمة! وإياكم والحرام! فانصرفنا من عنده إلى ذي الرياستين، فسألَنا عما أخذنا في يومنا ذلك فهِبْنَاه أن نخبره . فعزَم علينا فأخبرناه، فقال : صدَق والله! فهل

تعلمون من أين أخذ هذا؟ فقلنا : لا. قال ذو الرياستين : إن بَهْرامَ جُور كان له آبن، وكان قد رشّحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقصَ الهمة، ساقطَ المُروءة، خامل النفس، سيئ الأدب. فغمه ذلك ووكّل به من يلازمه من المؤدِّبين والحكماء ليعلموه. فكان يسألهم عنه فيحكون عنه مايغُمُّه من سوء فهمه وقلة أدبه. إلى أن سأل بعض مؤدِّبيه يوما، فقال له المؤدِّب : قد كنا نخاف سُوءَ أدبه، فحدث من أمره ما صيَّرنا ٥
إلى اليأس من فلاحه، قال : وما ذاك الذى حدث؟ قال : إنه رأى آبنة فلان المَرْزُبان فعشِـقَها حتى غلب عليـه هواها، فهو لا يَهْذِى إلا بها، ولا يتشاغل إلا بذكرها. فقال بهرام : الآن رجوتُ فلاحه! ثم دعا بأبى الجارية، فقال : إنى مُسِرٌّ إليك سرّا فلا يعدُوَنَّك. فضمن له ستره. فأعلمه أن آبنـه قد عَشِق آبنته، وأنه يريد أن ينكِحَها إياه، وأمره أن يأمرها بإطاعه فى نفسها ومراسـلته من غير أن يراها، ١٠
فإذا آستحكم طمعه فيها تجنّتْ عليه وهَجَرتْه، فإن آستعتبها أعلمتْه أنها لا تصلح إلا لملك ومَنْ همته همة الملوك، وأنه يمنعُها من مواصلته أنه لا يصلح لِلْمُلْك. ثم ليعلمه خبرهما، فقبل أبوها ذلك منه. ثم قال للمؤدِّب الموكل به خوّفه منى وشجعه على مراسلة المرأة! ففعل ذلك وفعلتْ الصبيّة ما أمرها به أبوها. فلما آنتهت إلى التجنى عليه، وعلم الفتى السبب الذى كرهتـه له، أخذ فى الأدب وطلب الحكمة والعلم والفُروسـية والرِّماية ١٥
وضرب الصوالجـة حتّى مَهَر فى ذلك . ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج من الدوابّ والآلات والمطاعم والملابس والنـدماء إلى فوق ما عنده . فَسُرّ الملك بذلك، وأمر له بمـا طلب . ثم دعا مؤدّبه، فقال : إن الموضع الذى وضع به آبنى نفسه من حبّ هذه المرأة لا يُزْرِى به. فتقدّمْ إليه أن يرفع ذلك إلىّ ويسألنى أن أزوّجه إياها. ففعل. ورفع الفتى ذلك إلى أبيه، فاستدعى أباها، وزوّجه بها، وأمر بتعجيلها إليه، وقال له : ٢٠

إذا ٱجتمعتَ بها فلا تحدث شيئا حتّى آتيك! فلما ٱجتمع أتاه، فقال: يا بُنَىَّ لا يضعنّ منها عندك مراسلتُها إيّاك، وليست فى حبالك! فإنى أنا أمرتها بذلك. وهى أعظم الناس مِنّةً عليك، بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك، حتّى بلغت الحدّ الذى تصلح معه للمُلك بعدى. فزِدْها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك! ففعل الفتى ذلك، وعاش مسرورا بالجارية، وعاش أبوه مسرورا به، وأحسن ثواب أبيها، ورفع مرتبته وشرفه بصيانة سره وطاعته، وأحسن جائزة المؤدّب، وعقد لٱبنه على المُلك من بعده.

قال اليمان: ثم قال لنا ذو الرياستين: سلوا الشيخ الآن: لِمَ حملكم على العشق؟ فسألناه: فحدّثنا بحديث بهرام جور وٱبنه.

فهذا ممن ٱرتفع بالهوى وترقَّى بسببه إلى مرتبة الملك.

وحكى ٱبن الجوزىّ أيضا، قال: حدّث القاسم بن محمد النُّمَيْرِىّ، قال: ما رأيت شابا ولا كهلا من ولد العباس أصْونَ لنفسه، وأضبطَ لجأشه وأعفَّ لسانا وفَرْجا من عبد الله بن المعتزّ! وكان ربما عبَثْنا بالهزل فى مجلسه، فجرى معنا فيه فيما لا يقدح به عليه قادح. وكان أكثرَ ما يَشْغَل به نفسه سماعُ الغناء، وكان كثيرا ما يَعيب العِشْق، ويقول: هو ضرب من الحمق! وكان إذا رأى منا من هو مطرق أو مفكِّر اتهمه بالعشق ويقول: وقعتَ والله يا فلان! وقلّ عقلك وسَخُفْتَ! إلى أن رأيناه، وقد حدث به سهو شديد، وفكر دائم، وزفير متتابع، وسمعناه ينشد أشعارا منها:

مالِى أرَى الــثُّرَيَّا * ولا أَرَى الرَّقِيبا؟

يا مُرْسِلًا غزالًا، * أما تَخَافُ ذيبا؟

وسمعناه مرة أخرى ينشد، وهو يشرب فى إناء قد لفه، فاتهمناه فيه. وكتب عيد هذا الشعر :

ماقليلٌ منكَ لى بقليلِ، * يامُنى عينى وغاية سُولِى!
سَلْ بحقِّ الله عينيكَ عنِّى: * هل أحسَّتْ فى الهوى بقتيلِ؟
أنتَ أفسدتَ حياتِى بهجرٍ، * ومماتِى بحسابٍ طويلِ! ٥

وأنشد :

أسَرَ الحُبُّ أميرًا * لم يكُنْ قبلُ أسيرا.
فارحَمُوا ذُلَّ عزيزٍ * صارَ عَبْدًا مستجيرا!

وأنشد يوما ، وقد راى دار بعض الناس، فقال :

أيا دارُ كَمْ فيكِ من لَذَّةٍ * وعَيْشٍ لنا، كانَ ما أطيَبَهْ! ١٠
ومن قَيْنةٍ أفسدَتْ ناسِكًا، * وكانَتْ له فى التُّقى مَرْتَبَهْ.

وقال أيضا مرة :

لقد قتلَتْ عيناكَ نفسًا كريمةً، * فلا تأمَنَنْ إن مُتُّ سَطْوةَ ثائرِ!
كأنَّ فؤادِى فى السَّماء معلَّقٌ، * إذا غِبْتَ عن عينِى، بمخْلَبِ طائرِ.

وأنشد يوما، وفى يده خاتم : ١٥

حَصَلْتُ منك على خا * تَمٍ حَوَتْه البنانُ!
فما يُفارِقُ كَفِّى * كأنَّه قهْرَمانُ.
ياأهلَ وُدِّى بَعُدْتُم * وأنتُمُ جيرانُ!

قال النميرىّ : فقلتُ له : جعلنا الله فداك ! هذه أشياء قد كنت تعيب أمثالها منا ، ونحن الآن ننكرها منك ! وكان يرجع عن بعض ذلك تصنعا ، ثم لا يلبث

مستوره ان يظهر حتى تحقق عندنا عشقه، ودخل فى طبقة المرحومين، فسمعته يوما ينشد :

مَكْتُومُ، يا أحسنَ خلقِ اللهِ * لا تتْرُكينِي هكذا باللهِ!

ثم تنفس إثر ذلك فأجبته :

قد ظَفِر العِشقُ بعبد اللهِ * وٱنْهتكَ السِّتْرُ بحمد اللهِ.

فقل له : سَمِّ لنا سَيِّدى * هذا الذى تَهْوى، بحقِّ اللهِ!

فضحك وقال : لا، ولا كَرامة !

فكتبتُ إليه من الغَدِ :

بكتْ عينُه وشَكا حُرقةً * من الوَجْد فى القَلْب ما تنطفى.

فقلتُ لَهُ : سيِّدى، ما الذى * أرى بِكَ؟ قال : سِقَام خَفِى.

فقلتُ : أعِشْقٌ؟ فقال : ٱقْتِصر * على ما تَرى بى، أما تَكْتَفِى؟

فكتب إلىّ :

يا مَنْ يُحدِّث عَنِّى * بظَنِّ سمع وعينِ!

إن كنتَ تَخْطُب سِرِّى، * فارجعْ بخُفَّىْ حُنَينِ!

فكتبت إليه :

هَيْهاتَ لحظك عِنْدِى * يُقِرُّ فيه بعشقك!

دَعْ عنك خُفَّىْ حُنَيْنٍ * وٱحْرِص على حَلِّ رِبقك!

تعالَ نَحْتالُ فيما * تهوى، برِفْقِى ورِفْقِك!

وصِرتُ إليه فقال : يا أبا طيب، قد عصيتُ إبليسَ أكثرمما عصى ربَّه الى أن أوقعنى فى حبائله، فأنشدته :

من أينَ لا كان إبليسُ جاءني بك يَسعَى؟ أبداكَ لى من بَعيد * فقلت : طَوْعًا وسَمْعًا !

فأخبرنى بقصته ، فسعيت له بلطيف الحيلة وأعاننى بحزم الرأى حتّى فاز بالظفر .

قال أبو بكر الصولى : آعتل عبد الله بن المعتز فأتاه أبوه عائدا وقال : ما عراك، يابنىّ ؟ فأنشأ يقول :

أيُّها العاذلُونَ ، لاتَعذُلُونِى * وآنظُروا حُسْنَ وجهها تَعذِرُونى!

وآنظروا هل تَرَوْنَ أحسنَ منها ، * إن رَأَيْتُم شَبِيهها فاعذِلُونِى !

بى جُنُونُ الهوى ، ومابى جُنُونٌ * وجُنونُ الهوى جُنونُ الجُنونِ !

قال : فتتبع أبوه الحال حتّى وقع عليها ، فابتاع الجارية التى شُغِف بها بسبعة آلاف دينار ، ووجّهها إليه .

وحكى أن الرشيد كان له ثلاث جوارٍ آشتدّ شغفه بهنّ ، فقال العباس بن الأحنف على لسانه :

مَلَكَ الثَّلاثُ الآنِساتُ عنانِى * وَحَلَلْنَ من قلبى بكُلِّ مكانِ!

مالى تُطاوِعُنِى البَرِيّةُ كُلُّها ، * وأُطِيعُهنّ وهُنَّ فى عِصْيانِى؟

ما ذاكَ إلا أن سلطانَ الهوى * وبه عززن أعزُّ من سلطانِى!

أخذ المعنى والروىّ سليمان بن الحَكَم المستعين ، أحدُ خلفاء بنى أمية بالأندلس ، فقال :

عَجبًا يهابُ الليثُ حدَّ سِنانِى ، * وأهابُ لَحْظ فَواتِرِ الأجْفانِ!

وأُقارِعُ الأهوالَ لا متَهيِّبا * منها سِوى الإعراض والهِجْرانِ!

وتملّكتْ نفسِى ثلاثٌ كالدُّمى * زُهرُ الوُجُوهِ نواعمُ الأبدانِ!

كَكواكِبِ الظلْمَاءِ لُحْنَ لنـاظِرٍ * من فوقِ أغصانٍ على كُثْبانِ.
هذى الهِلالُ، وتلك بنتُ المشترى * حُسْناً، وهذى أختُ غُصنِ البانِ!
حاكمتُ فيهنَّ السُّلُوَّ إلى الصِّبا * فقضى لسُلْطانٍ على سُلطانِ.
فأبحْنَ من قلبى الحِمَى وثَنَيْنَنِى * عن عِزِّ مُلْكى كالأسيرِ العانِى.
٥ لا تَعْذلوا مَلِكا تذلَّل فى الهوى! * ذُلُّ الهوى عِزٌّ ومُلْكٌ ثانِى!
إن لم أُطِعْ فيهنَّ سُلطانَ الهوى * كَلَفاً بهنّ، فلسْتُ من مَرْوانِ!
وإذا الكريمُ أحَبَّ، أمَّن إلفَهُ * خَطْبَ القِلَى وحَوادثَ السُّلْوانِ!

وقال العباس :

لاعارَ فى الحُبِّ إنَّ الحبَّ، مَكْرُمةٌ * لكنَّه ربَّما أزْرى بذى الخَطَر!

١٠ * * *

وأما القسم المذموم منه، وهو الذى ثَنَّينا بذكره فى صدر هذا الفصل فقد أكثر الناس القول فى ذمه، وبيّنوا أسبابه .

فقال ابن الجوزىّ : بيان ذمه أن الشيء إنما يعرف مذموما أو ممدوحا بتأمل ذاته وفوائده وعواقبه، وذات العشق لَهَج بصورة، وهذا ليس فيه فضيلة فتمدَحَ،
١٥ ولا فائدةَ فى العشق للنفس الناطقة، إنما هو أثر غلبة النفس الشَّهْوانية .

وقال بعض الحكماء : ليس العشق من أدواء الحُصَفاء الحكماء، إنما هو من امراض الخُلَعاء الذين جعلوا دأبهم ولَهَجهم متابعةَ النفس وإرخاءَ عِنانِ الشهوة وإمراح النظر فى المستحسنات من الصور . فهنالك تتقيد النفس ببعض الصور فتأنس، ثم تألف، ثم تَتُوق، ثم تَلْهَج، فيقال «عَشِق» . وليس هذا من صفة الحكماء :

لأن الحكيم من آستطال رأيه على هواه، وتسلطت حكمته على شهوته . فرعونات طبعه مقيدة أبدا كصبي بين يدى معلمه أو عبد بمرأى سيده ؛ وما كان العشق قط إلا لأرعن بطّال . وقلّ أن يكون لمشغول بصناعة أو بتجارة، فكيف لمشغول بالعلوم والحكم، فإنها تصرفه عن ذلك . ولهذا لا تكاد تجده فى الحكماء .

وقال آبن عُقيل : العشق مرض يعترِى النفوس العاطلة، والقلوب الفارغة المتلمحة للصور لدواعٍ من النفس، ويساعدها إدمان المخالطة . فيتأكد الألف ويتمكن الأنس، فيصير بالإدمان شغفا . وما عَشِق قط إلا فارغ . فهو من علل البطّالين وأمراض الفارغين من النظر فى دلائل العبر، وطلب الحقائق؛ المستدل بها على عِظَم الخالق . ولهذا قلما تراه إلا فى الرعْن البطِرين، وأرباب الخلاعة النَّوْكى . وما عَشِق حكيم قط : لأن قلوب الحكماء أشدّ تمنعا عن أن توقفها صورة من صُوَر الكون مع شدّة تطلبها، فهى أبدا تلحظ وتتخطف ولا تقف . وقلّ أن يحصل عشق من لمحة، وقلّ أن يضيف حكيم إلى لمحة نظرةً، فإنه مارّ فى طلب المعانى، ومن كان طالبا لمعرفة الله لا توقفه صورة عن الطلب لأنها تحجبه عن الصور .

وقال آبن الجوزى : وآعلم أن العشاق قد جاوزوا حدّ البهائم فى عدم ملكة النفس فى الآنقياد إلى الشهوات : لأنهم لم يرضَوْا أن يصيبوا شهوة الوطء وهى أقبح الشهوات عند النفس الناطقة من أىّ موضع كان حتى أرادوها من شخص بعينه فضمّوا شهوة إلى شهوة، وذَلّوا للهوى ذلّا على ذل . والبهيمة إنما تقصد دفع الأذى عنها حسبُ . وهؤلاء آستخدموا عقولهم فى تدبير نيل شهواتهم .

ثم قال : والعشق بيّن الضرر فى الدّين والدنيا . أما فى الدّين فإنه يشغَل القلب عن الفكر فيما له خُلِق : من معرفة الله تعالى، والخوف منه، والقرب إليه . ثم ينفذ ماينال

من موافقة غرضه المحرم الذى يكون فيه خسران آخرته، ويعرضه لعقوبة خالقه. فكلما قرب من هواه، بعد من مولاه. ولا يكاد العشق يقع فى الحلال المقدور عليه فان وقع، فياسرعان زواله ! قالت الحكماء : كل مملوك مملول . وقال الشاعر :

وزادنى شغفا بالحب أن منعت . أحب شيء إلى الإنسان ما منعا .

٥ فان كان المعشوق لايباح ، اشتد القلق به والطلب له . فإن نيل منه عرض ، فالعذاب الشديد فى مقابلته . على أن بلوغ الغرض يزيد ألما فتربى مرارة الفراق على لذة الوصال . كما قال الشاعر :

كل شيء ربحته فى التدانى . والتلاقى، خسرته فى الفراق .

فإن منعه خوف الله تعالى عن نيل غرض، فالامتناع عذاب شديد فهو معذب

١٠ فى كل حال .

هذا ضرره فى الدين .

وأما ضرره فى الدنيا فإنه يورث الهم الدائم، والفكر اللازم، والوسواس، والأرق، وقلة المطعم، وكثرة السهر . ويتسلط على الجوارح فتنشأ الصفرة فى البدن، والرعدة فى الأطراف، واللجلجة فى اللسان، والنحول فى الجسد . فالرأى عاطل، والقلب

١٥ غائب عن تدبير مصلحة، والدموع هواطل، والحسرات تتتابع، والزفرات تتوالى، والأنفاس لا تمتد، والأحشاء تضطرم . وإذا غشى على القلب غشاء ثانيا أخرج إلى الجنون . وما أقربه حينئذ من التلف !

قال : هذا، وكم جنى من جناية على العرض، ووهن الجاه بين الخلق، وربما أوقع فى عقوبات البدن وإقامة الحدود .

٢٠ وقال جالينوس : العشق من فعل النفس، وهى كامنة فى الدماغ والقلب والكبد .

وفى الدماغ ثلاثة مساكن :

مسكن للتخيُّل، وهو فى مقدَّم الرأس؛

ومسكن للفِكْر، وهو فى وسطه؛

ومسكن للذِّكْر، وهو فى مؤخَّره .

ولا يسمى عاشقا إلا من إذا فارق معشوقه لم يخل من تخيله فيمتنع من الطعام ٥
والشراب باشتغال الكبِد، ومن النوم باشتغال الدماغ بالتخيل والفكر والذكر فيكون
جميع مساكن النفس قد آشتغلت به .

وقال الجاحظ : ذُكر لى عن بعض حكماء الهند أنه قال : إذا ظهر العشق عندنا
فى رجل أو آمرأة ، غَدَونا على أهله بالتعزية .

قال : وبلغنى أن عاشقا مات بالهند عشقا، فبعث ملِك الهند إلى المعشوق فقتله به . ١٠

وقال الربعى : سمعت أعرابية تقول : مسكينٌ العاشق! كل شىء عدوه! هُبُوب
الريح يُقْلِقه، ولَمَعان البرق يؤرِّقه، ورسوم الديار تُحْرِقه، والعذل يؤلمه ، والتذكُّر
يُسْقِمه، والبعدُ والقُرْب يهيجه، والليل يُضاعف بلاءه، والرقاد يهرُب منه. ولقد
تداويتُ بالقرب والبعد فلم ينجع فيه دواء، ولا عَزَّ بى عزاء .

وقال شاعر : ١٥

وقد زَعَموا أنّ المحبَّ إذا دنَا * يُمَلُّ، وأن النَّأْىَ يَشْفِى من الوجْد!

بكلٍّ تداوينا، فلم يُشْفَ ما بِنَا! * على أنّ قُرْبَ الدار خيرٌ من البعد!

وأنشد المارستانى :

إذا قَرُبتْ دارٌ كَلِفتُ، وإن نَأَتْ * أَسِفْتُ! فلا بالقُرْب أسلُو ولا البُعْد!

وإن وعدتْ زاد الهوى لانتظارها، ✽ وإن بخلتْ بالوعد مُتُّ على الوعْدِ!
ففى كُلِّ حبٍّ لا محالةَ فَرْحةٌ، ✽ وحُبُّك ما فيه سوى مُحكَم الجَهْدِ!

(٥٢) وحكى الزبير بن بكَّار قال: حدّثنى موهوب بن راشد قال: وقفت آمرأة من بنى عُقَيل على أختٍ لها، فقالت لها: يافلانةُ، كيف أصبحتِ من حبِّ فلان؟
٥ قالت: قَلْقَلَ والله حبُّه الساكنَ، وسكَّن المتحرِّكَ! ثم أنشدتها:

ولو أنَّ ما بى بالحصَى فَلَقَ الحصَى، ✽ وبالرِّيح لم يسمَعْ لهُنَّ هُبُوبُ!
ولو أنَّنى أستغْفِرُ الله كلَّما ✽ ذكرتُك لم يُكتَبْ علىَّ ذُنُوبُ!

قالت: لاجَرَمَ والله، لا أقف حتَّى أسأله كيف أصبح من حبِّك! فجاءته فسألته فقال: إنما الهوى هَوَانٌ، وإنما خُولف باسمه، وإنما يعرف ما أقول من كان
١٠ مثلى قد أبكته المَعَارِف والطلول.

وقال مسلم بن عبدالله بن جندب الهذلىّ: خرجت أنا وريان السوّاق إلى العقيق فلقينا نِسوةٌ نازلات من العقيق ذوات جمالٍ وفيهن جارية حسناء العينين، فأنشد ريان قول أُبَىّ:

ألَا ياعِبادَ الله، هذا أخُوكُمُ ✽ قَتِيلٌ! فهَلّا فيكُمُ اليومَ ثائرُ؟
١٥ خُذُوا بدَمِى إن متُّ كلَّ خَريدةٍ ✽ مريضةِ جَفْنِ العين، والطَّرْفُ ساحرُ!

وأقبل علىّ، وأشار إليها فقال: يا آبن الكرام دمُ أبيك فى أثوابها فلا تطلب أثرا بَعْدَ عين! قال: فأقبلت علىّ آمرأة جميلة، أجملُ من تيك، فقالت: أنت آبن جندب؟ فقلت: نعم. قالت: إن أسيرنا لا يُفَكُّ، وقتيلنا لا يُودى، فاحتسب أباك، وآغتنم نفسك! ومَضَيْنَ.

ذكر شيء من الشعر المقول فى ذم العشق والحب

قال الأَصْمَعِىّ : سئل أعرابىّ عن الحُبّ، فقال : وما الحب؟ وما عسى أن يكون؟ هل هو إلا سحر أو جنون . ثم قال :

هَل الحُبُّ إلا زَفْرةٌ بعد زَفْرةٍ، * وحَرٌّ على الأحشاءِ ليس له بَرْدُ؟
وفَيْضُ دموعِ العينِ منّىَ كلّما * بدا عَلَمٌ من أرضكُمْ لم يكُنْ يَبْدُو؟

وقال : قلت لأعرابىّ : ما الحب ؟ فقال :

الحُبُّ مَشْغَلَةٌ عن كلّ صالحةٍ * وسَكْرَةُ الحبّ تنْفِى سَكْرَةَ الوَسَنِ.

وقال محمد بن عبد الله بن مبادر :

مَنْ فتًى أصبحَ فى الحُبِّ سَقاه الحُبُّ سُمّا؟
كُلّما أخْفى جوى الحُبِّ، عليه الدمعُ نَمّا.
ساهر لا يَطْعَم النو * م إذا الليل ادْلَهَمّا.
كُلّما راقبَ نَجْما * فهَوى، راقبَ نَجْما.
أنتُمُو هَمّى فإن لم * تَصِلُونِى متُّ غَمّا.
يا ثِقاتِى، خَطَمَ الحُبُّ لكُمْ انـفِى وزَمّا!
يا أُخِى، دائى جَوى الحبِّ وداءُ الناسِ حُمّى.
لا تَلُمْ مُفْتَضِحا فى الـحُبِّ، إن الحُبَّ أعمى!

وقال محمد بن ابى أُمية :

فوالله، ما أَدْرِى امن لوعةِ الهوى * صَبَرتُ على التقصيرِ أم ليس لى قَلْبُ؟
أَقَبّحُ أمرا ، والفؤاد يودّه ، * أجُنَّ فؤادى فى الهَوى؟ بل هو الحُبُّ.

وقال أبو عُبادة البحتريّ :

قال بُطْلا وأَفَال الراى مَنْ * لم يقُلْ إن المَنَايَا فى الحَدَقْ!
إن تَكُنْ مُحْتَسِبًا مَنْ قد ثَوى * بِحِمام، فاحتَسِبْ من قد عَشِق!

وقال أبو تمـام :

٥ أمَّا الهوى فهو العذابُ، فإن جَرَتْ * فيـه النَّوَى فالتَّـيمُ كُلُّ التَّـيْمِ.

وقال ٱبن أبى حُصينة :

والعِشْقِ يجتَذِبُ النفوسَ إلى الرَّدى * بالطَّبْعِ، واحَسَدًا لمن لم يَعْشَـقِ!
طَرَقَ الخيـالُ فهاج لى بُطروقه * وَلَهًـا، فليتَ خَيَالَهـا لم يَطْرُقِ!

وقال صالح بن عبد القدّوس :

١٠ عاصِ الهَوى إن الهوى مَرْكَبٌ * يَصْعُبُ بعد اللّين منه الذَّلُولْ!
إنْ يَجْلِبِ اليَوْمَ الهوى لَذَّةً * ففى غَدٍ منـه البُكا والعَوِيلْ.

وقال ابن المعتزّ :

فكأنَّ الهَوى ٱمرؤٌ عَلَوِيٌّ * ظَنَّ أَنِّى وليتُ قَتْلَ الحُسَيْنْ!
وكأنِّى لَدَيْهِ نَجْـلُ زِيادٍ * فهو يَخْتارُ أوجَعَ القِتْلَتَيْنِ!

وقال أبو عبد الله بن الحجاج :

١٥ وَيْحَكَ، ياقلبِيَ ما أغفلكْ! * تَعْشَق مَنْ يعشَقُ أن يقْتُلكْ؟
وأنتَ ياطَـرْفِىَ أوقَعْتَنِى، * وَيْحَـكَ ياطَرْفِىَ مالى ولَكْ؟
قد كانَ من حَقِّ بكائى على * تَبَتُّلِى بالحُبِّ أنْ يَشْغَلَكْ.
حتّى توصلت لقَتْـلِى، فلا * كُنْتَ ولا كانَ الذى أرْسَلَكْ!

وقال عبد المحسن بن غالب الصورىّ :

وكانَ ٱبتداءُ الذى بى مُجُونا ، * فلمّا تمكّن أمسى جُنونا .
وكنتُ أظُنّ الهوى هيّنا * فلاقيْتُ منه عذَابًا مُهينا .

وقال أبو بكر بن محمد بن عمر العنبرىّ :

ياصاح ، إنّى مُذْ عرفتُ الهوى * غَرِقْتُ فى بحرٍ بلَا ساحِل !
عَيْنِى لَحَيْنِى نَظَرتْ نظرةً * رُحْت بها فى شُغُلٍ شاغِلٍ .
عُلِّقتُه فى البيتِ من فارسٍ ، * لكنّه فى السِّحْر من بابِلٍ .
يَظْلِمُنى ، والعَدْلُ من شأنهِ ! * ما أوْجَعَ الظُّلْمَ من العادل !

وقال آخر :

مَنْ سرّه أن يَرى المنَايَا * بعَيْنِه مَنْظَرا صُرَاحا .
فلْيَحْسُ كأسًا من التجنّى * وليَعْشَقِ الأوْجُهَ المِلَاحا !
ياأعيُنًا أُرسِلَتْ مِراضا * فاختَلَسَتْ أعيُنًا صحاحًا !

وقال آخر :

ماأقْتَلَ الحُبّ ! والإنسانُ يجهلُهُ * وكلُّ مالم يَذُقْه فهو مَجْهُولُ .
راح الرُّماةُ إلى بعضِ المَهَا ، فإذا * بَعضُ الرُّماةِ ببَعْضِ الصَّيدِ مَقْتُول !

وأما الآفات التى تجرى على العاشق من المرض والضّنا والجنون والمخاطرات بالنفوس وإلقائها إلى الهلاك ، فهى كثيرة جدّا ، مشاهَدة ومسموعة .

فمن ذلك ماحكاه أبو الفرج بن الجوزىّ بسند يرفعه ، قال : لما بعثت قُرَيْشٌ عمارةَ بن الوليد مع عمرو بن العاص إلى النجاشىّ يكلمانه فيمن قدم عليه من المهاجرين ، فراسل عمارة جارية لعمرو بن العاص كانت معه فصغَتْ إليه . فاطلع عمرو على ذلك

فوَجِدَ على عمارة . وكان عمارة أخبر عَمْرا أن زوجة النجاشيّ عَلِقته وأدخلته إليها فوشى
عمرو بعمارة عند النجاشيّ وأخبره بالخبر ، فقال له النجاشيّ : آئتني بعلامة أستدلُّ
بها على ماقلتَ ! ثم عاد عمارة فأخبر عمرا بأمره وأمر زوجة النجاشيّ ، فقال له عمرو:
لا أقبل هذا منك إلا أن تُعطِيَك من دُهْن الملك الذى لا يَدَّهن به غيره . فكلمها عمارة
٥ في ذلك ، فقالت : أخاف من الملك فأبى أن يرضى منها حتّى تعطيه من ذلك الدُّهْن
فأعطته منه فأعطاه عمرا فجاء به عمرو إلى النجاشيّ فنفخ سحرا في إحليل عمارة . فذهب
مع الوحش (فيما تقول قريش) فلم يزل متوحِّشا يرد ماء في جزيرة بأرض الحبش حتى
خرج إليه عبد الله بن أبي ربيعة في جماعة من أصحابه فرَصَده على الماء فأخذه فجعل
يصيح به : يابجير أرسلني ! فإني أموت إن أمسكتني ! فأمسكه فمات في يده .

١٠ وحكى عن محمد بن زياد الأعرابيّ قال : رأيت بالبادية أعرابيا في عُنُقه تمائمُ
وهو عُرْيانٌ وعلى سوأته خرقة وفي رجله حَبْل ومن خلفه عجوز آخذة بطَرَف الحبل
وهو يَعَضُّ ذراعيه ، فقلت للعجوز : من هذا؟ فقالت : آبن آبنتي ! فقلت لها :
أبه مَسٌّ من الجنّ؟ فقالت : لا والله ولكنه نشأ وآبنة عمّ له في مكان واحد ، فعُلِّقها
وعُلِّقته . فحبسها أهلها ومنعوها منه فزال عقله وصار إلى ما ترى ! فقلت لها : ما آسمه
١٥ قالت : عكرمة . فقلت : أيا عِكْرِمة ما أصابك ؟ قال : أصابني داء قيس وعروة
وجميل : فالجسم مني نحيل ، والفؤاد عليل . قال : فتركته ومضيت .

وحكى عن عباس بن عبيد ، قال : كان بالمدينة جارية ظريفةٌ حاذقةٌ بالغناء فهَوِيتْ
فتى من قريش ، فكانت لا تُفارقه ولا يفارقها . فملّها الفتى وفارقها ، وتزايدت محبتها له
حتى ولِهَتْ . وتفاقم الأمر بها حتّى هامت على وجهها ومَزَّقت ثيابها ، فرآها مولاها
٢٠ في ليلة من الليالي ، وهي تدور في السِّكك ومعه أصحاب له ، فجعلت تبكي وتقول :

الحُبُّ أوّلُ ما يكونُ لَجَاجَة * تأتِي به وتَسُوقُه الأقدارُ.
حتَّى إذا اقتَحَمَ الفتى لُجَجَ الهوى * جاءت أمورٌ لاتُطاق كِبَارُ.

قال : فما بقِى أحد إلا رحمها . فقال لها مولاها : يافلانة ، امضى معنا إلى بيتنا !
فأبت وقالت :

٥ * شَغَلَ الحَلْىُ أهْلَه أن يُعارَا *

قال : وذكر بعض من رآها ليلة وقد لقيتْها جاريةٌ أخرى مجنونةٌ فقالت لها :
فلانة ، كيف أنت؟ قالت : كما لا أحب ، فكيف أنت من وَلَهك وحُبِّك؟ قالت :
على مالم يَزَلْ ، يتزايد على مَرِّ الأيام! قالت لها : فغَنِّى بصوتٍ من أصواتك فإنى قريبة
الشَّبه بك ! فأخذت قصبة تُوَقِّع بها وغنّت :

١٠ يامَنْ شَكَا ألَمًا للحُبِّ شبَّهه * بالنار في القَلْب من حُزْنٍ وتَذْكارِ!
إنِّى لأُعْظِمُ مابِى أن أشَبِّهَه * شيئا يُقاس إلى مِثْلٍ ومِقْدارِ.
لو أنَّ قَلْبِىَ فى نارٍ لأَحْرَقها ، * لأنَّ أجزاءه أذْكَى من النَّارِ!

ثم مضت .

وحكى عن سليمان بن يحيى بن معاذ قال : قدم علىّ بنيسابورَ إبراهيم بن سيابة
١٥ الشاعر البصرى . فأنزلته علىّ فجاء ليلة من الليالى وهو مكروب قد هاجَ . فجعل يَصيح
بى : ياأبا أيوب ! فخشيت أن يكون قد غشيَتْه بليةٌ ، فقلت : ماتشاء ؟

فقال : * أعْيانِىَ الشادِنُ الرَّبِيبُ! *

فقلت : بماذا ؟

فقال : * أشكُو إليه فلا يُجيبُ! *

٢٠ فقلت : دارِه وداوه !

فقـال :

مِنْ أينَ أبغي شِفاء دائي؟ * وإنمـا دَائيَ الطَّبيب!

فقلت : إذنْ يفرّج الله عز وجل !

فقـال :

٥ يارَبِّ، فَرِّج إذًا وعَجِّل، * فإنك السامِـعُ المُجيبُ!

ثم انصرف .

وحدث عن على بن محمد النوفلي عن أبي المختار عن محمد بن قيس العبدى، قال : إني لبمزدلفة بين النائم واليقظان إذ سمعت بكاء حرقا وغناء عاليا . فاتبعتُ الصوت فإذا أنا بجارية كأنها الشمس حسنا ومعها عجوز . فلطئتُ بالأرض لأمتع عيني

١٠ بحسنها، فسمعتها تقول :

دعوتُكَ يامولاى سرا وجَهْـرة * دعاءَضعيفِ القلبِ عن محمل الحبِّ!

بُليتُ بقاسي القلب لايَعرِفُ الهوى * وأقتـلِ خلق الله للهائم الصبِّ!

فإن كنتَ لم تقضِ المودّة بيننا * فلا تُخْلِ من حبٍّ له أبدا قلبي!

رضيتُ بهذا ماحييتُ فإن أمتْ * فحسبي مَعادا في المعاد به حسبي!

١٥ قال : وجعلت تردّد هذه الأبيات وتبكي، فقمتُ إليها وقلت : بنفسي من أنتِ؟ مع هذا الوجه وهذا الجمال يمتنع عليك من تريدين ؟ قالت : نعم! والله إنه يفعل تصبرا وفي قلبه أكثر مما في قلبي! قلت : فإلى كم البكاء؟ قالت : أبدا! أو يصير الدمع دما وتتلف نفسي غما . فقلت : إن هذه آخر ليلة من ليالي الحج، فلو سألت الله تعالى التوبة مما أنتِ فيه، رجوتُ أن يذهب حبه من قلبك! قالت : يا هذا،

٢٠ عليك بنفسك في طلب رغبتك، فإني قد قدّمت رغبتي إلى من ليس يجهل بغيتي! وحوّلتْ وجهها عني، وأقبلتْ على بكائها وشعرها .

وحكى أبو الفرج، عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزىّ فى كتابه المترجم بـ "ذمّ الهوى" بسند رفعه إلى هشام بن عروة ، قال : أذِنَ معاوية بن أبى سفيان يوما للناس، فكان فيمن دخل عليه فتى من بنى عُذْرة . فلما أخذ الناس مجالسهم، قام الفتى العذرىّ بين السماطين فأنشأ يقول :

مُعاوِىَ، ياذا الفَضْلِ والحِلْمِ والعَقْلِ * وذا البِرِّ والإحسانِ والجُودِ والبَذْلِ! ٥
أتيتُك لمَّا ضاقَ فى الأرض مَسْكَنِى * وأنكَرْتُ ممـا قد أُصِبتُ به عَقْلِى.
فَفَرِّج ــ كَلاكَ اللهُ ــ عنِّى فإننى * لَقِيتُ الذى لم يَلْقَـهُ أحدٌ قَبْـلِى!
وخُذْ لِى ــ هداكَ اللهُ ــ حقِّى من الذى * رمانِى بسَهْمٍ كانَ أهونُه قَتْـلِى!
وكنت أُرَجِّى عــدْلَه إن أتيتُــه * فأكثر تَرْدادى مع الحَبْسِ والكَبْلِ!
سَبَانِىَ سُعْدى وآنبرى لخُصُومتِى * وجارَ ولم يَعْـدِلْ وغاصَبَنِى أهْلِى. ١٠
فطَلَّقْتُها من جَهْدِ ما قد أصابَنِى ! * فهذا أميرَ المؤمنين من العَــدْلِ؟

فقال معاوية : أُدْنُ باركَ اللهُ عليك ! ما خَطْبُك؟ فقال : أطال الله بقاء أمير المؤمنين! إنى رجل من بنى عُذْرة، تزوجت آبنة عمّ لى . وكانت لى صِرْمةٌ من الإبل وشُوَيْهات فأنفقت ذلك عليها، فلما أصابتنى نائبة الزمان وحادثات الدهر، رَغِب عنى أبوها. وكانت جارية فيها الحياء والكرم، فكرِهَتْ مخالفة أبيها. فأتيت عاملك مروان بن الحكم ١٥ مستصرخا به راجيا لنصرته. فذكرت له قصتى، فأحضر أباها وسأله عن قضيتى. وكان قد بلغه جمالها، فدفع لأبيها عشرة آلاف درهم، وقال له : هذه لك، وزوّجنى بها وأنا أضمن خلاصها من هذا الأعرابىّ! فرغب أبوها فى البذل فصار الأمير لى خصما وعلىّ منكرا! فانتهرنى وأمر بى إلى السجن وأرسل إلىّ أن أطلقها فلم أفعل. فحبسنى وضيق علىّ وعذبنى بأنواع العذاب، فلما أصابنى مَسُّ الحديد وألَمُ العذاب ولم أجد ٢٠

بُدًّا عن ذلك، طلقها . فما استكملت عدتها حتّى تزوج بها. فلما دخل بها أرسل إلىّ فأطلقنى . وقد أتيتك يا أمير المؤمنين مستجيرا بك، وأنت غياث المكروب، وسند المسلوب . فهل من فرج؟ ثم بكى وقال فى بكائه :

في القَـلْبِ مِنِّىَ نارُ * والنـار فيها اسْـتِعارُ!
والجسم مِنِّى نَحِيـلٌ * واللونُ فيـه اصْفِرارُ.
والعينُ تَبْكِى بشَجْوٍ * فـدَمْعُها مِـدْرارُ.
والحُبُّ داء عَسِـيرٌ * فيـه الطَّبِيبُ يَحارُ.
حُمِّلتُ منـه عَظِيما * فما عليـه اصْطِبار.
فلَيس لَيْـلِىَ لَيْـلًا * ولا نَهـارِى نَهـارُ!

١٠ فرقّ له معاوية وكتب إلى ابن الحكم كتابا غليظا، وكتب فى آخره :

رَكِبْتَ أمرًا عظيما لستُ أعْرِفُـه * أستغفرُ اللهَ من جَوْرِ امرئٍ زانى!
قد كُنتَ تُشْـبِه صُوفِيًّا له كُتُبٌ * من الفرائض أو آياتِ فُرقانِ.
حتّى أتانا الفتى العـذْرِىُّ منتحِبًا * يَشْـكُو إلىّ بحقّ غيرِ بُهتـانِ.
أُعْطِى الإلٰهَ عُهُودًا لا أَخِيسُ بها * أوْ لا فبُرِّئْت من دِينٍ وإيمـانِ!
١٥ إن أنتَ راجَعْتَـنِى فيما كَتَبْتُ به * لأجعلَنَّك لحمًـا بين عِقْبانِ!
طَلِّقْ سُـعادَ، وجَهِّزْها معجِّـلةً * مع الكُمَيْتِ، ومعْ نَصْر بن ذبيان!
فما سمعتُ كما بُلِّغتُ من عَجَبٍ * ولا فِعالُك حقًّا فعْل إنْسانِ!

ثم طوى الكتاب ودفعه إلى الكميت ونصر بن ذبيان وقال : اذهبا به إليه !

قال : فلما ورد كتاب معاوية على ابن الحكم وقرأه تنفس الصُّعَداء، وقال : وَدِدْتُ

٢٠ أن أمير المؤمنين خلّى بينى وبينها سنة ثم عرضنى على السيف ! وجعل يؤامر نفسه

فى طلاقها فلا يقـدر . فلما أزعجه الوفد طلقها وأسلمها إليهما . فلما رآها الوفد على هذه الصورة العظيمة وما آشتملت عليه من الجمال المفرط ، قالوا : لا تصلح هـذه إلا لأمير المؤمنين ! وكتب آبن الحكم كتابا لأمير المؤمنين معاوية ، ودفعه إليهما مع الجارية . فكان ممـا كتب فيه يقول :

لا تحنَثَنَّ أميرَ المؤمنينَ فقَـدْ * أُوفِى بعَهْدك فى رفْق وإحسانِ ٥

وما رَكِبتُ حرامًا حينَ أعْجَبَنِى ، * فكيفَ سُمِّيتُ باسمِ الخائنِ الزانِى؟

أعذر فانك لو أبصـرتها لجرَتْ * منك الأمانى على تمثـال إنسانِ!

وسوف تَأْتِيكَ شمسٌ ليس يعْدلها * عند البَرِيَّة من إنس ومن جانِ!

حَوْراءُ يقصُر عنها الوصفُ إن وُصِفتْ ، * أقـولُ ذلك فى سِرٍّ وإعلانِ!

فلما ورد الكتاب على معاوية وقرأه ، قال : لقد أحسن فى الطاعة ، ولكن أطنب ١٠ فى ذكر الجارية ! ولئن كانت أعطيت حسن النَّغْمة مع هذا الوصف الحسن فهى أكمل البرية ! فأمر بإحضارها ، فلما مثلتْ بين يديه ، آستنطقها فإذا هى أحسن الناس كلاما وأكملُهم شَكْلا ودَلَالا . فقال : يا أعرابىّ ، هذه سعدى ! ولكن هل لك عنها من سَلْوة بأفضل الرغبة ؟ قال نعم ، إذا فرَّقت بين رأسى وجسدى ! فقال : أعوّضك عنها يا أعرابىّ ثلاث جوارٍ أبكار ومع كل واحدة ألف دينار وأقسم لك من بيت ١٥ المـال ما يكفيك فى كل سـنة ويعينك على صحبتهنّ . فشهق شهقة ظن معاويةُ أنه مات . فقال له : ما بالك يا أعرابى؟ قال : أشرّ بال وأسوأ حال ، استجرت بعدلك من جور آبن الحكم ، فعند من أستجير من جورك ؟ ثم أنشأ يقول :

لا تجْعلَنِّى والأمثـالُ تُضْـرَبُ بِى * كالمُستغيث من الرَّمْضاء بالنـارِ!

أُرْدُدْ سُـعادَ على حَيْرانَ مكتئبٍ * يُمسى ويُصْـبِح فى هَمٍّ وتَذْكارِ! ٢٠

قــد شَــفَّه قلقٌ مامثــلُه قَلَقٌ * وأُسْــعِر القلبُ منه أىّ إســعار !

كَيْفَ السُّــلُوُّ، وقد هام الفؤاد بها * وأصــبَحَ القلبُ عنها غيرَ صَبَّارِ ؟

قال : فغضب معاوية غضبا شديدا، ثم قال : يا أعرابىّ، أنت مقرٌّ بأنك طلقتها ! (٦٦)

ومَرْوان مقرٌّ بأنه طلقها، ونحن نخيرها فان اختارتك أعدناها إليك بعَقْد جديد، وإن

٥ اختارت سواك زوّجناه بها. ثم التفت إليها أمير المؤمنين وقال : ما تقولين، ياسُعْدى ؟

أيما أحبُّ إليك، أمير المؤمنين فى عزه وشرفه وسلطانه وما تصيرين إليه عنده،

أومروانُ بن الحكم فى عَسْفه وجَوْره، أو هذا الأعرابى فى فقره وسُوء حاله ؟

فأنشأت تقول :

هذا، وإنْ كانَ فى فَقْرٍ وإضرارِ، * أعَزُّ عندِىَ مِن قَوْمى ومِن جارى ! (١)

١٠ وصاحبِ التَّــاجِ أو مَرْوانَ عامِلِهِ * وكُلِّ ذى دِرْهمٍ عِنْــدى ودينــارِ !

ثم قالت : والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان ولا لغَدَرات الأيام !

وإن لى معه صحبة لا تُنْسى ومحبة لا تَبلى ! والله إنى لأحق مَنْ صبر معه فى الضراء

كما تنعَّمت معه فى السرَّاء ! فعجب كلُّ من كان حاضرا. فأمر له بها ثم أعادها له بعقد

جديد، وأمر لها بألف دينار . فأخذها وانصرف يقول :

١٥ خَلُّوا عن الطَّريق للأعْرابى ! * ألم تَرِقُّوا ، وَيْحَكُمْ ممَّا بِى ؟

[قال : فضحك معاوية وأمر بها فأدخلت فى قصوره حتى انقضت عدّتها من (٢)

ابن الحكم ثم أمر بدفعها الى الأعرابى] .

---

(١) روى هذا الشعر فى نسخة أخرى على وجه آخر وهو :

هــذا وإن أصبح فى أطمار * وكان فى نقص من اليسار

٢٠ أكثر عندى من أبى وجارى * وصاحب الدرهم والدينار

* أخشى إذا غدرت حرّ النار *

(٢) وجدت هذه الزيادة فى بعض النسخ .

ولقد ساق ابن الجوزى فى كتابه من أخبار العشاق وما نالهم من الأمراض والجنون والضنا، وقصّ كثيرا من أخبارهم، تركنا إيراد ذلك رغبةً فى الاختصار، لأنه أمر غير منكور .

*

وأما من خاطر بنفسه وألقاها إلى الهلاك لأجل محبوبه، فمن ذلك ما روى عن أبى ريحانة أحد حجاب عبد الملك بن مروان أنه قال : كان عبد الملك يجلس يومين فى الأسبوع جلوسا عامًّا للناس: فبينا هو جالس فى مُستَشْرَفٍ له وقد ادخلت عليه القصص، إذ وقعت فى يده قِصّة غير مترجمة . فيها :

«إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة تغنينى ثلاثة أصوات ثم ينفذ فىّ ماشاء من حكمه، فعل! » .

فاستشاط من ذلك غضبا وغيظا، وقال : يارباح! علىّ بصاحب هذه القصة! فخرج الناس جميعا فأدخل عليه غلام كما عذّر، من أحسن الفتيان، فقال له عبد الملك : يا غلام، هذه قصتك؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، قال : وما الذى غرّكَ منّى؟ والله لأمثلَنّ بك ولأردعنّ بك نظراءك من أهل الجسارة ! ثم قال : علىّ بالجارية فجىء بها كأنها فِلقة قمر! وبيدها عودها ووضع لها كرسىّ، فجلستْ، فقال عبد الملك : مرها يا غلام! فقال لها : يا جارية، غنينى بشعر قيس بن ذَرِيح :

لقد كنتِ حَسْبَ النفس، لودام ودنا، * ولكنما الدنيا متاع غُـرور!

وكنّا جميعًا قبل أن يَظْهرَ الهوى * بأنعمِ حالَىْ غبطةٍ وسُرورِ.

فما بَرِحَ الواشُونَ حتّى بدَتْ لنا * بُطونُ الهوى مقلوبةً لظُهورِ.

فغنّت . فخرج الغلام من جميع ما كان عليه من الثياب تخريقا ، ثم قال له عبد الملك : مرها تغنك الصوت الثانى! فقال : غنينى بشعر جميل :

ألا ليْتَ شِعْرِى ! هل أَبِيتَنَّ ليلةً * بوادى القُرى؟ إنى إذًا لَسَعِيدُ!
إذا قلتُ : ما بِى يابُثَينةُ قاتِلِى * من الحُبِّ! قالت: ثابتٌ ويَزِيدُ!
وإن قلتُ : رُدِّى بعضَ عقْلِى أعِشْ بِه * مع الناس! قالتْ : ذَاكَ منكَ بَعِيدُ! ٥
فلا أنا مرْدُودٌ بما جئتُ طالِبًا، * ولا حُبُّها فيما يَبِيدُ يَبِيدُ!
يموتُ الهوى منّى إذا ما لقِيتُها، * ويَحْيا إذا فارقْتُها فيعُودُ!

فغنته الجارية . فسقط الغلام مغشيًّا عليه ساعة . ثم أفاق، فقال له عبد الملك : مرها فلتغنك الصوت الثالث! فقال ياجارية! غنينى بشعر قيس بن الملوح :

وفى الجِيرةِ الغادِينَ من بَطْنِ وَجْرةٍ * غزالٌ غَضِيضُ المُقْلتَيْنِ رَبِيبُ. ١٠
فلا تحسَبِى أن الغَرِيبَ الذى نَأى، * ولكنَّ من تَنْأيْنَ عنه غَرِيبُ!

فغنته الجارية فطرح نفسه من المستشرَف، فتقطع قبل وصوله إلى الأرض . فقال عبد الملك : ويحه! لقد عجّل على نفسه! ولقد كان تقديرى فيه غيرَ الذى فعل! وأمر بإخراج الجارية عن قصره، فأُخرجت . ثم سأل عن الغلام فقالوا : غريب، لا يعرف إلا أنه منذ ثلاث ينادى فى الأسواق، ويده على رأسه : ١٥

غَدًا يكثُر الباكُونَ منا ومِنكُمُ، * وتَزْدادُ دارِى مِنْ دِيارِكُمْ بُعْدًا! (٥٧)

وحكى أن مثل هذه الحكاية جرت فى مجلس سليمان بن عبد الملك .

حكى عن أبى عثمان الجاحظ أنه قال : قعد سليمان بن عبد الملك يوما للَظَالم وعُرِضتْ عليه القِصَص فمرّت به قصة فيها : إنْ رأى امير المؤمنين أن يُخرج إلىَّ فلانة

(إحدى جواريه) حتى تغنيني ثلاثة أصوات، فعل . فآغتاظ سليمان وأمر أن يؤتى برأسه . ثم أتبع الرسول برسول آخر فأمره أن يدخل الرجل إليه . فلما مثل بين يديه، قال له : ما الذى حملك على ما صنعت؟ فقال : الثقة بحلمك، والاتكال على عفوك ! فأمره بالجلوس فجلس حتى لم يبق من بنى أمية أحد . ثم أمر بإخراج الجارية فأخرجت ومعها عود، ثم قال : آختر! فقال : تغنى لى بقول قيس بن الملوح : ٥

تعلّق روحى روحها قبل خلقنا * ومن بعد أن كنّا نطافًا وفى المهد!
فعاش كما عشنا فأصبح ناميًا * وليس وإن متنا بمنتقص العهد.
يكاد فضيض الماء يخدش جلدها * اذا آغتسلت بالماء من رقّة الجلد.
وإنّى لمشتاق إلى ريح جيبها * كما آشتاق إدريس إلى جنّة الخلد! ١٠

فغنت . ثم قال : تأمر لى برطل . فأمر له به فشربه . ثم قال : تغنى بقول جميل :

علقت الهوى منها وليدًا فلم يزل * إلى اليوم ينمى حبّها ويزيد.
وأفنيت عمرى فى آنتظار نوالها * وأبليت فيها الدهر وهو جديد.
فلا أنا مردود بما جئت طالبًا * ولا حبّها فيما يبيد يبيد.
إذا قلت : ما بى يا بثينة قاتلى * من الحبّ! قالت : ثابت ويزيد. ١٥
وإن قلت : ردّى بعض عقلى أعش به * مع الناس ! قالت : ذاك منك بعيد.

فغنت، فقال له سليمان : قل ما تريد؟ قال : تأمر لى برطل، فأمر له به فشربه . ثم قال : تغنى بقول قيس بن ذريح :

"لقد كنت حسب النفس" الأبيات

فغنت . فقال له سليمان : قل ما تشاء ! قالَ : تأمر لى برطل ! فأمر له به ، فما ٱستتمه حتّى وثب فصعد إلى أعلى قبة ثم زَجَّ نفسه على دماغه فمات . فاسترجع سليمان وقال : أتُراه توهَّم الجاهلُ أنى أخرج إليــه جاريتى وأردّها إلى ملكى؟ ياغلام خذ بيدها فٱنطلق بها إلى أهله إن كان له أهل، و إلا فبيعوها وتصدّقوا بثمنها عنه . فلما ٱنطلقوا بها، نظرتْ إلى حفرة فى الدار قد أُعِدَّت للمطر، فجذبت يَدَها من أيديهم وأنشأت تقول :

مَنْ ماتَ عِشْقا فليمُتْ هكذا! * لاخَـــيْرَ فى عشْق بلا مَوْتِ!

وزجت نفسها فى الحفرة على دماغها . فماتت .

وقد حكى أيضا مثل هذه، وأنها وقعت للرشيد .

روى عن أبى بكر محمد بن علىّ المخزومىّ قال : ٱشتريتُ للرشيد جارية مدنية . فأُعْجِبَ بها وأمر الفضلَ بن الربيع أن يبعث فى حَمْل أهلها ومواليها لينصرِفُوا بجوائزها . وأراد بذلك تشريفها . فوفد إلى مدينة السلام ثمانون رجلا، ووفد معهم رجل من أهل العراق ٱستوطن المدينة كان يهوى الجاريةَ . فلما بلغ الرشيدَ خبرُ مَقْدَمِهم أمر الفضلَ أن يخرج إليهم ليكتب ٱسمَ كل واحد منهـم وحاجتَه، ففعل . فلما بلغ إلى العراقىّ قال : ماحاجتك؟ قال له : إن أنت كتبتَهَا وضمنت لى عَرْضَها مع مايُعرَض، أنبأتك بها . فقال : أفعلُ ذلك . فقال : حاجتى أن أجلس مع فلانة حتّى تغنّينى ثلاثة أصوات وأشربَ ثلاثةَ أرطال، وأخبرها بما تُجِنّ ضُلوعى من حبها ! فقال الفضل : أنت مُوَسْوَس مدخُول عليك فى عقلك ! فقال : ياهذا، قد أُمِرتَ أن تكتب ما يقول كلُّ واحد منا فٱكتب ما أقول وٱعرضه، فإن أُجبت إليــه و إلا فأنت فى أوسع العذر، فدخل الفضل مغضَبا فوقف بين يدى الرشيد، وقرأ عليه ما كتب من حوائجهم . فلما فرغ

قال : يا أمير المؤمنين فيهم واحد مجنون! سأل ما أُجِلّ مجلس أمير المؤمنين عن التفوّه به .
فقال : قل، ولا تجزَعنّ! فقال : قال كذا وكذا . فقال : آخرج إليه، وقل له «إذا كان
بعد ثلاث، فآحضُرْ ليُنجزَ لك ماسألت» . وكن أنت متولِّيَ الآستئذان له . ثم دعا بخادم
فقال له : آمض إلى فلانة فقل لها : حَضَر رجل يذكر كذا وكذا وقد أجبناه إلى ماسأل
فكُونِي على أُهْبة . وخرج الفضل إلى الرجل وأخبره بما قال الرشيد، فانصرف وجاء ٥
في اليوم الثالث . فعرّف الفضل الرشيد خبره فقال : يُوضَع له بحيث أرى كرسيّ
من فضة، وللجارية كرسيّ من ذهب! وليُخرَج إليه ثلاثة أرطال! ففعلوا ذلك وجاء
الفتى فجلس على الكرسيّ، والجارية بإزائه، فجعل يحدّثها والرشيد يراهما، فقال له
الخادم : لم تُدْخَل فتشتُو وتُصَيِّف! فأخذ رطلا وخرّ ساجدا، وقال : إن شئت
أن تغنِّي فغنِّي : ١٠

خَليلَيَّ عُوجَا! باركَ اللهُ فيكما * وإن لم تكُنْ هندٌ بأرضكما قصْدا!
وقُولَا لها : ليس الضلالُ أجازَنَا، * ولكنَّما جُزْنا لنَلْقاكُما عَمْدا!
غَدًا يَكْثُر الباكُون منا ومنكُمُ، * وتَزْدادُ داري من دِيَارِكُمُ بُعْدا!

فغنت، فشرب الرطل، وحادثها ساعة . فآستحثه الخادم فأخذ الرطلَ بيده وقال :
غني جعلني الله فداءك! ١٥

تَكَلَّمُ منّا في الوُجوه عُيونُنا، * فنحنُ سُكوتٌ والهوى يتَكَلَّمُ!
ونغْضَبُ أحيانًا ونَرضى بطَرْفنا، * وذلكَ فيما بيْنَنا ليس يُعْلَمُ!

فغنته وشرب الرطل الثاني وحادثها ساعة . وآستعجله الخادم فخرّ ساجدا يبكى
واخذ الرطل بيده وآستودعها الله وقام ودموعه تستبق آستباق المطر وقال : إذا شئت
أن تغنِّي فغنِّي . ٢٠

أحسَـــنَ ما كُنّا تفرّقْنَـا ** وخانَنا الدّهْرُ وما خُنّا!

فليتَ ذا الدّهرَ لنا مَرّةً ** عادَ لنَـا الدّهرُ كما كنّا!

ففتنه الصوتُ، فقلَّب الفتى طرفه فبَصُر بدرجة فى الصحن، فأمها. فاتبعه الخدم لِيَهْدُوه الطريقَ، ففاتهم وصعد الدرجة فألقى نفسه إلى الأرض على رأسه فمات. فقال الرشيد: عجَّل الفتى! ولو لم يعجّل لوهبتُها له!

* * *

وممن خاطر بنفسه فى هواه وعرَّضها للتلف فنجا ونال خيرا، ما حكاه ابن الجوزى بسـند يرفعه إلى أبى الفرج أحمـد بن عثمان بن إبراهيم الفقيـه المعروف بابن الترسى قال: كنت جالسا بحضرة أبى، وأنا حَدَث، وعنده جماعة. فحدّثنى حديث وصول النعم إلى الناس بالألوان الظريفة. وكان ممن حضر صـديق لأبى. فسمعته يحدّث أبى، قال: حضرت عند صديق لى من التُّجّار — كان يُتْجِر بمائة ألف دينار — فى دعوة. وكان حسن المُروءة، فقدّم مائدة وقدّم عليها ديكريكة[1] فلم يأكل

(١) فى الباب الثانى الخاص بالحوامض من كتاب "صفة الأطعمة" الموجود منه نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية مانصه:

«ديكبر بكة. يقطّع اللحم أوساطا و يترك فى القدر ويلق عليه يسير ملح وكف حمص مقشور وكسفرة يابسة و رطبة و بصل مقطع وكراث و يطرح عليــه غمرة ماء و يغلى ثم تؤخذ رغوته و يلق عليه شيرج يسير وخل خمر ومرى و يلق عليه قليل فلفل مسحوق ناعم و يطبخ حتى يتبين طعمه. ومن الناس من يحليها بقليل سكر فاذا نضجت طرح فيها أطراف الطيب مع فلفل وكزبرة يابسة وتترك حتى تهدأ وترفع» انتهى.

والظاهر أن صواب اللفظ (ديكبرديكة) ثم اختصر أو حرف الى ديكبر يكة وديكريكة لأن الذى فى المعاجم الفارسية (ديك برديك) فمعنى (ديك) القدر و (بر) فوق وعلى، فيكون المراد قدر فوق قدر. وتقول هذه المعاجم إن هذا النوع المزدوج يستعمل لأعمال التصعيد والتقطير. ولا يبعد أن يكون هذا الطعام مما يعالج فى طبخه بالبخار أى بوضع قدره على قدر أخرى فيها ماء يغلى على النار فسمى الطعام باسم وعائه اهـ.

أفادنيه حضرة صاحب السعادة العلامة أحمد تيمور باشا.

منها . فامتنعنا . فقال : كلوا ! فإنى أتأذّى بأكل هذا اللون . فقلنا : نساعدُك على تركه .
قال : بل أساعدكم على الأكل ، وأحتمل الأذى ! فأكل وأكلنا ، فلما أراد غسل
يده أطال . فعددت عليه أنه قد غسلها أربعين مرة . فقلت : ياهذا ، وسوستَ !
فقال : هذه الأذية التى قرفت منها ! فقلت : وما سببها ؟ فامتنع من ذكر السبب ، فلما
ألححتُ عليه ، قال : مات أبى وسنى عشرون سنة ، وخلّف لى نعمة وفيرة ورأس ٥
مال ومتاعا فى دكانه . فقال لما حضرته الوفاة : يابُنىّ ! إنه لا وارثَ لى غيرك ، ولا دَيْن
علىّ ولا مَظْلمةَ ، فإذا أنا مِتُّ فأحسِنْ جهازى وتصدّق عنى بكذا وكذا . وأخرج عنى
حَجّة بكذا ، و بارك الله لك فى الباقى ! ولكن آحفظ وصيتى ! فقلت : قُلْ ! قال : لا تسرف
فى مالك ، فتحتاجَ إلى ما فى أيدى الناس فلا تجده . وآعلم أن القليل مع الإصلاح كثير ،
والكثير مع الفساد قليل . فآلزم السُّوقَ وكن أوّل من يدخلها ، وآخرَ من يخرج منها . ١٠
وإن آستطعت أن تدخلها سَحَرا بليل فافعل ، فإنك تستفيد بذلك فوائد تكشفها لك
الأيام ، ومات . فأنفذتُ وصيته ، وعملتُ بما أشار به . وكنت أدخُل السوق سَحَرا ،
وأخرج منها عِشاء . فلا أعدَمُ مَن يجىء يطلب كفنا فلا يجد من قد فتح غيرى فأحتكم
عليه ، ومَن يبيع شيئا والسوق لم تقم فأبتاع منه ، وأشياء من هذه الفوائد . ومضى علىّ
سنة وكسر ، فصار لى بذلك جاه عند أهل السوق وعرفوا آستقامتى وأكرمونى . ١٥
فبينا أنا جالس يوما ولم تتكامل السوق ، وإذا بامرأة راكبة حمارا مصريا وعلى كفله
منديل دبيقىّ [1] ومعها خادم وهى بزىّ القهارمة . فبلغت آخر السوق ثم رجعت ، فنزلت
عندى . فقمت إليها وأكرمتها ، وقلت : ما تأمرين ؟ وتأملتها فإذا بآمرأة لم أر قبلها

(١) دبيق (بالباء الموحدة ثم الياء) مدينة كانت بالقرب من دمياط وكانت مشهورة بنفائس المنسوجات
التى تعرف بآسمها . ٢٠

ولا بعدها إلى الآن أحسن منها فى كل شىء . فتكلمتْ وقالت : أريد كذا وكذا (ثيابا طلبَتْها) . فسمعت نَغْمة ورأيت شكلا قتلنى فعشِقْتها فى الحال أشدّ عشق، وقلت: آصبرى حتى يخرج الناس، فآخذ ذلك لك فليس عندى إلا القليل مما يصلح لك . وأنجرجت الذى عنـدى وجلستْ تحادثنى، وكأن السكاكين فى فؤادى من عشقها، وكشفت عن أنامل رأيتها كالطَّلْع، ووجه كدارة القمر. فقمتُ لئلا يزيد علىّ الأمر، وأخذتُ لها من السوق ما أرادتْ، وكان ثمنـه مع مالى نحو خمسمائة دينار، فأخذتْهُ وركبتْ ولم تعطنى شيئا . وذهب عنى لمـا تداخلنى من حبها أن أمنعها من المتاع إلا بالمال، وأن أستدل على منزلها ومن دار مَن هى؟ فحين غابت عنى، وقع لى أنها محتالة وأن ذلك سبب فقرى ، فتحيرتُ فى أمرى وكتمتُ خبرى، لئلا أفتضح بما للناس علىّ . وأجمعتُ على بيع ما فى يدى من المتاع وإضافته إلى ما عندى من الدراهم وأدفع أموال الناس إليهم ولزوم البيت والاقتصار على غلة العقار الذى ورِثْتُه . وأخذتُ أشرع فى ذلك مدة أسـبوع، وإذا بها قد أقبلتْ ونزلتْ عندى، فحين رأيتُها أُنسيتُ جميع ماجرى علىّ، وقمت إليها . فقالت : يافتى، تأخرنا عنك لشُغُل عرض لنا، وماشككنا فى أنك لم تشك أنا آحتلنا عليك، فقلت : قد رفع الله قدرَكِ عن هذا ! فقالت، هاتِ التخت والطيار[1]، فأحضرته، فأخرجت دنانير عُتْقا، فوفتنى المـال بأسره . وأخرجت تذكرة بأشياء أُخَر. فأنفذتُ إلى التجّار أموالهم وطلبتُ منهم الذى أرادت، وحصّلتُ أنا

---

(١) فى شرح المقامات الحريرية للطرزى المسمى بالايضاح فى تفسير قول الحريرى فى المقامة الثانية والأربعين « ثم اعتضد عصا التّسيار وأنشد ملغزا فى الطيار .

وذى طيشة شقه مائل ⁂ وما عابه بهما عاقل »

ما نصه : « الطيار معيار الذهب لأنه على شكل الطائر وقيل هو ميزان لا لسان له » . أفادنيه حضرة صاحب السعادة العلامة أحمد تيمور باشا .

فى الوسط ربحا جيدا . وأحضر التُّجّار الثياب فقمتُ وثمنتها معهم لنفسى . ثم بعتها عليها
بربح عظيم ، وأنا فى خلال ذلك أنظر إليها نظر من تألّف حبها ، وهى تنظر إلىّ نظر مَن
فَطِنَتْ بذلك ولم تنكره . فهمَمْت بخطابها ولم أقدر عليه . وجمعت المتاع فكان ثمنه
ألف دينار . فأخذتْهُ ، وركبت ولم أسألها عن موضعها . فلما غابت عنى ، قلتُ : هذه الآن
الحيلة المحكَمَة ! أعطتنى خمسمائة دينار وأخذت ألف دينار ، وليس إلا بيعُ عقارى ٥
الآن ، والحصولُ على الفقر ! وتطاولت غيبتها عنى نحو شهر . وألحّ التجّار علىّ
بالمطالبة ، فعرضتُ عقارى على البيع ، ولازمنى بعضُ التجّار فوزنت جميع ما كنت
أملكه وَرِقا وعَيْنا . فبينا أنا كذلك ، إذ نزلت عندى ، فزال عنى جميعُ ما كنت فيه
برؤيتها . وآستدعت الطيّار والتخت ، فوزنت المال ورمت إلىّ تذكرة يزيد ما فيها
على ألفى دينار بكثير . فتشاغلتُ بإحضار التجّار ودفع أموالهم إليهم وأخْذِ المتاع ١٠
منهم ، وطال الحديث بيننا . فقالت لى : يافتى ، ألك زوجةٌ ؟ فقلت : لا ، والله
ما عرفت آمرأة قط ، وأطمعنى ذلك فيها ، وقلت : هذا وقت خطابها ، والإمساكُ
عنها عجزٌ ، ولعلها تعود أو لا تعود . وأردت كلامها فهِبْتُها . وقمتُ كأنى أحُثُّ التجار
على جمع المتاع . وأخذتُ يد الخادم وأخرجتُ إليه دنانير وسألته أن يأخذها ويقضى
لى حاجة . فقال : أفعل ، فقصصتُ عليه قصتى وسألتُهُ توسط الأمر بينى وبينها . ١٥
فضحك وقال : والله إنها لك أعشق منك لها ! ووالله ما بها حاجة إلى أكثر هذا
الذى تشتريه ، وإنما تأتيك محبةً لك وطريقا إلى مطاولتك ، فخاطِبها ودعنى ، فخسّرنى
على خطابها فخاطبتها وكشفت لها عشقى ومحبتى وبكَيْت ، فضحكتْ . وتقبلت ذلك
أحسن قبول . وقالت : الخادم يأتيك برسالتى . ونهضَتْ ولم تأخذ شيئا من
المتاع ، فرددتُه على أصحابه . وحصل لى مما آشترته أوّلا وثانيا ألوفُ دراهم ربحًا ، ٢٠

ولم أعرف النوم فى تلك الليلة شوقا إليها، وخوفا من ٱنقطاع السبب بيننا. فلما كان بعد أيام جاءنى الخادم، فأكرمتُه وسألتُه عن خبرها، فقال: هى والله عليلة من شوقها إليك، فقلت: ٱشرحْ لى أمرها، فقال: هذه مملوكة السيدة أم المقتدر وهى من أخص جواريها، وٱشتهت رؤيةَ الناس والدخول والخروج. فتوصلتُ حتَّى جعلتها قَهْرَمَانة. وقد والله حدّثت السيدةَ بحديثك وبكت بين يديها وسألتها أن تزوجها منكَ، فقالت السيدة: لا أفعل أو أرى هذا الرجل. فإن كان يستأهلك وإلا لم أدَعْك ورأيَك. وتحتاج أن تحتال فى إدخالك الدار بحيلة، فإن تمت وصلت بها إلى تزويجك بها، وإن ٱنكشفت ضرب عنقك. وقد أنفذتنى إليك فى هذه الرسالة، وقالت لك: إن صبرتَ على هذا، وإلا فلا طريق لك والله إلىّ، ولا لى إليك بعدها! فحملنى ما فى نفسى أن قلت: أصبِرُ، فقال: إذا كانت الليلة فاعبر إلى المحرم، وٱدخل إلى المسجد، وبت فيه. ففعلت ذلك. فلما كان وقت السَّحَر، إذا بطيار(1) قد قدم، وخدم قد رفعوا صناديق فراغا. فجعلوها فى المسجد وٱنصرفوا. وخرجت الجارية فصَعدت إلى المسجد، والخادمُ معها. فجلستُ وفرقتْ باقى الخدم فى حوائج، وٱستدعَتْنى فعانَقَتْنى وقبلَتْنى. ولم أكن نِلْتُ ذلك منها قبله. ثم أجلستنى فى بعض الصناديق وأقفلته. وطلعت الشمس وجاء الخدم بثياب وحوائج من المواضع التى كانت أنفذتهم إليها، فجعلت ذلك بحضرتهم فى باقى الصناديق، وأقفلتها. وحُملت إلى الطيار وٱنحدر. فلما حصلت فيه ندمت وقلتُ: قتلت نفسى لشهوة، وأقبلت ألُومها تارةً، وأشجِّعها وأمَنِّيها أخرى، وأنذر النُّذور على خلاصى، وأوطِّن مرة نفسى على القتل إلى أن بلغنا الدار. وحمل الخَدَم الصناديقَ، وحمل صندوقى

(1) أى زورق من الزوارق الخفيفة.

الخـادم الذى يعرف الحديث ، وبادر به أمام الصناديق وهى معى ، والخدم يحملون بقيتها . وكلما جازت بطائفة من الخدم والبوّابين، قالوا : نريد أن نفتّش الصندوق، فتصيح عليهم وتقول: متى جرى الرسم معى بهذا؟ فيمسكون عنها ورُوحى فى السِّياق إلى أن آنتهينا إلى خادم خاطبته هى بالأُستـاذ . فعلمت أنه أجل الخَدَم. فقال : لابدّ من فتح الصـندوق الذى معك ، فخاطبته بلين وذل، فلم يجبها . وعلمتُ أنها ماذَلّت ولها حيلة، فأغمى علىّ. وأنزلوا الصُّندوق ليفتحوه . فبُلْت من شدّة ما نالنى من الفَزَع، فجرى البول من خلال الصندوق . فصاحتْ: يا أستاذ، أهلكتَ علينا متاعا بخمسة آلاف دينار فى الصـندوق ، ثيابٌ مصبَّغات وماء ورد، وقد آنقلب على الثياب ، والساعةَ تختلط ألوانها ، وهى هلاكى مع السيدة! فقال لها : خذى صندوقك إلى لعنة الله أنت وهو، مُرِّى ! فصاحت بالخدم : آحملوا، فأُدخلتُ الدار ورجعتْ إلىّ روحى . فبينا نحن كذلك إذ قالت : واويلاه ! الخليفة والله! فجاءنى أعظم من الأول . وسمعت كلام خدم وهو يقول من بينهم : ويلك يا فلانة! إيش فى صندوقك؟ أرينى هو ، فقالت : ثياب لستى يا مولاى، والساعة أفتحه بين يديها ، وتراه . وقالت للخدم : أسرِعُوا ويلكم ! فأسرعوا فأدخلتنى إلى الحجرة وفتحت الصندوق وقالت : آصعد من هذه الدرجة إلى الغُرْفة فاجلس فيها ، وفتحت صندوقا آخر فقلبت بعض ما فيه إلى الصندوق الذى كنت فيـه، وأقفلت الجميعَ . وجاء المقتدرُ وقال : آفتحيه، ففتحته، فلم ير شيئا فيه . فصـعِدتْ إلىّ وجعلت تقبلنى وترشُفُنى . ونسيتُ ماجرى. ثم تركتنى، وأقفلَتْ باب الحجرة يومها . ثم جاءتنى ليلا فأطعمتنى وسقتنى وآنصرفَتْ . فلما كان من غد جاءتنى ، فقالت : السـيدة الساعةَ تجىء ، فانظر كيف تخاطبها . ثم عادت بعد ساعة مع السـيدة ،

وقالت : آنزل، فنزلت . فإذا بالسيدة جالسة على كرسيّ وليس معها إلا وَصيفتان وصاحبتي . فقبَّلْتُ الأرض وقمتُ بين يديها، فقالت : آجلس، فقلت : أنا عبد السيدة وخادمُها ، وليس من محلي أن أجلس بحضرتها ، فتأملتْني وقالت : ما آخترت يافلانة إلا حسن الوجه والأدبِ، ونهضت، فجاءتني صاحبتي بعد ساعة، وقالت : أبشر، فقد أذِنَتْ لى فى تزويجك،وما بقي الآن عقبة إلا الخروج. فقلت : يسلم الله ! فلما كان من غَدٍ حملتنى فى الصندوق . فخرجتُ كما دخلتُ بعد مخاطرة أُخرى وفزع ثان . ونزلت فى المسجد ورجعت إلى منزلى، فتصدقت، وحمدت الله تعالى على السلامة . فلما كان بعد أيام جاءنى الخادم ومعه كيس وفيه ثلاثة آلاف دينار عينا وقال : أمرتنى ستى بإنفاذ هذا إليك من مالها . وقالت : اشتر به ثيابا ومركوبا وخدما، وأصلح به ظاهرك، وآحضر يوم الموكب إلى باب العامّة ، وقف حتّى تُطلَب . فقد وافق الخليفة أن يزوجك بحضرته . فأخذتُ المال وأجبتُ عن رُقْعة كانت معه، وآشتريت ما قالوه بشيء يسير منه وبقي الأكثر عندى . وركبتُ إلى باب العامة فى يوم الموكب بِزِيّ حسن . وجاء الناس فدخلوا إلى الخليفة، ووقفتُ إلى أن آستُدْعيتُ ودخلتُ . فإذا أنا بالمقتدر جالسا والقضاة والقوّاد وغيرهم من الهاشميين . فهِبْتُ المجلس وعُلِّمت كيف أُسَلِّم . ففعلت . وتقدّم المقتدر إلى بعض القضاة الحاضرين فخطب لى وزوّجنى . وخرجت من حضرته . فلما آنتهيت إلى بعض الدهاليز، عُدِل بى إلى دار عظيمة مفروشة بأنواع الفُرُش الفاخرة وفيها من الآلات والخدم والقماش مالم أر مثله قطُّ . وآنصرف من أدخلنى . فجلستُ يومى لا أقوم إلا إلى الصلاة . وخدمٌ يدخلون وخدم يخرجون، وطعام عظيم ينقل وهم يقولون : الليلة تُزَفّ فلانة بآسم صاحبتى إلى زوجها البزّاز،

وأنا لا أصدّق فرحا . فلما جاء الليل أثّـر فىّ الجوع وأُقفلتِ الأبوابُ ، و يئستُ من الجـارية ، فقمت أطوف الدار فوقعت على المَطْبَخ . ووجدت الطبـاخين جُلُوسا فاستطعمتهم فلم يعرِفُونى وقدّرونى بعض الوكلاء . فقدّموا إلىّ هـذا اللون مع رغيفين فأكلتهما وغسلت يدى بأشنان كان فى المطبخ وقدّرت أنها قد نقيت ، وعدت إلى مكانى . فلمـا جنّ الليل إذا طبول وزمور وأصـوات عظيمة ، وإذا أنا بالأبواب قد فُتّحت وصاحبتى قد أُهْدِيت إلىّ وجاءوا بها فجلوها علىّ ، وأنا أقدّر أن ذلك فى النوم . ثم تُرِكتْ معى فى المجلس . وتفرّق ذلك البَوْش . فلما خلونا ، تقدّمْتُ إليها فقبلتها وقبلتنى . فلما شَمَّت رائحة لحيتى ، رفَسَتْنى فرمت بى عن المِنَصّة وقالت : أنكرتُ والله أن تُفْلِح ياعامّى ، ياسَفِلة ، وقامت لتخرج ، فقمت وعَلِقت بهـا وقبلتُ الأرض ورجلَيْها ، وقلت : عرفينى ذنبى وٱعملى بعـده ما شئت ، فقالت : ويحك ، أكلت ولم تغسِلْ يدك ! فقصصت عليها قصتى ، فلمـا بلغت إلى آخرها قلتُ : علىّ وعلىّ — وحلفتُ بطلاقها وطلاق كل ٱمرأة أتزوّجها وصدقة مالى وجميع ما أملكه والحجِّ ماشيا على قدمىّ وكلِّ مايحلف به المسلمون — لا أكلتُ بعدها ديكبريكة إلا غسلتُ يدى أربعين مرة . فٱستحيتْ وتبسمتْ وصاحت : ياجوارى ! فجـاء مقدار عشر جوار ووصائف ، فقـالت : هاتوا شيئا نأكل ، فقُدِّمتْ ألوان ظريفـة وطعام مِن أطعمة الخلفاء . فأكلنا وغسلنا أيدينـا . وٱسـتدعت شرابا فشربْنا وغنَّى أولئك الوصائفُ أطيبَ غنـاء وأحسنَه ، ثم قمنـا إلى الفراش فخلوتُ بها وبتُّ بأطيب ليلة ، ولم نفترق أسبوعا . وكانت يوم الأسبوع وليمةٌ عظيمة اجتمع فيه الجوارى . فلما كان من الغد ، قالت لى : إن دار الخلافة لاتحتمل المُقامَ فيها أكثر من هذا مع جارية غيرى ، لمحبة سيدتى لى . وجميع ما تراه

فهو هبة من السيدة لى . وقد أعطتنى خمسين ألف دينار من عين وورق وجوهر .
ولى ذخائر فى خارج القصر كثيرةٌ من كل لون . وجميعها لك ، فاخرج إلى منزلك ، (٦٦)
وخذ معك مالا وآشتر دارا سَرِيَّةً واسعةَ الصحن ، فيها بستان ، كثيرةَ الحُجَر .
وتحوّل إليها ، وعرفنى لأنقل إليها هذا كله ، ثم آتيك ، وسلمت إلىّ عشرة آلاف
٥ دينار عينا . فخرجت وآبتعتُ الدار وكتبتُ إليها بالخبر . فحملت إلىّ تلك النعمة
بأسرها . بجميع ما أنا فيه منها ، فأقامت عندى كذا وكذا سنة أعيش معها عيش
الخلفاء ، ولم أدع مع ذلك التجارةَ . فزاد مالى وعَظُمت منزلتى وأثْرَتْ حالى ،
وولدتْ لى هؤلاء الفتيان وأوما إلى أولاده . ثم ماتت (رحمها الله) وبقى علىّ من مضرّة
الديكبريكة ما شاهدته .

١٠ وبالجملة فلا يغترّ أحد بهذه الحكاية وأمثالها ، فيجهل بنفسه فيهلكها . "فما المُغَرِّر
محمودٌ وإن سَلِمَا" .

* * *

وأما من كفر بسبب العشق فكثير جدّا لا يحصرون ، ومما ورد
فى ذلك حكاية عجيبة أوردتها لغرابتها وهى مما حكاه آبن الجوزىّ فى كتابه المترجم
١٥ "بذم الهوى" قال :

سمعت شيخنا أبا الحسن علىّ بن عبيد الله الزعفرانى يحكى أن رجلا آجتاز
بباب آمرأة نصرانية ، فرآها فَهَوِيَها من وقته ، وزاد الأمر به حتّى غلب على عقله ،
فحمل إلى البيمارستان . وكان له صديق يتردّد إليه ويترسّل بينه وبينها . ثم زاد
الأمر به ، فقالت أمّه لصديقه : إنى أجىء إليه فلا يكلمنى ، فقال : تعالى معى ،

فأتت معه . فقال له : إن صاحبتك بعثت إليك رسالة ، قال : كيف ؟ قلتُ : هذه أمك تؤدّى رسالتها . فجعلت أمه تحدّثه عنها بشىء من الكذب. ثم زاد الأمر عليــه ونزل به الموت ، فقال لصــديقه : قد جاء الأجل وحان الوقت وما لقيت صاحبتى فى الدّنيا، وأنا أريد أن ألقاها فى الآخرة . فقال له : كيف تصنع ؟ قال : أرجع عن دين محمد ، وأقول عيسى ومريم والصليب الأعظم . فقال ذلك ٥ ومات .

فمضى صــديقه إلى تلك المرأة فوجدها عليــلة فجعل يحــدّثها ، وأخبرها بموت صاحبها ، فقالت : أنا ما لقيته فى الدّنيا وأنا أريد أن ألقاه فى الآخرة . وأنا أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمدا عبــده ورسوله ، وأنا بريئــة من دين النصرانية . فقام أبوها فقال للرجل : خذوها الآن فإنها منكم، فقام الرجل ليخرجّ، فقال له : ١٠ قف ساعة، فوقف، فما لبث أن ماتت .

قال : وبلغنى عن رجل ببغداد (يقال له صالح المؤذن، أذّن أربعين سنة، وكان يُعْرَف بالصلاح) أنه صعد يوما إلى المنارة ليؤذن فرأى بنت رجل نصرانىّ كان بيته إلى جانب المسجد . فافتتن بها، فجاء فطرق الباب فقالت له : من أنت؟ قال : أنا صالح المؤذن . ففتحت له الباب فدخل وضمها إليه ، فقالت : أنتم أصحاب الأمانات، فما هذه ١٥ الخيانة ؟ فقال : إن وافقتينى على ما أريد وإلا قتلتك ، فقالت : لا، إلا أن تترك دينك، فقال كلمة الكفر وبرئ من الإسلام . ثم تقدّم إليها فقالت : إنما قلتَ هذا لتقضى غرضك ثم تعود إلى دينك . فكل من لحم الخنزير، فأكل منه، قالت : فاشرب الخمر، فشرب . فلمــا دبّ الشرابُ فيه دنا منها فدخلت بيتا وأغلقت بينها وبينه

الباب، وقالت له : اصعد إلى السطح حتى إذا جاء أبي زوجني منك . فصعد فسقط فمات . فخرجت إليه ولفته في مِسْح . وجاء أبوها فقصت عليه القصةَ فأخرجه في الليل ورماه في السكة . وظهر حديثه، فرُمى على مَزْبلة .

* * *

وأما من قَتَلَ بسبب العشق فلا يكاد ذلك يحصر كثرةً، وأعظمه وأشدّه واقعة عبد الرحمن بن مُلجم المرادىّ، لعنه الله .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لآبن عمه علىّ بن أبي طالب كرم الله وجهه : "يا علىّ أشقى الأولين عاقر ناقة صالح، وأشقى الأولين والآخرين قاتلك، وهو هذا" وأشار إلى آبن ملجم قبحه الله تعالى ولعنه، وأوجب له خزيه ومقته وعذابه، وذلك نكالا لما آجترأ عليه في قتله أمير المؤمنين علىّ بن أبي طالب رضى الله عنه . وذلك أن آبن ملجم قبحه الله رأى آمرأة من تيم الرباب يقال لها قَطَامِ، كانت من أجمل النساء وكانت ترى رأىَ الخوارج، وقد قتل علىّ رضى الله عنه قومها يوم النَّهروان . فلما رآها آبن ملجم عَشقها فخطبها فقالت : لا أتزوّجك إلا على ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة، وأن تقتل علىّ بن أبي طالب . فحمله العشق على أن خسر الدّنيا والآخرة، وتزوجها على ذلك . وكان من خبره في قتل علىّ رضى الله عنه ما نذكره إن شاء الله تعالى في التاريخ .

وفي ذلك يقول الشاعر :

فَلَمْ أَرَ مَهْرا ساقه ذُو سَماحةٍ * كَمَهْر قَطَامِ بَيِّنًا غَيرَ مُعْجَم .

ثلاثةُ آلافٍ، وعبدٌ، وقينةٌ، * وضربُ "علىٍّ" بالحُسَام المُصَمِّم .

فلا مَهْرَ أغلى من "علىٍّ" وإن غَلَا * ولا فَتْكَ إلا دُونَ فَتْكِ آبنِ مُلْجَم !

ومنهم من حمله العشق على قتل أبيه . وهو أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن ابن مروان بن عبد الرحمن الناصر، و يعرف هذا "بالطليق". كان يتعشق جارية كان أبوه قد ربّاها معه وذكر أنها له ، ثم استأثر بها وخلا معها . فحمله العشق على أن انتضى سيفا ورصد أباه فى بعض خلواته بها فقتله . فسجنه المنصور بن أبى عامر سنين ، ثم أطلقه . فلُقِّب "بالطَّليق" واعتراه من ذلك شبه الجنون فكان يُصْرَع فى بعض الأوقات .

* * *

وأما من قُتل بسبب العشق ، فروى عن الشعبىّ قال : دخل عمرو بن معد يَكرِب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال له عمر : ياعمرو ، أخبرنى عن أشجع مَن لقِيت ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين .

خرجت مرة أريد الغارة . فبينا أنا أسير إذا أنا بفرس مشدود ورمح مركوز ، و إذا رجل جالس ، وهو كأعظم ما يكون من الرجال خلقا ، وهو محتب بسيف . فقلت له : خذ حِذْرَكَ فإنى قاتلك ، فقال : ومَن أنت ؟ قلت : أنا عمرو بن معديكرب ، فشهق شهقة فمات .

فهذا أجبن من رأيت يا أمير المؤمنين .

وخرجت يوما حتّى انتهيت إلى حىّ . فإذا أنا بفرس مشدود ورمح مركوز و إذا صاحبه فى وهدة يقضى حاجةً . فقلت : خذ حِذْرك فإنى قاتلك ، قال : مَن أنت؟ قلتُ : أنا عمرو بن معديكرب ، قال : أبا ثور ، ما أنصفتنى ، أنت على ظهر فرسك ، وأنا فى بئر ، فأعطنى عهدا أنك لا تقتلنى حتى أركب فرسى وآخذ حِذرى ، فأعطيتُه عهدا أنْ لا أقتله حتى يركب فرسه و يأخذ حذره . فخرج من الموضع الذى كان فيه

حتى آحتبي بسيفه وجلس . فقلتُ له : ماهذا ؟ فقال ما أنا بتارك فرسي ولا بمقاتلك ، فإن نكثت عهدك فأنت أعلم ، فتركته ومضيت

فهذا يا أمير المؤمنين أحيل من رأيت !

ثم إني خرجتُ يوما آخر حتَّى آنتهيتُ إلى موضع كنت أقطع فيه . فلم أر أحدا فأجريتُ فرسي يمينا وشمالا فظهر لي فارس . فلما دنا مني إذا هو غلام قد أقبل من نحو اليمامة . فلما قَرُبَ مني سلَّم فرددت عليه وقلت : مَن الفتى ؟ قال أنا الحارث بن سعد ، فارس الشهباء ، فقلت له : خذ حذرك ، فإني قاتلك فقال : الويل لك ! مَن أنت ؟ قلت : أنا عمرو بن معديكرب ، قال : الحقير الذليل ؟ والله ما يمنعني من قتلك إلا آستصغارُك ، فتصاغرت نفسي إليّ وعظُم عندي ما آستقبلني . فقلت له : خذ حذْرك ، فوالله لا ينصرفُ إلا أحدنا ، قال : أغرب ، ثكلتْك أُمُّك ! فإني من أهل بيت ما نَكَلْنا عن فارس قط ! فقلتُ : هو الذي تسمع ، قال : آختر لنفسك ، إما أن تَطْرِد لي ، وإما أن أَطْرِد لك ، فاغتنمتها منه ، فقلت : أطرد لي ، فاطردَ وحملتُ عليه ، حتى إذا قلتُ إني وضعت الرمح بين كتفيه ، إذا هو قد صار حزاما لفرسه ، ثم آتبعني فقرع بالقناة رأسي ، وقال : ياعمرو ، خذها إليك واحدة ، فوالله لولا أني أكره قتل مثلك لقتلتُك ، فتصاغرتْ إليّ نفسي ، وكان الموت والله يا أمير المؤمنين أحبَّ إليّ مما رأيت ، فقلتُ : والله لا ينصرف إلا أحدنا ، فقال : آختر لنفسك ، فقلت : أطردْ لي ، فاطرد لي . فظننت أني قد تمكنت منه وآتبعته حتَّى إذا ظننت أني قد وضعت الرمح بين كتفيه ، وإذا هو قد صار لبدا لفرسه ، ثم آتبعني فقرع رأسي بالقناة وقال : ياعمرو ، خذها إليك آثنتين ، فتصاغرتْ إليّ نفسي فقلت : والله لا ينصرف إلا أحدنا ، فقال : آختر لنفسك ، فقلت : أطرد

لى، فاطرد حتّى إذا قلت إنى وضعت الرمح بين كتفيه وثب عن فرسه فإذا هو على الأرض، فاخطأته ومضيتُ،فاستوى على فرسه وآتبعنى فقرع بالقناة رأسى وقال: يا عمرو، خذها إليك ثالثة، ولولا أنى أكره قتـل مثلك لقتلتُك، فقلتُ له: آقتلنى، فإن الموت أحب إلىّ ممـا أرى بنفسى وأن تسمع فِتيانُ العرب بهـذا، فقـال يا عمرو: إنمـا العفو ثلاث، وإنى إن آستمكنت منك الرابعة قتلتك، ٥
وأنشأ يقول:

وَكِّدتُ أغلاظا من الأَيْمـانِ * إن عُدْتَ ياعمرو إلى الطِّعان،
لَتوجَرَنَّ لَهَبَ السِّـنانِ * أوْلا، فلَسْتُ من بَنِى شَيْبان!

فلما قال هكذا،كرهت الموت،وهبتُه هيبة شديدة،وقلت: إنّ لى إليك حاجة، (٦٥)
قال: وما هى؟ قلت: أكون لك صاحبا، ورضيتُ بذلك ياأمير المؤمنين، قال: ١٠
لست من أصحابى، فكان ذلك والله أشدّ علىّ وأعظم مما صنع. فلم أزل أطلب إليه حتى قال: ويحك، وهل تدرى أين أريد؟ قلت: لا، قال: أريد الموت عيَانا، فقلت: رضيت بالموت معك، فقـال: آمض بنا، فسرنا جميع يومنا وليلتنا حتّى جَنَّنَا الليـل وذهب شطره. فوردنا على حىّ من أحياء العرب،فقـال لى: ياعمرو فى هذا الحىّ الموتُ، ثم أومأ إلى قبة فى الحىّ فقال: وفى تلك القبة الموت الأحمر، ١٥
فإما أن تمسك علىّ فرسى فأنزل فآتى بحاجتى، وإما أن أمسك عليك فرسك فتنزل فتأتينى بحاجتى، فقلت: لا، بل آنزل أنت، فأنت أعرف بموضع حاجتك، فرمى إلىّ بعنَان الفرس ونزل، فرضيت لنفسى يا أمير المؤمنين أن أكون له سائسا. ثم مضى حتّى دخل القبة فاستخرج منها جارية لم ترعيناى قط مثلها حسنا وجمالا، فحملها على ناقة، ثم قال: ياعمرو، قلتُ: لبيك، قال: إما أن تحمينى وأقود أنا، وإما أن ٢٠

أحميك وتقود أنت، قلت: بل تحميني أنت، وأقود أنا، فرمى إليّ بزمام الناقة، وسرنا بين يديه وهو خلفنا حتّى أصبحنا، فقال لى: ياعمرو، قلت: لبيك، ماتشاء؟ قال: التفت فأنظر هل ترى أحدا؟ قال: فالتفت، فقلت: أرى جمالا، قال: أغذّ السير، ثم قال لى: ياعمرو، قلت: لبيك، قال: آنظر، فإن كان القوم قليلا فالجَلَد والقوة والموت، وإن كانوا كثيرا فليسوا بشيء، قال: فالتفتّ، فقلت: هم أربعة أو خمسة، قال: أغذّ السيْرَ، ففعلت، وسمع وَقْع الخيل، فقال لى: ياعمرو، قلت: لبيك! قال: كن عن يمين الطريق، وقِفْ وحوّلْ وُجوه دوابنا إلى الطريق، ففعلتُ، ووقفت عن يمين الراحلة ووقف هو عن يسارها. ودنا القومُ منا، فإذاهم ثلاثة نفر فيهم شيخ وهو أبو الجارية وأخواها غلامان شابان، فسلموا فرددنا السلامَ، ووقفوا عن يسار الطريق. فقال الشيخ: خَلِّ عن الجارية يا آبن أخى، فقال: ماكنتُ لأُخَلِّيها ولا لهذا أخذْتُها، فقال لأصغر آبنيه: أخرج إليه، فخرج وهو يجرّ رمحه وحمل عليه الحارث وهو يقول:

مِنْ دُونِ ماتَرْجُوه خَضْب الذابِلِ . من فارسٍ مستَلْئِمٍ مقاتِلِ،
يَنْمِى إلى شَيْبانَ خير وائلِ . ما كانَ سَيْرِى نَحْوَها بباطِلِ!

ثم شدّ عليه وطعنه طعنة دَقَّ منها صُلْبه، فسقط ميتا. فقال الشيخ لآبنه الآخر: أخرج اليه يابُنيَّ، فلا خير فى الحياة على الذُّلّ، فخرج إليه وأقبل الحارث يقول:

لقدْ رأيتَ كيفَ كانتْ طَعْنتى! . والطَّعن للقِرْن الشديد هِمّتى.
والموتُ خيْرٌ من فراق خِلّتى . فقَتْلِى اليوم ولاَ مَذَلّتى!

ثم شدّ عليه فطعنه طعنةً سقط منها ميتا . فقال له الشيخ : خَلِّ عن الظعينة يا آبن أخى ، فإنى لستُ كمن رأيتَ ، قال : ما كنت لأُخلّيَها ولا لهـذا قصدتُ ، فقال له الشيخ : آختر يا آبن أخى ، فإن شئت طاردتك ، وإن شئت نازلتك ، فاغتنمها الفتى ونزل . ونزل الشيخ وهو يقول :

ما أرتجِى بعـد فَنـاءِ عُمْرِى؟ * سأجعلُ السِّنينَ مثـلَ الشَّهرِ. ٥
شيخٌ يحامى دون بِيضِ الخِدْرِ * إنّ آستباحَ البِيضِ قَصْمُ الظَّهرِ.
* سوف ترى كيفَ يكونُ صَبْرِى . *

فأقبل الحارث وهو يقول :

بعْد ارتحـالى وطويلِ سَفَرِى * وقد ظَفِرتُ وشَفَيْتُ صَدْرِى .
والموتُ خيرٌ من لِباسِ الغَدْرِ * والعـارِ أُهْـديه لحىّ بكرِ .

ثم دنا فقال له الشيخ : يا آبن أخى ، إن شئت نازلتك ، وإن بقيت فيك قوة ضربتنى ، وإن شئت فاضربنى ، فان بقيت فىّ قوّةٌ ضربتك . فاغتنمها الفتى فقال : وأنا أبدؤك ، قال : هات ، فرفع الحارث السيفَ ، فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه ، ضرب بطنَه ضربة فقدّ معَاه ، ووقعت ضربة الحارث فى رأسه . فسقطا ميتين . فأخذت يا أمير المؤمنين أربعة أفراس وأربعة أسياف . ثم أقبلتُ إلى الناقة ١٥ فعقدت أعنة الأفراس بعضها إلى بعض وجعلت أقودها . فقالت الجارية : يا عمرو ، إلى أين ؟ ولستَ لى بصاحب ، ولستَ كمن رأيت ، ولو كنت صاحبى لسلكت سبيلهم ! فقلت : آسكتى ، قالت : فإن كنت صادقا فأعطنى سيفا ورمحا ، فإن غلبتنى فأنا لك ، وإن غلبتك قتلتك ، فقلتُ لها : ما أنا بمعطيك ذلك ، وقد عرفتُ أصلك وجُرأة قومكِ وشجاعتَهم ، فرمت بنفسها عن البعير وهى تقول : ٢٠

أَبَعْدَ ماشَيْخى وبَعْدَ إخْوِنى ⁂ أطْلُبُ عيشًا بعْدَهُم فى لَذّة؟
هَلْ لا تَكُونُ قبل ذَا مَنِيَّتِى؟ *

وأهوت إلى الرُّمح فكادت تنتزعه من يدى. فلما رأيتُ ذلك خفْتُ إن هى ظَفرت بى أن تقتلنى، فقتلتها

٥ فهذا أشدّ ما رأيته يا أمير المؤمنين .

فقال عمر بن الخطاب : صدقت ياعمرو .

وروى ابن الجوزى بسند يرفعه إلى الليث بن سعد أنه قال : أُتى عمر رضى الله عنه بفتًى أمردَ قد وجد قتيلا مُلقًى فى الطريق . فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر، ولم يعرف قاتله . فشَقّ ذلك عليه، وقال : اللهم ظَفّرنى بقاتله.

١٠ حتّى إذا كان رأسُ الحول أو قريب من ذلك، وُجِدَ صبىّ مولود مُلْقًى بموضع القتيل فأُتِىَ به عمر . فلما أُتِىَ به وأُخْبِر بمكانه، قال : ظَفِرتُ تالله بدم القتيل إن شاء الله تعالى، فدفع الصبىّ إلى امرأة، وأمرها أن تقوم بشأنه وأعطاها نفقة. وقال : انظرى مَن يأخذه منك، فإذا وجدتِ امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها فأعلمينى بمكانها. فلما شبّ الصبىّ جاءت جاريةٌ فقالت للمرأة إن سيدتى بعثتنى إليك لتبعثى إليها بالصبىّ

١٥ لتراه وتردّه إليك . قالت : نعم، اذهبى به إليها وأنا معك، فذهبتْ بالصبىّ والمرأة معها إلى سيدتها. فلما رأته أخذته فقبلته وضمّته إلى صدرها. وإذا هى بنت شيخ من الأنصار، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأخبرتْ عمر خبرها. فاشتمل على سيفه، ثم أقبل على منزلها، فوجد أباها متكئا على باب داره . فسلم عليه، وقال له : أبا فلان، قال : لَبَّيْك، قال : مافعلت ابنتك فلانة؟ قال : ياأمير المؤمنين،

٢٠ جزاها الله خيرا، هى من أعرف الناس بحق الله تعالى وحق أبيها، مع حُسْن صَلاتها

وصيامها والقيام بدينها، فقال عمر: قد أحببتُ أن أدخل إليها فأزيدَها رغبةً فى الخير وأَحُثَّها على ذلك . فقال : جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنـين ، آمكُثْ مكانك حتّى أعود إليك ، فاسـتأذن بعمر، فلما دخل عمر، أمر من كان عندها بالخروج عنها ، فخرجوا . و بقيت هى وعمر ليس معهما ثالث . فكشف عمر عن السيف، وقال : لتصدقينى و إلا ضربت عنقك ، وكان عمر لا يُكذب ، فقالت : على رِسْلك ياأمير المؤمنين، فوالله لأصدُقَنَّك. إن عجوزا كانت تدخل علىّ فاتخذتها أمّا، وكانت تقوم من أمرى بما تقوم به الوالدة، وكنت لها بمنزلة البنت، فأمضتْ بذلك حينا. ثم إنهـا قالت لى يوما : يابنية ، إنه قد عرض لى سَـفَر، ولى بنت فى موضـع أتخوّف عليها فيه أن تضيع، وقد أحببتُ أن أضمها إليكِ حتّى أرجع من سفرى، فعمدَتْ إلى آبن لهـا شاب أمرد، فهيأتْه كهيئة الجارية وأتتنى به لا أشك أنه جارية . فكان يرى منى ماترى الجارية من الجارية حتّى أغفلنى يوما وأنا نائمة فما شـعرتُ حتّى علانى وخالطنى . فمددت يدى إلى شَفْرة كانت إلى جنبى فقتلتُه . ثم أمرتُ به فأُلقِىَ حيث رأيتَ . فاشتملتُ منه على هذا الصبى ، فلما وضعته ألقيته فى موضع أبيه . فهـذا والله خبرهما، فقال عمر : صدقتِ ، بارك الله فيـك ، ثم أوصاها ووعظها ودعا لهـا وخرج ، وقال لأبيها : بارك الله لك فى آبنتـك ، فنعم الابنـة هى ! وقد وعظتها وأمرتها، فقال : وصـلك الله ياأمير المؤمنين ، وجزاك خيرا عن رعيّتك .

وروى أيضا بسنده إلى أبى عباد قال : أدركتُ الخادمَ الذى كان يقوم على رأس الحجاج، فقلت له : أخبرنى بأعجب شىء رأيتَه من الحجاج ! قال : كان آبن اخيه أميرا على واسطَ، وكان بواسط آمرأة يقال لها أَبّة، لم يكن بواسطَ فى ذلك الوقت

أجملُ منها . فأرسل ٱبن أخيه إليها يراودها عن نفسها مع خادم له . فأبت عليه وقالت : إن أردتنى فاخطبنى إلى إخوتى ، وكان لها أربعة إخوة فأبى ، وقال : لا، إلا كذا . وعاودها فأبت، فراجعها وأرسل إليها بهدية فأخذتها وعزلتها . وأرسل إليها عشية الجمعة : إنى آتيكِ الليلة، فقالت لأمها : إن الأمير بعث إلىّ ٥ بكذا وكذا . فأنكرتْ أمّها ذلك، وقالت أمها لاخوتها إن أختكم قد زعمت كيت وكيت : فأنكروا ذلك وكذبوها . فقالت إنه قد وعدنى أن يأتينى الليلة، تَرَوْنه . قال : فقعد إخوتها فى بيت حيال البيت الذى هى فيه ، وجويرية لها على باب الدار تنتظره . فجاء ونزل عن دابته وقال لغلامه : إذا أذن المؤذن فى الغلس، فأْتنى بدابتى ، ودخل والجاريةُ أمامه . فوجد أبّهَ على سرير مستلقية . فاستلقى إلى ١٠ جانبها ثم وضع يده عليها، وقال : إلى كم ذا المَطْلُ ؟ فقالت له : كف يدك يافاسقُ ، ودخل إخوتها عليه بأيديهم السيوف فقطّعوه ثم لفوه فى نطع وجاءوا به إلى سكة من سكك واسط فألقوه فيها . وجاء الغلام بالدابة فجعل يدُقّ الباب دقًّا رفيقا فلا يكلمه أحد. فلما خَشِى الضوء وأن تعرف الدابةُ ٱنصرف. وأصبح الناس فإذا هم به على تلك الصفة. فأتوا به الحجاجَ فأخذ أهل تلك السكة، فقال أخبرونى: ماقصتُه؟ ١٥ قالوا : لانعلم حاله، غير أنا وجدناه ملقًى. ففطن الحجاجُ فقال: علىّ بمن كان يخدمه، فأُتِىَ بذلك الخصىّ الذى كان الرسولَ بينهما، فقالوا : هذا كان صاحبَ سره ، فقال له الحجاج : ٱصدقنى عن خبره وقصته، فأبى . فقال : إن صدقتنى لم أضرب عنقك، وإن لم تصدقنى فعلتُ بك وفعلت . قال : فأخبره الأمر على جهته. فأمر بالمرأة وأمها وإخوتها، فجىء بهم، وعُزلت المرأة عنهم . فسألها فأخبرته بمثل ماأخبر به الخصىّ، ٢٠ ثم سأل إخوتها، فأخبروه بمثل ذلك ولم يختلفوا، وقالوا: نحن صنعنا به الذى ترى،

فأمر برقيقه ودوابه للمرأة ، فقالت المرأة . هديته عندى ، فقال : بارك الله لك فيها ، وكثّر فى النساء مثلك ، هى لك ، وماترك من شىء فهو لك ، وقال : مثل هذا لا يُدفن . فألقُوه للكلاب ، ودعا بالخصىّ فقال : أما أنت فقد قلت لك إنى لا أضرب عنقك ! وأمر بضرب وسطه ، فقطع نصفين .

والأخبار فى مثل هذا كثيره ، فلا نطوّل بذكرها . ٥

* * *

وأما من قتله العشق فكثير جدّا لا يكاد يحصر ، روى عن عكرمة قال : إنى لمَعَ آبن عباس عشيةَ عرفةَ ، إذ أقبل فتيةٌ يحملون فتًى من بنى عُذْرة فى كساء ، وهو ناحل البَدَن ، أحلى من رأيت من الفِتْيان ، فوضعوه بين يديه ثم قالوا : آستشفِ لهذا يا آبن عم رسول الله ، فقال : وما به ؟ فترنم الفتى بصوت ضعيف خفىّ الأنين ، ١٠ وهو يقول :

بِنَا من جَوى الأحزان والحُبِّ لَوْعةٌ * تَكادُ لهـا نَفْسُ الشَّفيق تَذُوبُ !

ولكنَّما أبقى حَشاشَـــةَ مُعْوِلٍ * على مابه عُـــودٌ هناك صَليبُ !

وما عَجَبٌ موت المحِبِّينَ فى الهَوى ؛ * ولكنْ بقاءُ العاشِقِين عجيب !

قال : ثم حمل فمات فى أيديهم ، فقال آبن عباس : هذا قتيلُ الحُبّ ، لا عَقْلٌ ١٥ ولا قَوَد .

قال عكرمة : فما رأيت ابن عباس سأل الله تعالى تلك الليلةَ — حتّى أمسى — إلا العافيةَ مما آبتلِى به ذلك الفتى .

وروى عن الأصمعىّ قال : حدّثنى أبو عمرو بن العلاء قال : حدّثنى رجل من بنى تميم قال : خرجت فى طلب ضالّة لى . فبينا أنا أدور فى أرض بنى عُذْرة أنشُد ضالّتى ، ٢٠

إذا بيتٌ معتزل عن البيوت، و إذا في كِسْر البيت شابٌّ مغمًى عليه، وعند رأسه عجوز لها بَقِيّة من جمال، وهي ساهيةٌ تنظر إلى وجه الفتى. فسلمتُ فردَّت السلامَ. فسألتها عن ضالّتي فلم يك عندها منها علم. فقلت: أيتُها العجوزُ، مَن هذا الفتى؟ قالت: آبني، ثم قالت: هل لك في أجرٍ لا مَئُونةَ فيه؟ فقلت: والله إني لأُحبُّ الأجر وإن رُزِئت! فقالت: إن آبني هذا يهوى آبنةَ عمٍ له عَلِقها وهما صغيران. فلما كَبِرَ حُجبت عنه، فأخذه شبيهٌ بالجنون. ثم خطبها إلى أبيها فامتنع من تزويجه، وخطبها غيره فزوّجها إياه. فنَحَل جسمُ ولدي وآصفر لونه وذَهَل عقلُه. فلما كان منذ خمس، زُفَّت إلى زوجها، فهو كما ترى: لا يأكل ولا يشرب، مغمًى عليه. فلو نزلت إليه فوعظته!

قال: فنزلتُ إليه فلم أَدَعْ شيئا من المَوعظة إلا وعظته به حتّى أن قلت له فيما قلت: إنهنّ الغواني صاحباتُ يوسف، ناقضاتُ العهد، وقد قال فيهن كُثَيِّرُ عَزَّة:

هَلْ وَصْلُ عَزَّةَ إلا وَصْلُ غانيـــة ** في وَصْلِ غانيةٍ من وَصْلِها خَلَفُ؟

قال: فرفع رأسه، محمرةً عيناه كالمُغضَب، وقال: لستُ ككُثَيِّر عزة! إنّ كُثَيِّرا رجل مائِقٌ، وأنا رجل وامِقٌ! ولكنني كأخي تميم حيث يقول:

ألَا لا يَضيرُ الحبُّ ما كان ظاهِرًا، ** ولكنَّ ما آختانَ الفؤاد يَضيرُ!

ألَا قاتلَ اللهُ الهوى كيف قادَني ** كما قِيدَ مغلولُ اليدَيْنِ أَسيرُ!

فقلتُ له: فإنه قد جاء عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أُصيبَ منكم بمُصيبةٍ فليَذْكُرْ مُصابه بِي".

فأنشأ يقول:

ألَا ما للمليحـــة لا تَعُـــودُ؟ ** أبُخْـــلٌ بالمليحةِ أم صُـــدُودُ؟

مَرِضْتُ فعـــادَني أهلي جميعًا ** فمـــا لَكِ لا تُرى فيمن يَعُـــودُ!

فَقَدْتُكِ بينهُــمْ فبَكَيْتُ شَوْقًا، * وفَقْدُ الإلْفِ ياأملى شَــديدُ!
وما ٱستَبْطأْتُ غيْرَكِ فاعلَمِيهِ * وحَوْلى من ذَوِى رَحِمى عَديدُ!
ولو كُنْتِ السقيمةَ ،كنتُ أسعَى * إليــكِ ولم يُنَهْنِهْنِى الوَعِيــدُ!

قال : ثم شهق شهقةً وخفَتَ ،فمات . فبكت العجوز وقالت : فاضت والله نفسُه ! فدخلنى أمر لم يدخلنى مثلُه قط . فلما رأت العجوزُ ماحلَّ بى، قالت : يافتى لا تُرَعْ ! عاش بأجَلٍ، ومات بقَدَر، وقدم على ربٍّ كريم، وٱستراح من تباريحه وغُصَصه ! ثم قالت : هل لك فى ٱستكمال الصنيعة؟ قلت : قولى ماأحببتِ ! قالت : تأتى البيوت فتنعاه اليهم ليعاوِنُونى على رَمْسه، فإنى وحيدة . قال : فركبت فرسى وقصدت البُيوتَ وأقبلت أنعاه إليهم . فبينا أنا أنعاه، إذا خيمةٌ رُفع جانبٌ منها، وإذا ٱمرأة قد خرجتْ كأنها القمر ليلة البدر . ناشرةً شعرها ، تجرُّ خمارها، وهى تقول : بِفيك الكَثْكَثُ ! بفيك الحَجَر ! مَن تَنْعَى؟ قلت : أنعى فلانا ! قالت : أوَ قد مات؟ قلت : إى والله قد مات ! قالت : وهل سمعت له قولا ، قلت : اللهــم لا ، إلا شعرا ، قالت : وما هو ؟ فأنشدتُها قوله :

* ألا ما للمليحة لاتعود * الأبيات .

فاستعبرتْ باكية وأنشأت تقول :

عَدَانِى أنْ أزُورَكَ يامُنَــاىَ * مَعَاشِرُ كُلُّهم واشٍ حَسُودُ!
أشاعُوا ماعلِمْتَ من الدَّواهى * وعابُونا، وما فِيهمْ رَشِــيدُ!
فأما إذ ثَوَيْتَ اليومَ لَحْــدًا * فكلُّ الناسِ دُورُهُمُ لُحُودُ.
فلا طابَتْ لِىَ الدُّنيــا فُوَاقا * ولا لَهُــمُ ولا أثْرَى عديدُ!

ثم شهقتْ شهقةً وخرَّتْ مغشيًّا عليها، وخرج النساء من البيوت وٱضطربت ساعة وماتت. فوالله ما برحتُ حتَّى دفنتهما جميعا.

وروَى الساجى عن الأصمعىّ قال: رأيت بالبادية رجلا قد دق عظمه، وضَؤُل جسمه، ورق جلده. فتعجبت ودنوت منه أسأله عن حاله. فقالوا: ٱذكر له شيئا من الشعر يكلمْك، فقلتُ:

سَبَقَ القضاءُ بأنَّنى لك عاشقٌ * حتَّى المماتِ، فأيْنَ منك مذاهبى؟

فشهق شهقة ظننتُ أن روحه قد فارقته، ثم أنشأ يقول:

أخْلُو بذكْرِك لا أريدُ محدّثا * وكفى بذكْرِك سامرًا وسُرُورا!

قال: فقلت له: أخبرنى عنك! قال: إن كنت تريد علم ذلك فاحملنى وألْقِنى على باب تلك الخيمة! ففعلت، فأنشأ يقول بصوت ضعيف يرفعه:

ألا ما للمَليحـةِ لا تَعُـودُ * أبُخْـلٌ بالمَليحةِ أم صُدُودُ؟

فلوكُنتِ المريضَةَ كنتُ أَسْعى * إليـك ولم يَنَهْنِهْنِى الوَعِيـدُ!

فإذا جارية مثل القمر، قد خرجت فألقت نفسها عليه فاعتنقا. وطال ذلك، فسترتهما بثوبى خشية أن يراهما الناسُ. فلما خفتُ عليهما الفضيحة، فرَّقت بينهما، فإذا هما ميتان. فما بَرِحْت حتَّى صليت عليهما ودُفِنَا. فسألت عنهما، فقيل لى: عامرُ بن غالب، وجميلة بنت أميل المُزَنِيَّان.

وروَى ٱبن الجوزىّ بسند يرفعه إلى محمد بن خلف قال: ذكر بعض الرواة عن العمرىّ قال: كان أبو عبد الله الجيشانىّ يعشَق صفراء العلاقمية. وكانت سوداء، فاشتكى من حبها، وضَنِى حتَّى صار إلى حدّ الموت. فقال بعض أهله لمولاها: لو وجهت

صفراء إلى أبى عبد الله الجيشانى، فلعله أن يعقل إذا رآها! ففعل. فلما دخلتْ عليه قالت له : كيف أصبحتَ يا أبا عبد الله؟ قال : بخير مالم تبرحى! قالت : ما تشتهى ؟ قال : قُرْبَك! قالت : ما تشتكى ؟ قال : حُبّك! قالت : فتوصى بشيء ؟ قال : نعم، أوصى بكِ إن قبلوا منى! فقالت : إنى أريد الانصراف! قال : فتعجلى ثوابَ الصلاة علىّ! فقامت فانصرفت، فلما رآها مولية تنفس الصعداء، ومات من ساعته .

وروى أيضا بسند يرفعه إلى عَوَانة بن الحكم أن عبد الله بن جعفر وفد إلى عبد الملك بن مَرْوان فحدّثه، قال : اشتريت جاريةً بعشرة آلاف درهم، فوَصفَتْ ليزيد بن معاوية فأرسل إلىّ يقول : إما أن تهديها إلىّ، وإما أن تبيعها بحكمك، فكتبت إليه : لا تخرج والله من ملكى ببيع ولا هبة أبدا . ومكثتْ عندى لا أزداد لها إلا حبا . حتّى أتتنى عجوز من عجائزنا، فذكرتْ أن بعض عُزّاب المدينة يهواها، وأنه يجيء فى كل يوم متنكرا فيقف بالباب حتّى يسمع غناءها . فراعيتُ مجيئه ليلة، فإذا به قد أقبل متقنعَ الرأس حتّى قعد مستخفيا فدعوت قيّمة الجارية، فقلت : انطلق الساعة فأصلحى هذه الجاريةَ بأحسن ما أمكن، وعجلى بها، ففعلتْ . فقمتُ وقبضتُ على يدها وفتحتُ الباب وأتيتُ إلى الرجل فحركتُه فانتبه مذعورا . فقلت : لا بأس عليك، خذ هذه الجارية، هى لك، فإذا هممت ببيعها فارددها إلىّ ، فدهش الفتى . فدنوتُ إلى أذنه فقلت : ويحك، قد أظفرك الله عز وجل ببُغْيتك، فانصرفْ إلى منزلك، فإذا الفتى ميت ، فلم أر شيئا قط أعجبَ من ذلك، وهانت علىّ الجاريةُ، فكرهتُ أن أوجّه بها إلى يزيد فيعلم بحالها أو تخبره

عن نفسها فيجحد ذلك عليّ . فمكثت مدة مديدة ثم ماتت . ولا أظنها ماتت إلا كمدا وأسفا على الفتى .

وروى ابن الجوزي أيضا بسنده قال : حُكِيَ عن شَبَابة بن الوليد العُذْري أن فتًى من بني عُذْرة يقال له أبو مالك بن النضر ، كان عاشقًا لابنة عم له عشقا شديدًا . فكان على ذلك مدّة ، ثم إنه فُقِد بضعَ عشرةَ سنةً ، لا يُحَسّ له خبر . قال شبابة : فاضَلَّتْ إبلاً لي ، فخرجت في طلبها . فبينا أنا أسير في الرمال إذا بهاتف يهتف بصوت ضعيف :

يا ابنَ الوليد ، ألا تَحمونَ جارَكُمُ ، وتَحفَظون له حــقَّ القَراباتِ؟
عهدي إذا جارَ قوم نابَهُ حَدَثٌ ، وَقَوْه من كلِّ مكروه المُلِمَّاتِ !
هــذا أبو مالك المُسمى بِلَقمةٍ من الضِّباع وآساد بغاباتِ !
طَليحُ سوءٍ ، بنار الحبّ محترقٌ ، تعتادُه زَفَــراتٌ إثرَ لوعاتِ !
أما النهار فَيُنصيه تذكُّرُه ، والليلُ مرتقبٌ للصبح هل يأتي .
يَهذي بجاريةٍ من عُذْرَةَ اختلَستْ فُؤادَه ، فهو منها في بَلِيَّاتِ !

فقلت : دُلَّني عليه ، رحمك الله ! قال : نعم ، اقصد الصوت ، فقصدته ، فسمعت أنينا من خباء ، وإذا قائل يقول :

يارسيسَ الهوى ، أذبتَ فُؤادي وحَشَوتَ الحَشَا عــذابًا أليما !

فدنوت منه فقلت : أبو مالك؟ قال : نعم ! قلت : ما بلغ بك إلى ما أرى ؟ قال : حُبّي سعادَ ابنة أبي الهندام العذري . شكوت يوما ما أجِدُ من حبها إلى ابن عم لنا فاحتملني إلى هذا الوادي ، منذ بضع عشرة سنة ، يأتيني كل يوم بخبرها ويَقُوتني من عنده . فقلت إني أصير إلى أهلها فأخبرهم ما رأيت . قال : أنت وذاك . قال : فانصرفت

فأخبرتهم، فرقّوا له فزوّجوه بحضرتى . فرجعتُ إليه لأفرّج عنه، فلما أخبرته الخبر، نظر إلىّ، ثم تأوّه تأوّها شديدا بلغ من قلبى، ثم قال :

ألآن إذ حَشْرَجَتْ نفسى وخامَرَها * فِراقُ دُنْيا ونادَاها مُنَادِيهَا!

ثم زَفَر زَفْرة فمات. فدفنته فى موضعه ثم انصرفت فأخبرتهم الخبر. فأقامت الجارية بعده ثلاثا لا تَطْعَمُ، ثم ماتت . ٥

وحكى عن المبرد قال : خرجتُ أنا وجماعة من أصحابى مع المأمون. فلما قَرُبنا من الرَّقَّة، إذا نحن بدير كبير، فقال لى بعض أصحابى: مِلْ بنا إلى هذا الدير لننظر مَنْ فيه ونحمد الله تعالى على ما رَزَقنا من السلامة، فدخلنا إلى الدير، فرأينا مجانين مُغَلْغَلين، وهم فى نهاية القَذَارة، فإذا فيهم شابٌّ عليه بقية من ثياب ناعمة، فلما بَصُرَ بنا قال : مَن أنتم يا فتيانُ؟ حيّاكم الله! فقلنا: نحن من العراق. فقال: بأبى العراقُ وأهلُها! بالله ١٠ أنشدونى أو أنشدكم! فقال المبرد : قلت : والله إن الشعر من هذا لَظريف، فقلنا : أنشدنا، فأنشأ يقول :

اللهُ يَعْـلَمُ أنّنِى كَمِدُ * لا أستطيعُ أبُثُّ ما أجِدُ!

رُوحان لى : رُوحٌ تضمَّنها * بلدٌ وأُخرى حازها بَلَدُ!

وأرى المقيمةَ ليس يَنْفَعُها * صَبْرٌ ولا يَقْوَى لها جَلَدُ. ١٥

وأظنُّ غائبتى كشاهِدَتِى * فكأنّها تجدُ الذى أجدُ!

قال المبرد : بالله زدنا، فأنشأ يقول :

لَمّا أناخُوا قُبَيْلَ الصُّبح عِيرَهُمُ * ورَحَّلُوها فثارَتْ بالهوى الإِبِلُ،

وقلّبتْ من خلال السَّجْف ناظرَها * ترنُو إلىّ ودمعُ العين منهمِلُ،

ووَدَّعتْ ببَنانٍ عقـدُها عَـنَمٌ، * ناديتُ: لاحَمَلَتْ رِجْلاك ياجَمَلُ!
وَيْلِي من البَيْنِ! ماذا حَلَّ بي وبها * مِنْ نازل البَيْنِ؟ حانَ البينُ فارتَحَلُوا!
ياراحلَ العِيسِ، عَرِّجْ كَيْ نُودِّعها! * ياراحلَ العِيسِ، في تَرْحالِكَ الأجَلُ؟
إنِّي على العَهْد لم أنقُضْ مودَّتَهم، * ياليت شِعْرِيَ! بعد العهدِ مافعلوا؟

قال: فقال رجل من البغضاء الذين معي: ماتوا! قال: قال إذَنْ فأموتُ! فقال له: إن شئتَ! فتمطَّى وآستند إلى السارية التي كان مشدودا فيها فمات. فما بَرِحْنا حتَّى دفناه.

وحكى عن أبي يحيى التيمي، قال: كنا نختلف إلى أبي مِسْعَر بن كِدَام، وكان يختلف معنا فتًى من النُّسَّاك، يقال له أبو الحسن، ومعه فتًى حسنُ الوجه يفتَتِنُ به الناس إذا رأوْه. فأكثر الناسُ القولَ فيه وفي صحبته إياه. فمنعه أهله أن يصحبه وأن يكلمه. فذهَلَ عقله حتَّى خيف عليه التلفُ. فلقيته فأخبرته بذلك، فتنفس الصُّعَداء ثم أنشأ يقول:

يامَنْ بدائعُ حُسْنِ صُـورتِه * تَثْنِي إليـه أعِنَّةَ الحَـدَقِ!
لِي منْـكَ ما للناسِ كُلِّهِمِ: * نَظَرٌ وتَسْـليمٌ على الطُّرُقِ.
لكنَّهـمْ سَـعِدُوا بأمْنِهِـمِ * وشَقِيتُ حِينَ أراكَ بالفَرَقِ!

ثم صرخ صرخة وشخص ببصره نحو السماء وسقط إلى الأرض. فحرّكته فإذا هو ميت.

وروى آبن الجوزيّ قال: أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك الأنماطيّ، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميديّ قال: حدّثني أبو محمد عليّ بن أحمد

الفقيه الحافظ قال : حدّثنى أبو عبد الله محمد بن الحسن المَذْحِجىّ الأديب، قال : كنت أختلف فى النحو إلى أبى عبدالله محمد بن خطاب النحوى فى جماعة، أيام الحَدَاثة . وكان معنا أسلمُ بن سعيد قاضى قضاة الأندلس . قال محمد بن الحسن : وكان من أجمل من رأته العيون . وكان معنا عنـد ابن خطاب أحمدُ بن كُلَيب . وكان من أهل الأدب والشعر فاشتدّ كلَفُه بأسلم، وفارق صبره، وصرف فيه القول متسترا بذلك، إلى أن فشت أشعارُه فيه وجرت على الألسنة، وأُنشدت فى المحافل .

فلَعَهْدى بعُرس فى بعض الشوارع و" البكورىّ " الزامر فى وسط المحفل يزمر بقول أحمد بن كليب فى أسلم .

أسلَمَنِى فى هَـوا * ه أسْلَمُ، هـذا الرَّشا!
غـزَال له مُقْـلَةٌ * يُصيبُ بها مَنْ يَشَا!
وشى بيننَـا حاسـدٌ * سَـيُسْأَلُ عمّـا وَشى!
ولَوْ شـاءَ أن يَرْتَشِى * على الوَصْلِ رُوحى ارْتَشى!

ومغنٍّ محسن يسايره . فلما بلغ هذا المبلغ، انقطع أسلم عن جميع مجالس الطلب ولزم بيتَه والجلوسَ على بابه . فكان أحمد بن كليب لا شُـغْل له إلا المرور على باب دار أسلم نهارَه كله . فانقطع أسلم عن الجلوس على باب داره نهارا . فإذا صلّى المغرب واختلط الظلام، خرج مسترْوِحا، وجلس على باب داره . فعيل صبر أحمد بن كليب . فتحيل فى بعض الليالى ولبس جُبّة من جباب أهل البادية، واعتمّ بمثل عمـائمهم، وأخذ بإحدى يديه دَجَاجا وبالأخرى قَفَصا فيـه بيض . وجاء كأنه قدم من بعض الضِّياع، فتقدّم إلى أسلم وقبل يده، وقد اختلط الظلام، وقال : يامولاى، مَن يَقْبِض

هذا؟ فقال له أسْلَمُ : من أنت ؟ فقال : أجيرُك في الضَّيْعة الفلانية — (وقد كان يعرف أسماء ضياعه) . فأمر أسلمُ غلمانَه بقبض ذلك منه على عادتهم في قبول هدايا العاملين في ضياعهم . ثم جعل أسلم يسأله عن أحوال الضيعة ، فلما جاوبه أنكر الكلامَ فتأمله فعرفه ، فقال له : يا أخي ! وإلى هاهنا تتبعُني ؟ أما كفاكَ انقطاعي عن مجالس الطلب ، وعن الخروج جملةً ، وعن القُعود على بابي نهارا حتَّى قطعت عليّ جميعَ مالي فيه راحةٌ فصرتُ في سِجْنك ؟ والله لافارقتُ بعد هذه الليلة قَعْرَ منزلي ، ولا جلستُ بعدها على بابي ، لا ليلا ولا نهارا ، ثم قام . وانصرف أحمد بن كليب حزينا كئيبا .
قال محمد : واتصل ذلك بنا فقلنا لأحمد بن كليب : وخسرت دجاجك و بيضك؟ فقال : هات كلَّ ليل قُبلةً في يده ، وأخسر أضعاف ذلك ! فلما يئس من رؤيته البتةَ ، نهكته العلة وأضجعه المرض . قال محمد بن الحسن : فأخبرني شيخنا محمد بن خطاب قال : فعُدْته فوجدته بأسوإ حال . فقلت له : لم لاتتداوى؟ فقال : دوائي معروف ، وأما الأطباء فلا حيلةَ لهم فيّ البتةَ ، فقلت له : وما دواؤك؟ قال : نظرةٌ من أسلم ! فلو سعيتَ في أن يزورني لأعظم الله جزاءك بذلك ، وآجره . قال : فرحمته وتقطعت نفسي عليه ، فنهضت إلى أسلم فاستأذنتُ عليه ، فأذن لي وتلقَّاني بما يجب ، فقلت : لي حاجةٌ ، فقال : وما هي؟ قلت : قد علمت ما جَمَعك مع أحمد بن كليب من ذمام الطلب عندي . فقال : نعم ، ولكن قد تعلم أنه برّح بي ، وشهَّر اسمي وآذاني . فقلت له : كل ذلك يُغتفَر في مثل هذه الحال التي هو فيها ، والرجل يموتُ ، فتفضل بعيادته . فقال لي : والله ماأقدِر على ذلك ، فلا تكلِّفْني هذا ! فقلت : لا بدَّ من ذلك فليس عليك فيه شيء ، وإنما هي عيادة مريض . قال : ولم أزل به حتَّى أجاب ، فقلت له : فقم الآن ، قال : لستُ والله أفعلُ ، ولكن غداً ، فقلت له : ولا خُلْفَ ،

قال : نعم . فانصرفت إلى أحمد بن كليب فأخبرته بوعده فسُرَّ بذلك وآرتاحت نفسه .
فلما كان من الغد بكَّرتُ إلى أسلم ، وقلت له : الوعدَ ، قال : فوجم ، وقال : والله
لقد تحملنى على خُطَّة صَعْبة علىّ ، وما أدرى كيف أُطيق ذلك ؟ فقلت له : لا بدّ
أن تفى بوعدك لى ، قال : فأخذ رداءه ونهض معى راجلًا ، فلما أتينا منزل أحمد ،
وكان يسكن فى درب طويل . فعند ما توسّط الزُّقاق وقف وآحمرّ وخجل ، وقال :
ياسيدى ، الساعة والله أموت ! وما أستطيع أن أعرض هذا على نفسى ! فقلت :
لا تفعل بعد أن بلغت المنزل ، قال : لا سبيل والله إلى ذلك البتّةَ ! ورجع هاربا
فاتّبعته وأخذتُ بردائه ، فتمادى وتمزق الرداء وبَقِيتْ قطعة منه فى يدى لشدّة إمساكى
له . ومضى ولم أُدْركه . فرجعت ودخلت على أحمد ، وكان غُلامه قد دخل عليه
لما رآنا من أوّل الزقاق مبشِّرا . فلما رآنى تغير وجهُه وقال : أين أبو الحسن ؟
فأخبرته بالقصة فاستحال من وقته وآختلط وجعل يتكلم بكلام لا يعقل منه أكثر
من الآسترجاع . فاستبشعت الحال وجعلت أتوجَّع وقمت ، فثاب إليه ذهنُه ،
وقال لى : يا أبا عبدالله ، قلت : نعم ، قال : آسمع منى ، وآحفظ عَنِّى ، وأنشأ يقول :

أسلمُ ، ياراحةَ العَليل * رِفْقا على الهائم النَّحيل !
وصْلُك أشهى إلى فُؤادِى * من رحمةِ الخالِقِ الجليل !

قال : فقلت له : آتق الله ، ما هذه العظيمة ؟ قال : قد كان ، فخرجت عنه
فوالله ما توسطت الزقاقَ حتّى سمعت الصراخ عليه وقد فارق الدنيا .

وهذه الحكاية مشهورة عند أهل الأندلس . وأسلم هذا من بنى خالد وكانت فيهم
وزارة وحجابة . وهذا الباب طويل والحكايات والأخبار والوقائع فيه كثيرة يطول
الشرح بذكرها .

* * *

وأما من قتل نفسه بسبب العشق، فحكى عن عبد الرحمن بن إسحاق القاضى قال : آنحدرْتُ من «سُرَّ مَنْ رأى» مع محمد بن إبراهيم أخى إسحاق، ودجلة تَزْخر من كثرة مائها . فلما سِرْنا ساعةً ، قال : آرفُقُوا بنا ، ثم دعا بطعامه فأكلنا، ثم قال : ما ترى فى النبيذ؟ قلت له : أعز الله الأمير، هذه دِجلة قد جاءت بمدّ عظيم يُرْغَب مثله ، و بينك وبين منزلك مَبِيتُ ليلة ، فلو شئتَ أخرته ، قال : لا بدّ لى من الشراب، وآندفعت مغنيةٌ فغنَّتْ، وآندفعت أخرى فغنته :

يا رَحْمتَا للعاشقينا، ❊ ما إنْ أرى لَهُمُ معينا!
كم يُشْتَمون ويُضْرَبو ❊ نَ ويُهجَرون، فيصبرُونا!

فقالت لها المغنية الأولى : فيصنعون ماذا؟ قالت : يصنعون هكذا، ورَفَعَت الستارة وقذفتْ بنفسها فى دِجْلَة . وكان بين يدى محمد غلامٌ ذَكَر أنّ شراءه ألفُ دينار، بيده مِذَبَّة، لم أر أحسن منه . فوضع المِذَبَّة من يده وقذف بنفسه فى دجلة، وهو يقول :

أنتِ التى غرَّقْتِنى ❊ بعد القضا، لو تعلَمينا!

فأراد الملاحون أن يطرحوا أنفسهم خلفهما، فصاح بهم محمد: دَعُوهما يغرَقا إلى لعنة الله! قال : فرأيتهما وقد خرجا معتنقين ثم غَرِقا .

(٧٣) وحكى عن جميل بن معمر العذرى أنه قال : دخلتُ على عبد الملك بن مَرْوانَ فقال لى : يا جميل حدِّثنى بعض أحاديث بنى عذرة، فإنه بلغنى أنهم أصحاب أَدَب وغَزَل، فقلت : نعم يا أمير المؤمنين، آنتجعوا عن حَيِّهم مرة فوجدوا النُّجْعة بموضع نازح فقطنوه . فخرجت أريدهم . فبينا أنا أسير، غلِطتُ الطريقَ وجنَّ علىّ الليلُ،

فلاح لى باب فقصدته . فوردت على راعٍ فى أصل جبل قد ألجأ غنمَه إلى كهف فى الجبل، فسلمت عليه، فردّ علىّ السلام، وقال : أحسَبُك قد ضَلَلْتَ الطريق؟ قلت : قدكان ذلك، فارشِدْنى! قال : بل آنزل حتّى تُرِيح ظهرك، وتبيتَ ليلتَك، فإذا أصبحْتَ وقَّفْتك على القصد. فنزلت فرحَّب بى وأكرمنى، وعمد إلى شاة فذبحها، وأجّج نارا، وجعل يَشْوِى ويُلْقِى بين يدىّ، ويحدّثنى فى خلال ذلك. ثم قام إلى كساء فقطع به جانب الخباء ومهّد لى جانبا، ونزل جانبا خاليا . فلما كان فى الليل سمعتُه يبكى ويشكو إلى شخص . فأرِقْت ليلتى. فلما أصبحت، طلبت الإذن فأبى، وقال : الضيافةُ ثلاث! فأقمت عنده، وسألته عن آسمه ونسبه وحاله، فآنتسب لى. فإذا هو من بنى عُذْرة، من أشرافهم. فقلت : ياهذا، وماالذى أحلّك هذا الموضعَ ؟ فأخبرنى أنه كان يهوى آبنة عمّ له وتهواه، وأنه خطبها إلى أبيها فأبى أن يزوّجه إيّاها لقلّة ذات يده، وأنه زوّجها رجلا من بنى كلاب فخرج بها عن الحىّ وأسكنها فى موضعه ذلك، وأنه تنكّر ورَضِى أن يكون راعيا لتَأتِيَه ويراها. وجعل يشكو إلىّ صَبابتَه بها وعشقه لها، حتى إذا جَنَّنَا الليل وحان وقت مجيئها، جعل يتقلقل ويقوم ويقعد كالمتوقِّع لها . فلما أبطأت عن الوقت المعتاد وغلبه الشوق، وثب قائما وأنشأ يقول :

ما بالُ ميَّةَ لا تأتِى لعادتها! * أهاجَهَا طَرَبٌ أم صدَّها شُغُلُ؟
لكنّ قَلْبِىَ لا يُلْهِيه غيرُهُمُ * حَتَّى المَمَات، ولالى غيرَهُمْ أمَلُ!
لو تَعْلَمِينَ الّذِى بِى من فِرَاقِكُمُ * لما آعْتَلَلْت ولاطابَتْ لَكِ العِلَلُ!
رُوحِى فداؤُكِ! قد هَيَّجْتِ لى سَقَمًا * تَكادُ من حَرّه الأعضاءُ تَنْفَصِلُ!
لو أن عادِيَةً مِنِّى على جَبَلٍ، * لزال وآنْهَدّ من أركانه الجبَلُ!

ثم قال : ياأخا بنى عذرة ، مَكانَكَ حتَّى أعود إليك ! فما أتوهَّم أن أمْرَ ٱبنة عمِّى صحيح ! ثم مضى ، فما لبث أن أقبل وعلى يده شىء محمول ، وقد علا شَهيقُه ونحيبُه ، فقال : ياأخا بنى عذرة ، هذه ٱبنة عمى ، أرادت أن تأتينى فٱعترضها الأسد فأكلها ! ثم وضعها عن يده ، وقال : على رِسْلِكَ حتَّى أعودَ اليـك ، ومضى فأبطأ حتَّى يئستُ من رجوعه . ثم أقبل ورأس الأسد على يده ، فألقاها وجعل ينكتُ على أسنان الأسد ويقول :

ألَا أيُّها الليثُ المُخِلُّ بنفسه ! * هَلَكْتَ ! لقد حَرَّتْ يداك لنا حُزْنا !
وغادَرْتَنى فَـرْدا وقد كنتُ آلفا * وصَيَّرتَ بطنَ الأرض ثَمَّ لنا سِجْنا !
أقولُ لَدهْـرٍ خانَنِى بِفِـراقِه : * معاذَ إلٰهِى أنْ أكونَ له خِدْنا !

ثم قال : ياأخا بنى عُذرة ، إنك ستراني بين يديك ميِّتا ! فإذا متُّ فاعمدْ إلىَّ وٱبنة عمِّى ، فأدرجنا فى كفن واحد ، وٱحفُرْ لنا جَدَثا واحدا ، وٱدفِنَّا فيه ، وٱكتب على قبرى هذين البيتين :

كُنَّا على ظَهْرِها ، والعَيْشُ فى مَهَلٍ ! * والشَّمْلُ يجمَعُنا والدارُ والوطَنُ
فَفَرَّقَ الدهرُ والتصريفُ أُلْفَتَنَا * فصار يجمَعُنا فى بَطْنِها الكَفَنُ .

وَرُدَّ الغنم إلى صاحبها وأعلِمْه بقصتنا ، ثم عَمَد إلى خِناق فطرحه فى عنقه ، فناشدته الله تعالى أن لا يفعل ، فأبى وجعل يخنُق نفسه حتَّى سقَط ميتا . فكفَّنتهما ودفنتهما فى قبر واحد ، وكتبت البيتين على قبرهما ، ورددْتُ الغنم إلى صاحبها ، وأعلمته بقصتهما فحزِن حُزْنا شديدا أشفقتُ منه على نفسه .

ذكر شيء مما ورد فى التحذير من فِتنة النساء، وذَمّ الزنا ، والنظرِ إلى المُرْدان، والتحذير من اللِّواط ، وعقوبةِ اللائط

أما ما ورد من التحذير من فتنة النساء، فقد رُوِى عن أبى أُمامة بن يزيد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما تَرَكْتُ فى الناسِ بَعْدِى فِتنةً أضَرَّ على الرجال من النِّساءِ" .

وعن أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنَّ الدّنيا حُلْوةٌ خَضِرةٌ، وإن الله عز وجل مُستَخْلِفكُمْ فيها لِيَنْظُرَ كيف تَعْمَلون، فاتَّقُوا الدّنيا واتَّقُوا النساءَ، فإن أوّلَ فِتنةِ بنى إسرائيل كانتْ فى النِّساءِ " .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه، قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " إنَّ أَخْوَفَ ما أخافُ على أُمَّتِى النساءُ والخَمْرة " .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لم يكُن كُفْرُ مَنْ مضى إلّا من قِبَلِ النساء، وهو كائن، كُفْر من بَقِى من قِبَل النساء .

وعن حسان بن عطية، قال : ما أُتِيَتْ أُمَّةٌ قَطُّ إلا من قِبَل نِسائِهم .

وعن سعيد بن المسيب، قال : ما يَئِسَ الشيطانُ مِنَ ابنِ آدم قطُّ، إلا أتاه مِنْ قِبَلِ النِّساءِ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قال إبليسُ لربه عز وجل : يارَبِّ قد أُهْبِطَ آدمُ، وقد علمت أن سيكُونُ لهم كِتابٌ

ورسل، فما كتابهم ورسلهم؟ قال الله عز وجل: رسلهم الملائكة والنبيون منهم، وكتبهم التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، قال: فما كتابي؟ قال: كتابك الوشم، وقرآنك الشعر، ورسلك الكهنة، وطعامك ما لم يذكر اسم الله عليه، وشرابك من كل مسكر، وصدقك الكذب، وبيتك الحمام، ومصايدك النساء، ومؤذنك المزمار، ومسجدك الأسواق». ٥

* *

ومن فتنة النساء، ما روى عن وهب بن منبه أن عابدا كان في بنى إسرائيل، وكان من أعبد أهل زمانه. وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت، وكانت بكرا. فخرج البعث عليهم فلم يدروا عند من يخلفون أختهم، ولا من يأمنون عليها. فأجمعوا رأيهم على أن يخلفوها عند العابد. فأتوه وسألوه أن يخلفوها عنده. فأبى ذلك. فلم يزالوا به ١٠ حتى قال: أنزلوها في بيت جوار صومعتي، فأنزلوها في ذلك البيت، ثم انطلقوا وتركوها. فمكثت في جوار العابد زمانا ينزل إليها الطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة، ثم يغلق بابه ويصعد صومعته. ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام. قال: فتاطف له الشيطان. فلم يزل يرغبه في الخير ويعظم عنده خروج الجارية من بيتها نهارا، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها. فلم يزل به حتى مشى ١٥ بطعامها ووضعه عند باب بيتها، ولا يكلمها. فلبث بذلك زمانا. ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر، وقال له: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها، كان أعظم لأجرك. فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه في بيتها. فلبث بذلك زمانا. ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وحضه عليه، وقال له: لو كنت تكلمها وتحدثها، فتأنس بحديثك، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة، فلم يزل به حتى حدثها ٢٠

زمانا، يطلُعُ إليها من فوق صومعته. ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فقال له: لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدّثها، وتقعد على باب بيتها فتحدّثك، كان آنس لها. فلم يزل به حتّى أنزله فأجلسه على باب صومعته يحدّثها، وتخرج الجارية من بيتها حتّى تقعُد على بابها. فلبثا زمانا يتحدّثان. ثم جاءه إبليس فرغّبه فى الخير، فقال: لو خرجت من باب صومعتك فجلستَ قريبا من بيتها فحدّثتها، كان آنَس لها. فلم يزل به حتّى فعل. فلبثا بذلك زمانا. ثم جاءه إبليس فقال: لو دَنَوْتَ من باب بيتها، ثم قال: لو دخلت البيت فحدّثتها ولم تتركها تُبْرِز وجهها لأحدٍ، كان أحسنَ، فلم يزل به حتّى دخل البيت فجعل يحدّثها نهاره كله. فإذا أمسى صَعِد فى صومعته. قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فلم يزل يُزَيِّنُها له حتّى ضرب العابدُ بيده على فَخِذها وقبّلها. ثم لم يزل يحسنها فى عينه ويُسوّل له حتّى وقع عليها فأحبلها، فولدت غلاما. فجاء إبليس، فقال له: أرأيت إن جاء إخوتُها، وقد ولَدَتْ منك كيف تَصْنَع؟ فاعمِدْ إلى ٱبنها فاذبحه وٱدفِنْه، فإنها ستكْتُم ذلك عليك مخافَةَ إخوتها، فقتله. ثم جاءه، فقال: أتُراها تكتُم ماصنعتَ بها؟ خذها فٱذبحها وٱدفنها مع ٱبنها، فذبحها وألقاها فى الحُفْرة. فمكَثَ ما شاء الله حتّى قَفَل إخوتُها من الغزو. فجاءوه فسألوه عن أختهم فنعاها لهم وتَرحّم عليها وبَكَاها، وقال: كانت خيرَ ٱمرأة، وهذا قبرها. فأتى إخوتُها القبرَ فبكَوْها وترحّموا عليها، وأقاموا على قبرها أياما ثم ٱنصرفوا إلى أهاليهم. قال: فلما جنّهم الليلُ وأخذوا مضاجِعهم، أتاهم الشيطانُ فى النوم فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم. فأخبره بقول العابد وبموتها. فكذّبه الشيطانُ، وقال: لم يَصْدُقْكم أمْرَ أُختكم. إنه أحبلها وولدتْ منه غلاما فذبحه وذبحها معه فَرَقًا منكم، وألقاهما فى الحُفْرة خلفَ باب البيت. وأتى الأوسط فى منامه، فقال له مثلَ ذلك؛ ثم أتى أصغرهم، فقال له مثل

ذلك . فلما آستيقظ القوم ، آستيقظوا متعجبين لما رآه كلُّ واحدٍ منهم . فأقبل بعضهم على بعض يقول : لقد رأيتُ عَجَبا ! وأخبر بعضهم بعضا بما رأى ، فقال كبيرهم : هذا حُلْمٌ ، ليس هذا بشيء ، فامضُوا بنا ودَعُوا هذا ، فقال أصغرهم : لا أَمْضِي حتَّى آتِيَ ذلك المكانَ فأنظرَ فيه ، فانطلقوا فبحثوا الموضع ، فوجدوا أُختَهم وآبنَها مذبوحيْن . فسألوا عنها العابد ، فصدّق قولَ إبليس فيما صنع بهما . فاستعْدَوْا عليه ملِكَهم فأُنْزِل من صومعته وقدَّموه ليَصْلُبوه . فلما أوثقوه على الخشبة ، أتاه الشيطانُ ، فقال له : قد علمتَ أنى صاحبك الذى فتنتك فى المرأة حتَّى أحبَلْتها وذبحتها وآبنَها ، فإن أنت أطعتَنِى اليوم وكفَرْت بالله الذى خلقك ، خلَّصْتك مما أنت فيه ، فكَفَر العابدُ بالله . فلما كَفَر ، خلَّى الشيطانُ بينه وبين أصحابه فصَلَبوه .

قال وهب : ففيه نزلت هذه الآية : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إذْ قالَ لِلْإنسانِ آكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إنِّى بَرِىءٌ مِنْكَ إنِّى أَخافُ اللهَ رَبَّ العالَمِينَ فكانَ عاقِبَتَهُمَا أنَّهما فى النَّارِ خالِدَيْنِ فيها وذَلكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

نسأل الله العافية من فتنتهن ، ونعوذ به من الشيطان الرجيم .

* * *

وأما ماجاء فى ذم الزنا ، فكفى به ذمّا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إنَّهُ كانَ فاحِشَةً وساءَ سَبِيلاً ﴾ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يَسْرِقُ السارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وهُوَ مُؤْمِن ، ولا يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وهُوَ مُؤْمِنٌ" الحديث .

وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يا أُمَّةَ محمد ، ما أحَدٌ أغْيَرَ من الله أن يَرَى عبْدَه أو أمتَهُ تَزْنِى" .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "اشْتَدَّ غضَبُ الله تعالى على الزُّناة" .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الإيمانَ سِرْبال يُسَرْبِلُه اللهُ مَنْ يَشَاء . فإذا زنى العبدُ، نُزِع منه سِرْبالُ الإيمانِ، فاذا تاب رُدّ عليه " .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما مِنْ ذنبٍ بعدَ الشِّرْكِ أعظَمَ عند الله من نُطْفةٍ وضَعَها رجلٌ فى رَحِمٍ لايَحِلُّ له" .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إيَّاكُمْ والزِّنا، فإنَّ فى الزنا سِتَّ خِصَال، ثلاثٌ فى الدنيا، وثلاثٌ فى الآخرة : فأما اللواتى فى الدنيا، فذَهَاب نُور الوجْهِ، وانقطاعُ الرِّزْق، وسُرْعة الفَنَاء؛ وأما اللَّواتى فى الآخرة، فغَضَبُ الربِّ، وسُوءُ الحِسَاب، والخُلُودُ فى النار، إلا أن يشاءَ الله تعالى" .

وعن عبد الله قال : قلت : يارسول الله أىُّ الذنب أعظَمُ؟ قال : "أن تجعَلَ لِله نِدًّا، وهو خلَقَك!" قلت : ثم أىّ ؟ قال : "أن تَقْتُل ولَدَك من أجل أن يَطْعَمَ مَعَكَ" . قلت : ثم أىّ؟ قال : "أن تَزْنِى بحليلةِ جَارِكَ" .

والأحاديث الصحيحة فى ذلك كثيرة .

* * *

وأما ماجاء فى النهى عن النظر إلى المُرْدان ومجالستهم . روى عن أبى السائب انه قال : لَأَنَا على القارئ من الغُلام الأمْردِ أخوفُ منِّى عليه من سَبْعينَ عَذْراء . وفى لفظ عنه : لَأَنَا أخوف على عابد من غلامٍ أمردَ من سبعين عَذْراءَ .

وعن سعيد بن المسيب أنه قال : إذا رأيتم الرجل يُلحّ النظر إلى غلام أمرد، فاتّهموه .

وكان سفيان الثوريّ رضي الله عنه لايدع أمرد يجالسه .

وعن يعقوب بن سوال قال : كنا عند أبي نصر بشر بن الحارث. فوقفت عليه جاريةٌ مارأينا أحسن منها ، فقالت ياشيخ : أين مكانُ باب حرب؟ فقال لها : هذا الباب الذي يقال له بابُ حرب. ثم جاء بعدها غلام فسأله ، فقال له ياشيخ : أين مكانُ باب حرب؟ فأطرق بشرٌ. فردّ عليه الغلامُ السؤالَ فغمّض عينيه. فقلنا للغلام : أيّ شيء تريد؟ فقال : باب حرب. فقلنا : بين يديك. فلما غاب، قلنا ياأبا نصر، جاءتك جاريةٌ فأجبتها وكلمتها، وجاءك غلام فلم تكلمه؟ فقال : نعم، يروى عن سفيان الثوريّ أنه قال : مع الجارية شيطانٌ، ومع الغلام شيطانان، فخشيت على نفسي من شيطانَيه .

وعن أبي سعيد الخراز، قال : رأيت إبليس في النوم، وهو يمرّ عنّي ناحية، فقلت : تعالَ ، فقال : أيّ شيء أعمل بكم؟ أنتم طرحتم عن نفوسكم ماأُخادعُ به الناسَ، قلت ماهو؟ قال : الدنيا، فلما ولّى، التفت إليّ فقال : غير أن لي فيكم لطيفةً، قلت : ماهي؟ قال : صحبةُ الأحداث .

وعن مظفر القرميسيني، قال : من صحب الأحداث على شرط السلامة والنصيحة، أدّاه ذلك إلى البلاء، فكيف من صحبهم على غير وجه السلامة ؟

وقد ذكر أبو الفرج في كتابه المترجم "بذم الهوى" من افتتن بالأحداث، وصرح بأسمائهم . فلم نؤثر التعرض لذلك، لما فيه من التشنيع عليهم والإذاعة لمساويهم .

* * *

وأما ماجاء فى التحذير من اللواط وما ورد فى سِحَاق النساء، روى عن آبن عباس رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَلْعونٌ ملعونٌ من عَمِل بعَمَلِ قومِ لُوطٍ" . وعنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لَعَن اللهُ من عَمِل عَمَلَ قومِ لوط" .

وعن جابر بن عبد الله، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنَّ أخوفَ ماأَخافُ على أُمّتى عملُ قومِ لُوطٍ" . وفى لفظ آخر عنه صلى الله عليه وسلم : "إن أخْوفَ ما أخافُ على أُمّتى من بعدى عمــلُ قَوْمِ لوط ، أَلَا فلْتَترَقَّبْ أمتى العذابَ إذا كان الرجالُ بالرجال والنساءُ بالنساءِ" .

وعن آبن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لاينظُرُ الله إلى رجل أتى رجُلًا أو آمرأةً فى دُبُرِها" .

وعن عبد الله بن عمرَ رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لم يَعْلُ فَحْلٌ فَحْلا حتّى كان قومُ لوطٍ، فإذا عَلَا الفحلُ الفحلَ، آرتجَّ أو آهتزَّ عرش الرحمن عز وجل، فاطّلعت الملائكة تعظيما لفعلهما، فقالوا: يارِبِّ، ألا تأمُر الأرضَ أن تَغُورَ بهما، وتأمُرُ السماءَ أن تَحْصِبَهما، فيقول الله تعالى: إنّى حليم لا يفوتُنِى شىءٌ".

وعن سِماكِ بن حَرْب، عن عبد الله بن عبــاس رضى الله عنهــما أنه قال : إن الرجلَ ليأتى الرجلَ فتَضِجُّ الأرضُ من تحتهما، والسماءُ من فوقهما، والبيت والسقفُ، كلهم يقولون : أىْ ربِّ، آئذَنْ لنا يَنْطَبِقْ بعضُنا على بعض فنجعلَهم نَكَالا ومُعتبرا ، فيقول الله عز وجل : إنهم وَسِعهُمْ حِلْمِى ولن يَفُوتُونِى .

وكان سفيان الثوري رحمه الله يقول : لو أنَّ رجلا عَبَث بغلام بين إصبعين من أصابع رجليه يريد الشهوةَ، لكان لوَاطا .

وروى عن مكحول عن واثلة بنِ الأسقع أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سِحَاقُ النساء زنًى بينهن" .

٥

* * *

وأما ماورد في عقوبة اللائط والمَلُوط به في الدنيا والآخرة :

أما عقوبة الدنيا، فقد جاء بها نصُّ القرآن في قصة قوم لوط، وشَرْح أفعالهم، وما عذبوا به في آي كثيرة .

وجاء في الأحاديث النبوية، على قائلها أفضل الصلاة والسلام، في عقوبة اللائط والملوط به ما يدل على التغليظ والتشديد . ١٠

فمن ذلك ما رُوِى عن عكرمة عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيمن عَمِل عَمَلَ قومِ لوط : يُقْتَلُ الفاعلُ والمفعولُ به، وفي لفظ آخر عن ابن عباس عن النبي صلَّى الله عليه وسلم : اقْتُلُوا الفاعلَ والمفعولَ به، في عَمَل قوم لوط .

١٥ وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ عَمِل بعمل قومِ لُوط فاقتُلُوه" .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ وَجَدْتُموه يعملُ عملَ قومِ لُوط ، فارْجُموا الأعْلى والأسفَلَ" .

وعن محمد بن المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أنه وجد رجلا فى بعض الأضاحى ينكح رجلا كما تنكح المرأة . فجمع أبو بكر رضى الله عنه لذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ، فيهم علىّ بن أبى طالب ، وقال : إن هذا ذنب لم تعمل به أمة إلا أمة واحدة ، ففعل الله بهم ما قد علمتم ، أرى أن نُحَرِّقه بالنار . فاجتمع رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يُحَرَّق بالنار . فأمر به أبو بكر رضى الله عنه أن يُحَرَّق بالنار ، وقد حرّقهم عبد الله بن الزبير ، وهشام بن عبد الملك .

— وعن يزيد بن قيس أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه رَجَم لوطيًّا .

— وعن سعيد بن زيد قال : سئل عبدُ الله بنُ عباس رضى الله عنهما ، ما حدُّ اللوطىّ؟ قال : ينظر أعلى بيت فى القرية فيرمى منكَّسا ثم يُتْبَع بالحجارة .

وللتابعين ولأئمة العلماء فى ذلك أقوال :

فمنهم من رأى أن حدّه كحدّ الزنا ، وفرّق بين المحصَن وغير المحصن .

ومنهم من رأى أن حدّه القتلُ أحصَنا ، أو لم يُحصِنا .

روى سفيان عن جابر عن الشعبىّ أنه قال : اللُّوطىّ يُرْجَم ، أَحْصن أو لم يُحْصِن .

وعن ابن أبى نجيح عن عطاء قال : حدُّ اللوطىّ حدُّ الزانى ؛ وإن أَحْصن رُجِم ، وإلا جلد . وبه قال الهيثم .

وعن قتادة عن الحسن أنه قال فى الرجل يخالط الرجل : إن كان أحْصن ، جُلد ورجم ؛ وإن كان لم يُحْصِن ، جلد ونُفى .

وعن مالك بن أنس عن الزهرى قال : يُرْجَم ، أَحْصن أو لم يحصِنْ .

وعن الطيالسي قال : حدثنا إسحاق الكوسج ، قال : قلت لأحمد بن حنبل : أيرجم اللوطي، أحصن أو لم يحصن؟ قال : يرجم، أحصن أو لم يحصن .

وقد روى عن أحمد بن حنبل أن حد اللوطي كحد الزاني ، يختلف بالثيوبة والبكارة . وهو قول محمد عن الشافعي .

وقال الحكم : يضرب اللوطي دون الحد . قال ابن الجوزي : وإلى هذا مال أبو حنيفة .

وأما مذهب ابن حزم الظاهري فإنه لايضرب في اللواط فوق عشرة أسواط .

وقال النخعي : لو كان أحد ينبغي أن يرجم مرتين، لكان ينبغي أن يرجم اللوطي مرتين .

وحكى أبو الفرج بن الجوزي ، قال : أخبرتنا شهدة بنت أحمد ، قالت : أخبرنا جعفر بن أحمد السراج ، قال : أخبرنا عبد العزيز بن علي ، قال : أخبرنا علي بن جعفر الصوفي ، قال : سمعت الموازيني يقول : قال لي رجل من الحاج : مررت بدار قوم لوط ، وأخذت حجرا مما رجموا به ، فطرحته في مخلاة ، ودخلت مصر ، فنزلت في بعض الدور في الطبقة الوسطى . وكان في سفل الدار حدث ، فأخرجت الحجر من خرجي ، ووضعته في روزنة في البيت . فدعا الحدث الذي كان في البيت صبيا إلى عنده واجتمع معه ، فسقط الحجر على الحدث من الروزنة ، فقتله .

وقال أيضا : أخبرتنا شهدة ، قالت : أخبرنا جعفر بن أحمد ، قال : أخبرنا أبو الحسين محمد بن عثمان بن مكي ، قال : أخبرني جدي أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن أحمد ، قال : أخبرنا أبو العباس أحمد بن عيسى الوشا المقرى ، قال : سمعت أبا عبد الله

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم يقول : سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول : خرجتُ حاجًّا إلى مكة . فلما كانت ليلةُ عرفاتَ، رأى الإمامُ الذى حَجَّ بنا تلك الليلةَ منامًا . فلما صِرْنا إلى مكةَ بعد انقضاء الحج، سمعنامناديا ينادى فوق الحجر : أنصتوا يامعشر الحجيج ، فأنصتَ الخلقُ ، فقال : يامعشر الحجيج ، إن إمامكم رأى أن الله عز وجل قد غفر لكل من وافى البيتَ العامَ إلا رجلًا واحدا فإنه فَسَق بغلام . ٥

*
* *

وأما عقوبته فى الآخرة ، فقد رُوِى عن أبى سلمة عن أبى هريرة وعبد الله ابن عباس رضى الله عنهم ، قالا : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال فى خطبته : "مَن نَكَح امرأةً فى دُبُرِها أو غُلامًا أو رَجُلا ، حُشِر يوم القيامةِ أنْتَنَ من الجيفة ، يتأذى به الناسُ حتّى يُدْخِلَه الله نارَ جَهنم . ويُحبطُ الله عملَه ، ولا يقبَلُ ١٠ منه صَرْفا ولا عَدْلا . ويُجعلُ فى تابوتٍ من نار ، ويُسَمَّر عليه بمساميرَ من حديد من نار ، فتشتبك تلك المسامير فى وجهه وفى جَسَده" . قال أبو هريرة : وهذا لمن لم يَتُبْ .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "سبعةٌ لاينظرُ اللهُ إليهم يومَ القيامة ولا يُزَكّيهم ولا يجمَعُهم مع العالمين ، يَدْخُلونَ ١٥ النارَ أوّلَ الداخلين إلا أن يَتوبوا ، فمَن تاب ، تاب الله تعالى عليه : الناكحُ يَدَه ، والفاعلُ والمفعولُ به ، ومُدْمنُ خمرٍ ، والضاربُ أبويْهِ حتّى يستغيثا ، والمؤذى جيرانَهُ حتّى يلعنوه ، والناكحُ حليلةَ جاره" .

وعن إبراهيم بن علقمة عن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللُّوطِيَّان لو اغتَسلَا بماء البحر ، لم يجزِهما إلا أن يَتُوبا" . ٢٠

وعن أنس رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ مات من أُمّتى يعمَلُ عملَ قومِ لُوط، نقلَهُ الله إليهم حتّى يُحشَر مَعَهم".

قلتُ: وقد بلغنى من كثير من الناس أن رجلين مشَيا على جانب البِرْكة المعروفة ببِرْكة قوم لُوط، وهى فى غَوْر الكرك على جانبها ضِياعٌ، منها الصافية واللاخية وسويمة وغيرها، وتعرف هـذه البركة أيضا بالمنتنة، ويقال إنها إحدى المدائن التى خُسِف بها (من مدائن قوم لوط). فجعلا يتباسطان. فكان مُن جملة ما قالاه أو قاله أحدهما للآخرفلم ينكره: هـذه بركة أصحابِنا، فطلعت من البركة مَوجة آختطفَتْهما معـا، وألقتهما فى البركة. فكان آخرَ العهد بهما.

وهذه الحكاية يتداولها أهل تلك البلاد. لاينكرها سامع منهم على قائل. ولا يبعُد أن يُعاقَب مَن تجاهر بمعاصى الله وآنتسب لمن كفر بالله وعصاه وكذّب رسولَه أن يعاقبه الله بمـا عاقبهم به ويلحقه بهم. وفى بعض هذا عبرة لمن آعتبر.

ولنرجع إلى سياق ماجاء فى ذلك من الأحاديث والأخبار.

روى أبو الفرج عبـد الرحمن بن الجوزىّ بسـنده إلى أنس بن مالك رضى الله عنـه أنه قال: سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول: "مَنْ قَبَّل غُلامًا بشهوة، عَذّبه الله فى النار ألفَ سنةٍ، ومن جامعه لم يَجِدْ رائحةَ الجنةِ، وريحُها يُوجدُ من مَسيرةِ خمسمائة عام، إلا أن يَتُوبَ".

وعن خالد عن إسمعيل بن كَثِير عن مجاهد، قال: لو أنّ الذى يعمل ذلك العملَ (يعنى عمل قوم لوط) آغتسل بكل قَطْرة فى السماء وكلّ قطرة فى الأرض، لم يزل نجسا.

وعن عَبّاد بن الوليد العنبرىّ قال : سمعت إبراهيم بن شَمّاس يقول : سمعت الفُضَيل بن عياض يقول : لو أنّ لُوطِيًّا آغتسل بكل قَطْرة من السماء، لَقِىَ الله تعالى غير طاهر .

وعن طلحة بن زيد عن بُرد بن سنان عن أبى المنيب عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما، قال : يُحشَر اللوطيون يوم القيامة فى صورة القِرَدة والخنازير . ٥

وعن أبى الصهباء عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم قال : مَن خرج من الدنيا على حالٍ، خرج من قَبْره على تلك الحال، حتّى إن اللوطىّ يخرج يعلق ذكره على دبر صاحبه مفتضحين على رءوس الخلائق يوم القيامة .

هذا ما أمكن إيراده فى هذا الفصل على سبيل الآختصار والإيجاز، وإلا فالأخبار فى العشق وتوابعه وما يتولد عنه كثيرة جدّا، ووقفنا منها على كثير، ولا يحتمل أن ١٠ يُورد فى الكتب الشاملة لفنون مختلفة أكثرُ مما أوردناه . فلنذكر الآن نبذة مما قيل فى الغزل والنسيب .

ذكر نبذة مما قيل فى الغَزَل والنسيب

هذا الباب — أكرمك الله وعافاك، ووقاك من فتنته وكفاك — بابٌ متسع، قد أكثر الشعراء القول فيه، وتنوّعوا فى أساليبه ومعانيه؛ لو آستقصيناه لطال به ١٥ هذا التصنيف، وآنبسط هذا التأليف؛ وكان بمفرده كُتُبا مبسوطة وأسفارا كبيرة، فلخصنا منه دررا نفيسة وأعلاقا خطيرة؛ وآقتصرنا منه على ما رَقّ معناه وراق، وحَسُن لفظه وشاق؛ وآرتاحت إليه النفوس، وتحلت به الطروس؛ ولَحَته النواظر، وآنجذبت إليه الخواطر . وقد تنوّع الشعراء فى الغَزَل : فتغزّلوا فى المحبوب باسمه،

وكَنَوْا عنه وآستعاروا له ، ووصفُوا أعضاءه وشبهوها بأشياء ، فشبهوا العيون بالنَّرجِس ، وأفعالَها بالخمر والسِّهام ، وشبَّهوا الحواجب بالقِسِىّ ، والجبين بالصَّباح ، والشُّعور بالليالى ، والسَّوالف بالعَوالى والصوالج والعقارب ، وشبهوا الوجه بالشمس والقمر ؛ وشبهوا الخدود بالورد والتُّفاح ؛ وشبهوا الثُّغور بالأُقْحُوان ، واللّمى بالخَمْر ، والريق بالشَّهد ، والشِّفاهَ بالعقيق ، والأسنان باللُّؤلؤ ؛ وشبهوا النُّهود بالرُّمّان ، والقَوام بالغُصون ، والأرداف بالكُثْبان . وغير ذلك . وقد تقدّم إيراد ذلك كله مستوفًى فى موضعه ، وهو فى الباب الذى قبل هذا الباب .

وتغزلوا أيضا فى أصناف الفواكه المأكولة والمشمومة ؛ وتغزلوا فى الرياض والأزهار .

وسنورد إن شاء الله ذلك فى موضعه ، وهو فى القسم الثانى والثالث والرابع من الفن الرابع من كتابنا هذا ، فى السفر العاشر من هذه النسخة .

فلنورد الآن ها هنا من باب الغزل والنسيب خلافَ ما قدّمنا ذكره مما ذكرناه وما نذكره إن شاء الله تعالى .

والذى نورده فى هذا الباب نبذة مما قيل فى المذكَّر ، والمؤنَّث ، والمُطْلَق ، والمشترَك ، وطَيْف الخيال ، والرّد على العَذول ، ورُجُوع العذول ، والوِصال ، والفراق ، والبَيْن ، والتوديع ، والصدّ ، والهِجْران ؛ وما قيل فى الزيارة وتخفيفها ، وموانعها ، والمدامع ، والرضا من المحبوب باليسير ، والنُّحول ؛ وما قيل فى المحبوب إذا آعتلّ ؛ وما قيل على لسان الورقاء ، والمراجعات ، والمردوف ، والجناس ، والمُوشَّحات .

فما قيل فى المذكر

قال العماد الأصفهانى الكاتب :

وأحْوَرَ يَسْبِى بِطَرْف يكلّ * وتَخْجَلُ منه الظُّبا والظِّباءْ،
بخدّيْه من حُسْنِه والشباب * تجمّعَ ضِدّان : نارٌ وماءْ،
وفى مُقْلتيه وقد صَحّتا * كما صَحّتا سَقَمٌ وآنتشاءْ.
عَفَفْت وعفت الحَيَا فى هوا * ه حتّى آستوى صَدّه واللّقاءْ.
وكلُّ حياءٍ يَذُود العَفَا * فَ عن وُدّه، فعليه العَفَاءْ!

(٧٨)

وقال آخر :

وكأنَّ بهجةَ وجهِه فى شَعره * قمرٌ بَدَا فى لَيْلةٍ لَيْلاءِ.
وكأن عَقْربَ صُدْغه فى خَده * وقفَتْ مخافَةَ نارِه والماءِ.
قمرٌ رجوتُ من الزمان وِصالَهُ * يومًا، فأخلَفَ بالصُّدود رَجائى!

وقال عبد الجليل بن وهبون :

وافَتْ به غَفلةُ الرَّقيب * والنجمُ قد مالَ للغُرُوب ،
نَشْوانَ قد هَزّت الحُميَّا * منه قَضيباً على كَثِيب !
يَعثُرُ فى ذيله فَيحكى * عَثْرَةَ عينيه فى القُلُوب !
واللهِ لو نالَت الثُّرَيَّا * ما نال من بَهجةٍ وطِيب ،
دَنَا إليها الهلال حتّى * قبّل فى كَفّها الخَضيب !

وقال آبن حجاج :

ومُذَلّل! أما القضيبُ فقَدُّه * شَكلا وأمّا رِدفُه فكَثيبُ!
يَمْشى وقد فعلَ الصِّبا بقَوامه * فعْلَ الصَّبا بالغُصْنِ، وهو رَطيبُ.

مُتَلَوِّن يُبدى ويُخفى شخصه * كالبدر يطلع تارةً ويغيبُ.
أرمى مَقاتِلَه فتُخطئُ أسهمى * غرضى، ويَرمى مُهجتى فيُصيبُ!
نفسى فداؤك! إنّ نفسى لم تَزَل * يَحْلُو فداؤكَ عندها ويَطيبُ!
مالى ومالكَ لا أراك تَزُورُنِى * إلا ودُونَكَ كاشحٌ ورقيبُ!

٥ وقال أبو نُوَاس:

شَبِيهٌ بالقضيبِ وبالكثيبِ! * غريبُ الحسنِ ذُو دَلٍّ غريبِ!
بعيدٌ. إن نظرتَ إليه يوماً، * رجعتَ وأنت ذُو أجلٍ قريبِ!
تَرى للصَّمْتِ والحَرَكات فيه * سُوَاما لا يُذَادُ عن القُلوبِ.
ويمتحنُ القلوبَ بمقلتَيْه، * فينكشفُ البرىءُ من المُرِيبِ!

١٠ وقال الوأواء الدمشقىّ:

بَدرٌ تَقَنّــــع بالظّلا * م على قَضيب فى كَثِيبِ!
تَدْعُو محاسِنُه القلو * بَ إلى مُشافَهة الذُّنوبِ.
فعلَتْ به ريحُ الصَّبا * ماليس تَفعل بالقَضِيبِ.
عُقِلَتْ رَكائبُ حُسْنِه * بعقُولنا عند المَغيبِ.
١٥ وتلطّمتْ وجَنَاتُنا * بيدِ الدُّموعِ من النَّحيبِ!

وقال الأمير تاج الملوك ابن أيوب:

سَلَب الفؤادَ فلا عَدِمْتُ السالبا! * ورَنَا، فكان اللحظُ سَهْما صائبا!
قمرٌ مَشَارقُه الجيوبُ، فلا ترى * أبدًا له إلا القُلوبَ مَغاربًا!
ملَكَ الفؤادَ بمقلتين وحاجبٍ * أمسى لحُسْن الصبر عَنِّى حاجبًا.
٢٠ وحكى القضيبَ شمائلا عَبِثَتْ به * أيدى النَّسيم شمائلا وجنائبا!

وقال أيضا :

يا أيُّها البدرُ الّذى * مَطْلَعُهُ طَوْقُ القَبا !
يا جَنَّةَ القلب الّذى * أضرَمَ فيه لَهَبَا !
فَدَّيتُ هذا الوجهَ، ما * أحْسَنَه وأعجبا !
لم تَرَ عينى قَبْلَه * صُبْحا تردَّى غَيْهبا !

٥

وقال أبو نُوَاس :

يا بِدْعةً فى مِثَالٍ * يحُوزُ حدَّ الصِّفات !
فالوجهُ بدرُ تَمامٍ * بعَيْنِ ظَبْىِ فَلاة !
والقَدّ قدُّ غُلامٍ * والغَنْجِ غَنْجِ فَتاة !
مذكَّر حين يبدُو، * مؤنَّثُ الخَلَوات !
زَهَا علَىَّ بصُدْغٍ * مُزَرْفَنِ الحَلَقات .
مِنْ فوق خَدٍّ أسِيلٍ * يُضِىءُ فى الظُّلُمات !

١٠

وقال كُشاجِم :

مُعتَدِلٌ مِن كُلِّ أعطافه ! * مُسْتحسَنُ الإقبال والمُلْتَفَتْ !
لو قيستِ الدُّنْيا ولَذَّاتُها * بساعةٍ من وصله ، ماوفَتْ !
سُلِّطت الألحاظُ منه على * قلبى؛ فلوأوْدَتْ به ما آشتَفَتْ !
وآستعذَبَتْ رُوحِى هواه فما * تسلُو ولا تَصْحُو، ولو أُتْلِفَتْ !

١٥

وقال فضل الرَّقَاشىّ :

وشاطرٍ فاتِكِ الشَّمائل قد * خالَطَ منه المُجونُ تخنيثا .
تراه طَوْرا مذكَّرا؛ فإذا * عاقَرَ راحا، رأيتَ تأْنيثا .

٢٠

ألثغُ إن قلت يافديتك : قُلْ * مُوسى، يقُلْ من رُطوبة : مُوثا.
ما زال حتّى الصباح معتنِقِى * مُطارحِى فى الدُّجى الأحاديثا.

وقال كُشاجم :

بليتُ بوجْدين(١) وجْدى بظَبْيٍ * يَصُدّ، وما به إلا الجَاجُ.
وعذّبنِى قضيبٌ فى كَثِيبٍ * تَساوى فيه لِينٌ وآنْدماجُ.
أغارُ إذا دَنَتْ مِنْ فيه كأسٌ * على دُرٍّ يقبّله زُجاجُ.

وقال أيضا :

ياقَوْمِى! مَنْ لمُكْتئِبٍ * دمْعُه فى الخدّ مُنْسَفِحُ؟
لامَهُ العُذّال فى رَشَإٍ * عُذْرُه من مِثْلِه يَضِحُ.
وآدّعَوْا نُصْحى! وأخْوَنُ ما * كان عُذّالى إذا نَصَحُوا!
خوّفُونِى من فَضيحَتِه، * لَيْتَه وافى وأفتَضِحُ!
كَيْفَ يسْلُو القَلْبُ عن غُصُنٍ، * عَلّه من مائِه المَرح؟
ذَهَبِىّ الحُسْن تحسَبُ من * وجنَتَيْه النارَ تقتَدَحُ!
وكأنّ الشمسَ نِيطَ لها * قمرٌ، يُمْناه والقَدَحُ.
صَدّ أنْ ما زَحْته غَضَبا! * ماعلى الأحباب إن مَزَحُوا؟
وهو لا يدرى لنَخْوتِه * أننا فى النَّوْم نَصْطَلِحُ!
ثُمّ لا أنسى مقالَتَه : * أطُفَيْلِىٌّ ومقْتَرِح؟

(١) كذا فى الأصول، وهو مخالف للوزن الشعرى، والذى فى ديوان كشاجم المطبوع :
* بليت ولَجّ بى وجد بظبى * الابيات.

وقال تاج الملوك آبن أيوب :

فَديتُ وجهَ الحبيبِ بَدْرا! * والبَدْرُ يُفْدَى، وليس يَفْدى!

سَبى فُؤادى بلَيْلِ شَعرٍ * وصُبْحِ وجهٍ وغُصْنِ قَدّ.

فى فَمِه عَنبرٌ مُدَافٌ * فى قَهوةٍ خُولِطَتْ بشَهْد.

كأنّما خَدُّه شَقيقٌ، * نُقِّط مِنْ خالِه بنَدّ.

ظَبْىٌ من التُّرك ذُو دَلَال * يَستَحْسِنُ الجورَ والتعدّى.

كأنّهُ غُصْنُ خيزُرانٍ، * إذا آنثَنى أو قَضيبُ رَنْد.

يَحُلُّ فى الحُبِّ عَقْد صَبْرِى * إن شَدَّ فى الخَصْر عقْد بَنْد!

وقال أبو نُوَاس :

أيا مَنْ بحُبِّى علَىّ آجترى؟ * ومَنْ بلسانى علىّ افترى؟

ومَنْ بيَدى غَلَّنِى للهوى، * فأصبحتُ للحُبِّ مستأسِرا؟

أمَا والذى جَعل المُسْتَهام * صَديقَ السُّهادِ عَدُوَّ الكَرَى!

لقد ذهبَتْ مُهْجتِى باطلًا، * لئن متُّ منك على ما أرى!

وقال آخر :

ومُهَفهِفٍ طاوِى الحَشَا * خَنِثِ المَعَاطِفِ والنظَرْ!

مَلَأ القلوب بصُورةٍ * تُلِيَت مَحاسِنُها سُوَرْ!

فإذا رَنَا وإذا شَدَا * وإذا سَقى وإذا سَفَرْ:

فَضَح الغَزالَة والحَمَامة والمُدامةَ والقَمرْ!

وقال آخر :

إذا أكْثَرَ الواشُونَ فينا مَقَالَهُمْ * وليس لهمْ عندى وعندَك من ثار،

وشَنُّوا على أسماعِنا كُلَّ غارةٍ ∴ وقَلَّتْ حُماتي عندذاكَ وأنصاري،
لَقِيناهُمُ من مُقْلتَيْكَ وأدمُعِي ∴ وأنفاسِنا بالسَّيف والسَّيْل والنار.

وقال آخر، من شعراء اليتيمة :

وأغَنَّ أغيَدَ حُبُّه * مستأنس لِي،وَهْو نافِرْ!
إنْ قُلتُ : زُرْني! قال :نَمْ، * فالطَّيْفُ ليس يَزُور ساهِرْ! ٥
كيفَ السبيلُ إلى الرُّقا * دِ كما رَسَمْتَ،وأنت هاجِرْ؟
ويقولُ لي فيما يقو * لُ : نَعَمْ! وما للقَوْل آخِرْ!
حتَّى أُشاوِرَ! قلت :لـكِنِّي هوِيتُ ولم أُشَاوِرْ!

وقال تاج الملوك :

ياقمرًا أقبلَ يَسْعى على * دعْصٍ من الأغصان مَهْزُوز! ١٠
وصْلُك،واويلي! على طِيبِه * أصبحَ ذا مَنْع وتَعْزِيز.
ما كانَ إلا بَيْضةَ الدِّيك لي * أو مَطْرةً في شهر تَمُّوز.

وقال أبو نُوَاس :

عَذَّبَني قلبي بمَنْ قَلْبُه * للصَّبِّ مثلُ الحَجَر القاسي.
أحْوَرَ فَتَّانٍ قَطُوفِ الخُطَا * أغْيَدَ مثل الغُصْنِ مَيَّاس. ١٥
أَبِيتُ لَيْلي ونَهارِي مَعًا * مُعَلَّقًا منه بوسْوَاس.
إنِّي وإنْ لم يَكُ لي نائلٌ * مِنْه لأَرْجُوه على يَأْس.

وقال سيف الدّين المشدّ :

إلى قَدِّكَ اللَّدْنِ يُعْزى الهَيَفْ! * فما هبَّتِ الرِّيحُ إلا انْعطفْ!
قَوَامٌ أرادَ قَضِيبُ النَّقا * يُحاكيه،لَمَّا انْثنى، فانقصَفْ! ٢٠

فيارَامِيًّا قــد رَمانِي هَواهُ * بنار الأَسى فى بِحار الأَسَفْ!
سِهامُ جُفونِكَ قَلْبِي غَــدَا * لهــا غَرَضًا، وضُلُوعي هَدَفْ.
وأَوْردْتَنِي فى الهَوى مَوْرِدًا * تجرّعْتُ فيــه مَرِيرَ التَّلَفْ.
وأعرضْتَ عنِّي، ولاذَنْبَ لِي! * فكَمْ ذا الدّلال! وكَمْ ذَا الصَّلَفْ!
ومُخْطَفُ خَصْرٍ على رِدْفِـه، * فكلُّ فُــؤادٍ به مختَطَفْ!

وقال أبو القاسم العطار:

وبِي غَزالٌ، إذا صادَفْت غِرَّتَهُ * جنَيْتُ من وجْنتَيْه رَوضــةً أُنُفَا!
كالبَدْر مكتَمِلا، كالظَّبْي ملتَفِتا، * كالروض مُبْتَسِما، كالغُصن مُنْعطِفا!

وقال تاج الملوك:

ياقمرًا فى غُصُنٍ من بانَةٍ، * يَميلُ عُجْبا فى كَثيبٍ من نقا!
أصبَح قَلْبُ المُستهامِ مَغْرِبا * له، وأطْواقُ القَبَاءِ مَشْرِقا!
أغيَدُ، لا يَقْصد إلّا تلَفِى! * ولم يَزَلْ قلــبِي به مُعلَّقــا.
ذَكَّرنِى حسنُ ٱبتسامِ ثَغْره الْــــواضِحِ لَمْعَ البرْقِ إذ تَأَلَّقــا.
وطالَمَا ذَكَّرنِى رُضَــابُه الــبَّـاردُ صِرْفَ الراح إذ تَعتَّقا.
أغَنّ، مافوّقَ سَهْمَ لَحْظِــه * إلا أصاب القَلْبَ لَمّـا فَوّقا.
حاجِبُــه قوسٌ ولَحْظُ عينِه * سهمٌ، فما يُخْطِى إذا مارَشَقا.

وقال أبو نُوَاس.

جالَ ماءُ الشَّباب فى خَدَّيكا، * وتَلالَا البَهــاءُ فى عارِضَــيْكَا.
ورمى طَرْفُك المُكَحَّلُ بالسِّحْــــرِ فؤادى فصار رَهْنــا لَدَيْكا.

أنا مستهتر بحبك صبٌّ * لستُ أشكو هواك إلّا إليكا.
يا بديعَ الجمالِ والحسن والدلّ * حياتي وميتتي في يديكا.
بأبي أنتَ! لو بُليتَ بوجدي * لم يهُن مالقيتُ منك عليكا!
أصبحتْ بالهوى سهامُ المنايا * قاصداتٍ إليَّ من عينيكا!

٥ وقال أيضا :

يا مَنْ جداه قليلُ * ومَنْ بلاه طويلُ!
ومَنْ دعاني إليه * طَرْفٌ أحمُّ كحيلُ،
وواضحُ النبتِ يحكي * مزاجَهُ الزنجبيلُ،
ووَجْنةٌ جائلٌ ما * ؤها وخدٌّ أسيلُ.
١٠ وغُصنُ بانٍ تثنّى * قدّا، وردْفٌ ثقيلُ،
ويجمع الحسنَ فيه * وجهٌ وسيمٌ جميلُ!
فكُلُّ ناحيةٍ من * قلبي إليه تميلُ!

وقال الوأواء الدمشقي :

رماهُ رِيمٌ فأصا * بَ القلبَ منه، إذ رمى،
١٥ واحتجَّ في قتلته * بأنه ما علما.
يا معشرَ الناسِ! أما * يُنصفُني مَنْ ظلما؟
علّم سُقْمُ طرْفه * جسمِيَ منه سقما.
فسُقْمُ جسمي في الهوى * من طرْفه تعلّما.
لو قيلَ لي: ما تشتهي؟ * مخيّرا محكّما،
٢٠ لقلتُ أن ألثمَه: * نحرا ووجها وفما!

وقال الوزير أبو مروان عبد الملك بن جَهْوَر :

أحْوى النواظرِ، ألْعَسُ الشَّفتين، عذْبُ الرِّيقِ، ألْمَى!

لو زارَنى طَيْــفٌ له * عِنْد الهُجُوع ولو ألَمَّا،

لأفادَ رُوحا أو لفــــرَّجَ من هُمُومِ النفس هَمَّــا!

وقال آخر :

وأهيفَ، مهزوزِ القَوَامِ إذا انثنَى * وهبْتُ لعُــذْرى فيه ذَنْبَ اللَّوائم،

بثغرٍ كما يبدُو لك الصُّبْحُ باسِمٍ، * وشعرٍ كما يبدُو لك الليــلُ فاحِمٍ.

مَليحِ الرضا والسُّخْط، تلقاه عاتباً * بألفــاظِ مظـلومٍ وألحــاظِ ظالِمٍ.

وممــا شجَــانى أنّنى يومَ بَيْنِهِــمْ * شكوتُ الذى ألقى إلى غير راحِمٍ.

وحَمَّلتُ أثقالَ الجَوى غيرَ حامِلٍ * وأودعتُ أسرارَ الهوى غيْرَ كاتِمٍ.

وأبرحُ مالاقيْتُــه أنَّ مُتْلِفى * بمــا حَلَّ بِى فى حُبّــه، غيرُ عالِمٍ.

ولو كنتُ مذ بانُوا سهِرْتُ لساهِرٍ * لهانَ، ولكِنّى سَهِرْتُ لنـائمِ.

وقال أبو نُوَاس :

يا رِيمُ هات الدَّواةَ والقلَما * أكْتُبُ شَوْقِى إلى الّذى ظَلَما!

غَضْبانُ قد غَرَّنى رِضَاه ولَوْ * يُسْئَلُ ممّــا غضبْتَ، ما علِما.

فليْسَ ينفَكُّ منــه عاشِــقُهُ * فى جَمْعِ عُذْرٍ لغيْرِ ما اجترَما.

أظَــلُّ يَقظانَ فى تَذَكُّرِه * حتّى إذَا نِمْتُ، كان لى حُلُما.

لو نَظَــرَتْ عينُه إلى حَجَرٍ، * ولَّد فيــه فُتُــورُها سَقَما!

وقال سيف الدين المشدّ :

وبِى رَشِيقُ القَوامِ لَدْنٌ * لِقَــدِّه يُنْسَب الرُّدَيْنِى!

ما نظرَتْه العيونُ إلّا * فَدَتْه من نظْــرةٍ وعَيْنِ!
قابَلَ بالكأس وجْنتيْه، * فخِفْتُ نجمًا بنَــيِّرَيْنِ.
وزَيَّنَتْ كفَّــه الحُمَيَّا! * ما أحسنَ التِّبرَ في اللُّجَيْنِ!

وقال كُشاجِم:

بالله يا مُتفرِّدًا في حُسْــنِه * ومقلِّبًــا هاروتَ بيْنَ مَحاجِرِه!
ومُحَمِّلًا أردافَهُ في خَصْرِه، * ومُصَالِحًــا خَلْخالَهُ بضَــفائِرِه!
لا تغضبَنَّ على فتًى يَرْضى بما * أوْلَيْتَــه، ولو انتعلْتَ بناظِرِه.
ويكاتِمُ الأسرارَ حــتّى إنه * ليَصُونُها عن أن تمرَّ بخاطِرِه.

وقال أبو تمّــام الطائي:

لَهَــا، وأعارني ولَهَا! * وأبصرَ ذِلَّــتي فــزَهَا!
له وَجْـــهٌ يعِــزُّ به، * ولي حُرَقٌ أذِلُّ بهــا!
دقيقُ محاسنٍ، وصلَتْ * محَــاسنُ وجْنَتَيْه بهــا.
أُلاحِظُ حسنَ وجْنَتِه، * فتجْرَحُني وأجْرَحُهــا.

وقال أيضًــا:

نشَرْتُ فيك رَسِيسًا كُنْتُ أطْوِيهِ! * وأظْهَرْتُ لَوْعتي ما كنتُ أُخْفِيه!
إن كان وجهُك لي تَتْرى محاسنُه، * فإنَّ فِعْلَك لي تَتْرى مَسَاوِيه!
مُرْتجَّــةٌ في تَهــاديه أسافِلُه، * مهْــتزَّةٌ في تثَنِّيــه أعالِيــه!
تاهتْ على صُوَرِ الأشْــياءِ صُورتُه * حتّى إذا كَمُلَتْ، تاهتْ على التِّيهِ!

وقال المخزومىّ :

أىُّ مُحِبٍّ فيك لم أُحْكِهِ ؟ * وأىُّ لَيْلٍ فيك لم أبكِهِ؟
إنْ كان لا يُرْضيك إلا دمى، * فقدْ أذِنَّا لك فى سَفْكِهِ!

وقال أبو نُوَاس :

ياقابِرِى بمَلاله * وداسِرِى بمِطَاله!
و يامُبَدِّلَ لَيْلى * قِصاره بطِوَاله !
أعوذُ منك بوَجْهٍ * بدْرُ الدُّجى فى مِثَاله !
لكنّه منه أحلى * لحُسنِ موضعِ خاله.
هلّا رَحِمْتَ صَرِيعًا * تحتَ الرّدى وطِلَاله؟
مَنْ لا يُرى منه فوق الـ * فراش غيرُ خَيَاله.
مثلَ الخِلَال نحيلًا * يَخْفى على عُذّاله.
فمَنْ بَغى لكَ سُوءًا، * فكان فى مِثْل حاله!

وقال محمد بن عبد الله السلامىّ، شاعر اليتيمة :

ومُخْتَصِرِ الخَصْر، من بُعْدِه * هَرَبْتُ فأُلْفِيتُ فى صَدِّه!
وقابَلَنِى وَجْهُه مُقْبِلًا * بحَدِّ الحُسَامِ وإفرِنْده.
فما زِلْتُ أعصرُ من خَمْرِه * وأقْطفُ من مُجْتنى وَرْدِه.
وأَظْمأ فأرْشُفُ من رِيقهِ! * فياحَرَّ صَدْرِىَ من بَرْدِه!

وقال أبو هلال العسكرىّ :

أقولُ لمَّا لاحَ مِنْ خِدْرِه، * واللّيلُ يُرْخى الفَضْلَ من سِتْرِه:
أبَدْرُه أحسَنُ من وَجْهِه، * أم وجْهُه أحسَنُ من بَدْره؟

قد مالَتِ الرِّقَّةُ في شَطْرِه، * ومالَتِ الغِلْظَةُ في شَطره.
فأَزْرُهُ غَصَّتْ بأَردافِهِ، * ووُشْحُه جالَتْ على خَصْرِه.
أصبحْتُ لا أدرِي -وإنْ لم يَكُنْ * في الأرض شيءٌ أنا لم أدْرِه-
أشَعْرُه أحسَنُ من قَدِّه؟ * أم قَدُّه أحسنُ من شَعْرِه؟
٥ ودُرُّه يؤخَذُ من لفظِه، * أم لفظُه يُؤخذُ من دُرِّه؟
وثَغْرُه ينظَمُ من عِقدِه، * أمْ عِقدُه يَنْظَمُ من ثغرِه؟
فمَنْ عَذيرُ الصَّبِّ من صَدِّه؟ * ومَن مُجيرُ القَلْبِ من هَجْره؟
ياليتَهُ يَعرِفُ حُبِّي له! * عَساه يَجْزِيني على قَدْرِه!

وقال تاج الملوك بن أيوب:

١٠ ياهلالًا لاحَ في غُصُنٍ، * تُشرِق الدنيا بطَلْعتِه!
وغزالًا طالَما خضع * الأسَدُ الضاري لهيبتِه!
ما رَنَا إلّا وجَرَّد لي * صارِمًا منْ لحظِ مُقْلتِه.
صِلْ عَليلًا، أنتَ أعلَمُ من * كلِّ مخلوقٍ بعلَّتِه.
قد أطالَتْ مُقلتاك بِلا * سبَبٍ تعذيبَ مُهجَتِه.
١٥ كُلَّما لَجَّتْ عَواذِلُهُ * أجّجَتْ نيرانَ لَوعَتِه.
فاتَّئِدْ من طُولِ عَذْلِكَ لي، * ياعَذولي في محبَّتِه!
من بَني الأتراكِ مُعتدِل، * قد تمادى في قَطيعتِه.
ليس يَشفي القَلبَ من ظَمَإٍ * غيرُ رَشْفِي راحَ رِيقَتِه!
لا، ولا يُطفي لَظَى كَبِدي * غيرُ تقبيلي لوجْنَتِه!
٢٠ ليتَ أن الدَّهرَ مكَّنني * بيدي مِن حَلِّ تِكَّتِه!

وقال آخر :

ومُهَفْهَف! عنّى يَميــلُ ولم يَمِــلْ * يومًا إلىّ ، فقُلْتُ من أَلَم الجَــوى :

لِمَ لا تَميــلُ إلىّ ، ياغُصْنَ النَّقــا؟ * فأجابَ : كَيْفَ ، وأنتَ من جِهَةِ الهَوى ؟

وقال ابن منير الطرابلسىّ :

مَنْ رَكَّب البَدْرَ فى صَدْرِ الرُّدَيْنِىِّ ، * ومَوَّهَ السِّــحْرَ فى حَدِّ اليَمَــانِىِّ؟ ٥

وأنْزَلَ النَّيِّرَ الأعْلى إلى فَــلَكٍ * مَــدَارُه فى القَبَــاءِ الخُسْرُوانِىِّ؟

طَرْفٌ رَنَا أمْ قِرابٌ سُلَّ صارِمُهُ؟ * وأغْيَدٌ ماسَ أم أعْطافُ خَطِّىِّ؟

وبرقُ غادِيَةٍ أم بَرْقُ مُبْتَسِــمٍ، * يفْتَرُّ من خِلَلِ الصُّدْغِ الدَّجُوجِىِّ؟

وَيْلاهُ ، من فارِسِىِّ النَّحْرِ مفْتَرِسٍ * بفــاتِرٍ أسَــدِىِّ الفَتْكِ رِيمىِّ!

يُكِنُّ ناظِــرُه ما فى كِنَانَتِــه! * فليس يَنْفَكُّ من إقْصــادِ مَرْمِىِّ! ١٠

أذلَّنى بعْــدَ عِزٍّ ، والهوى أبدًا * يَسْــتَعْبِدُ الليثَ للظَّبْىِ الكِنَاسِىِّ .

ماماتَ مانِىُّ[(١)] ، لولا ليلُ عارِضِه * ما شَــدَّ خيلَ المنــايا بالأمانِىِّ .

تَكَنَّف الحسنُ منه وجهُ مشْتمِلٍ * نَفَــارَ أحْوَرَ فى تأنيث حُورِىِّ .

أمَا وذائبِ مِسْــك من ذوائبِــه * على أعالِى القَضِيبِ الخَيْزُرانِىِّ؟

لوقيل للبَدْرِ: مَنْ فى الأرضِ تحسُدُه؟ * إذا تَجَــلَّى ، لقال ابْنُ الفُلانِىِّ! ١٥

أربى علىّ بشَــتَّى من مَحاسِــنه * تألَّفتْ بين مسمُوعٍ ومَرْئِىِّ .

إباءُ فارِسَ مَــعْ لينِ الشَّآم مــع الظَّــرفِ العِراقِىِّ فى النُّطْقِ الحِجازِىِّ .

وما المُــدامةُ بالألبابِ ألعَبُ من * فَصاحةِ البَــدْوِ فى ألفاظِ تُرْكِىِّ !

أشْــبهتُه ببعادى ، ثم كان له * مَزِيَّةُ الخَلْق والأخْلاق والزِّىِّ .

من أينَ لى لَهَبٌ يَجْرى على ذَهَبٍ * فى صَحْنِ أبيضَ صافِى الماءِ فِضِّىِّ؟ ٢٠

(١) الإشارة إلى مانى القائل بالثنوية أى بالنور والظلام .

وروضةٍ لم تحكّكها كفُّ ساريةٍ * ولا شكا خدُّها من لثم وسميّ؟

يحفُّها سوسنٌ غضٌّ يغازله * بنرجس بنطاف السحر مولىّ .

من مُنقذي أو مجيري من هوى رشإٍ * أفتى وأفتكُ من عمرو بن معديّ ؟

لا يعشق الدهرَ إلا ذكرَ معركةٍ * أو خوضَ مهلكةٍ أو ضربَ هنديّ .

ولا يحدّثُ إلا عن ربابته * من المهار العوالى والمهاريّ . ٥

والصافناتُ ولبسُ الضافيات وشر * بُ الصافيات وإطرابُ الأغانيّ ،

أشهى إليه من الدوح الظليل على الـ * ـروح العليل وتغريد القماريّ ،

شدّ الجياد لأيام الجلاد وإر * شاد الصعاد إلى طعن الأناسيّ ؟

وحثّ بازٍ على نأيٍ وحمل قطا * مي تكدّر منه عيش كدريّ ؟

في غلمةٍ كغصون البان يحملها * كثبانُ بردٍ على غادات برديّ ؟ ١٠

يمشون في الوشي أسرابًا ، فتحسبهم * روضَ الربيع على بيض الأداحيّ .

والساحرُ الساخرُ الغرّارُ بينهم * كالشمس تكسف أنوارَ الدراريّ .

مهفهفُ القدّ، سهلُ الخد، أغربُ في الـ * ـجمال، أ... ـةٍ في لفظ نجاريّ .

يلهيه عن كتبٍ تروى ونصرته * لشافعيٍّ فقيهٍ أو حنيفيّ .

عوجُ القسيّ وقبُّ الأعوجيّة والـ * ـشهبُ المهاليجُ تربى في الأواريّ . ١٥

والشّعر في الشّعَر الداجي على الغنج الـ * ـساجي يلين منه قلبَ حوشيّ .

فلو بصرتَ به يصغي وأنشده ، * قلتَ النواسيُّ يشجو قلبَ عذريّ .

أو صائدُ الإنس قد ألقى حبائله * ليلا فأوقع فيها صيدَ وحشيّ .

أغراه بي بعد ما جدّ النفارُ به * شدوُ التعريض وألحانُ السريجيّ .

فصار أطوعَ لي منه لمقلته ، * وصرتُ أعرف فيه بالعزيزيّ . ٢٠

*
* *

ومما قيل فى المؤنث، قال آبن الرومي :

مُخَفَّفَةٌ مثقَّلةٌ، تَرَاها * كأَنْ لم يَعْدُ نِصْفيها غِذاءُ!

إذا الإغبابُ جَدّد حُسْنَ شيْءٍ * من الأشياء، جدّدها اللِّقاءُ.

لها رِيقٌ تَشِفُّ له الثَّنَايا، * ويُرْوى عنه — لامنه — الظِّماءُ.

وأنفاسٌ كأنفاس الخُزَامى * قُبيلَ الصُّبح، بَلَّتْها السَّماءُ!

تنفَّسَ نَشْرُها سَحَرا، فجاءتْ * به سَحَرِيَّةَ المَسْرى رُخاءُ!

وقال أبو نُوَاس :

ماهَوًى إلا له سَببُ * يبتدى منه ويَنْشَعِبُ.

فتنَتْ قَلْبى مُحَجَّبةٌ، * وجْهُها بالحُسن منتَقِبُ.

خُلِّيَتْ والحُسْنَ تأخُذُه * تَنْتَقِى منه وتَنْتَخِبُ.

فاكتسَتْ منه طَرائفَهُ * وآستزادَتْ بعضَ ماتَهَبُ.

صار جِدًّا ما مَزَحْتُ به * رُبَّ جِدٍّ ساقه اللَّعِبُ!

وقال أيضا :

ياقَمَرا، أبصرْتُ فى مأْتَم * ينْدُب شَجْوا بينَ أتْرابِ!

يَبْكى فيُذْرِى الدُّرَّمن نَرْجِس، * ويَلْطِمُ الوردَ بعُنَّاب.

أبْرَزَه المأْتمُ لى كارِهًا، * برَغْم داياتٍ وحُجَّاب!

لاتَبْكِ مَيْتا حَلَّ فى رَمْسه، * وآبكِ قتيلًا لكَ بالباب!

وقال سيف الدين المشد :

ومُهْجَتِي! مَنْ لو بَدَتْ * للشمسِ من تحتِ النِّقابْ،
سترَتْ محاسنَ وجهِها * خَجَلا، ولاذَتْ بالسَّحابْ!

وقال القاضي أبو على التَّنُوخي، شاعر اليتيمة :

٥ أقولُ لَهَا والحَيُّ قد فطِنُوا بنا * ومالِيَ عن أيدِي المَنُونِ بَرَاحُ:
لَمَا ساءَنِي أنْ وشَّحَتْنِي سُيُوفُهم * وإنِّى لكُمْ دُونَ الوِشاحِ وِشَاحُ.

وقال عمارة اليماني :

طَرَقْتُها، والليلُ وَحْفُ الجَنَاحْ، * وما تَلَبَّسْتُ بثوبِ الجُنَاحْ.
فى ليلةٍ باتَ نجادِى بها * ذوائبًا يَخْفُقْنَ فوقَ الوِشَاحْ.
١٠ والحسنُ قد ألَّفَ أشتاتَهُ * غُصْنٌ تثَنَّى فوقَ رِدْفٍ رَدَاحْ.
نامَ رقيبُ الصُّبْحِ عن لَيْلَتِي، * وباتَ لِي كُلُّ مَصُونٍ مُبَاحْ!
أجمعُ من خَدٍّ ومن مَبْسِمٍ * بحُمْرةِ الوَرْدِ بَياضَ الأَقَاحْ.
حصَلْتُ من رِيقٍ ومن مَنْطِقٍ * على آقْتِراحٍ وتَمِيرٍ قَرَاحْ.
ترَنَّحَتْ مِنْ نَشَواتِ الصِّبا * فبِتُّ مَسْرُورًا بنَشْوانَ صاحْ.
١٥ وفاحَ مِن نَشرِ الصِّبا عَنْبَرٌ * أحْرقَه الفَجْرُ بجَمْرِ الصَّبَاحْ!

وقال أبو نُوَاس :

وذاتِ خَدٍّ مُوَرَّدْ * قُوهِيَّةِ المتجَرِّدْ.
تأمَّلُ العينُ منها * محاسنًا ليس تَنْفَدْ.
فالحُسْنُ فى كل جُزْءٍ * منها مُعَادٌ مُرَدَّدْ.

فبعضُه فى انتهاءٍ * وبعضُه يتَولَّدْ.
وكلما عُدْتُ فيه * يكونُ لى العودُ أحمَدْ!

وقال علىّ بن عبد الرحمن بن المنجم :

شبَّهتُها بالبَدْرِ فاستَضْحَكتْ * وقابلَتْ قولِىَ بالنُّكرِ.
وسفَّهتْ قولِى وقالتْ : متى * سَمُجْتُ حتَّى صرتُ كالبَدْرِ.
البدْرُ لا يرنُو بعَيْنٍ كما * أرنُو، ولا يَبْسِمُ عن ثَغْرِ.
ولا يُميط المِرْطَ عن ناهِدٍ، * ولا يَشُدُّ العِقْدَ فى نَحْرِ.
مَنْ قاسَ بالبدرِ صفاتِى، فلا * زالَ أسيرًا فى يَدَىْ هَجْرِى!

وقال العماد الأصفهانىّ :

لُثْنَ الأهلَّةَ بالمَعاجِرْ * وكَحَلْنَ بالسُّقم المَحاجِرْ.
ونظَرْن عن حَدَق تَحَيَّرْ * نَ بها على آرام حاجِرْ.
شَهَرتْ لِحاظُ ظِبائِهنّ * على القُلوب ظُبًا بواتِرْ.
آرامُ خِدْرٍ باللِّحا * ظِ تَصيدُ آسادًا خَوادِرْ.
غِيدٌ لسَفْك دَمِ المُحِبّ * تَظافَرتْ منها الظَّفائِرْ.
بيضُ التَّرائب حُمْرُها * خُضْرُ اللَّمَى سُود الغدائِرْ.

وقال كُشاجم :

جعلتُ إليكِ الهوى * شَفيعا فلم، تُشْفِعِى!
وناديتُ مستعطِفا * رضاكِ فلم تَسْمَعى.
أتارِكتى مُدْنَفًا * أخا جَسَدٍ مُوجَعِ!
ومُغرِيَتى والدمو * عُ قد أحرقتْ مَدْمَعى.

أحينَ سبَيتِ الفُؤا * دَ بالنظــر المُطْمِعِ،
جفَوْتِ وأقصيتِني؟ * فهَــلَّا، وقَلْبي مَعِي؟

وقال آبن المعلم :

صَعْدَةُ القَدِّ وسيفُ الكَحَلِ * حَكَمَا حُكْمَ الهوى في أجلي.
ياالقَومي! حَملتْ ثِقْل دَمِي * غادةٌ يُثْقِلُها حَمْلُ الحُــلِي! ٥
قَدُّهــا مُعتَــدِلٌ يَظْلِمُني! * حَزَني من قَدِّها المعتَدل!
خَصْرُها يَنْشَطُ، لكن رِدْفُها * أبدًا يقْــهَرُهُ بالكَسَل.
نظرةٌ مِن مُقْلَتَيْ جارِيَةٍ * وثَنَتْ عِطْفَ القَضيبِ الثَّمِلِ.
لستُ أدرِي: قمــر في كِلَّة * ما أَرى، أم دُمْيَةٌ في هَيْكَل؟
سألتْ جِسْمِيَ عن ساكِنه! * ومن الجَهْــل سُؤالُ الطَّلَل! ١٠

وقال سيف الدين المشدّ :

وغادةٍ، أعشَقُ من أجلِهــا * بدرَ الدُّجى والظَّبيَ والخَيزُرانْ.
لأنَّ ذا يُشْبِهُها بهجةً، * وذاكَ ألحاظًا، وهذا بَنانْ.

وقال أبو نُوَاس :

يامُنْسِيَ المَـــأْتَم أشجــانَهُ * لمــا أتاهُــمْ في المُعَزِّيــنا! ١٥
حَلَّتْ عِجَارَ الوَشْي عن صُورةٍ * ألبسهــا اللهُ التَّحاســينا!
استَفْتَتَهُنَّ بتِمْثالهــا * فهُنَّ للتَّكْلِيف يَبْكِينا.
حَقٌّ لذاك الوجه أن يَزْدَهِي * عن حُزْنِه مَنْ كان محزونَا.

وقال أيضا :

أيا لَيْتَ شعْري أمِنْ صَخْرةٍ * فُؤادُكِ هــذا الذي لا يَلِــينْ! ٢٠

تقولُ إذا ما آشتكيتُ الهوى ، * كما يَشتكى البائسُ المُستكينْ :
أفى النَّومِ أبصرتَ ذا كُلَّه؟ * فخيرًا رأيتَ ، وخيرًا يكونْ !

وقال المشوق الشامى :

أتُرَى بشارٍ أو بَدَيْنِ * عَلِقتْ محاسِنُها بعيْنِى؟
فى خَصْرِها وقَوَامها * ولِحَاظها ما فى الرُّدَيْنِى .
وبوَجْهِها ماءُ الشَّبا * ب خليطُ نارِ الوجنتيْن .

وقال السرىُّ الرفَّاء ، شاعر اليتيمة :

قامتْ وخُوطُ البانة الـ * ـمَيَّاسُ فى أثوابهـا .
ويَهُزُّها سُكرانِ : سُكـ * ـرِ شَرابِها وشَبَابِها !
تَسعى بِصَهْبَاوَيْنِ من * ألحاظِها وشرابِها .
وكأنَّ كأسَ مُدامِها * لَمَّا ارْتَدَتْ بِحُبَابِها :
توريدُ وَجْنتِها إذا * ما لاح تحتَ نِقابِها .

وقال ابن الرومىّ :

مِنْ بناتِ الرُّوم ، لا يَكْذِبُنا * لونُها المُشرِقُ عن مَنْصِبِها .
قامةُ الغُصْنِ - إذا ما آعتدلَتْ ، * قامةُ الغُصْنُ - إلى مَنْكِبِها .
شهِدَ الشاهدُ من أحسنِها ، * فحكى الغائبَ من أطْيبِها .
تَشْفَعُ الحسنَ بإحسانٍ لها * يَجْلُبُ الأفراحَ من مَجْلَبِها .
تَشْرَعُ الألحاظُ فى وَجْنتِها * فتُلاقِى الرِّىَّ فى مَشْرَبِها .
وجَنَــةٌ للغُنْج فيها عَقْرَبٌ ، * وبَلاءُ الصبِّ من عَقْرَبِها .

وإذا قامَتْ إلى مَلْعَبِها * كَمَهَاةِ الرَّمْلِ فى مَلْعَبِها،

سألت أردافُها أعطافَها: * هَلْ رأتْ أوطأَ من مَرْكَبِها؟

وقال أبو الحسين بن فارس :

مَرَّتْ بنا هَيْفاءُ مَقْدُودةٌ تُرْكيّةٌ تُنْمى لِتُرْكِىّ ،

٥ ترنُو بطَرْفٍ فاترٍ فاتنٍ أضعفَ من حُجّةِ نَحْوِىّ .

* * *

ومما قيل فى المُطْلَق والمشترك ، قال الطغرائى .

فيمَ التعجُّبُ من قَلْبى وصَبْوتِهِ * كأنّكُم لم تَرَوْا من قَبْلِهِ عَجَبا!

ذوقُوا الهَوى ثم لُومُوا مابَدَا لكُمُ، * أولا ، فخَلُّوا مَلامى واربَحُوا التَّعبا!

١٠ وقال ايضا :

وكنتُ أُرانِى مُفْلِتاً شَرَكَ الهَوى، * وقد صادنِى سِحرُ العُيونِ النَّوافِث.

وأسْمَعَنِى داعِى الغَرامِ نِداءَه، * فقمتُ إليه مُسْرِعا غير لابِث.

وأعطيْتُ إخْوانَ البَطالةِ صَفْقتِى، * وبعتُ قديما من غَرامِى بحادِث.

فما صَفْقَتِى فى البيعِ صَفْقةُ خاسِرٍ، * ولا بَيْعتِى للحُبِّ بيعةُ ناكِث.

١٥ فلا تعذِلُونى فى غرامِى بعدَ ما * تولَّى الصِّبا ، فالعَذْل أوَّلُ باعِث!

ولا تبحَثُوا عن سِرِّ قلبِى إنّه * صَفًا، ليس يَمضى فيه معْوَلُ باحِث.

أرى صَبَواتِ الحبِّ قدجَدَّ جِدُّها، * وقد كان بدءُ الحب مَزْحةَ عابِث!

وقال الأرّجانىّ :

قِفا مَعِى فى هذه المَعاهِدِ ! * لابُدَّ للصَّبِّ من المُساعِدِ!

٢٠ لا تَعْجَلا يا صاحِبَىَّ واسْمَحا * بوقْفةٍ على المُعَنَّى الواجِدِ.

فى منزلٍ عَهِدْتُ فى عِرَاصِه، * لو ردّ معهودا بكاءُ عاهِد،
كواعبًا من الدُّمى لواعِبًا * مُشْبِهَةَ الثُّغور لا القلائِدِ.
يمشِين من فرط النّعيم والصِّبا * كالقُضُب المَوائل المَوَائد.
فيهنّ ظَبْيٌ عَلقَ القلبُ به * من الظِّباء النُّفُرِ الشوارد،
إذا تَبَدّى مرضٌ بطَرْفه، * لم يخلُ من أفئدة عوائدِ.
رميتُه، فصادنى . فمن رأى * صيْدًا يصيدُ بفؤاد الصائدِ؟
قطعتُ من قلبى رجائى فى الهوى! * والقَطْعُ طِبُّ كلِّ عُضو فاسدِ!

٥

وقال أبو القاسم عبد الله الدينورى، شاعر اليتيمة :

يا لِعَصْرِ الخَلاعةِ المودود * ولظلِّ الشَّبِيبة الممدُود!
وٱرتشافى الرُّضابَ من بَرَد الثَّغــر ولَثْمى عليه وَرْدَ الخُدُود!
وبُكُورى إلى مجالس عِلْم * ورَواحى إلى كواعبَ غِيد!
فى قميص من السُّرور مُذَال * ورداء من الشَّباب جَديد!

١٠

وقال تاج الملوك بن أيوب :

ألّا رحِمْتُمْ متيما دنفا * مازالَ من جَوْرِكم بكُمْ عائذْ!
صَبًّا قضى الله أن يَهيم بكُمْ * ولا مردّ لحكمِه النافذْ!
يلوذُ حُبًّا دُونَ الأنام بكم * وحَسْبُه أنه بكُم لائذْ!

(٨٥)

١٥

وقال فخر الدين الوركانى، شاعر الخريدة :

أأحبابَنا أمّا حياتِى بَعْدَكُم * فموتٌ، وأما مَشْرَبِى فمنغَّصُ
وأسعَدُ شىء فىّ قلبى لأنّه * لَدَيْكم، وجسْمى بالبِعاد مخصَّصُ!

وقال العماد الأصفهاني :

بذلتُ لهم - أبغي رضاهم - مودّتي * وقلبي وصبري والرُّقادَ، فما رضُوا.
وهبني عن كلٍّ تعوضتُ بعدَهم * فقُلْ لي : بماذا عنهم أتعوّض؟
وما كان ظنّي أنّ عيشيَ ينقضي * ونجمَ الصّبا ينقضُّ والعهدُ يُنقَض.

٥ وقال الطغرائي :

إن الألى أرضاك قولُهُم * بالأمس، تحتَ رضاهمُ سُخُطُ!
لمّا صفا ذاك الجمالُ لهمْ، * تاهوا على العُشّاق واشتَطُّوا.
همُّوا ببينٍ فاستطارَ له * قلبي، فكيف يكون إن شَطُّوا؟

وقال الطغرائي أيضا :

١٠ في القلبِ من حَرِّ الفراق شُوَاظُ، * والدمعُ قد شَرِقتْ به الألحاظ.
ولقد حفظتُ عهودَكم، وغدرتُم. * شتّانَ غدْرٌ في الهوى وحفَاظُ!
لله أيُّ مَواقفٍ رقَّتْ لنا * فيها الوسائلُ، والقلوبُ غلاظُ!

وقال أيضا :

وسائلٍ عن جَوى قلبي، فقلتُ له : * ما أنتَ عندي على سرٍّ بمتَّهمِ!
١٥ طابَ الجوى في الهوى حتّى أنِستُ به، * فهو المرارةُ يحلُو طعمُها بفمي!

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

أتقتُلني ظُلْما وتجحدُني قتْلي، * وقد قام من عينيكَ لي شاهدَا عدْلِ!
أطُلّابَ ذَحْلي، ليس لي غيرُ شادنٍ * بعينيه سحْرٌ فاطلُبوا عنده ذَحْلي!
أغارَ على قلبي، فلما أتيتُهُ * أُطالبُه فيه، أغارَ على عقْلي!
٢٠ بنفسي التي ضَنَّتْ بردِّ سلامها! * ولو سألَتْ قتلي، وهبتُ لها قتْلي!

إذا جئتها صدّتْ حياءً بوجهها، * فتهجُرنى هجرا ألذّ من الوصْلِ.
وإن حكمتْ جارتْ علىّ بحُكْمِها، * ولكنّ ذاكَ الجورَ أشهى من العَدْلِ.
كتمتُ الهوى جَهْدى، فجرّده الأسى * بماءِ البُكا، هذا يخُطُّ وذا يُمْلى!
وأحببْتُ فيها العذْلَ حُبًّا لذِكرها، * فلا شىءَ أحلى فى فؤادى من العذْلِ!
أقولُ لقلبى كلّما ضامه الأسى: * إذا ما أبيتَ العزَّ، فاصبرْ على الذُّلِّ!
برأيِكَ لا رأيى تعرّضْتَ للهوى، * وأمرِكَ لا أمرِى وفعلِك لا فعْلِى.
وجدْتَ الهوى نصلًا من الموت مُغْمَدًا * فجرّدتَه ثم آتكأتَ على النصلِ!
فإن كنتَ مقتولًا على غيرِ ريبةٍ * فأنتَ الذى عرَّضتَ نفسَكَ للقتْلِ!

وهذه الأبيات معارضة لصريع الغوانى فى قوله:

أدِيرا علىّ الكأس، لا تَشربا قَبْلِى * ولا تطْلُبا من عند قاتلتى ذَحْلِى!
فما حَزَنِى أنّى أموتُ صَبابةً، * ولكنْ على مَنْ لا يحلُّ لها قتْلِى!
فَدَيْتُ التى صدّتْ وقالت لِترْبِها: * دَعُوه، الثُّريّا منه أقربُ من وَصْلِى!

وقال آبن عبد ربه:

صحا القلبُ، إلا خطرةً تبعثُ الأسى * لها زفرةٌ موصولةٌ بحنينِ.
بلى، رُبّما حلتْ عُرَى عزَماتِه * سوالفُ آرام وأعينُ عِينِ.
لواحظ حبّات القلوب إذا رنتْ * بسِحْرِ عيونٍ وآنكسارِ جُفُونِ.
ورَيْط من المَوْشىِّ أينعَ تحتَه * ثِمارُ صُدورٍ، لا ثمارُ غُصُونِ.
برودٌ كأنوارِ الربيعِ لبِسْنَها * ثيابَ تَصابٍ لا ثيابَ مُجُونِ.
قرَيْنَ أديمَ الليلِ عن نُورِ أوجُهٍ * تُجَنُّ بها الألبابُ كلَّ جُنونِ.
وجوهٌ جرى فيها النعيمُ فكُلّلتْ * بورْدِ خدودٍ يُجتنى بعيونِ.

سألبَسُ للأيّامِ دِرْعًا من العَـزَا، * وإنْ لم يكُنْ عند اللّقـا بحَصينِ.
وكيفَ، ولى قَلْبٌ إذا هَبَّت الصَّبا * أهابَ بشَوْقٍ فى الضُّلوعِ دَفينِ؟

وقال آخر:

هَزُّوا القُدودَ وجَرَّدوا الأجْفانَا! * فاطلُبْ لنفسك، إنْ قدَرْتَ أمانَا.
وآلْقِ السِّلاحَ إذا آنْثَنَوْا وإذا رَنَوْا، * وكُنِ الجبانَ وإن مَلَكْتَ جَنَانا.
وآحذَرْ ضِرَامًا بالعيُونِ، وسَلْ به * مِثْلِى، وجانِب بالقُدُودِ طعَـانا.
فلقدْ رأيْتُ الأُسْـدَ وهى كَواسِرٌ * تَخْشَى بمعـتَرَكِ الهوىَ الغِزْلانا.
لا تعبَثَنَّ بذابِـلٍ وببـاتِرٍ! * وخَفِ المُهفْهَفَ وآحذرِ الوَسْنانَا!
لولا تشابُهُ مقـلةٍ أو قامـةٍ، * ما خفْتُ يوما صَـعْدةً وسِنَانا.
وأنا الَّذى حَضَرَ الوقائعَ فى الهوى * وأقامَ فى أَسْـرِ الغَرامِ زَمانَا.
ولكَمْ رأيتُ به الشَّـدائدَ مُرَّةً! * ولَـكَمْ رأيتُ به المَمَـاتَ عِيَانا!
وثبَتُّ بينَ مَعَاطِفٍ ولواحِظٍ * فى مَوْقِفٍ يَذَرُ الشُّجاعَ جَبَانا!
مُسْتَسْلِمًا للعِشْقِ: لا مُسْتَصْرِخا * صَبْرًا، ولا مستَنْجِدًا سُـلْوانا.
أرجُو الشهادةَ إن قُتِلْتُ به، وما * ولَّيتُ فيـه ولا ثَنَيتُ عِنَـانا.
ياوَيْحَ قلبٍ ما خَلَا من شُـغْلِهِ * بصَبابةٍ ومَحبَّـةٍ مذ كـانَا!
لو فَتَّشُوه لمـا لَقُوا لِسوى الهوى * فيـه ولا غيْرِ الغـرامِ مَكانَا.

وقال التلعفرىّ:

هـذا العَذُولُ عليـكُمُ، مالى ولَهْ؟ * أنا قد رَضِيتُ بذا الغَرامِ وذا الوَلَهْ!
شـرْطُ المحبـةِ أنَّ كلَّ متيَّمٍ * صَبٍّ يُطيعُ هَواه، يَعْصِى عُذَّلَهْ.
وأخذْتُمونى حينَ سارَ بحبِّـكُمْ * مَثَـلِى، ومِثْلِى سِرّه لن يَبْـذُلَهْ!

ما أعربَتْ والله عن وَجْدِى بكُمْ * وصـــبابَتِى إلّا دُمُوعِى المُهْمَلَهْ.
جُزْتُم مَــدَاكم فى قطيعتِكُمْ، فلا * عطفٌ لعـائدكُمْ يُرامُ، ولا صلَهْ.
أألومكُمْ فى هَجْرِكم وصُدُودِكُم، * ما هـــذه فى الحُبِّ منكم أوّلَهْ!
قسمًا بكم، قد حِرْتُ مما أشتكِى! * حَسْبِى الدُّجى، فعَدِمتُه ما أطْوَلَهْ!
لَيْــلِى كيومِ الحَشْرِ معنًى إن يكن * لا ليلَ ذاكَ له، فذا لاصُـبْحَ لَهْ. ٥
ياسـائلى منْ بعـدِهم عنْ حالتِى! * تركُ الجوابِ جوابُ هذى المسألَهْ!
حالِى إذا حَـدَّثتُ لا لُمَعًا ولا * جُمَلًا لإيضاحى لهـا من تكْمِلَهْ.[1]
عِنْدى جَوًى يَذَر الفصيحَ مبَلّدًا: * فاتْرُكْ مفَصَّــله! ودُونَك مجمَــلَهْ![2]
القلبُ ليس من الصِّحاحِ فيُرْتجى * إصــلاحُه، والعينُ سُحْبُ مُثقَلَهْ.[3]
ياناز حين، وفى أكِلّةِ عِيسِهمْ * رَشأٌ عليــه حَشَا المُحِبِّ مقَلْقَلَهْ! ١٠
قمرٌ له فى الطَّرْف بل فى القَلْب بل * فى النَّثْرة الحَصْداء أشرفُ مَنْزِلَهْ.[4]
الصُّدْغ منــه عَقْربٌ، ولِحاظُه * أَسَدٌ، وخلفَ الظَّهْر منه سُنْبُلَهْ.[5]
ما أجورَ الألحـاظَ منــه إذا رَنَا! * وإذا انثنى، فقوامُه ما أعْـــدَلَهْ!
لو لم يُصِبْ صُدْغَيْه عارضُ خدِّه، * ما أصبحَتْ فى عارِضَيْه مُسلْسَلَهْ.
لله منـــه مهفْهَـــفٌ أجْنيتُـــهُ * عَسَلَ الهوى فجَنَيْتُ منه حَنْظَلَهْ! ١٥
لو كنتُ فيه قَبِلتُ نُصْحَ عَوَاذلى، * ما أدبَرتْ أيامُ حَظِّى المُقْبِـــلَهْ!

(١) إشارة إلى الكتب الشهيرة : اللمع، الجمل، الإيضاح، التكملة . وكلها فى علم العربية .
(٢) يشير إلى "الفصيح" لثعلب، و"المفصل" للزمخشرى، و"المجمل" لابن فارس. وكلها كتب فى اللغة.
(٣) الاشارة إلى "الصحاح" للجوهرى، و "العين" للخليل بن أحمد . وهما من كتب اللغة .
(٤) يشير إلى بعض منازل القمر، وهى : الطرفة، والقلب، والنثرة . ٢٠
(٥) يشير إلى بعض البروج، وهى : العقرب، والأسد، والسنبلة .

وقال الطغرائيّ :

رُوَيْدَكُمُ! لا تَسْبِقُوا بقَطِيعتي * صُروفَ الليالي، إنَّ في الدهر كافيًا.

ويا قلبُ، عاوِدْ ما ألِفْتَ من الجَوى! * مَعاذَ الهوى أن تُصْبِحَ اليومَ سالِيا!

ويا كَبِدي، ذُوبي! ويا مقلتي، اسْهَرِي! * ويا نفْسِ لا تُبْقِي من الوجْد باقيًا!

٥ فلا تَطْمَعُوا في بُرْءِ ما بي، فإنَّه * هو الداءُ قد أعيا الطبيبَ المُداوِيَا!

* * *

(٨٧) ومما قيل في طَيْف الخيال، قال قيس بن الخطيم :

إني شَرِبْتُ، وكنتُ غيرَ شَرُوب! * وتُقَرِّبُ الأحلامُ غيرَ قَرِيب.

ما تَمْنعِي يَقْظَى، فقد تُؤْتِينَهُ * في النوم غَيْرَ مُكَدَّر مَحْسُوب.

١٠ كان المُنَى بِلقاءَها، فلقِيتُها * ولَهَوْتُ من لَهْوِ امرئٍ مَكْذُوبِ!

وقال عمرو بن قَمِيئَةَ :

نَأَتْكَ أُمامةُ، إلا سُؤالًا * وإلَّا خَيالًا يُوافي خَيالًا.

خَيالًا يُخَيِّل لي نَيْلَهَا، * ولو قَدَرتْ لم يُخَيِّلْ نَوَالًا!

قال أبو هلال العسكري : ومن هاتين القطعتين أخذ المحدَثونَ أكثرَ معانيهم

١٥ في الخَيال .

وقال البَعيث :

أزارَتْكَ ليلى، والرِّكابُ خَواضِع؟ * وقد بَهَرَ الليلَ النجُومُ الطَّوالِعُ!

وأعطَتْكَ غاياتِ المُنى غير أنَّها * كَواذبُ انْ حَصَّلْتَها وخَوادِعُ.

وقال أبو تمـام :

اِستَزَارتْه فِكْرتى فى المَنَامِ، * فأتاها فى خِفْيـةٍ واَكْتِتَامِ.

يا لهـا لَيْـلةً تزاوَرتِ الأرْ * واح فيها سِرًّا عنِ الأجْسامِ!

مجلسٌ لم يكن لنا فيه عَيْبٌ * غيْرَ أنَّا فى دَعْوة الأحْلامِ!

وقال الحمدونىّ :

لم أَنَلْه، فنِلْتُـــه بالأمَانِى * فى مَنَامى سرًّا من الهِجْرانِ!

واصل الحُلْمُ بيننا بعْدَ هجْرٍ، * فاجتمعْنا ونحنُ مُفْترِقانِ.

وكأنَّ الأرواحَ خافَتْ رَقِيبًا، * فطَوَتْ سِرَّها عن الأبْدانِ.

مَنْظَرٌ كان نُزهةَ العَـيْنِ إلَّا * أنه مَنْظَرٌ بغـــير عِيَـانِ.

وقال آبن الرومىّ :

طَـــرَقَتْنــا، فأنالَتْ نائـــلًا * شُكْرُه ــ لو كان فى النُبْه ــ الجُحُودُ.

ثم قالتْ، وأحَسَّـــتْ عَجَبِى * من سُرَاها حيثُ لا تَسْرِى الأُسُودُ.

لا تَعَجَّبْ من سُرَانا، فالسُّرى * عادةُ الأقمـار والناس هُجُـــودُ.

أخذ العسكرىّ المعنى، فقال :

رَقَبتْ غَفْلَةَ الرَّقِيبِ، فزارت * تحتَ لَيْـلٍ مُطَرَّزٍ بنَهـارِ.

فتعجَّبْتُ من سُراها، فقالتْ : * غَيْرُ مستَطْرَفٍ سُرى الأقمار!

ثم مالَتْ بكأسِها فسَـقَتْنى * جُلَّنـارِيَّةً على جُلِّ نارى!

وقال آخر :

فيا لَيْتَ طَيْفا، خيَّلَتْه لىَ المُنى، * وإنْ زادنى شـوقًا إليك، يَعُودُ!

أُكلِّفُ نفسى عنك صَبْرا وسَلْوةً، * وتَكْليفُ مالا يُسْـتطاعُ شديدُ!

وقال العسكرىّ :

طَرَق الخَيَالُ، فزارَ منه خَيَالا. * فسرى يُغازِل فى الرُّقاد غَزَالا.

ياكَشْفةً للكَرْب، إلّا أنّهُ * وَلّى على دُبُر الظَّلامِ فزَالا.

قَعَد المتيمُ، وهو أكثرُ صَبوةً * وأشدُّ بِلبالًا وأكسَفُ بالَا!

٥ وقال العماد الأصفهانىّ :

ظَبْىٌ طَرِبتُ لِطَيْفه المتأوِّب * طَرَب العليل لرُؤْيةِ المتَطَبِّب.

لم أدرِ زَوْرَتَه، أكانت خَطْفةً * من بارقٍ أم لمعةً من كَوْكبِ.

زار الكَرى متهيّبا رُقَباءَه، * أهْلًا به من زائرٍ متهيّبِ!

لمّا رأى وَجْدى، تأوّه رحمةً، * لله مِنْ مُتأوّه متأوّبِ!

١٠ وأتى ليقرُبَ منْ وِسادِ متيَّمٍ، * لَمّا أحَسَّ بنارِه، لم يَقْرُبِ.

وقال محمد بن بختيار :

لو أنَّ طَيْف الخيالِ يَسْرى، * بَلَّ سُراهُ غليلَ صَدْرى.

ولو أرادَ الحبيبُ أنْ لا * يَضيمَنى، مااستطابَ هَجْرى.

يلومُنى فى هَواه مَنْ لا * يعلَمُ أنَّ المَلامَ يُغْرى.

١٥ كَمْ ليلةٍ زار فى دُجاها، * فكان تحْتَ الظلامِ بَدْرى.

يُتحِفُنى باحْمِرار خَدٍّ * مُورَّدٍ وآبيضاض ثَغْر،

يجمَعُ لى بيْنَ سُكْرِ لَحْظٍ * وسُكْرِ رِيقٍ وسُكْرِ خَمْر،

ودُرِّ لَفْظٍ ودُرِّ ثَغْرٍ * ودُرِّ كأس ودُرِّ نَحْر.

وقال آخر :

قلتُ للمُعْرِض الَّذى صَدّ عَنِّى : * إنَّ طيفَ الخيالِ لى عنكَ يُغْنِى .
قال : لا تَحْمَد الخيالَ فما زا * رَكَ إلّا عن اختيارى و إذْنِى .
كِدْتَ تَقْضِى أسًى ، فقلتُ لطَيْفِى : * أَحْىِ لى روحَهَ بِزُور التَّمَنِّى !
ليس شُحًّا بأن تموتَ ، ولكنْ * خِفْتُ أن تَسْتَرِيحَ بالموتِ مِنِّى !

وقال آخر :

فإنْ يحجُبُوها بالنهار ، فَمَا لَهُمْ * بأن يَحْجُبوا بالليل عَنِّى خَيَالَهَا !

وقال المجنون :

و إنِّى لَأستَغْشِى ، ومابى نَعْسةٌ ، * لعَلَّ لِقاهَا فى المَنَامِ يَكُونُ !
تُخَبِّرُنى الأحلامُ أنّى أراكُمُ ، * ألَا ليْتَ أحلامَ المَنامِ يَقِينُ !

وقال المؤمل :

أتانِى الكَرى لَيْلًا بشَخْصِ أُحِبُّه ، * أضاءت له الآفاقُ ، والليلُ مُظْلِمُ .
فكَلَّمَنِى فى النَّومِ غيرَ مُغاضِبٍ ، * وعَهْدِى به يَقْظانَ لا يتَكَلَّمُ .

وذكر العباس بن الأحنف العلةَ فى طُروق الخيال ، فقال :

خَيَالُكَ حِينَ أرقُدُ نُصْبَ عينِى * إلى وقتِ انْتِباهِى لا يَزُول .
وليس يَزُورُنِى صِلةً ، ولكنْ * حديثُ النفسِ عنكَ به الوُصولُ .

وتبعه الطائىّ فقال :

زار الخيالُ لها ، لا بل أزارَكَهُ * فِكْرٌ ، إذا نامَ فِكْرُ الخَلْوِ لم يَنَمِ .
ظَبْىٌ تقنَّصتُهُ لَمَّا نَصَبْتُ له * فى آخر الليلِ أشراكًا من الحُلُمِ .

*
* *

ومما قيل فى الردّ على العذول، قال أبو نُوَاس :

ماحطَّك الواشُونَ من رُتْبةٍ * عِنْدى، ولا ضَرَّك مُغتابُ.

كأنَّما أثنَوْا — ولم يَشْعُروا — * عليكَ عِندى بالذى عابُوا.

وقال تاج الملوك :

مَهْ ياعَذُولُ عن المحبِّ، فإنَّما * عَذْلُ المحبِّ يَزِيدُ فى بِلْبَالِهِ!

لا تَعْذُلَنّ على الصَّبابةِ مُغْرَمًا * حتَّى تَبِيتَ من الزَّمان بحالِهِ!

وقال أيضا من قصيدة :

ولقد قُلْتُ للذى لامَنِى فيك، ومازال حالُه مِثلَ حالِى:

ياعَذُولِى فى حُبِّه، كُفَّ عَذْلِى. * أنا ما للعَذُول فيه وما لِى!

كُلما زِدْتَ فى مَلامِى وعَذْلِى، * زِدتُ فى لَوْعَتِى وفى بَلْبالِى!

وقال الأرّجانى :

وَجْدِى بلَومكَ، ياعَذُولُ يَزِيدُ! * فاستَبْقِ سَهْمَكَ، فالرمىُّ بَعِيدُ!

بلَغَ الهوى من سِرِّ قلبِىَ مَوْقِعًا: * لا العَذْلُ يَبْلُغه ولا التفنيدُ!

وَتَنُمُّ بالشَّجوِ المُكَتَّمِ عَبْرَتِى، * ومن الدُّموعِ على الغَرامِ شُهودُ!

وقال سيف الدين المشدّ :

ياعاذِلى، خَلِّ عَنِّى! * أسمعْتَ غيرَ سَمِيعِ!

لا تَرْجُ مِنِّى سُلُوًّا! * فما فُؤادِى مُطيعِى!

وكيفَ أكتُمُ ما بِى * من لَوْعة ووَلُوعِ،

والذَّارِياتُ جُفُونِى، * والمُرْسَلاتُ دُمُوعِى![1]

(١) إشارة إلى اسم السورتين الكريمتين : الذاريات والمرسلات .

وقال ابن الخيمى :

وتأمرنى العذّال بالصبر عنكمُ، * ومَنْ ذا الذى يرضى عن الحلو بالصبر؟
ومن أعجب الأشياء أنّ عواذلى * يطيلون لومى فى الهوى، والهوى عذرى!

* * *

ومما قيل فى رجوع العذول، قال ابن وكيع : ٥

أقبل والعذّال يلحوننى، * فكلهم قال : مَنِ البدرُ؟
فقلت : ذا مَنْ طالَ فى حبّه * منكم لىَ التعنيفُ والزجرُ!
قالوا : جهلنا، فاغتفر جهلنا * فليس عن ذا لامرئ صبرُ!
عذرك فى الحبّ له واضحٌ، * وما لنا فى لومنا عذرُ!

وقال أيضا : ١٠

أبصره عاذلى عليه، * ولم يكن قبلَ ذا رآهُ،
فقال لى : لو عشقت هذا، * ما لامك الناسُ فى هواهُ!
قل لى : إلى من عدلت عنه * فليس أهلَ الهوى سواهُ؟
وظلّ من حيث ليس يدرى، * يأمر بالحبّ من نهاهُ!

* * * ١٥

ومما قيل فى الوصال، قال ابن الرومىّ :

ولقد يؤلّفنا اللقاءُ بليلة * جُعلت لنا حتّى الصباح نظاما،
نجزى العيونَ جزاءهنّ عن البكا * وعن السهاد ولا نصيب أثاما،
فنبيحهنّ مرادهنّ، يردنه * فيما ادّعين، ملاحةً ووساما،

ونُكافئُ الآذانَ ، وهى حَقيقة * إذ لا تَزالُ تُكابِدُ اللُّوَّاما.

(٨٩) فَنُثيبهنَّ من الحديث مَثُوبةً * تَشفِى الغليلَ وتَكشفُ الأسقامَا.

ونُكافِئُ الأفـواهَ عن كِتْمانها، * إذْ لا يَزالُ لها الصُّماتُ لِجاما.

فنبيحهُنَّ مَلاثِمًا ومَراشفًا، * ماضَرَّها أنْ لاتكُونَ مُدَاما!

٥ نَجْزِى الثـلاثةَ أنصباءَ ثلاثةً * مقسـومةً آناؤُهـا أقسـاما.

* * *

ومما قيل فى الفراق والبين ، قال بعض الكُتّاب : فى الفراق مصافحةُ التسليم ، ورجاءُ الأَوْبةِ ، والسلامةُ من المَلال ، وعمارةُ القلب بالشوق ، والدلالةُ على فضل المواصلة واللقاء .

١٠ قال شاعر :

جَزى الله يومَ البَيْنِ خيرًا ، فإنَّهُ * أرانَا على عِـلَّاتِه أُمَّ ثابت!

وقال ٱبن الرومىّ :

فإذا كان فى الفِراقِ ٱعْتِناقٌ ، * جعَـلَ اللهُ كلَّ يومٍ فِراقَا!

وقال أبو حفص الشطرنجىّ :

١٥ مَنْ يكُنْ يكْرَهُ الفِـراقَ ، فإنّى * أشْـتَهِيهِ لموضِـعِ التَّسْليمِ!

إنَّ فيه ٱعْتِناقَةً لفِـراقٍ * وٱنتظـارَ ٱعتناقةٍ لقُـدومِ.

وقال سيف الدولة بن حَمْدان :

راقبَتْنِي العُيونُ فِيـكَ ، فأشْفَقْـ * ـتُ،ولم أخْلُ قَطُّ من إشـفاقِ.

ورأيتُ العَـدُوَّ يَحْسُـدنِى فيـ * ـكَ مُجِـدًّا بأنْفَس الأعْـلاقِ.

فتمنّيتُ أنْ تكونَ بَعيدًا ، * والذى بيْننا من الوُدّ باق!
رُبَّ هَجْرٍ يكُونُ من خوفِ هَجْرٍ * وفِراقٍ يكُونُ خَوْفَ فِــراقِ!

وأرى هذا كلَّه على سبيل التعلل ليس إلا ، وإنما الفراقُ لا شكَّ فى إيلامه للقلوب.

قال بعض الشعراء :

فــلِمْ لا تُسْبَلُ العَــبَراتُ منّى ، * ولسْتُ على اليقــينِ من التّلاقى؟ ٥
فــلا وأبيكَ، ما أبصَرْتُ شيئًا * أمَرَّ على النّفُوس من الفِــراقِ!

وقال آخر :

ياربِّ، باعِدْ بينَ جَفْنِى والكَرى * مادام مَنْ أهواهُ فى هِجْرانى!
إنّى لأخْشى أنْ أنامَ فألْتقِى * بخَيالهِ، خَوْفَ الفــرَاق الثانى!

وقال آخر : ١٠

فارقْتُه وبُودّى لو تُفــارِقُنِى * رُوحُ الحياة، وأنّى لا أُفارِقُهُ!

وقال أبو تمــام :

الموتُ عنْــدِى والفِــرا * قُ : كِلاهُمــا مالا يُطاقُ!
يتَعــاونَانِ على النفُو * سِ : فذا الحِمامُ وذا السِّياقُ!
لو لم يكُنْ هذا كذَا، * ما قيــل : مَوْتٌ أو فِرَاقُ! ١٥

وقال غريبُ بن سعيد شاعر "اليتيمة" :

ألآنَ يومُ الفراق قَسْــوَتَهُ * حتّى جَرى دَمْعُه وما شَعَرا.
نخِلْتُ ما سالَ مِن مَدامعه * دُرًّا على وجْنَتَيْــهِ مُنْتَــثِرا.
لم يَبْكِ شَوْقا، لكِنْ بكى جَزَعًا * لهَوْلِ يومِ الفِراقِ إذْ حَضَرا.

في مَشْهَدٍ لو أطاقَ شاهِدُه * فيه آستِتارًا لوجهه ، سَتَرَا .
أبَى أَساهُ وفيضُ أدْمُعِـه * إلا آشْتِهارًا في الحُبِّ ، فآشْتَهرا .

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

هَيَّج البينُ دواعِى سَقَمِى ، * وكَسَا جِسْمِىَ ثوبَ الأَلَمِ !
أيُّها البَـيْنُ ، أقِلْنِى مَرَّةً * فإذا عُدْت ، فقد حَلَّ دَمِى .
ياخَلِىَّ الرُّوع ، نَمْ في غِبْطةٍ ! * إنَّ مَنْ فارَقْتَــه لم يَنَمِ .
ولقَـدْ هاجَ لقَلْـبِى سَـقَمًا * ذِكْرُ مَنْ لو شاء ، داوى سَقَمِى .

وقال آخر :

بكَتْ و بكَيْتُ لوَشْكِ الفِراقِ ، * فقِفْ ، تَرَ مِنْ مَدْمَعَيْنا العَجَبْ !
فذا فضَّــةٌ في عَقيقٍ جرَى ، * وهــذا عقيقٌ جرى في ذَهَبْ !

وقال آخر :

قلتُ له والرَّقيبُ يُزْعِجُــه * مستَعْجِلًا للفِراق : أيْنَ أنا ؟
فَــدَّ كَفًّا إلى ترائِبِــه * وقال : كُنْ آمنًا ، فأنتَ هُنا !

وقال آخر :

قد قلتُ إذ سارَ السَّفِينُ به ، * والشَّوقُ يَنْهَبُ مُهْجتِى نَهْبَا :
لو كانَ لِى مُلْكٌ أصُـولُ به ، * "لَأَخَذْتُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا"

وقال كُشاجِم :

مُزِجَتْ دُموعُ العين مِـنِّى يومَ بانُــوا بالدِّما ،
فكأنَّمـا مَزَجَتْ بخَـدِّى مُقْلتِى خَمْـرا بمـا !

(٩٠) وقال آخر :

لم أَنْسَ يومَ الفِـراقِ مَوْقِفَها، * وطَـرْفُها فى دُمُوعِها غَرِق.
وقولَهَـا ، والرِّكابُ سـائرةٌ : * تَتْرُكُـنا هــكذا، وتَنْطَلِقُ؟

ومنه ماقيل فى مفارقة الأصحاب :

لَمَّـا رأيتُ مُصاحِبِي ومعاشِرِى * بِحَـديد وُدِّى بالقطيعةِ مَزَّقَا،
فارقْتُه وسَلَلْتُ من يَده يَدى، * وقرأتُ لى وله :"وإنْ يتَفَرّقَا". ٥

وقال آخر :

قالوا : قَطعْتَ صديقَكَ البَرَّ الذى * منه ٱستَفَدْتَ مَكارمَ الأخْلاقِ.
فأجبتُهـمْ : بعضُ المَفَاصل رُبَّما * فسَدَتْ، فتُقْطَع فى صَلَاح الباقى!

وقال آخر : ١٠

ولقد شَـكَرْتُ مُفارِقِى * إذْ ساءَ فى أخْلاقِــهِ.
لوكان أحْسنَ عِشْرتى، * لهلَكْتُ يومَ فراقِــه.

ومثله قول الآخر :

علَّمَتْنِى بِهَجْرِها الصَّبْرَ عنها، * فهى مَشْـكُورةٌ على التَّقْبِيـح!
وأرادَتْ بذا قَبِيــحَ فَعَـالٍ * صنعَتْـه، فكان عينَ المَلِيح! ١٥

* * *

ومـمـا قيل فى التوديع، قال البحترىّ :

أقولُ له عِنْـد تَوْدِيعـهِ، * وكُلٌّ بعَـبرتِه مُبْلِسُ :
لئن قعَدَتْ عنكَ أجسامُنَا، * لقد سافَرَتْ مَعك الأنْفُسُ!

وقال أبو الطيب المتنبى :

يا راحلاً ، كلُّ مَنْ يودّعهُ * مُودِّعٌ دينَــه ودُنْيـاه،
إنْ كان فيما نراهُ مِنْ كَرَم * فيــكَ مَزِيدٌ ، فزادَكَ اللهُ!

وقال البحترىّ :

ألم تَرَنِى يومَ فارقْتُــهُ * أودِّعُه ، والهوى يَسْتَرِيدْ
أُوَلِّى إذا أنا ودَّعْتُــهُ ، * فيغْلِبُنِى الشوقُ حتَّى أعُودْ.

وقال أبو تمـام :

نَأْىٌ وَشيكٌ وانطلاقُ ، * وغَلِيلُ شَوْقٍ وٱحْتِرَاقُ.
بأَبِى فَـتًى وَدَّعتُــه * تاهَتْ بصُحْبته الرِّفَاقُ!
بدرٌ يُضِىء لعاشِــقيــه فما يُطِيفُ به المَحَاقُ!

وقال ٱبن زيدون :

وَدَّعَ الصــبْرَ مُحِبٌّ ودَّعَكْ ، * حافظٌ من سِرِّه ما ٱستوْدَعَكْ!
يقْرَعُ السِّنَّ على أنْ لم يَكُنْ * زاد فى تلْكَ الخُطَا ، إذ شَيَّعَكْ!
يا أخا البَــدْرِ سَنَاءً وسَـنًا ، * حفِظَ اللهُ زماناً أطْلَعَــكْ!
إن يَطُلْ بَعْــدَكَ ليلِى ، فلَكَمْ * بِتُّ أشكُو قِصَرَ الليل مَعَكْ!

وقال أبو عبد الرحمن شاعر "اليتيمة":

إذا دَهَاكَ الوداعُ فاصبر * ولا يهُولنَّــك البعــادُ!
وٱنتظر العودَ عن قريب ، * فانَّ قلبَ الوَداع عادُوا.

وقال آخر :

وَدَّعتُــه حيثُ لا تُودِّعُهُ * رُوحى، ولكنّها تسير معَهْ
ثم تَوَلّى وفى القُــلُوب له * ضيقُ مجالٍ وفى الدموع سَعَهْ

وقال الإمام الصولى :

لو كُنْتَ يوم الوَدَاعِ حاضِرَنَا * وهُنَّ يَشْــكُونَ عِلّةَ الوجد، ٥
لم تَرَ إلا الدُّمــوعَ جارِيةً * تَسْقُط من مُقْــلةٍ على خَدِّ.
كأنَّ تِلكَ الدُّموعَ قَطْرُ ندًى، * يَقْطُر من نَرْجِسٍ على وَرْدِ!

وقال أبو منصور أحمد بن محمد اللخمىّ :

وَقَفْتُ يومَ النوى منهم على بَعَــدٍ * ولم أُوَدِّعْهــمُ وَجْدا وإشْــفاقَا.
إنِّى خَشِيتُ على الأظعان من نَفَسِى * ومن دُموعِىَ : إحراقًا وإغْراقا. ١٠

وقال ابن نُبَاتة :

ولَمَّــا ٱســتَقَلَّتْ للرَّواحِ حُمُولُهُمْ * ولم يَبْقَ إلا شــامِتٌ وغَيُــورُ،
وَقَفْنا : فمِن باكٍ يُكَفْكِفُ دَمْعَه، * ومُلْتزِمٍ قلبًــا يَكــادُ يَطِــيرُ!

وقال آخر :

ولَمَّــا وَقَفنــا للــوَدَاعِ، وقَلْبُهــا * وقَلْبِى يَبُثّان الصَّــبَابةَ والوَجْدا، ١٥
بَكَتْ لُؤْلؤًا رَطْبًا ففاضَتْ مَدَامِعِى * عقيقًا فصارَ الكُلُّ فى نَحْرِها عِقْدا.

وقال آخر : (٩١)

وَدَّعتُهــا ولَهِيبُ الشَّوقِ فى كَبِدِى * والبَيْنُ يُبعِدُ بينَ الرُّوحِ والجَسَــدِ،
وَدَاعَ صَبَّيْنِ لم يُمكِنْ وَدَاعُهما * إلا بلَحْظة عَيْنٍ أو بَنَانِ يَدِ.

وحاذَرتْ أعيُنَ الواشينَ فانصرفَتْ * تَعَضُّ من خَوفِها العُنّابَ بالبَرَدِ.
وكان أوّلُ عَهْـدِ العيْنِ يوم نأَتْ * بالدّمعِ آخِرَ عهدِ القَلْبِ بالجَـلَدِ.

وقال الهيثم الكلاعيّ، من شعراء "اليتيمة":

ولم أنْسَها يومَ الوَداعِ، ومَسْحَها * بوادِرَ دَمعِ العَيْنِ. والعَيْنُ تَذْرِفُ.
أفانِينُ تَجْـرِي من دُموعٍ ومن دَمٍ * على الخـدِّ منها تَسْتَهِلُّ وتَرْعُفُ.
وتكرارَنا نَجْوى الهوى ذاتَ بَيْنِنا، * وكلٌّ إلى كلٍّ يلينُ ويَعطفُ.
جعَلْنا هُناكَ الهَجْـرَ منّا بجانبٍ، * وللبَيْنِ داعٍ بالتَّرحُّـلِ يهتفُ.
ولولاالنوى،لمنَشْكُ ضَعْفاعنالأسى! * ومَنْ يَحمِلُ الأشجانَ بالبَيْنِ يَضْعُفُ!
فقلتُ: كلانا مُثقَلٌ من صَبابةٍ؛ * ولكنّني عن حَمْلِها منكِ أضْعَفُ.

وقال الظاهر البصريّ:

نَفْسِي الفِـداءُ لمن جاءَتْ تُودِّعُنِي * يومَ الفِراقِ بقَلْبٍ خائفٍ وجِلِ!
قد كنتُ فارقتُ رُوحِي يومَ فرقتِها؛ * لكنْ حَيِيتُ بطيبِ الضَّمِّ والقُبَلِ!

وقال يزيد بن معاوية:

جاءتْ بوجْهٍ كأنَّ البدْرَ برْقعَهُ * حُسْنا على مِثل غُصْنِ البانةِ الثَّمِلِ.
إحْدى يدَيْهـا تُعاطِينِي مُعتّقَـةً * كخدّها عَصْفَرتْهُ حُمْـرةُ الخَجَـلِ.
ثُمّ آستبدّتْ وقالت وهْيَ عالمـةٌ، * بما تقول وشمسُ الكأس لم تَفِلِ:
لا ترحلَنَّ، فمـا أبقيْتَ لى جَـلَدا * ممـا أُطيق به تَوْديعَ مُرْتَحِـلِ!
ولا مِن الصـبْرِ ما ألقى الفِراقَ بِهِ * ولا من الدَّمعِ ما أبكِي على طَلَلِ!

ومن الناس من كره الوداع. وفى ذلك يقول البحتريّ:

اللهُ جارُكَ فى آنْطلاقِـكْ * تِلقاءَ شامِـكَ أو عِراقِكْ!

لا تَعْـذُلَنِّى فى مَسِيـ * ـرى يومَ سرت ولم أُلاقِـكْ!
إنّى خَشِـيتُ مُـواقِفًا * للبَيْنِ تَسْـفَحُ غَرْبَ ماقِكْ!
وعلمتُ أنّ بُكاءنا * حسبُ ٱشتياقى وٱشتياقِكْ!
وذكَرْتُ مايجِـدُ المودِّعُ عنـد ضَمِّـكَ وٱعتناقِكْ،
فـتَرَكْتُ ذاكَ تعمُّـدًا * وخرجتُ أهْرُبُ من فراقِكْ!

وقال آخر:

الله يعلَمُ ما تَرَكْت وَدَاعَهُ، * ولقد جَزِعْت لبُعْده وفراقِه،
إلا مخافـةَ أنْ يُذيبَ فؤادَهُ * مافى فُؤادى منه عنْد عِناقِه!

وقال آخر:

إنّ تَرْكِى فَضِـيلةَ التشْييع * لاَجتِنـابِى مَشَـقّةَ التّوديع،
مايَفِى أُنْسُ ذا بوَحْشة هذا، * فـرأيتُ الصّوابَ تَرْكَ الجميع!

وقال آخر:

ما تركْتُ الوَداعَ يوم ٱفـترقْنا * عن مَلالٍ ولا لوجهٍ قَبِيـحِ.
أنتَ رُوحِى على الحقيقـة ما زِلْـ * ـتَ، وما ٱخترْتُ أن أُودِّعَ رُوحِى!

* * *

ومما قيل فى الصدّ والهِجْران، قال أبو عُبادة البحترى:

هَجَر الحبيبُ، فمتُّ من شَغَفٍ * لَمَّا حُرِمْتُ عَزِيمةَ الصَّـبْرِ!
فإذا قضَيْتُ،فنـادِ: ياحَزَنِى، * هـذا قَتيلُ الصّـدّ والهَجْرِ!
والبـدرُ فى حلٍّ وفى سَـعَةٍ * من سَفْكه دمَ عَبْـدِه الحُرِّ!

وقال ابن ميّادة :

كانُوا بعيدًا، فكنتُ آملُهمْ * حتّى إذا ماتقاربوا، هجَروا.

فالبُعْدُ منهم على رجائِهِمُ * أنفعُ من قربهم إذا هجَروا!

(٩٢)

وقال أبو الحسن أحمد بن عمر النهروانيّ :

٥ على قلْبِي الاحِبَّةُ بالتمادِي في الهوى غَلَبُوا.

وبالهجْرانِ من عينىَّ طِيبَ النومِ قد سَلَبُوا.

وما طَلَبُوا سِوى قتلى، * فهانَ علَىَّ ما طَلَبُوا!

ولما سمع الشيخ العالم صدر الدين محمد بن الوكيل هذه الأبيات، عارضها، وأنشدنى لنفسه في صَفَر الأغر الميمون سنة ثلاث عشرة وسبعمائة.

١٠ لئِنْ غَلَبُوا على عَقْلِي، * لقد سَلَبُوا لِمَنْ غَلَبُوا!

وإنْ أبكِى تبسّمُهُمْ، * فخُلَّبَ بَرْقِهِمْ خَلَبُوا!

وإن تَرْجُ العيونُ، فقَدْ * إليها السُّهْدَ قد جلَبوا!

وإنْ عطَفُوا برِقَّتِهم، * فدَرَّ مَدامعى حَلَبُوا.

* * *

١٥ ومما قيل في الزيارة، قال الوزير أبو عبد الله بن الحَدّاد :

إذا جاءنِى زائرًا حُسْنُهُ * أقامَ عليه رَقيبًا عَتيدًا.

إذا ما بَدَا، سَرْبَلَتْهُ العيون * وخرّتْ وُجوهٌ إليه سُجُودًا.

هوالبَدْرُوالغُصن: خَدًّاوقَدًّا، * كما أنهُ الظَّبْيُ: لَحْظًا وجِيدًا.

أتى زائرًا وفُؤادِى خَلِيٌّ، * فمرَّ به مُسْتهامًا عَميدًا.

٢٠ وغادَرَنِى بعْدَه في غَرامٍ * تضَرَّمَ بين ضُلُوعى وقُودًا!

وقال نصير الخُبْزأَرُزّى، شاعر "اليتيمة" عفا الله عنه :

خَليلىَّ ! هَلْ أبصَرْتُما أو سَمِعْتُما * بأكْرَم من مَوْلًى تَمَشَّى إلى عَبْد !
أتى زائرًا من غيْرِ وَعْدٍ وقال لى: * أُصُونُك عن تعليق قَلْبِك بالوَعْدِ !

وقال الوأواء الدمشقى :

زارَ بليلٍ على صــبَاحٍ * على قَضيبٍ على كَثيبِ ! ٥
حتّى أتت ألْسُنُ الليالِى * مُعْتذِراتٍ من الذُّنوبِ .
فيالَهَــا زَوْرةً أخَــذْنا * بهــا أماناً من الخُطُوب !

وقال أبو عبد الله الحدّاد :

يازائرًا ، مَــلأَ النَّــواظِرَ نُورا * والنَّفْسَ لَهْـوًا والفُؤادَ سُرورا !
لوأسْتَطِيعُ ،فرشْتُ كلَّ مَسَالِكى * حَدَقًا وبِيضَ سَوَالِف ونُحورَا . ١٠

وقال آخر :

أهْــلًا وسَهْلًا بطارِقٍ طَرَقَا ، * أحببْتُ فيــه السهاد والارَقا !
زارَ على غَفْــلةِ الرقيب ويُمْــ*ـسناه تُدارِى وِشَاحَــه القَلَقَــا .
فبِتُّ منــه مُعانِقًا صَــنَمًا * يَنْفَحُ مِسْكًا وعَنْــبَرًا عَبِقَــا .
لو شِئْتُ، أنشأْتُ من ذَوَائبه * لَيْــلا ، ومن نُور وجْهِه فَلَقَا ! ١٥

وقال أبو عبد الله الحامدىّ من شعراء "اليتيمة" :

مُشتاقةٌ طَرَقَتْ فى الليل مُشْتاقَا ! * أهلًا بمَنْ لم يَخُنْ فى العَهْــدِ ميثاقَا !
أهْلًا بمن ساقَ لِى طَيْفَ الأحِبّةِ فى * ليــلِ الدُّجُنَّةِ ، بل أهْلًا بمــا ساقَا !
يازائرًا زارَ من قُرْبٍ على بَعَدٍ ، * آنسْتَ مستوحِشًا ! لا ذُقْتَ ماذاقَا !

الله يعلَمُ لو أنى آستطعْتُ، لقد * فرَشْتُ ممْشاكَ آماقًا وأحْداقا!
ياليْلُ، عرِّجْ على إلفيْنِ قد جعَلا * عقْدَ السواعِدِ للأعناقِ أطْواقا!

وقال مؤيد الدين الطغرائى:

وزائرةٍ وافتْ، فأجللْتُ خدَّها * وقبَّلْتُ إكراما لمَوْرِدِها الأرضا!
فيا زَورةً جاءتْ على غيرِ موْعِدٍ، * فقرَّتْ عيونٌ وآشتفَتْ أنفُسٌ مرْضى!
فلَمْ أرَ إلّا ما ألَذُّ وأشْتَهِى، * ولم أرَ إلَّا ما أوَدُّ وما أرضى!
على أنَّها ولَّتْ ولم أقْضِ سُنَّةً * — من الوَطَرِ المطُولِ دهْرا — ولا فرضا!
وما سوَّغَتْنا ليلةَ الوصلِ قرْضَها * إلى أنْ بدَا الإصْباحُ يسْترْجع القرْضا.

وقال آبن سُكَّرة، من شعراء "اليتيمة":

أهلًا وسهْلًا بمَنْ زارتْ بلا عِدَةٍ * تحْتَ الظلامِ ولم تحْذَرْ من الحَرَسِ!
تستَّرتْ بالدُّجى عمْدا، فما آستَترَتْ * وباتَ إشراقُها ليْلًا على قبَسِ!
ولو طوَاها الدُّجى عنَّا، لأظهَرَها * برقُ اللِّثاتِ وعطْرُ النَّحْرِ والنَّفَسِ!

* * *

ومما قيل فى تخفيف الزيارة وموانعها، قال شاعر الحماسة:

ولمَّا رأيتُ الكاشحينَ تتبَّعُوا * هوانا وأبدَوْا دُوننا نَظرا شَزْرا،
جعلْتُ — ومابى من جَفاءٍ ولاقِلًى — * أزورُكُمُ يومًا وأهْجُرُكُمْ شَهْرا!

وقال مسلم بن الوليد:

أقْلِلْ زيارَتَكَ الصَّديـ * ـقَ، يرَاكَ كالثَّوبِ آستَجَدَّهْ!
إنَّ الصَّديقَ يُمِلُّهُ * أنْ لا يزالَ يرَاكَ عنْدَهْ،
إلَّا الكِرَامَ ذَوِى النُّهى، * إنَّ الكريمَ يُديمُ عَهْدَهْ!

وقال آخر:

إذا ما كثرتَ على صاحبٍ * وقد كان يُدْنيك من نَفْسِهِ،
فلا بُدّ من مَللٍ واقعٍ، * يُغيّر ما كان من أُنْسِه!

وقال آخر:

لئنْ تأخّرتُ عن مَفْروض خِدْمَتِكمْ * تجشُّما، فضميرى غيرُ مُتَّهَمِ!
سعى ودادى إليكُمْ بالوفاء لكم، * والسَّعىُ بالقلْب فوقَ السعْىِ بالقَدَمِ!

وقال ابن المعلم:

لم أطْوِ بحْرَ نَداك - مع قُرْبِى - قِلًى * إلا مَخافةَ مَوْجِه المُتراكب.
وعلمتُ أنّى إن أتيتُك زائرًا، * ثقّلتُ، والتثقيلُ ليس بواجب.

وقال المعوّج:

ثلاثةٌ منعتْها من زيارَتنا، * وقد طوى الليلُ جَفْنَ الكاشِحِ الحَنِق:
نُورُ الجَبين، وَوَسْواسُ الحُلِىّ، وما * يمسّ أردانَها من عَنْبرٍ عَبِقِ.
هَب الجَبينَ بفَضْلِ الثوب تَسْتُره، * والحَلْىَ تنزِعه، ما الشأنُ فى العَرَق؟

وقال أبو فراس الحمدانىّ:

لقد نافسنى الدهْرُ * بتأخيرى عن الحَضْرهْ.
فما ألْقى من العِلّةِ ما ألقى من الحَسْرهْ!

ومنها التأخر عن عيادة المرضى، قال ابن زُرَيق الكوفىّ الكاتب:

يا مَريضًا لِسُقْمِهِ، * مَرِضَ العِلْمُ والوَفا!
لم يكُنْ تَرْكِىَ العيا * دةَ هَجْرًا ولا جَفا.

لم أُطِقْ أنْ أراكَ يا * أكرَمَ الناسِ مُذْنِفا!
طالَ خَوْفِى عليك، والـ * ـحمدُ للهِ إذ كَفى!

وقال آخر:

منَعَتْنِى عليــكَ رِقَّةُ قَلْبِى * من دُخُولِى عليكَ فى العُوّادِ.
٥ لو بأُذْنِى سمعتُ منكَ أنيناً، * لتَفَــرّى على الأَنينِ فُؤادى.

وقال آخر:

فواللهِ! ليْسَ ٱنْقطاعِى جَفًا * وفى كَبِدِى منك نارٌ تشبُّ!
ولكنّنى قَطُّ لا أشْــتَهِى * أرى مَنْ أُحبُّ كما لا أُحبُّ!

* * *

١٠ ومما قيل فى المدامع، قال العسكرىّ: أبلغُ ما قيل فى ٱمتلاء العين من الدمع قولُ بعض الأعراب:

فَظَلْتُ كأنّى من وَراءِ زُجاجةٍ * إلى الدّار من فَرْط الصَّبابةِ أنظُرُ.

وقال البحترىّ:

ويحسُنُ دَلُّها والموتُ فيــه، * وقد يُسْتَحْسَنُ السيفُ الصَّقيل!
١٥ وَقَفْنا والعُيونُ مُثَقَّــلاتٌ * يُعالِجُ دَمعَها طَــرْفٌ كَلِيــلُ!
نَهَـتْهُ رِقْبــةُ الواشِينَ حتَّى * تعلَّق: لا يَفيضُ ولا يَســيلُ!

وقال السرىّ:

بنفسِىَ مَنْ رَدَّ التحيــةَ ضاحِكًا، * فجدّدَ بعد اليأسِ فى الوَصْلِ مَطْمَعِى!
إذا ما بَدَا، أبدى الغَــرامُ سرائِرِى * وأظهَرَ للعُذَّال ما بين أضْلُعِى.
٢٠ وحالَتْ دُموعُ العينِ بيْنِى وبيْنَه، * كأنّ دُموعَ العينِ تَعْشَقُه مَعِى.

وقال الصولىّ :

قد كانَ فى طُولِ البُكا لِى راحةٌ، * وعِنانُ سِرّى فى يَدِ الكِتْمانِ.

حتّى إذا الإعْلانُ نَبّـهَ واشِيًا، * رقأَتْ دُموعى خَشْيةَ الإعْلانِ!

وقال بشّار :

ماءُ الصَّبابةِ، نارُ الشّوقِ تَحْدِرُه * فهل سَمِعتُم بماءٍ فاضَ من نارِ؟ ٥

وقال أبو هلال العسكرىّ :

أشكُو الهوى بدُموعٍ قادها قَلَقٌ * حتّى عَلِقْنَ بجَفْنٍ ردَّها الفَرَقُ.

ففى الفُؤادِ سَبِيلٌ للأسى جَدَدٌ، * وفى الجُفُونِ مَقِيلٌ للكَرى قَلِقُ.

لَهيبُ قلبى أفاضَ الدّمْعَ من بَصَرى، * والعُودُ يَقْطُر ماءً وهو يَحْتَرِقُ!

وقال الصولىّ : أنشد أبو الحسن بن رجاء المبرّد يوما بيتَ ذى الرمّة : ١٠

"لعَلَّ آنحِدارَ الدمع يُعْقِب راحةً * من الوَجْدِ أو يَشْفِى شَجِىَّ البَلابِلِ!"

وقال : من قال فى مثله، فقد ملح .

وقال الحسن بن وهب :

اِبْكِ! فما أكْثَرَ نَفْعَ البُكا! * والحُبُّ إشْفاقٌ وتَعْليلُ!

اِفْزَعْ إليه فى آزْدِحام الجوى * ففيه مَسْلاة وتَسْهِيلُ. ١٥

وهو إذا انت تأمّلْتَهُ * حُزْنٌ على الخدّيْنِ مَحْلُولُ!

وقال العباس بن أحمد بن الأحنف :

(٩٤) إنّى لَأجْحَدُ حُبَّكم وأُسِرُّهُ * والدمعُ مُعْتَرِفٌ به لم يَجْحَدِ.

والدمعُ يشهدُ أنّنى لكِ عاشِقٌ * والناسُ قد علمُوا وإن لم يَشْهَدِ!

ثم قال : أنفذى يا جرباء، فقالت : وأنا آمنة ؟ قال نعم . فقالت :

كأنّ الكرى سقّاهمُ صَرْخَديّةً (١) * عُقَارا تَمشّى فى المطا والقوائم

فقال عَقيل: شربتِها وربِّ الكعبة ! لولا الأمانُ لضربت بالسيف تحت قُرْطك، أما وجَدْتِ من الكلام غير هذا! فقال جَثّامة: وهل أساءت! إنما أجازت. وليس غيرى وغيرُك . فرماه عَقيل بسهم فأصاب ساقه وأنفذ السهم سَاقَه والرَّحلَ، ثم شدّ على الجَرْباء فعقر ناقتها ثم حملها على ناقة جَثّامة وتركه عَقيرًا مع ناقة الجرباء. ثم قال : لولا أن تسبّنى بنو مرّة ما ذقتِ الحياة . ثم خرج متوجّها إلى أهله وقال : لئن أخبرتِ أهلَك بشأن جثّامة ، أو قلتِ لهم إنه أصابه غيرُ الطاعون لأقتلنك . فلما قدموا على أهل أُبَيْر (وهم بنو القَيْن) ندم عَقيل على فعله بجثّامة . فقال لهم : هل لكم فى جَزور انكسرت؟ قالوا : نعم . قال: فألزموا أثر هذه الراحلة حتى تجدوا الجَزور، فخرج القوم حتّى انتهوا إلى جَثّامة فوجدوه قد أنزفه الدم ، فاحتملوه وتقسّموا الجزور، وأنزلوه عليهم، وعالجوه حتى برأ، وألحقوه بقومه .

ونسخت هذا الخبرَ من كتاب أبى عبد الله اليزيدىّ بخطه ولم أجده ذكر سماعه إياه من أحد قال :

قرئ على علىّ بن محمد المدائنى عن الطِّرِمّاح بن خليل بن أبرد ، فذكر مثل ما ذكره الزبير منه وزاد فيه : أن القوم احتملوا جَثّامة ليلحقوه بقومه ؛ حتى إذا كانوا قريبا منهم تغنى جَثّامة :

أيُعْذَر لاهينا (٢) ويُلْحَيْن فى الصِّبا * وما هنّ والفتيانُ إلا شقائقُ

(١) الصرخدية : نسبة إلى صرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق . العقار : الخمر . المطا : الظهر . (٢) فى الأصول : «لاحينا» وهو تحريف ، صوابه من الأمالى لأبى على القالى فى حديث رجل كان قد عضل بناته (٢ : ١٠٥) ، وروايته فيه :

أيزجر لاهينا ونلحى على الصبا * وما نحن والفتيان إلا شقائق

فقال له القوم : إنما أفلتَّ من الجراحة التى جرحك أبوك آنفا، وقد عاودتَ ما يكرهُه، فأمسكْ عن هذا ونحوِه إذا لقِيته لا يلحقك منه شرّ وعرّ[1]. فقال : إنما هى خَطْرةٌ خَطَرَتْ، والراكب إذا سار تغنّى .

أصابه القولنج فى المدينة فنعتت له الحقنة فأبى فقال ابنه شعرا فى ذلك

أخبرنى الحسن بن علىّ قال حدّثنى أحمدُ بن سعيد الدمشقىّ قال حدّثنا الزبير ابنُ بكار قال حدّثنى عبد الله بن إبراهيم الجمحىّ قال :

قدِم عَقيلُ بنُ عُلَّفة المدينةَ فنزل على ابن بنته يعقوب بن سلمَةَ المخزومىّ، فمرض وأصابه القولنج[2]، فنُعِتَتْ له الحُقنة ، فأبى . وقدِم ابنه عليه فبلغه ذلك، فقال :

لقــد سرنى واللهُ وقاكَ شَرَّها * نجاؤكَ منها حين جاء يقودُها
كفى خزيةً ألّا تزال مُجَبِّيا[3] * على شَكْوةٍ[4] تُوكَى وفى آستك عُودُها

شد على ابنه علفة بالسيف فحاد عنه وقال فى ذلك شعرا

أخبرنى عبيد الله بن محمد الرازىّ قال حدّثنا أحمد بن الحارث الخرّاز قال حدّثنا علىُّ بنُ محمد عن زيد بن عياش التغلبىّ والربيع بن نُمَيْل قالا :

غدا عَقيل بن عُلَّفة على أفراس له عنــد بيوته فأطلقها ثم رجع ، فإذا بنوه مع بناتِه وأُمِّهِمْ مجتمعون، فشدّ على عملّس فحاد عنه ، وتغنى علّفة فقال :

قفى يآ بنةَ المُرِّىّ أسألْكِ ما الذى * تريدين فيما كنتِ مَنَّيْتِنا قبــلُ
نخـبِّرْكِ إن لم تنجزى الوعدَ أننا * ذَوَا خُلّةٍ لم يبــق بينهما وصــلُ
فإن شئتِ كان الصَّرم ما هبّت الصبا * وإن شئتِ لا يفنَى التكارم والبذل

(١) عرّه بمكروه : أصابه به وساءه . (٢) القولنج : مرض معوىّ .
(٣) كذا فى ب، س، ط ، م . وفى جـ «مجنبا» ، وفى ف «محبيا» ، تصحيف ، يقال : جبّى فلان؛ إذا أكب على وجهه باركا . (٤) الشكوة : القربة الصغيرة . وتوكى : تربط .

فقال عَقيل: يا بن الخَنّاء[1]، متى منّتْك نفسك هذا! وشدّ عليه بالسيف — وكان عملّس أخاه لأمه — فحال بينه وبينه، فشدّ على عملّس بالسيف وترك عُلّفة لا يلتفت إليه[2]، فرماه بسهم، فأصاب ركبته؛ فسقط عَقيل وجعل يتمعّك[3] فى دمه ويقول:

٥ إنّ بَنِيَّ سَرْبَلُونى[4] بالدَّمِ * من يَلْقَ أبطالَ الرجال[5] يُكْلَمِ

ومَنْ يكن ذا أَوَدٍ يُقَوَّمِ * شِنْشِنةٌ[6] أعرِفها من أخزمِ

قال المدائنى: "شِنشنة أعرفها من أخزم" مَثَلٌ ضربه. وأخزمُ: فحلٌ كان لرجل من العرب، وكان منجِباً، فضرب فى إبل رجلٍ آخر — ولم يعلم صاحبُه — فرأى بعد ذلك من نسله جملا، فقال: شِنْشِنة أعرِفها من أَخْزَم[7].

عاتبه عمر بن عبد العزيز فى شأن بناته فأجابه

١٠ أخبرنى محمدُ بنُ خلف وكيعٌ قال حدّثنى سليمانُ المدائنىّ قال حدّثنى مصعب ابن عبد الله قال:

قال عمر بن عبد العزيز لعَقيل بن عُلّفة: إنك تخرج إلى أقاصى البلاد وتدع بناتك فى الصحراء لا كالئَ لهنّ، والناس ينسُبُونك إلى الغيرة، وتأبى أن تزوّجهنّ إلا الأكفاء. قال: إنى أستعين عليهنّ بخَلّتين تكلآنِهنّ، وأستغنى

١٥ عن سواهما. قال: وما هما؟ قال: العُرْىُ والجوعُ.

نسخت من كتاب محمد بنِ العباس اليزيدىّ:

---

(١) الخناء، من الخنى، (بالتحريك)، وهو النتن. (٢) كذا فى ف، وفى سائر الأصول: «عليه». (٣) يتمعك فى دمه: يتمرغ. (٤) رواية اللسان مادة شنن: «زملونى». (٥) رواية اللسان: «آساد». (٦) الشنشنة: الخليقة. (٧) المثل فى اللسان

٢٠ منسوب إلى أبى أخزم الطائى، قال: «قال ابن برى: كان أخزم عاقا لأبيه فمات وترك ابنين عقوا جدهم وضربوه وأدموه، فقال ذلك».

جفاه ابنه عملس فأصاب ركبته، فغضب وخرج إلى الشام، وقال فى ذلك شعرا

قال خالدُ بنُ كلثوم : لما رمى عملَّس بنُ عَقيل أباه فأصاب ركبته غضب وأقسم ألّا يساكن بنيه، فاحتمل وخرج إلى الشّام، فلما آستوى على ناقته المسماة بأطلال بكت ابنته جرباء وحنّت ناقته، فقال :

ألم تريا أطلالَ حَنَّتْ وشاقَها * تفرُّقُنا يومَ الحَبيبِ[1] على ظهر

وأسبل من جرباءَ دمعٌ كأنّه * جُمانٌ[2] أضاع السلكَ أجرَتْه فى سطر

لعمرُكَ إنى يوم أغذو عَملَّسا * لكالمتربِّى[3] حَتفَه وهو لا يدرى

وإنى لأسقيه غَبوقى وإننى * لَغَرْثانُ[4] منهوكُ الذّراعين والنحرِ

خرج ابنه علفة إلى الشام أيضا وكتب إلى أبيه شعرا

قال : ومضى علّفة أيضا، فافترض[5] بالشام وكتب إلى أبيه :

ألا أبلغا عنّى عَقيلًا رسالةً * فإنك من حربٍ علىّ كريمُ

أما تذكر الأيامَ إذ أنت واحد * وإذ كلُّ ذى قُربى إليك ذميمُ

وإذ لا يَقيك الناسُ شيئا تخافُه * بأنفسهم إلا الذين تَضيمُ

تَناول شأوَ الأبعدين ولم يقم * لشأوك بين الأقربين أديمُ

فأمّا إذا عضَّتْ بك الحربُ عَضّةً * فإنك معطوفٌ عليك رحيمُ

وأمّا إذا آنستَ أمنا ورخْوةً * فإنك للقُربَى ألدُّ[6] ظَلومُ

فلما سمع عقيل هذه الأبيات رضى عنه، وبعث إليه فقدم عليه .

أخبرنى هاشم بن محمد الخُزاعىّ قال حدّثنا الرياشىّ عن محمد بن سلّام قال حدّثنى ابن جُعْدُبة قال :

(١) حبيب : بلد من أعمال حلب بالشام . (٢) الجمان : اللؤلؤ الصغار أو حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ . (٣) تربه وترباه : أحسن القيام عليه ووليه . (٤) غرثان : جائع . النحر : الصدر . (٥) افترض الجند : أخذوا عطاياهم . (٦) الألد : الخصم الجدل الذى لا يرجع إلى الحق .

٨٩
١١

سب عمر بن عبدالعزيز ابن أخته وعتابه فى ذلك

عاتب عمر بن عبد العزيز رجلا من قريش، أمّه أختُ عقيل بن عُلَّفة فقال له : قَبَحك الله ! أشبهتَ خالَك فى الجفاء. فبلغتْ عَقيلا فجاء حتى دخل على عمر فقال له : ما وجدْتَ لابن عمِّك شيئا تُعيِّره به إلا خُؤولتى ! فقبَح الله شرَّكما خالا . فقال له صُخَير بنُ أبى الجَهْم العَدَوىُّ (وأمه قُرشية) : آمين يا أمير المؤمنين . فقَبح الله شرَّكما خالا ، وأنا معكما أيضا . فقال له عمر : إنك لأعرابىٌّ جِلْف جافٍ ، ٥ أما لو كنتُ تقدّمتُ إليك لأدّبتك . والله لا أراك تقرأُ من كتاب الله شيئا، قال : بلى، إنى لأقرأُ ، قال: فاقرأ. فقرأ : ﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأرْضُ زِلْزالَهَا ﴾ حتى بلغ إلى آخرها فقرأ : فمن يعمل مِثقال ذرةٍ شرا يره ومن يعمل مِثقال ذرةٍ خيرا يره، فقال له عمر : ألم أقل لك إنك لا تحسن أن تقرأ ؟ قال : أولم أقرأ؟ قال : لا ، لأنّ الله ١٠ جلّ وعزّ قدّم الخير وأنك قدّمت الشر. فقال عَقيل :

قرأ شيئا من القرآن فأخطأ فاعترض عليه عمر فأجابه

خذا بطْنَ هَرْشَى أو قَفاها فإنه * كِلا جانبىْ هَرْشَى لهنّ طريق [(١)]

فجعل القوم يضحكون من عَجْرَفِيَّته .

وروى هذا الخبر علىُّ بنُ محمد المدائنىّ ، فذكر أنه كان بين عُمَرَ بنِ عبد العزيز وبين يعقوب بن سلَمةَ وأخيه عبد الله كلامٌ ، فأغلظ يعقوبُ ١٥ لعمر فى الكلام فقال له عمر : اسكت فإنك ابنُ أعرابيّة جافية . فقال عَقيل لعمر : لعن الله شرَّ الثلاثة، منى ومنك ومنه ! فغضب عمرُ، فقال له صُخَير ابنُ أبى الجَهْم : آمين . فهو والله أيها الأمير شرُّ الثلاثة . فقال عمر : والله إنى لأراك لو سألتَه عن آية من كتاب الله ما قرأها . فقال : بلى والله إنى لقارئٌ لآية وآياتٍ فقال : فاقرأ، فقرأ : إنّا بعثنا نوحا إلى قومه ، فقال له عمر : قد أعلمتك

---

٢٠ (١) هرشى : ثنية فى طريق مكة قريبة من الجحفة .

أنك لا تُحْسِن . ليس هكذا قال الله ، قال : فكيف قال ؟ قال : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ فقال : وما الفرق بين أرسلنا و بعثنا !

خذا أنف هَرْشَى أو قَفاها فإنه * كلا جانبى هَرْشى لهنّ طريقُ

دخل المسجد بخفين غليظين وجعل يضرب بهما فضحك الناس منه

أخبرنى عُبيد الله بن أحمد الرازىّ قال حدّثنا أحمد بن الحارث الخرّاز قال حدّثنى على بن محمد المدائنىّ عن عبد الله بن أسلم القرشىّ قال :

قدم عَقِيل بن عُلَّفة المدينة ، فدخل المسجد وعليه خُفَّانِ غليظانِ ، فجعل يضربُ برِجْلَيْه ، فضحكوا منه فقال : ما يُضحِكُكم ؟ فقال له يحيى بنُ الحكم — وكانت آبنة عَقيل تحته — : يضحكون من خُفَّيك وضرْبك برجليك وشدّةِ جفائك . قال : لا ، ولكن يضحكون من إمارتك ؛ فإنّها أعجبُ من خُفّى . فجعل يحيى يضحك .

خبره مع يحيى بن الحكم أمير المدينة وزواج ابنته

أخبرنى محمد بن الحسن بن دريد قال حدّثنا عبد الرحمن ابن أخى الأصمعىّ قال حدّثنى عمى عن عبد الله بن مُصْعَب قاضى المدينة قال :

دخل عَقِيلُ بن عُلَّفة على يحيى بنِ الحكم ، وهو يومئذ أميرُ المدينة . فقال له يحيى : أَنكِح آبن خالى — يعنى ابنَ أوفَى — فلانةَ آبنتك ؟ فقال : إن آبنَ خالك لَيَرضى منى بدون ذلك ، قال : وما هو ؟ قال : أن أَكُفّ عنه سَنَن[1] الخيل إذا غشيتْ سَوَامَه[2] . فقال يحيى لحرسيَّيْن بين يديه : أخرجاه . فأخرجاه ، فلما ولّى قال : أَعيداه إلىّ ، فأعاداه ، فقال عقيل له : مالك تُكِرّنى إكرارَ الناضح[3] ؟ قال : أما والله إنى لأَراك أعرج جافيا . فقال عَقيل : كذلك قلت :

(١) السنن : استنان الخيل ، وهو عدوها لمرحها ونشاطها .

(٢) السوام : كل ما رعى من المال فى الفلوات إذا خلى يرعى حيث شاء .

(٣) الناضح : الدابة يستقى عليها الماء .

تَعَجَّبَتْ إذ رأت رأسي تَجَلَّلَه * من الروائع شيبٌ ليس من كِبَرِ
ومن أديمٍ تولَّى بعد جِدّته * والجفنُ يَخلَق فيه الصَّارِمُ الذَّكَرُ[1]

٩٠ / ١١

فقال له يحيى، أنشدني قصيدتَك هذه كلها . قال : ما انتهيتُ إلّا إلى ما سمعت.
فقال : أما والله إنك لَتقول فتقصِّر، فقال: إنّما يكفي من القلادة ما أحاط بالرقبة .
قال : فأنكحني أنا إحدى بناتك. قال: أمّا أنت فنعم. قال : أما والله لأملأنّك مالا
وشرفا. قال: أما الشّرف فقد حمّلتُ ركائبي منه ما أطاقت، وكلفتها تجشُّمَ ما لم تطِقْ،
ولكن عليك بهذا المال فإن فيه صلاحَ الأَيِّم ورضا الآبي. فزوّجه ثم خرج فهداها
إليه ، فلما قدمت عليه بَعَث إليها يحيى مولاةً له لتنظر إليها ، فجاءتها فجعلت تغمز
عضُدها. فرفعت يدها، فدقّت أنفها. فرجعت إلى يحيى وقالت: بعثتني إلى أعرابية
مجنونةٍ صنعتْ بي ما ترى ! فنهض إليها يحيى، فقال لها : مالك ؟ قالت: ما أردتَ
أن بَعَثْتَ إليّ أمة تنظر إليّ ! ما أردتُ بما فعلتُ إلا أن يكون نظرك إليّ قبل
كلّ ناظر، فإن رأيتَ حسنًا كنتَ قد سبقتَ إلى بهجته، وإن رأيتَ قبيحا
كنتَ أحق مَنْ ستره . فسُرّ بقولها وحظيتْ عنده .

وذكر المدائني هذا الخبر مثلَه ، إلا أنه قال فيه : فإن كان ما تراه حسنا كنت
أوّلَ من رآه، وإن كان قبيحا كنت أوّلَ من واراه .

زواج يزيد بن عبد الملك ابنته الجرباء

اخبرني ابنُ دريد قال حدّثنا عبدُ الرحمن عن عمه قال :
خطب يزيدُ بنُ عبد الملك إلى عَقيل بن عُلّفة ابنتَه الجرباء ، فقال له عَقيل :
قد زوّجتكها، على أن لا يَزُفَّها إليك أعلاجُك[2]؛ أكونُ أنا الذي أجيءُ بها إليك .

(١) الذكر والذكير من الحديد : أيبسه وأشده وأجوده ، وفي البيت إقواء .
(٢) أعلاج . جمع علج (بكسر فسكون) : الرجل الشديد الغليظ .

قال : ذلك لك . فتزوّجها ، ومكثوا ما شاء الله. ثم دخل الحاجبُ على يزيد فقال له : بالباب أعرابىٌّ على بعيرٍ ، معه آمرأةٌ فى هَوْدج قال : أراه والله عَقيلا . قال : فجاء بها حتى أناخ بعيرَها على بابه ، ثم أخذ بيدها فأذعنت ، فدخل بها على الخليفة فقال له : إن أنتمـا وُدِنَ[1] بينكما ، فبـارك الله لكما ، وإن كرهتَ شيئا فضع يدها فى يدى كما وضعتُ يدها فى يدك ثم برِئت ذمتك . فحملت الجرباء بغلام ففرِح به يزيد ونَحَـلَه[2] وأعطاه . ثم مات الصبى ، فورِثت أُمّه منه الثُّلث ، ثم ماتت فورِثهـا زوجها وأبوها فكتب إليه : إن آبنك وآبنتك هلكا ، وقد حسبت مِيراثك منهما فوجدته عشرةَ آلافِ دينارٍ ، فَهَـلُمَّ فاقبِضه . فقـال : إن مصيبتى بابنى وآبنتى تَشغَلنى عن المـال وطلبـه ، فلا حاجةَ لى فى مِيراثِهما ، وقـد رأيتُ عنـدك فرساً سَبقتَ عليه الناس ، فأعطنيه أجعله فحلا لخيلى . وأبى أن يأخذ المـال ، فبعث إليه يزيد بالفرس .

موت ابنتـه وامتناعه عن أخذ ميراثهـا

أخبرنا عبيدُ الله بنُ محمـد قال حدّثنـا الخرّاز عن المـدائنى عن إسحـاق بن يحيى قال :

قال لرجـل من قـريش بالرفاء والبنين فأنكر عليه ذلك

رأيت رجُلاً من قريش يقول له عَقيل بن عُلَّفة : بالرِّفاء والبنين والطائرِ المحمود . فقلت له : يابن عُلَّفة ، إنه يُكرَه أن يُقالَ هذا . فقال : يآبن أخى ، ما تريد إلى ما أُحدِثَ ! إنّ هذا قولُ أخوالِك فى الجاهلية إلى اليوم لا يعرفون غيره . قال : فحدَّثتُ به الزُّهرى فقال : إن عَقيلا كان من أجهل الناس . قال : وإنمـا قال لإسحق بن يحيى بن طلحة : «هذا قول أخوالك» ، لأن أم يحيى بنِ طلحةَ مُرِّيّة .

(١) الودن والودان : حسن القيام على العروس ؛ ويقال : ودن العروس : أحسن القيام عليها .

(٢) نحله ، من النحل (بالضم) ، وهو العطية والهبة .

حطب إليه رجل كثير المال مغموز فى نسبه فقال فيه شعرا

٩١ / ١١

قال المدائنى وحدّثنى علىّ بنُ بشيرٍ الجُشَمِىّ قال قال الرُّمَيْحُ :

خطب إلى عَقِيلٍ رجل من بنى مرّة كثيرُ المال، يُغْمَزُ فى نسبه، فقال :

لَعَمْرى لئن زوّجتُ من أجل ماله * هجينًا[(1)] لقــد حُبَّتْ إلىَّ الدراهم

أأُنكِحُ عبــدا بعــدَ يحيى وخالدٍ * أولئك أكفائى الرجالُ الأكارمُ

٥ أبى لىَ أنْ أرضى الدنيّــةَ أننى * أمُــدُّ عِنـانا لم تخنْــه الشَّــكائمُ[(2)]

خطب إليه رجل من بنى مرة فطعن ناقته بالرمح فصرعته

نسخت مِن كتاب محمــد بن العباس اليزيدىّ بخطّــه يأثُره[(3)] عن خالد بنِ كلثوم بغير إســناد متصل بينهما :

أن رجلاً من بنى مُرّة يقال له داودُ أقبــل على ناقةٍ له ، فخطب إلى عَقِيــل ابن عُلَّفة بعضَ بناته ، فنظر إليه عَقِيل — و إنّ السيف لا يناله — فطعن نَاقَتَهُ بالرمح

١٠ فســقطت وصرعته ، وشــدّ عليه عَقِيلٌ فهرب ، وثار عَقِيلٌ إلى ناقتــه فنَحَرها ، وأطعمها قومه وقال :

ألم تقــلْ يا صــاحبَ القَــلُوص[(4)] * داودَ ذا الســاج وذا القميــص

كانت عليه الأرض حِيصِ بيِص[(5)] * حــتى يَلُفَّ عِيصَــه بعيصى[(6)]

* وكنتُ بالشبان ذا تقميص *

١٥ فقال داود فيه من أبيات :

أراه فــتى جَعْــلَ الحــلالَ ببيته * حرامًا و يَقْرِى الضيفَ عَضْباً مهنّدا

(١) الهجين : العربىّ ابن الأمة . (٢) الشكيمة فى اللجام ، الحديدة المعترضة فى فم الفرس .

(٣) يأثره : ينقله و يرويه . (٤) الساج : الطيلسان الضخم الغليظ .

(٥) حيص بيص فى الأصل : جحر الفأر ؛ و يقال : إنك لتحسب علىّ الأرض حيصا بيصا ، بفتح

٢٠ الحاء والباء ، وحيص بيص بكسرهما : أى ضيقة ، وفى اللفظتين لغات عدّة لا تنفرد إحداهما عن الأخرى .

(٦) عيص المرء : أصله .

فرت منه زوجته الأنمارية فردها إليه عامل فدك

وقال المدائنى حدّثنى جوشن بن يزيد قال :

لمـا تزوّج عَقِيلُ بن عُلَّفة زوجَته الأنمارية — وقد كَبِر — فرّت منه ، فلقيها جحّافٌ ، أحدُ بنى قِتالِ بنِ يَرْبوع ، فحملها إلى عامل فَدَك ، وأصبح عقيلٌ معها ، فقال الأمير لعَقِيل : ما هـذه تستعدى عليك يا أبا الجَرْباء ؟ فقال عقيلٌ : كَلَّ ذَكَرِى ، وذهب ذَفَرِى[١] ، وتغايبَ نفَرِى ، فقال : خذ بيدها ، فأخذها وانصرف ، فولدت له بعد ذلك عُلَّفة الأصغر .

شعره يحرض بنى سهم على بنى جوشن

أخبرنى هاشمُ بنُ محمد الخُزاعىّ قال حدثنا دَماذ عن أبى عبيدة قال :

لما انشبت الحرب بين بنى جوشن وبين بنى سهم بنِ مرة رهط عَقِيل بن عُلَّفة المرىّ — وهو من بنى غَيْظ بن مرة بن سهم بن مُرَّة إخوتهم — فاقتتلوا فى أمر يهودىّ خَمّارٍ كان جارالهم ، فقتلته بنو جَوْشَنٍ من غطفان ، وكانوا متقاربى المنازل وكان عقيل بن عُلَّفة بالشأم غائبا عنهم ، فكتب إلى بنى سهم يُحرِّضُهم[٢] :

فإمّا هلكتُ ولم آتِكُمْ * فأَبْلِغْ أماثلَ سَهْمٍ رَسُولا

بأن التى سامكُمْ قومُكُمْ * لقد جعلوها عليكم عُدولا

هوان الحياة وضَيْمُ المماتِ * وكلّا أراه طعاماً وبيلا

فإن لم يكن غيرُ إحداهما * فسيروا إلى الموت سيرا جميلا

ولا تقعدوا وبكم مُنَّـةٌ * كفى بالحوادث للمرء غُولا[٣]

قال : فلما وردت الأبياتُ عليهم تكفّلَ بالحربِ الحُصينُ بن الحُمَام المُرّىّ أحد بنى سهم ، وقال : إلىّ كتبَ وبى نَوَّه ، خاطَبَ أماثلَ سهم وأنا من أماثلهم . فأبْلَى فى تلك الحروبِ بلاءً شديدا . وقال الحصين بن الحُمَام فى ذلك من قصيدة طويلة له :

(١) الذفر : شـدة ذكاء الريح . (٢) وردت بعض هذه الأبيات فى المفضليات (طبع أوربا ص ٨٨) منسوبة إلى بشامة بن عمرو ، مع اختلاف فى بعض ألفاظها .

(٣) الغول : كل ما أهلك الإنسان .

يَطَأْن من القَتْلى ومن قِصَدِ القَنَا * خَبارًا فما ينهضْنَ إلا تَقَحُّما (١)
عليهن فِتْيانٌ كساهم محرِّقٌ * وكان إذا يَكْسو أجاد وأكرما (٢)
صفائحَ بُصْرَى أخلصَتْها قُيونُها * ومطَّرِدًا من نسج داود محكما (٣)
تأخرت أستبقى الحياة فلم أجدْ * لنفسى حياة مثلَ أن أتقدما

٩٢/١١

نهب بنو جعفر إبلا لجاره فردها إليه وقال شعرا فى ذلك

٥ وقال المدائنى قال جَرّاح بن عِصام بن بُجَيْر :

عَدَتْ بنو جعفر بنِ كلاب على جار لعَقيل فأطردتْ إبله وضربوه ، فغدا عَقِيل على جار لهم فضربه ، وأخذ إبلَه فاطردها ، فلم يردّها حتى ردّوا إبل جاره وقال فى ذلك :

إنْ يَسْرِقِ الكلبىّ فيكم بريقه * بنى جعفر يُعْجَلْ لجارِكُمُ القتلُ
١٠ فلا تحسبوا الإسلام غيَّر بعدكم * رماحَ مواليكم فذاك بكم جهلُ
بنى جعفر إن ترجعوا الحرب بيننا * نَدِنْكم كما كنّا نَدِينُكُمُ قبلُ
بدأتم بجارى فانثنيتُ بجاركم * وما منهما إلا له عندنا حَبْلُ

وذكر المدائنى أيضا :

أسره بنو سلامان وأطلقه بنو القين

أن عَقيلا كان وحده فى إبله ، فمر به ناس من بنى سَلامان فأسَروه ، ومرّوا به
١٥ فى طريقه على ناس من بنى القَيْن ، فانتزعوه منهم ، وخلَّوْا سبيله . فقال عقيل فى ذلك :

أسعدَ هُذَيْم إنّ سعدا أباكُمُ * أبى لا يوافى غاية القَيْن من كلبِ

---

(١) القصد : جمع قصدة ، وهى القطعة من القناة المتكسرة . الخبار من الأرض : مالان واسترخى .
(٢) محرق : لقب عمرو بن هند و إنما سمى بذلك لأنه حرق مائة من بنى تميم .
(٣) قيون : جمع قين : وهو الحداد ، ومطردا : أى درعا مطردا (والدرع قد تذكر) . اطرد الشىء :
٢٠ تبع بعضه بعضا ، والمعنى تتابعت حلقاتها واتصلت .

وجاء هُــذيمٌ والركاب مُناخــةٌ * فقيل تأخّر ياهــذيمُ على العَجْبِ[1]

فقال هذيم إن فى العَجْبِ مركبى * ومركب آبائى وفى عَجْبها حَسْبى

قال : وسعد هذيم هم عُذرةُ وسَلامان والحارثُ وضَبّة .

مات ابنه علفة بالشام فرثاه

أخبرنى الحسن بن على قال حدثنا محمد بن القاسم بن مهرُويَه قال حدثنى أبو مسلم عن المدائنى عن عبد الحميد بن أيوب بن محمد بن عُمَيْلة قال :

مات عُلّفة بن عَقيل الأكبر بالشأم ، فنعاه مُضَرِّس بن سَوادة لعَقيل بأرض الجنَاب ، فلم يصدّقه وقال :

قَبَح الآلهُ ــ ولا أقبِّح غيره ــ * ثَفَرَ[2] الحمار مضرِّس بنَ سَــوادِ

تَنْعَى امرأ لم يَغْلُ أمُّــك مثلَهُ * كالسَّيف بين خَضارِمٍ[3] أنجاد

ثم تحقق الخبر بعد ذلك ، فقال يرثيه :

لَعَمْرى لقد جاءتْ قوافل خبّرت * بأمرٍ من الدنيا علىّ ثقيــلِ

وقالوا ألا تبــكى لمصرعِ فارس * نعتْــه جنودُ الشام غــيرِ ضئيل

فأقسمتُ لا أبكى على هُلْك هالكٍ * أصاب سبيلَ الله خــيرَ سبيلِ

[كأنّ المنايا تبتغى فى خيارنا * لهــا نسباً أو تهتــدى بدليــل][4]

تَحُــلُّ المنايا حيثُ شاءت فإنهـا * مُحَلَّلةٌ بعــد الفــتى ابن عَقيــل

فــتًى كان مــولاه يَحُــلُّ بربْوةٍ * فحَــلَّ المــوالى بعــده بمَسيلِ

(١) العجب : أصل الذنب وهو المصعص .

(٢) الثفر : السير الذى فى مؤخر السرج تحت ذنب الدابة .

(٣) خضارم ، جمع خضرم : الجواد الكثير العطية .

(٤) هذا البيت لم يرد فى ط و جـ .

حطم رجل من بنى صرمة بيوته فأقبل ابنه عملس من الشام فانتقم له

أخبرنى محمد بن الحسن بن دريد قال حدثنا أبو حاتم عن أبى عبيدة : قال : كان عقيل بن عُلّفة قد أطرد بنيه ، فتفرقوا فى البلاد وبقى وحده . ثم إن رجلا من بنى صِرْمة، يقال له بَجِيل — وكان كثير المال والماشية — حَطَّم بيوتَ عَقِيل بماشيته، ولم يكن قبل ذلك أحد يقرُب من بيوت عَقِيل إلا لَقِىَ شرا. فطردت صافنةٌ (أمةٌ له) الماشيةَ، فضربها بَجِيلٌ بعصا كانت معه فشجّها . فخرج إليه عَقِيل وحده — وقد هرِم يومئذ وكبرت سنّه — فزجره فضربه بجيل بعصاه، واحتقره. فجعل عَقِيل يصيح : يا عُلّفة، يا عَمَلّس، يا فلان، يا فلان، بأسماء أولاده مستغيثا بهم ، وهو يحسبهم لهرمه أنهم معه . فقال له أرطاة بن سُهَيّة :

٩٣ / ١١

أكلتَ بنيكَ أكلَ الضبِّ حتى * وجدتَ مرارةَ الكلأ الوبيلِ

ولو كان الأُلَى غابوا شهودا * منعتَ فناءَ بيتك من بَجِيلِ

وبلغ خبرُ عَقِيل ابنَه العَمَلّس وهو بالشام، فأقبل إلى أبيه حتى نزل إليه ، ثم عمَد إلى بَجِيل فضربه ضربا مبرِّحا، وعقر عِدّةً من إبله وأوثقه بجبل، وجاء به يقوده حتى ألقاه بين يدى أبيه، ثم ركب راحلته، وعاد من وقته إلى الشام، لم يَطعَم لأبيه طعاما، ولم يشرب شرابا .

خبر ابنه المقشعر مع أعرابى نزل

أخبرنى عمى قال حدّثنا الكُرانى قال حدّثنا ابن عائشة قال :

نزل أعرابى على المُقَشعِر بن عَقِيل بن عُلّفة المرّى فشربا حتى سكرا وناما ، فانتبه الأعرابى مُرَوَّعا فى الليل وهو يهذِى، فقال له المُقَشعِرُ : مالك؟ قال : هذا ملك الموت يقبِض روحى. فوثب ابن عقيل فقال: لا والله ولا كرامةَ ولا نُعمة[1]

(١) نعمة عين : قرتها .

عينٍ له ! أيقبِض رُوحَك وأنت ضيفى وجارى ! فقال : بأبى أنتم وأمى ! طال والله ما منعتم الضَّيم . وتلفَّف ونام .

تمت أخبار عقِيل ولله الحمد والمِنة .

قد مضت أخبارُ عقيلٍ فيما تقــدّم من الكتاب ، ونذكرها هنا أخبارَ شَبيب ابن البَرْصاء ونسـبه، لأن المُغنين خلطوا بعضَ شعره ببعض شِـعر عَقِيل فى الغناء ٥ المــاضى ذِكْرُه، ونعيدُ ها هنا من الغناء ما شعرُه لشبيبٍ خاصــةً وهو :

صـــــوت

من المــائة المختارة

سَــلَا أمَّ عمرٍو فيم أضحى أسيرُها * تُفادَى الأسارى حوله وهو موثقُ

فلا هو مقتول ففى القتــل راحةٌ * ولا منعَمٌ يوما عليـــه فمطْــلَق[(١)] ١٠

ويروى :

* ولا هو ممنونٌ عليه فمطلَق *

الشــعرُ لشبيبِ بن البَرْصاء، والغناءُ لِدُقاق جاريةِ يحيى بن الربيع . رملٌ بالوسطى عن عمرو . وذكر حبشٌ أن فيه رملا آخر لطويس .

(١) فى جـ « فمعتق » ١٥

أخبار شَبيب بن البَرْصاء ونسبه

نســب

هو شبيبُ بنُ يزيد بنِ جَمرةَ، وقيل جبرة بن عوف بن أبي حارثةَ بن مرّة بن نُشْبة بن غَيْظ بن مرة بن سعد بن ذُبيان. والبرْصاء أمه، واسمها قِرْصافة[1] بنتُ الحارث آبن عوف بن أبي حارثة، وهو آبن خالة عقيل بن عُلّفة، وأم عقيلٍ عَمْرَة بنت الحارث آبن عوف، ولُقِّبَتْ قِرصافةُ البَرْصاءَ لبياضها، لا لأنها كان بها برص.

٥

هاجى عقيل بن علفة

وشبيبٌ شاعرٌ فصيح إسلاميٌّ من شعراء الدولة الأموية، بَدَوِيٌّ لم يَحْضُر إلا وافدا أو منتجعا. وكان يُهاجى عَقيلَ بن عُلَّفة ويُعاديه لشراسة كانت في عَقيل وشرعظيم. وكلاهما كان شريفا سيّدا في قومه، في بيت شرفهم وسُؤْدُدهم. وكان شَبيب أعور، أصاب عينه رجل من طيئ في حَرْب كانت بينهم.

هاجى أرطاة بن سهية

١٠

أخبرنا محمدُ بن الحسن بن دُرَيْد قال حدّثنا أبو حاتم السِّجِسْتانيّ عن أبي عُبيدة قال:

دخل أَرْطَاة[2] بن سُهَيّة على عبد الملك بن مروان — وكان قد هاجى شَبيب بن البرصاء — فأنشده قوله فيه:

٩٤ / ١١

أبي كان خيرا من أبيك ولم يزلْ * جنيبًا[3] لآبائي وأنت جَنِيبُ

١٥

فقال له عبد الملك: كذبت! ثم أنشده البيت الآخر فقال:

وما زلتُ خيرًا منك مذ عضّ كارها * برأسكَ عاديُّ النِّجاد[4] رَكُوبُ[5]

(١) وقيل: إن اسمها أمامة وهو قول ابن الكلبي وقيل إنها لقبت البرصاء لأن أباها الحرث بن عوف جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فخطب إليه صلى الله عليه وسلم ابنته فقال: إن بها وضحا فرجع وقد أصابها ولم يكن بها وضح (تاج العروس وشرح الأمالي وشرح الحماسة للتبريزي).

(٢) الخبر في الأمالي لأبي على القالي ج ٢ ص ٢٣٤ طبعة دار الكتب المصرية.

٢٠

(٣) الجنيب: المنقاد التابع. (٤) كذا في جـ، وفي سائر النسخ «البجاد» بالباء، تصحيف.

(٥) قال أبو علي القالي في شرح البيت: «ما زلت خيرا منك مذ عض برأسك فعسل أمك (والفعل بالفتح: فرج كل أنثى)، أي مذ ولدت. والعاديّ: القديم، والنجاد: جمع نجد: وهو الطريق =

فقال له عبد الملك : صدقت . وكان أرطاة أفضل من شبيب نفسا، وكان شبيب أفضل من أرطاة بيتا .

فاخره عقيل بن علفة فقال شعرا يهجوه

أخبرنى محمد بن يحيى الصولى قال حدّثنا الحَزَنْبَل عن عمرو بن أبى عمرو عن أبيـــه قال :

٥ فاخر عَقِيل بن عُلَّفة شَبِيب بن البرصاء فقال شبيب يهجوه ، ويُعيِّره برجلٍ من طيئ كان يأتى أمه عَمْرَةَ بنتَ الحارث يقال له حَيَّانُ ، ويهجو غيظ بن مرّة :

ألسنا بفُــرْعٍ[1] قـــد علمتم دِعامةً * ورابيـــةً تنشقّ عنها سيولُها

وقد علمتْ سعد بن ذُبيان أننــا * رحاها[2] الذى تأوى إليها وجُولها[3]

إذا لم تَمْسُكْم فى الأمور ولم تَكُنْ * لحربٍ عَوانٍ لاقِحٍ مَنْ يَئُولُها[4]

١٠ فلستم بأهدَى فى البلاد مِن التى * تَرَدَّدُ حَيْرَى حين غاب دليلُهـا

دعت جُلُّ يربوع عقيلا لحادثٍ * من الأمر فاستخفى وأعيا عقيلُها

فقلت له : هلّا أجبتَ عشيرةً * لطارقِ ليلٍ حين جاء رسولُها!

وكائن لنـا من رَبْوة لا تنـالها * مَراقيــك أو جُرثومةٍ لا تطولُها

نَفَـــرْتَ بأيامٍ لغـيرك فخـرُها * وغُرَّتُها معـــروفةٌ وحُجُـــولُها

١٥ إذا الناس هابوا سَوْءَةً عَمَدتْ لها * بنـــو جابرٍ شُبَّانُها وكُـهولُها

= المرتفع . والركوب : المركوب الموطوء ، وهو فعول فى معنى مفعول . وإنما هذا تشبيه ؛ جعل ما عض برأسه من فرجها مثل الطريق القديمة المركوبة فى كثرة من يسلكها ؛ يريد أنه قد ذلل حتى صار كذلك » .

(١) الفرع (بضم الفاء وسكون الراء المهملة ثم عين مهملة) : عدة قرى آهلة على أربعة أيام من المدينة .

(٢) رحى القــوم : سيدهم الذى يصدرون عن رأيه وينتهون إلى أمره . (٣) الجـــول : الصخرة التى فى الماء يكون عليهـا الطىّ فإن زالت تلك الصخرة تهوّر البـئر . (٤) حرب عوان : ٢٠ قوتل فيها مرة كأنهم جعلوا الأولى بكرا ، وحرب لاقح : من لقحت الناقة إذا حملت فهى لاقح ، على التشبيه بالأنثى الحامل التى لا يدرى ما تلد ، قال الحرث بن عباد : * لقحت حرب وائل عن حيال * وقال الأعشى : إذا شمرت بالناس شهباء لاقح * عوان شديد همزها وأظلت

يئولها : يسوسها ، و « من » خبر « تكن » ؛ أى سائسين لها .

لله ما بذّرْ ، من الدموع * صبّ قد آستعبرْ، من الوَلُوع .
أودى به جؤذرْ ، يوم البقيع * فهو قتيلُ ؛ لابل طعينُ ،
* بين الرجا والياسْ، له منونُ *

[خرجْتُ للحيْنِ ، كفّى بكفّى * وحيل ما بينى، و بين إلفى.
٥ لا شك بالبينِ ، يكون حتفى * حان الرحيلُ، ولى ديونُ.
* إن ردها العباسْ، فهو الأمينُ[1] *]

أما ترى البدرا ؟ بدرَ السعودِ * قد آكتسى خُضرَا، من البرود.
إذا آنثنى نَضْرَا ، من القدودِ * أضحى يقولُ ، : مت ياحزينُ.
* قد آكتسى بالياس ، الياسَمينُ *

١٠ قلت وقد شرّد ، النومَ عنّى * وآيس العوّد ، السقم منّى :
صدّ فلما صدّ، قرعتُ سنّى * جسمى نحيلُ، لايستبينُ.
* يطلبه الجُلّاسْ، حيث الأنينُ *

تجاوز الحدّا ، قلبى آشتياقا * وكلَّفَ السهدا، مَن لا أطاقا.
قلتُ وقد مدّا، ليلى رُواقا * ليلى طويلُ، ولا مُعينُ :
١٥ * ياقلبَ بعضِ الناسْ، أماتلينُ؟ *

وقال سراج الدين عمر الكتّانى الحلبى، يمدح الملك المنصور صاحب حماه :

جسمى ذوَى ، بالكمدِ، والسهرِ، والوصبِ، من جانى
ذى شنبٍ، كالبَرَدِ، كالدرِ ، كالحببِ، جمانى .

---

(١) الزيادة من نفح الطيب .

لى غصن بانٍ نَضِرُ * يسبيك منه الهَيَفُ.
يرتع فيه النظرُ * فزهره يُقتطفُ.
والخدّ منه قمرُ * والجسم منه ترفُ.
قد جاءنا يعتذرُ * عذاره المنعطفُ.
ثم آلتوى، كالزردِ، مُعَبقَرِى، مُعقْرَبِى، رَيحانى
فى مُذْهَبِ، مورّدِ، مدنّرِ، مكتّبِ، سَوسانى .
ظبىٌ له مرتَشَفُ * كالسلسبيل البارد.
غصنُ نقًا ينعطفُ * من لينِ قدّ مائد.
بدرٌ عَلاه سَدَفُ * من ليل شَعرٍ وارد.
مُقَرْطَقٌ مشنّفُ * يَختال فى القلائد.
بين اللّوَى، وثَهْمَدِ، بجُؤْذَرٍ، فى رَبْرَبٍ، غِزلانى
ذى ضَرَبٍ، ذى غَيَدٍ، ذى حَوَرٍ، ذى هُدُبٍ، وَسْنَانِى.
أمَا وَحلْىِ جيده! * ورنّةِ الخلاخلِ!
والضمِّ من بروده * قَدّ قضيبٍ مائلِ.
والوردِ من خدوده، * إذْ نَمّ فى الغلائلِ.
لا كنتُ من صدوده * متصلا بعاذلِ!
نارَ الجَوَى، لا تخمُدى، وآستعرى، وكذّبى، سُلْوانى
وأسْبِلِى، وآطّرِدِى، وآنْهَمِرى كالسُّحْبِ، أجفانِى.

مولايَ جفني ساهرُ * مُــؤرَّق كما ترى .

فــلا خيــالٌ زائرُ * يَطرُقــني ولا كرَى .

إنّي عليــلٌ صــابرُ * فما جَزا من صبرا؟

إنْ سَحّ دمعي الهامرُ * فلا تَلُمْه إنْ جرى .

٥ جَالَ الهوى، في جَلَدى، ومُضْمَرى، أضرَّ بى، كِتمانى

مؤنّبى . اتَّئِد، لا تَفْـترِ . وجَنِّب، عن عانِى .

إنْ صَالَ بالهجر وصَــدْ * رحتُ بصبرى مرتدى .

عنــه وإن طال الأمدْ * إلى ذُرَى محمــدِ .

وكيف يخشى مَن قَصَدْ * مَلْــكا كريمَ المحتِــدِ .

١٠ الملِكَ المنصــورَ قــد * سَمَا سَمَاءَ السُّــودَدِ .

ثم آستَوى، بأجرَدِ، مضمَّرِ، ومِقْضَبِ، يمانِى

ذى شُطَبِ، مهنّدِ . وسَمْهرِى . مضطرِبِ، مُرّانِى .

مَلْــكا علت هِمَّاتُه * من فوقِ هَامِ المشترِى .

وبَخِلَــتْ راحاتُه . سُحَّ الســحابِ المطرِ .

١٥ وعُــوِّذَتْ راياتُه . بمحــكمات الســورِ .

بدرٌ بدتْ هــالاتُه * من الصباحِ المُسْــفِرِ .

تحت لِوَى، منعقدِ، بالظَّفرِ، فى موكبِ، فرسَانِى

كالأَشْهبِ، فى الأَسْعُدِ، كالأقمرِ . فى أغْدَبِ، سَيْحَانِى .

يامِلكًا دون الورى * تخطبُـــه الممالكُ.
ومالكا إذا سـرَى * تحجُبُـــه الملائكُ.
بعضُ عطَاك هل تُرَى * جادت به البرامكُ.
فاسْتَجْلِهَا من عُمَرًا * ثغرُ مُنَاها ضاحكُ.

لا يُحْتَوَى : كالشُّهْدِ، كالسُّكْرِ . كالضَّرَبِ، مَعَانِى ٥
كالسُّحُبِ، كالعسجَدِ، كالجوهرِ، من حَلَبِ، ثَمَّانِى .

ٱنتهى ما أوردناه من الغزل والنسيب فى هذا الموضع؛ وقد آن أن نأخذ فى ذكر الأنساب وبالله التوفيق .

الباب الرابع

من القسم الأوّل من الفن الثانى فى الأنساب ١٠

(١٠٠) قال الله تعالى : ﴿يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ . ومعرفة أنساب الأمم مما ٱفتخرت به العرب على العجم، لأنها ٱحترزت على معرفة نسبها، وتمسكت بمتين حسبها؛ وعرفت جماهير قومها وشعوبها، وأفصح عن قبائلها لسان شاعرها وخطيبها؛ وٱتّحدت برهطها وفصائلها وعشائرها، ومالت إلى أفخاذها وبطونها وعمائرها؛ ونفت الدعىّ فيها، ونطقت بملء فيها . ١٥

وسأورد منها إن شاء الله تعالى ما يكتفى به، ويتمسك بأسبابه .

وقد وقفت على المقدّمة التى وضعها الشريف "أبو البركات الجوّانى" فرفعت له علما، ونصبت له إلى المعالى سلما : لأنه أتقن أصولها، وحرّر فصولها؛ وأورد

فيها من الأنساب ماينتفع به اللبيب، ويستغنى بوجوده الكاتب الأريب . فوجدته بدأ فيها بذكر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بآبائه ، وشرح جملة من نسبه الطاهر وأبنائه . فرأيت أن أسرد النسب من أصله ، وأبدأ بآدم عليه السلام، ثم بنسله؛ وأجعل العمدة على سرد عمود النسب المتصل بسيد البشر . ٥ وأذكر من ذلك ما آشتهر عند أهل الأنساب وآنتشر؛ إلى أن أنتهى إلى آسمه الشريف فأجعله خاتمة النسب ، وأتمسك من شريعته ومحبته بأوثق سبب . وأرجو ببركته بلوغ مآربى، ونجح مطالبى؛ وستر عيوبى، ومغفرة ذنوبى؛ وتزكية عملى ، وسدّ خللى ، والتجاوز عن سيئاتى ، والمسامحة بفلتاتى ولفتاتى ؛ والخيرة فى حركاتى وسكناتى .

١٠ هذا والله رجائى من كرم ربى، وإن قل عملى وكثر ذنبى؛ وعلى الشريف العمدة فيما أوردته ، والعهدة فيما نقلته؛ فمن تأليفه نقلت، وعلى مقالته آعتمدت .

قال السيد الشريف نقيب النقباء أبو البركات بن أسعد بن على بن معمر الحسينى الجوانى، النسابة رحمه الله : إن جميع ما بنت عليه العرب فى نسبها أركانها، وأسست عليه بنيانها، عشر طبقات .

---

١٥ الطبقة الأولى الجذم

وهو الأصل إما إلى عدنان وإما إلى قحطان، والجذم القطع، يقال: جذم وجذم؛ وذلك لما كثر الآختلاف فى عدد الآباء وأسمائهم فيما فوق ذلك ، وشق على العرب تشعب المناهج فيه وتصعب المسالك؛ قطع الخوض فيما فوق قحطان ومعدّ وعدنان، وآقتصر على ذكر ما دونهما، لآجتماعهم على صحته . ومنه قول سيدنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم لما انتسب إلى معدّ بن عدنان : «كذب النسابون فيما فوق ذلك» لتطاول العهد. فمن كان من ولد قحطان، قيل يمنىّ. ومن كان من ولد معدّ بن عدنان ، قيل خِنْدفى ، أو قَيْسى ، أو نزارى ، وإن كان الجميع داخلا فى نزار ، أعنى معدّ بن عدنان ؛ وإنما كان بعد نزار جماجم استُغنى بالنسبة إليها عن نزار بن معدّ بن عدنان ؛ ولأن جمهور العلماء طبقوا النسب على ما قدّمناه أربع طبقات : خندفىّ ، وقيسىّ ، ونزارىّ ، ويمنىّ . فقولهم : خندفى أى كل من يرجع إلى الياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان ؛ وهو جمّاع خندف ، فتوسعت العرب فى ذلك إلى أن قالوا : إلياس هو خِنْدف ، لأن ولده وهم مُدْرِكة ، وطَابِخَةُ ، وقَمَعَةُ ، أمهم خندف ، وهى ليلى بنت حُلْوان بن عِمْران ، بن إلحَاف بن قُضَاعة ، خندفت فى طلب ولدها أى أسرعت ، فقال لها إلياس : مالك تخندفين ؟ أى تهرولين فسميت خندف ، فرجع إلى خندف أبطن عدّة : كمُزَيْنَة ، والرِّبَاب ، وضَبَّة ، وصُوفَة ، والشُّعَيْرا ، وتَميم ، وهُذَيل ، وأَسَد ، والقَارَة ، وكِنَانَة ، وقُرَيْش ، فقيل لولد إلياس "خندف" ثم قيل لإلياس نفسه خندف إذ كان أبا لمن أمه خندف لاغير ولا ولد له إلا من خندف . ولذلك نظائر وأشباه فى العرب ، كما قيل لمالك بن خُزَيْمة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مضر : "عائذة" لأن أم ولده عائذة بنت الخُمْس بن قُحَافة الخَثْعَمِيَّة .

وكما قيل لعَوْف بن وَائِل بن قَيْس بن عَوْف بن عبد مَنَاة بن أُدّ بن طَابِخَة بن إلياس بن مضر : "عُكْل" لأن أمةً يقال لها عُكْل حضنت ولده .

وكما قيل لعمرو بن أُدّ بن طابخة بن إلياس : "مزينة" لأن أم ولده مُزَيْنَة بنت كَلْب بن وَبَرَة القُضَاعية .

وكما قيـل لعمرو بن قيس بن عَيْلان بن مضر بن نزار "جَدِيلَةُ قَيْس" لأن أم ولده جَدِيلة بنت مُرّ، أخت تميم بن مر، بن أُدّ، بن طابخة .

وكما قيل للحارث بن عَدِىّ بن الحـارث بن مُرَّةَ بن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عُرَيْب بن زَيْد بن كَهْلان بن سَبَإ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان "عاملة" لأن أم ولده عاملة بنت مالك بن وديعة القضاعية .

وكما قيل لأَشْرَس بن السكون بن أَشْرَس بن كِنْدَة "تُجِيبُ" لأن أم ولده تُجِيبُ بنت ثَوْبَان المَذْحِجِيَّة، وغير ذلك مما يطول الكلام باستقصائه والله أعلم .

وأما قولهم قيسىّ، فالمراد به من ولد قَيْس بن عَيْلَان بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَدّ بن عَدْنَان، ويكون عيلان هاهنا أخا إلياس بن مضر، وكان[1] آسم إلياس عيلان .

وقال الوزير آبن المغربى : هو الناسّ بتشديد السين فيكون مضر أعقب إلياس والناس . ومن العلماء من قال : إن عيلان كان حاضنا، حَضَن قيسا وليس بأب فيقول قيس عيلان بن مضر، مضاف إليه بغير ذكر البنوة، كما قيل فى نَخْذ من قضاعة سَعْد هُذَيْم، وهُذَيْمٌ حاضن، وغير ذلك فى العرب كثير والأول أصح . وهذا قيس بن عيلان بن مضر هو الذى قيل لقيس به قيس والله أعلم .

وذهب قوم إلى أن ولد معدّ بن عدنان كلهم يقال لهم : قيس وهو خطأ، وإنما هم يجوّزون ذلك على وجه بعيد ليميزوا بالعزوة إلى ذلك بين يمن وغيرها : فيقولون : قيس ويمن، فيظن السامع أنهما أخوان، وأين قيس من قحطان جدّين : لأن قحطان أبا اليمن هو أخو الجدّ العشرين لقيس : وهو فالَغ بن عابَر، وقحطان بن عابَر . وسيرد ذلك فى سرد النسب بعون الله ومشيئته .

(١) لعله أو كان آسم إلياس الخ ليستقيم الكلام .

وبيانه هاهنـا أن قيس بن عيلان ، بن مضر ، بن نزار ، بن معدّ ، بن عدنان ، ابن أُدّ ، بن أُدَد[١] ، بن اسماعيل الذبيح ، بن إبراهيم الخليل ، بن تارَحَ : وهو آزر بن ناحُور ، بن سَاروغ ، بن أَرْغُو ، بن فالَغ ، بن عَابَر . ففالغ أخو قحطان ، وقحطان هو الجد الذى ترجع إليه يمن كلها ؛ وهو أحد جِذْمَى النسب كما تقدّم .

فقـد بان أن قول من يقول قيس : ويمن قبيلة ليس بشىء ، وإنمـا قال ذلك لولد معدّ بن عدنان إشارة لإعلام السائل إذا سأل المعدىّ من أىّ نسب هو ، فكأنه يقول له من البطن التى منها قيس . وهذا بعيد وشاذ .

وممـا يؤكد بعده أنا إذا جوزنا ذلك لمن ينتسب إلى جمجمة فوق قيس كربيعة ابن نزار بن معدّ بن عدنان ، وإياد بن نزار وغير ذلك وان كان بعيـدا فكيف يجوز أن يطلق ذلك على قريش . فنقول : هم قيس ، وإنمـا قريش بنو فهر بن مالك بن النَّضْر بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدْركة بن إلياس بن مضر بن نزار ، وإلياس هو عم قيس فيكون قريش دون قيس بهذه العلّة ، فلا يجوز أن يقـال : إن قريشا من قيس ، وقيس إنمـا هو ابن عم الأب السادس من قريش : وهو مدركة ؛ ولو كان عمًّا له ، لكان ربمـا يجوز على وجه التعارف عند العرب بأن العم أب كما أخبر الله تعالى عن نبيه يعقوب عليه السلام فقال تعالى : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ، والذى ذهب إلى أن العم أب قال : أنا أطلق على ولد معدّ بن عدنان قيسا لأن قيسا منهم ، فأقول : قريش من قيس . وهذا بعيد من وجه أن قيسًا ليس

(١) هكذا بالأصل . وفى كتاب الجوانى المنقول منه هذا الفصل والموجود منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، ناقصة الآخر (ابن أُدّ بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيذار بن إسماعيل الذبيح الخ) .

بعم لقريش، وإنما هو آبن عم، ولا ترجع العُزْوة فى الآنتساب إلى ذيل الأعقاب، إنما يعزى لأعلى النسب، لا لأسفل العقب؛ ولو صح ذلك، لعُزِى الإنسان لآبن آبن عمه وهذا لا يصح .

فقد وضح أن العزوة إلى قيس لاتصح إلا لمن يرجع إليه بالولادة منه: لأن ربيعة وإيادا آبنى نزار أعلى منه، فلا يصح أن يُعْزوا إليه؛ وقريش وكنانة أسفل منه فلا يصح أن يعزوا إليه .

وبالجملة فإنه آبن عم لهما، أعنى قريشا وكنانة، وأخ لهما أعنى ربيعة وإيادا؛ ولا يجوز أن يعزى الأب إلى آبنه إذ كانت النسبة فى ذلك لا ترجع إلى الآبن إنما ترجع إلى الأب. ولو آعتمد ذلك فى الأنساب لآختلطت العزوة إلى كل أب بالأب الآخر فلم يتميز، ولم يقف عند حدّ دون الآخر. وهذا يؤول إلى الجهالة بالأبطن والأفخاذ والعشائر .

وأمّا شهرة العزوة إلى قيس، فلما فيها من الجماجم والرءوس والقبائل والأرحاء وهى عند النسابين أكبر من تميم ومن بكر آبنى مُرّ بن أد بن طابخة؛ إذ كان فى قيس بنو عَبْس، وذُبْيان، وغَطفَان، وأَعْصُر، وهَوازِن، وعُدْوان، وفَهْم: وهم جَدِيلة قيس، وسُلَيم، وثَقِيف، وعامِر، وجُشَم، ونَصْر، وبَكْر، وسَعْد، وسَلُول، وربِيعة، وكِلاب، وقُشَير، وحَبِيب، وعُقَيْل، وحَرِيش، وخَفَاجة، وطَهْفَة، وغير ذلك من الأفخاذ والعشائر التى تشرح فى مواضعها بمشيئة الله وعونه .

وأما نزار بن معدّ بن عدنان، ففيها من الأبطن والأفخاذ والعشائر: كبنى رَبِيعَة الفَرَس، وضُبَيْعة أَضْجَم، وأَكْلُب، وأَسْلم، ويقدم، وأجلان، وهميم، وعبد القَيْس، ودُهْن، والنَّمِر، وتَغْلِب، ووَائِل، وبَكْر، وصعب، وعلى، وحبيب، وعَنَزة، وعَنْز،

ورُفَيْدة، و إراشة، ويَشْكر، وعُكَابَة، وعِجْل، وبُجَـيْم، وحَنِيفَة، وزِمَّان، والدُّوْل[1]، وشَيْبَان، وذُهْل، ومَازِن، وسَدُوس، وَبلِيّ، وعَوْف، وبَدْر، ومَعْن، ودُهْمِيّ، وزُهْرَة، وحُذَافة .

فأما أنْمَار بن نِزَار، فانقلب فى يمن كما انقلبت قضاعة فى غير ذلك من الأفخاذ والعشائر مـــا بين فى موضعه إن شاء الله تعالى والحمد لله .

وأما يمن، فهم أولاد قحطان، بن عابر، بن شالخ، بن أَرْفَخْشَذ، بن سَام، بن نوح عليه الســـلام.

وفيها عدّة جماجم وقبائل وأبطن وأفخاذ وعشائر : كَسَبَإ، وطَيِّئ، والأَشْــعر، وحِمْيَر، وقُضَاعة، وغَسَّان، وأَوْس، والخَزْرَج، والأَزْد، ولَخْم، وجُذَام، وعَامِلَة، وخَوْلان، وغَافِق، ومَذْحِج، وحَرْب، وسَعْد العَشِيرة، ومَعَافر، وهَمْدان، وكِنْدة، وكَلْب، ومَهْرَة، وصِنْهَاج[2]، وبَارِق، وبَجِيلَة، وثَعلَبة، ودَوْما، وزُرَيْق، وعُنَيْز، وعَتَّاب، وبُحْتُر، وجَرْم، ومُرَاد، وعَبْس، وجُعْفِيّ، وسَلْمَان، وتُجِيب، وصدا، والنَّخَع، والصَّدِف، وحضرَمَوْت وغير ذلك .

وكل ما ذكرناه فهو أبطن وأفخاذ وعشائر مختلطة، وما قصدنا فيها الترتيب، على طبقات النسب والتعقيب، وإنمــا جئنا من كل عُزْوة ببعض مشاهيرها التى تنسب إليها : ليتبين بعضها من بعض ويعلم غرضنا فى تحرير ما قدمناه والله أعلم .

(١) بضم الدال و إسكان الواو وهو غير الدؤل الذى ينسب اليه أبو الأسود الدؤلى .

(٢) الذى فى القاموس : وصنهاجة قوم بالمغرب من ولد صنهاجة الحميرى وفى تاج العروس : "قال ابن دريد بضم الصاد ولا يجوز غيره . قال شيخنا والمعروف عنــدنا الفتح خاصة فى القبيلة بحيث لا يكادون يعرفون غيره" .

*
* *

وأما عِزْوة العرب إلى يمن : وهم ولد قحطان، فلكونهم نزلوا اليمن؛ وكان منهم ملوك الحيرة وأصحاب سدّ مأرب فتيامنوا، فنسبوا إلى اليمن .

وقيل: إنما قيل لهم: يمن بأَيْمَن بن هَمَيْسَع بن حِمْيَر، وهو جدّ الملوك التبابعة؛ والأوّل أولى .

وأكثر العزوة لمن ينقلب عن نسبه إلى اليمن، لأجل أن الملوك كانت في اليمن : مثل آل النُّعْمان بن المُنْذِر من لَخْم، وآل سَلِيح من قُضَاعة، وآل مُحَرِّق، وآل العَرَنْجَج وهو حمير الأكبر بن سبإ كالتبابعة والأذواء وغيرهم .

والعرب يطلبون العزّ ولو كان في شامخات الشواهق [وبطون الأمالق البوالق[1] فينتسبون الى الأعز لحماية الحمية وإباءة الدنيئة وسكون النفوس الى نفيس الكثرة والعصبية بطريق دقيق في النظر لا على الظن المشتهر] : كما جرى لقضاعة بن معدّ ابن عدنان [لما[1] خلف على أمه الجرهمية بعدُ] مالك بن مرة بن عمرو بن زيد بن مالك ابن حمير أباه معد بن عدنان؛ فجاءت بقضاعة على فراش مالك بن مرة فنسبه العرب إلى زوج أمه [مالك[1] بن مرة، عادة للعرب فيمن يولد على فراش زوج أمه]. وقيل إن اسم الجرهمية : قضاعة، فلما جاءت بولدها سمته باسمها. وقيل بل كان اسمه عميرا فلما تقضع عن قومه أي بعد سمى قضاعة . والعادة عند العرب أن تنسب الرجل إلى زوج أمه؛ ألا ترى أنها قالت في عبد مناة بن كنانة : بنو على وهو على بن مسعود الأزدي وكان حضن بني أخيه لأمه وهم بكر وعامر ومرة أولاد عبد مناة بن كنانة، فغلب

(١) زيادات وجدت في نسخة الجزائرى المخطوطة ولم توجد في الأصل «الفوتوغرافي» .

آسمه عليهم لما تزوج أمهم هند آبنة بكر بن وائل وخلف عليها بعد أخيه، فضم إليه بنى أخيه المذكورين مع أمهم هذه، وهم صغار فربوا فى حجره فنسبهم العرب إلى على . وسيأتى من هذا الباب أمثال له فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

***

والطبقة الثانية الجماهير، والتجمهر : الآجتماع والكثرة؛ ومنه قولهم : جماهير العرب أى جماعتهم، ومنه ترجمة مجموع لغة العرب "الجمهرة" الكتاب الذى ألفه أبو بكر بن دريد وجمهرة "الأنساب" أى مجموعها والله أعلم .

***

والطبقة الثالثة الشعوب، واحدها شِعْب؛ ويقال شَعْب؛ ويقال فى القبيلة بالفتح وفى الجبل بالكسر : وهو الذى يجمع القبائل وتتشعب منه ، ويشبه بالرأس من الجسد؛ قال الله تعالى : ﴿ يٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ﴾ الآية .

***

والطبقة الرابعة القبيلة، وهى التى دون الشعب تجمع العمائر ،وإنما سميت قبيلة لتقابل بعضها ببعض وآستوائها فى العدد؛ وهى بمنزلة الصدر من الجسد .

***

والطبقة الخامسة العمائر، واحدها عِمارة : وهى التى دون القبائل . وتجمع البطون؛ وهى بمنزلة اليدين .

***

والطبقة السادسة البطون، واحدها بطن : وهى التى تجمع الأفخاذ .

*
* *

والطبقة السابعة الأفخاذ، واحدها فَخِذ وفَخْذ، مثل كبد وكبد : وهى أصغر من البطن . والفخذ تجمع العشائر .

*
* *

والطبقة الثامنة العشائر، واحدها عشيرة : وهم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء. وسميت بذلك لمعاشرة الرجل إياهم، قال الله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ . فدعا النبي صلى الله عليه وسلم علياء قريش إلى أن اقتصر على بنى عبد مناف؛ وهم يجتمعون معه فى الجد الرابع . فمن هاهنا جرت السنة بالمعاقلة إلى أربعة آباء؛ وهم بمنزلة الساقين من الجسد اللتين يعتمد عليهما دون الأفخاذ .

*
* *

والطبقة التاسعة الفصائل، واحدها فصيلة؛ وهم أهل بيت الرجل وخاصته؛ قال الله تعالى : ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ وهى بمنزلة القدم .

*
* *

والطبقة العاشرة الرهط، وهم رهط الرجل وأسرته : بمنزلة أصابع القدم . والرهط دون العشرة، والأسرة أكثر من ذلك، قال الله عز وجل : ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ . قال السيد أبو طالب فى قصيدته المشهورة التى يمدح فيها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأحضرتُ عند البيتِ رهطى وأسرتى * وأمسكتُ من أثوابه بالوصائل.

ورهطه بنو عبد المطلب وكانوا دون العشرة . وأسرته من بنى عبد مناف الذين عاضدوه فى نصرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تمثيل التفصيل — عدنان جذم، قبائل معد جمهور، نزار بن معد شعب، مضر قبيلة، خندف عمارة: وهم ولد إلياس بن مضر، كنانة بطن، قريش فخذ، قصى عشيرة، عبد مناف فصيلة، بنو هاشم رهط . ٥

وحيث آنتهى القول فى ذكر الطبقات فلنأخذ الآن فى بسط النسب وسرده فنقول وبالله التوفيق .

أصـــــل النسب

(أبو البشر آدم عليه السـلام)

وآدم هو الجدّ الخمسون لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمود النسب ١٠ الطاهر المحمدىّ من آدم عليه السلام فى آبنه شيث بن آدم عليهما السلام : وهو هبة الله، وأمّه حواء أمة الله .

ولما قتل قابيل بن آدم أخاه هابيل، ولد شيث، وقال آدم عليه السلام : هذا هبة من الله وخلف صالح . وهو الذى بنى الكعبة — شرفها الله تعالى — بالطين والحجارة على موضع الخيمة التى كان الله تعالى وضعها لآدم من الجنة . ١٥

وقال وهب : إن الله تعالى أنزل على شيث خمسين صحيفة ، ورزق عدّة من البنين والبنات .

والعقب منه فى آبنه أنوش بن شيث وأمّه لبود آبنة آدم عليه السلام . وهو الذى غرس النخلة وزرع الحبة، ونطق بالحكمة، وتدعى أمّه محوايلة البيضاء .

والعقب منه فى ٱبنه قينان بن أنوش ، وله ولد ٱسمه أروى (أعنى لأنوش) ، اعقب وٱنقرض عقبه .

والعقب من قينان فى ٱبنــه مهلائيل بن قينان ولم يرزق غيره .

والعقب منه فى ولده يارد بن مهلائيل . وكان ليارد اخوة .

٥ والعقب من يارد فى ٱبنــه أخنوخ بن يارد ، وهو إدريس النبى عليه السلام ، وأمه تدعى بره . قيل سمى إدريس لدرسه الصحف الثلاثين التى أنزلها الله تعالى عليه ؛ وهو أول من خطّ بالقلم ، وكان له إخوة ٱنقرضوا .

والعقب منه فى ٱبنه متوشلخ بن أخنوخ ، وأمه بروخا .

وعقبه فى ٱبنه لمك بن متوشلخ ، وٱسمه لامخ .

١٠ والعقب منه فى ٱبنــه نوح النبىّ عليه السلام ، وأمه قينوش ٱبنــة بركائل بن محوايل ، وهو عليه السلام آدم الثانى : لأنه لا عقب لآدم عليه السلام إلا من نوح وولده . وإخوة نوح عليه السلام جماعة : منهم صالح بن لمك . وسقطان . ومنان ، وترسيس ، وصدفا . وكان لهم أولاد ٱنقرضوا كلهم والعقب من نوح لا غير ؛ ورزق لمك والد نوح عليه السلام نوحا ، وله من العمر مائة واثنان وثمانون سنة ؛ وتوفى وقد ١٥ مضى من عمر نوح خمسمائة سنة .

وٱختلف فى عمر نوح : فقيل عاش ألف سنة إلا خمسين عاما : ستمائة قبل الطوفان وثلثمائة وخمسين سنة بعده . وقيل بل لبث قبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاما ، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى قصته فى التاريخ . وعمود النسب من نوح فى ٱبنه سام بن نوح عليه السلام ؛ وسام هو الجد الأربعون لسيدنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وأمه عمردة . و إخوة سام حام ، و يافث ، و بوناطل ، وسالوم وهو الذى غرق فى الطوفان .

وأما سام بن نوح ، فإن الله تعالى جعل فى ذريته الكتاب والنبوة والملك والجمال والبياض ، ونزلوا ما بين ساقيد إلى البحر ، وما بين البحر إلى الشام : وهو وسـط الأرض ، والحـرم وما حوله ، والحرم إلى حضرموت ، و إلى عمـان ، و إلى عالج والدهنـاء .

والعقب من يافث بن نوح طرسوس ، وهمذان ، والجبال ، والجزر ، وفرنجة ، والصقالبة الذين على تخوم القسطنطينية ، واشكار ، والترك ، وقبرس ، ويأجوج ، ومأجوج ، وكومر ، والمصيصة ، وأدنه ، ورروادنيم ، وماسج ، ونحراسان ، و باوال ، و يونان ، و برجام ، وكرد بن مرد بن يافث .

قال : وهذه رواية العلماء بالنسب ، وسنذكر خبر كرد بعد هذا فى موضعه .

ومن ولد يونان بن يافث الروم واليونانيون ؛ كان منهـم الفلاسفة وأهل الحكمة كالإسكندر وغيره .

وولد بوناطل بن نوح : وهو الذى عقد الألوية للناس حين تفرقوا : الأرغار ، والبعاس ، والدكايك ، والدمشق ؛ وهم أمم لا يحصون خلف صين الصين .

والعقب من حام بن نوح ، الهند والسند والنوب ، والزنج ، والحبشة ، والقبط ، والبربر ، ومصرايم أو آسمه مصر بن حام .

وذكر صـاحب الشجرة : أن مصرايم أعقب من آبنه لوديم ، وأن لوديم أعقب قبط مصر بالصعيد ، والبيهم ، والتفوحيم ، والبرنسيم ، والكشلوجيم ، والقابدقابين ، ومودشايا ، وكوشابا ، وهبورشابا

قال : وهؤلاء بأجمعهم ولد قوط بن حام ، وأندلش ، وكوشان ؛ فولد قوط بن حام مصر ، فولد مصر بن قوط قبط : وهم قبط مصر ؛ وبهم سمّيت مصر مصر . قال : هذا قول شيوخنا . وذكر أهل التاريخ : أن مصر سُمّيت بمصر بن بيصر بن حام ؛ كل ذلك قد قيل وهو الأكثر عن العلماء .

٥ وقال أبو المنذر النسابة فى روايته : إن السند والهند وما بينهما من البلاد قتلهم يوشع ابن نون إلا بقيّة منهم يسيرة لحقوا بأطراف بلاد السودان : وهم الذين ما بين مصر إلى بلاد السودان ، ومنهم البربر والبجة .

وذكر صاحب الشجرة : أن كوش أبو الحبش ، وأنه كوش بن حام ، وأنه أعقب من نمرود أبى ملوك بابل ، ومن أحويلا وهو الواحات ، ومن سُفنا وهو أبو زغاوة ، ١٠ ومن سبإ ، ومن سفخا : وهو أبو الدمدم ، ومن رعما وهو أبو البقاقو من السودان ، والعقب من رعما هذا من سبإ أبى الهند ومن دادان أبى السند .

وذكر أبو المنذر النسابة أن كنعان بن حام أعقب من حماة ، وحمص ، وارواد ودى وطرابلس ، وصيدون ، وهى صيداء ، وحاث ، ونفوسة ، وهوارة ، ومُزاتة ، واموراء ، وكركاسى ، ومزانة من البربر .

١٥ قال الجوّانىّ : وهذا كلّه بيّن الخلاف بين النسابين ؛ ومن النسابين من يلحق لَوَاتة وهم ولد بَرّ بالبربر هذا بن كنعان بن حام ، ومن اللواتيّين من يقول فيهم : إنهم قيس ، ويعبرون أنهم من ولد جابر بن بَغِيض ، بن رَيْث ، بن غَطَفان ؛ وأن جابرا جدّهم عمّ فزارة . ومن لواتة ومزاتة من يزعم أنهم قوم ناقلة صاروا إلى بلد البربر ، وأن البربر إنما هم هوّارة ، وصَنْهاجة ، وأن أباهم تزوّج آمرأة منهم يقال لها : تصوين ، فنُسبوا ٢٠ إلى أمهم ، وهوّارة تزعم أنهم قوم ناقلة من يمن جهلوا أنسابهم .

وولد لَوَاتة بن بَرّ : وهو لَواتة أربعة أفخاذ : وهم زُنَّارة ومَصّانا ونَيْطا وتَطُوفَا؛ ولكلّ فخذ من هذه الأفخاذ عدّة عشائر، حصل الإضراب عن ذكرها رغبة فى الاختصار . فلنرجع إلى عمود النسب فنقول :

إن عمود النسب الشريف من سام بن نوح فى ابنه أَرْفَخْشَذ بن سام؛ وأمه من بنات الملوك .

وكان لسام من الأولاد غير أرْفَخْشَذ : إرم ولاوَذ وأَشْوَذ وغُلَيم وماش (والموصل ولد وأبو الأرمن وخُوزِستان أولاد سام)[1] . وفيهم خلاف عند النسابين .

والعقب من إرم بن سام من عَوص وجاثَر وماش وأهلُوا و إيران أولاد إرم .

فالعقب من أهلوا بن إرم بن سام : قادسان .

والعقب من أكراد[2] جدّ القبيلة المعروفة بالأكراد، فى قول أكثر النسّابين . ومن عشيرة القبيلة من يذكر أنهم من بنى عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن العبسىّ كما نذكره فى بنى هوازن .

وفى الأكراد عدّة بطون : كالحَلاليّة والمروانيّة وغيرهما .

وقد ذكر بعض النسابين أن كُرد بن مُرد بن يافث بن نوح . وفى ذلك خلاف .

والعقب من عَوص بن إرم بن سام : عاد، و به سمّيت عاد إرم .

والعقب من ماش بن إرم بن سام من نَبِيط : وهو نَبَط سواد العراق .

(١) هكذا فى الأصل بحروفه وجاء فى "العبر" أن بنى أشوذ هم أهل الموصل و بنى غليم أهل حوزستان، ولعله الصواب .

(٢) لعله والعقب من إيران فى كرد الخ، انظر "العبر" .

والعقب من جاثَر بن إرم : ثمود وجَدِيس . فالعقب من ثمود بن جاثَر : فالحَ وهَيلع وبَنوق وأَرام؛ من ولده صالح النبيّ عليه السلام آبن أسف بن كَمَاشِج بن أرام بن ثمود.

والعقب من لاوَذ بن سام : عِمْليق وهو أبو العمالقة والفراعنة والجبابرة بمصر والشام ؛ وطَسم بن لاوَذ وأُمَيم بن لاوذ . وفرعون موسى : هو الوليد بن مصعب آبن أَشْمير بن الهُون بن عمليق بن لاوذ بن سام .

وولد الفرس أشُّور[1] بن سام : تَيرش وهم الفرس؛ وبهم سمّيت فارس؛ ومنهم الأكاسرة.

وولد غُلَيم بن سام: خُوزان وهم الخُوز الذين مساكنهم بلاد الأهواز مما يلى بحر الصين.

فلنرجع إلى سرد عمود النسب فنقول : إن عمود النسب منه فى شالَخ[2] بن أرنخشذ وكان له من الأولاد غير شالَخ مالك وقَينان آبنا أرنخشذ . قال : وزعموا أن قَينان أوّل من نظر فى علم النجوم بعد الطوفان وآستنبط ذلك من تَنُّورِ صُفْر كان فيه علمُها قبل الطوفان، ودُفن فى الأرض فآستخرجه وعَلِمَ ما فيه .

والعقب من شالَخ فى آبنه عابَر بن شالخ، وعابر : هو هود النبيّ عليه السلام؛ وأمّه مَرجانة وهو جماع النسب . وله من الأولاد : فالَغ، وفيه عمود النسب، وهو أبو قريش وقحطان ويَقْطُن . فولد يقطن بن عابر : جُرْهُم بن يقطن ، كانوا ولاة البيت الحرام فمكثوا ما شاء الله ، ثم آستحلّوا المحارم، وكثرت فيهم المآثم، فأخرجهم الله تعالى من جوار بيته، ورماهم بالفناء فلم يبق منهم أحد . وفيهم يقول القائل :

* وبادوا كما بادت بقيّةُ جُرهُمِ *

---

(١) هكذا بالأصل وفى «العبر» : أنهم من ولد إيران بن أشوذ بن سام بن نوح . وفى آبن الأثير أنهم بنو فارس بن تيرش بن ماسور بن سام .

(٢) وردت هكذا فى كل المصادر التى يعتمد عليها فى النسب ووردت فى الكتاب المقدس فى سفر التكوين (شالح) بالحاء المهملة .

وقحطان بن عابر هو أبو اليمن كلها، وجذم نسبها .

وولد قحطان هم العرب المتعرّبة ؛ إذ العرب ثلاث فرق : عاربة ومتعرّبة ومستعربة .

فأما العاربة فهم تسع قبائل من ولد إرم بن سام بن نوح : وهم عاد ، ثم ثمود ، ثم أُمَيم ، ثم عَبِيل ، ثم طَسْم ، ثم جَدِيس ، ثم عِمْلِيق ، ثم جُرْهُم ، ثم وَبَار . فعاد وعبيل ٥ آبنا عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وطسم وعمليق وأميم : بنو لاوذ بن سام ؛ وثمود وجديس آبنا جاثر بن إرم بن سام ؛ ووبار وجرهم آبنا فالغ بن عابر : فهذه العرب العاربة .

وأما المتعربة فهم بنو قحطان بن عابر الذين نطقوا بلسان العرب العاربة وسكنوا ديارهم . ١٠

وأما المستعربة فهم بنو إسماعيل بن إبراهيم : وهم بنو عدنان بن أُدّ .

قال الشريف الجوانى : وهذا مختصر من نسب اليمن . قال : إن العقب من قحطان آبن عابَر من يَعْرُب بن قحطان : وهو الذى زعمت يمن أن العرب إنما سميت عربا به وأنه أوّل من تكلم بالعربية ونزل أرض اليمن فهو أبو اليمن كلّها .

وذكر بعض النسّابين أن حضرموت بن قحطان ، وإليه يُنسب كلّ حضرمىّ . ١٥ وقيل . حضرموت من ولد حمير ، وإنه حضرموت بن عمرو بن قيس بن معاوية آبن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن قُطْن بن عَرِيب بن زُهَير بن أَيْمن آبن الهَمَيْسع بن حِمْير . قال : وعلى ذلك آعتماد شيوخنا فى النسب .

وقال آخرون : هو حضرموت بن يقطان بن عابر .

فولد يَعْرُب بن قحطان : يَشْجُب ، فولد يشجب بن يعرب : سبأ وآسمه عبد شمس ، وإنما سُمي بسبإ لأنه أوّل من سَبَى من العرب ، فولد سبأ بن يشجب : حِمْير وكَهْلان .

وقالت طائفة من النسّابين : ومِراء بن سبإ . فولد مرّاء بن سبإ : شعبان قبيلة وصَرِيحان قبيلة ، ولهم عدد ومدد .

٥ وولَد حمير بن سبإ بن يشجب : مالكا وعامرا وعوفا وسعدا ووائلة وعمرا وهميسعا .

فأما عمرو بن حمير فهم آل ذى رُعَين ملوك اليمن : وهم بنو الحارث بن عمرو آبن حمير .

ومن النسّابين من ينسب ذا رُعَين الى أنه ولد زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن ١٠ معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغَوْث بن قُطْن بن عَرِيب بن زهير بن أيمَن بن الهَمَيْسع بن حِمْير : وهم عشيرة ذى أصبح وعشيرة سيف بن ذى يزن .

قال : وشيوخنا فى النسب ينسبون التبابعة الملوك إلى أيمن بن هميسع بن حمير ولا خلاف عندهم فيه وأنهم يرجعون إلى أيمن .

وأما عامر بن حمير، فمنه قبائل يَحْصُب كلّها ، وهو يحصب بن دُهمان بن عامر بن ١٥ حمير . قال : ومن شيوخ النسب من قال : يحصب بن ذى يزن بن ذى أصبح بن زيد بن الغَوْث بن سعد بن عوف بن مالك بن زيد بن سَدَد بن زُرعة ، وهم حمير الأصغر .

وأما هَمَيْسَع بن حمير فمن ولده : صَنْهَاجة : القبيلة المشهورة المعقبة بالمغرب وفى ذلك خلاف ، وهى من بنى زُهَير بن أَيْمن بن هَمَيْسَع بن حِمْير ، وصَنْهَاجة آسم الجدّ للقبيلة كلها : وهو صَنْهَاجة بن المثنّى بن المِسْور بن يَحْصب بن ذى يَزَن بن ذى أَصْبَح بن

زيد بن الغَوْث بن سعد بن عَوْف بن عَدِىّ بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة، وهم حِمْير الاصغر بن سَبَإ الأصغر بن كَعْب بن كَهْف الظلم، بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قُطْن بن عَرِيب بن زُهَير بن أَيْمن بن هَمَيْسَع المذكور .

قال: وإلى ذى أَصْبَح هذا يرجع الإمام مالك بن أنس الأَصْبَحىّ . وقيل: ذو يزن ٥
ابن أسلم بن زيد، وذو أصبح بن مالك بن زيد .

قال : ومن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس هذا الذى فى عمود النسب ثلاث بطون غير سهل بن عمرو : وهم شَعْبان بن عمرو وحَيْران بن عمرو وحضرموت بن عمرو ؛ وحضرموت هذا هى القبيلة التى يُنسَب إليها كلّ حضرمىّ
وقد تقدّم ذكره . ١٠

وأما سعد بن حمير، فمنه السَّلَف البطن المشهورة، وأَسْلم بطن : وهما ابنا ربيعة ابن سعد بن حمير .

وأما وائلة بن حمير، فمنهم السَّكاسِك : وهم بنو زيد بن وائلة بن حمير، وهى غير سكاسك كندة .

وأما مالك بن حِمْير فمن ولده قُضاعة : وهم قُضاعة بن مالك بن مُرَّة بن عمرو بن ١٥
زيد بن مالك بن حمير البطن المشهورة على ماذكره . وقيل: إنها من ولد مَعَدّ بن عَدْنان وفى ذلك يقول القائل :

أبوكم مَعَدّ كان يُكنَى ببكره * قُضاعةَ ما كنّى به من تمججا .

ومن قضاعة ثلاث بطون : وهم عِمران بن الحاف بن قضاعة وعمرو بن الحاف
وأَسلُمَ بن الحاف بن قضاعة . ٢٠

فأما البطن الأولى من قضاعة : وهم ولد عِمران ، فأعقب حُلْوان بن عِمران بن الحافِ بن قضاعة من خمس قبائل : وهم تَغْلِب الغَلْباء ، ويقال : تَغلَبىّ قُضَاعىّ أو يمنىّ ، يراد به هذا الأب ، وتَغلَبىّ مَعَدىّ أو نِزَارىّ ، فيراد به تَغلِب بن وَائل بن قاسط الذى فى أَسَد بن رَبيعة بن نِزار ؛ وعَثْم بن حلوان ، وزَبَّان بن حلوان ، وعمرو بن حلوان وهو سَليح وتَزِيد بن حُلوان (بالتاء باثنتين من فوق وفتحها) .

والعقب من تَغلِب بن حُلْوان بن عِمْران بن الحاف بن قُضاعة : وَبَرَة بن تَغلِب .

والعقب من وَبَرَة بن تَغلِب من خمس أفخاذ : كَلْب بن وَبَرَة ، وإليه يُنسب كلّ كَلْبىّ ، وفيهم عدة أفخاذ وعشائر : كبنى عَوف وبنى ضَمْضَم وبنى غُلَيم وبنى زهير وبنى كِنَانة ، والجميع عشائر يرجعون إلى عُذْرة بن زيد الله بن رُفَيدة بن ثور بن كلب ، وعُرَيْنة بن ثور بن كلب بن وبرة ، وإليه يرجع كل عُرَنىّ ، وأَسَد بن وَبَرة ، والبَرَك ابن وَبَرة ، والنَّمِر بن وَبَرة ، والتغلب بن وبرة ، وفهد ، وضبع ، ودبّ ، وسِيد ، وسرحان ، وذئب أولاد وَبَرة بن تَغلِب الغَلْباء .

فمن أسد بن وَبَرة : بنو القَيْن بن جَسْر بن شَيْع الله بن أسد ، وتَنُوخ : وهو مالك بن زهير بن عمرو بن فَهْم بن تَيْم الله بن أَسَد ؛ والى تَنُوخ هذا يُنسَب كلّ تَنُوخىّ ؛ واليه يرجع أبو العلاء المَعَرّى الشاعر .

وأعقب نَمِر بن وَبَرة بن تَغلِب فى ثلاث أفخاذ : خُشَيْن ، واليه يرجع كلّ خُشَنىّ وهو نُمَيْر ، منهم أبو ثَعْلَبة الخُشَنىّ الصحابىّ رضى الله عنه ؛ ومَشْجَعة بن تَيم بن النَّمِر بن وَبَرة ، واليه يرجع كلّ مَشْجَعىّ ، وغَاضِرة بن النَّمِر وعاتية بن النمر إلا أنهما دخيلان فى سُلَيم . قالوا : عاتية وغاضرة ابنا سليم بن منصور .

وأما زَبّان بن حُلْوان فأعقب من جَرْم بن زَبّان؛ وإليه يرجع كلّ جَرْمىّ . وفى جَرْم عدة بطون : منها مَلَكان بن جَرْم بفتح الميم واللام؛ بطن .

وأما عمرو بن الحاف بن قضاعة فأعقب من ثلاث أفخاذ : بَلِىّ بن عمرو، وبَهْرَاء ٱبن عمرو، وحَيْدان، وقيل : حُدّان بن عمرو؛ وإلى بَلِىّ هذا يُنسب كلّ بَلَوِىّ ككعب ٱبن عُجْرة البَلَوِىّ، وبنو العَجلان، وبنو أُنَيف، وبنو عصية(١) : وهم كلّهم حلفاء الأنصار: بنى عمرو بن عوف من الأوس وهى قبائل من بَلِىّ فى الأنصار، منهم: المُجَذَّر ٱبن ذِياد وطلحة بن البرّاق، وأبو بُرْدة بن نيار الصحابىّ بَلَوِىّ حليف الأنصار وٱسمه هانئ .

وأما بَهْرَاء بن عمرو بن الحاف بن قُضاعة، فإليه يُنسب كلّ بَهْرَانِىّ كالمِقْداد بن الأَسْوَد الكندىّ ولم يكن كنديّاً ولكن كان بَهْرَانيّاً قُضاعيّاً : لأنه المِقْداد بن عمرو بن ثَعلبة بن مالك بن رَبِيعة بن ثُمامة بن مطرود بن عمرو بن سعد بن لؤىّ بن ثعلبة ٱبن مالك بن الشَّرِيد بن أبى أهون بن قيس بن دُرَيم بن القين بن أَهْود بن بهراء . وإنما قيل المِقْداد بن الأَسْود لأن الأَسْود بن عبد يَغُوث بن وَهْب بن عَبْد مَنَاف ٱبن زهرة تبنّاه لحلف كان بينهم فنُسب إليه، وكان أبوه عمرو حليفا فى كندة . وفى بَهْراء بطون .

وأما حَيْدان، ويقال : حُدّان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، فمن بطونه خمس: عَرِيب بن حيدان، وعُرَيْد بن حيدان، وتزيد بن حيدان؛ وإليه تُنسب الثياب التَّزِيدِيةُ، ومَهْرة بن حَيْدان . وإلى مَهْرة هذا يُنسب كلّ مَهْرِىّ، وفى مَهْرة أفخاذ، وحَيَادَة بن حَيْدان .

---

(١) هكذا فى الأصل، وفى الجوّانى : " عُصَيْبَة " .

وأما أَسْلَم بن الحاف بن قضاعة ، فأعقب من فخذين : حَوْتَكة وسُود . فأما سُود ابن أسلم بن الحاف ، فأعقب من زيد وليث ابنى سود ، وأعقب زيد بن سود من أربع بطون : جُهَيْنة ، واليه يرجع كلّ جُهَنِيّ ، ونَهْد : رهط أبي عثمان النَّهدى ، واليه يرجع كلّ نَهْدِىّ ، وسَعْد هُذَيْم ، وعُذْرة ، واليه يرجع كلّ عُذْرِىّ أولاد زيد بن سود بن أَسْلَم بن الحاف بن قضاعة .

وقال ابن الكلبيّ : عُذْرة بن زيد اللات بن رُفَيْدة بن كلب بن وَبَرة .

فأما جُهَيْنة بن زيد ، فرهط عُقْبة بن عامر الجُهَنِيّ الصحابيّ . وفي جُهَيْنة الحُرْقَة وهم بنو أَحْمَس بن عامر بن مُودَعَة بن جُهَيْنة .

وفي نَهْد بن سُود المقدّم ذكره : بنو حُرْقَة بن خُزَيْمة بن نَهْد .

وفي عُذْرة بن زيد بن سُود بن أسلَم : بنو ضِنّة بالنون بن عَبْد بن كبير بن عُذْرَة بن زَيْد ابن سُود بن أَسْلَم بن الحَاف بن قُضَاعَة .

ومن ولد لَيْث بن سُود بن أَسْلم : بنو عِلّة بكسر العين مشدّدة اللام بن غَنْم بن سَعْد ابن زَيْد بن لَيْث بن سُود ، وفي سَعْد هُذَيْم بن زيد بن سُود : بنو عِلّة بن غَنْم ابن ضِنّة بن سَعْد هُذَيْم بن زَيْد بن سُود بن أَسْلَم .

قال : هذا نهاية الاختصار في نسب حِمْير . وهذا ولد كَهْلان أخيه .

قال : وولد كَهْلانُ بن سَبَإ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان بن عابَر عليه السلام : زيداً ، فولد زَيْد بن كَهْلان بن سَبَإ بن يَشْجُب بن قَحْطان : مالِكًا وعَرِيبًا وهما فخذان .

فالعقب من عَرِيب بن زَيْد بن كَهْلان من يَشْجُب .

والعقب من يَشْجُب بن عريب بن زيد بن كَهْلان من زيد بن يَشْجُب .
والعقب من زيد هذا : أُدَد بن زيد بن يَشْجب .

والعقب من أُدَد فى طَيِّئ بن أُدَد ، وآسمه جُلْهُمة ؛ وهو البطن العليا ، واليه ينسب كل طائىّ ، والأَشْعر بن أُدَد ، واليه يرجع كل أَشْعَرى ، وآسم الأَشْعَر نَبْت ، وإنما قيل له الأَشْعَر : لأنه وُلد أَشْعَر الجسد ، ومالك بن أُدَد وهو مَذْحِج ، واليه يرجع كلّ مَذْحِجىّ . وقيل : إن مَذْحِج أمّ مالك بن أُدد فنُسب اليها ولدها . وقيل : بل هى أكمة حمراء وُلد عليها مالك ، فعُرف بها ولدُه . وقيل : بل آجتمعوا على الأكمة باليمن ، والأكمة تسمى مَذْحِج ، فقالوا : تعالوا نجعل مذحِجا أمًّا .

وذكر آبن عبد البرّ فى روايته : أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أكثر القبائل فى الجنة مَذْحِج" : ومَذْحِج إحدى الجماجم التسع من جماجم العرب ، سُمّوا جماجم لأن ميلادها آستوى بميلاد قبائل بإزائها من أفناء العرب ، ثم تفرّعت منها قبائل آجتزأت بأسمائها والآنتساب إليها فبعدت عنها وآكتفت بانتسابها إليها . ومُرّة بن أُدَد : أربع أبطن لأدد .

والعقب من طيئ بن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عَرِيب بن زيد بن كَهْلان من فخذين : فُطْرَة والغَوْث آبنى طيئ .

والعقب من فُطْرة بن طَيِّئ بن أُدَد من سَعْد بن فُطْرة . ومنه فى خارِجَةَ بن سَعْد ومنه فى جُنْدَب ، ومنه فى رُومَان بن جُنْدَب .

والعقب من رُومَان بن جُنْدَب بن خَارِجَةَ بن سَعْد بن فُطْرَة من بطنين : ذُهْل وثَعْلَبة ، وهما الثَّعْلَبَتَان وجماعة صغار .

والعقب من الغَوْث بن طَيِّئ من عَمْرو بن الغَوْث .

والعقب من عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّئ من ثُعَل : بطن ، ونَبْهانَ : بطن ، وهِنَاء آبن عَمْرو : بطن ، وثَعْلَبَة بن عَمْرو : بطن ، ومَزْرُوعَة بن عَمْرو: بطن ، وحَسَّانَ بن عَمْرو : بطن ، وزَيْد بن عَمْرو : بطن ، وخُشَين بن عَمْرو : بطن ؛ و إلى نَبْهانَ هذا ينسَبُ كل نبهانىّ .

والعقب من نَبْهَانَ بن عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّئ من آبنيه : سَعْدٍ ونَائِلٍ ، ومن بنى سَعْد بن نبهان : بنو اليُسْر بن ثَعْلَبَة بن نَصْر بن سَعْد بن نَبْهان : نَخِذٌ ، و إلى هِنَاء آبن عمرو هذا يُنسب كلّ هنائىّ .

والعقب من ثُعَل بن عَمْرو بن الغَوْث . فأما سَلَامَانُ(1) فالعقب منه من عُنَيْز وثَعْلَبَة وسل أولاد سلامان لصلبه ؛ وعُنَيْز هذا جدّ القبيلة المشهورة ؛ وثَعْلَبَةُ هذا جدّ ثَعْلَبَة(2) طائفة من العربان المجاورين للدّارُوم من الشام [وهم] بطنان : دِرْما وزُرَيْق ، فالعقب من عُنَيْز بن سَلَامَانَ بن ثُعَل بن عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّئ من نخذين : فُرَيْر بن عُنَيْز ، له عدد ، وعُتُود بن عُنَيْز .

والعقب مِن عُتُود ، مِن مَعْن وبُحْتُر آبنيـه ، و إليهما يرجع كلّ مَعْنىّ وبُحْتُرىّ ، والشاعر البُحْتُرىّ منهم .

والعقب من مَعْن بن عُتُود من ثلاث : ثُوَب ، ووُدّ ، ومَالِك : بنى مَعْن بن عُتُود .

(1) أسقط الناسخ الخبر وهو " من سلامان وجرول فأما الخ " كما يؤخذ مما يأتى فى التفصيل فتنبه .

(2) كذا بالأصل . ولعلها محرفة عن "نابل" أنظر نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ؛ للقلقشندى فى الكلام على بنى نابل .

والعقب من ثُوَب بن مَعْن : غَنْم له عدد، وأبو حَارِثَة فأعقب من غَنْم بن ثُوَب بن مَعْن بن سِلْسِلَةَ الفخذَ التي يرجع إليها كلّ بني سِلْسِلَة المَعْنِيّون .

وأما بُحْتُر بن عُتُود بن عُنَيْز بن سَلَامَانَ فالعقب منه في تَدُول بن بُحْتُر .

والعقب من تَدُول من ستة أفخاذ : وهم جُدَيّ، وسَنَام، وأَيْمَن، وخَيْثَم، وأَعْور، وسَالِم أولاد تدول . ٥

وأما ثَعْلَبَةُ بن سَلَامَانَ بن ثُعَل بن عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّئ فأعقب من عوْف ابن ثَعْلَبة ، وأعقب عَوْفٌ من فخذين : دِرْمَا وزُرَيْق ، ودِرْما هو عَمْرو بن عَوْف ودِرْما أمّه . فأعقب دِرْما بن عَوْف بن ثَعْلَبة بن سَلَامَانَ من خمس أفخاذ : سَلَامَة والأحمر وعَمْرو وقَصير والأَوْس : أولاد دِرْما . وأعقب زُرَيْق بن عَوْف بن ثَعْلَبة من فخذين : لُبْنَى والأشعث ولدى زُرَيْق . ١٠

وأما جَرْوَلُ بن ثُعَل بن عَمْرو بن الغَوْث بن طَيِّئ ، فأعقب من ابنيه : مُعَاوِيَة ورَبيعَة ؛ فأعقب مُعَاوِيَةُ بن جَرْوَل من سِنْبِس(١) : القبيلة المشهورة، وعَدِيّ ولَوْذَان : أولاد مُعَاوِيَة .

والعقب من سِنْبِس بن مُعَاويه بن جرول من ثلاث أفخاذ : عَمْرو ، ولَبِيد ، وعَدِيّ ؛ فأما لَبِيد بن سِنْبِس ، فأعقب من حِرْمِز ، فأعقب حِرْمِز من يَحْصب وجَرْم ؛ ١٥ وعُقْدَةُ أولاد لَبِيد أفخاذ . وإلى لبيد هذا تُنسب العرب السَّنَابِسَةُ الذين بالبحيرة من أعمال مصر ؛ وهم من فخذ يقال لها : قُنَّةُ بن خَلَّاد .

وأما عَدِيّ بن سِنْبِس بن مُعَاوِيَة ، فأعقب من أَبَان بن عدِيّ ، وهو فخذ .

(١) ضبط في الأصل بضم السين والباء وكذا في صبح الأعشى : وضبطه السويديّ في سبائك الذهب بفتح السين . وذكر في القاموس أنه بالكسر وكذا هو في الصحاح واللسان وكتاب المعارف لابن قتيبة . ٢٠

والعقب من رَبيعة بن جَرْوَل بن أبي أَحْزم : هَزومة ، وأعقب هَزومة من أَحْزَم ، وأعقب أَحْزَم من عَبشَمْس مكسور الباء متصلا .

وأما مَذْحِج : وهو مالك بن أُدَدَ بن زَيْد فأعقب من أنخاذ أربعة : سَعْد العَشيرة ، ومُرَاد : هو يُحَابِر ، وعَنْس ، ولُمَيس ، وجَلْد أولاد مالك وهو مَذْحِج . وإلى مُرَاد هذا يُنسب كلّ مُرَادىّ ، وسُمّى مُرَادا لتمرّده ، وإلى عَنْس يُنْسب كلّ عنسىّ ، منهم عَمّار بن يَاسر الصحابىّ والأسود العنسىّ الكذّاب .

والعقب من سَعْد العشيرة بن مالك من ثلاث عشرة نخذا : وهم زَيْد اللات ، وعَابِد اللات ، وعَبْد اللات ، وجا(١) ، وجُعْفِىّ ، وجَرْد ، وحَكَم ، وأَوْس اللات ، ونَمِرة ، وأَنَس اللات ، وسَعْد اللات ، وعَمْرو ، وصَعْب : أولاد سعد العشيرة لصلبه ، فإلى جعفىّ هذا يُنسب الجعفيّون ، وإلى نمرة يُنسب النمريّون ، وفى نمرة نخذان : جَدَا ، على وزن ندا ، وسِلْهِم آبنا نمرة .

وأما جُعْفِىّ فالعقب منه فى نخذين : مَرّان ، وحَرِيم آبنى جعفىّ بن سعد العشيرة ، يرجع بنو سِلْهِم بن حكم نخذ بكسر السين والهاء(٢) .

وأما صَعْب بن سعد العشيرة ، فالعقب منه فى زُبَيد ، وآسمه مُنَبّه ، وإليه يرجع كل زبيدىّ ، وفيهم عدّة أنخاذ منهم بنو حرب وغيرهم . وقيل للفخذ زُبَيْد وهم بنو منبّه الأكبر لأن مُنَبّها الأصغر بن صَعْب بن سعد العشيرة بن مالك بن أُدَد قال : من يَزْبُدنى رِفْدَه؟ فأجابه إلى ذلك أعمامه كلّهم بنو مُنَبّه الأكبر ، فقيل لهم جميعا زُبَيْد . ومن بنى زُبَيد مَازِن بن منبّه .

(١) كذا بالأصل وصوابه "خارجة" .

(٢) كذا بالأصل والكلام مبتور .

والعقب من مُرَاد بن مَذْحِج من فخذين : نَاجِيَة وزاهر ابنى مُرَاد بن مَذْحِج .

والعقب من ناجية : جَمَل بن كِنَانَة بن نَاجِية بن مُراد : رهط هند بن عمرو الجَمَلىّ الذى قتله ابن يَثْرِبى فى يوم الجمل ؛ وجمل هـذه رهط سِيفَوَيْه القاص . قال : وينزلون بنهر الملك ؛ وعُطَيف بن ناجية بن مراد رهط فَرْوَة بن مُسَيْك العطيفىّ الصحابىّ ، وسَلْمَان بن يشكُر بن ناجية بن مراد رهط عُبَيْدة السَّلْمانىّ ؛ وهو جاهلى إسلامىّ من كبار التابعين .

ومن نَاجِية : قَرَنُ بن رَدْمانَ بن نَاجِية بن مُرَاد : رهط أُوَيْس القَرَنىّ نفعنا الله والمسلمين ببركته .

وفى مراد ، تَجُوب : وهو رجل من حِمْيَر، كان أصاب دَمًا فى قومه فلجأ إلى مُراد فقال : جئت اليكم أجوبُ البلاد لأحالفكم ؛ فقيل له : أنت تَجُوب ، فسُمِّىَ به ؛ وهو فى مُرَاد رهط عَبد الرحمن بن مُلجَم المُرادىّ التُّجُوبىّ لعنه الله ، قاتل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

وأمّا جَلْد بن مَذْحِج ، فأعقب منه عِلَّة بن جَلْد ؛ والعقب من علة من ثلاث أفخاذ : عَمْرو وعَامِر وحَرْب . فمن بنى حرب بن علة : رَهَاء : وهو رهاء بن منبّه بن حرب ابن علة : منهـم مالك بن مُرَارة الرَّهاوىّ الصحابىّ ، ويَزِيد بن شَجَرة الرَّهاوىّ ، وصُدَاء : وهو يزيد بن حرب بن علة ؛ منهم زِيَاد بن الحارث الصُّدَائىّ الصحابىّ .

وأمّا عَمْرو بن علة بن جَلْد بن مَذْحِج ، فالعقب منه ثلاث أفخاذ : النَّخَع القبيلة المشهورة ، وكَعْب ، وعَامِر .

فأمّا النَّخَع بن عَمْرو ، فأعقب منه فخذان : مَالِك وعَوْف ابنا النَّخَع .

وأما كَعْب بن عَمْرو، فأعقب منه فخذان : الحَارث ، وهم بَلْحَارث بن كَعْب ورُعَيل بن كَعْب .

وأما عَامِر بن عَمْرو بن علة، فالعقب منه فى فخذ واحدة : وهى مُسْلِيَة بن عَامِر.

وأما مرّة بن أُدَد بن زَيْد بن يَشْجُب بن عَرِيب بن زَيْد بن كَهْلَان بن سَبَإ ، ٥ فأعقب من فخذين : مرهم والحارث ٱبنى مرّة بن أدد؛ فالعقب من الحارث من فخذين : عَدِىّ ومَالك ولديه . فالعقب من مَالك بن الحَارث بن مُرّة خَوْلَان بن عمرو بن مالك وإليه يُنسب كلّ خَوْلَانىّ ، ومَعَافِر بن يَعْفُر بن مالك بن الحارث ٱبن مُرَّة بن أدد بن زيد بن يَشْجُب ؛ وإليه ترجع المعافر فى أنسابها ، ولهم خطة بمصر، ومنهم فخذ بنى قَرَافَة وهى أمّهم : وهم الذين عُرفتْ بهم القَرافةُ بمصر ، ١٠ ومسجدهم المسجد المعروف بمسجد الرحمة بالقَرافة ؛ وهم بنو عِضّ بن سيف بن وائل بن الحرىّ بن المَعافر بن يعفر .

وأما عَدِىّ بن الحارث بن مُرَّة فأعقب من أربع أبطن لصلبه : وهم عُفَيْر ولَخْم : قبيلة ؛ وٱسمه مالك بن عدىّ ، وجُذَام بن عدىّ : قبيلة ؛ وٱسمه عامر ، والحارث بن عدىّ وهو عَاملة : قبيلة ، وإنما سُمّيا لخما وجُذاما : لأنّ أحدَهما لَخَم وجهَ أخيه فَسُمّى ١٥ لخما ، واللخمة : اللطمة ، وجَذَم الآخرُ إصبعَ أخيه فقطعها فَسُمّى جُذاما : وهما القبيلتان المشهورتان ؛ والحارث بن عدىّ وهو عاملة وإليه يرجع كلّ عاملىّ ، وعاملة وهى بنت مالك بن وَدِيعَة بن قُضَاعة ؛ وهى أمّ ولد الحارث المذكور .

فأما عُفَيْر بن عدىّ بن الحارث فأعقب من ثَوْر بن عُفَير ، وثَوْر هو كِنْدة الملوك فأعقب كِنْدة من فخذين : مُعَاوِيَة وأَشْرَس ٱبنى ثور . والعقب من معاوية هذا من ٢٠ ٱبنيه مُرَتِّع وزيد ؛ فمن ولد مُرَتِّع : بنو ٱمرئ القيس وبنو الرائش وبنو معاوية

الأكرمين وبنو وهب . وبنو بدًّا منده، خمسة : بنو الحارث بن مُعاوية بن ثَوْر بن مُرَتِّع . وإلى مُعَاوية بن الحارث يرجع آمرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عَمْرو آبن حجر آكل المُرَار بن معاوية المذكور الكندىّ الشاعر . والنسب إلى آمرئ القيس بن الحارث بن معاوية المقدّم ذكره : مَرقسىّ، مسموع عن العرب، وكلّ آمرئ القيس غيره فى العرب فالنسب مَرْئِىّ بوزن مَرعىّ . ٥

والعقب من أَشْرس بن ثَوْر وهو: كِندة بن عُفَير بن عدىّ : السَّكُون بن أشرس، والسَّكاسك : وهو حُمَيس السَّكْسَك بن أشرس ، وإليهما يُنسب السَّكُونيون والسَّكْسَكِيّون؛ ومن السكونيّين معاوية بن حُدَيج السكونىّ الصحابىّ، وحاشد بن أشرس، ومالك بن أشرس .

والعقب من السكون بن أشرس من فخذين : شَبِيب وعُقْبة آبنى السَّكون . ١٠ أعقب شبيب بن السكون من أشرس وشُكَامة ، فأعقب أشرس بن شبيب بن السَّكون آبن أشرس من عدىّ وسعد : وهم تُجِيبُ البطن المشهورة ؛ ولهم خطة بمصر ، وعرفوا بتُجيب : وهى أمّهم بنت ثَوْبان بن سُلَيم بن رَهاء بن منبّه بن حرب بن علة آبن جَلْد بن مَذحِج .

والعقب من مالك بن أشرس بن شبيب المذكور: الصَّدِف، وآسمه عمرو بن مالك، ١٥ وإليه يُنسب كلّ صدَفىّ بالفتح كما قالوا: شقَرىّ ونمَرىّ وسلَمىّ : فى شقرة تميم ونمر آبن قاسط وسَلَمة من الأنصار . ومن النسّابين من قال: الصدف هو سماك بن عمرو آبن دُعْمِىّ بن حضرموت .

وأما لخم بن عدى، فأعقب من فخذين وهما لصلبه : نُمارة وجَديلة، ويقال: جُديلة؛ وذكر الوزير أبو القاسم بن المغربىّ أنه قيل فيها : جُدَبْلة بالباء بواحدة . ٢٠

والعقب من نُمارة بن لخم بن عدىّ بن الحارث بن مُرّة بن أُدَد بن مالك بن نُمـارة
لخذ، وحبيب بن نمـارة، وهو عَمَمٌ [وعدىّ بن نُمـارة] (١) سُمّى بذلك لأنه أوّل من
اعتمّ، وهو الذى عمّم ملوك العراق؛ ولهم إخوة صغار: كالوجفا بن نُمـارة وقَبيصة
وعمـرو وعوف ومجن أولاد نُمـارة أعقبوا؛ ومن يُنسب اليهـم يُعزَى لجـدّهم لخم
٥ وأمّهم نُمـارة .

ومن بنى مالك بن نمارة الفخذ الأولى: بنو راشدة بن مالك بطن مشهورة .

ومن بنى عدىّ بن نُمارة، وهم عَمَم بن لخم: بنو نَصْر بن ربيعة من ربيعة بن نصر .

ومن ولد نصر بن ربيعة: النعمان بن المنذر بن ماء السماء: وهى أمّه، بضدّ ما فى غسّان، (٢٠٩)
لأن غسّانَ عامرا ماءَ السماء أبٌ فهو ثَمّ "أبٌ" وهاهنا "أمٌّ"، وماء السماء هاهنا هو
١٠ آمرؤ القيس بن النعمان بن آمرئ القيس بن عمرو بن عدىّ بن نصر بن ربيعـة .
قال: وفى ذلك خلاف .

ومن بنى حبيب بن نُمـارة: بنو الدار بن هانئ بن حبيب بن نُمارة، ينتسبُ كلُّ
دارىّ إلى هـذه البطن، وهم رهط تميم الدارىّ الصحابىّ المعروف بالمختطِف، وقد
آنقرض تميم الدارىّ ولا عقبَ له .

١٥ وأما جَرِيلة (٢) بن لَخْم ويقال: جُزَيلة، فأعقب من أَرَاش وحجر وخُلَيل ويشكُر وعمرو،
أولاد جزيلة بن لخم . فمن بنى أراش بن جزيلة أَرْش بن أراش لا غير؛ ويقال:
أُرَيْش مصغّرا .

(١) الزيادة عن "السبائك" وتؤخذ أيضا من كلامه الآتى قريبا .
(٢) كذا فى الأصل وفى السبائك أيضا بالزاى وأوردها القاموس فى مادة (ح ز ل) وهو مخالف لما
٢٠ سلف له قريبا من قوله (جديلة) فتنبّه .

والعقب من أَرْش بن أَراش من نخذين : غَنْم وحَدَس — بالحاء المهملة والدال المهملة المحرّكتين — والحمراء القبيلة؛ لها خطة بمصر، والأشعث نخذ، وهذه الحمراء فى غيرها من الحمراء من قُضاعة ، وفَهْم ، وعَدوان ، والأَزْد ، وهُذَيل بن مدركة وبنى الأزرق وهم من الروم؛ ومنهم سُمِّيت الحمراوات .

٥ فأعقب غَنْم بن أُرَيش بن أَرَاش بن جَزِيلة بن لخم من صعب وفَهْم وزِرّ وعمرو: أولاد غنم .

ومن شيوخ النسب من قال : إن النعمان بن المنذر بن ماء السماء بن آمرئ القيس آبن المنـذر بن النعمان بن آمرئ القيس بن عُيَيْنة بن أبى الحرام بن العَمَرَّط بن غَنْم آبن عَوْدة بن عُبيد بن زِرّ المذكور .

١٠ والعقب من حَدَس بن أُرَيش بن أراش بن جَزِيلة بن لخم من ربيعة ورَمِية .

والعقب من ربيعة بن حَدَس أربع عشائر : مَنارة، وسعد، وكعب، والهُذَيم : بنو ربيعة .

والعقب من هُذَيم هذا من حُدَاد وعامر والحارث : بنى الهُذيم .

والعقب من رمِية بن حَدَس بن أُريش بن أراش بن جَزِيلة من عمرو وجدّه .

١٥ والعقب من عمرو بن رمِية هـذا : الحارث وصعب وعَلَامة وعدىّ والمنـذر وثعلبة .

فأما الحارث بن عمرو فأعقب من أُبَىّ بن الحارث، فأعقب أُبَىّ من كليب وعدىّ .

والعقب من كُلَيب بن أُبَىّ [بن] الحارث من أربع أنخاذ : فيض وحـارث وغَنْم وغَنِيت : أولاد كليب .

والعقب من فيض بن كليب من أربع أنخاذ : أبى الشتاء، ورَقَّاش، وحَران، وصابى : أولاد فيض بن كُلَيب .

والعقب من الحارث بن كليب بن أبىّ من سعد وجدّه . وولد كعب بن غَنْم ثلاث أنخاذ : بنى قرقر بن كعب وبنى بَرّ بن كعب وبنى مُرقِّش بن كعب . ومن بنى برّ بن كعب : بنو واسع بن كعب : وهم بنو رومى وزُهَير وزير وحسان وبرّ : أولاد واسع، كلٌّ منهم نخذ .

والعقب من عُمَيت بن كليب بن أبىّ من دَعْجان وجدّه، ومن أنخاذه : مُغالة بن دعجان : الفخذ المعروفة فى آخرين .

وأما حجر بن جزيلة بن لخم، فأعقب من ثلاث أنخاذ : أَزْدة وزُغَر وأَذَبّ . فأعقب أزدة من نخذين : منيع وعوف آبنى أزدة بن حجر . وأعقب زغر بن حجر من مالك بن دَعِن، وهو الذى آستخرج يوسف الصدّيق عليه السلام من الجبّ، وله عقب . فهذا مختصر فى نسب لخم .

وأما جذام وآسمه عامر، فالعقب منه فى بطنين : حَرام وحِشْم آبنى جُذام .

والعقب من حَرام بن جذام من نخذين : إياس ومالك آبنى حرام بن جذام .

والعقب من إياس بن حرام من رَبيل بن إياس ، ومن سعد بن إياس، فأعقب سعد هذا من أَفْصَى، فأعقب أفصى بن سعد بن إياس من نخذين : زيد ومالك آبنى أفصى، وأعقب مالك هذا من سعد بطن المنسوب اليها بنو سعد جذام، وإن كان فى جذام عدّة سعود، لكن هذه ذات القُعدُد والبيت والصيت .

ومن ولد زيد بن أفصى بن سعد بن إياس بن حرام بن جذام: سعد بن مالك بن زيد المذكور: بطن؛ ووائل بن مالك ولَهَبَة[1]؛ وإلى وائل بن مالك بن زيد: يرجع زيد بن زنباع فى نسبه .

والعقب من مالك بن حرام بن جذام، من وائل وسعد. أعقب وائل بن مالك من حُبَيش وجمع ومازن . من ولد حبيش : شُعيب النبيّ عليه السلام : وهو شُعيب بن ثُوَيْب بن حُبَيش المذكور آبن وائل بن مالك بن حَرَام بن جذام. وأعقب سعد آبن مالك بن حرام بن جذام من غَطَفان : البطن الأكبر فى جذام. وأعقب غطفان آبن سعد من يامة بن عَنْبَس بن غطفان وغنم بن غطفان . وأعقب يامة بن عنبس آبن غطفان مَن علىّ بن يامة . وأعقب علىّ من كعب بن علىّ . وأعقب كعب بن علىّ من ثلاثة أفخاذ لصلبه : عُبَيد ومطرود وعوف؛ من ولد عبيد بن كعب هذا : الضُّبَيب بن قُرط بن حفيد بن سبع[2] بن عبيد: فخذ . وأعقب مطرود الضبيب هذا من ثعلبة بن أميّة بن الضبيب: فخذ، وعمرو بن مالك بن الضبيب: فخذ. وأعقب مطرود بن كعب بن علىّ من خالد وعمرو ومبذول ونُفَاثة .

فأعقب غنم بن غطفان بن سعد، من نَضْرة بن غنم فى آخرين، فأعقب نضرة آبن غنم بن صَبِرَة الفخذ المشهورة آبن نصر .

والعقب من حِشْم بن جذام من بُدَيل بن حِشم . فالعقب من بديل : بكر وشَنُوءَة آبنى بُدَيل. والعقب من بكر هذا من سود بن بكر. والعقب من سعد: أسود وعمرو

(١) لعل الصواب "روح" .

(٢) كذا بالأصل ولم نعثر على صحتها فى كتب الأنساب .

آبنا سود . والعقب من أسعد بن سود بن بكر بن بديل بن حشم بن جذام من
نخذين : السَّلْم والهُون آبني أسعد. وفي سود أيضا : السَّلْم بن مالك بن سود بإسكان
اللام نخذ .

والعقب من عمرو بن سود من لَهَبَة وحُبَيش وعِدًا : أولاد عمرو .

٥ فهذا مختصر من نسب جذام .

وأما عائذة : وهم ولد الحارث بن عدىّ بن الحارث بن مرة بن أدد بن يشجب
وهو أخو جذام ولخم . فالعقب من الحارث بن عدىّ المذكور من نخذين : الزهد ومعاوية
آبني الحارث : وهما آبنا عاملة كما تقدّم ؛ وزهد : فعل ، من قولهم : شيء زهيد أى قليل .

والعقب من الزهد بن الحارث بن عدىّ من ثلاث أنخاذ : عَوْكَلان وزَحْفان
١٠ وسَلْمان : بنى الزهد . ومن بنى عَوْكَلان المذكور السّلم بن ظِبْيان بن أبى عزم بن
عوكلان المذكور .

والعقب من معاوية بن الحارث بن عدىّ أخو الزهد خمس أنخاذ لصلبه : ثعل ،
وعِجْل ، وسلمة ، وقُرَّة ، وثعلبة . قال : وهذا النهاية فى آختصار نسب مرّة بن أدد .

وأما الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ، فأعقب
١٥ من جُماهير بن الأشعر وله عدد ، وعبد الثريّا بن الأشعر وعبد شمس والأدغم
ونُعَيْم : أولاد الأشعر . وأعقب جُماهير وهو جُماهِر بن الأشعر من ناجية بن جماهير
له عدد . وأعقب ناجية من وائل بن ناجية وهو البيت .

وهذا مختصر نسب الأشعريّين . ومنهم من الصحابة : أبو موسى وأبو عامر
وأبو بُرْزة ؛ وهم نخذ متسع وفيه عدّة أنخاذ وعشائر يطول الكتاب بشرحها .

قال : وهـذا نسب بنى مالك بن زيد بن كهلان بن سبإ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان .

فالعقب من مالك بن زيد من بطنين : وهـ نبت والخيار ابنا مالك . والعقب من نبت من الغوث ابنه . والعقب من الغوث بن نبت من عمرو والأزد؛ و إلى هذا الأزد يُنسب كلّ أزدىّ .

فمن ولد عمرو بن الغوث : بَجِيلة : وهم ولد أنمـار بن أراش بن عمرو بن لَحيان ابن عمرو وأم الغوث و بجيلة بن أنمـار : وهى بنت صعب بن سعد العشيرة بن مذحج ، وقد قيل : بل هى أم ولد أنمـار .

والعقب من أنْمار بن أراش بن عمرو بن لِحيان بن عمرو بن مالك بن زيد : خمس قبائل : الغوث وعَبْقر وصُهَيْبة ووَدَاعَة وأَفْتَل : وهو خَثْعَم : بنو أنمار بن أراش . قال : وذكر علماؤنا فى النسب أن بَجِيلَة هو عَبْقر والغوث وصُهَيبه ، وسُمُّوا بذلك لأجل أمهم بَجِيلة ، وأن خَثْعم هو أفتلُ وأمّه هند بنت الغافِق الأزدىّ ، وسُمِّىَ خثعم بآسم جملٍ كان لآل أنمـار أو لآل أفتل بن أنمار ، وكانوا يسمّونه خثعم . و يقال : بل قيل خثعم لأنهم تَخَثْعموا بالدم ؛ والأوّل أقرب إلى الصحيح .

والعقب من الغوث بن أنمار من ثلاث أفخاذ : وهم زيد وأَحْمَس وقيس كندة : بنو الغوث . وفى أحمس هذا : أسلم بن أحمس : فخذ ؛ وفى أسلم بن أحمس بن الغوث : دُهْن . معاوية بن أسلم بن أحمس ؛ فخذ : رهط عمّار بن أبى معاوية الدُّهنىّ الصحابىّ .

والعقب من عبقر : بجيلة بن أنمـار بن أراش بن عمرو من ثلاث أفخاذ : قَسْر وعَلَقَة وقَطَن : أولاد عبقر . وفى قسر : عُرَيْنة بن زيد بن قسر ، يقال له : قَسْرىٌّ فى النسب ، و يقال : عُرَنىّ . وإلى عَلَقَة يرجع كلّ عَلَقِىّ .

والعقب من صهيبة بجيلة بن أنمار بن أراش بن عمرو: أُتَيْد بن خطام بن صهيبة ابن أنمـار : فخذ .

والعقب من زُرعة بن أنمـار بن أراش بن عمرو بن لحيان بن عمـرو من ثلاث أفخاذ : حُزْرُق وسِمْط وحبيب : أولاد زرعة .

٥ والعقب من خثعم وهو أفتل بن أنمـار بن أراش بن عمرو بن لحيان من ثلاث أفخاذ : شَهْران وربيعـة وناهِش: أولاد عَفْرَس بن خَلَف بن أفتل وهو خثعم . وفي ربيعة بن أفرس : بنو أكلُب بن ربيعة .

فهذا مختصر كافٍ في بجيلة وخثعم .

وأما الأزد بن الغوث (واسمه دِراء : مثل رِداء وقيل : دِرء مثل درع ،) فالعقب ١٠ من ولده أربع أبطن : وهم مازن وغَسّان ، وغسّان ماء بسدّ مَأرِب باليمن وقيل : بالمُشَلَّل نزلوا به فنُسبوا اليه . والى غسّان هـذا يُنسب كلّ غسّانيّ ، ونصر وعبـد الله والهِنوُ بنو الأزد بن الغوث . والى غسّان هذا يرجع الأنصار ، وقد يكون مِن غسّان من ليس أنصاريّا كثيرا ، ويكون من مازن من ليس غسّانيـا .

والذى نزل على غسان من الأزد بعضُ بنى آمرئ القيس البِطريق بن ثعلبة البُهْلول ١٥ ابن مازن ومازن ومأويّة وربيعة وآمرؤ القيس: بنو عمرو بن الأزد، وكُرْز وعامر ابنا ثعلبة البهلول بن مازن بن الأزد .

والعقب من عبد الله بن الأزد بن الغوث من ثلاث أفخاذ : الحارث وقرن وعُدْثان : أولاد عبد الله بن الأزد

والعقب من عدثان[1] هذا من عَكّ وسود ومالك وغالب وكعب . ومن بنى سود ابن عدثان : طاحِيةُ بن سود : فخذ .

والعقب من عك بن عدثان فخذان : الشاهد وصُحارٌ ابنا عَكّ .

(١١١) والعقب من الشاهد بن علّ : غافق ، و إليه يُنسب كلّ غافقىّ ، قال : ولهم خطّة بمصر ، وساعدة ابنا الشاهد . وقيل : بل هو غافق بن الحارث بن عك بن الحارث ابن عدثان .

والعقب من صُحار بن عك بن عدثان : بَولان وعَبْس وغسّان : أولاد صُحار هذا .

وأما نضر بن الأزد ، فأعقب من مالك بن نصر من أربع قبائل : عبد الله وراسب ومَيْدَعان وأكفر من حِمارٍ : أولاد مالك بن نصر بن الأزد . والى راسب ينسب كلّ راسبىّ . وفى بنى مالك راسبيّون أُخَر يأتى ذكرهم إن شاء الله تعالى .

والعقب من عبد الله بن مالك فى كعب بن عبد الله . ومنه فى الحارث بن كعب .

والعقب من الحـارث بن كعب بن عبدالله بن مالك من ثلاث أفخاذ : كعب ومالك ونُبَيْشة وهو فاسخة . فمن ولد فاسخة بن الحارث بن كعب : بنو غراء بن شُرَيْق ابن فاسخة ، ومن ولد مالك بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر : بنو مَجَاعَة وبنو الأرنب : ابنى مالك .

والعقب من كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر : زَهْران وأَجْمنُ وعبـد الله : أولاد كعب بن الحارث . والى زهران ينسب كلّ زَهرانىّ .

---

(١) ورد فى كل كتب النسب التى تحت أيدينا باسم (عدنان) بالنون وقال عنها صاحب القاموس ما يأتى : « وعك بن عدثان بالثاء المثلثة ابن عبد الله بن الأزد ، وليس ابن عدنان أخا معدّ » .

ومن أفخاذه: دَهْمان بن نصر بن زهران، وغاضرة بن زهران، ودَوْس بن عدثان من زهران، منهم: أبوهريرة الدوسيّ الصحابيّ، وآسمه عمرو بن عامر، وفي آسمه خلاف.

والعقب من أحجن بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نصر من ثلاث: أسلم ولِهْب وقرن، أولاد أحجن فمن أفخاذ أسلم هذا: بنو ثُمالة وهو عوف بن أسلم بن أحجن: رهط محمد بن يزيد المبرّد النحويّ؛ وفيه يقول عبد الصمد آبن المعذّل.

سألنا عن ثُمالة كلَّ حيٍّ * فقال القائلون: ومن ثُمالَهْ؟

فقلت: محمد بن يزيد منهم * فقالوا: زدتنا بهم جهالَهْ.

وأما مَيْدَعان بن مالك بن نصر فمنه أربع أفخاذ: راسب واليه يُنسب الراسبيّون أيضا، ومُنْهِب وحبيب ومعاوية: بنو مالك بن ميدعان.

فهذا مختصر نسب بني نصر الأزديّين.

وأما الهِنو بن الأزد، فأعقب من سبع أفخاذ: الهُون وبُدَيد ودَهْنة وبَرْقًا وعَوْجا وأَفْكه وحُجْر: أولاد الهنو. فأعقب الهُونُ من فخذين: النَّدَب ونَكل.

وأما مازن بن غسّان بن الأزد فأعقب من فخذين لصلبه: وهما عمرو وثعلبة العنقاء، سُمّي بالعنقاء: لطول عنقه.

فالعقب من عمرو بن مازن بن الأزد في عدّة أولاد، كلّهم في الأزد، من جماجمهم: عَديّ والعاص. فأما العاص فمن ولده: بنو بُقَيلة بن سُنَين بن زيد بن سعد بن عديّ آبن نمير بن صوفة بن العاص بن عمرو بن مازن، وسُمّي بُقَيلة: لأنه لبس ثوبين أخضرين.

وأما عدىّ بن عمرو بن مازن بن الأزد، فأعقب من عدّة أولاد، من جماجمهم: هنـد بن هند بن عمـرو بن عدىّ وصَـبِرَة بن عمرو بن صبرة بن حارثة بن عدىّ ومسعود بن مازن بن ذئب بن عدىّ؛ اليه يرجع سَطِيح الكاهن وكلّ مسـعودىّ فى الأزد، وجميع بنى عدىّ بن عمرو يعزون الى الأزد .

٥ وأعقب ثعلبـةُ العنقاء بن مازن بن غسّان من آمرئ القيس البطريق بن ثعلبة؛ فأعقب آمرؤ القيس البطريق : حارثة الغِطْريف؛ فأعقب الغطريف من عامر ماء السماء؛ فأعقب عامر ماء السماء من عمران وعمرو وهو مُزَيْقِياء سُمّى بذلك: لأنه كان يمزّق فى كلّ يوم [حلّتين] لئلا يلبسهما غيره .

والعقب من عمرو مُزَيْقِياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن آمرئ القيس ١٠ البطريق بن ثعلبة العنقاء بن مازن بن غسّان وهو السَّرّاج بن الأزد بن الغوث فى ست أنخاذ : ثعلبة : بطن الأنصار، وحارثة : بطن خزاعة، وجَفْنَة : بطن، وعمران من أزد عُمَان، ومحرِّق : بطن، سُمّى بذلك لأنه أول من حَرَّق بالنار، وكعب : أولاد عمرو مزيقياء واليهما يرجع نسبُ الأنصـار . فأما الأوس بن ثعلبة بن عمرو فأعقب من مالك بن الأوس ، وأعقب مالك من خمس قبائل : النَّبِيت ، وعوف ، وجشم ، ١٥ وآمرئ القيس، ومرّة : أولاد مالك بن الأوس .

قال : وسُمّى النَّبِيت نَبِيتًا لكثرة ولده، فأعقب النبيت من فخذين : الحارث وكعب وهو ظَفَر بن الخزرج بن النبيت الأوسىّ . فأعقب الحارث بن الخزرج بن النبيت من آبنيه : جشم وحابية . فأعقب جشم من رَعْوان وآنقرض، ومن عبدالأشهل : آبنى جشم . وأعقب حابية بن الحارث من مجدَعَة وجويرَة وجشم بنى حارثة . ومن بنى ٢٠ جشم بن حارثة : بنو خَدِيج بن رافع بن عدىّ بن جشم، وظُهْر بن رافع بن عدى .

وأما ظَفَر وهو كعب بن الخزرج بن النبيت بن مالك بن الأوس — وبنو ظفر البطن المشهورة فى الأوس — فأعقب من أربع أفخاذ : وهم بنو مُرة وهَيْثم وعبد رَدَاح وسواد : بنى ظفر بن الخزرج . ومن بنى سواد : بنو الحَطِيم بن عدى بن عمرو آبن سواد : فخذ؛ فهؤلاء بنو النبيت .

٥ (١١٢) أما عوف بن مالك بن الأوس، فأعقب من عمرو، وأعقب عمرو من لَوْذان، فخذهم بنو السَّمِيعة وثعلبة وحبيب وعوف : أولاد عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس .

والعقب من عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس من بنيه : مالك وجِلْس وكُلْفَة . فأعقب مالك بن عوف من بنيه : عُزَير ومعاوية وزيد . وأعقب زيد بن مالك هذا من ضُبَيْعة : الفخذ المشهورة، وأميَّة الفخذ المشهورة فى الإسلام، ١٠ وعُبَيد أولاد زيد . وبنو ضُبَيعة بن زيد بن مالك، يقال لولده : بنو كَسْر الذهب، منهم : بنو حارثة بن عامر بن مُجَمِّع بن عِطاف بن ضبيعة بن زيد : بطن معروفة . ومن أفخاذ كلفة بن عمرو بن عوف : جُلَاح بن حَرِيش بن جَحْجَبَى من كُلفة : بطن .

وأما جشم بن مالك بن الأوس بن حارثة ، فأعقب من خَطْمَةَ : بطن؛ وآسم خطمة عبدالله، وإنما سُمِّى خطمة : لأنه خَطَم رجلا بسيفه على خَطْمه فسُمِّى به، وأعقب ١٥ خطمة بن جشم من ثلاث أفخاذ : الحارث وعامر ولوذان : بنى خطمة .

وأما آمرؤ القيس بن مالك بن الأوس، فأعقب من فخذين : بنى السَّلْم وبنى واقف، وإليه يرجع كلّ واقفىّ فى الأوس .

وأما مرّة بن مالك بن الأوس بن حارثة، فأعقب من ثلاث أفخاذ : عامر وسعيد ومازن .

٢٠ وهذا نهاية الآختصار فى ولد الأوس .

وأما الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مُزيقياء، فأعقب من خمس أفخاذ : الحارث وعمرو وعوف وجشم وكعب : بنى الخزرج .

والعقب من الحارث هذا من سبع أفخاذ : عوف وحُرَديش وجشم وصخر وجديم والخزرج وزيد : أولاد الحارث، ومن عوف بن الحارث بن الخزرج : خُدْرَة وخُدَار ابنا عوف؛ والخدرة يرجع أبو سعيد الخدرىّ، وهو فخذ بنى خدرة . ٥

وأما عمرو بن الخزرج فمن ولده : بنو النجّار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج : البطن المشهورة؛ واسم النجار : تَيْم الله يدعى العِتْر ، وإليه يرجع حسّان بن ثابت ابن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدىّ بن عمرو بن مالك بن النجار الشاعر : أعنى بالشاعر حسّان، وقد انقرض عقب حسّان .

وأما عوف بن الخزرج فمن أفخاذه : بنو غنم قَوْقل : فخذ، وهو أُطُمٌ كان لبنى غنم، وسالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، وغنم : رهط عُبَادة بن الصامت الصحابىّ . ومن بنى عوف بن الخزرج : سالم الحُبْلَى بن غنم بن عوف، سُمّى بذلك لعظم بطنه . ١٠

وأما جشم بن الخزرج، فأعقب من فخذين : وهما تَزيدُ وغَضْب ابناه لصلبه؛ فمن أفخاذ تزيد بن جشم هذا : بنو سَلِمة وربيعة ابنا سعد بن علىّ بن راشد بن ساردة ابن تزيد . وسَلِمة رهط معاذ بن جبل الصحابىّ بكسر اللام . ١٥

وأما غضب بن جشم بن الخزرج، فمن أفخاذه : بنو زُرَيق وبَيَاضَة : ابنى عامر ابن زريق بن عبد بن حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج .

وأما كعب بن الخزرج فمن أفخاذه : سعيد وقيس ٱبنا سعد بن عبادة بن دُلَيم بن حارثة ٱبن أبى جَذِيمة بن طَرِيف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج؛ وقد ٱنقرض قيس بن سعد بن عبادة .

ومن كعب بن الخزرج المذكور غير طريف هذا : ثلاث أفخاذ أخر إخوة طريف ٱبن الخزرج هذا : وهم ثعلبة وعامر وعمرو؛ كان لعامر هذا ٱبن الخزرج بن ساعدة ٱبن كعب بن الخزرج الأوّل : بنو قَسِّيَّة بن عامر وقد ٱنقرضوا عن آخرهم .

فهذا مختصر كاف فى أنساب الأوس والخزرج .

وأما حارثة بن عمرو مزيقياء، فأعقب من أربع أفخاذ : عمرو بن ربيعة بن حارثة وهو أبو خُزاعة؛ وإنما قيل لهم خزاعة : لأنهم ٱنخزعوا من بنى عمرو مزيقياء بن عامر، والٱنخزاع التقاعس والتخلّف، فأقاموا بمَرِّ الظَّهْران بجنبات الحرم ووُلُّوا حجابةَ البيت دهرا وهم حلفاء بنى هاشم؛ وقد ٱختلف النسّابون فى خزاعة بعد إجماعهم على أنهم ولد عمرو بن لُحَىٍّ وأنّ خزاعة هو كعب بن عمرو بن لحىّ بن قَمَعَة بن خِنْدِف، وهو ٱبن الياس بن مضر؛ وعمرو بن لحىّ : هو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [فيه] لأكثم بن أبى الجون الخزاعىّ : "يا أكثم رأيتُ عمرو بن لحىّ بن قمعة بن خندف يجرّ قُصْبه فى النار، ما رأيت رجلا أشبهَ منه برجل منك"، فقال أكثم : أيضرّنى شبهه يارسول الله؟ فقال : "لا، لأنك مسلم وهو كافر" والقُصْبُ : الحشوة من الأمعاء وهو المصران؛ وكان عمرو بن لحىّ أوّلَ من غيَّر دين إسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان وسيَّب السائبةَ وبحَر البحيرةَ ووصل الوصيلةَ وحمى الحامىَ . قال عبد الله ٱبن عباس رضى الله عنهما : نزل القرءان بلغة الكعبين : كعب بن لؤىّ وكعب بن

عمرو بن لحىّ ، وذلك أن دارهم كانت واحدة ، وأفصى بن حارثة بن عمرو مزيقياء وعدىّ بن حارثة وعمرو بن حارثة .

(١٣) فأما عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقياء ، قال شيخنا شيخ الشرف : عمرو هو خزاعة نفسه أعقب من خمس أفخاذ : كعب وسـعد وعدىّ ومُلَيح وهو لحىّ : بطن كثيّر بن عبد الرحمن الشاعر ، وعوف بن عمرو خزاعة . ٥

فأما كعب بن عمرو خزاعة بن ربيعة ، فأعقب من ستّ أفخـاذ : وهم مُنْقِذ وسَلُول وحُبْشيَّة ومطرود ومازن وسعد : أولاد كعب بن عمرو خزاعة .

فأما سـلول بن كعب ، وإليه ينسب كلّ سلولىّ ، فأعقب من ثلاث أفخاذ : حبشـيّة وعدىّ وحرمز ، فأعقب حبشيّة بن سلول من قُمَيْر وضَاطِر وكليب وحُلَيل وغاضرة : بنيـه لصلبه . وأعقب عدىّ بن سلول من حَبِير وهَيْنه وحُرَيز : بنى عدىّ . ١٠

وأما حبشيّة بن كعب بن عمرو خزاعة ، فأعقب من ٱبنيه لصلبه : غاضرة وحرام .

وأما سـعد بن عمرو وهو خزاعة ، فأعقب من ثلاث قبائل : بنى المُصْطَلِق ، وبنى عامر وبنى الكاهن .

وأما أفصى بن حارثة بن عمرو مزيقياء ، فإنه أعقب من أسلم : بطن فى آخرين : وهم مَلَكَان وزيد وعمرو وعدىّ وجُهَادة وحَطَّاب وسَوادة وجُرَيش وٱمرؤ القيس وصهيبة وجشم . فمن بنى أسلم بن أفصى : سلامان : فخذ ، وهَوزن : فخذ : ٱبنا أسلم بن أفصى ، ومن ملَكان ، بالفتح ، بن أفصى : غبشَان بن ملكان : فخذ ، منهم : ذو الشّمالين المقتول ببدر . ١٥

وأما عدىّ بن حارثة بن عمرو مزيقياء، فأعقب من سعد بارق، نزل بماء بالسراة أيام سدّ مأرب يسمّى بارق، وقيل: هو جبل. وقيل: بل تبعوا البرق فسُمّوا بذلك، وعمرو وعوف: بنى عدىّ.

وأما عمران بن عمرو مزيقياء، فأعقب من الأَسْد والحُجْر ابنيه لصلبه؛ فأعقب الأسد من ثلاث أفخاذ: العَتيك وشُهَيل والحارث: بنى الأسد. فمن ولد العتيك: أسد بن الحارث بن العتيك: فخذ، ووائل بن الحارث، واليه ينسب المُهلّب بن أبى صُفْرة.

وأما الحجر بن عمران بن عمرو مزيقياء، فأعقب من أربع أفخاذ: زيد مناة ومرحوم وعمرو وسُود: أولاده لصلبه، فأعقب عمرو بن الحجر من ابنه رَباب.

وأما كعب بن عمرو مزيقياء، فأعقب من خمس أفخاذ: السموءل وحنظلة وثعلبة ومالك وقاتل الجوع: أولاد كعب بن عمرو.

وأما عمرو بن حارثة بن عمرو مزيقياء، فأعقب من ثلاث أفخاذ: حارثة والرِّبْعَة وملادس: بنى عمرو.

وأما جفنة بن عمرو مزيقياء، فهم ملوك الشام. والعقب من جفنة من ثلاث أفخاذ: كعب ورِفاعة والحارث: بنى جفنة فى آخرين.

فالعقب من كعب بن جفنة بن مزيقياء، من أُمام والحارث: ابنيه لصلبه؛ ومن ولد أُمام: جَبَلَة بن الأَيْهم بن عمرو بن جبلة بن الحارث الأعرج بن جبلة بن الحرث الأوسط بن ثعلبة بن الحارث الأكبر بن عمرو بن حجر بن هند بن أمام هذا ابن كعب بن جفنة بن عمرو مزيقياء. وقيل: بل هو جبلة بن الأيهم بن جبلة

ٱبن الحارث الأكبر بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة، وفيه ٱختلاف؛ وجبلة هو الذى تنصّر فى خلافة عمر بن الخطّاب رضى الله عنه، ومن رفاعة بن جفنة : السموءل ٱبن أوفَى بن عادياء بن رفاعة بن جفنة : بطن؛ وأعقب الحارث بن جفنة من المنذر ٱبن النعمان بن الحارث : بطن، ومن الحسحاس ومنارة : ٱبنى عوف بن الحارث : بطن. وجماعة من قبيلة الأرمن نصارى يزعمون أن جدّهم هَنِيّر يرجع الى جفنة غسّان. ٥

وأما الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان، فالعقب من ولده فى هَمْدان : وهو أَوْسَلَةُ ٱبن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار المذكور. وقيل : هو الجبار بالجيم والباء الموحدة.

والعقب من همدان : ٱبن مالك بن جشم بن خَيْران بن نَوْف بن همـدان هذا، ومن جشم : ٱبن بَكِيل وهو الحبك : نخذ، وحاشد ٱبنا جشم لصلبـه. فأعقب ١٠ الحبك من دَوْمان وسَوْران وخَيْران. فمن ولد دومان بن الحبك وهو بَكِيل : أرحب ومرهبـه : ٱبنا عامر بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان، اليـه يُنسب كلّ أرحبىّ. ومن حاشد ٱبن جشم بن خيران : سَبِيع : نخذ، ٱبن سبع بن صعب ٱبن خيران بن معاوية بن كبير بن خيران : وهو مالك بن زيد بن مالك بن جشم بن حاشد بن جشم بن خيران : رهط أبى إسحاق السَّبِيعىّ؛ وفى ذلك خلاف بين النسّابين ١٥ فى الأسماء.

وذكر بعض النّسابين أنّ ألهانَ بن مالك : أخا همدان بن مالك، اليه يرجع ويُنسب كلّ ألهانىّ : وهم قليل، ويَامُ بن أُصَىّ بن نافع بن خيران وهو مالك بن زيد : رهط زُبَيد اليامىّ شيخ الثَّوْرىّ.

وذكر بعض النسابين : أن الأوزاع ، وهم من مَرِيدة بن زيد عددهم فى همدان وهم من حمير، واليه يرجع كلّ أوزاعىّ . ومن ولد سَدَد بن زُرعة وهو حمير الأصغر : الأوزاع بن سعد بن عوف بن عدىّ بن مالك بن زيد بن سَدَد، والأوزاع بن زيد آبن سدد، والأوزاع بن سدد، والأوزاع بن شُقْران بن المعلّى بن سَدَد .

قال : وهذه النهاية فى آختصار أنساب اليمن . وقد آحتوت على الغاية فى حسن إيصال البطون وتبيينها فى الترتيب؛ فلنرجع الى عمود النسب المحمدىّ فنقول :

إن عمود النسب من عابر بن شالخ فى آبنه : فالغ بن عابر، وأمه ميشاخا، وكان له من الولد غير عمود النسب الجبابرة، مثل تيم وقينان وسيرى[1] ومُدبّر وغيرهم آنقرضوا كلّهم لم يعقب منهم إلا أرغو بن فالغ، وهو الجدّ الذى يرجع إليه كلّ قرشىّ وكلّ قيسى، وهو أحد شعبى النسب .

والعقب من ولده فى أرغو بن فالغ[1] وكان منه جبابرة آنقرضوا . وعقبه فى آبنه ساروغ بن أرغو . وكان له غير عمود النسب من العقب عشائر وأولاد جبابرة . منهم يَعْصُم، ويَعْظُم، ونهان، وبعلاك، وبَهران، وكاشم، وطولان، وغيرهم هلكوا دارجين .

والعقب منه فى آبنه نَاحور بن ساروغ، فالعقب من ناحور فى آبنه تارَح : وهو آزَر بن ناحور .

ومن تارح غير عمود النسب : هارانَ بن تارح وناحور بن تارح، فولد هَارَانُ : لوطا النبىّ صلى الله عليه وسلم .

وعمود النسب من آزر فى آبنه :

(١) الأسمان المرقومان برقم ١ وردا فى الأصل هكذا، وفى التوراة : (سِترِى) . (رَعُو بن فالَج) .

إبراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام

وهو الجدّ الحادى والثلاثون لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وأمه أدنَا بنت نمر بن أرغو بن فالغ بن عابر. وله من الولد غير إسمعيل عمود النسب : إسحاق عليه السلام ويِشْباق : وهو طالب، وسَوَاح : وهو خاضع، وزِمْرَان : وهو نَجدان، ومَدَان، ويُقْشان : وهو مصعب؛ فهؤلاء ولد إبراهيم عليه السلام لصلبه، والعقب منهم غير عمود النسب وهو إسماعيـل لإسحاق لا غير . فولد إسحاق صلى الله عليه وسـلم : يعقوب إسرائيل الله صلى الله عليه وسلم والعِيص وهو عيصُو[1]، وُلدا فى بطن واحد، فخرج عيصو أوّلا وخرج يعقوب بعده، ويده عالقة بعقبه فسُمّى يعقوب . وأمهما رِفْقَا[1] بنت ناحور بن تارح بنت عمّ أبيهما إسحاق . فولد العيص بن إسحاق: رَعْوَال[1] ويَعُوس وأَلِيفَاز ويَعْلام وقُورَح ورُوم . فولد أليفاز بن العيص : عَمَـالق[1] وغيره . وولد رعوال بن العيص : ناجب وغيره. وولد رُوم بن العيص بن إسحاق: بنى الأصفر لأن روم كان رجلا أصفر فى بياض فلذلك سُمّيت الروم : بنى الأصفر .

قال : وعمّر عيصو مائة وسبعا وأربعين سنةً . وكذلك يعقوب؛ ودفنا معا عند قبر أبيهما إبراهيم الخليل عليه السلام فى مزرعة حَبْرُون . وقيل: هى مزرعة عَفْرُون كان إبراهيم آشتراها لقبره، وفيها دُفنت سارَةُ .

ومن ولد العيص: أيوب النبىّ عليه السلام، قيل: هو أيوب بن أَموص بن تارَح آبن رفو بن عيصان بن إسحاق، وأمّه من ولد لوط بن هاران عليه السلام .

وولد يعقوب عليه السلام : آثنى عشر سِبْطا . منهم يوسف النبى عليه السلام: عزيز مصر وصاحبها ، و إخوته : كَاد[1] و بَنْيامِين ويهوذا ونَفْتَالى وزَبُولُون وشَمْعون

(١) الأسماء المنمرة بنمرة ١ وردت كذا فى الأصل؛ وفى التوراة : عيسو . رِفْقَةُ . رَعُوئيل . يَعُوش . عماليق . جَادُ .

ورأُوبين، وكشاحا، ولاوى، ودان، ويأشير[1]. جاء من ولد يهوذا : سليمان النبىّ عليه السلام، وجاء من سليمان : مريم ابنة عمران أمّ المسيح عليهما السلام . وجاء من لاوى بن يعقوب : موسى كليم الله وهارون عليهما السلام ابنا عمران بن قاهث، وجاء من ولد هارون : يحيى بن زكريّا والياسُ واليَسَعُ والعزيرُ. وقد روى: أن الياس بن مضر نبىّ، وأنه المعنىّ بقوله تعالى ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ فى قراءة نافع وابن عامر، وأن آلَ ياسين آلُ محمد صلى الله عليه وسلم .

والعقب من يوسف الصدّيق عليه السلام : أفرائيم ومَنَشّا[2] ابنيه لصلبه؛ فمن ولد أفرائيم : يُوشَع بن نُون وصىّ موسى عليه السلام : وهو الذى رُدّت عليه الشمس فى حربه : وهو يوشع بن نون بن عازر بن شوتالح بن داباد بن ناحب بن العاد ابن ناحب بن يارد بن شوتالح بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب . وفى ولد منشا ابن يوسف : موسى بن منشا بن يوسف . وولد لمنشا ابنة اسمها رَحْمة : وهى امرأة أيوب عليه السلام .

قال : وزعم أهل التوراة أن الله تعالى نبّأه وأنه صاحب الخضر. وذكر المؤرخون أنه لما مات يعقوب، فشا فى الأسباط الكهانة فبعث الله تعالى موسى بن منشا يدعوهم الى عبادة الله تعالى، وهو قبل موسى بن عمران بثمانمائة سنة والله تعالى أعلم .

ونرجع إلى عمود النسب، وهو من إبراهيم فى ولده إسماعيل : الذبيح بن إبراهيم الخليل عليهما السلام . وأمه أم ولد، تدعى هاجَر، من قبط مصر، من قرية يقال لها : أمّ العرب نحو الفرما .

---

(١) فى التوراة : أشير .

(٢) فى التوراة : منَسَّى .

وآختلف العلماء فيما بين عدنان إلى إسماعيل فى ذكر الآباء: فمن العلماء من ينسب اليمن إلى إسمعيل عليه السلام ويقولون : إنهم من ولد يَمَن بن نَبْت بن إسماعيل ، وآفترق باقى ولد إسمـاعيل فى أقطار الأرض فدخلوا فى قبائل العرب ودرج بعضهم فلم ينسب النسابون لهم نسبا إلا من كان من ولد قَيْدار آبنه عمود النسب .

قال : وآتفق أهل العلم بالنسب كما وجدوه فى التوراة وكما حملوه عن علماء أهـل الكتاب، وكما روى عن عبدالله بن عباس : أن النسب فيما بين آدم وإسماعيل صحيح على ما أوردناه لاخلف فيه بينهم ولا خلاف إلا فى الأسماء لتنقل الألسنة، وإنمـا الخلاف فيما بين إسماعيل وعدنان ، وذلك أن قدماء العرب لم يكونوا أصحاب كتب يرجعون إليها، وإنمـا كانوا يرجعون إلى حفظ بعضهم من بعض ، فمن أجل ذلك حدث الاختلاف فيما حفظوه ، فقال قوم برواية وقال آخرون برواية . قال: وهذه الرواية التى أوردها فى هذا التأليف هى أحسن الروايات، وهى عمدة أكثر النسّابين الأجلّاء، وعليها كان يعتمدشيخ الشرف محمد بن أبى جعفر الحسينىّ العُبَيدلىّ النسابة، وهى رواية عبد الله بن عباس، وآختيار أبى بكر محمد بن عبده العبقسىّ النسّابة الطرسوسى وغيره .

وكان لإسماعيل عليه السلام من الولد غير قَيْدار عمود النسب أحد عشر ولدا : وهم مَسَّا ويَطُوروميساع ودُوماء،وقيل: هو الذى بنى دُومَة الجَنْدل، ومبشام وإديال ونَعَابوا وتَيما ، وحُداد ونافيس وقَيدَما .

وعمود النسب من إسماعيل عليه السلام فى آبنه قيدار بن إسماعيل ، وأمّه هَالَةُ بنت الحارث بن مُضَاض الجرهمىّ ويقال: آسمها سلمى، وقيل: الحنفاء، وقيل: هى أم أولاد إسماعيل كلهم .

والعقب منه فى آبنه حَمَل بن قيدار، وأمه الغاضرية بنت مالك الجرهمىّ .

والعقب منه فى نبت بن حمل وأمّه هَامَة بنت زيد بن كهلان بن سبإ بن يشجب آبن يعرب بن قحطان، وتدعى حُرَيرة .

والعقب من نبت فى آبنه سلامان بن نبت .

٥ والعقب من سلامان فى آبنه الهميسع بن سلامان، أمّه حارثة بنت مراد بن زرعة ذى رُعيْن الحميرىّ .

والعقب منه فى آبنه اليسع بن الهميسع .

والعقب من اليسع فى آبنه أدد بن اليسع، وأمّه حيّة من قحطان .

والعقب منه فى آبنه أدّ بن أدد، وأمّه النعجا بنت عمرو بن تُبَّع سعد ذى فَائش

١٠ الحميرىّ .

والعقب منه فى آبنه عدنان بن أدّ، وأمّه المتَمَطِّرة بنت عدى الجرهميّة : وهو الجدّ الحادى والعشرون لسيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال أكثر النسّابين : إن العقب من عدنان غير معدّ عمود النسب من علّ : وهو الحارث والذئب والنعمان والضحّاك لاعقب له : وهو المُذْهَبُ الذى يقال

١٥ فى المثل : « أحسنُ من المُذْهَب » وعدىٌّ دَرَجَ؛ والغنىّ وأبىّ وعَدَن : وهو صاحب عدن، وعمرو ونبت وأدّ وعدًا آنقلبت فى اليمن .

فأما علّ بن عدنان فكلّ من كان منهم بالمشرق فهم يُنسبون الى الأزد، والذى فى الأزد أيضا علّ بن عدثان بالثاء المثلّثة آبن عبد الله بن الأزد .

وقال شيخ الشرف النسّابة : علكّ بن عدنان بالنون . وقال الأفطسىّ النسابة : علكّ بن الحارث بن عدنان بن عبد الله بن الأزد، وكلّ من كان منهم بالشام ومصر واليمن والمغرب فهم مقيمون على نسبهم فى عدنان .

وأما الذئب بن عدنان فيزعمون أن الأوس والخزرج من ولده . قال عبّاس بن مرداس :

وعكّ بن عدنان الذين تلعّبوا * بغسّان حتى طرّدوا كلّ مُطرَدِ

نرجع . وعمود النسب من عدنان فى آبنه معدّ بن عدنان، وأمّه مَهْدَدُ بنت اللّهَمّ الجرهميّة .

قال(١) النسابون فى أولاده لصلبه فقالوا : إن ولده أحد عشر رجلا : وقالوا : ثمانية، وزاد آخرون، وقال قوم : لم يكن له غير نزار .

قال : فالذى أورد له أحد عشر ولدا قال : والعقب من معدّ بن عدنان : عُبَيد الرمّاح أعقب، وجُنَيد وجُنَادة وحَيد وقبضة، وقيل : بل آسمه قَنَصٌ آنقرض، وقُنَاصة وحَيدان أعقب، وشَطّ وعوف وسَنام وقُضاعة، قال العلماء : وكلّهم آنتقلوا فى اليمن وغيرها إلا نزارا . وقد قيل : إن حيدان هذا هو أبو مَهْرة : القبيلة . وقال النسّابون : والقَحْم أعقب، وسنام أعقب، وحبيب والضحّاك أعقب، وأَوْد أعقب : أولاد معدّ .

فأمّا عبيد الرمّاح فانتسب فى بنى مالك بن كنانة، ومنهم كان إبراهيم بن عربىّ صاحب اليمامة .

وأمّا سنام بن معدّ فإنه آنتسب فى سعد العشيرة بن مالك فى اليمن .

(١) لعله : قال وآختلف النسابون الخ .

وأمّا حَيدَةُ بن معدّ فانتسب في الأشعريِّين .

وأمّا القحم بن معدّ فانتسب في مالك بن كنانة .

وأمّا أود بن كعب فانتسب في مذحج .

وأمّا قَنَصٌ فانقرض عقبه، وقيل : كان منهم النعمان بن المنذر .

٥ وروى عن آبن عباس رضي الله عنه أنه قال : ذو القرنين عبد الله بن الضحاك بن معدّ بن عدنان .

نرجع . وعمود النسب من معدّ بن عدنان في آبنه نزار بن معدّ وأمّه مُعَانَةُ بنت جَوشُم[1] الجرهميّة، ومنه غير مُضر الذي هو عمود النسب ثلاث بطون : ربيعة الفَرَس وإياد وأنمار: بنو نزار . والصَّريحان من ولد إسماعيل عليه السلام: مُضَر الحمراء

١٠ وربيعة الفرس . وقولهم : ربيعة الفرس ومضر الحمراء، فزعموا أنه لمّا مات نزار تقسم بنوه ميراثه وآستهمّوا عليه ؛ وكان له فرس، مشهور فضله في العرب فأصابه ربيعة فقيل : ربيعة الفرس؛ وكان له ناقة حمراء، مشهورة الفضل بين العرب فأصابها مضر فقيل : مضر الحمراء؛ وكان له جَفنةٌ عظيمة يطعم فيها الطعام فأصابها إياد؛ وكان له قدح كبير يسق فيه اللبن إذا أطعم فأصابه أنمار . هذا أحد ما قيل في ذلك ،

١٥ وسنذكر ما قيل في قسمة ميراث نزار وما آتفق لأولاده مع الأفعى الجرهميّ في أمثال العرب في حرف الهمزة وفي قولهم : "إن العصا من العُصَيّة"، وهو في الباب الأوّل من القسم الثاني من هذا الفن في أوّل السفر الثالث من كتابنا هذا إن شاء الله تعالى .

---

(١) كذا في الأصل وفي الطبري : جُرشُم .

نرجع . فأمّا أنمـار بن نزار فإنها آنقلبت فى اليمن، قال : كذا روينا عن شيوخنا فى النسب ومن قال : إنها آنقلبت فى اليمن يقول فيه : إنّ خثعم و بجيلة آبنا أنمار بن نزار، وإنما لحقا باليمن وآنتسبا عن جهل منهما إلى أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث آبن النبيت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وأمّا إياد بن نزار وهى القبيلة التى يرجع اليها كلّ إيادىّ، فمنها فخذان : بنو دُعْمِىّ آبن إياد، وبنو زَهْر بن إياد؛ ومن زهر بنو حُذَاقة بن زهر : عشيرة فى إياد، اليها ينسب الحذاقيّون .

وأما ربيعة الفرس بن نزار بن معدّ، فأعقب من ثلاثة أبطن: أَسَد، وهو البطن الأعظم من ربيعة، وضُبَيعة بن ربيعة، وأكلب. وضبيعة يقال له : ضبيعة الأَضْجم : لأنه كان مائلَ الفم . ومن أكلب أفخاذ : منها لصلبه : هُرَير وعوف ومَعْن ومُبَشّر وجليلة .

والعقب من ضبيعة بن ربيعة بن نزار من ثلاث قبائل : جُلَّى وعوف وبدر : بنو أَحْمَس بن ضبيعة؛ ومن بنى جلّى : بنو مُجَمِّع الشعوب: ربيعة بن سَلمة بن سعد بن بلال آبن بُهْثة بن حرب بن وهب بن جلّى : بطن .

وأما أسد بن ربيعة فمنه ثلاث بطون: أفصى بن دعمىّ بن جديلة بن أسد، وعَنَزة آبن اللهازم بن أسـد، وآسمه عمرو، وعميرة بن أسد؛ وإلى عَنَزة يُنسب كلّ عنزىّ محرّك النون .

والعقب من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار فخذان : وهما أسلَم ويَقْدُم: آبنا يَذْكُر آبن عنزة بن أسد . فمن أسلم فخذان : بنو صُباح ، وهو قرالليل والنهار، وبنو حُلّان :

آبنى العتيك بن أسلم . ومن يقدم بن يذكر فخذان : تَيم ونصر : آبنا يقدم . ومن بنى تيم : بنو هَمِيم بن عبد العُزّى بن ربيعة بن تيم بن يقدم .

والعقب من عَمِيرة بن أسد بن ربيعة بن نزار فخـذان : هما مبشّر وعدىّ : آبنا عميرة بن أسد بن ربيعة .

٥ وأما أفصى بن دعمىّ بن جديلة بن أسد، فمنه بطنان : هِنب وعبد القيس : آبنا أفصى بن دعمىّ بن جديلة ؛ وإلى عبد القيس هذا ينسب كلّ عبقسىّ .

والعقب من عبد القيس بن أفصى بن دعمىّ بن جديلة بن أسـد من افصى بن عبد القيس، واللَّبود بن عبد القيس . والعقب من أفصى بن عبد القيس من لُكَيز بن أفصى وشَنّ بن أفصى . فمن لكيز بن أفصى ثلاث عشائر : وَديعةُ وصُباح ونُكْرة .

١٠ فمن ولد نكرة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس : دُهن بن عذرة بن منبّه بن نكرة بن لكيز آبن أفصى بن عبد القيس ؛ وليس دهن هـذا فخذ عمارة الدهنىّ، إنما فخـذه دهن التى فى بجيلة . (١١٧)

والعقب من وديعـة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن دعمى من عمرو بن وديعة ودهن بن وديعة وغنم بن وديعة .

١٥ والعقب من عمرو بن وديعـة بن لكيز بن أفصى — و قال لولده: العُمُور — أنمـار وعِجل ومُحارب والدِّيل: أولاد عمرو بن وديعة .

والعقب من هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسـد بن ربيعة من قاسط آبن هنب وعمرو بن هنب، فمن ولد عمرو بن هنب هـذا : عتيب بن عمرو، ومن عَتِيب فى دهن : فخذ، وخفاجة : آبنى عتيب .

والعقب من قاسط بن هنب من النمر بن قاسط؛ واليه ينسب كل نمرى، وعمرو وهو غُفَيلة بن قاسط: قبيلة، ومعاوية بن قاسط فى عاملة، ووائل بن قاسط: البطن الأعظم من قاسط .

فالعقب من النمر بن قاسط من تيم الله ويقال: تيم اللات، وأوس مناة: آبنى النمر؛ ومن النمر بن قاسط: بنو الضِّحْيان وهو عامر بن سعد بن الخزرج بن سعد بن تيم الله ٥
آبن النمر . واليه كانت الرياسة واللواء والحكومة والمِرْباع . وقيل له الضحيان لأنه كان يحكم بين العرب فى الضُّحَى .

وأما وائل بن قاسط بن هنب، فأعقب من أربع أبطن : تغلب بن وائل : البطن المشهورة، اليها يرجع كلّ تغلبىّ معدّىّ . (وفى قضاعة أيضا تغلب بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة جدّ بنى كلب)، وبكر بن وائل، وعَنْز بن وائل ساكنة ١٠
النون كما يُنسب فى نزار إلى عنزة بن أسد كلّ عنَزىّ محرك النون، وعمرو بن وائل .
فمن عنز بن وائل بن قاسط فخذان : وهما رُقَيدة بن عنز وأَرَاشة بن عنز، وفيهما عدّة أفخاذ وعشائر .

والعقب من بكر بن وائل بن قاسط بن هنب من الحارث وعلىّ ويشكر وجشم وبَدَن: بنى بكر؛ وإلى علىّ هذا يُنسب كلّ علوىّ فى نزار؛ وإلى يشكر هذا يُنسب كلّ يشكرىّ . ١٥

والعقب من يشكر بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب من ثلاث قبائل لصلبه : وهم حرب وكنانة وكعب؛ فأعقب حرب بن يشكر من جشم وذُهْل : ولدَىْ كنانة بن حرب؛ ومن بنى جشم بن حرب : بنو عُصَيم بن سعد بن عمرو بن جشم؛ وبنو الجُمَير: حُبيِّب بن كعب بن جشم، وإلى جشم هذا يُنسب كلّ جشمىّ فى نزار .

وأعقب كنانة بن يشكر من ذبيان بالكسر بضد ذبيان عبس الذى هو بالضم، وأعقب ذبيان من فخذ وائلة وعامر : آبنى ذبيان بن كنانة بن يشكر . فمن بنى عامر بن ذبيان : بنو جشم بن عامر : فخذ يقال لهم : الجشميّون أيضا .

وأما بنو علىّ الوائلى فالعقب من علىّ بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى آبن دعمىّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة من صعب بن علىّ وحده، وإليه يرجع كلّ صعبىّ فى نزار . والعقب من صعب من ثلاث بطون : عُكَابة ولُجَيم[1] ومالك : أولاد صعب بن علىّ بن بكر بن وائل ، فأعقب مالك بن صعب فى بنى زِمّان بن مالك : فخذ ، وإليه ينسب كلّ زِمّانىّ .

وأما لُجيم بن صعب، فأعقب من حَنيفة بن لجيم : البطن المشهورة، ومن عجل آبن لُجَيم .

قال الزبير بن بكّار : وحَنيفة آمرأة نُسب اليها ولدها : وهى حنيفة بنت كاهل بن أسد بن خَزيمة . فأعقب حنيفة من ثلاث قبائل : الدُّؤل بن حنيفة : القبيلة المشهورة فى بنى حنيفة ، ويقال فى النسبة إليه : دؤلىّ كذا بضد النسبة الى دؤل كنانة ، وعامر آبن حنيفة وعدىّ بن حنيفة ؛ وفيهم عدّة عشائر وقبائل، والعزوة إلى حنيفة تغنى عنها؛ منها بنو يَربوع بن الدؤل بن حنيفة إليه يُنسب كلّ يربوعىّ : وهم قبيلة خَولة بنت جعفر بن قيس بن سلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع المذكور أمّ أبى القاسم محمد بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه المعروف بابن الحنفيّة ؛ وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه لعلىّ "سيولد لك ولد وقد نحلته آسمى وكنيتى" .

(١) كذا بالأصل وفى كتاب المعارف لآبن قتيبة : "لُجَيم" بالجيم المعجمة .

قال : ولعبيد بن ثعلبة بن يربوع غير سلمة خمس أفخاذ لصلبه : مَسلَمة وشَيْبان وزيد ووهب وأرقم ؛ ولهم عدد فى بنى مَسلَمة المذكور : عمرو بن معدى كرب بن الحارث بن مسلمة ، إليه يُنسب كنز الدولة حامى أسوان .

وأما عجل بن لجيم فأعقب من أربع أبطن : وهى سعد وكعب وهم قليل ، وربيعة وضبيعة أولاد عجل ؛ وإليـه ينسب كلّ عجلىّ . وفيهم عدّة أفخـاذ وعشائر ، وإلى ضُبيعة يُنسب كلّ ضبعىّ .

(١١٨) وأما عكابة بن صعب بن علىّ فأعقب من بطنين : ثعلبة وفيـه العدد ، وقيس : آبنى عكابة .

والعقب من ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على من خمسة : قيس من اللَّهَازم : بطن ، ومالك وتيم الله من اللهازم : قبيلة أولاد ثعلبة بن عكابة ، وشَيبان وذُهْل وهما الذهلان : آبنا ثعلبة ؛ وإلى شيبان هذا يرجع كلّ شيبانىّ ، وإلى ذهل يرجع كلّ ذُهلىّ .

فأما قيس آبن ثعلبة فأعقب من ضُبَيعة وسعد : آبنيه لصلبه . والعقب من ضبيعة آبن قيس بن ثعلبة بن عكابة من ربيعة وهو جُحْدَر ، وإليه يرجع كلّ جحدرىّ ، وسعد وتيم وعُبَاد ومالك : بطن .

وأعقب تيم الله بن ثعلبة بن عكابة من سبع أفخاذ : وهم الحارث وذُهْل وعدىّ ومالك وعامر وزِمّان وحَاطِبة ؛ ومن بنى مالك بن تيم الله : بنو عائش بن مالك : فخذ .

فأما شيبان بن ثعلبة بن عكابة فأعقب من ثلاث بطون لصلبه : ذهل ، وإليـه يرجع الذهليّون ، وتيم وثعلبة ؛ وثعلبة هذا : هو الفخذ الذى يُنسب إليه ويرجع أبو الصقر محمد بن إسماعيل وزير المعتمد . وفيه يقول آبن الرومىّ الشاعر :

قالوا: أبو الصقر من شيبان، قلت لهم: * كلّا لعَمرى ولكن منه شيبانُ
وكم أبٍ قد علا بابنٍ له شرفا * كما علا برسول الله عدنانُ

وأعقب ذهل بن شيبان من أولاده لصلبه : وهم مُرّة، وإليه يرجع المَرِيون الشيبانيّون وأبو ربيعة ومُحلِّم وصُبْح[1] والحارث وعمرو : وهو جِذْرة وعوف وعبد غنم، ومن ولد أبى ربيعة بن ذهل : المُزدلِف : وهو عمرو بن أبى ربيعة : فخذ كبيرة .

وفى مرة بن ذهل بن شيبان عدّة أفخاذ : وهم سعد وذُبّ وسيّار وكثير وجندب وبُجَير وجسّاس ونضلة وهمّام : قبيلة الأحلاف أولاد مرة . قال : وهمام بن مرة ابن ذهل هو بيتُ ذهلٍ وقعددُ فخرهم . وأعقب لصلبه الأحلاف من مازن وعوف وثعلبة خمسين بيتا ، وعمرو وعائشة والأسعد وحبيب : هؤلاء هم الأحلاف ومرّة وعبد الله والحارث .

وأما ذهل بن ثعلبة وهو أحد الذهليين فمنه بطنان لصلبه : شيبان وعامر، فأعقب شيبان بن ذهل بن ثعلبة من سبع أفخاذ لصلبه : وهم سَدُوس ومازن وعمرو الأعمى وعِلْباء ومالك وعامر وزيد مناة . وإلى سدوس هذا يُنسب كلّ سدوسىّ . ومن ولد مازن هذا : أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حَيّان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن . وإليه أيضا يُنسب أبو عثمان المازنىّ النحوىّ وكلّ مازنىّ، وفى مذحج فى بنى سُلَيم : زُبَيد مازن المعروفة .

نعود إلى باقى نسب وائل .

وأما تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب ، واسم تغلب دِثار وكان أكثرهم نصارى ، فالمُعْقب منه فى ثلاث أفخاذ لصلبه : عِمران وهم قليل ، وأوس وغنم ، وفيه العدد

(١) كذا بالأصل وفى كتاب المعارف لابن قتيبة : صُبيح .

والبيت ؛ ومن قبائل غنم الخنّاقون : بكر ورَزَاح ومالك وعدىّ : بنو معاوية آبن عمرو بن غنم بن تغلب ، والأراقم الستة : جشم ومالك وعمرو والحارث ومعاوية وثعلبة : أولاد بكر بن حُبَيْب بن غنم بن عمرو بن تغلب ، ومن جشم هـذا : بنو عُطَيْف مُجزِئة بن حارثة بن مالك بن جشم بن بكر بن حبيب : رهط سيف الدولة آبن حمدان . فهذا نهاية الآختصار فى نسب بنى نزار . ٥

وعمود النسب منه فى آبنه مضر بن نزار ، وأمّه سَوْدة بنت علّ العدنانية . ومنه غير عمود النسب وهو الياس آبنه قيس بن عَيْلان بن مضر ، وآسم عيلان : الناس ، وهو أخو الياس . ويقال : قيس عيلان بن مضر ، وعيلانُ حاضنٌ كان لقيس فنُسِبَ إليه كما نُسب غير واحد من العرب إلى الحضان : كسعد هذيم حضنه هُذَيم فنُسب إليه ؛ والصحيح : أن عيـلان بن مضر ، وآسمه الناس ، وقيسا ولده . وقد قيـل ١٠ فى الناس : النَاسّ بتشديد السين .

ذكر نسب قيس وبطونهـا

والعقب من قيس بن عيـلان بن مضر بن نزار بن معـدّ بن عدنان ثلاثة نفر : خَصَفَة وسـعد وعمرو . وقال قائلون : وَبْر بن قيس وإنه ولد طوائفَ من البربر ، وفى ذلك خلاف عند النسّابين . ١٥

فالعقب من خصفة هـذا من بطنين : عِكْرِمة ومُحارِب آبنى خصفة بن قيس . وقيل : إن خصفة بن عكرمة غلب آسمها عليه فنُسب إليها كما قيل فى خندف . أعقب (١١) عكرمة بن خصفة من منصور بن عكرمة : البيتَ الأوّل من بنى قيس ، فيه العدد ، وسعد بن عكرمة وأبى مالك وعامر : بنى عكرمة . أعقب منصور بن عكرمة من هوازن

آبن المنصور : القبيلة المشهورة ، ومن سُلَيم بن منصور : القبيلة المشهورة ، وسلامان
آبن منصور : قبيلة ، ومازن بن منصور : قبيلة .

فأما هوازن فأعقب من بكر بن هوازن لا غير . وأعقب بكر بن هوازن من ثلاث
أفخاذ : معاوية بن بكر ، وفيه العدد . وقَسِيّ وهو ثقيف ، وآسمه منبّه بن بكر ، وإليه
٥ يرجع كلّ ثقفىّ ؛ وسعد بن بكر ؛ وإليه يرجع كلّ سعدىّ من عشيرة حليمة بنت
أبى ذؤيب السعديّة : ظئر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى حليمة بنت
أبى ذؤيب عبد الله بن الحارث بن شِجْنة بن جابر بن رِزام بن ناصرة بن قُصيّة بن نصر
ابن سعد المذكور ؛ وآسم زوجها وهو والد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من
الرضاعة : الحارث بن عبد العزّى بن رفاعة بن مَلّان بن ناصرة بن قصيّة بن نصر بن
١٠ سعد ؛ وكنيته أبو كبشة ؛ وبه كانت العرب تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم :
آبن أبى كبشة . وقيل فى أبى كبشة [أقوال] منها أن جدّه لأمّه السيدة آمنة بنت
وهب بن عبد مناف بن زُهْرة كان يكنى أبا كبشة فنسبوه إلى ذلك ليتمه وموت
أبيه . وكان أيضا عمرو بن زيد أبو أسد النجارىّ أبو سلمى بن عبد المطلّب جدّ
النبىّ صلى الله عليه وسلم يكنى : أبا كبشة . وقيل : بل لحظوا لقولهم : أبا كبشة
١٥ يعنون أبا كبشة جرير بن غالب بن الحارث ، وهو أبو قَيْلة أمّ وهب بن عبد مناف
والد آمنة أمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال آبن قتيبة : إنه كان يعبد الشعرى دون
العرب ، فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة الله دون عبادة الأصنام ، شبّهوه
فى شذوذه عنهم بشذوذ بعض أجداده من قبل أمّه بعبادة الشعرى وآنفصاله منهم .

وأما معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان ،
٢٠ فأعقب من صعصعة بن معاوية : القبيلة العظمى ، وجشم بن معلوية ؛ وإليه ينسب

كلّ جشميّ فى هوازن . وله ثلاث أنخاذ : عُصَيمة وزِمّانـــ وبنو جشم ونصر
آبن معاوية جدّ النصريّين القيسيّين . ومنه نخذان : بنو دهمان وبنو عوف : آبنى نصر،
وبجش بن معاوية : نخذ، وسيّار بن معاوية : نخذ، وكلاب بن معاوية ، ومِنجاب
آبن معاوية ، وعمرو بن معاوية ، وأُدحِيّة بن معاوية ، ودُحَيّة بن معاوية ، ودَحْوَة
آبن معاوية ، والسَّبّاق : وهو يعيش بن معاوية ، وعوف بن معاوية ، وجِحَاش بن ٥
معاوية : هؤلاء كلّهم أنخاذ قليلو العدد ، يقال لهم : الهوازنيّون .

وأما صعصعة بن معاوية فأعقب لصلبه عامر : القبيلة المشهورة ، ومرّة : وهم
سَلول ، وكلّ سلوليّ ينسب إلى مرّة هـذا ، وأمّ ولده سلول الشيبانيّة : وهى سلول
آبنة شيبان بن ذهل بن ثعلبة ، وولده عشرة أنخاذ : وهم عمرو وضبيعة ونهار وسُحَيم :
وهو أعيا ، وغاضرة وعُدَيّة وجابر ومعاوية وجنى ودهى . وباقى ولد صعصعة لصلبه ١٠
قبائل صغار : عبد الله وعائذ وعمرو وقيس وكبير وسيار ومساور وزبيبة وربيعة
وغالب ووائل ومازن وعوف ومنجور والحـارث : خمس عشرة قبيلة ؛ وفى هذه
القبائل : بنو عادية وبنو عُدَيّة بالضم ، فأما بنو عادية فهى أم عبد الله عادية والحارث .
وأما بنو عدية فهى أم قيس عدية وعوف عدية . والى عمرو بن صعصعة بن معاوية
تُعزَى الطائفة المعروفة بالأكراد . ومن النسّابين من ذكرهم إلى كرد بن مرد بن ١٥
عمرو بن صعصعة المذكور . ومنهم من نسبهم إلى أكراد بن فارسان بن أهلوا بن
إرم بن سام بن نوح ، وعليـه آعتمدوا . ومنهم من قال : كرد بن مرد بن يافث
آبن نوح .

وأما عامر بن صعصعة فأعقب من أربع بطون : وهم نمير وسُـوَاءة وهلال
وربيعة . ٢٠

فأما نمير بن عامر ـ واليه يُنسب كلّ نميرىّ، ففيهم عدّة أفخاذ : بنو المقشّب : وهو ربيعة بن عبد الله بن الحارث بن نمير، وبنو خُوَيلفة بن عبد الله بن الحارث ابن نمير، وبنو أسقع : وهو مالك بن عامر بن نمير .

وأما سواءة بن عامر بن صعصعة فمنه عدّة أفخاذ : منهـا بنو حُبَيب بن سواءة وبنو جسّاس بن سواءة وبنو حرثان بن سواءة .

وأما هلال بن عامر بن صعصعة فالبطن المشهور، وقد نزلوا المغرب من تلمسان إلى طرابلس، فأعقب هلال من إحدى عشرة قبيلة وهم أولاده لصلبه .

أولهم البيت المقدّم عبـد الله ونَهيك وربيعة وعائذة وعبـد مناف ورُوَيْبة وصخر وشعبة وشعَيبة وناشرة وحضرة . (١٢٠)

وفى هلال عدّة أفخاذ وعشائر : كزُغبـة ورِياح وفادع والأثبج وحُوثة، وقُرّة وغيرهم .

فأعقب عبد الله : وهو البطن الأولى من بنى هلال من ثلاث أفخـاذ : رُوَيْبَة ابن عبد الله وحوثة وحارثة : ابنى عبد الله؛ فأعقب رويبة بن عبد الله من أربع عشائر : زغبة ورياح وهزوم ومعاوية : بنى رويبة بن عبد الله، فمن بنى الهزم بن رويبة بن عبد الله : ميمونة بنت الحارث بن حَزْن بن بُجَير بن الهزم بن رويبـة بن عبد الله أمّ المؤمنين زوج النبى صلى الله عليه وسلم، ومن بنى رياح : بنو نجيّة بن علىّ ابن فادع : فخذ أعقب، إليه يرجع جنادة بن كامل مقدّم بنى هلال .

وأما نَهيك بن هلال فأعقب من خمس قبائل لصلبه : وهم معشر وأبو ربيعـة وأبو معاوية وسهل وأبو جشم .

وأما عبد مناف بن هلال فأعقب من أربع قبائل : الحارث وعمرو وربيعة ويَعْمر : بنى عبد مناف لصلبه . فمن بنى ربيعة بن عبد مناف بن هلال : قرّة بن عمرو بن ربيعة : فخذ مشهورة كبيرة ، إليه يرجع كلّ قرّىّ . ومن بنى عمرو بن عبد مناف بن هلال : زينب بنت خُزَيمة بن الحارث بن عبدالله بن عمرو بن عبد مناف أمّ المساكين زوج النبى صلى الله عليه وسلم أمّ المؤمنين . فهذا مختصر قبائل هلال . ٥

وأما ربيعة بن عامر بن صعصعة ، فأعقب من خمس قبائل : وهم الحارث وكليب وعامر وكلاب وكعب : بنوه لصلبه .

أما الحارث بن ربيعة فأعقب من فخذين لصلبه : عوف وعُوَيف .

وأما كليب بن ربيعة فأعقب من خمس أفخاذ لصلبه : أبان وجَهْم وجشم وخلف ومسروق . ١٠

وأما عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فأعقب من أربع أفخاذ لصلبه : عمرو وعوف والبَكّاء ومعاوية .

وأما كلاب بن ربيعة بن عامر فأعقب من عشر أبطن ، قال الشاعر :

وإن كلابا هذه عشر أبطن * وأنت برىء من قبائلها العشر

يعنى شُمَر بن ذى الجَوْشن الضِّبَابىّ ، والعشر أبطن لصلب كلاب : وهم جعفر ١٥ وأبو بكر وآسمه عبيد ، ومعاوية : وهو الضِّبَاب بن كلاب وعامر وربيعة والأضبط وعمرو وعبد الله ورؤاس "قيل : بالفتح وواو بدل الهمز" ، وكعب .

فأما جعفر بن كلاب فأعقب من أربعة أفخاذ لصلبه : مالك والأحوص وخالد وعُتْبة ، وفيهم عدّة عشائر .

وأما أبو بكر عبيد بن كلاب فأعقب من ثلاثة أفخاذ لصلبه : عبْد وكعب وعبد الله . فأما عبد بن أبي بكر فمن العشائر التي لصلبه : بنو قُرْط وبنو قُرَيط .

وأما كعب بن أبي بكر فمن العشائر التي لصلبه : بنو جَحْش بن كعب .

وأما عبدالله بن أبي بكر فمن عشائره لصلبه : بنو المجنون : وهو ربيعة بن عبدالله .

٥ وأما معاوية بن كلاب وهو الضِّباب فمنه ثلاث عشرة قبيلة : وهم ضَبّ ومُضِبّ وضِباب ؛ ولأجلهم عرف هذا البطن أعني بني معاوية بالضِّباب ، وحُسَيل وحِسْل وعمرو وأنس والأعور وزفر وأنيس ومالك وربيعة وزهير : أولاد عمرو بن معاوية . ومنْ ولد الأعور هذا شمر بن شُرَحْبيل بن الأعور قاتل الحسين بن عليّ رضى الله عنه .

وأما عامر بن كلاب فمنه أربع قبائل لصلبه : وهم بنو الأصمّ ، وهم قليل ، وبنو ١٠ كعب وهو البيت من عامر بن كلاب وطَريف بن عامر وعقيل بن عامر . فأعقب كعب بن عامر من الوَحِيد : وهو عامر بن كعب ، من أفخاذه : خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب ، منه أمّ البنين بنت حِزَام بن خالد المذكور زوج عليّ بن أبي طالب ، وهى أمّ ابنه العباس السقّاء ؛ عرف بذلك لأنه سقى الحسينَ الماءَ بكربلا .

١٥ وأما ربيعة بن كلاب فمنه ثلاثة أفخاذ لصلبه : وهم بُجَيْر وعُبَيْد ونفيل أبو نمير .

وأما الأضبط بن كلاب ففخذه : بنو وَبْر بن الأضبط ؛ ومن بني وَبْر سبع عشائر : وهم وَهْب الأكبر ووهب الأصغر وواهب وإهاب ووَهْبان وخالد وأبو ربيعة : أولاد وبر بن الأضبط .

وأما عمرو بن كلاب فمنه فخذان : نفيل وأبو عوف : ابنا عمرو بن كلاب .

وأما عبد الله بن كلاب فأعقب من ثلاثة أفخاذ : عامر وعمرو والصُّموت : أولاده لصلبه . ومن عشائر الصموت بن عبد الله : ضُبَيعة الأغرّ بن عبد الله ابن الصموت .

(١٢١) وأما رؤاس بن كلاب فأعقب من ثلاثة أفخاذ : بجّاد وبُجَيد وعُبَيد : أولاده لصلبه، ومن بُجَيد : عُقَيف بن بُجيد : فخذ، وإلى رؤاس هذا ينسب كلّ رؤاسيّ. ٥

وأما كعب بن كلاب فأعقب من أربعة لصلبه : عامر ووهب وربيعة وأوس .

فهذا مختصر بنى كلاب وأبطنها — نعود إلى باقى ولد ربيعة بن عامر .

وأما كعب بن ربيعة بن عامر فأعقب من ستة أبطن لصلبه : وهم جَعْدَةُ بن كعب : البطن المشهورة، إليها يرجع كلّ جَعْدىّ، وفيها عدّة قبائل وعشائر، وحبيب ابن كعب : البطن المشهورة، وإليها يرجع كلّ حبيبىّ، وفيها أفخاذ، وعبد الله بن كعب ١٠ منه العَجلان بن عبد الله : بطن، وربيعة بن عبد الله، ونُهَم بن عبد الله، وفيهم أفخاذ، وقُشَيْر بن كعب، وإليه يرجع كلّ قُشَيرىّ، وفيها عدّة أفخاذ وعشائر، والحرِيش بن كعب، وإليه يرجع كلّ حَرَشىّ : كعبد الله بن الشِّخِّير بن عوف بن كعب بن وَقْدان بن الحريش الحرشىّ الصحابىّ وغيره، وعُقَيل بن كعب : البطن المشهورة، إليها يرجع كلّ عُقَيلىّ بالضم . والعقب من عقيل بن كعب : بن ربيعة ١٥ ابن عامر من خفاجة بن عمرو بن عقيل : البطن المشهورة، وعبد الله وربيعة ومعاوية وعامر وعُبادة، كلّ هؤلاء أبطن . والعقب من خفاجة من أحد عشر فخذا لصلبه : وهم بنو معاوية ذى القَرْح : فخذ، وبنو كعب ذى النُّويرة، وبنو الأقرع : فخذ، وبنو كعب الأصغر، وبنو عامر، وبنو مالك، وبنو الهيثم، وبنو الوازع،

إليه ينسب كلّ وازعيّ ، وبنو عمرو، وبنو حَزْن، وبنو خالد . والفخذ العظمى من بنى عقيل بعد بنى خفاجة : بنو يُزِيد بضم الياء بن عبد الله بن يزيد بن قيس بن حوثة بن طَهْفَة بن حزن بن عبادة : عشيرة الأمير أبى المنيع شرف الدولة محمد بن مرداس ؛ ودرج شرف الدولة ، وهو ملك العرب .

٥ فهذا مختصر من نسب بنى عقيل . وهؤلاء هوازن وهم بكر . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وأما سُلَيم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان : وهو البطن المشهورة ، فأعقب من بهثة بن سليم ، وأعقب بهثة من خمسة أفخاذ لصلبه : معاوية وعوف وآمرئ القيس والحارث وثعلبة . ومن بنى آمرئ القيس بن بهثة : بنو عُصَيّة بن خُفَاف بن آمرئ القيس : بطن .

١٠ وأما محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان ، فأعقب فخذين لصلبه : طريف وجَسْر ، ويقال لبنى جسر : بنو علىّ لأن العقب من جسر بن محارب فى علىّ بن جسر لا غير .

انقضى ذكر بنى خصفة بن قيس بن عيلان .

وأما سعد بن عيلان فأعقب من بطنين لصلبه : وهما غَطَفَان ، ومنبه : وهو أَعْصُر ، والعقب من رَيْث بن غطفان من أربع أبطن لصلبه : بَغِيض ومازن وأشجع ١٥ وإليه يرجع كلّ أشجعىّ ، وأَهْون : بنو ريث .

والعقب من بغيض بن ريث [من عَبْس وذُبيان] وهما القبيلتان المشهورتان .

وذكر بعض النسّابين أنمار بن بغيض منهم أبو كبشة الأنمارىّ . وقيل : إن أبا كبشة الأنمارىّ إنما هو من مذحج .

والعقب من عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان من فخـذين : قَطِيعة ووَرَقة ابنى عبس .

والعقب من قَطِيعة بن عبس من الحارث ، ومُعتمِر : قبيلة قليلة ، وعوف : قبيلة ، وغالب : قبيلة الحُطَيئة ، ومُرَيْطة : قبيلة من ولد خالد بن سنان نبىّ أهل الرَّسّ بن جابر ابن غيث بن مريطة .

والعقب من الحارث بن قطيعة بن عبس من جِرْوَة وعامر ومازن : قبيلة وذَكْوان وشـدّاد : بنى الحارث بن قطيعة . ومن مازن بن الحارث أفخاذ : منهم جَذِيمة بن رَوَاحة بن ربيعة بن مازن : فخذ ؛ إليه يرجع الجذميون بالجيم : منهم عشيرة بنى زهير ابن جذيمة فى آخرين .

وأما ذبيان بن بغيض ، فأعقب من فَزَارة : البطن المشهورة ، وسعد ؛ فأعقب فزارة بن ذبيان من مرّة وظالم ورومىّ ، دَرَجَ وشَمْخ وعدىّ ومازن : أولاد فزارة ؛ وفيهم قبائل وعشائر وأفخاذ .

وأما سعد بن ذبيان فمن بطونه المريون : بنو مرّة بن عوف بن سـعد ، وفيهم أفخاذ ، وبنو عقال بن سـعد : فخذ ، وبنو بَجَالَة بن ثعلبة بن سعد وبنو عَجب بن ثعلبة وبنو رِزَام بن ثعلبة .

وأما عبد الله بن غطفان بن سعد فالعقب منه فى بهثة بن عبد الله وقُطْبَة وعدىّ وعُذرة وكلب وباعث وشَبَابة وغنم وعوف ومنبّه ؛ عشرة أفخاذ .

وأما أَعْصُر : وهو منبّه بن سعد بن قيس فأعقب من باهلة : وهم ولد مالك بن أعصر ، وهى باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة أخت بجَيلة بن مذحج ؛ ولد سعد

آبن مالك بن يَعصُر ومَعْن بن مالك بن يعصر فغلب آسمُها عليهم ونُسبوا إليها ؛ وكلّ باهليّ ينسب إلى باهلة وهم ولد مالك بن أعصر بن معن بن مالك ، وغنيّ بن أعصر بن سعد بن قيس أعقب من غنم وجعدة ، إليها ينسب كلّ غَنَويّ والطُّفَاوة ، آسمه الحارث بن أعصر إليه ينسب الطُّفَاوِيّون ، وعامر بن أعصر .

٥ وأما عمرو بن قيس بن عيلان ، فمنه بطنان لصلبه : وهما عَدْوَان وآسمه الحارث ، وفَهْم : آبنا عمرو بن قيس ؛ و إنما قيل له عَدْوان : لأنه عدا على أخيه فَهْم فقتله . وفهم وعدوان يقال لها : جَديلة قيس ، وهى أمّهم جديلة بنت مرّ بن أدّ : أخت تميم بن مرّ . ومن قبائل عدوان : بنو يشكر وبنو دَوس : آبني عدوان : القبيلتان المشهورتان .

١٠ هذا آخر مختصر نسب قيس بن عيلان بن مضر .

فلنرجع إلى عمود النسب . وعمود النسب من مضر فى آبنه :

اليـاس بن مضر بن نزَار

وأمّه الرِّباب بنت إياد المَعَدّية ؛ ومنه غير عمود النسب (وهو مُدْرِكة) بطن واحد وهو طابخة بن الْياس ؛ قال : لأن قمعة بن الْيـاس فيه خلاف كثير ؛ وأكثر مشايخ ١٥ النسب يذكرون أنه دَرَجَ ولا عقبَ له ؛ وذكر آخرون : أنه أبو خزاعة ، وخزاعة ليست بأبٍ ولا أمٍّ و إنما هم آنخزعوا من مضر الى اليمن ببطنِ مَرٍّ ، وذلك حين أقبل بنو عمرو بن عامر يريدون الحجاز ؛ ألا ترى قول عون بن أيّوب الأنصاريّ[1] :

ولما هبطنا بطنَ مَرٍّ تخـزَّعتْ * خُزاعةُ منّا في حُـلولٍ كَراكِرِ

حمتْ كلَّ وادٍ من تِهامةَ وآحتمتْ * بصُمِّ القنا والمرهَفاتِ البـواتِرِ

٢٠ (١) كذا بالأصل وفى اللسان أن القائل : حسان بن ثابت .

وقد أوردنا نسب خزاعة فى بنى عمرو بن عامر ماء السماء العسانى فى نسب اليمن ،
ومن قبائل طابخة بن الياس خمس : بنو مُرّ بن أدّ بن طابخة . وبنو ضبّة بن أدّ
آبن طابخة ، وبنو عمرو ، وبنو نحيس ، وبنو عبد مناة : أولاد أدّ بن طابخة .

فأما بنو مُرّ بن أدّ بن طابخة ، فمنه بنو تميم بن مرّ ، وبنو ثعلبة بن مرّ : ظاعنة
من الشُّعَيْراء ، وبنو صوفة : وهم ولد الغوث : وهو الرَّبيط بن مرّ وبكر بن مرّ من ٥
الشعيراء ، ومحارب بن مرّ ، فهم عدّة أفخاذ وقبائل . وقبائل تميم : وهم ثلاث : زيد مناة
والحارث وعمرو : أولاد تميم لصلبه . فمن قبائل زيد مناة بن تميم : نَهْشَل بن دارِم
آبن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، وبنو سَدُوس بن دارم : قبيلة .
وبنو عبد الله بن دارم : منهم عُطارد : قبيلة حاجب بن زُرارة بن عُدُس (وكلّ من عداه
بفتح الدال) آبن زيد بن عبد الله بن دارم مجوس ، وبنو أبَان بن دارم : قبيلة . وبنو ١٠
ثعلبة بن يربوع بن حنظلة : قبيلة . وبنو كليب بن يربوع : قبيلة . وبنو رياح بن
يربوع : قبيلة . وبنو غُدَانة بن يربوع : قبيلة . وبنو جارية بن سَليط بن يربوع .
وبنو البَرَاجم : وهم ظُلَيم وعمرو وقيس وغالب وكلفة : أولاد حنظلة بن مالك ؛
فهؤلاء بنو حنظلة بن مالك ؛ سموا بَرَاجم لتجمّعهم كالأصابع . ثم قبيلة الجوع :
وهم ولد ربيعة بن مالك بن زيد مناة ؛ والكُرْدُوسَان من بنى زيد مناة : معاوية وقيس ١٥
آبنا مالك بن زيد مناة بن تميم . ومن زيد مناة : بنو سعد بن زيد مناة ، منه عدّة
قبائل ، منهم قبائل الأبناء : وهم عبشمس وعُوَافة وعوف وجشم ومالك وعمرو : بنو
سعد بن زيد مناة . ومن بنى سعد بن زيد مناة : بنو الحرام : وهو من الحُدَعَة بن كعب (١٣٣)
آبن سعد ، وبنو حِمّان بن عبد العُزّى بن كعب بن سعد ، وبنو الأعرج : وهو الحارث

ابن كعب بن سعد، وبنو قُرَيْع بن عوف بن كعب بن سعد، وبنو بَهْدَلَة بن عوف
ابن كعب. وبنو زِنْبِق بن عوف بن كعب، وبنو عطارد بن عوف بن كعب قليلون.

ومن قبائل كعب بن سعد المذكور: بنو مِنْقَر بن عبيد بن مُقاعِس: وهو الحارث
ابن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم وهم المِنْقَرِيّون. ومن بنى زيد مناة:
٥ بنو امرئ القيس بن زيد مناة. له عدد ومدد. منه ثلاثة أفخاذ: بنو عُصَيَّة وبنو
مالك وبنو الحارث: أولاد امرئ القيس المذكور. ومن بنى زيد مناة. بنو عامر
الصحيح بن زيد مناة؛ فهؤلاء بنو زيد مناة بن تميم.

وأما الحارث بن تميم فمنه شَقِرة بن الحارث: قبيلة، اسمه معاوية، وسُمّى شقرة
ببيت قاله:

١٠ وقد أحمل الرمح الأصمّ كُعُوبُه * به من دماء القوم كالشقِراتِ

والشقرات: شقائق النعمان. والنعمان: الدم؛ والله أعلم.

وأما عمرو بن تميم فمنه سبعة أفخاذ، وهم بنو مالك وبنو العنبر وبنو الهُجَيْم وبنو أُسَيد
وبنو الحَبَطَة: وهو الحارث. وبنو القُلَيْب: وهو أُلَيْهَة [وزن عُلَيْبَة] وكعب: بنو عمرو
ابن تميم؛ وولى كعب هذا البيت قبل قريش.

١٥ فأما مالك بن عمرو بن تميم فمنه فخذان: مازن، منهم أَوْفَى بن مَطَر المازنىّ جلىّ
العرب، والحِرْماز: وهو الحارث بن مالك. فمن بنى مازن بن مالك بن عمرو بن
تميم: أنمار بن مازن: فخذ قليلون، ورَأْلان بن مازن: قبيلة، وحُرْقوص بن مازن،
ورزام بن مازن: قليل، وخزاعىّ بن مازن: قليل.

وأما بَلْعَنبر بن عمرو بن تميم فأعقب من ثلاثة: كعب وجندب ومالك: أولاد
٢٠ العنبر؛ وكلّ بلعنبرىّ ينسب إلى بلعنبر هذا: وهى قبيلة مشهورة.

وأما بَلْهُجَيْم بن عمرو بن تميم وهو الهُجَيْم فأعقب من خمسة : عامر وسعد وعمرو وربيعة وأنمار . ويقال لبلعنبر وبلهجيم : الخَبَطَات[1] . وكذلك أخوهما الحارث الخَبِطُ ، وهو الذى عُرِفوا بذلك من أجله ، يقال : إنه أكل خَبَطًا فسُمِّى به[2] .

وأما أُسَيْدُ بن عمرو بن تميم فأعقب من ستة لصلبه : عقَيل ونمير وجروة : قبيلة ، وعمرو والحارث . فمن بنى جروة بن أسيد بن هند بن أبى هالة : نَبَّاشُ ابن زرارة ابن وقدان بن حبيب بن سلامة بن غوىّ بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم : ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمّه خديجة بنت خويلد .

وأما الحارث الخبط بن عمرو بن تميم فمنه قبيلة سعد بن الحارث ، وهى قبيلة الخبطات ، ومشّادة بن الحارث الخبط ونضلة بن الحارث الخبط : فهؤلاء بنو تميم فى مُرّ بن أدّ بن طابخة .

وأما بنو ضبة بن أدّ فثلاث قبائل : سعد وسُعَيد وباسل . ولسعد وسعيد المثل السائر "أسعد أم سُعَيد" . أما سعيد بن ضبة فقليل عددهم . وأما سعد بن ضبة فأعقب من اثنين : ثعلبة وبكر : ابنى سعد ؛ فأما ثعلبة بن سعد ، فمن قبائلها : بنو مسعود بن دُبْلة بن نُعَيم بن قُرَامة بن كعب بن ربيعة بن ثعلبة بن سعد : قبيلة يُنسب إليها كلّ مسعودىّ ، وبنو ميذول بن عامر بن ربيعة بن كعب بن ربيعة بن ثعلبة

(١) كذا فى الاصل الكوبريلى بإعجام الخاء . والصواب بالمهملة كما فى كتب الأنساب واللغة ، أنظر القاموس واللسان فى مادة : ح ب ط .

(٢) إنه أكل خبطا فسمّى به كذا فى الأصل ، وجاء فى القاموس : أن الذين سموا بهذا الاسم هم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم جاعوا فى الطريق حتى أكلوا الخَبَط وهو الورق المضروب بالمخابط يجفف ويطحن ، فسموا بسَرِيّة الخَبَط أو جيش الخَبَط وعليه يكون اسم الحارث الحبط بالحاء المهملة .

آبن سعد: قبيلة . ومن بنى بكر بن سعد بن ضبة: صبح وبجالة: آبنا ذهل بن مالك
آبن بكر بن سعد: نخذان، وعائذة[1] بن مالك بن بكر بن سعد: نخذ، ونصر بن عبد الله
آبن بكر بن سعد: نخذ .

وأما باسل بن ضبة فإنه خرج مغاضبا لابيه فوقع بأرض الدَّيْلم فتزوج آمرأة من
الديلم، فولدت له الديلم بن باسل: جدّ القبيلة المشهورة؛ ومن رجالها فى الجاهلية:
زيد الفوارس بن حُصَين. وفى الإسلام آبن شُبْرُمَة القاضى . وأعقب من الديلم
نخذان: الأبيض بن معاوية بن الديلم، وبُجَيْر بن معاوية بن الديلم . فأعقب الأبيض
آبن معاوية من الضحاك ولار وشهريار وإيران وناشر: أولاد الأبيض بن معاوية
آبن ديلم من بهرام بن الضحاك؛ وفيروز وزربوران وبريانوس: أربعة أنخاذ. وأعقب
بَرْيانوس بن الضحاك من قابوس بن بريانوس . وأعقب قابوس من شاه مرد .
وأعقب لار بن الأبيض من كامياد بن لار . وأعقب كامياد من آبنه جور .

وأعقب بجير بن معاوية بن ديلم من باسل بن تيداذما، فأعقب تيداذما من دادوه .

فهذه النهاية فى آختصار نسب الديلم؛ والله سبحانه وتعالى أعلم .

وأمّا عمرو بن أدّ بن طابخة فهو مُزَيْنة، ومزينة أمه: وهى بنت كلب بن وَبرة
آبن ثعلب بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، وكلّ مزنىّ ينسب إلى مزينة
هذا . ومن مزينة: عثمان وأوس: ولدا عمرو؛ فمن عثمان بن عمرو بن أدّ بن طابخة
بطنان: عدا ولاطِم: آبنا عثمان . ومن مزينة: النعمان بن مقرّن وزهير بن
أبى سُلْمَى؛ وليس فى العرب سُلْمَى بالضمّ سواه، ورؤبة بن العجّاج . قال رسول الله

(١) وردت فى بعض كتب الأنساب بالدال المهملة وفى بعضها بالذال المعجمة فتنبه .

صلى الله عليه وسلم ! "أسلَم وغِفَار ومزينة وجهينة (أو قال : مَن كان من جهينة) خيرٌ من بنى تميم و بنى عامر بن صعصعة ومن الحليفين أسد وغَطَفان" .

وأما عبد مناة بن أدّ بن طابخة فمنه ثورُ أطحل بن عبـد مناة : بطن — رهط سفيان الثورى رحمه الله، (وأطحل جبل) ، وبنو الرباب : ولد تيم بن عبد مناة وعدىّ بن عبد مناة وعوف بن عبد مناة : سُمُّوا الرِّبَاب : لأنهم غمسوا أيديَهُم فى رُبّ إذ تحالفوا على بنى تميم .

قال : ومن النسّابين من يجعل الرباب بنى تيم وعدىّ وثور وعُكْل : وهم بنو عبد مناة وضبة بن أدّ .

فأما عدىّ بن عبد مناة، فإليه ينسب كلّ عدوىّ ليس من عدىّ قريش ؛ ومنهم : أبو قَتادة العدوىّ : تابعىّ ؛ وإلى عوف بن عبـد مناة ينسب كلّ عوفىّ ؛ ومنهم : عطيّة العوفى . قال : وشيخ الشرف النسابة يقول : إن عكْلاً هو عوف بن وائل ابن قيس بن عوف بن عبد مناة، وعُكْل : أَمَةٌ لأمرأةٍ من حمير يقال لهـا : بنتُ ذى اللّحْيَة، تزوّجها عوف بن وائل، فولدت له جشما وسعدا وعليّـا، ثم هلكت، فحضنتْ عُكْلُ ولدَها فغلبت عليهم ونُسبوا اليها .

وأما تيم بن عبـد مناة بن أدّ بن طابخة ففخذه : عمرو بن الحـارث بن التيم بن عبد مناة وبه العدد .

انقضت خندف فلنرجع الى عمود النسب من الياس فى آبنه :

مُدرِكة بن الياس بن مضر

وآسمه عمرو، وأمّه خندف : وهى ليلى بنت حلوان القضاعيّة ؛ و إنما سُمّى مدركة : لان أباه الياس خرج منتجعا ، ومعه أهله وماله ، فدخلتْ بين إبله أرنب ، فنفرت

الإبل . فخرج أولاد الياس ، فأدركها عمرو ، فسمّاه أبوه الياسُ : مدركة ؛ وخرجتْ ليلَى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة أمّه تهرول فقال لها الياس : مالك تخندفين؟ والخندفَةُ : الهَرْوَلة ، فسمّيت خندف ، وخرج عامر بن الياس أخو مدركة فى طلب الأرنب فاصطادها وطبخها ، فقال له أبوه الياس : أنتَ طابخة ، ورأى عَمْرا أخاهما قد انقمع فى الظلّة فهو يخرج رأسه منه ، فقال له أبوه الياس : أنت قَمَعَة . ٥

ومن مدركة غير عمود النسب : بنو هذيل بن مدركة ، ومن هذيل : بطنان لصلبه : بنو لِحيان وسعد ؛ ومن قبائل سعد بن هذيل : بنو خُنَاعة بن سعد ، وبنو صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل ؛ منهم : عبد الله بن مسعود ابن غافل بن حبيب بن شَمْخ بن قار بن مخزوم بن صاهلة الصحابىّ : أحد القرّاء رضى الله عنه . ومن شعراء هذيل : أبو ذؤيب الهذلىّ وأبو كبير وأبو المثلّم وغيرهم . (١٢٥)

وعمود النسب من مدركة فى ابنه خزيمة بن مدركة ، وأمّه سلمى بنت اسلم القضاعية ؛ ومنه غير كنانة عمود النسب قبيلتان : وهما الهون وأسد . فأما الهون ابن خزيمة ، فأعقب من عَضَل والدِّيش ابنى بليغ بن الهون ، وهم القارَة : سُمّوا قارة : لأن يَعْمَر بن عوف بن الشدّاخ أحد بنى ليث لما أراد أن يفرّقهم فى بطون كنانة ، قال رجل منهم : دعونا قارة لا تنفرونا فنجفل مثل إجفال الظليم فسمّوا قارة : ١٠ وهم رماة العرب وفيهم قيل "قد أنصفَ القارَةَ من رَامَاها" وسبب هذا المثل أن رجلين التقيا ، أحدهما من القارة ، فقال القارىّ للآخر : إن شئتَ صارعتُك ، وإن شئتَ سابقتُك ، وإن شئتَ راميتُك ، فقال خصمُه : قد اخترتُ المراماةَ ، فقال القارىّ :

قد أنصف القارة من راماها * إنا إذا ما فئـــة نلقـاها

* نرد أولاها على أخراها *

ثم انتزع له سهما فسلّ فؤاده، وقيل غير ذلك .

ومن أسَد بن خزيمة أربع عشائر : بنو كاهل وصعب وعمرو ودودان : بنى أسَد .

فمن دودان : بنو عمرو بن دودان : قبيلة : وهم وجوه بنى أسـد ؛ منهم : زينب بنت جحش بن رئاب بن يَعْمَر بن صبرة بن مرّة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة ؛ زوجت النبيّ صلى الله عليه وسلم : وهى بنت عمّته أميمة بنت عبد المطلب . وبنو سعد بن الحارث بن ثعلبة بن دودان : قبيلة ، من شعرائهم : بشر بن أبى خازم الوالبيّ الجاهليّ . وبنو قُعَيْن بن الحارث بن ثعلبة بن دودان : قبيلة ، منهم : فخذ بنى نصر بن قعين ، ومنهم بنو قفعس بن طريف بن عمرو بن قعين بن الحارث بن ثعلبة ابن دودان : قبيلة . وبنو أعيا بن طريف : قبيلة ، وبنو قيس بن طريف : قبيلة ، وبنو كعب بن عمرو بن قعين : قبيلة ، وبنو سُواءة بن سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان : فخذ ، وبنو ناشرة بن نصر بن سواءة بن سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان .

وعمود النسب من خزيمة بن مدركة فى ابنه كنانة بن خزيمة ، وأمّه عوانة بنت سعد القيسية . وبنو كنانة أوّلُ عربٍ تلتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسبه .

ومن بنى كنانة غير عمود النسب وهو النضر : خمس قبائل لصلبه : بنو عبد مناة وعمرو وعامر وملكان ومالك منهم : بنو حداد بن مالك بن كنانة : فخذ .

فأما عبـد مناة بن كنانة ، فمنهم : بنو بكر وبنو عامر وبنو مرة : بنى عبد مناة ، ومن بنى بكر بن عبد مناة : بنو الدِّئل بن بكر بن عبد مناة : رهط أبى الأسود الدؤلىّ :

وهو ظالم بن عمرو بن سفيان بن عمرو بن حلس بن نفاثة بن عدىّ بن الدئل بن بكر المذكور : وهو تلميذ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى النحو ، ويقال فى النسبة إلى هذا الفخذ : دؤلى مهموز مفتوح .

ومن بنى بكر : بنو الحارث بن بكر : فخذ، وبنو ليث بن بكر : فخذ؛ منهم : بنو حدج بن ليث بن بكر فخذ، وبنو ضَمْرة بن بكر : فخذ . منهم : بنو غِفار بن مُلَيل بن ضمرة بن بكر : رهط أبى ذرّ الغفارىّ : وهو جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل بن صُعَيْر بن حرام بن غفار، وقد آنقرض أبو ذرّ الغفارىّ رضى الله عنه .

وأما عامر بن عبد مناة بن كنانة ، فمنه : قَيْن بن عامر : قبيلة أهل الغُمَيْصاء ، قتلهم خالد بن الوليد رضى الله عنه .

وأما مرّة بن عبد مناة بن كنانة، فمنه : بنو مُدْلج بن مرّة : قبيلة سراقة بن مالك آبن جعشم وهم المدلجيّون، قالوا : وهم قافة العرب وأعلمهم بالزجر والقيافة .

وأما عمرو بن كنانة، فهم العَمْريّون . وأما عامر بن كنانة، فهم العامريّون، وأما ملكان بن كنانة فهم الملكانيّون، وأما مالك بن كنانة فمنه فى الحارث، ومن الحارث فى ثعلبة ، ومن ثعلبة فى فخذين : بنو عامر وبنو غنم . أما غنم فمنه : فِراس بن غنم : وهم الفراسيّون . ومن بنى غنم : أمّ رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتّاب بن أُذَينة بن سبيع بن دهمان بن الحارث بن غنم : وهى أمّ عائشة بنت أبى بكر الصدّيق رضى الله عنها زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم .

ومن عامر عشيرتان : بنو مُخَدَّج بن عامر بن ثعلبة المُخَدَّجيّون ، وبنو فُقَيْم بن عدىّ بن عامر النسأة . فهؤلاء أفخاذ كنانة، والله أعلم .

وعمود النسب من كنانة بن خزيمة فى آبنه النَّضْر بن كنانة، وآسمه قيس، وأمّه برّة بنت مرّ الأدّية، والنضر: الذهب؛ وكان له : يخلُد[1] بن النضر، منه : بدر بن الحارث بن يخلد الذى سُمِّيت به بدرٌ بَدْرا . قال : وليس له ولد باق .

والعقب من النضر بن كنانة فى آبنه عمود النسب وهو :

مالك بن النضر

وأمه عِكْرِشة بنت عَدْوان القيسيّة ، ولا عقب لمالك إلا من عمود النسب وهو آبنه :

فِهر بن مالك

وهو قريش ، وأمّه جَندلة بنت عامر الجرهمية ، وكلّ من لم يلده فهرٌ فليس بقرشىّ . وقد قيل فى تسميته بقريش أقوال : منها أنه آسم دابّة فى البحر، وأنه آسم للقبيلة، وأحسن ما قيل فيه : إن التقريش : التفتيش، فكان يقرش عن خَلّة كلّ ذى خَلّة فيسدّها بفضله : فمن كان محتاجا أغناه، ومن كان عاريا كساه، ومن كان طريدا آواه، ومن كان خائفا حماه، ومن كان ضالا هداه . قال الحارث بن حِلِّزة اليشكرىّ عفا الله تعالى عنه :

أيها الناطق المقرّش عنا * عند عمرو، وهل لذاك بقاء؟

وقيل : التقرّش : التجمّع، وسُمّيت قريش لتجمّعها، فإنها لما تجمّعت بمكة وجمعت خصائل الخير سُمّيت قريشا؛ وتُسَمّى أيضا الحُمْس من الحماسة؛ وذلك أنها تحمّست فى دينها فقالت : لا نطوف بالبيت عراةً، ولا تسلأ نساؤنا سَمْناً، ولا تغزل وبَرا، ولا نخرج إلى عرفات، ولا نزايل حرمنا، ولا نعظّم غيره، ولا نطوف بين الصفا والمَرْوة.

(١) كذا بالأصل ووردت فى مكان آخر منه "مخلد" .

وكانوا يقفون بالمزدلفة ومن سواهم من العرب يقال لهم : الحلّة : كانوا يطوفون بالبيت عراةً ويقولون : نكرم البيت أن نطوف فيه بثيابنا التى ٱجترحْنا فيها الآثامَ .

قال : ومن بنى فهر غير غالب عمود النسب : بنو الحارث بن فهر وبنو محارب ٱبن فهر . فمن بنى الحارث بن فهر : قيس بن الخُلُج[1] بن الحارث . ويقال : الخلج بلاد قيس، سمّوا بذلك : لأنهم نزلوا الخلج بالمدينة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام . منهم آل هَرْمة الشاعر : وهو هرمةُ بن الهذيل بن ربيع بن عامر ٱبن صبح بن عدىّ بن قيس .

ومن بنى الحارث بن فهر : أبو عبيدة أمين هذه الأمة : وهو عامر بن عبد الله ٱبن الجراح بن هلال بن أُهْيَب بن الحارث بن فهر، لا عقب له .

ومن بنى محارب بن فهر: ضِرَار بن الخطّاب بن مرداس بن كثير بن حبيب بن شيبان بن محارب بن فهر وهو القائل :

ونحن بنو الحرب العَوان نشبّها ❊ وبالحرب سُمّينا فنحن محاربُ

وعمود النسب من فهر بن مالك فى ٱبنه غالب بن فهر وأمه ليلى بنت الحارث الهذلية ، منه فخذ واحد غير عمود النسب ، وهم الأَدْرَميون : ولد تيم بن غالب ، والأدرم: الناقص الذقن،وهم قليل وقد ولدوا فى العرب ولادات . وعمود النسب من غالب بن فهر فى ٱبنه لؤى بن غالب، وأمه عاتكة بنت مَخلد الكنانية النضرية،وقيل بل هى سلمى بنت عمرو الخزاعية؛ وهو تصغير اللأْى وهو ثور الوحش مهموز، وقال أبو حنيفة : اللأْى البعرة، وقيل لؤىّ تصغير لأْيٍ وهو البطء : نقيض العجلة،

(١) وردت فى القاموس بضمتين وفى كتاب المعارف لٱبن قتيبة بتسكين اللام .

وأنشد أبو أسامة :

فدونكُمُ بنى لأيٍ أخاكم * ودونكِ مالكا يا أمّ عمرو

وقال آبن دريد : هو مشتقّ من لِوَاء الجيش وهو مهموز ، وإن كان من لِوَى الرمل فهو مقصور، قال آمرؤ القيس :

* بسَقْطِ اللِّوَى بيْن الدَّخولِ فحَوْملِ *

واللوى : آعوجاجٌ فى ظهر الفرس . قال : ومن قبائل بنى لؤى غير كعب عمود النسب : بنو عامر وبنو أسامة وبنو خزيمة : وهم عائذة قريش وسعد، وإليه ينسب بنو نُباتة بفتح النون وضمها : وهى أمّ سعد بن لؤىّ ؛ بها يعرفون، وإليها ينسبون، وقيل : نُسبوا إلى حاضنةٍ لهم آسمها نباتة من بنى القيْن بن جَسْر بن شَيْع الله ؛ ويقال : سبع الله آبن الأسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة . والحارث بن لؤىّ ، وعوف وجشم : أولاد لؤىّ .

فأما عامر بن لؤىّ ، فمنهم آبن أمّ مكتوم الأعمى الذى نزل فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ وهو مؤذّن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ؛ وآسمه عمرو بن قيس بن زائدة آبن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن مُعَيْص بن عامر بن لؤىّ ؛ ومنهم عمرو آبن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حسْل بن عامر ، الذى قتله علىّ بن أبى طالب يوم الخندق .

وأما بنو أسامة بن لؤىّ ، فيزعم من نسب بنى ناجية إلى قريش أنهم يلقون بنى لؤىّ عند أسامة بن لؤىّ ، وقد كان علىّ بن أبى طالب سباهم حين أقاموا على النصرانية ثم باعهم فيمن يريد ، فاشتراهم مَصْقَلة بن هُبيْرة الشيبانىّ بمائة ألف درهم ، فقدّم منها

ثلاثين ألفا وأعتقهم، فأنفذ علىّ عتقهم، وهرب مصقلة ببقيّة المال إلى معاوية .
وقد قيل عن علىّ إنه قال : ماأعقب عمّى سامة بن لؤىّ .

وأما خزيمة بن لؤىّ، فإليه يُنسب القوم الذين يزعمون أنهم عائذة قريش . قال:
وشيخ الشرف بن أبى جعفر النسابة يدفعهم عن النسب؛ وهم قوم تكثر بهم معاوية
٥ فأدخلهم فى قريش، وعائذة هى ٱبنة الخِمْس بن قُحافة بن خثعم، بها يُعرَفون: وهم
بنو الحارث بن مالك بن عُبَيد بن خزيمة بن لؤىّ، وعائذة أمّ الحارث هذا؛ ويقال:
الحارث بن مالك بن عوف بن حرب بن خزيمة بن لؤى، وهم بمالك خمسُ أفخاذ
من عوف : بنو جذيمة، وبنو عامر، وبنو سلامة ، وبنو معاوية :أولاد عوف،
وعائذة مع بنى مُحَلِّم بن ذهل بن شيبان ، باديتهم مع باديتهم ، وحاضرتهم مع
١٠ حاضرتهم يد واحدة .

فلنرجع إلى عمود النسب، وهو من لؤىّ بن غالب فى ٱبنه :

كعب بن لؤىّ بن غالب

وأمّه مارِيَة بنت كعب القضاعيّة . ومنه غير مُرّة عمود النسب وهما بطنان :
بنو عدىّ وبنو هُصَيْص؛ فأما بنو عدىّ، فمنهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ٱبن
١٥ نُفَيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدىّ بن كعب .
وسعيد بن زيد بن نفيل المذكور أحد العشرة . ومن بنى عدىّ : عبد الله بن مُطيع
ٱبن الأسود بن نضلة بن عوف بن عبيد بن عُوَيج بفتح العين وضمها، بن عدى بن كعب،
وهو وأبوه من الصحابة ، وهو الذى أمره أهل المدينة حين أخرجوا بنى أميّة منها
فى وقعة الحرّة .

وأما بنو هُصَيْص بن كعب فمنه فخذان : بنو جُمَح وبنو سهم : ٱبنى عمرو بن هصيص .

فأما بنو سهم : فمنهم عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص .

وأما بنو جمح ، فمنهم عثمان بن مظعون بن حُبيْب بن وهب بن حُذافة بن جمح : هاجر الهجرتين وشهد بدْرًا . ومنهم صفوان بن أميّة بن خلف بن وهب بن حذافة المذكور ، كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أبا وهب". ومنهم أبو محذورة : أوس بن مَعين ٱبن لوذان بن سعد بن جمح ، مؤذن المسجد الحرام لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويرجع إلى عمود النسب وهو كعب بن لؤى فى ٱبنه :

مرّة بن كعب

وأمه وحشيّة بنت شيبان الفهرية . ومنه غير كلاب الذى هو عمود النسب : بطنان وهما : بنو تَيْم ، منهم أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ويكنى بعتيق ، ٱبن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنيسه فى الغار بنصّ القرءان بقوله تعالى ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فشهد له القرءان بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وناهيك بذلك شرفا ، وصهره ، وخليفته صلى الله عليه وسلم ورضى عن أبى بكر وأرضاه .

ومن بنى تيم : عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم أحد العشرة ، وبنو يَقَظَة بن مرّة ، منهم : ام سلمة الصادقة : زوج النبى صلى الله عليه وسلم ،

وهى بنت أبى أميّــة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرّة ، وخالد بن الوليــد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم الملقّب بسيف الله . قال وقد ٱنقرض ولد خالد بن الوليد فلم يبق منهم أحد شرقا ولا غربا ، و إن ٱنتمى إليهم أحد فهو مبطل فى ٱنتمائه ، وكلّ من ٱدّعى إليه ، فقد كذب . قال الشريف : وكان شيخنا الفقيه مجلّى بن جميع بن نجــاء الشافعىّ قاضى مصر يدعى إليه ،وهو على ٥ كتبه بخطه وشافهنا به ولا صحّة لذلك

وعمود النسب من مرّة بن كعب فى ٱبنه :

كلاب بن مرة بن كعب

وأمّه هند بنت سُرَيْر بن حكيم . وقيل عُروة . ومنه غير قصىّ عمود النسب : ١٠ بطن واحد : وهم زهرة بن كلاب؛منهم: السّيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف، ٱبن زهرة: أمّ رسول الله صلى الله عليه وســلم، وعبد الرحمن بن عوف بن الحارث ٱبن زهرة : أحد العشرة، وسعد بن أبى وقّاص .

و يرجع عمود النسب منه فى ٱبنه قصىّ بن كلاب بن مرّة .

وأمّه فاطمة بنت سَيْل الأزديّة ، وٱسمه زيد، و يُدعَى مجمِّعا : لجمعه أمر قريش ١٥ بالرحلتين وأوّل من جمع يوم الجمعة . وقيل : إنما سُمّى قصىٌّ "مجمِّعًا" : لأنه لما أخرج خزاعة من مكة ورأى أنه من صريح ولد إسماعيل عليــه السلام، وأنه أحقّ من خزاعة بالبيت الحرام، و بَنَى دار الندوة، وجعل بابها إلى البيت الحرام، وتجمّعت قريش بمكة، فســمى بذلك "مجمِّعا"، لأنه جمعهم ولم يجعل معهم غيرهم، وكان يجمعهم فى دار الندوة .

وأما الرحلتان ، فأول من سنّهما هاشم : فكان يرحل فى الشـتاء إلى اليمن و إلى الحبشة إلى النجاشىّ فيكرمه، و يرحل فى الصيف إلى الشام إلى غزّة ، و بها وربما وصل إلى أنقرة و يدخل على قيصر فيكرمه . وقد قال ٱبن الزِّبَعْرَى :

عمرو العلا هشمَ الثريدَ لقومه * ورجالُ مكّةَ مسنتون عجافُ

سُنّت إليه الرحلتان كلاهما : * سفر الشتاء ورحلة الأصيافِ (١)

وأما أوّل من جمع يوم الجمعة فهو كعب بن لؤىّ، وكان يُسمَّى : يومَ العَروبة؛ فكان يجمعهم و يعظهم و يحثّهم على ٱتبـاع نبىّ من صلبه .

و إنما سُمّىَ قصيًّا : لأن أمّه فاطمة بنت سعد بن سيل لمـا تقصّت به مع زوجها ربيعة بن جذام القضاعىّ، فأحلها إلى بلاده من أرض عُذْرة من بلاد الشام سُمّى بذلك . قال : ومنه غير عمود النسب وهو عبد مناف بطنان : بنو أسد بن عبد العُزّى ٱبن قصىّ ، وبنو عبد الدار بن قصىّ .

فأما بنو أسد، فمنهم خديجة بنت خويلد بن أسد : زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ ومنهم : الزُّبير بن العوّام بن خويلد بن أسد أحد العشرة وحوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما بنو عبد الدار بن قصىّ ، فمنهم الحَجَبَة ، فيهم : بنو شَيْبة بن عثمان بن أبى طَلْحة عبد الله بن عبد العزّى بن عثمـان بن عبد الدار . وفى بنى عبد الدار : هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار . قال . وهى مسألة فى النسب يُمتحَن بهـا من يدّعى علم النسب : يقال له : من يعلم فى بنى قصىّ جدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هاشم بن عبد مناف غير هاشم بن عبد مناف بن قصىّ ؟

نرجع إلى عمود النسب من قصىّ بن كلاب فى ٱبنه :

(١) يلاحظ القارئ أن قافيتى البيتين غير متجانستين والعرب يفعلون ذلك فى أشعارهم ، ويسمى "الإقواء" وهو ٱختلاف إعراب القوافى .

عبد مناف بن قصىّ

(١٤٩) وأمه حُبَّى بنت حُلَيل الخزاعيّة ، وآسمه المغيرة والقمر . ومنـه غير هاشم عمود النسب ثلاث بطون : بنو المطّلب : وهو العِيص ، وبنو عبد شمس وبنو نوفل : أولاد عبد مناف . فمن بنى عبد شمس : أميّة الأصغر ، يقال لولده : العَبَلَات : لأن أم أمية هذا عَبْلَة بنت عبيد من البراجم بن تميم ، وبنو أميّة الأكبر بن عبد شمس ، منهم : ذو النورين : عثمان بن عفّان بن العاص بن أميّة بن عبد شمس أحد العشرة وزوج آبنتى النبىّ صلى الله عليه وسلم ورضى عنه . ومن بنى عبد شمس : أبو العـاص بن الربيع بن عبد العزّى بن عبد شمس زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يُثنى عليه فى صهارته خيرا . ومن بنى عبد المطّلب بن عبد مناف : رهطُ بن عبيدة بن الحارث بن عبد المطّلب البدرىّ ، آنقرض ، وشافع آبن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطّلب جدّ الشافعىّ رضى الله عنه : وهو محمد بن إدريس بن العبّاس بن عثمان بن شافع . ومن بنى نوفل : جُبَيْر بن مُطعِم آبن عدىّ بن نوفل ، وكان ممّن قام فى أمر الصحيفة ، وكان رسول الله صـلى الله عليه وسلم يشكر له ذلك ، وهم يدٌ مع بنى أميّة .

وعمود النسب من عبد مناف فى آبنه هاشم بن عبـد مناف ، وأمّه عاتكة بنت مُرّة السلميّة ، وآسمه عمرو العُلَا ، وسُمّى هاشما لكرمه وهشمه الثريدَ فى الجدبِ مبتدئا بذلك ، آنقرض جميع ولده من الذكور إلا عمود النسب عبد المطّلب ، وكان له أسد آبن هاشم ، منه : فاطمة بنت أسد أمّ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ وهى أوّل هاشميّة تزوّجت هاشميّا فولدت له ؛ وآنقرض أسد إلا منها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هى أمّى بعد أمّى . والعقب من هاشم فى آبنه :

عبد المطّلب بن هاشم

وأمه سَلْمى بنت زيد النجّارية : وهو شَيْبة الحمد ، أعقب من غير عبد الله عمود النسب من بنى أبى طالب عبد منـاف بن عبد المطّلب والعبـاس بن عبد المطّلب والحارث بن عبد المطّلب وأبا لهب بن عبد المطّلب وهو عبد العزّى .

فأما بنو أبى طالب فهم ثلاث بطون : بنو علىّ بن أبى طالب بن عبد المطّلب : وهم العلويّون ، وبنو جعفر الطيّار : وهم الجعفريّون ، وبنو عَقِيل بن أبى طالب : وهم العَقيليّون .

فالعلويّون خمس أفخاذ : بنو الحسن بن علىّ ، وبنو الحسين بن علىّ ، وبنو محمّد ابن الحنفيّة : وهم المحمّديون ، وبنو العباس السقّاء بن علىّ : سمّى بذلك لأنه كان قد سقى أخاه الحسينَ المـاءَ بالقربة فى الطَّفّ ، وبنو عمر الأطراف بن علىّ . وفى كلّ فخذ منهم عدّة عشائر .

وأما الجعفريّون فثلاث أفخـاذ : بنو علىّ بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وهم الزينبيّون ، لأن أمّ علىّ هـذا زينبُ بنت فاطمة ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت علىّ رضى الله عنه ، وبنو إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وبنو إسحـاق العِرْضِىّ بن عبـد الله بن جعفر بن أبى طالب . والعِرضُ : موضع بالمدينة . وفى كلّ فخذ عدّة عشائر .

وأما العَقيليّون ، ففخذان : بنو محمّد ومسلم : ابنى عبد الله الأحول بن محمد بن عقيل بن أبى طالب : فهؤلاء بطون بنى طالب .

وأما العباسيّون ، فبطنان : بنو عبد الله الحَبْر ومَعْبَد : ابنى العبّاس بن عبد المطلب ،

فأما عبدالله، فمنه ثمانى أفخاذ: بنو عبدالله وآنقرض، وبنو عيسى، وبنو عبدالصمد، وبنو داود، وبنو إسماعيل، وبنو صالح: صاحب الشام، وبنو سليمان: صاحب البصرة، وبنو محمد الكامل: جدّ الخلفاء أولاد علىّ السجّاد بن عبد الله بن العبّاس.

وأما مَعْبد، فمنه فخذانَ: بنو داود ومحمد: آبنى ابراهيم بن عبد الله بن معبد بن العبّاس: فهؤلاء بنو العباس بن عبد المطّلب.

وأما الحارث بن عبد المطّلب، فمنه ثلاث أفخاذ: وهم الحارثيّون: بنو ربيعة، وبنو نوفل، وبنو أبى سفيان: أولاد الحارث بن عبد المطلب: فهؤلاء بنو الحارث.

وأما أبولهب عبد العزّى، فمنه فخذان: بنو عُتْبة وبنو مُعتّب: ولدىْ أبى لهب.

وعمود النسب الشريف فى عبدالله بن عبدالمطّلب، وأمّه آمنة بنت عمرو المخزوميّة، ولا عقب لعبدالله بن عبد المطّلب إلّا من سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محمد النبيّ العربيّ، آبن عبد الله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ آبن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤىّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر (وآسمه قيس) آبن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان آبن أدّ بن أدد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم آبن تارح: وهو آزر بن ناحور آبن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر: وهو هود النبيّ عليه السلام؛ وهو جماع قيس ويمن ونزار وخندف بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام آبن لَمَك بن مَتُوشَلَخ(1) بن أخنوخ: وهو إدريس النبىّ عليه السلام آبن يَارَدَ بن مَهْلَائِيلَ(2)

(١) فى التوراة: مَتُوشَالَحَ.

(٢) فى التوراة: مَهْلَلْئِيل.

(*).

آبن قَيْنان بن أَنُوش بن هبة الله شيث بن أبى البشر آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر أنبياء الله تعالى أجمعين .

نسبٌ كأنّ عليه من شمس الضحى * نورًا ومِنْ فلَق الصباح عَمودا

وروى عن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لمـا خلق الله تعالى آدم، أهبطنى فى صلبه إلى الأرض، وحملنى فى صلب نوح فى السفينة، وقذف بى فى النّار فى صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلنى من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، حتى أخرجنى من بين أبوين لم يلتقيا على سِفاح قطّ".

والى هذا أشار العبّاس بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه بقوله حيث يقول :

مِنْ قبلِها طِبتَ فى الجِنانِ، وفى * مستودَعٍ، حيث يُخصفُ الورقُ

ثم هبطتَ البـلادَ، لا بَشَـرٌ * أنتَ، ولا مُضْـغةٌ، ولا عَلَق

بل نطفةٌ، تركبُ السفينَ وقد * ألجم نسـرًا وأهـلَه، الغَرَقُ

تُنْقَـلُ مِن صالَبٍ إلى رحِمٍ * إذا مضَى عالَمٌ، بـدا طَبَـقُ

اللّهم صلّ على أسعد الخلق سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه وسلم أفضـلَ صـلواتِك وسلامك عددَ خَلْقك، وأَجْرِ لطفَك فى أمورنا فى الدنيا والآخرة، حسبُنا الله ونعم الوكيل!

كمل الجـزء الثـانى

من كتاب نهـاية الأرب فى فنون الأدب،

يتلوه إن شاء الله تعالى فى أوّل الجزء الثالث : "القسم الثانى من الفن الثانى فى الأمثال"

وحسبنا الله ونعم الوكيل

وصلّى الله وسلّم على أشرف الخلق أجمعين

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر - ٩٠١١٨

القاهرة


Bibliotheca Alexandrina
03813352